الكِفايـة

في التَّفسيرِ بِالمأْثورِ والدِّرايـة

تأليف الفقير إلى رحمة ربه
عبدالله خضر حمد
باحث عراقي

الجزء الواحد والعشرون

[سورة الحجر، الآية: ١٦]- [سورة النحل ، الآية: ١٠٠]

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

الرقم الدولي(ISBN):٥-٧١٥-٧٢-٩٩٥٣
الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
الناشر: دار القلم- بيروت – لبنان

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكتروني الآتي، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

Abdulla.khdhir@gmail.com
Abdulla. khdhir@hotmail.com

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

القرآن

{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦)} [الحجر : ١٦]

التفسير:

ومن أدلة قدرتنا: أنا جعلنا في السماء الدنيا منازل للكواكب تنزل فيها، ويستدل بذلك على الطرقات والأوقات والخِصْب والجَدْب، وزَيَّنَّا هذه السماء بالنجوم لمن ينظرون إليها، ويتأملون فيعتبرون.

قوله تعالى:{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا} [الحجر : ١٦]، أي:" ومن أدلة قدرتنا: أنا جعلنا في السماء الدنيا منازل للكواكب تنزل فيها، ويستدل بذلك على الطرقات والأوقات والخِصْب والجَدْب"[١].

قال السعدي:" أي: نجوما كالأبراج والأعلام العظام يهتدى بها في ظلمات البر والبحر"[٢].

عن قتادة :"{ولقد جعلنا في السماء بروجا}، قال: الكواكب"[٣].

عن أبي صالح قوله: "{ولقد جعلنا في السماء بروجا}، قال: الكواكب العظام"[٤].

وعن عطية:"{ولقد جعلنا في السماء بروجا}، قال: قصورا في السماء فيها الحرس"[٥].

قوله تعالى:{وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} [الحجر : ١٦]، أي:" وزَيَّنَّا هذه السماء بالنجوم لمن ينظرون إليها، ويتأملون فيعتبرون"[٦].

قال ابن كثير:" يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زَيَّنَها به من الكواكب الثواقب ، لمن تأملها ، وكرر النظر فيها ، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات ، ما يحار نظره فيه"[٧].

قال السعدي:" فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها والنظر في معانيها والاستدلال بها على باريها"[٨].

القرآن

{وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧)} [الحجر : ١٧]

التفسير:

وحفظنا السماء من كل شيطان مرجوم مطرود من رحمة الله؛ كي لا يصل إليها.

قال أبو الليث السمرقندي:" يعني: السماء من كل شيطان {رجيم}، أي: مرجوم، ويقال: ملعون مبعد من الرحمة "[٩].

قال ابن قتيبة:" يقول: حفظناها من أن يصل إليها شيطان، أو يعلم من أمرها شيئا"[١٠].

قال السعدي:" إذا استرق السمع أتبعته الشهب الثواقب فبقيت السماء ظاهرها مجملا بالنجوم النيرات وباطنها محروسا ممنوعا من الآفات"[١١].

قال قتادة:" «الرجيم»، الملعون"[١]. وروي عن ابن جريج مثله[٢].

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٢.
(٢) تفسير السعدي:٤٣٠.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٤٥):ص٢٢٥٩/٧.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٤٦):ص٢٢٥٩/٧.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٤٧):ص٢٢٥٩/٧.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٢.
(٧) تفسير ابن كثير:٥٢٩/٤.
(٨) تفسير السعدي:٤٣٠.
(٩) بحر العلوم:٢٥٢/٢.
(١٠) غريب القرآن:٢٣٦.
(١١) تفسير السعدي:٤٣٠.

قال ابن أبي زمنين:{ رجيم}: " ملعون رجمه الله باللعنة؛ في تفسير الحسن"[3].
وقال القاسم عن الكسائي: إنه قال: "«الرجم» في جميع القرآن: الشتم"[4].
قال السمعاني:" ذكر الكلبي أن السموات لم تكن محفوظة من الشياطين قبل عيسى، فلما بعث عيسى - عليه السلام - حفظت ثلاثة من السموات، فلما بعث محمد حفظت السموات كلها"[5].
فوائد الآيتين:[١٦-١٧]:
الفوائد:

١- أن النجوم كلها في السماء الدنيا، وقد روي العباس بن عبد المطلب قال: "قال رسول الله ﷺ: "هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة وبين السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم"[6].
وإذا كانت الكواكب زينة للسماء الدنيا فبعدها عن الأرض لا يزيد على خمسمائة سنة. فما زعموه من البعد المفرط في بعض الكواكب مردود. والله أعلم.
٢- بيان مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته فيما حملت الآيات من مظاهر لذلك، بدءا من قوله: {ولقد جعلنا في السماء بروجا} إلى الآية السابعة والعشرين من هذا السياق الكريم.
٣- من الإشارات اللطيفة التي ذكرها القشيري في هذه الآية: قال القشيري:" وكما أنّ نجوم السماء زينة للناظرين إذا لاحظوها فقلوب العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماء لهى زينة"[7].

القرآن
{إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨)} [الحجر : ١٨]
التفسير:
إلا من اختلس السمع مِن كلام أهل الملأ الأعلى في بعض الأوقات، فأدركه ولحقه كوكب مضيء يحرقه.
قوله تعالى:{إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ} [الحجر : ١٨]، أي:" إلا من اختلس السمع مِن كلام أهل الملأ الأعلى في بعض الأوقات"[8].
قال ابن قتيبة:أي:" إلا استراقا"[9].
قال البغوي:" لكن من استرق السمع"[10].
قال الطبري:" يقول لكن قد يسترق من الشياطين السمع مما يحدث في السماء بعضها"[11].
قال أبو الليث السمرقندي:" أي: لكن من اختلس السمع خلسة"[12].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٤٧):ص٢٢٥٩/٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٧٨/١٧-٧٩.
(٣) تفسير ابن ابي زمنين:٣٨٢/٢.
(٤) أخرجه الطبري:٧٩/١٧.
(٥) تفسير السمعاني:١٣٢/٣.
(٦)أخرجه أبو داود (٢٧٢٣) والترمذي (٣٣٢٠) وابن ماجه (١٩٣) من طريق سماك بن حرب عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس .
(٧) لطائف الإشارات:٢٦٥/٢.
(٨) التفسير الميسر:٢٢٥٩/٧.
(٩) غريب القرآن:٢٣٦.
(١٠)تفسير البغوي:٣٧٢/٤ .
(١١) تفسير الطبري:٧٧/١٧.
(١٢) بحر العلوم:٢٥٢/٢.

قال السعدي:" أي: في بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس"[١].

قال ابن أبي زمنين:" فإنها لم تحفظ منه إن تسمع الخبر من أخبار السماء، ولا تسمع من الوحي شيئا"[٢].

عن ابن عباس، قوله: "{إلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعِ}، فأراد إن يخطف السمع كقوله: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ}[٣]"[٤].

عن الضحاك رضي الله عنه في قوله: "{إلا من استرق السمع}، قال: هو كقوله: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ}[٥]"[٦].

قال السمعاني:" في الأخبار: أن الشياطين يركب بعضهم بعضا إلى السماء الدنيا، ويسترقون السمع من الملائكة؛ فترجمهم الكواكب فتقتل البعض وتخبل البعض ". واختلف القول في أنهم متى يسترقون السمع؟ فأحد القولين: أنهم يسترقون السمع من الملائكة في السماء، والقول الآخر: أنهم يسترقون السمع من الملائكة في الهواء. وأما معرفة ملائكة السماء بالأمر فباستخبارهم ملائكة أهل السماء الثانية، هكذا يستخبر أهل كل سماء من أهل السماء [التي] فوقهم، حتى يصلوا إلى حملة العرش فيخبرون بما قضاه الله تعالى من الأمر، ويرجع الخبر من سماء إلى سماء حتى يصل إلى السماء الدنيا، ثم الشياطين يسترقون على ما قلنا من قبل"[٧].

قوله تعالى:{فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} [الحجر : ١٨]، أي:" فأدركه ولحقه كوكب مضيء يحرقه"[٨].

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: لحقه نجم حار متوهج متوقد، لا يخطئه الشهاب أن يصيبه. فإما أن يأتي على نفسه، وإما أن يخبله، حتى لا يعود إلى الاستماع إلى السماء"[٩].

قال ابن قتيبة:" ، ثم يتبعه {شهاب مبين} أي كوكب مضيء"[١٠].

قال الطبري:" فيتبعه شهاب من النار مبين، يبين أثره فيه، إما بإخباله وإفساده، أو بإحراقه"[١١].

قال أبو عبيدة:" يقول: لا يخطئه، إما قتله وإما خبله"[١٢].

قال الضحاك:" فأتبعه شهاب ثاقب [مبين]"[١٣].

قال ابن أبي زمنين:"{ مبين} مضيء"[١٤].

قال السعدي:" أي: بين منير يقتله أو يخبله. فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه فينقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب فيضمها ويكذب معها مائة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء"[١٥].

---

(١) تفسير السعدي:٤٣٠.
(٢) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٢/٢.
(٣)[الصافات : ١٠].
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٤٨):ص٢٢٥٩/٧.
(٥)[الصافات : ١٠].
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٤٩):ص٢٢٥٩/٧.
(٧) تفسير السمعاني:١٣٢/٣-١٣٣.
(٨) التفسير الميسر:٢٢٥٩/٧.
(٩) بحر العلوم:٢٥٣/٢.
(١٠) غريب القرآن:٢٣٦.
(١١) تفسير الطبري:٧٧/١٧.
(١٢) مجاز القرآن:٨٦/٢.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٤٩):ص٢٢٥٩/٧.
(١٤) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٢/٢.
(١٥) تفسير السعدي:٤٣٠.

قال البغوي:" «الشهاب»: الشعلة من النار. وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضا إلى السماء الدنيا، ويسترقون السمع من الملائكة، فيرمون بالكواكب فلا تخطئ أبدا، فمنهم من تقتله، ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله، ومنهم من تخبله فيصير غولا يضل الناس في البوادي... واعلم أن هذا لم يكن ظاهرا قبل مبعث النبي ﷺ ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي ﷺ، وإنما ظهر في بدء أمره وكان ذلك أساسا لنبوته عليه السلام"[١].

قال السمعاني:" «الشهاب» هو الشعلة من النار، فإن قال قائل: نحن لا نرى نارا، وإنما نرى نورا أو نجما ينقض.

والجواب: أنه يحتمل أنه ينقض نورا، فإذا وصل إليه صار نارا، أو يحتمل أنه يرى من بعد المكان أنه نجم وهو نار، وقيل: إن النجم ينقض فيرمي الشيطان ثم يعود إلى مكانه. واعلم أن هذا لم يكن ظاهرا في زمن الأنبياء قبل الرسول، ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي، وإنما روي هذا في ابتداء أمر النبي، وكان ذلك أساسا لنبوته، وإنما ذكر الشعراء ذلك في زمانه، قال الشاعر[٢]:

كأنه كوكب في إثر عفرية ... مسوم في سواد الليل منقضب"[٣].

قال ابن عباس:" إن الشهب لا تقتل، ولكن تحرق وتخبل وتجرح من غير أن تقتل"[٤].

قال ابن كثير:" وجعل الشُهب حرسًا لها من مَرَدة الشياطين ، لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى ، فمن تمرد منهم وتقدم لاستراق السمع ، جاءه { شِهَابٌ مُبِينٌ } فأتلفه ، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه ، فيأخذها الآخر ، ويأتي بها إلى وليه ، كما جاء مصرحا به في الصحيح ، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان عن عمرو ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة ، يبلُغُ به النبي ﷺ ، قال : «إذا قضى الله الأمر في السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله كأنه سلسلة على صَفوان". قال علي ، وقال غيره : صفوان يَنفُذهم ذلك ، فإذا فُزّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الذي قال : الحق ، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع ، هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده فَفَرَّج بين أصابع يده اليمنى ، نَصبَها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يَرْمي بها إلى صاحبه فيحرقَه ، وربما لم يدركه حتى يَرْمي بها إلى الذي يليه ، إلى الذي هو أسفل منه ، حتى يلقوها إلى الأرض - وربما قال سفيان : حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر - أو : الكاهن - فيكذب معها مائة كذبة فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا ، فوجدناه حقًّا ؟ للكلمة التي سمعت من السماء»[٥]"[٦].

عن ابي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض -ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه -فيسمع أحدهم الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء"[٧].

---

(١)تفسير البغوي:٣٧٢/٤ -٣٧٣.

(٢) الشعر لذي الرمة في ديوانه ص ٢٧ والكامل للمبرد ص ٤٩٣ والأمالي للقالى ٣/ ٦٥ واللسان (قضب) والقرطبي ٢٠٣/١٣.

(٣)تفسير السمعاني:١٣٣/٣ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٤٩):ص٢٢٥٩/٧.

(٥)صحيح البخاري برقم (٤٧٠١).

(٦) تفسير ابن كثير:٥٢٨/٤-٥٢٩.

(٧)أخرجه البغوي في التفسير:٣٧٢/٤-٣٧٣، وأخرجه البخاري في التفسير، باب: "حتى إذا فزع عن قلوبهم

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سمعت النبي ﷺ يقول: "إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب، فتذكر الأمر الذي قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم"[١].

قال ابن عباس:" تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع، قال: فينفرد المارد منها فيعلو، فيرمى بالشهاب، فيصيب جبهته أو جنبه، أو حيث شاء الله منه، فيلتهب فيأتي أصحابه وهو يلتهب، فيقول: إنه كان من الأمر كذا وكذا، قال: فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة، فيزيدون عليه أضعافه من الكذب، فيخبرونهم به، فإذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان صدّقوهم بما جاءوهم به من الكذب"[٢].

قال ابن عباس:" أخبرني رجل من أصحاب النبي -ﷺ- من الأنصار: أنهم بينا هم جلوس ليلة مع رسول الله -ﷺ- رمي بنجم واستنار، فقال لهم رسول الله - ﷺ-: ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله - ﷺ-: فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا - تبارك اسمه - إذا قضى أمرا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ما قال: فيستخبر بعض أهل السماوات بعضا، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فيخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون» .

وفي رواية: «رجال من أصحاب رسول الله - ﷺ-» وزاد «وقال الله: {حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق} [سبأ: ٢٣] . أخرجه مسلم والترمذي. و [للترمذي] في أخرى: أن ابن عباس قال: بينما [ص:٦٣] رسول الله - ﷺ- جالس ... وذكر الحديث» ولم يذكر فيه «عن رجل من الأنصار»[٣].

قال الزجاج:" والشهب الكواكب المنقضة من آيات الله للنبي عليه السلام، والدليل على

قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، وهو العلي الكبير" ٨ / ٥٣٧، وفي باب "إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين" ٨ / ٣٨٠.

(١) أخرجه البغوي في التفسير:٣٧٣/٤، وأخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة: ٦ / ٣٠٤، وفي مواضع أخرى.

(٢) أخرجه الطبري:٧٨/١٧.

(٣)صحيح، رواه مسلم رقم (٢٢٢٩) في السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، والترمذي رقم (٣٢٢٢) في التفسير، باب ومن سورة سبأ.

أخرجه أحمد (٢١٨/١) (١٨٨٢) قال: حدثنا محمد بن جعفر، (ح) وعبد الرزاق، وعبد بن حميد (٦٨٣) قال: أخبرنا عبد الرزاق، والترمذي (٣٢٢٤) قال: حدثنا نصر بن علي الجهضمي، قال حدثنا عبد الأعلى.

ثلاثتهم - محمد بن جعفر، وعبد الرزاق، وعبد الأعلى - عن معمر، قال: أخبرنا الزهري، عن علي بن حسين، فذكره.

* أخرجه أحمد (٢١٨/١) (١٨٨٣) قال: حدثنا محمد بن مصعب، قال: حدثنا الأوزاعي، والبخاري في خلق أفعال العباد صفحة (٦٠) قال: حدثنا عمرو بن زرارة، قال: حدثنا زياد، عن محمد بن الحسن، ومسلم (٣٧/٧) قال: حدثنا أبو الطاهر، وحرملة، قالا: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس، ثلاثتهم -الأوزاعي، ومحمد بن الحسن، ويونس - عن محمد بن مسلم بن عبيد ؟الله بن شهاب الزهري، عن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب، عن عبد الله بن عباس، قال: حدثني رجال من الأنصار من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذكره.

* أخرجه مسلم (٣٦/٧) قال: حدثنا حسن بن علي الحلواني، وعبد بن حميد، قال حسن: حدثنا يعقوب، وقال عبد: حدثني يعقوب بن إبراهيم بن سعد، قال: حدثنا أبي، عن صالح، وفي (٣٧/٧) قال: حدثنا زهير بن حرب، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: حدثنا أبو عمرو الأوزاعي، (ح) وحدثني سلمة بن شبيب، قال: حدثنا الحسن بن أعين، قال: حدثنا معقل يعني ابن عبيد الله.

ثلاثتهم - صالح، وأبو عمرو الأوزاعي، ومعقل- عن الزهري، قال: حدثني علي بن حسين، أن عبد الله بن عباس، قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأنصار، فذكره.

أنها كانت انقضت بعد مولد النبي - ﷺ - أن شعراء العرب الذين كانوا يمثلون في السرعة بالبرق وبالسيل وبالأشياء المسرعة لم يوجد في أشعارها بيت واحد فيه ذكر «الكواكب المنقضة»، فلما حدثت بعد مولد النبي -عليه السلام- استعملت الشعراء ذكرها قال ذو الرمة[(١)]:

كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ في إِثْرِ عِفْرِيَةٍ ... مسَوَّمٍ في سوادِ الليلِ مُنْقَضِبُ"[(٢)].

قال ابن عطية:" وفي الأحاديث ما يدل على أن الرجم كان في الجاهلية، ولكنه اشتد في وقت الإسلام، وحفظ السماء حفظا تاما"[(٣)].

وعن نافع بن جبير ومحمد بن كعب: "أمسكت في أيام الفترة، فلما بُعِث نبيّنا عاد الأمر كهيئته"[(٤)].

قال وهب بن منبه: "إن لجبرئيل -عليه السلام- بين يدي الله سبحانه مقاما ليس لأحد من الملائكة في القربة والفضيلة، وإن جبرئيل هو الذي يتلقى الكلام، فإذا ذكر الله عبدا بخير تلقاه جبرئيل ثم لقاه ميكائيل وحوله الملائكة المقربون حافين من حول العرش، فإذا شاع ذلك في الملائكة المقربين صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات، فإذا صلت عليه ملائكة السموات هبطت عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض، وكان إبليس لعنه الله لا يحجب عن شيء من السموات، وكان يقف فيهن حيث ما أراد، ومن هنالك وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنة، فلم يزل على ذلك يصعد في السموات حتى رفع الله سبحانه عيسى ابن مريم فحجب من أربع، وكان يصعد في ثلاث، فلما بعث الله تعالى محمدا -عليه السلام- حجب من الثلاث الباقية، فهو وجنوده محجوبون من جميع السموات إلى يوم القيامة {إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين}.

قال: فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله سبحانه وأثنى عليه، فأدركه البغي والحسد وصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان يقفه فقال: يا إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته أنعمت عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ثم لم تجربه بشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم، لئن ضربته بالبلاء ليكفرن بك ولينسينك، فقال الله سبحانه وتعالى له: انطلق فقد سلطتك على ماله، فانقض عدو الله حتى وقع إلى الأرض ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم وقال لهم: ماذا عندكم من القوة والمعرفة؟ فإني قد سلطت على مال أيوب، وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال.

قال عفريت من الشياطين: أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصارا من النار وأحرقت كل شيء آتي عليه، قال له إبليس: فات الإبل ورعاها فانطلق يؤم الإبل وذلك حين وضعت رؤوسها ويثبتفي مراعيها، فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار ينفخ منها أرواح السموم، لا يدنو منها أحد إلا احترق، فلم يزل يحرقها ورعاها حتى أتى على آخرها، فلما فرغ منها تمثل إبليس على قعود منها يراعيها ثم انطلق يؤم أيوب حتى وجده قائما يصلي فقال: يا أيوب، قال: لبيك، قال: هل تدري ما الذي صنع ربك الذي اخترته وعبدته بإبلك ورعائها؟ قال أيوب: انها ماله أعارنيه وهو أولى به إذا شاء نزعه، وقديما وطنت مالي ونفسي على الفناء.

قال إبليس: فإن ربك أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت ورعاؤها كلها، فتركت الناس مبهوتين وقفا عليها يتعجبون منها، منهم من يقول: ما كان أيوب يعبد شيئا وما كان إلا في غرور، ومنهم من قال: لو كان إله أيوب يقدر على أن يصنع شيئا لمنع وليه، ومنهم من يقول: بل هو الذي فعل ما فعل ليشمت به عدوه ويفجع به صديقه.

قال أيوب: الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني، عريانا خرجت من بطن أمي، وعريانا أعود في التراب، وعريانا أحشر إلى الله سبحانه، ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعارك

---

(١)ديوانه ص ٢٧ والكامل للمبرد ص ٤٩٣ والأمالي للقالي ٣/ ٦٥ واللسان (قضب) والقرطبي ١٣/ ٢٠٣.

(٢) معاني القرآن:١٧٦/٣.

(٣)المحرر الوجيز: ٨ / ٢٩٢.

(٤)ذكره عبدالقاهر الجرجاني في درج الدرر:١٠٥٠/٣، وذكره القرطبي (١٩/ ١٤) عن نافع بن جبير وأبيّ بن كعب، كما أورده الشوكاني في "فتح القدير" (٥/ ٤٣٨) عن نافع.

وتجزع حين قبض عاريته، الله أولى بك وبما أعطاك، ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لتقبل روحك مع تلك الأرواح فآجر لي فيك وصرت شهيدا، ولكنه علم منك شرا فاخرك، وخلصك من البلاء كما يخلص الزوان من القمح الخالص.

فرجع إبليس لعنه الله إلى أصحابه خاسئا ذليلا فقال: ماذا عندكم من القوة فإني لم أكلم قلبه، قال عفريت من عظمائهم: عندي من القوة اما إذا شئت صحت صوتا لا يسمعه ذو روح إلا خرجت مهجة نفسه، قال له إبليس: فأت الغنم ورعاها فانطلق يأتي الغنم ورعاها حتى إذا توسطها صاح صوتا جثمت أمواتا من عند آخرها، ومات رعاؤها، ثم خرج إبليس متمثلا بقهرمان الرعاء حتى إذا جاء أيوب وهو قائم يصلي، فقال له القول الأول ورد عليه أيوب الرد الأول.

ثم إن إبليس رجع إلى أصحابه فقال لهم: ماذا عندكم من القوة فإني لم أكلم قلب أيوب، فقال عفريت من عظمائهم: عندي من القوة ما إذا شئت تحولت ريحا عاصفا تنسف كل شيء تأتي عليه حتى لا أبقي شيئا، قال له إبليس: فأت الفدادين والحرث، فانطلق يؤمهم وذلك حين قرنوا الفدادين وأنسؤوا في الحرث، وأولادها رتوع، فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنسفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن، ثم خرج إبليس متمثلا بقهرمان الحرث حتى جاء أيوب وهو قائم يصلي فقال له مثل قوله الأول ورد عليه أيوب مثل رده الأول، فجعل إبليس يصيب ماله مالا مالا حتى مر على آخره، كلما انتهى إليه هلاك مال من أمواله حمد الله وأحسن عليه الثناء ورضي بالقضاء ووطن نفسه للصبر على البلاء حتى لم يبق له مال.

فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينجح منه بشيء صعد سريعا حتى وقف الموقف الذي كان يقفه فقال: إلهي إن أيوب يرى أنك ما متعته بنفسه وولده فأنت معطيه المال، فهل أنت مسلطي على ولده فإنها الفتنة المضلة والمصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم قال الله سبحانه: انطلق فقد سلطتك على ولده، فانقض عدو الله حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم حتى تداعى من قواعده، ثم جعل يناطح جدره بعضها ببعض ويرميهم بالخشب والجندل حتى إذا مثل بهم كل مثلة رفع بهم القصر وقلبه فصاروا منكسين، وانطلق إلى أيوب متمثلا بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه ودماغه، فأخبره بذلك وقال: يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف قلبوا فكانوا منكسين على رؤوسهم، تسيل دماؤهم ودماغهم من أنوفهم وأشفارهم وأجوافهم، ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لقطع قلبك، فلم يزل يقول هذا ونحوه ويرققه حتى رق أيوب فبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه، فاغتنم إبليس ذلك فصعد سريعا بالذي كان من جزع أيوب مسرورا به، ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر، فاستغفر وصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته، فبدروا إبليس إلى الله سبحانه وهو أعلم، فوقف إبليس خازيا ذليلا فقال: يا إلهي إنما هون على أيوب خطر المال والولد إنه يرى أنك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد، فهل أنت مسلطي على جسده، فأنى لك زعم لئن ابتليته في جسده لينسينك وليكفرن بك وليجحدنك نعمتك.

فقال الله سبحانه: انطلق فقد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله، وكان الله تعالى هو أعلم به، لم سلطه عليه إلا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به في الصبر ورجاء الثواب.

وانقض عدو الله إبليس سريعا فوجد أيوب ساجدا فعجل قبل أن يرفع رأسه «١» فأتاه من قبل الأرض في موضع وجهه فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده فذهل وخرج به من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم وقعت فيه حكة لا يملكها، فحك بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل حكها حتى نفل لحمه وتقطع وتغير وأنتن.

فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته، وهي رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب، وكانت تختلف إليه بما يصلحه ويلزمه،

فلما رأى الثلاثة من أصحابه وهم: اليفر ويلدد وصافر ما ابتلاه الله سبحانه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه وهو في بلائه فبكتوه ولاموه وقالوا له: تب إلى الله سبحانه من الذنب الذي عوقبت به، قال: وحضر معهم فتى حديث السن وكان قد آمن به وصدقه فقال لهم: إنكم تكلمتم أيها الكهول وكنتم أحق بالكلام لأسنانكم[١]، ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم، وقد كان لا يؤت عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم، ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم؟ ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وخيرته وصفوته من أهل الأرض يومكم هذا، ثم لم تعلموا أو لم يطلعكم الله على أنه قد سخط شيئا من أمره منذ أتاه ما أتاه إلى يومكم هذا، ولا على أنه نزع منه شيئا من الكرامة التي أكرمه بها، ولا أن أيوب غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا، وإن كان البلاء هو الذي أزري به عندكم ووضعه في أنفسكم، فقد علمتم أن الله سبحانه يبتلي النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ثم ليس بلاؤه لأولئك بدليل على سخطه عليهم، ولا هو انه لهم، ولكنها كرامة وخيرة لهم، ولو كان أيوب ليس من الله تعالى بهذه المنزلة إلا أنه أخ اجتبيتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحليم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم، وهو مكروب جرين، ولكنه يرحمه ويبكي معه ويستغفر له ويحزن بحزنه ويدله على مراشد أمره، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا، فالله الله أيها الكهول وقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم.

ألم تعلموا أن لله عبادا أسكتتهم خشية من غير عي ولا بكم، وأنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الأولياء العالمون بالله وبأيامه، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم، وانكسرت قلوبهم، وطاشت عقولهم إعظاما لله وإعزازا وإجلالا، فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية، يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين، وإنهم لأنزاه برآء، ويعدون أنفسهم مع المقصرين المفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء، ولكنهم لا يستكثرون لله الكثير ولا يرضون لله بالقليل، ولا يدلون عليه بالأعمال فهم مروعون مفزعون خاشعون مستكينون.

فقال أيوب: إن الله سبحانه يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير فمتى ثبتت في القلب يظهرها الله على اللسان، وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة، ولئن جعل الله تعالى العبد حكيما في الصبا لم يسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله سبحانه عليه نور الكرامة.

ثم أقبل أيوب على الثلاثة فقال: أتيتموني غضابا رهبتم قبل أن تسترهبوا، وبكيتم من قبل أن تضربوا، كيف بي لو قلت لكم تصدقوا عني بأموالكم! لعل الله أن يخلصني، أو قربوا عني قربانا لعل الله يتقبله ويرضى عني، وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم عوقبتم بإحسانكم فهنالك بغيتم وتعززتم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا سترها الله بالعافية التي ألبسكم، وقد كنت فيما خلا والرجال يوقرونني وأنا مسموع كلامي، معروف حقي، منصف من خصمي، فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام معكم، فإنكم كنتم على أشد من مصيبتي.

ثم أعرض عنهم وأقبل على ربه مستعينا به متضرعا إليه فقال: رب لأي شيء خلقتني؟ ليتني إذ كرهتني لم تخلقني، يا ليتني كنت حيضة ألقتني أمي، أو يا ليتني عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني، لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي فالموت كان أجمل لي، ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللأرملة قيما؟

الهي أنا عبد ذليل، إن أحسنت فالمن لك، وإن أسأت فبيدك عقوبتي، جعلتني للبلاء غرضا وللفتنة نصبا، وقد وقع علي بلاء لو سلطته على جبل ضعف عن حمله، فكيف يحمله ضعفي، إلهي تقطعت أصابعي فإني لأرفع الأكلة من الطعام بيدي جميعا فما تبلغان فمي إلا على

(١) قال المحقق:" كذا في المخطوط، وفي تفسير الطبري: وأولى به مني لحق أسنانكم، والأصح: لسنكم".

الجهد مني، تساقطت لهواتي ولحم رأسي، فما بين أذني من سداد حتى أن إحداهما ترى من الأخرى، وإن دماغي يسيل من فمي. تساقط شعر عيني فكأنما حرق بالنار وجهي، وحدقتاي هما متدليتان على خدي، ورم لساني حتى ملأ فمي، فما أدخل منه طعاما إلا غصني، ورمت شفتاي حتى غطت العليا أنفي والسفلى ذقني، تقطعت أمعائي في بطني فإني لأدخله الطعام فيخرج كما دخل ما أحسه ولا ينفعني، ذهبت قوة رجلي فكأنهما قربتا ماء أطيق حملهما، ذهب المال فصرت أسأل بكفي فيطعمني من كنت أعوله اللقمة الواحدة، فيمنها علي ويعيرني، هلك أولادي ولو بقي أحد منهم أعانني على بلائي ونفعني، قد ملني أهلي وعقني أرحامي وتنكرت معارفي ورغب عني صديقي وقطعني أصحابي وجحدت حقوقي ونسيت صنايعي، أصرخ فلا يصرخونني وأعتذر فلا يعذرونني، ودعوت غلامي فلم يجبني وتضرعت لأمتي فلم ترحمني وأنحل جسمي ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي، ثم كان ينبغي للعبد أن يحاج عن نفسه، لرجوت أنيعافيني عند ذلك مما بي ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه، ويسمعني ولا أسمعه، لا نظر إلى فرحمني ولا دنا مني ولا أدناني، فأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي.

فلما قال ذلك أيوب وأصحابه أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب، ثم نودي منه: يا أيوب إن الله يقول: ها أنا دنوت منك ولم أزل منك قريبا، فقم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد إزارك وقم مقام جبار فإني لا ينبغي لي أن يخاصمني إلا جبار مثلي ولا ينبغي أن يخاصمني إلا من يجعل الزمار، في فم الأسد والسخال في فم العنقاء واللجام في فم التنين، ويكتال مكيالا من النور ويزن مثقالا من الريح ويصر صرة من الشمس ويرد أمس، لقد منتك نفسك أمرا ما يبلغ بمثل قوتك ولو كنت إذ منتك ذلك ودعتك إليه، تذكرت أى مرام رامت بك أردت أن تخاصمني بفيك أم أن تحاجني بخطابك أم أردت ان تكابرني بضعفك؟ أين أنت مني يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها؟ هل علمت بأي مقدار قدرتها أم كنت معي تمد بأطرافها، أم تعلم ما بعد زواياها أم على أى شيء وضعت أكنافها؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض، أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء؟ أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفا في الهواء لا بعلائق سيبت ولا يحملها دعم من تحتها؟ هل يبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها؟ أين أنت مني يوم سخرت البحار ونبعت الأنهار؟ أقدرتك حبست أمواج البحار على حدودها أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها؟ أين أنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال؟ هل لك من ذراع يطيق حملها أم هل تدري كم من مثقال فيها، أم أين الماء الذي أنزلت من السماء؟ هل تدري أم تلده أو أب يولده؟ أحكمتك أحصت القطر وقسمت الأرزاق، أم قدرتك تثير السحاب وتغشيه الماء؟ هل تدري ما أصوات الرعود أم من أى شيء لهب البرق؟ وهل رأيت عمق البحر، أم هل تدري ما بعد الهواء، أم هل خزنت أرواح الأموات، أم هل تدري أين خزانة الثلج، أو أين خزائن البرد، أم أين جبال البرد، أم هل تدري أين خزانة الليل بالنهار، وأين خزانة النهار بالليل، وأين طريق النور، وبأى لغة تتكلم الأشجار، وأين خزانة الريح؟ وكيف تحبسه الأغلاق؟ ومن جعل العقول في الرجال؟ ومن شق الأسماع؟ ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم أرزاق الدواب بحكمته؟ من قسم للأسد رزقها وعرف الطير معاشها وعطفها على أفراخها؟ من أعتق الوحش من الخدمة وجعل مساكنها البرية، لا تستأنس بالأصوات ولا تهاب المسلطين، أم حكمتك عطفت أمهاتها عليها حتى أخرجت لها الطعام من بطونها وآثرتها بالعيش على نفوسها، أم من حكمتك تبصر العقاب الصيد البصر البعيد وأصبح في أماكن القتلى؟ أين أنت مني يوم خلقت يهموت مكانه في مقطع التراب والوثبان يحملان الجبال والقرى والعمران، آذانهما كأنها شجر الصنوبر الطوال، ورؤسهما كأنها كوم الجبال، وعروق أفخاذها كأنها عمد النحاس، أنت ملأت جلودهما لحما أم أنت ملأت رؤسهما دماغا؟ هل لك في خلقهما من شرك أم لك بالقوة التي غلبتها يدان؟ هل تبلغ من قوتك أن تضع يدك على رؤوسهما أو تقعد لهما على طريق فتحبسهما أو تصدهما من قوتهما؟ أين أنت يوم خلقت للتنين رزقه في البحر ومسكنه في

السحاب؟ عيناه توقدان نارا ومنخراه يثوران دخانا، أذناه مثل قوس السحاب، يثور منهما لهب كأنه إعصار العجاج، جوفه يحترق ونفسه تلتهب وزبده جمر كأمثال الصخور، وكأن صريف أسنانه أصوات الصواعق، وكأن نظر عينيه لهب البرق، وتمر به الجيوش وهو متكئ لا يفزعه شيء، ليس فيه مفصل الحديد، عنده مثل الطين، والنحاس، عنده مثل الخيوط لا يفزع من النشاب ولا يحس وقع الصخور على جسده، ويسير في الهواء كأنه عصفور، ويهلك كل شيء يمر به، هل أنت آخذه بأحبولتك أو واضع اللجام في شدقه؟ هل تحصي عمره أم هل تعرف تقوت رزقه أم هل تدري ماذا خرب من الأرض؟ وماذا يخرب فيما بقي من عمره؟ أتطيق غضبه حين يغضب أم تأمره فيطيعك؟ تبارك الله وتعالى.

فقال أيوب: قصرت عن هذا الأمر الذي يعرض على ليت الأرض انشقت فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخط ربي، اجتمع على البلاء إلهي فجعلتني مثل العدو، وقد كنت تكرمني وتعرف نصحي، وقد علمت أن كل الذي ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من هذا، ما شئت عملت، لا يعجزك شيء ولا تخفى عليك خافية ولا تغيب عنك غائبة، من هذا الذي يظن أن يسر عنك سرا وأنت تعلم ما يخطر على القلوب؟ وقد علمت منك في بلائي هذا ما لم أكن أعلم، وخفت حين بلوت أمرك أكثر مما كنت أخاف، إنما كنت أسمع بسطوتك سمعا فأما الآن فهو نظر العين، إنما تكلمت حين تكلمت لتعذرني، وسكت حين سكت لترحمني، كلمة زلت فلن أعود، قد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني وألصقت بالتراب خدي ودسست فيه وجهي لصغاري، وسكت كما أسكتتني خطيئتي، فاغفر لي ما قلت فلن أعود لشيء تكرهه مني.

فقال الله سبحانه: يا أيوب فقد نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي إذ خطئت فقد غفرت لك، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ليكون لمن خلفك آية، ويكون عبرة لأهل البلاء وغزاء للصابرين ف اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، فيه شفاؤك، وقرب عن صحابتك قربانا واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك.

فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها، فاغتسل فأذهب الله عنه كلما كان به من البلاء، ثم خرج فجلس وأقبلت امرأته فقامت تلتمسه في مضجعه فلم تجده فقامت كالواله مترددة متحيرة ثم قالت: يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان هاهنا؟ فقال لها: وهل تعرفينه إذا رأيته؟ قالت: نعم ومالي لا أعرفه؟ فتبسم وقال: أنا هو فعرفته بمضحكه فاعتنقته.

قال ابن عباس: فو الذي نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى مر بهما كل مال لهما وولد، فذلك قوله وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر"(١).

الفوائد:

١- قد يُلْقي الشيطان إلى وليه بعض ما استرقَه قبل أن يحرقه الشهاب.

٢- أن الله سبحانه يمكن هؤلاء الجن من الوصول إلى السماء فتنة للناس وابتلاءا لهم، وهي ما يلقونه على الكهان، وقد أعلم الله تعالى عباده بذلك كي لا يحصل عندهم الاشتباه بذلك، ولله الحكمة البالغة ، كما في قوله تعالى {ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين، وحفظناها من كل شيطان رجيم، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين} [الحجر:١٨]، وبين النبي ﷺ ذلك في كثير من الأحاديث، ومثاله حديث الباب «فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»(٢).

٣- أن النجوم رجوم ترجم بها الشياطين عن استراق السمع، كما قال تعالى: {إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين} [الحجر:١٨] و«الشهاب»: هو هذا الذي يرمى به في الليلة الظلماء، فإذا أبصرته منقضا فقد رمي به شيطان أو مسترق للسمع، وقال تعالى عن

---

(١) الكشف والبيان:٦/٢٨٨-٢٩٤. وانظر: تفسير الطبري: ١٨/ ٤٨٣ - ٥٠١.

(٢)صحيح البخاري مع الفتح: (٨/٣٨٠، ح ٤٧٠١) ، كتاب التفسير، باب /٤ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين /٤. والحديث -أيضا- في "سنن الترمذي": (٥/٣٦٢، ح ٣٢٢٣) ، كتاب التفسير، باب ومن سورة سبأ. و "سنن ابن ماجه": (١/٦٩-٧٠، ح ١٩٤) ، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية. و "صحيح ابن حبان": "الإحسان" : (١/١٢٢، ح ٣٦).

الجن: {فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا} [الجن:٩] ، وقال تعالى: {وجعلناها رجوما للشياطين} [الملك:٥] أي: يرجمون بها، فهذه هي الحكمة في وجود هذه النجوم، فأما الذين يدعون فيها أنها تدل على وجود خير أو زواله، أو تدل على حدث أو أمر مستقبل أو نحو ذلك، فإن هذا من التكلف.

والنجوم يعرف بها مواقيت الشتاء والصيف، والغراس والزروع ونحو ذلك؛ وذلك لأن الله تعالى قدر لها مواقيت، فهناك نجوم تطلع في الشتاء، فإذا رآها الناس عرفوا أن هذا وقت زراعة البر ونحوه، ونجوم تطلع في الصيف، فإذا رأوها عرفوا أن هذا وقت يبذر فيه كذا وكذا، ويغرس فيه كذا وكذا، أو يعرفون بها دخول الشتاء أو انسلاخه، أو دخول البرد وإقباله أو انتهاءه، أو دخول الحر أو إقباله أو نحو ذلك، فتعلم هذا لا بأس به؛ لأنها مواقيت، كما أن الليل والنهار مواقيت، وكما أن الأشهر والأهلة مواقيت، فكذلك طلوع النجوم والبروج التي جعلها الله في السماء، قال تعالى: {والسماء ذات البروج} [البروج:١] ، وقال: {ولقد جعلنا في السماء بروجا} [الحجر:١٦] ، وقال: {تبارك الذي جعل في السماء بروجا} [الفرقان:٦١] ، فهذه البروج التي هي منازل الشمس، وهذه الأنواء أو النجوم التي هي منازل القمر كما في قول الله تعالى: {والقمر قدرناه منازل} [يس:٣٩] أي: ينزل في كل ليلة منزلة؛ لا شك أنها خلق الله تعالى، فتعلم منازل القمر وتعلم منازل الشمس ومعرفة أحوال كل منهما لا يدخل في التنجيم المحرم، إنما التنجيم المحرم هو أن يستدل بطلوع النجم الفلاني على أنه سوف يحدث كذا وكذا من الآفات، أو ما أشبه ذلك، فهذا من التدخل في علم الغيب، والله تعالى يقول لنبيه ﷺ: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول} [الجن:٢٦-٢٧] فلا يدخل في ذلك الكهنة ونحوهم[١].

٤- من الإشارات اللطيفة التي ذكرها القشيري في هذه الآية: قال القشيري:" إذا رام الشياطين أن يسترقوا السمع كانت النجوم لها رجوما كذلك للقلوب نجوم وهى المعارف وهى فى الوقت ذاته رجوم على الشياطين فلو دنا إبليس وجنوده من قلب وليّ من الأولياء أحرقته بل محقته نجوم عقله وأقمار علمه وشموس توحيده"[٢].

القرآن

{وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩)} [الحجر : ١٩]

التفسير:

والأرض مددناها متسعة، وألقينا فيها جبالا تثبتها، وأنبتنا فيها من كل أنواع النبات ما هو مقدَّر معلوم مما يحتاج إليه العباد.

قوله تعالى:{وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا} [الحجر : ١٩]، أي:" والأرض مددناها متسعة"[٣].

قال الطبري:" والأرض دحوناها فبسطناها"[٤].

قال ابن كثير:" ثم ذكر ، تعالى ، خلقه الأرض ، ومده إياها وتوسيعها وبسطها"[٥].

عن قتادة، قوله :"{وَالأرْضَ مَدَدْنَاهَا}،وقال في آية أخرى {وَالأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}، وذُكر لنا أن أمّ القرى مكة، منها دُحيت الأرض"[٦].

قوله تعالى:{وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ} [الحجر : ١٩]، أي:" وألقينا فيها جبالا تثبتها"[١].

---

(١) انظر: شرح الطحاوية لابن جبرين:(٩٥) [دروس صوتية].
(٢) لطائف الإشارات:٢/٢٦٥.
(٣) التفسير الميسر:٢٦٣.
(٤) تفسير الطبري:١٧/٧٩.
(٥) تفسير ابن كثير:٤/٥٢٩.
(٦) أخرجه الطبري:١٧/٧٩.

قال قتادة:" رواسيها: جبالها"[٢].
قال الزجاج:" «الرواسي»: الجبال"[٣].
قال الطبري:" يقول: وجعلنا فيها جبالا ثوابت، رست في الأرض"[٤].
قال ابن كثير:أي:" ما جعل فيها من الجبال الرواسي ، والأودية والأراضي والرمال"[٥].
قال الشوكاني:" أي: جبال ثابتة لئلا تحرك بأهلها"[٦].
قوله تعالى:{وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ} [الحجر : ١٩]، أي:" وأنبتنا فيها من كل أنواع النبات ما هو مقدَّر معلوم مما يحتاج إليه العباد"[٧].
قال الطبري:" يقول: وأنبتنا في الأرض من كلّ شيء: يقول: من كلّ شيء مقدّر، وبحدّ معلوم"[٨].
قال ابن كثير:أي: " ما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة "[٩].
قال الزمخشري:" {موزون}: وزن بميزان الحكمة، وقدر بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، أو له وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة"[١٠].
وفي قوله تعالى:{وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ} [الحجر : ١٩]، وجوه من التفسير:
أحدها : يعني مقدر معلوم، قاله ابن عباس[١١]، وسعيد بن جبير[١٢]، وقتادة[١٣]، والضحاك[١٤]، وإنما قيل: «موزون»، لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء . قاله الشاعر[١٥] :
قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقائِكُمْ ذَا مِرَّة ... عِندِي لِكُلِّ مُخاصِمٍ مِيزَانُهُ
قال ابن قتيبة:" {موزون} مقدر. كأنه وزن"[١٦].
الثاني : معناه: بقدْر. قاله أبو مالك[١٧]، وأبو صالح[١٨]، وعكرمة[١٩]، وأبو عبيدة[٢٠].
وقال مجاهد:" مقدور بقدْر"[٢١].
وقال أبو مخزوم والحسن:" من كلّ شيء مقدور"[٢٢].
الثالث: يعني به: الأشياء التي توزن، قاله الحسن[١]، وابن زيد[٢].

(١) التفسير الميسر:٢٦٣.
(٢) أخرجه الطبري:٧٩/١٧.
(٣) معاني القرآن:٤٢/٥.
(٤) تفسير الطبري:٣٣٢/١٧.
(٥) تفسير ابن كثير:٥٢٩/٤.
(٦) فتح القدير:١٥١/٣.
(٧) التفسير الميسر:٢٦٣.
(٨) تفسير الطبري:٧٩/١٧.
(٩) تفسير ابن كثير:٥٢٩/٤.
(١٠) الكشاف:٥٧٤/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري:٧٩/١٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:٨٠/١٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:٨١/١٧.
(١٤) انظر: تفسير الطبري:٨١/١٧.
(١٥) انظر: ورد بلا نسبة في "معاني القرآن" للفراء:٢٨٧/٣، و"تفسير الماوردي" ٣/ ١٥٤، "تفسير القرطبي" ١٥/ ١٣، "اللسان" (وزن) ٨/ ٤٨٢٩، "تفسير الشوكاني" ٣/ ١٨٠.
(١٦) غريب القرآن:٢٣٦.
(١٧) انظر: تفسير الطبري:٧٩/١٧.
(١٨) انظر: تفسير الطبري:٨٠/١٧.
(١٩) انظر: تفسير الطبري:٧٩/١٧-٨٠.
(٢٠) انظر: مجاز القرآن:٣٤٨/٢.
(٢١) أخرجه الطبري:٨٠/١٧.
(٢٢) أخرجه الطبري:٨٠/١٧.

وقال الفراء:" يقول: من الذهب والفضة والرصاص والنحاس والحديد فذلك الموزون"[٣].

الرابع : ما أنبتت الجبال مثل الكحل وشبهه. قاله عكرمة[٤].

معناه مقسوم ، قاله قتادة[٥].

الخامس : معناه: معدود ، قاله مجاهد[٦].

والخامس : أنه ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجل قدراً وأعم نفعاً مما لا ثمن له. أفاده الماوردي[٧].

قال الطبري: والصواب هو" القول الأوّل، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه"[٨].

قال ابن عرفة:" قيل: يؤخذ من الآية فيمن حلف أن لَا يستقر في أرض أنه يستقر على الجبال ولا يحنث؛ لدلالة الآية على أنها ليست من الأرض؛ اعتبارا بمجرد اللفظ دون اعتبار العرف العادي"[٩].

القرآن

{وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)} [الحجر : ٢٠]

التفسير:

وجعلنا لكم فيها ما به تعيشون من الحَرْث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب وغيرها، وخلقنا لكم من الذرية والخدم والدوابِّ ما تنتفعون به، وليس رزقهم عليكم، وإنما هو على الله رب العالمين تفضلا منه وتكرمًا.

قوله تعالى:{وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ} [الحجر : ٢٠]، أي:" وجعلنا لكم فيها ما تعيشون به من المطاعم والمشارب"[١٠].

قال ابن كثير:" يذكر ، تعالى ، أنه صرفهم في الأرض في صنوف من الأسباب والمعايش ، وهي جمع معيشة "[١١].

وفي قوله تعالى:{وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ} [الحجر : ٢٠]، ثلاثة أقوال:

أحدها : أنها الملابس ، قاله الحسن[١٢].

الثاني : أنها المطاعم والمشارب التي يعيشون فيها[١٣]، ومنه قول جرير :

تكلفني معيشة آل زيدٍ ... ومَن لي بالمرقق والصنابِ

الثالث : أنها التصرف في أسباب الرزق مدة أيام الحياة[١٤]، قال الماوردي:"وهو الظاهر"[١٥].

وروى خارجة عن نافع، أنه قرأ: «معآئش»، ممدودة مهموزة، قال أبو بكر: وهو غلط[١٦].

---

(١) انظر: النكت والعيون:١٥٤/٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٨١/١٧.
(٣) معاني القرآن:٨٦/٢.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٥٢):ص٢٢٦٠/٧.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٥٤/٣.
(٦) انظر: النكت والعيون:١٥٤/٣.
(٧) انظر: النكت والعيون:١٥٤/٣.
(٨)تفسير الطبري:٨٢/١٧ .
(٩) تفسير ابن عرفة:٥٥/٤.
(١٠) انظر: صفوة التفاسير:١٠٠/٢.
(١١) تفسير ابن كثير:٥٢٩/٤.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٥٤/٣.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١٥٤/٣.
(١٤) انظر: النكت والعيون:١٥٤/٣.
(١٥) النكت والعيون:١٥٤/٣.
(١٦) انظر: السبعة في القراءات:٢٧٨، والكشاف:٥٧٤/٢.

قوله تعالى:{وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} [الحجر : ٢٠]، أي:" وجعلنا لكم من العيال والمماليك والأنعام من لستم له برازقين، لأننا نخلق طعامهم وشرابهم لا أنتم"(١).

وفي قوله تعالى:{وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} [الحجر : ٢٠]، ثلاثة أقوال:

أحدها : أنها الدواب والأنعام ، قاله مجاهد(٢).

قال ابن قتيبة:" مثل الوحش والطير والسباع. وأشباه ذلك: مما لا يرزقه ابن آدم"(٣).

الثاني : أنها الوحوش ، قاله منصور(٤).

قال الطبري:" تأويل «مَنْ» في: {وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}، على هذا التأويل بمعنى ما، وذلك قليل في كلام العرب"(٥).

الثالث : العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم :{نحن نرزقهم وإياكم} [الإسراء : ٣١]. حكاه االماوردي عن ابن بحر(٦)، وقال الفراء" العبيد والإماء"(٧).

قال الزمخشري:" أراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإن الله هو الرزاق، يرزقهم وإياهم، ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة، مما الله رازقه، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرازقون"(٨).

قال ابن كثير:" القصد أنه ، تعالى ، يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش ، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها ، والعبيد والإماء التي يستخدمونها ، ورزْقهم على خالقهم لا عليهم فلهم هم المنفعة ، والرزق على الله تعالى "(٩).

قال الطبري:" وأولى ذلك بالصواب، وأحسن أن يقال: عني بقوله {وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{ من العبيد والإماء والدوابّ والأنعام. فمعنى ذلك: وجعلنا لكم فيها معايش. والعبيدَ والإماء والدوابَّ والأنعام، وإذا كان ذلك كذلك، حسن أن توضع حينئذ مكان العبيد والإماء والدوابّ "من"، وذلك أن العرب تفعل ذلك إذا أرادت الخبر عن البهائم معها بنو آدم. وهذا التأويل على ما قلناه وصرفنا إليه معنى الكلام إذا كانت "من" في موضع نصب عطفا به على معايش بمعنى: جعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين. وقيل: إنّ "من" في موضع خفض عطفا به على الكاف والميم في قوله {وَجَعَلْنَا لَكُمْ}، بمعنى: وجعلنا لكم فيها معايش {وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}، وأحسب أن منصورا في قوله: هو الوحش قصد هذا المعنى وإياه أراد، وذلك وإن كان له وجه في كلام العرب، فبعيد قليل، لأنها لا تكاد تظاهر على معنى في حال الخفض، وربما جاء في شعر بعضهم في حال الضرورة، كما قال بعضهم(١٠):

---

(١) صفوة التفاسير:١٠٠/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري:٨١/١٧-٨٢.

(٣) غريب القرآن:٢٣٦.

(٤)انظر: تفسير الطبري:٨٢/١٧ .

(٥) تفسير الطبري:٨٢/١٧.

(٦) انظر: النكت والعيون:١٥٤/٣.

(٧) معاني القرآن:٨٦/٢.

(٨) الكشاف:٥٧٤/٢.

(٩) تفسير ابن كثير:٥٢٩/٤.

(١٠)البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن (ص ١٦٧ من مصورة الجامعة) . قال: وقوله " وجعلنا لكم فيها معايش ": أراد الأرض " ومن لستم له برازقين " فمن في موضع نصب، يقول: جعلنا لكم فيها معايش والعبيد والإماء، وقد جاء أنهم الوحوش والبهائم، ومن: لا يفرد بها البهائم، ولا ما سوى الناس، فإن يكن ذلك على ما روى فنرى أن أدخل فيهم المماليك، على أنا ملكناكم العبيد والإبل والغنم وما أشبه ذلك، مجاز ذلك، وقد يقال إن " من " في موضع خفض، يراد جعلنا لكم فيها معايش ولمن. وما أقل ما ترد العرب لمخفوض قد كني عنه، وقد قال الشاعر: نعلق في مثل الواري سيوفنا ... وما بينها والكعب غوط نفانف

فرد الكعب على بينها. وقال الآخر: هلا سألت ... البيت، فرد " أبي نعيم " على الهاء في عنهم.

قلت: وهذا الموضع الذي أشار إليه الفراء، وهو عطف اسم مخفوض على ضمير هو قوله تعالى " واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام " من سورة النساء.

هَلا سألْتَ بذِي الجَماجِمِ عنهُمُ ... وأبي نَعِيمٍ ذي اللِّوَاءِ المُخْرَقِ
فردّ أبا نعيم على الهاء والميم في عنهم، وقد بيَّنت قبح ذلك في كلامهم"(١).

فوائد الآيتين:[١٩-٢٠]

١- إن الله سبحانه وتعالى يذكّر عباده بنعمة الأرض التي جعلها لهم كالفراش ممهدة وموطأة ومستقرة، وهو الذي ذللها لنا للاستفادة من خيراتها ولولا تذليل الله لها ما استطعنا أن نشق فيها الطرق ولا البناء عليها ولا الحرث ولا سائر أنواع المنافع والتي منها أن الأموات يكفتون في بطنها، فهي تُكِنُّ الأحياء على ظهرها في المساكن والأموات في القبور، فكأنها كفتت أذى الناس أحياء وجيفهم أمواتًا.

٢- ونعمة أخرى في الأرض وهي أنها مستودع الرزق، حيث إن فيها معايش بني آدم وأسباب رزقهم، فالله وحده هو الذي جعل في الأرض المعايش والأسباب المختلفة ليكسب العباد بها أقواتهم ويتجرون، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر، يقول الطبري: "ولقد وطناكم أيها الناس في الأرض وجعلناها لكم قرارًا تستقرون فيها ومهادًا تمتهدونها وفراشًا تفترشونها {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِش} تعيشون بها أيام حياتكم من مطاعم ومشارب نعمة مني عليكم وإحسانًا مني إليكم {قَلِيلاً مَا تَشْكُرُون} وأنتم قليل شكركم على هذه النعم التي أنعمتها عليكم لعبادتكم غيري واتخاذكم إلهًا سواي"(٢).

٣- تمكين الله تعالى لنا في الأرض: امتنَّ الله - تبارك وتعالى - على الناس في هاتين الآيتين بأن مكَّن لهم في الأرض، فعليها نبني مساكننا، ونتَّخذ من سهولها جنات وبساتين، ونستفيد من نباتها وحيواناتها وأسماكها وطيورها، ونتَّخذ من ذلك كله معايش، أي: ما يمكننا من المعيشة. . . في الحياة الدنيا، وقال في آية أخرى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} [الأعراف: ١٠].

وتمكين الله تعالى لنا في الأرض بأن جعل الأرض صالحةً لحياتنا، وأوجد فيها ما يقيم حياتنا، وأقدرنا على السَّعي فيها، والاستفادة من خيراتها، وقوله تعالى: {قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} أي: قليلاً ما تشكرونه على ما أنعم به عليكم.

٤- أما الجبال، فهذه نعمة عظيمة من الله تعالى على عباده، حيث ثبتّ الأرض بالجبال حتى لا تميد بأهلها وتضطرب فلا يستطيعون التصرف لمعاشهم لعدم استقرارها.

والجبال كذلك علامات يستدل بها المسافرون برًّا وبحرًا إذا ضلوا الطريق، ومن منافع الجبال كذلك أن الثلج إذا سقط عليها وتراكم يذوب تدريجيًّا، فيشرب منه الناس ويسقون المزروعات، ولو ذاب دفعة واحدة لما استفيد منه، ولأهلك السيل كل ما مر عليه، ومن منافع الجبال كذلك ما فيها من مغامرات وكهوف ليتحصن فيها الناس، وهي أكنان للناس والحيوان، كما قال تعالى: {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً}[النحل:٨١]

٥- بيان مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته المتجلية فيما يلي:
أ- خلق الأرض ومدها وإلقاء الجبال فيها. إرسال الرياح لواقح للسحب.
ب- إنبات النباتات بموازين دقيقة. إحياء المخلوقات ثم إماتتها.
ت- إنزال المطر بمقادير معينة. علمه تعالى بمن مات ومن سيموت.

القرآن

{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)} [الحجر : ٢١]

التفسير:

---

(١) تفسير الطبري:١٧/٨٢-٨٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٢٥/٨ وانظر كذلك ٩٠/١٤ وتفسير ابن كثير ٥٧/١ و٢٠٢/٢ و٣٩٨/٤ وص٤٦٠.

وما من شيء من منافع العباد إلا عندنا خزائنه من جميع الصنوف، وما ننزله إلا بمقدار محدد كما نشاء وكما نريد، فالخزائن بيد الله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، بحسب رحمته الواسعة، وحكمته البالغة.

قوله تعالى:{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ} [الحجر : ٢١]، أي:" ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وما من شيء من الأمطار إلا عندنا خزائنه"[٢].

قال الزمخشري:" ذكر «الخزائن» تمثيل. والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلحة له، فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور"[٣].

قوله تعالى:{وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} [الحجر : ٢١]، أي:" ولكن لا ننزله إلا على حسب حاجة الخلق إليه، وعلى حسب المصالح، كما نشاء ونريد"[٤].

قال الطبري:أي: " وما ننزله إلا بقدر لكل أرض معلوم عندنا حدّه ومبلغه"[٥].

قال الحكم بن عتيبة:" ما من عام بأكثر مطرا من عام ولا أقل، ولكنه يمطر قوم، ويُحرم آخرون، وربما كان في البحر، قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم يحصون كلّ قطرة حيث تقع وما تُنبت"[٦].

قال عبدالله ابن مسعود: " ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء، عاما هاهنا وعاما هاهنا، ثم قرأ :{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}"[٧].

عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: «في العرش مثال كل شيء خلقه الله في البر والبحر. وهو تأويل قوله تعالى: {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه}»[٨].

روي عن الليث بن سعد أن عبيد الله بن عمر قال: "كنا نجالس يحيى بن سعيد، فيسرد كلاما مثل اللؤلؤ، فإذا طلع ربيعة قطع يحيى الحديث، إعظاما لربيعة، وبينا نحن يوما يحدثنا، تلا هذه الآية: {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم}، فقال له جميل بن نباتة العراقي، وهو جالس معنا: يا أبا محمد، أرأيت السحر من تلك الخزائن؟، فقال يحيى: سبحان الله، ما هذا من مسائل المسلمين، فقال عبد الله بن أبي حبيبة١: إن أبا محمد ليس بصاحب خصومة، ولكن علي، فأقبل، أما أنا فأقول: السحر لا يضر إلا بإذن الله، أفتقول أنت ذاك؟، فسكت، فكأنما سقط عنا جبل "[٩].

قال ابن الوزير:" فإن كون الشر في خزائنه مثل كونه تحت قدرته، ولا معنى له سوى ذلك، وكونه تحت قدرته اسم مدحٍ وِفاقاً، لأنه من كمال الملك الذي يلزمه الخوف والرجاء، ولا يلزم منه أن يُسَمَّى شرّيراً قطعاً، وكذلك اسم الضارّ ولم يلزم من كونه تحت قدرته ومشيئته.
وأين هذا من قول سيد الرسل المترجم عن محامده عزَّ وجلَّ بقوله في الأحاديث الصحاح المتقدمة: «الخير بيديك، والشر ليس إليك»[١٠]، ولو لَزِمَ أن يشتق له اسماً مما كان تحت قدرته وتقديره، لزم مناقشة أسمائه الحسنى تعالى عن ذلك"[١١].

---

(١) صفوة التفاسير:١٠٠/٢.
(٢) تفسير الطبري:٨٣/١٧.
(٣) الكشاف:٥٧٤/٢.
(٤) صفوة التفاسير:١٠٠/٢.
(٥) تفسير الطبري:٨٣/١٧.
(٦) أخرجه الطبري:٨٤/١٧، وانظر: الكشف والبيان:٣٣٦/٥.
(٧) أخرجه الطبري:٨٤/١٧.
(٨) الكشف والبيان:٣٣٦/٥.
(٩) أخرجه الفريابي في القدر(٣٩٠):ص٢١٩-٢٢٠.
(١٠)مسلم (٧٧١)، وهو في " صحيح ابن حبان " (١٧٧١) و (١٧٧٢) و (١٧٧٣) و (١٧٧٤)، وانظر تخريجه فيه.
(١١) العواصم والقواصم:٢٢٦/٧-٢٢٧.

الفوائد:

١- أن الله تعالى هو الغنى عما سواه هو القائم بنفسه، ليس محتاجا إلى غيره في شيء من الأمور.

٢- أن إنزال الله للأرزاق وغيرها جعل له سببا هو السعي في الأرض، وطلب الرزق وهذه سنة الله، {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣)}

وقد جرت سنة الله بالنسبة للزارع والصانع والتاجر وكل عامل أن يقوم أحد هؤلاء بعمل معين فيترتب عليه آثار معينة.

فالزارع مثلا يشق الأرض ويبذر الحب ويروي بالماء، فإذا فعل ذلك وكانت الأرض طيبة والبذرة صالحة والآفة ممنوعة فإن الله تعالى يخلق من البذرة النبات ثم الثمرة وهكذا ...

ولو أن الفلاح نظر إلى أن رزقه مقدر، وأن ما كتب له منه لا بد واصل إليه، ثم جلس في بيته لا يحرث ولا يزرع ما حصد إلا البؤس والشقاء.

ولو فعل مثله الصانع والتاجر والمكتشفون والمخترعون والباحثون في أسرار الكون لوقفت المصانع، وأغلقت المتاجر، وعم الجهل وهلك الناس من أمد بعيد.

والعجب كبير ممن يؤمن بآيات القدر ويكفر بآيات السنن.

فالله الذي قال: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ }[الحجر:٢١].

هو الذي قال: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[الملك:١٥][(١)].

النُّشُورُ}[الملك:١٥][(١)].

٣- أن المقصود بالقدر: هو النظام المحكم الذى وضعه الله لهذا الوجود، والقوانين العامة، والسنن التى ربط الله بها الأسباب بمسبباتها.

وعرفه النووى فقال: "إن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء فى القدم، وعلم سبحانه أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده عزوجل وعلى صفات مخصوصة؛ فهى تقع حسب ما قدرها "[(٢)].

وقد تقاطر أهل العلم على تقرير القدر والنص على وجوب الإيمان به، وما من عالم من علماء أهل السنة الذين هم أعلام الهدى وأنوار الدجا إلا وقد نص على وجوب الإيمان به، وبدع وسفه من أنكره ورده.

يقول النووي رحمه الله تعالى في شرحه لأحاديث القدر من صحيح مسلم: " وفي هذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر، وأن جميع الواقعات بقضاء الله وقدره خيرها وشرها نفعها وضرها "[(٣)] .

وقال في موضع آخر: " تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى "[(٤)]

.

ويقول ابن حجر رحمه الله تعالى: " مذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله تعالى، كما قال تعالى: (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) [الحجر: ٢١]"[(٥)].

القرآن

---

(١) انظر: تبسيط العقائد الإسلامية:١٠٧-١٠٨.

(٢)انظر: شرح صحيح مسلم ١/ ١٥٤.

(٣)شرح النووي على مسلم: ١٩٦/١٦.

(٤)شرح النووي على مسلم ١٥٥/٢.

(٥)فتح الباري: ٤٧٨/١١.

{وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)} [الحجر : ٢٢]

التفسير:

وأرسلنا الرياح وسخرناها تُلَقِّح السحاب، فيدر بالماء ويمطر، وتلقح الشجر فيتفتح عن أوراقه وأكمامه، وتحمل المطر والخير والنفع، فأنزلنا من السحاب ماء أعددناه لشرابكم وأرضكم ومواشيكم، وما أنتم بقادرين على خزنه وادِّخاره، ولكن نحفظه لكم رحمة بكم، وإحسانًا إليكم.

قوله تعالى:{وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} [الحجر : ٢٢]، أي:" وأرسلنا الرياح وسخرناها تُلَقِّح السحاب، فيدر بالماء ويمطر، وتلقح الشجر فيتفتح عن أوراقه وأكمامه، وتحمل المطر والخير والنفع"[١].

قال ابن كثير:" أي : تلقح السحاب فتدر ماء ، وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها.

هذه "الرياح" ذكرها بصيغة الجمع ، ليكون منها الإنتاج ، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها ، ووصفها بالعقيم ، وهو عدم الإنتاج ؛ لأنه لا يكون إلا من شيئين فصاعدا"[٢].

وفي في وجه وصف «الرياح»: باللقح في قوله تعالى:{وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} [الحجر : ٢٢]، وجهان:

أحدها : لواقح السحاب حتى يمطر، قاله عبدالله بن مسعود[٣]، والحسن[٤] وقتادة[٥]، والضحاك[٦]، وعبيد بن عمير[٧]، وإبراهيم النخعي[٨].

قال الضحاك:" الرياح يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء"[٩].

عن قتادة، قوله :"{وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}، يقول: لواقح السحاب، وإن من الريح عذابا، وإن منها رحمة"[١٠].

قال عبيد ابن عمير: "يبعث الله المبشرة، فتعم الأرض بماء، ثم يبعث المثيرة فتثير السحاب فـ {يَجْعَلُهُ كِسَفًا}[١١]، ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فـ {يَجْعَلُهُ رُكَامًا}[١٢]، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتمطر "[١٣].

قال الماوردي:" وكل الرياح لواقح . غير أن الجنوب ألقح"[١٤].

أخرج البيهقي عن عبد الله مرفوعا: "ما عام بأمطر من عام، ولا هبت جنوب إلا سال وادي"[١٥].

عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الرِّيحُ الجَنُوبُ مِنَ الجَنَّةِ، وَهِيَ الرِّيحُ اللَّوَاقِحُ، وَهِيَ الَّتي ذَكَرَ اللهُ تَعالى فِي كِتابِهِ وَفِيها مَنافِعُ للنَّاسِ"[١٦].

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٣.
(٢) تفسير ابن كثير:٥٣٠/٤.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٣٠/٤، والكشف والبيان:٣٣٦/٥.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٥٧):ص٢٢٦١/٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٨٨/١٧.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٥٨):ص٢٢٦١/٧.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٥٩):ص٢٢٦١/٧.
(٨) انظر: تفسير ابن كثير:٥٣٠/٤.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٥٨):ص٢٢٦١/٧.
(١٠) أخرجه الطبري:٨٨/١٧.
(١١)[الروم : ٤٨].
(١٢)[النور : ٤٣].
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٥٩):ص٢٢٦١/٧.
(١٤) النكت والعيون:١٥٥/٣.
(١٥)السنن: ٣ / ٣٦٣ . وقال: كذا روي مرفوعا، والصحيح أنه موقوف.
(١٦) أخرجه الطبري:٨٨/١٧. قال ابن كثير في تفسيره:٥٣١/٤:" وهذا إسناد ضعيف ".

عن أبي ذر، قال رسول الله ﷺ : "إن الله خلق في الجنة ريحا بعد الريح بسبع سنين ، وإن من دونها بابا مغلقا ، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب ، ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شيء ، وهي عند الله الأَزَيبُ ، وهي فيكم الجنوب"[١].

الثاني: لواقح للشجر حتى يثمر، قاله ابن عباس[٢].

قال الثعلبي:" قول العلماء في وجه وصف «الرياح»: باللقح، وإنما هي ملقحة لأنها تلقح السحاب والشجر"[٣].

وفي معنى «لواقح»، وجوه:

أحدها: حوامل، لأنها تحمل الماء والخير والنفع لاقحة كما يقال: ناقة لاقحة إذا حملت الولد، ويشهد على هذا قوله: {الرِّيحَ الْعقيم} [الذاريات : ٤١]، فجعلها عقيما إذا لم تلقح ولم يكن فيها ماء ولا خير. ذكره الفراء[٤]، والثعلبي[٥].

فمن هذا التأويل قول ابن مسعود في هذه الآية قال: " ترسل الرياح ، فتحمل الماء من السماء ، ثم تَمْرى السحاب ، حتى تدر كما تَدر اللَّقحَة"[٦].

قال الطرماح[٧]:

لأفنان الرياح للاقح ... قال منها وحائل

الثاني: أراد: ذات لقح. حكاه الثعلبي عن الفراء[٨].

الثالث: أراد: ملاقح، جمع «ملقحة» كما في الحديث «أعوذ بالله من كل لامة» أي ملمة. وهذا قول أبي عبيدة[٩].

قال أبو عبيدة : "مجازها مجاز «ملاقح»، لأن الريح ملقحة للسحاب، والعرب قد تفعل هذا فتلقى «الميم»، لأنها تعيده إلى أصل الكلام، كقول نهشل بن حرىّ يرثى أخاه[١٠]:

ليبك يزيد بائس لضراعة ... وأشعث ممن طوّحته الطّوائح

فحذف «الميم»، لأنها المطاوح، وقال رؤبة[١١]:

يخرجن من أجواز ليل غاض

أي: مغضى، وقال [العجّاج][١٢] :

تكشف عن جماته دلو الدّال"[١٣].

قال زيد بن عمر: "يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قما، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: {وأرسلنا الرياح لواقح}"[١٤].

---

(١)مسند الحميدي (٧١/١) وفي إسناده يزيد بن جعدبة كذبه مالك وغيره.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٨٨/١٧.
(٣) الكشف والبيان عن تفسير القرآن:٣٣٦/٥.
(٤) انظر: معاني القرآن:٨٧/٢.
(٥) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن:٣٣٦/٥.
(٦) تفسير ابن كثير:٥٣٠/٤، والكشف والبيان:٣٣٦/٥.
(٧) انظر: الكشف والبيان:٣٣٦/٥، وزاد المسير:٢٨٨/٤.
(٨) انظر: الكشف والبيان:٣٣٦/٥.
(٩) انظر: مجاز القرآن:٣٤٨/٢-٣٤٩.
(١٠)نهشل بن حرى: من المخضرمين، وبقي إلى أيام معاوية، ترجمة له فى الشعراء ٤٠٥ والخزانة ١/ ١٥٣. - والبيت قد اختلفوا فى عزوه، ونسبوه إلى غير واحد من الشعراء، راجع الاختلاف فى الخزانة (١/ ١٤٧) وصوب البغدادي نسبة البيت إلى نهشل. هو فى الكتاب ١/ ١٢١، والطبري ١٤/ ١٣، والشنتمرى ١/ ١٤٥، والأساس واللسان والتاج (طيح) والعيني ٤٤٣. والمعاهد ٩٥، وشواهد الكشاف ٦٥.
(١١)ديوانه ٨٣. - واللسان والتاج (غضا).
(١٢)ديوانه ٨٦. - واللسان والتاج (دلا).
(١٣) مجاز القرآن:٣٤٨/٢-٣٤٩.
(١٤) الكشف والبيان:٣٣٧/٥، وحكاه الماوردي :١٥٥/٣، عن عبيد بن عمير.

قال أبو بكر بن عياش: "لا يقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه: فالصبا تهيجه، والدبور تلقحه، والجنوب تدره، والشمال تفرقه"[١].

وقرأ حمزة: «الريح»، على الواحد وهو في معنى الجمع أيضا وإن كان لفظها لفظ الواحد، لأنه يقال: جاءت الريح من كل جانب [٢].

قوله تعالى:{فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} [الحجر : ٢٢]، أي:" فأنزلنا من السحاب ماءً عذباً، جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ومواشيكم"[٣].

قال الثعلبي:" أي: جعلنا المطر لكم سقيا"[٤].

قال ابن كثير:" أي : أنزلناه لكم عَذْبًا يُمكنكم أن تشربوا منه ، ولو نشاء لجعلناه أجاجًا. كما ينبه الله على ذلك في الآية الأخرى في سورة «الواقعة»، وهو قوله : { أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنزلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ } [الواقعة : ٦٨ - ٧٠] وفي قوله : { هُوَ الَّذِي أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ } [النمل : ١٠]"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فأنزلنا من السماء مطرا فأسقيناكم ذلك المطر لشرب أرضكم ومواشيكم. ولو كان معناه: أنزلناه لتشربوه، لقيل: فسقيناكموه. وذلك أن العرب تقول إذا سقت الرجل ماء شربه أو لبنا أو غيره: سقيته بغير ألف إذا كان لسقيه، وإذا جعلوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته، قالوا: أسقيته وأسقيت أرضه وماشيته، وكذلك إذا استسقت له، قالوا أسقيته واستسقيته، كما قال ذو الرُّمَّة[٦]:

وَقَفْتُ على رَسْمٍ لِمَيَّةَ ناقَتِي ... فَمَا زِلْتُ أبْكي عِنْدَهُ وأُخاطِبُهْ
وأُسْقِيهِ حتى كادَ مِمَّا أبُثُّهُ ... تُكَلِّمُني أحْجارُهُ ومَلاعِبُهْ

وكذلك إذا وهبت لرجل إهابا ليجعله سقاء، قلت: أسقيته إياه"[٧].

قال المؤرخ:" ما تنال الأيدي والدلاء فهو السقي وما لا تنال الأيدي والدلاء فهو الإسقاء"[٨].

قوله تعالى:{وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} [الحجر : ٢٢]، أي:" وما أنتم بقادرين على خزنه وادِّخاره، ولكن نحفظه لكم رحمة بكم، وإحسانًا إليكم"[٩].

قال الطبري:" يقول: ولستم بخازني الماء الذي أنزلنا من السماء فأسقيناكموه. فتمنعوه من أسقيه، لأن ذلك بيدي وإليّ، أسقيه من أشاء وأمنعه من أشاء"[١٠].

قال الصابوني:" أي: لستم بقادرين على خزنه بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار، ولو شئنا لجعلناه غائراً في الأرض فهلكتم عطشاً كقوله {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ} [الملك: ٣٠] "[١١].

---

(١) الكشف والبيان:٣٣٧/٥.
(٢) انظر: معاني القرآن للفراء:٨٧/٢، والكشف والبيان عن تفسير القرآن:٣٣٦/٥.
(٣) صفوة التفاسير:١٠٠/٢.
(٤)الكشف والبيان:٣٣٧/٥ .
(٥) تفسير ابن كثير:٥٣١/٤.
(٦)البيتان في ديوان ذي الرمة (طبعة كيمبردج سنة ١٩١٩ ص ٣٨) وأسقيه: أدعو له بالسقيا، أقول: سقاك الله، الله، وأبثه: أشكو إليه. وقد استشهد بهذين البيتين أبو عبيدة في مجاز القرآن (١: ٣٥٠) على أن يقال: سقيت الرجل ماء وشرابا من لبن وغير ذلك، وليس فيه إلا لغة واحدة بغير ألف، إذا كان في الشفة، وإذا جعلت له شربا (بكسر الشين، أي ماء لشرب دوابه) فهو أسقيته وأسقيت أرضه وإبله، لا يكون غير هذا، وكذلك إذا استسقيت له كقول ذي الرمة ... البيتين وهو قريب من كلام المؤلف هنا.
(٧) تفسير الطبري:٨٨/١٧-٨٩.
(٨)الكشف والبيان:٣٣٧/٥ .
(٩) صفوة التفاسير:١٠٠/٢.
(١٠) تفسير الطبري:٨٩/١٧.
(١١) صفوة التفاسير:١٠٠/٢.

وفي قوله تعالى:{وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} [الحجر : ٢٢]، وجهان:
أحدهما : بخازني الماء الذي أنزلناه. ذكره الماوردي(١).
قال ابن كثير:" ويحتمل أن المراد : وما أنتم له بحافظين ، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معينا وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به ، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا ، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك. ليبقى لهم في طول السنة ، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم"(٢).
الثاني : بمانعي الماء الذي أنزلناه . قاله سفيان(٣).
الفوائد:
١- الآية من الدلائل على وجود صانع مدبر حكيم عليم قادر
٢- اشتمال الآيات القرآنية الكونية على دليل الخلق والعناية، فإن هذه الآية ة دليل النظام أو التناسق؛ لأنه ينطلق بنا ضمن الآيات الكونية ليوصلنا إلى أن الذي نظم الكون وربط أجزاءه بحيث يكمل بعضها بعضًا وقدر كل شيء فيه تقديرًا، هو الله الواحد الأحد.
٣- أن تسخير الرياح ونزول المطر من السحاب من الآيات والبراهين العظيمة الدالة على القدرة الإلهية، إنّما ضربها الله تعالى لمن كان له عقل يعي ويدرك ويتدبر، ليعلم عن حقيقة واقتناع بأنّ هذه الآيات من صنع الله وحده.
٤- إن الرياح إنما هي بأمر الله سبحانه وتعالى يرسلها بالخير، ويرسلها- أيضا- بالشر والعذاب، كما أرسلها على عاد، قال تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [الذاريات : ٤١].
١- في الآية نلتمس موضوع التلقيح في عالم النباتات الزهرية، وهذا برهان على نبوة محمد-ﷺ-، لأنه لم يكن من المشتغلين في علوم النبات.

القرآن

{وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣)} [الحجر : ٢٣]

التفسير:
وإنَّا لنحن نحيي مَن كان ميتًا بخلقه من العدم، ونميت من كان حيًا بعد انقضاء أجله، ونحن الوارثون الأرض ومَن عليها.
قوله تعالى:{وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ} [الحجر : ٢٣]، أي:" وإنَّا لنحن نحيي مَن كان ميتًا بخلقه من العدم، ونميت من كان حيًا بعد انقضاء أجله"(٤).
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي} من كان ميتا إذا أردنا، {ونُمِيتُ} من كان حيا إذا شئنا"(٥).
قال الثعلبي:" بأن نميت جميع الخلق فلا يبقى من سوانا"(٦).
قال النسفي:" أي: نحي بالإيجاد ونميت بالإفناء أو نميت عند انقضاء الآجال و«نحي» لجزاء الأعمال على التقديم والتأخير إذ «الواو» للجمع المطلق"(٧).
قال السعدي:" أي: هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ويميتهم لآجالهم التي قدرها"(٨).

---

(١) انظر: النكت والعيون:١٥٦/٣.
(٢) تفسير ابن كثير:٥٣١/٤.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٦٠):ص٢٢٦١/٧، وتفسير الطبري:٨٩/١٧.
(٤) التفسير الميسر:٢٦٣.
(٥) تفسير الطبري:٨٩/١٧.
(٦) الكشف والبيان عن تفسير القرآن:٣٣٧/٥.
(٧) تفسير النسفي:١٨٧/٢.
(٨) تفسير السعدي:٤٣٠.

قال ابن كثير:" إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته ، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم ، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع "[١].

قوله تعالى:{وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ} [الحجر : ٢٣]، أي:" ونحن الوارثون الأرض ومَن عليها"[٢].

قال الطبري:" يقول: ونحن نرث الأرض ومن عليها بأن نميت جميعهم، فلا يبقى حيّ سوانا إذا جاء ذلك الأجل"[٣].

قال النسفي: أي: "الباقون بعد هلاك الخلق كلهم، وقيل للباقي «وارث» استعارة من وارث الميت، لأنه يبقى بعد فنائه"[٤].

قال ابن كثير:" أخبر أنه ، تعالى ، يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون"[٥].

قال سفيان:" الوارث، الباقي"[٦].

القرآن

{وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤)} [الحجر : ٢٤]

التفسير:

ولقد علمنا مَن هلك منكم مِن لدن آدم، ومَن هو حيٌّ، ومَن سيأتي إلى يوم القيامة.

سبب النزول:

قال ابن عباس: "كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ، حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله [في شأنها][٧]:{ولقد علمنا المستقدمين المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين}"[٨].

وفي رواية:" فإذا سجدوا، نظروا إليها من تحت أيديهم"[٩].

وقال مروان بن الحكم: "كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء، قال: فأنزل الله "وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ}"[١٠].

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤)} [الحجر : ٢٤]، على وجوه:

أحدها : أن «المستقدمين»: من خلق ومن خلا من الأمم، و«المستأخرين»: من لم يخلق، قاله عكرمة[١١].

الثاني : «المستقدمين»: الذين ماتوا، و«المستأخرين»: الذين هم أحياء لم يموتوا ، قاله ابن عباس[١٢]، والضحاك[١٣].

قال الضحاك:" يقول: علمنا من مات ومن بقي"[١٤].

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٣١/٤.
(٢) التفسير الميسر:٢٦٣.
(٣) تفسير الطبري:٨٩/١٧.
(٤) تفسير النسفي:١٨٧/٢.
(٥) تفسير ابن كثير:٥٣١/٤.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٦٠):ص٢٢٦١/٧.
(٧) زيادة في الطبري:٩٤/١٧.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٦١).:ص٢٢٦١/٧، والطبري:٩٣/١٧-٩٤.
(٩) تفسير الطبري:٩٣/١٧.
(١٠) أخرجه الطبري:٩٣/١٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري:٩٠/١٧.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٦٤):ص٢٢٦٢/٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:٩١/١٧.
(١٤) أخرجه الطبري:٩١/١٧.

الثالث : «المستقدمين»:آدم عليه السلام ومن مضى من ذريته. و«المستأخرين»: من بقي في أصلاب الرجال. قاله ابن عباس[١]، ومجاهد[٢]، وعكرمة[٣]، وقتادة[٤].

وقال عكرمة:" إن الله خلق الخلق ففرغ منهم، فالمستقدمون: من خرج من الخلق، والمستأخرون: من بقي في أصلاب الرجال لم يخرج"[٥].

الرابع: «المستقدمين»: آدم ومن بعده، حتى نزول هذه الآية، و«المستأخرين»:: كلّ من كان من ذرّيته. قاله قتادة ايضا[٦].

الخامس: «المستقدمين»: أول الخلق ، و«المستأخرين»: آخر الخلق ، قاله الشعبي[٧].

السادس: «المستقدمين»: ما مضى من الأمم. و«المستأخرين»: أمة محمد ﷺ. قاله مجاهد[٨].

السابع: «المستقدمين»: الذين مضوا في أوّل الأمم، و«المستأخرين»: الباقون. قاله ابن زيد[٩].

الثامن : أن «المستقدمين»: في الخير، و«المستأخرين»: في الشر ، قاله الحسن[١٠].

قال الحسن:"المتقدمون في طاعة الله، والمستأخرون في معصية الله"[١١].

وفي رواية عن الحسن:" المستقدمين في الخير، و«المستأخرين»: يقول: المبطئين عنه"[١٢].

التاسع: «المستقدمين»: في صفوف الحرب ، و«المستأخرين»: فيها ، قاله سعيد بن المسيب[١٣]، ومقاتل بن سليمان[١٤].

عن مقاتل بن سليمان في قوله: "{ولقد علمنا المستقدمين منكم ...}، الآية، قال: بلغنا أنه في القتال. قال معتمر: فحدثت أبي فقال: لقد نزلت هذه الآية قبل إن يفرض القتال"[١٥].

العاشر : «المستقدمين»: الميت والمقتول، و«المستأخرين»: من يلحق بهم من بعد. قاله محمد بن كعب القرظي[١٦].

عن أبي معشر، قال: "سمعت عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود يذاكر محمد بن كعب في قول الله {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ}، فقال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: خير صفوف الرجال المقدّم، وشرّ صفوف الرجال المؤخَّر، وخير صفوف النساء المؤخَّر، وشرّ صفوف النساء المقدّم، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا، ولقد علمنا المستقدمين منكم: الميت والمقتول، والمستأخرين: من يلحق بهم مِن بعدُ، وإن ربك هو يحشرهم، إنه حكيم عليم، فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيرا"[١٧].

الحادي عشر : «المستقدمين»: في صفوف الصلاة ، و«المستأخرين» فيها. قاله ابن عباس[١٨]، ومروان بن الحكم[١]، وأبو الجوزاء[٢]، وبه قال الفراء[٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٦٥):ص٢٢٦٢/٧، وتفسير الطبري:٩١/١٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٩٠/١٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري:٩٠/١٧-٩١.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٩٠/١٧.
(٥) أخرجه الطبري:٩٠/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٩١/١٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري:٩٢/١٧.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٦٧).:ص٢٢٦٢/٧، وتفسير الطبري:٩٢/١٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٩١/١٧.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٦٣):ص٢٢٦٢/٧، وتفسير الطبري:٩٣/١٧.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٦٣):ص٢٢٦٢/٧.
(١٢) أخرجه الطبري:٩٣/١٧.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١٥٧/٣.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٦٢):ص٢٢٦١/٧-٢٢٦٢.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٦٢):ص٢٢٦١/٧-٢٢٦٢.
(١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٦٦):ص٢٢٦٢/٧، وتفسير الطبري:٩٠/١٧
(١٧) أخرجه الطبري:٩٠/١٧.
(١٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٦١).:ص٢٢٦١/٧، وتفسير الطبري:٩٣/١٧.

قال ابن جرير الطبري:" وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة قول من قال: معنى ذلك: ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدّم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم ممن هو حيّ ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعدُ، لدلالة ما قبله من الكلام، وهو قوله {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ}، وما بعده وهو قوله {وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ}، على أن ذلك كذلك، إذ كان بين هذين الخبرين، ولم يجر قبل ذلك من الكلام ما يدلّ على خلافه، ولا جاء بعد. وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصفّ لشأن النساء والمستأخرين فيه لذلك، ثم يكون الله عزّ وجلّ عمّ بالمعنى المراد منه جميع الخلق، فقال جلّ ثناؤه لهم: قد علمنا ما مضى من الخلق وأحصيناهم، وما كانوا يعملون، ومن هو حيّ منكم، ومن هو حادث بعدكم أيها الناس، وأعمال جميعكم خيرها وشرّها، وأحصينا جميع ذلك ونحن نحشر جميعهم، فنجازي كلا بأعماله، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا. فيكون ذلك تهديدًا ووعيدًا للمستأخرين في الصفوف لشأن النساء ولكلّ من تعدّى حدّ الله وعمل بغير ما أذن له به، ووعدا لمن تقدّم في الصفوف لسبب النساء، وسارع إلى محبة الله ورضوانه في أفعاله كلها"[٤].

القرآن

{وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)} [الحجر : ٢٥]

التفسير:

وإن ربك هو يحشرهم للحساب والجزاء، إنه حكيم في تدبيره، عليم لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى:{وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ} [الحجر : ٢٥]، أي:" وإن ربك هو يحشرهم للحساب والجزاء"[٥].

قال النسفي: " أي: هو وحده يقدر على حشرهم ويحيط بحصرهم"[٦].

عن قتادة:"{ وإن ربك هو يحشرهم}، قال: الأول والآخر"[٧].

قال عكرمة:" يحشر هؤلاء وهؤلاء"[٨].

قال السدي:" يحشر المستقدمين والمستأخرين"[٩].

قوله تعالى:{إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الحجر : ٢٥]، أي:" إنه حكيم في تدبيره، عليم لا يخفى عليه شيء"[١٠].

قال النسفي: " أي: باهر الحكمة واسع العلم"[١١].

قال السعدي:" {إنه حكيم} يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كل عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر"[١٢].

فوائد الآيات:[٢٣-٢٥]

١- تقرير التوحيد أن من هذه آثار قدرته هو الواجب أن يعبد وحده دون سواه.

٢- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٣- تقرير نبوة الرسول ﷺ إذ هذا الكلام كلام الله أوحاه إليه ﷺ.

٤- إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما: «الحكيم»، و«العليم»:

---

(١) انظر: تفسير الطبري:٩٣/١٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٩٣/١٧.
(٣) انظر: معاني القرآن:٨٨/٢.
(٤) تفسير الطبري:٩٤/١٧.
(٥) التفسير الميسر:٢٦٣.
(٦) تفسير النسفي:١٨٨/٢.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣٦٨):ص٢٢٦٢/٧.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣٦٩):ص٢٢٦٢/٧.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣٧٠):ص٢٢٦٢/٧.
(١٠) التفسير الميسر:٢٦٣.
(١١) تفسير النسفي:١٨٨/٢.
(١٢) تفسير السعدي:٤٣٠.

- ف:«الحكيم»: "هو المحكم لخلق الأشياء.قال تعالى:{آلر، تلك آيات الكتاب الحكيم} [يونس:١] وقال في موضع آخر: {كتاب أحكمت آياته} [هود: ١].

فدل على أن المراد بـ«الحكيم» هنا، الذي أحكمت آياته، صرف عن مفعل إلى فعيل، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها[١].

قال السعدي: "«الحكيم» هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره الذي أحسن كل شيء خلقه {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة:٥٠]، فلا يخلق شيئاً عبثا، ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى، والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه.

والحكمة: "وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها"[٢].

والحكيم: الموصوف بكمال الحكمة، وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم، والإطلاع على مبادئ الأمور، وعواقبها، واسع الحمد تام القدرة غزير الرحمة، فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه، وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

وحكمته نوعان:

أحدهما: الحكمة في خلقه فإنه خلق الخلق بالحق، ومشتملاً على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات، وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته، وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللاً، ولا نقصاً، ولا فطوراً، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن، والانتظام، والإتقان لم يقدروا، وأنى لهم القدرة على شيء من ذلك وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيراً من حكمه، ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن، والإتقان.

وهذا أمر معلوم قطعاً بما يعلم من عظمته، وكمال صفاته، وتتبع حكمه في الخلق، والأمر، وقد تحدى عباده، وأمرهم أن ينظروا، ويكرروا النظر، والتأمل هل يجدون في خلقه خللاً أو نقصاً، وأنه لابد أن ترجع الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته.

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع، وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد، ويعبدوه، فأي حكمة أجل من هذا، وأي فضل، وكرم أعظم من هذا، فإن معرفته تعالى، وعبادته وحده لا شريك له، واخلاص العمل له وحده، وشكره، والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق.

وأجل الفضائل لمن منَّ الله عليه بها، وأكمل سعادة، وسروراً للقلوب، والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية، والنعيم الدائم، فلو لم يكن في أمره، وشرعه إلا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات، وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة، وحق الجزاء، وخلقت الجنة، والنار، لكانت كافية شافية.

هذا وقد اشتمل شرعه، ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علماً، ويقيناً، وإيماناً، وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب، ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل، وعمل صالح، وهدى، ورشد، وأوامره، ونواهيه محتوية على عناية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا فإنه لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة ولا ينهي إلا عما مضرته خالصة أو راجحة.

---

(١) انظر: شأن الدعاء، للخطابي:٧٣-٧٤.
(٢) تفسير السعدي:٩٤٦.

ومن حكمة الشرع الإسلامي أنه كما أنه هو الغاية لصلاح القلوب، والأخلاق، والأعمال، والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحاً حقيقياً إلا بالدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة محمد لما كانوا قائمين بهذا الدين أصوله، وفروعه، وجميع ما يهدي، ويرشد إليه كانت أحوالهم في غاية الاستقامة، والصلاح، ولما انحرفوا عنه، وتركوا كثيراً من هداه، ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم.

وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى التي بلغت في القوة، والحضارة، والمدنية مبلغاً هائلاً، ولكن لما كانت خالية من روح الدين، ورحمته، وعدله كان ضررها أعظم من نفعها، وشرها أكبر من خيرها، وعجز علماؤها، وحكماؤها، وساساتها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدروا على ذلك ماداموا على حالهم، ولهذا كان من حكمته تعالى أن ما جاء به محمد ﷺ من الدين، والقرآن أكبر البراهين على صدقه، وصدق ما جاء به لكونه محكماً كاملاً لا يحصل إلا به، وبالجملة، فالحكيم متعلقاته المخلوقات، والشرائع، وكلها في غاية الإحكام، فهو الحكيم في أحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية.

والفرق بين أحكام القدر، وأحكام الشرع أن القدر متعلق بما أوجده، وكونه وقدره، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وأحكام الشرع متعلقة بما شرعه، والعبد المربوب لا يخلو منهما أو من أحدهما، فمن فعل منهم ما يحبه الله، ويرضاه فقد اجتمع فيه الحكمان، ومن فعل ما يضاد ذلك فقد وجد فيه الحكم القدري، فإن ما فعله واقع بقضاء الله، وقدره، ولم يوجد فيه الحكم الشرعي لكونه ترك ما يحبه الله، ويرضاه.

فالخير، والشر، والطاعات، والمعاصي كلها متعلقة، وتابعة للحكم القدري، وما يحبه الله منها هو تابع للحكم الشرعي، ومتعلقه، والله أعلم"[١].

-ومن أسمائه تعالى:«العليم»، أي: "المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٢].

قال السعدي:" هو الذي أحاط علمه بالظواهر، والبواطن، والإسرار، والإعلان، والواجبات، والمستحيلات، والممكنات. وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي، والحاضر، والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء"[٣].

قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[٤].

القرآن

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦)} [الحجر : ٢٦]

التفسير:

---

(١) أسماء الله الحسنى للسعدي:١٨٦-١٨٩.

(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

(٣) تفسير أسماء الله الحسنى :١٩٥.

(٤) شأن الدعاء:٥٧.

ولقد خلقنا آدم مِن طين يابس إذا نُقِر عليه سُمع له صوت، وهذا الطين اليابس من طين أسود متغيِّر لونه وريحه؛ مِن طول مكثه.

قال السعدي:" يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام، وما جرى من عدوه إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وفتنته فقال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان} أي آدم عليه السلام {من صلصال من حمإ مسنون} أي: من طين قد يبس بعد ما خمر حتى صار له صلصلة وصوت، كصوت الفخار، والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه وريحه من طول مكثه"[1].

وفي معنى «صَلْصَالٍ»، أقوال:

أحدها : أنه الطين اليابس الذي لم تصبه نار، فإذا نقرته صل فسمعت له صلصلة ، قاله ابن عباس[2]، وقتادة[3]، ومنه قول الشاعر[4]:

وقاعٍ ترى الصَّلصال فيه ودونه ... بقايا بلالٍ بالقرى والمناكبِ

قال الماوردي:"«الصلصة»: الصوت الشديد المسموع من غير الحيوان، وهو مثل القعقعة في الثوب"[5].

قال أبو عبيدة:" «الصلصال»: الطّين اليابس لذى لم تصبه نار فإذا نقرته صلّ فسمعت له صلصلة فإذا طبح بالنار فهو فخّار وكل شيء له صلصلة، صوت فهو صلصال سوى الطين، قال الأعشى[6]:

عنتريس تعدو إذا حرّك السّو ... ط كعدو المصلصل الجوال"[7].

قال الزجاج:" الصلصال الطين اليابس الذي يصل ليبسه، ومعنى يصل يصوت، قال الشاعر:

رجعت إلى صدر كجرة حنتم إذا قرعت صفرا من الماء صلت"[8].

وقال الضحاك:" طين صُلْب يخالطه الكثيب"[9].

وقال مجاهد:" التراب اليابس"[10].. وقال "الصلصال: الذي يصلصل، مثل الخَزَف من الطين الطيب"[11].

الثاني : أنه طين خلط برمل، قاله ابن عباس ايضا[12]، وعكرمة[13]. وبه قال الفراء[14].

الثالث : أنه الطين المنتن، قاله مجاهد[15]، مأخوذ من قولهم : «صَلَّ اللحمُ وأصَلَّ»، إذا أنتن ، قال الشاعر[16]:

ذَاكَ فَتًى يَبْذُلُ ذَا قِدْرِةٍ ... لَا يُفْسِدُ اللَّحْمَ لَدَيْهِ الصُّلُولُ

الرابع: أنه الطين تعصره بيدك فيخرج الماء من بين أصابعك. قاله ابن عباس ايضا[1].

---

(١) تفسير السعدي:٤٣٠.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٧٢)، و(١٢٣٧٤):ص٢٢٦٣/٧، وتفسير الطبري:٩٥/١٧-٩٦.

(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٣٧٥):ص٢٢٦٣/٧، وتفسير الطبري:٩٦/١٧.

(٤) البيت غير منسوب في النكت والعيون:١٥٧/٣، وتفسير السمعاني:١٣٧/٣.

(٥) النكت والعيون:١٥٧/٣.

(٦)ديوانه ٨- والكامل ٤٨٩، واللسان والتاج (صلصل) . وقال ثعلب:
روى أبو عبيدة السوط وروى «إذا حرك الصوت» (شرح الديوان).

(٧) مجاز القرآن:٣٥٠/١-٣٥١.

(٨) معاني القرآن:١٧٨/٣.

(٩) أخرجه الطبري:٩٦/١٧.

(١٠) أخرجه الطبري:٩٦/١٧.

(١١) أخرجه الطبري:٩٦/١٧.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٧٣):ص٢٢٦٣/٧.

(١٣) انظر: النكت والعيون:١٥٧/٣.

(١٤) انظر: معاني القرآن:٨٨/٢.

(١٥) انظر:تفسير الطبري:٩٧/١٧.

(١٦) البيت غير منسوب في النكت والعيون:١٥٧/٣، وللحطيئة في تفسير القرطبي: ٢١/١٠، وفتح القدير للشوكاني: ١٥٥/٣.

قال ابن جرير الطبري:" والذي هو أولى بتأويل الآية أن يكون الصلصال في هذا الموضع الذي له صوت من الصلصلة، وذلك أن الله تعالى وصفه في موضع آخر فقال {خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} فشبهه تعالى ذكره بأنه كان كالفخَّار في يُبسه. ولو كان معناه في ذلك المُنتِن لم يشبهه بالفخارّ، لأن الفخار ليس بمنتن فيشبَّه به في النتن غيره"[٢].

و«الحمأ»: "جمع حَمْأة، وهو الطين المتَغيِّر إلى السواد""[٣].

وفي «مَسْنُونٍ»، سبعة أقوال:

أحدها : أن «المسنون»: المنتن المتغير، من قولهم قد أسن الماء إذا تغير ، قاله ابن عباس[٤]، ومجاهد[٥]، وقتادة[٦]، والضحاك[٧]، وبه قال ابن جرير الطبري[٨]، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :

سَقَتْ صدايَ رضاباً غير ذي أَسَنٍ ... كالمسكِ فُتَّ على ماءِ العناقيد

قال الفراء:" «المسنون»: المتغير والله أعلم أخذ من سننت الحجر على الحجر، والذي يخرج مما بينهما يقال له: السنين"[٩].

قال الزجاج:" «مسنون»: قيل فيه متغير. وإنما أخذ من أنه. على سنة الطريق، لأنه إنما تغير إذا قام بغير ماء جار"[١٠].

الثاني : أن «المسنون» المنصوب القائم ، من قولهم: وجه مسنون ، حكاه الماوردي عن الأخفش[١١].

الثالث : أن «المسنون» المصبوب ، من قولهم سنيتُ الماء على الوجه إذا صببته عليه ، قاله أبو عمرو بن العلاء[١٢]، وابو عبيدة[١٣].

ومنه الأثر المروي عن عمر :"أنه كان يسن الماء على وجهه ولا يشنُّه ، والشن تفريق الماء ، والسن صبه"[١٤].

الرابع : أن «المسنون»: المتغير، وهو الذي يحك بعضه بعضاً، أخذ من قولهم: سننت الحجر على الحجر إذا حككت أحدهما بالآخر، والذي يخرج مما بينهما يقال له: السنين، ومنه سمي المسَنّ لأن الحديد يسن عليه ، قاله الفراء[١٥].

الخامس : أن «المسنون»: المنسوب[١٦].

السادس : أنه الرطب ، قاله ابن عباس أيضا[١٧]، وابن أبي طلحة[١٨].

السابع : أنه المخلص من قولهم: سن سيفك أي اجلهُ[١٩].

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٧٦):ص٢٢٦٣/٧.
(٢) تفسير الطبري:٩٧/١٧.
(٣) تفسير الطبري:٩٧/١٧.
(٤) انظر تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٧٨):ص٢٢٦٣/٧، وتفسير الطبري:٩٨/١٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٩٨/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٩٨/١٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري:٩٨/١٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٩٧/١٧-٩٨.
(٩) معاني القرآن:٨٨/٢.
(١٠) معاني القرآن:١٧٩/٣.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٥٨/٣.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٥٨/٣.
(١٣) انظر: مجاز القرآن:٣٥١/١.
(١٤) انظر: النكت والعيون:١٥٨/٣.
(١٥) انظر: معاني القرآن:٨٨/٢.
(١٦) انظر: النكت والعيون:١٥٨/٣.
(١٧) انظر تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٧٧):ص٢٢٦٣/٧، وتفسير الطبري:٩٩/١٧.
(١٨) انظر: النكت والعيون:١٥٨/٣.
(١٩) انظر: النكت والعيون:١٥٨/٣.

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: "قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} [الحجر: ٢٦] الآية. ظاهر هذه الآية أن آدم خلق من صلصال: أي طين يابس، وقد جاء في آيات أخر ما يدل على خلاف ذلك كقوله تعالى: {مِنْ طِينٍ لازِبٍ} [الصافات: ١١] وكقوله: {كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ} [آل عمران: ٥٩] .

الجواب: أنه ذكر أطوار ذلك التراب، فذكر طوره الأول بقوله: "من تراب"، ثم بل فصار طينًا لازبًا، ثم خُمِّر فصار حمأ مسنونًا، ثم يبس فصار صلصالاً كالفخار. هذا واضح، والعلم عند الله تعالى"[١].

قال **أبو الحسين المَلَطي** العسقلاني:" وأما قوله لآدم عليه السلام : {خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب} [آل عمران : ٥٩]، وقال في آية أخرى : {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [الرحمن : ١٤]، وقال في آية أخرى : {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} [الحجر : ٢٦]، فكان هذا عند من يجهل التفسير ينقض بعضه بعضا وليس بمنتقض ولكن تفسيرهن في اختلاف الحالات مشتبه:

أما قوله لآدم {خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ} [آل عمران : ٥٩]، فإن بدء خلقه كان من تراب من أديم الأرض فذلك قوله: {خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ}، فحول التراب بالماء إلى الطين فذلك قوله: {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} [السجدة : ٧]، فصار طينا إذا قبض عليه انسل فذلك قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} [المؤمنون : ١٢]، فترك حتى تغير ريحه، فذلك قوله : {مِنْ حَمَإٍ مَسْنُون} [الحجر : ٢٦، ٢٨، ٣٣]، يعني: من حمإ متغير الريح وكان طينا لاصقا جيدا فذلك قوله : {طِينٍ لَازِب} [الصافات : ١١]، يعني: لاصقا جيدا ثم صوره فتركه مصورا حتى جف فإذا حرك صار له قعقعة بمنزلة الطين الجيد إذا ذهب عنه الماء تشقق وصار له صوت كصوت الفخار فذلك قوله: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [الرحمن : ١٤]، ثم نفخ فيه الروح فصار لحما ودما فأراد أن ينهض قبل أن تتم الروح فيه فذلك قوله : {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَل} [الأنبياء : ٣٧]، ثم جعل نسله من ماء مهين يعني خلق ذريته من النطفة التي تنسل من الإنسان والمهين الضعيف"[٢].

القرآن

{وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)} [الحجر : ٢٧]

التفسير:

وخلقنا أبا الجن، وهو إبليس مِن قَبْل خلق آدم من نار شديدة الحرارة لا دخان لها.

قال الطبري:" عني بالجانّ هاهنا: إبليس أبا الجنّ. يقول تعالى ذكره: وإبليس خلقناه من قبل الإنسان من نار السموم"[٣].

وفي «الجان»، ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه إبليس، خُلق قبل آدم. قاله الحسن[٤]، وقتادة[٥]، وبه قال ابن جرير الطبري[٦].

قال قتادة:" وإنما خلق آدم آخر الخلق، فحسده عدوّ الله إبليس على ما أعطاه الله من الكرامة، فقال: أنا ناريّ، وهذا طينيّ، فكانت السجدة لآدم، والطاعة لله تعالى ذكره، فقال {اخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}"[٧].

الثاني : أنهم الجن حكاه ابن شجرة[٨].

---

(١)دفع إيهام الاضطراب: ١٠/١١٨.
(٢)التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع: ٦٨-٦٩.
(٣) تفسير الطبري:٩٩/١٧.
(٤) انظر: النكت والعيون:١٥٨/٣.
(٥)انظر: تفسير الطبري:٩٩/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٩٩/١٧.
(٧) أخرجه الطبري:٩٩/١٧.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٥٨/٣.

الثالث : أنه أبو الجن قاله الكلبي[1]، فآدم أبو الإنس ، والجان : أبو الجن ، وإبليس أبو الشياطين.

قال ابن عباس:" كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ، خُلقوا من نار السموم من بين الملائكة. قال: وخُلقت الجنّ الذين ذُكروا في القرآن من مارج من نار"[2].

وقال ابن عباس : "الجان أبو الجن وليسوا شياطين، والشياطين ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس . والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر"[3].

عن وهب بن منبه:" وسئل عن الجنّ ما هم، وهل يأكلون أو يشربون، أو يموتون، أو يتناكحون؟ قال: هم أجناس، فأما خالص الجنّ فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون. ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون ويموتون، وهي هذه التي منها السعالِي والغُول وأشباه ذلك"[4].

وفي قوله تعالى:{ مِنْ نَارِ السَّمُومِ} [الحجر : ٢٧]، وجوه من التفسير:

أحدها : يعني: من لهب النار ، قاله ابن عباس[5]، والضحاك[6].

الثاني : أن «نار السموم»: الحارة التي تقتل. قاله ابن عباس أيضا[7].

الثالث: «السموم» التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم. قاله ابن مسعود[8].

عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رؤيا المؤمن جزء من سبعين جزءا من النبوة، وهذه النار جزء من سبعين جزءا من نار السموم التي خلق منها الجان»، وتلا هذه الآية :{والجان خلقناه من قبل من نار السموم}"[9].

يعني من نار الشمس، إذ خلق الجان والشياطين منها . قاله عمرو بن دينار[10].

الرابع :معناه: من حر السموم ، و«السموم»: الريح الحارة . ذكره ابن عيسى[11].

الخامس : أن «نار السموم»: نار الصواعق بين السماء وبين حجاب دونها ، قاله الكلبي[12].

قال الماوردي:"وسمي سموماً لدخوله في مسام البدن"[13].

فوائد الآيتين:[٢٦-٢٧]:

١- بيان أصل خلق الإنسان وهو الطين، والجان وهو لهب النار.

٢- أن الله -عز وجل- خلق الجن قبل الإنس، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ} [الحجر:٢٦-٢٧]

٣- أن الجن من مخلوقات الله -عز وجل- والمسلم يؤمن بأن الجن خلقوا من النار، وعن عائشة قالت قال رسول الله - ﷺ - «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم»[14].

والمسلم يؤمن بأن الجن مأمور مثل الإنسان بطاعة الله، وأن يجعلوا حياتهم كلها طبقا لما أراده الله، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات : ٥٦].

---

(١) انظر: النكت والعيون:١٥٨/٣.
(٢) أخرجه الطبري:١٠٠/١٧.
(٣) النكت والعيون:١٥٧/٣، وتفسير القرطبي:٢٥/١٠.
(٤) أخرجه الطبري:١٠٠/١٧.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٥٩/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٠٠/١٧.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٨٠).:ص٢٢٦٣/٧
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٨١).:ص٢٢٦٣/٧-٢٢٦٤
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٨٢).:ص٢٢٦٤/٧
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٨٣):ص٢٢٦٤/٧.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٥٩/٣.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٥٩/٣.
(١٣) النكت والعيون:١٥٩/٣.
(١٤) أخرجه مسلم برقم (٧٦٨٧) المارج: لهب النار المختلط بسواها.

والمسلم يؤمن بأن الله -عز وجل- أرسل نبيه محمدا إلى كل من الإنس والجن، عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال «فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون»(١).

القرآن

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨)} [الحجر : ٢٨]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- حين قال ربك للملائكة: إني خالق إنسانًا من طين يابس، وهذا الطين اليابس من طين أسود متغيِّر اللون.

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ}[الحجر:٢٨]، "أي اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك"(٢).

قال النسفي: أي:" واذكر وقت قوله {للملائكة ..."(٣).

قال الصابوني:" أي: اذكر يا محمد وقت قول ربك للملائكة"(٤).

قال ابن عثيمين:" و"الملائكة" جمع "مَلْئَك"، وأصله "مألك"؛ لأنه مشتق من الأَلُوكة . وهي الرسالة؛ لكن صار فيها إعلال بالنقل . أي نقل حرف مكان حرف آخر؛ مثل أشياء أصلها: "شيئاء"؛ و "الملائكة" عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وجعل لهم وظائف، وأعمالاً مختلفة؛ فمنهم الموكل بالوحي كجبريل؛ وبالقطر، والنبات كميكائيل؛ وبالنفخ في الصور كإسرافيل؛ وبأرواح بني أدم كملك الموت.. إلى غير ذلك من الوظائف، والأعمال"(٥).

قال ابن عطية:"وقال الجمهور: [أن «إِذْ»] ليست بزائدة، وإنما هي معلقة بفعل مقدر تقديره: واذكر إذ قال"(٦).

قوله تعالى: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}[الحجر:٢٨]، "أي: إني خالق إنسانًا من طين يابس، وهذا الطين اليابس من طين أسود متغيِّر اللون"(٧).

قال أبو الليث السرمقندي: يعني: "سأخلق خلقا من صلصال من حمإ مسنون"(٨).

قال الصابوني:" إني خالق بشراً من طين يابسٍ، أسود متغيّر"(٩).

قال ابن كثير:" يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له"(١٠).

القرآن

{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)} [الحجر : ٢٩]

التفسير:

فإذا سوَّيته وأكملت صورته ونفخت فيه الروح، فخُرُّوا له ساجدين سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة.

قوله تعالى:{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ} [الحجر : ٢٩]، أي:" فإذا سوَّيته وأكملت صورته"(١١).

قال الطبري:"يقول: فإذا صوّرته فعدَّلت صورته"(١٢).

---

(١) رواه مسلم برقم (١١٩٥).
(٢) صفوة التفاسير: ٤١/١.
(٣) تفسير النسفي:١٨٨/٢.
(٤) صفوة التفاسير:١٠٠/٢.
(٥) تفسير ابن عثيمين: ١١٢/١.
(٦) المحرر الوجيز: ١١٦/١.
(٧) التفسير الميسر:٢٦٣.
(٨)بحر العلوم:٢٥٥/٢ .
(٩) صفوة التفاسير:١٠٠/٢.
(١٠) تفسير ابن كثير:٥٣٥/٤.
(١١) التفسير الميسر:٢٦٣.
(١٢) تفسير الطبري:١٠٠/١٧-١٠١.

قال أبو الليث السرمقندي:" أي: جمعت خلقه"[1].

قال الزمخشري:" واذكر وقت، قوله {سويته}، عدلت خلقته وأكملتها وهيأتها لنفخ الروح فيها"[2].

قوله تعالى:{وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} [الحجر : ٢٩]، أي:" ونفخت فيه الروح"[3].

قال الطبري:" فصار بشرا حيا"[4].

قال أبو الليث السرمقندي:" أي: جعلت الروح فيه"[5].

قال الزمخشري:" ومعنى «ونفخت فيه من روحي»: وأحييته، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه"[6].

قوله تعالى:{فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر : ٢٩]، أي:" فخُرُّوا له ساجدين سجود تحية وتكريم"[7].

قال أبو الليث السرمقندي:" أي: فخروا له سجدا"[8].

قال الطبري:أي:" سجود تحية وتكرمة لا سجود عبادة"[9].

و«السجود»، معناه في كلام العرب التذلل والخضوع، قال الشاعر[10]:

يجمع تضل البلق في حجراته ترى الأكم فيها سجدا للحوافر

و«الأكم»: الجبال الصغار، جعلها سجدا للحوافر لقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها. وعين ساجدة، أي فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض[11].

و«السجود» أصله: الانحناء والتذلل، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته، وهو عام في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، وذلك ضربان: سجود باختيار، وليس ذلك إلا للإنسان، وبه يستحق الثواب، نحو قوله: {فاسجدوا لله واعبدوا} [النجم:٦٢]، أي: تذللوا له، وسجود تسخير، وهو للإنسان، والحيوانات، والنبات، وعلى ذلك قوله: {ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال} [الرعد:١٥]، وقوله: {يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله} [النحل:٤٨]، فهذا سجود تسخير، وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة، وأنها خلق فاعل حكيم، وقوله: {ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون} [النحل:٤٩]، ينطوي على النوعين من السجود، التسخير والاختيار، وقوله: {والنجم والشجر يسجدان} [الرحمن:٦]، فذلك على سبيل التسخير، وقوله: {اسجدوا لآدم} [البقرة:٣٤]، قيل: أمروا بأن يتخذوه قبلة، وقيل: أمروا بالتذلل له، والقيام بمصالحه، ومصالح أولاده، فائتمروا إلا إبليس، وقوله: {ادخلوا الباب سجدا} [النساء:١٥٤]، أي: متذللين منقادين، وخص السجود في الشريعة بالركن المعروف من الصلاة، وما يجري مجرى ذلك من سجود القرآن، وسجود الشكر، وقد يعبر به عن الصلاة بقوله: {وأدبار السجود} [ق:٤]، أي: أدبار الصلاة، ويسمون صلاة الضحى: سبحة الضحى، وسجود الضحى، {وسبح بحمد ربك} [طه:١٣٠] قيل: أريد به الصلاة[12]، والمسجد: موضع الصلاة اعتبارا بالسجود، وقوله: {وأن المساجد لله} [الجن:١٨]، قيل: عني به الأرض، إذ قد جعلت الأرض كلها مسجدا

---

(١)بحر العلوم:٢/٢٥٥ .
(٢) الكشاف:٢/٥٧٧.
(٣) التفسير الميسر:٢٦٣.
(٤) تفسير الطبري:١٧/١٠١.
(٥)بحر العلوم:٢/٢٥٥ .
(٦) الكشاف:٢/٥٧٧.
(٧) التفسير الميسر:٢٦٣.
(٨)بحر العلوم:٢/٢٥٥ .
(٩) تفسير الطبري:١٧/١٠١.
(١٠) البيت ورد في اللسان: مادة (س ج د).
(١١) انظر: تفسير القرطبي: ١/٢٩١.
(١٢)(أخرج عبد الرزاق وغيره عن ابن عباس في الآية قال: هي الصلاة المكتوبة).

وطهورا كما روي في الخبر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتح خزائن الأرض فتلت في يدي"(١).

وقيل: «المساجد»: مواضع السجود: الجبهة والأنف واليدان والركبتان والرجلان، وقوله: {ألا يسجدوا لله} [النمل:٢٥](٢) أي: يا قوم اسجدوا، وقوله: {وخروا له سجدا} [يوسف:١٠٠]، أي: متذللين، وقيل: كان السجود على سبيل الخدمة في ذلك الوقت سائغا، ومنه قول الشاعر(٣):

وافى بها لدراهم الإسجاد من خمر ذي نطف أغن منطق

عنى بها دراهم عليها صورة ملك سجدوا له(٤).

والإسجاد : إدامة النظر، قال أبو عمرو: وأسجد إذا طأطأ رأسه، قال(٥):

فضول أزمتها أسجدت سجود النصارى لأحبارها

يقول: لما ارتحلن ولوين فضول أَزِمَّة جمالهن على معاصمهن أَسْجدت لهن.

قال أبو عبيدة : وأنشدني أعرابي من بني أسد(٦):

وقلن له أسجد لليلى فأسجدا

يعني بعيرها أنه طأطأ رأسه لتركبه(٧).

وأخرج الطبري: " عن قتادة ، قوله : {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}، فكانت الطاعة لله ، والسجدة لآدم ، أكرم الله آدم أن أسْجَد له ملائكته"(٨).

قال ابن عباس:" لما خلق الله الملائكة قال: إني خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، فقالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم، وخلق ملائكة أخرى، فقال: إني خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، فأبَوا، قال: فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة أخرى، فقال: إني خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، فأبوا، فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة، فقال: إني خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، فقالوا: سمعنا وأطعنا، إلا إبليس كان من الكافرين الأوّلين"(٩).

وقد استدل من فضل آدم وبنيه بقوله تعالى للملائكة :{اسْجُدُوا لآدَمَ}، قالوا: وذلك يدل على أنه كان أفضل منهم، وهذا القول فيه نظر.

وحكى النقاش عن مقاتل: "أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يخلقه"(١٠).قال ابن عطية: "والقرآن يرد على هذا القول"(١١).

وقال قوم: "سجود الملائكة كان مرتين"(١٢). قال ابن عطية: "والإجماع يرد هذا"(١٣).

---

(١)أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ٢٠٩/١٣؛ وانظر: شرح السنة ١٩٨/١٣).

(٢)(هي بتخفيف ألا، على أنها للاستفتاح، وبها قرأ الكسائي ورويس وأبو جعفر. الإتحاف ٣٣٦).

(٣) البيت للأسود بن يعفر، ورد في المفضليات ص ٢١٨؛ والمجمل ٤٨٦/٢).

(٤) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني: ٣٥٨/١.

(٥) البيت لحميد بن ثور يصف النساء، انظر: اللسان: مادة (س ج د). قال ابن بري صواب إنشاده:

فلما لَوَيْنَ على مِعْصَمٍ وكَفٍّ خضيبٍ وأَسوارِها،

فُضولَ أَزِمَّتِها، أَسْجدت سجودَ النصارى لأَحْبارِها

(٦) انظر: اللسان مادة(س ج د)، والمزهر: ٢٣٨/١.

(٧) انظر: اللسان: مادة(س ج د)، و تفسير القرطبي: ٢٩١/١.

(٨) تفسير الطبري(٧٠٧):ص٥١٢/١.

(٩) أخرجه الطبري:١٠١/١٧.

(١٠) نقلا عن: المحرر الوجيز: ١٢٤/١.

(١١) المحرر الوجيز: ١٢٤/١.

(١٢) المحرر الوجيز: ١٢٤/١.

(١٣) المحرر الوجيز: ١٢٤/١.

واختلف اهل العلم في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة، وذكروا وجوها في ذلك(١):

أحدها: كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة، لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع، وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا، ومعنى "لآدم" : إلى آدم، كما يقال صلى للقبلة، أي إلى القبلة. وهذا قول الجمهور.

والثاني: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض، ولكنه مبقى على أصل اللغة، فهو من التذلل والانقياد، أي اخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل، {فَسَجَدُوا} أي امتثلوا ما أمروا به.

قال ابن عطية: " وفي هذه الوجوه كلها كرامة لآدم عليه السلام"(٢).

واختلف أيضا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام أم كان مباحا إلى عصر الرسول-ﷺ-، وفيه قولين:

أحدهما: أن ذلك السجود كان خاصا بآدم فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى.

والثاني: أن ذلك السجود كان جائزا بعد آدم إلى زمان يعقوب عليه السلام، لقوله تعالى : {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً} [يوسف : ١٠٠] فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين.

والصحيح: أن سجود التحية والإكرام كان مباحا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مباحا في الشرائع السابقة إلى أن نسخ في شريعتنا، ومن المعلوم أن السجود لغير الله على وجه العبادة لم يكن مباحاً في أية شريعة فكل الأنبياء نهوا عن ذلك وبلغوا أقوامهم، روي عن عبدالله بن أبي أوفى أنه: لمَّا قدِمَ معاذٌ منَ الشَّامِ سجدَ للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ قالَ ما هذا يا مُعاذُ قالَ أتيتُ الشَّامَ فوافقتُهُم يسجُدونَ لأساقفتِهِم وبطارقتِهِم فوَدِدْتُ في نَفسي أن نفعلَ ذلِكَ بِكَ فقالَ رسولُ اللَّهِ -ﷺ-:" فلا تفعَلوا فإنِّي لو كُنتُ آمرًا أحدًا أن يسجُدَ لغيرِ اللَّهِ لأمَرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزوجِها والَّذي نَفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لا تؤدِّي المرأةُ حقَّ ربِّها حتَّى تؤدِّيَ حقَّ زوجِها ولو سألَها نفسَها وَهيَ علَى قتَبٍ لم تمنعْهُ"(٣).

ومعنى القتب أن العرب يعز عندهم وجود كرسي للولادة فيحملون نساءهم على القتب عند الولادة، وفي بعض طرق معاذ : ونهى عن السجود للبشر وأمر بالمصافحة(٤).

والذي عليه جمهور أهل العلم بلا خلاف ولا نزاع بينهم أن هذا السجود من معاذ – رضي الله عنه- كان سجود تحية لا عبادة إذ كيف يجهل هذا الصحابي الجليل أن سجود العبادة لا ينبغي إلا لله.

وتجدر الاشارة بأن السجود كان فيما مضى يستعمل تحية وإكراما كما فعل أبوا يوسف وإخوته وكما فعلت الملائكة لآدم هذا من باب التحية والإكرام وليس من باب العبادة، وأما في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام فإن الله -عز وجل- منع من ذلك وجعل السجود لله وحده سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يسجد لأحد لا للأنبياء ولا غيرهم، حتى محمد عليه الصلاة والسلام منع أن يسجد له أحد وأخبر أن السجود لله وحده سبحانه وتعالى، فعلم بهذا أن جميع أنواع العبادة كلها لله وحده سبحانه وتعالى، ومن أعظمها السجود فإنه ذلك وانكسار لله سبحانه وتعالى فهو من أفضل العبادات فلا يصرف لغيره من الناس لا للأنبياء ولا للجن ولا للإنس ولا لغيرهم، والله المستعان.

القرآن

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢٩٣/١.

(٢) المحرر الوجيز: ١٢٤/١.

(٣) صحيح ابن ماجة(١٥١٥)، حديث حسن صحيح.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٢٩٣/١.

{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠)} [الحجر : ٣٠]

التفسير:

فسجد الملائكة كلهم أجمعون كما أمرهم ربهم لم يمتنع منهم أحد.

قال مكي بن ابي طالب:" يعني: ملائكة السماوات والأرض"[(١)].

قال ابن كثير:" فسمعوا كلهم وأطاعوا"[(٢)].

قال ابن عثيمين:" فـ«الفاء» هنا للترتيب، والتعقيب"[(٣)].

قال سيبويه والخليل: "«أجمعون» توكيد بعد توكيد، وقال محمد بنيزيد: «أجمعون» يدل على اجتماعهم في السجود، المعنى فسجدوا كلهم في حال واحدة"[(٤)].

قال الزجاج:"وقول سيبويه والخليل أجود، لأن أجمعين معرفة، فلا يكون حالا"[(٥)].

القرآن

{إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١)} [الحجر : ٣١]

التفسير:

لكن إبليس امتنع أن يسجد لآدم مع الملائكة الساجدين.

قال الواحدي:أي:" امتنع"[(٦)].

قال مكي بن ابي طالب:" أي: تعاظم وتكبَّر عن السجود"[(٧)].

قال الزمخشري:" واستثنى إبليس من الملائكة، لأنه كان بينهم مأمورا معهم بالسجود، فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغليب كقولك: رأيتهم إلا هندا. و{أبى} استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه. وقيل: معناه: ولكن إبليس أبى"[(٨)].

قال الزجاج:" «إبليس» مستثنى وليس من الملائكة إنما هو من الجن كما قال عز وجل: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف : ٥٠]، وهو منصوب استثناء ليس من الأول، كما قال: {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء : ٧٧] المعنى: لكن إبليس أبى أن يكون"[(٩)].

قال ابن عطية: "وتلك معصية كفر، لأنها عن معتقد فاسد صدرت"[(١٠)].

قال القشيري:" يقال بخل بسجدة واحدة، وقال: أستنكف أن أسجد لغير الله. ثم من شقاوته لا يبالى بكثرة معاصيه، فإنه لا يعصى أحد إلّا وهو سبب وسواسه، وداعيه إلى الزّلّة.

وذلك هو عين الشّقوة وقضية الخذلان"[(١١)].

ولفظة «إبليس» لغة : أبلس الرجل قُطِع به، وأبلس سكت، وأبلس من رحمة الله يئس وندم ومنه سُمِّي إبليس لأنه أبلس من رحمة الله وقيل : إبليس لا ينصرف لأنه أعجمي معرفة، والمبلس الساكت من الحزن أو الخوف،والإبلاس الحَيْرة[(١٢)].

فيمكن القول بأن (إبليس) (إفعِيل)، من الإبلاس، وهو الإياس من الخير والندمُ والحزن[(١)]، ومن ذلك قوله جل ثناؤه : (فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) [سورة الأنعام : ٤٤]، أي: " أنهم آيسون من الخير، نادمون حزنًا"[(٢)]، كما قال العجَّاج[(٣)]:

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية:٦٢٨٦/١٠.
(٢) تفسير ابن كثير:٣٩١/٣.
(٣) تفسير ابن عثيمين:١٢٥/١.
(٤) معاني القرآن للزجاج:١٧٩/٣.
(٥) معاني القرآن:١٧٩/٣.
(٦) الوجيز:١٠٠.
(٧) الهداية إلى بلوغ النهاية:٦٢٨٦/١٠.
(٨) الكشاف:٥٧٧/٢.
(٩) معاني القرآن:١٧٩/٣.
(١٠) المحرر الوجيز: ١٢٥/١.
(١١) لطائف الإشارات:٢٧٠/٢.
(١٢)لسان العرب:٢٩/٦- ٣٠.

يَا صَاحِ، هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسَا؟ قَالَ : نَعَمْ، أَعْرِفُهُ! وَأَبْلَسَا

وقال رؤبة [٤]:

وَحَضَرَتْ يَوْمَ الْخَمِيسِ الأَخْمَاسْ وَفِي الْوُجُوهِ صُفْرَةٌ وَإِبْلاسْ

يعني به اكتئابًا وكسوفًا.

وأخرج الطبري " عن السُّدّيّ ، قال : كان اسم إبليس (الحارث)، وإنما سمي إبليس حين أبلس متحيِّرًا"[٥].

وقال ابن عباس:" إبليس ، أبلسه الله من الخير كله ، وجعله شيطانًا رجيمًا عقوبة لمعصيته"[٦].

وفي مفهوم الشرع لا يُوجد تعريف اصطلاحي لإبليس في الشرع، إذ هو مخلوق معروف لدى الأديان الأخرى، وهو رمزُ الشرّ عند كل شعب من الشعوب ودين من الأديان وطائفة من الطوائف، وعليه نعرّف إبليس بأنه : الجانّ الذي أبى السجود لآدم حين خلقه الله، فاستحق لعنته، وطُرِد من جنته، ووجبت له النار بعد إنظار الله له إلى يوم القيامة، وأُوتِي من وسائل الإغواء ما لم يُؤتَ أحد من العالمين .

وقد اختلف العلماء هل «إبليس» من الجن أم من الملائكة، على أربعة أقوال:

القول الأول: أنه كان من الملائكة: ذهب بعض أهل العلم إلى أن إبليس كان من الملائكة فلما عصى الله تعالى أخرجه من صف الملائكة، وقال به من العلماء: ابن عباس[٧] في رواية عنه وابن مسعود[٨]، وقتادة[٩]، ومحمد بن إسحاق[١٠]، وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب[١١]، ورجحه ابن جرير الطبري وانتصر له، ورجحه البغوي، ونسبه ابن عطية والقرطبي والشوكاني إلى أنه قول الجمهور[١٢].

واستدلوا أولئك بقول الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة : ٣٤]، فلو لم يكن إبليس من الملائكة لم يؤمر بالسجود ولم يؤاخذ بالعصيان.

وهذا الاستدلال ضعيف جداً، فتنوعت إجابات العلماء عن هذا الدليل:

- قال ابن تيمية عن إبليس : " كان منهم (أي من الملائكة) باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله "[١٣].

- وقال ابن كثير: "وذلك أنه (أي إبليس) كان قد توسّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة"[١٤].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥٠٩/١.
(٢) تفسير الطبري: ٥٠٩/١.
(٣)ديوانه ١ : ٣١ ، والكامل ١ : ٣٥٢ ، واللسان : (بلس) ، (كرس) . المكرس : الذي صار فيه الكرس ، وهو أبوال الإبل وأبعارها يتلبد بعضها على بعض في الدار . وأبلس الرجل : سكت غما وانكسر وتحير ولم ينطق .
(٤) ديوانه : ٦٧ ، واللسان (بلس) ، ورواية ديوانه " وعرفت يوم الخميس " . وبين البيتين بيت آخر هو : " وَقَدْ نَزَتْ بَيْنَ التَّرَاقِي الأَنْفَاسْ "
(٥)تفسير الطبري(٧٠٤):ص٩٩/١
(٦)تفسير الطبري(٧٠٣):ص٩٩/١
(٧) أنظر: تفسير الطبري(٦٨٦):ص٥٠٢/١، وابن أبي حاتم(٣٦١):ص٨٤/١.
(٨) أنظر: تفسير الطبري(٦٨٨):ص٥٠٣/١.
(٩) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٣):ص٥٠٤/١.
(١٠) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٥):ص٥٠٥/١.
(١١) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٢):ص٥٠٤/١.
(١٢)راجع في ذلك تفاسيرهم عند آية البقرة والكهف .مع كتاب الدر المنثور للسيوطي : ٩/ ٥٦٥.
(١٣) مجموع الفتاوى: ٣٤٦/٤.
(١٤) تفسير ابن كثير: ١٦٧/٥.

- وقال ابن عثيمين : "وإنما استثناه الله من الملائكة لأنه كان معهم وليس منهم يبين ذلك آية الكهف {وكان من الجن} .. ثم قال : وهذا الاستثناء يسمى استثناء منقطعا،كما تقول :«جاء القوم إلا حمارا» وهو كلام عربي فصيح فاستثنى الحمار من القوم وإن لم يكن منهم"[١].
القول الثاني: أنه من الجن. قاله ابن عباس"[٢] -في رواية أخرى-، والحسن البصري"[٣]- صححه عنه ابن كثير- وسعد بن مسعود[٤] و شَهر بن حَوْشب[٥] وابن زيد[٦]، ورجحه ابن تيمية تيمية والسيوطي والزمخشري وابن كثير والشنقيطي - صاحب الأضواء - وابن عثيمين والشيخ أبو بكر الجزائري[٧].

ولهذا ذهب عامة أهل العلم إلى أن إبليس وذريته لم يكونوا قط من الملائكة، ويدل على ذلك عدة أدلة:

١- قول الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف : ٥٠]، فبين الله أن سبب فسقه كونه من الجن،أي أنه من عنصر أو من جنس آخر غير الملائكة، أما الاستثناء في قوله تعلى:(فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)، فإنه استثناء منقطع أي أن (إلا) هنا بمعنى (لكن)، وهو كقوله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥)} [النبأ : ٢٤ - ٢٥]، هذا الاستثناء منقطع لأن الحميم والغساق ليس من البرد والشراب والمعنى: لكن يطعمون الحميم والغساق.
٢- وقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف : ٥٠].

وهنا نص الله أن له ذرية يعني: «نسل» وهم الجن، والملائكة لانسل لهم .فلو كان ملكا لم يكن له نسل.

٣- أن إبليس مخلوق من نار كما قال تعالى حاكيا عن إبليس: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف : ١٢]، والملائكة مخلوقة من نور لما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من نار وخلق آدم مما وُصف لكم"[٨]. ففرق الرسول ﷺ بين خلق الملائكة وخلق الجن.
٤- قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم : ٦]. فلو كان إبليس ملكا ماعصى الله.
٥- أن الجن الذين هم ذرية إبليس، لهم شهوة للطعام والشراب وغيره، وليس للملائكة شهوة دل على ذلك عدة نصوص منها:

---

(١) الفتاوى لابن عثيمين: رقم الفتوى: (١٠٨).
(٢) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٦)، و(٦٩٧):ص١/٥٠٦، و(٧٠٠):ص١/٥٠٧.
(٣) مجموع الفتاوى: ٣٤٦/٤.
(٤) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٩):ص١/٥٠٧.
(٥) أنظر: تفسير الطبري(٦٩٨):ص١/٥٠٦-٥٠٧.
(٦) أنظر: تفسير الطبري(٧٠١):ص١/٥٠٨.
(٧)راجع في ذلك تفاسيرهم عند آية البقرة والكهف كما سبق ويضاف إلى هذه المصادر كتاب السيوطي الدر المنثور وتفسير ابن جرير ، أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد ذكر رأيه في مجموع الفتاوى ٤/ ٣٤٦ وابن عثيمين في كتابه الذي أفرده لسورة الكهف عند آيتها التي تحدثت عن قصة آدم وإبليس وكذا في فتاويه ورقم الفتوى ١٠٨،أما السيوطي فذكر رأيه في (تفسير الجلالين).
(٨)مسلم (٢٩٩٦)، وأحمد (٦/ ١٥٣)، وابن حبان (٦١٥٥).

أ- أن الجن سألوا الرسول ﷺ لما اجتمعو به عن طعامهم فقال: "كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر مايكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم..فلاتستنجو بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن "[١].

ب-قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف : ٥٠]، والذرية لابد لها من شهوة.

ت-قوله تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن : ٥٦]

ث-حديث: "فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله"[٢].

فالملائكة من صفتهم أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويسبحون الليل ولا يفترون، وما فعله إبليس يعد معصية ولا يتناسب مع صفات الملائكة.

القول الثالث: أن إبليس كان أصله من الملائكة فمسخه الله من الجن لما عصاه. قاله ابن عباس في رواية[٣].

القول الرابع: أن الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله. وهذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]، ولكن هذا القول ليس عليه دليل.

والراجح-والله أعلم- : أن إبليس لم يكن من الملائكة، وهو الصحيح، لقوة أدلته. وهو الذي عليه المحققون من أهل العلم.

القرآن

{قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢)} [الحجر : ٣٢]

التفسير:

قال الله لإبليس: ما لك ألا تسجد مع الملائكة؟.

قال الطبري:" يقول: ما منعك من أن تكون مع الساجدين"[٥].

قال الزمخشري: معناه:" أيّ غرض لك في إبائك السجود. وأيّ داع لك إليه"[٦].

قال الزجاج:" المعنى أيّ شيء يقع لك في أن لا تكون مع الساجدين"[٧].

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم سأله عن المانع من السجود، وقد علم ما منعه؟

قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقدا أنه غير واجب عليه، لما رأى أن سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب"[٨].

---

(١)أخرجه مسلم (٢/٣٦) وابن خزيمة في " صحيحه " (رقم ٨٢) والبيهقي (١٠٨/١ - ١٠٩) من طريق عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن داود عن عامر قال: سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ قال : لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا : استطير أواغتيل، قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل (حراء)، قال : فقلنا : يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال : أتاني داعي الجن فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن، قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم. وسألوه الزاد، فقال : فذكره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم من الجن" .(وضعفه الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة " (٣ / ١٣٣).

(٢)رواه مسلم برقم ٢٠٢٠.

(٣) الدر المنثور للسيوطي: ٩/ ٥٦٥.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى: ٣٤٦/٤.

(٥) تفسير الطبري:١٠١/١٧.

(٦) الكشاف:٥٧٧/٢.

(٧) معاني القرآن:١٧٩/٣.

(٨) الكشاف:٨٩/٢-٩٠.

فوائد الآيات[٢٨-٣٢]:
١- أن عنصر أجسامنا مخلوق منذ أول خلقه تعالى السموات وأن أرواحنا وهي أنفسنا مخلوقة منذ أخذ الله تعالى عليها العهد وهكذا، ولا تدل على خلق الأرواح قبل الأجساد خلقا مستقرا، وإنما غايتها أن تدل على إخراج صورهم وأمثالهم في صور الذر واستنطاقهم ثم ردهم إلى أصلهم أن صح الخبر بذلك والذي صح إنما هو إثبات القدر السابق وتقسيمهم إلى شقي وسعيد(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : "ورح الآدمي مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين"(٢).

وقال تلميذه العلامة ابن القيم: "والذي يدل على خلقها وجوه". وذكر اثني عشر وجها(٣).

٢- ومنها: أن الصراع بين الحق والباطل منذ خلق الله آدم- عليه السلام- فقد كان في صراع مع إبليس الذي أمره الله بالسجود لآدم فأبى واستكبر وتوعد بإغواء آدم وذريته.
٣- ومنها:خطر الكبر على الإنسان.
٤- ومنها: بيان فضل آدم على الملائكة؛ وجهه أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له تعظيما له.
٥- ومنها: أن السجود لغير الله إذا كان بأمر الله فهو عبادة؛ لأن لله تعالى أن يحكم بما شاء؛ ولذلك لما امتنع إبليس عن هذا كان من الكافرين؛ وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على كفر تارك الصلاة؛ قال: لأنه إذا كان إبليس كفر بترك سجدة واحدة أمر بها، فكيف عن ترك الصلاة كاملة؟ ! وهذا الاستدلال إن استقام فهو هو؛ وإن لم يستقم فقد دلت نصوص أخرى من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة على كفر تارك الصلاة كفرا أكبر مخرجا عن الملة.

ويدل على أن المحرم إذا أمر الله تعالى به كان عبادة قصة إبراهيم عليه السلام، حين أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فامتثل أمر الله؛ ولكن الله رحمه، ورحم ابنه برفع ذلك عنهما، حيث قال تعالى: {فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين} [الصافات: ١٠٣. ١٠٥]؛ ومن المعلوم أن قتل الابن من كبائر الذنوب، لكن لما أمر الله عز وجل به كان امتثاله عبادة.
٦- ومن فوائد الآية: أن إبليس. والعياذ بالله. جمع صفات الذم كلها: الإباء عن الأمر؛ والاستكبار عن الحق، وعلى الخلق؛ والكفر؛ إبليس استكبر عن الحق؛ لأنه لم يمتثل أمر الله؛ واستكبر على الخلق؛ لأنه قال: {أنا خير منه} [الأعراف: ١٢]؛ فاستكبر في نفسه، وحقر غيره؛ و"الكبر" بطر الحق، وغمط الناس.
- تنبيه:

إن قال قائل: في الآية إشكال. وهو أن الله تعالى لما ذكر أمر الملائكة بالسجود، وذكر أنهم سجدوا إلا إبليس؛ كان ظاهرها أن إبليس منهم؛ والأمر ليس كذلك؟ .

والجواب: أن إبليس كان مشاركا لهم في أعمالهم ظاهرا، فكان توجيه الأمر شاملا له بحسب الظاهر؛ وقد يقال: إن الاستثناء منقطع؛ والاستثناء المنقطع لا يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه.

القرآن

{قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)} [الحجر : ٣٣]

---
(١) انظر الروح، لابن قيم:١٧١.
(٢)مجموع الفتاوى: ٤/ ٢١٦.
(٣) انظر: الروح:١٤٦ وما بعدها.

التفسير:
قال إبليس مظهرًا كبره وحسده: لا يليق بي أن أسجد لإنسان أَوجدْتَهُ من طين يابس كان طينًا أسود متغيرًا.

قال الطبري: يقول: "هو من طين وأنا من نار، والنار تأكل الطين"[١].

قال الزمخشري: " اللام في «لأسجد» لتأكيد النفي، ومعناه: لا يصح منى وينافي حالى. ويستحيل أن أسجد لبشر"[٢].

قال ابن سيرين:" أوّل من قاس إبليس، وما عُبِدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس"[٣]. وروي عن الحسن نحو ذلك"[٤].

قال ابن عباس:" لما خلق الله آدم قال للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة، دون الملائكة الذين في السموات:{اسجدوا لآدم}، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر، لما كان حدَّث نفسه، من كبره واغتراره، فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه، وأكبر سنًّا، وأقوى خلقًا، خلقتني من نار وخلقته من طين! يقول: إنّ النار أقوى من الطين"[٥].

قال ابو الحسن الأشعري:" وأجمعوا على أنه ليس لأحد من الخلق الاعتراض على الله تعالى في شيء من تدبيره، ولا إنكار لشيء من فعله إذْ كان مالكاً لما يشاء منها غير مملوك وأنه تعالى حكيم قبل أن يفعل سائر الأفعال، وأن جميع ما يفعله لا يخرجه عن الحكمة، وأن من يعترض عليه في أفعاله متبع لرأي الشيطان حين امتنع من السجود لآدم عليه السلام وزعم أن ذلك فساد في التدبير وخروج من الحكمة حين قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}"[٦].

فوائد الآيتين:[٣٢-٣٣]:

١- ضرر القياس الفاسد، يؤخذ من ردّ ابليس لعنه الله الامتناع والاستكبار مستخدماً في ذلك قياسه الفاسد: إن النار أشرف من الطين! وهو بهذا ينصب نفسه نداً لله سبحانه وتعالى: الله يقول كذا. فيقول إبليس أنا أرى كذا. ولذلك استحق اللعنة والطرد من رحمة الله.

وهنا بدأ انقسام الناس إلى فريق الهدى وفريق الضلال كما ذكر ذلك المولى سبحانه: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ { [سورة التغابن: ٢]، فأما الفريق الذي أجاب دعوة الرسل وآمن بكتب الله المنزلة ورسله المبعوثين رحمة للناس فهؤلاء أولياء الرحمن، وأما الفريق الذي أعرض واستكبر فهم أولياء الشيطان.

٢- ومن الفوائد: أن الفرق الثلاث التي انحرفت في القدر، هم:

- أولا:- المجوسية: وهم الذين أنكروا القدر وأقروا بالشرع، وسُمّوا بذلك لأنهم أثبتوا خالقاً غير الله وهو العبد؛ حيث زعموا أنه خالق لفعله.
- ثانيا:- المشركية: وهم الذين أقروا بالقدر ولكنهم غلوا فيه حتى أنكروا الأمر والنهي، فصادموا الشرع بالقدر وسموا بذلك لأنهم احتجوا على تعطيل الشرع بالقدر، كما قال المشركون فيما حكى الله عنهم: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٤٨] .
- ثالثا:- الإبليسية: وهم الذين أقروا بالأمرين ـ الشرع والقدر ـ ولكنهم طعنوا في حكمة الله تعالى وعدله، وسموا بذلك لمشابهتهم لإبليس في طعنه في حكمة الله تعالى وعدله، حيث قال الله تعالى حكاية عن إبليس: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}

---

(١) تفسير الطبري:١٠١/١٧.
(٢) الكشاف:٥٧٧/٢.
(٣) أخرجه الطبري(١٤٣٥٥):ص٣٢٧/١٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٥٦):ص٣٢٧/١٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٥٧):ص٣٢٧/١٢.
(٦)رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب:١٥٤.

[الأعراف: ١٢] ، وكذلك: {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} [الإسراء: ٦١] ، فهنا أقر إبليس بخلق الله تعالى وقدرته،

وكذلك أقر بشرعه، ولكنه طعن في حكمة الله وعدله؛ لأنه أمره بالسجود لمن هو دونه بزعمه.

٣- أن سبب الانحراف هو الإعراض عن تدبر كلام الله ورسوله.

قال ابن أبي العز: "وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته مع وجود النص، أو عارض النص بالمعقول فقد ضاهى إبليس حيث لم يسلم لأمر ربه بل قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} "سورة الأعراف: الآية١٢". وقال تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} "سورة النساء: الآية٨٠". وقال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} "سورة آل عمران: الآية٣١". وقال تعالى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} "سورة النساء: الآية٦٥".

أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليما" [(١)].

لكن ليس معنى ذلك أن السلف يرفضون العقل [(٢)] ويهملونه، بل يعملونه في عالم الشهادة لا في عالم الغيب إلا على سبيل الإجمال دون التفصيل، ولا يثبتون بالعقل حكما شرعيا، فعندهم للعقل مع الشرع حالتان لا ثالث لهما:

- الحالة الأولى: أن يدل على ما دل عليه الشرع فيكون شاهدا أو مؤيدا ومصدقا فيحتجون حينئذ بدلالة العقل على من خالف الشرع. وفي القرآن من هذا النوع أي من الأدلة العقلية شيء كثير كأدلة التوحيد والنبوة والمعاد، فتلك الأدلة هي عقلية شرعية.

قال ابن تيمية: " إن كثيرا مما دل عليه السمع يعلم بالعقل أيضا، والقرآن يبين ما يستدل به العقل ويرشد إليه وينبه عليه كما ذكر الله ذلك في غير موضع.

فإنه سبحانه وتعالى بين من الآيات الدالة عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وغير ذلك ما أرشد العباد إليه، ودلهم عليه، كما بين أيضا ما دل على نبوة أنبيائه، وما دل على المعاد وإمكانه، فهذه المطالب هي شرعية من جهتين:

من جهة أن الشارع أخبر بها.

ومن جهة أنه بين الأدلة العقلية التي يستدل بها عليها، والأمثال المضروبة في القرآن هي أقيسة عقلية، وقد بسطت في غير هذا الموضع، وهي أيضا عقلية من جهة أنها تعلم بالعقل أيضا"[(٣)].

- الحالة الثانية: أن لا يدل على ما دل عليه الشرع لا نفيا ولا إثباتا، فحكم العقل إذا جواز ما جاء به الشرع. أما أن يدل العقل على خلاف ما جاء به الشرع فيكون معارضا له فهذا ما لا يكون مع صحة النقل، ولهذا قال أهل السنة: إن العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح، وقالوا: "إن الرسل جاؤوا بمحارات العقول لا بمحالات العقول".

أي أن الرسل لا يخبرون بما يحيله العقل، ولكن يخبرون بما يجيزه العقل ويحار فيه، وهذا تحديد موقف أهل السنة من العقل مع الشرع[(٤)].

٤- ومن الفوائد: أن إبليس هو أبو الجن وذلك هو ظاهر القرآن ولا معارض له مقبول فإن الله سبحانه قد أخبر في كتابه عن إبليس أنه اعترض على السجود بقوله: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف:١٢]، فهو يتحدث عن خلقه هو لا عن

---

(١)شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٠، ١٩١.

(٢)العقل عند السلف آلة التمييز والإدراك والعلم والعمل.

(٣)مجموع الفتاوى :٨٨/٣.

(٤) انظر: أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة:٥٨٠-٥٨٢.

غيره من أب أو جد فأول الجن خلقا هو إبليس وهو أبوهم {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف:٥٠] ،كما أن أول الإنس خلقا هو آدم وهو أبوهم وإبليس قد خلق قبل آدم {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)} [الحجر:٢٦ - ٢٧].

قال الحسن البصري -رحمه الله-:" ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس"[١].

قال ابن كثير:" وهذا إسناد صحيح عن الحسن "[٢].

قال ابن القيم-رحمه الله-[٣]:

واسأل أبا الجن اللعين أتعرف الخلاق أم أصبحت ذا نكران

وقال ابن حجر في الفتح:" إبليس لأنه أبو الجن كلهم "[٤].

وكل قول غير هذا غير فإنه معارض لظاهر القرآن كما أن مستنده النقل عن بني إسرائيل فمرة ينسب إلى حي من الملائكة وأخرى إلى الجن ولكن اصطفى فكان بين الملائكة ... إلى غير ذلك من الأقوال، والمسألة سمعية لا مجال للرأي فيها، ومثلها لا يستند فيه على الإسرائيليات، وتجدر الإشارة إلى أنها قد وردت مجموعة من الروايات عن المتقدمين في إبليس وكيفية نسبته إلى الجن، وتحديد مهمته، وذكر عبادته، وكيفية انتقاله، إلى السماء وتسميته، وغير ذلك، ومصدر ذلك والله أعلم الإسرائيليات.

قال ابن كثير في تفسيره:" قد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة"[٥].

وحينئذ فلا داعي للعدول عن ظاهر القرآن.

وبهذا القول يزول الإشكال عن كيفية وجود إبليس بين الملائكة وهو ليس منهم، فالله قد خلقه وجعله بينهم، كما أنه خلق آدم وجعله في الجنة ثم أنزل الجميع إلى الأرض جزاءا وابتلاء، هذا بالنسبة لأبي الجن[٦].

القرآن

{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤)} [الحجر : ٣٤]

التفسير:

قال الله تعالى له: فاخرج من الجنة، فإنك مطرود من كل خير.

قوله تعالى:{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا} [الحجر : ٣٤]، أي:" قال الله تعالى له: فاخرج من الجنة"[٧].

قال البغوي: " أي: من الجنة"[٨].

قال النسفي: أي:" من السماء أو من الجنة أو من جملة الملائكة"[٩].

قال ابن كثير:" يقول آمرًا لإبليس أمرًا كونيًّا لا يخالف ولا يمانع ، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى"[١].

---

(١) أخرجه الطبري(٦٩٦):ص٥٠٦/١.
(٢)تتفسير ابن كثير :١/ ٢٣١.
(٣) نونية ابن القيم (الكافية الشافية):٩.
(٤)فتح الباري شرح صحيح البخاري- ط دار المعرفة (٦/ ٣٦٩.
(٥)تفسير ابن كثير : ٥/ ١٦٨.
(٦) انظر: الإيمان بالجن بين الحقيقة والتهويل:٥٥-٥٦.
(٧) التفسير الميسر:٢٦٤.
(٨) تفسير البغوي:٣٨١/٤.
(٩) تفسير النسفي:١٨٩/٢.

قال ابن عطية:" الضمير في «مِنْها» للجنة، وإن لم يجر ذكرها في القصة تتضمنها، ويحتمل أن يعود الضمير على ضيفة الملائكة"[2].

قوله تعالى:{فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} [الحجر : ٣٤]، أي:" فإنك مطرود من كل خير"[3].

قال الزجاج:" معناه: مرجوم ملعون"[4].

قال البغوي: أي:" طريد"[5].

قال ابن كثير:" { رَجِيمٌ } أي : مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلة به ، لاحقةً له ، متواترة عليه إلى يوم القيامة"[6].

قال ابن عطية:" والـ«رَجِيمٌ»: المشتوم، أي: المرجوم بالقول والشتم"[7].

قال الزمخشري: " «رجيم» شيطان من الذين يرجمون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله، لأن من يطرد يرجم بالحجارة. ومعناه: ملعون، لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها. والضمير في «منها» راجع إلى الجنة أو السماء، أو إلى جملة الملائكة"[8].

قال النسفي:" مطرود من رحمة الله، معناه: ملعون، لأن اللعنة هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها"[9].

قال قتادة:" «الرجيم»: الملعون"[10].

عن ابن جريج: "{فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}، قال: ملعون. والرجم في القرآن: الشتم"[11].

قال سعيد بن جبير: "لما لعن الله إبليس ، تغيرت صورته عن صورة الملائكة ، ورن رنةً ، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها"[12].

القرآن

{وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)} [الحجر : ٣٥]

التفسير:

وإن عليك اللعنة والبعد من رحمتي إلى يوم يُبْعَث الناس للحساب والجزاء.

قال الطبري:" يقول: وإن غضب الله عليك بإخراجه إياك من السموات وطردك عنها إلى يوم المجازاة، وذلك يوم القيامة"[13].

قال ابن عطية:" يَوْمِ الدِّينِ يوم الجزاء، ومنه قول الشاعر[14]:

ولم يَبْقَ سوى العُدْوا ... نِ دِنَّاهم كما دَانُوا"[15].

قال البغوي: " قيل: إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض، فهو ملعون في السماء والأرض"[16].

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٣٤/٤.

(٢) المحرر الوجيز:٣٦١/٣.

(٣) التفسير الميسر:٢٦٤.

(٤) معاني القرآن:١٨٠/٣.

(٥) تفسير البغوي:٣٨١/٤.

(٦) تفسير ابن كثير:٥٣٤/٤.

(٧) المحرر الوجيز:٣٦١/٣.

(٨) الكشاف:٥٧٧/٢.

(٩) تفسير النسفي:١٨٩/٢.

(١٠) أخرجه الطبري:١٠٢/١٧.

(١١) أخرجه الطبري:١٠٢/١٧.

(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم كما في تفسير ابن كثير:٥٣٤/٤-٥٣٥.

(١٣) تفسير الطبري:١٠٢/١٧.

(١٤) البيت للفند الزماني- شهل بن شيبان- كما في المعجم المفصل، و شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي ١: ٣٥ - نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون - القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م، و«الكشاف» ١/ ٩، والمحرر الوجيز:٧١/١.

(١٥) المحرر الوجيز:٣٦١/٣-٣٦٢.

(١٦) تفسير البغوي:٣٨١/٤.

قال النسفي:" ضرب «يوم الدين» حد اللعنة، لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم والمراد به: إنك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه"(١).

فوائد الآيتين:[٣٤-٣٥]:

١- من فوائد الآية: ان عاقبة استكبار إبليس: الذل الأبدي الذي لا عز بعده: {قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين} [الأعراف: ١٣].

٢- ومن الفوائد: أن الله سبحانه وتعالى تكلم الله مع اللعين إبليس، فقال الله تعالى: الله تعالى: {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا} [الأعراف:١٣].

القرآن

{قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦)} [الحجر : ٣٦]

التفسير:

قال إبليس: رب أخِّرني في الدنيا إلى اليوم الذي تَبْعَث فيه عبادك، وهو يوم القيامة.

قال النسفي:أي:" فأخرني {إلى يوم يبعثون}"(٢).

قال السمعاني:" أي: أمهلني ، سأل المهلة إلى القيامة"(٣).

قال البغوي: " أراد الخبيث أن لا يموت"(٤).

قال القرطبي:" هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى، وأنه أهل أن يجاب له دعاء، ولكن سأل تأخير عذابه زيادة في بلائه، كفعل الآيس من السلامة. وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون: ألا يموت، لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده"(٥).

قال الطبري:" يقول: وإن غضب الله عليك بإخراجه إياك من السموات وطردك عنها إلى يوم المجازاة، وذلك يوم القيامة"(٦).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال إبليس: ربّ فإذ أخرجتني من السموات ولعنتني، فأخِّرني إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم فتحشرهم لموقف القيامة"(٧).

قال أبو السعود:" أراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لاستحالته بعد يوم البعث"(٨).

قال ابن كثير:" وإنه لما تحقق الغضب الذي لا مَرَدَّ له ، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة ، وهو يوم البعث"(٩).

وفي قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الحجر : ٣٦] ، وجهان:

أحدهما : أنه سأله الإنظار بالعقوبة إلى البعث وهو يوم القيامة(١٠).

والثاني : أنه سأله الإنظار بالحياة إلى يوم يبعثون وهو يوم القيامة لئلا يذوق الموت، فَأُجِيْبَ بالإنظار إلى «يوم الوقت المعلوم»، وهي النفخة الأولى ليذوق الموت بين النفختين، وهو أربعون سنة ، قاله ابن عباس(١١)، والكلبي(١٢).

---

(١) تفسير النسفي:١٨٩/٢.
(٢) تفسير النسفي:١٨٩/٢.
(٣) تفسير السمعاني:١٦٩/٢.
(٤) تفسير البغوي:٣٨١/٤.
(٥) تفسير القرطبي:٢٧/١٠.
(٦) تفسير الطبري:١٠٢/١٧.
(٧) تفسير الطبري:١٠٢/١٧.
(٨) تفسير أبي السعود:٧٧/٥.
(٩) تفسير ابن كثير:٥٣٥/٤.
(١٠) انظر: النكت والعيون:٢٠٥/٢.
(١١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٣٨٤).:ص٢٢٦٤/٧
(١٢) انظر: النكت والعيون:٢٠٥/٢.

قال ابن عباس:" أراد إبليس إن لا يذوق الموت، فقيل: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. قال: فيموت إبليس أربعون سنة"[١].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن الاعتقاد فرع من المعرفة.

٢- في الآية الرد على الجمهمية في قولهم بأن الإيمان معرفة الرب بالقلب، والكفر جهل الرب بالقلب فمن عرف ربه بقلبه فهو مؤمن، ولو فعل جميع المنكرات وجميع أنواع الردة، نعوذ بالله.

لقد اقترفت الجهمية عن أهل السنة في مقصودهم بالمعرفة، فبينما ذكر أهل السنة أن المعرفة - بمعنى العلم أو الإعلام بالموضوع - لا يستلزم التصديق أو التكذيب، وإنما إن كان العلم بمعنى تحقق المعرفة بالشئ على ما هو عليه في الحقيقة فإنه متضمن للتصديق بطريق اللزوم، ولا محالة ولا يتصور مع هذه الحالة - وهي تحقق العلم النفسي بالموضوع على حقيقته - أن يصير معها تكذيب في النفس - وإن أمكن التكذيب في الظاهر باللسان جحوداً - بينما أثبت الجهمية إمكان تحقق العلم النفسي بالشئ على ما هو عليه في حقيقته ثم تكذيبه في نفس الأمر تكذيباً نفسياً. وهو ما لا يمكن تصوره أو إمكان حدوثه كما قرر هذا الإمام ابن تيمية عن أهل السنة والجماعة[٢].

يقول ابن حزم: "ذهب قوم إلى أن الإيمان إنما هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط، وإن أظهر اليهودية أو النصرانية وسائر أنواع الكفر بلسانه وعبادته. فإذا عرف الله تعالى بقلبه فهو مسلم من أهل الجنة" [٣] .

وهذا القدر وحده لا يكفي لإثبات الإيمان - حتى دون إظهار الكفر باللسان - وإلا كان إبليس مؤمناً، فقد قال الله تعالى على لسانه: {قال أنظرني إلى يوم يبعثون}، وقال تعالى حاكياً عن إبليس: {إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر : ١٦]، وهذا القدر لا خلاف فيه بين أهل السُّنَّة[٤] .

فلو كان القول لا يحتاج إليه ويكتفى بالمعرفة لكان من جحد الله باللسان وعرفه بقلبه مؤمنا، ولكان إبليس مؤمنا لأنه عارف بربه يعرف أنه خالقه ومميته وباعثه ومغويه قال: {قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين}[الحجر: ٣٩]. وقال تعالى: {قال أنظرني إلى يوم يبعثون}، وقال تعالى: {قال ما منعك أا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين} [الأعراف: ١٢].

ولكان الكفار مؤمنين بمعرفتهم ربهم وإن أنكروا بلسانهم. قال الله تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين}[النمل: ١٤]، فلم يجعلهم مع استيقانهم بأن الله واحد مؤمنين مع جحدهم بلسانهم.

وما ذكر من الأدلة غايتها أن تدل على أن القول باللسان من الإيمان، وأن أصل الإيمان الذي هو الدخول في الإسلام لا يحصل إلا بالتصديق بالقلب والإقرار باللسان لا تدل على أن الأعمال ليست من الإيمان.

القرآن

{قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)} [الحجر : ٣٧ - ٣٨]

التفسير:

قال الله له: فإنك ممن أَخَّرْتُ هلاكهم إلى اليوم الذي يموت فيه كل الخلق بعد النفخة الأولى.

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣٨٤).:ص٢٢٦٤/٧

(٢) انظر: "الرسالة التسعينية" بالفتاوى الكبرى ٥/ ١٦٣.

(٣) الملل والنحل لابن حزم ١٨٨/٣.

(٤) .

قوله تعالى:{قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ}[الحجر: ٣٧]، أي:" قال الله له: فإنك ممن أَخَّرْتُ هلاكهم"[١].

قال الماوردي والقرطبي:" يعني: من المؤجلين"[٢].

قال الطبري:" قال الله له: فإنك ممن أُخِّر هلاكه إلى يوم الوقت المعلوم لهلاك جميع خلقي، وذلك حين لا يبقى على الأرض من بني آدم دَيَّار"[٣].

قال ابن كثير:" أجيب إلى ذلك استدراجًا له وإمهالا"[٤].

وقال ابن كثير:" أجابه تعالى إلى ما سأل ، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ، ولا مُعَقِّبَ لحكمه ، وهو سريع الحساب"[٥].

قال القرطبي:" وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين، فأبى الله ذلك عليه. وقال:{إلى يوم يبعثون}، ولم يتقدم من يبعث، لأن القصة في آدم وذريته، فدلت القرينة على أنهم هم المبعوثون"[٦].

قوله تعالى:{إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}[الحجر: ٣٨]، أي:" إلى اليوم الذي يموت فيه كل الخلق بعد النفخة الأولى"[٧].

قال الطبري:أي:" إلى يوم ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله"[٨].

قال مقاتل:" يعني: إلى أجل موقوت، وهي النفخة الأولى، وإنما أراد عدو الله الأجل إلى يوم يبعثون لئلا يذوق الموت لأنه قد علم أنه لا يموت بعد البعث"[٩].

قال ابن ابي زمنين:" يعني: النفخة الأولى التي يموت بها كل حي، وأراد عدو الله أن يؤخره إلى النفخة الآخرة التي يبعث بها الخلق"[١٠].

قال البغوي: " أي: الوقت الذي يموت فيه الخلائق، وهو النفخة الأولى.. ويقال: لم تكن إجابة الله تعالى إياه في الإمهال إكراما له، بل كانت زيادة في بلائه وشقائه"[١١].

قال النسفي:" «يوم الدين» و«يوم يبعثون» و«يوم الوقت المعلوم» في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة، وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت، لأنه لا يموت يوم البعث أحد فلم يجب إلى ذلك وانظر إلى آخر أيام التكليف"[١٢].

قال ابن فورك:" الوقت: علامة لما يقع فيه الفعل، منه: مواقيت الحج، وهي علامات يحرم الناس عندها"[١٣].

قال السدي:" فلم ينظره إلى يوم البعث، ولكن أنظره إلى الوقت المعلوم"[١٤].

وفي «الوقت المعلوم» ثلاثة وجوه:

أحدها : معلوم عند الله تعالى، مجهول عند إبليس، فيموت إبليس ثم يبعث[١].

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٤.
(٢) النكت والعيون:١٥٩/٣، وتفسير القرطبي:٢٧/١٠
(٣) تفسير الطبري:١٠٢/١٧.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٣٥/٤.
(٥) تفسير ابن كثير:٣٩٣/٣.
(٦) تفسير القرطبي:١٧٤/٧.
(٧) التفسير الميسر:٢٦٤.
(٨) تفسير الطبري:٣٣٢/١٢.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٩/٢.
(١٠) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٥/٢.
(١١) تفسير البغوي:٣٨١/٤.
(١٢) تفسير النسفي:١٩٠/٢.
(١٣) تفسير ابن فورك:٣٠٣/٢.
(١٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٣٨٥):ص٢٢٦٤/٧.

الثاني : إلى يوم النفخة الأولى يموت إبليس. وبين النفخة والنفخة أربعون سنة . فتكون مدة موت إبليس أربعين سنة ، وهو قول ابن عباس[2]، وسفيان[3]، وبه قال مقاتل[4]، وابن جرير الطبري[5].

قال ابن عباس:" أراد إبليس إن لا يذوق الموت، فقيل: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. قال: فيموت إبليس أربعون سنة"[6].

الثالث: أن أمره كان إلى يوم بدر وأنه قتل يوم بدر. حكاه ابن عطية[7]، وقال:" وهذا وإن كان روي فهو ضعيف"[8].

وسمي «يوم الوقت المعلوم»، لموت جميع الخلائق فيه[9].

قال السمعاني:" هذا الإنظار إلى النفخة الأولى، كما قال..مقيدا: {إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} [الحجر : ٣٨، ص:٨١]، وأراد به: النفخة الأولى، فإن قيل: وهل يجوز أن يجيب الله دعوة الكافر؛ حيث أجاب دعوة اللعين؟ قيل: يجوز على طريق الاستدراج والمكر والإملاء لا على سبيل الكرامة"[10].

فإن قال قائل: "فهل أحَدٌ مُنْظرٌ إلى ذلك اليوم سوى إبليس، فيقال له:«إنك منهم»؟

قيل: نعم، مَنْ لم يقبض الله روحه من خلقه إلى ذلك اليوم، ممن تقوم عليه الساعة، فهم من المنظرين بآجالهم إليه. ولذلك قيل لإبليس: {إنك من المنظرين} ، بمعنى: إنك ممن لا يميته الله إلا ذلك اليوم"[11].

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم ؟

قلت: لما في ذلك من ابتلاء العباد، وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده"[12].

وفي كلام الله تعالى لابليس، قولان[13]:

أحدهما: كلمه على لسان رسوله.

الثاني- كلمه تغليظا في الوعيد لا على وجه التكرمة والتقريب.

فوائد الآيتين:[٣٧-٣٨]:

١- استجاب الله لشر خلقه وهو إبليس فمن الجائز أن يستجيب الله دعاء الكافر لحكمة يريدها الله تعالى.

---

(١) انظر: النكت والعيون:١٥٩/٣-١٦٠، وتفسير القرطبي:٢٧/١٠.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٣٨٤):ص٢٢٦٤/٧.
(٣) انظر: تفسير سفيان الثوري:٢٦١.
(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٩/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٣٣٢/١٢.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٨٤):ص٢٢٦٤/٧.
(٧) انظر: المحرر الوجيز:٣٦٢/٣.
(٨)المحرر الوجيز:٣٦٢/٣.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٥٩/٣-١٦٠.
(١٠) تفسير السمعاني:١٦٩/٢.
(١١) تفسير الطبري:٣٣٢/١٢.
(١٢) الكشاف:٩١/٢.
وقال محقق الكشاف:" وهذا السؤال إنما يورده ويلتزم الجواب عنه القدرية الذين يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح في أفعاله. وأما أهل السنة فقد أصغوا حق الإصغاء إلى قوله تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فلا يورد أحد منهم هذا السؤال ولا يجيب عنه من يورده".
(١٣) انظر: تفسير القرطبي:٢٧/١٠.

٢- من فوائد الآية الكريمة، أن إبليس-عليه اللعنة- سيبقى حيّاً إلى أن تقوم الساعة، قال تعالى:{إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}، إذ حصل على وعد من الله بإبقائه حيّاً إلى يوم القيامة.
٣- في الآية إشارة إلى إحتمال أن يكون بعض الجن منظرين مع إبليس-عليه اللعنة-، والجن مخلوقات تموت كما يموت الإنس.

قال الألوسي: "واستدل بقوله عز وجل: {فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْس} [الأحقاف : ١٨]، الآية على أن الجن يموتون قرنا بعد قرن كالأنس"(١).

وروي عن الحسن في بعض مجالسه: أن الجن لا يموتون، فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت(٢).

ويقول ابن حجر الهيتمي معلقا على قول الحسن هذا: "الآية دليل على أنهم يموتون، فإن أراد الحسن أنهم لا يموتون مثلنا، بل ينظرون مع إبليس، فإذا مات ماتوا معه، قلنا: إن أراد ذلك في بعضهم كشياطين إبليس وأعوانه فهو محتمل، وإن أراد ذلك نافاه ما ورد من الوقائع الكثيرة في موتهم"(٣).

قال القاضي بدر الدين الشبلي: "ومعنى قول الحسن أن الجن لا يموتون أنهم منظرون مع إبليس، فإذا مات ماتوا معه، وظاهر القرآن يدل على أن إبليس غير مخصوص بالانظار إلى يوم القيامة، أما ولده وقبيله فلم يقم دليل على أنهم منظرون معه، وظاهر قوله تعالى: {قال إنك من المنظرين} [الأعراف: ١٥]. يدل على أن ثم منظرين غير إبليس، وليس في القرآن ما يدل على أن المنظرين هم الجن كلهم، فيحتمل أن يكون بعض الجن منظرين، أما كلهم فلا دليل عليه"(٤).

وسئل ابن حجر عن موت الجن فقال: "كل الحيوانات يموتون، وكذلك سائر العالم، لقوله تعالى: {كل من عليها فان} [الرحمن: ٢٦]. مع قوله تعالى: {كل شيء هالك إلا وجهه [القصص: ٨٨].

وأما الدليل من السنة على موتهم:

- فعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: "أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون"(٥). وهو أصرح الأحاديث الدالة على موت الجن .
- وأخرج عن ابن جرير عن ابن عباس قال: "وكل ملك الموت بقبض أرواح المؤمنين والملائكة، وملك بالجن، وملك بالشياطين، وملك بالطير والوحوش والسباع والحيات، فهم أربعة أملاك"(٦).
- حديث الفتى الذي صرعه الجني، وفيه دليل على أن الجن يموتون، فقد ورد في الحديث: "فما يدرى أيهما أسرع موتا الحية أم الفتى"(٧).

وقد كانت تلك الحية من الجن الذين يسكنون المدينة، لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: "إن في المدينة جنا قد أسلموا .. "(٨).

وأما عن بعثهم بعد الموت فإن كثيرا من الآيات القرآنية التي توعدت العصاة والكفرة، قد دلت على بعثهم بعد الموت ومحاسبتهم على أعمالهم، قال الله تعالى في سؤال الكفرة من الجنسين في الآخرة: يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم

---

(١)روح المعاني:٢٦/ ٢١.
(٢)روح المعاني:٢٦/ ٢١.
(٣)الفتاوى الحديثية: ٧١.
(٤)آكام المرجان في أحكام الجان: ١٥٢.
(٥)رواه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).
(٦)الفتاوى الحديثية: ٧١.
(٧)رواه مسلم (٢٢٣٦). من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٨)رواه مسلم (٢٢٣٦). من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

لقاء يومكم هذا قالوا بلى [الأنعام: ١٣٠]. وقوله تعالى: {وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} [هود: ١١٩][١].

٤- إنما أُجيبَ إبليس-عليه اللعنة- إلى ذلك استدراجًا له وإمهالا وفتنة للثقلين.

٥- ومن الفوائد: أنه لايكتفي بمعرفة الله دون الإيمان به، فإن إبليس عارف بربه، {قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون}، وكذلك فرعون وأكثر الكافرين. قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [لقمان : ٢٥]. {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٨٤)سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [المؤمنون : ٨٤-٨٥]، وإنما المطلوب هو المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء.

القرآن

{قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩)} [الحجر : ٣٩]

التفسير:

قال إبليس: ربِّ بسبب ما أغويتني وأضللتني لأحسِّنَنَّ لذرية آدم معاصيك في الأرض، ولأضلنهم أجمعين عن طريق الهدى.

قوله تعالى:{قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي} [الحجر : ٣٩]، أي:" قال إبليس: ربِّ بسبب ما أغويتني وأضللتني"[٢].

قال الطبري:" يقول: فبما أضللتني"[٣].

قال الزمخشري:أي:" فبسبب إغوائك إياي"[٤].

قال ابن كثير:" أي : كما أغويتني"[٥].

قال البغوي: أي:" أضللتني. وقيل: خيبتني من رحمتك"[٦].

قال القرطبي:" أي: فبما أوقعت في قلبي من الغي والعناد والاستكبار. وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل، بل هو كفر عناد واستكبار، قيل: معنى الكلام القسم، أي فبإغوائك إياي لأقعدن لهم على صراطك، أو في صراطك، فحذف. دليل على هذا القول قوله في «ص»: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص : ٨٢]، كأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لما فيه من التسليط على العباد، فأقسم به إعظاما لقدره عنده. وقيل: الباء بمعنى اللام، كأنه قال: فلإغوائك إياي. وقيل: هي بمعنى مع، والمعنى فمع إغوائك إياي. وقيل: هو استفهام، كأنه سأل بأي شي أغواه؟. وكان ينبغي على هذا أن يكون: فبم أغويتني؟"[٧].

ولأهل اللغة في معنى قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي} [الحجر : ٣٩]، قولان:

أحدهما : أنه على معنى القسم[٨]، وتقديره : فبإغوائك لي {لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}.

قال الطبري:" وكأن قوله {بِمَا أَغْوَيْتَنِي}، خرّج مخرج القسم، كما يقال: بالله، أو بعزّة الله لأغوينهم"[٩].

قال الطبري:" وفي هذا بيان واضح على فساد ما يقول القدرية، من أن كل من كفر أو آمن فبتفويض الله أسبابَ ذلك إليه، وأن السبب الذي به يصل المؤمن إلى الإيمان، هو السبب الذي به يصل الكافر إلى الكفر. وذلك أنّ ذلك لو كان كما قالوا: لكان الخبيث قد قال بقوله: {فبما

---

(١) انظر: عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة لعبد الكريم عبيدات :٥٢.
(٢) التفسير الميسر:٢٦٤.
(٣) تفسير الطبري:٣٣٢/١٢.
(٤) الكشاف:٩١/٢.
(٥) تفسير ابن كثير:٣٩٣/٣.
(٦) تفسير البغوي:٣٨١/٤.
(٧) تفسير القرطبي:١٧٤/٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:١٠٣/١٧.
(٩) تفسير الطبري:١٠٣/١٧.

أغويتني} ،فبما أصلحتني، إذ كان سبب«الإغواء» هو سبب«الإصلاح»، وكان في إخباره عن الإغواء إخبارٌ عن الإصلاح، ولكن لما كان سبباهما مختلفين، وكان السبب الذي به غوَى وهلك من عند الله. أضاف ذلك إليه فقال: {فبما أغويتني}"[1].

قال محمد بن كعب القرظي: "قاتل الله القدريّة، لإبليس أعلمُ بالله منهم!"[2].

والثاني : أنه على معنى المجازاة[3]، تقديره : فلأنك أغويتني {لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}.

وفي معنى قوله:{ أَغْوَيْتَنِي} [الحجر : ٣٩]، أربعة أقوال:

أحدها : معناه أضللتني ، قاله ابن عباس[4]، وابن زيد[5].

قال القرطبي:"و«الإغواء»: الإضلال والإبعاد"[6].

والثاني : معناه: خيبتني من جنتك، او من رحمتك، ومنه قول الشاعر[7] :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَد النَّاس أمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيّ لائما

أي: ومن يخب[8].

والثالث : معناه: عذبتني، كقوله تعالى:{فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَياً} [مريم : ٥٩] أي عذاباً ، قاله الحسن[9].

والرابع : معناه: أهلكتني بلعنك لي[10].

قال ابن فورك:" «الإغواء»: الدعاء إلى الغي بلتزيين والترغيب، والغي حلاف الرشد"[11].

قال القرطبي:"و«الإغواء»: الإهلاك، قال الله تعالى: {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَياً} [مريم : ٥٩]، أي: هلاكا"[12].

يقال: غوى الفصيل إذا أشفى على الهلاك بفقد اللبن ، قال الشاعر [13]:

مُعَطَّفَةُ الأَثْنَاءِ لَيْسَ فَصِيلُهَا بِرَازِئِهَا دَرًّا وَلا مَيّتٍ غَوَى[14]

وأصل «الإغواء» في كلام العرب: تزيين الرجل للرجل الشيء حتى يحسّنه عنده، غارًّا له، وقد حكي عن بعض قبائل طيئ، أنها تقول:"أصبح فلان غاويًا"، أي: أصبح مريضًا[15].

---

(١) تفسير الطبري:٣٣٤/١٢.
(٢) أخرجه الطبري(١٤٣٦٣):ص٣٣٤/١٢.
(٣) انظر: النكت والعيون:٢٠٥/٢-٢٠٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٦١):ص٣٣٢/١٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٤٣٦٢):ص٣٣٢/١٢-٣٣٣.
(٦) تفسير القرطبي:١٧٤/٧.
(٧)البيت للمرقش الأصغر: ربيعة بن سليمان بن سعد بن مالك ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، وهو ابن أخي المرقش المرقش الأكبر، وعم طرفة بن العبد (المفضليات، طبع القاهرة ص ١١٨) . وفي (اللسان: غوى) قال: الغي: الضلال والخيبة. غوى (بالفتح) غيا، وغوى (بالكسر) غواية. الأخيرة عن أبي عبيد: ضل. ورجل غاو، وغو، وغوى، وغيان: ضال. وأغواه هو. وأنشد للمرقش: " فمن يلق. . . . البيت ".
(٨) انظر: النكت والعيون:٢٠٦/٢، وتفسير القرطبي:١٧٤/٧.
(٩) انظر: النكت والعيون:٢٠٦/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:٣٣٣/١٢، وتفسير القرطبي:١٧٤/٧.
(١١) تفسير ابن فورك:٣٠٣/٢.
(١٢) تفسير القرطبي:١٧٤/٧.
(١٣) البيت لمدرج الريح الجرمي، ، واسمه "عامر بن المجنون"كما في الشعر والشعراء: ٧١٣، وفي الوحشيات رقم: ٣٨٠، والأغاني ٣/ ١١٥، وجاء في المعاني الكبير: ١٠٤٧ "عامر المجنون" ، صوابه ما أثبت.
(١٤) انظر: تفسير الطبري:٣٣٣/١٢.
(١٥) انظر: تفسير الطبري:٣٣٣/١٢.

قوله تعالى:{ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ} [الحجر : ٣٩]، أي:" لأحسِّنَنَّ لذرية آدم معاصيك في الأرض"[١].

قال الطبري: يقول:" لأحسننّ لهم معاصيك، ولأحببنها إليهم في الأرض"[٢].

قال البغوي: أي:" حب الدنيا ومعاصيك"[٣].

قال ابن أبي زمنين: " يزين لهم الدنيا في أمرهم بها، ويخبرهم أنه لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار؛ يوسوس ذلك إليهم"[٤].

قال القرطبي:" تزيينه هنا يكون بوجهين: إما بفعل المعاصي، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة"[٥].

قوله تعالى:{وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر : ٣٩]، أي:" ولأضلنهم أجمعين عن طريق الهدى"[٦].

قال الطبري: " يقول: ولأضلَّنهم عن سبيل الرشاد"[٧].

قال ابن ابي زمنين والبغوي: " أي: لأضلنهم، {أجمعين}"[٨].

قال القرطبي:" أي: لأضلنهم عن طريق الهدى"[٩].

وعن أبي سعيد، رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال: " إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني"[١٠].

الفوائد:

١- من فوائد الآية:أن إبليس-عليه اللعنة- نسب إغواءه إلى بارئه وخالقه دون نفسه، فقال: {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي} [الحجر : ٣٩]، وهنا يتبين قبح عقيدة القدرية التي تقول: إن ضللت فأنا الذي أضل نفسي وأنا خالق لفعلي وإغوائي وضلالي وقد أبا ذلك مقدمهم في الضلال والاضلال إبليس اللعين ونسب الاغواء إلى من خلقه فيه وزينه له حتى غوى واغوى وضل وأضل.

٢- أن السلاح الذي يغوي به إبليس بني آدم هو التزين للأشياء حتى ولو كانت دميمة قبيحة يصيرها بوسواسه زينة حسنة حتى يأتيها الآدمي.

٣- ومنها: توعد عدو الله بأن يصد الناس عن الدين بتزيينه في الأرض، فقال :{لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ}.

وحذرنا المولى سبحانه من الحياد عن الصراط المستقيم واتخاذ السبل والضلالات مكانه كما قال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣].

قال عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه-: "إن الصراط محتضر تحضره الشياطين ينادون يا عبدالله هلم هذا الطريق ليصدوا عن سبيل الله فاعتصموا بحبل الله فإن حبل الله هو كتاب الله"[١١].

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٤.
(٢) تفسير الطبري:١٠٣/١٧.
(٣) تفسير البغوي:٣٨١/٤.
(٤) تفسير ابن ابي زمنين:٣٨٥/٢.
(٥) تفسير القرطبي:٢٧/١٠.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٤.
(٧) تفسير الطبري:١٠٣/١٧.
(٨) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٥/٢، وتفسير البغوي:٣٨١/٤.
(٩) تفسير القرطبي:٢٧/١٠.
(١٠)المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٢٩٠) (٧٦٧٢) وصحيح الجامع (١٦٥٠) حسن.
(١١)تفسير الطبري:(٧٥٦٦):ص٧٢/٧، والشريعة للاجري (١/ ٢٩٧)..

٤- التحذير من كيد إبليس، فإذا كان فعل جمع الأبوين ما فعل فإنه سيفعل مع الذرية أشد: {لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} فهو يهدد ويتوعد.

القرآن

{إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)} [الحجر : ٤٠]

التفسير:

إلا عبادك الذين هديتهم فأخلصوا لك العبادة وحدك دون سائر خلقك.

قال الطبري: " يقول: إلا من أخلصته بتوفيقك فهديته، فإن ذلك ممن لا سلطان لي عليه ولا طاقة لي به"(١).

قال ابن أبي زمنين: يعني: "الموحدين"(٢).

قال السمعاني:" أي: الذين أخلصتهم لنفسك"(٣).

قال مقاتل:" يعني: أهل التوحيد، وقد علم إبليس أن الله استخلص عبادا لدينه ليس له عليهم سلطان، فذلك قوله سبحانه: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر : ٤٢، الإسراء: ٦٥]، يعنى: ملك أن تضلهم عن الهدى {وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا} [الإسراء : ٦٥]، يعنى: حرزا ومانعا لعباده"(٤).

قال البغوي: أي:" المؤمنين الذين أخلصوا لك الطاعة والتوحيد، ومن فتح «اللام»، أي: من أخلصته بتوحيدك واصطفيته"(٥).

عن الضحاك :{إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}، يعني: المؤمنين"(٦).

عن قتادة :"{إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}، قال قتادة: هذه ثَنِيَّة الله تعالى ذكره"(٧).

قال ابن فورك:" استثنى إبليس {إلا عبادك منهم المخلصين} مع حرصع على إغواء الجميع؛ لأنه أيس ممن يعلم أنه لا يجيب، وليس له سلطان إلا بالإغواء"(٨).

قال القشيري:" «الإخلاص»: هو تصفية الأعمال عن الغين وعن الآفات المانعة من صالح الأعمال وقد علم اللعين أنه لا سبيل له إليهم بالإغواء لمّا تحقق من عناية الحقّ بشأنهم"(٩).

قال سهل بن عبدالله:" الناس كلهم أموات إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملين، والعاملون كلهم مغترون إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم"(١٠).

وقرئ: «إلا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلِصِينَ»، يعني: إلا من أخلص طاعتك، فإنه لا سبيل لي عليه(١١).

الفوائد:

١- عصمة الرسل وحفظ الله للأولياء حتى لا يتلوثوا بأوضار الذنوب.

٢- إعتراف إبليس بأن ليس له سلطان على أهل العبودية الشرعية، فقال: {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}.

٣- إنما يتسلط إبليس على العباد الذين يرضون بفكره، ويتابعونه عن رضا وطواعية: {إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاَّ من اتبَّعك من الغاوين} [الحجر: ٤٢] . وفي يوم

---

(١) تفسير الطبري:١٠٣/١٧.

(٢) تفسير ابن ابي زمنين:٣٨٥/٢.

(٣) تفسير السمعاني:٤٥٥/٤.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٩/٢.

(٥) تفسير البغوي:٣٨١/٤.

(٦) أخرجه الطبري:١٠٣/١٧.

(٧) أخرجه الطبري:١٠٣/١٧.

(٨) تفسير ابن فورك:٣٠٣/٢.

(٩) لطائف الإشارات:٢٧١/٢.

(١٠) تفسير التستري:٨٨.

(١١) انظر: تفسير الطبري:١٠٣/١٧.

القيامة يقول الشيطان لأتباعه الذين أضلهم وأهلكهم: {وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي} [إبراهيم: ٢٢]، وفي آية أخرى: (إنَّما سلطانه على الَّذين يتولَّونه والَّذين هم به مشركون) [النحل: ١٠٠] .

والسلطان الذي أعطيه الشيطان هو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكنه منهم، بحيث يؤزهم على الكفر والشرك ويزعجهم إليه، ولا يدعهم يتركونه، كما قال تعالى: {ألم تر أنَّا أرسلنا الشَّياطين على الكافرين تؤزُّهم أزاً} [مريم: ٨٣] ، ومعنى تؤزهم: تحركهم وتهيجهم.

وسلطان الشيطان على أوليائه ليس لهم فيه حجّة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءَهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته، فلما أعطوا بأيديهم، واستأسروا له، سُلّط عليهم عقوبةً لهم. فالله لا يجعل للشيطان على العبد سلطاناً، حتى يجعل له العبد سبيلاً بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذٍ له عليه تسلطاً وقهراً[١].

القرآن

{قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١)} [الحجر : ٤١]

التفسير:

قال الله: هذا طريق مستقيم معتدل موصل إليَّ وإلى دار كرامتي.

قال السعدي:" أي: معتدل موصل إلي وإلى دار كرامتي"[٢].

قال الطبري:يقول:" هذا طريق مرجعه إليّ فأجازي كلا بأعمالهم، كما قال الله تعالى ذكره {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}، وذلك نظير قول القائل لمن يتوعده ويتهدده: طريقك عليّ، وأنا على طريقك، فكذلك قوله: {هَذَا صِرَاطٌ}، معناه: هذا طريق عليّ وهذا طريق إليّ"[٣].

وفي قوله تعالى: {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} [الحجر : ٤١]، وجوه من التفسير:

أحدها : معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجم به على الجنة، قاله عمر رضي الله عنه[٤].

عنه[٤].

الثاني : هذا صراط إليَّ مستقيم ، قاله الحسن[٥]، فتكون «عليَّ» بمعنى: «إليَّ».

الثالث : أنه وعيد وتهديد، ومعناه: أن طريقه إليَّ ومرجعه عليَّ، كقول القائل لمن يهدده ويوعده : عليَّ طريقك ، وهذا معنى قول مجاهد[٦]، وبه قال الفراء[٧]، والكسائي[٨].

قال مجاهد:" الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه لا يعرج على شيء"[٩].

قال الكسائي: "هذا على الوعيد فإنه تهديد كقولك للرجل خاصمته وتهدده: طريقك علي، كما قال الله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر : ١٤]، فكان معنى الكلام: هذا طريق مرجعه إلي فأجازي كلا بأعمالهم[١٠].

الرابع : معناه: هذا صراط، أي: أنا ضامن لاستقامته بالبيان والبرهان، وقيل: بالتوفيق والهداية. ذكره الماوردي[١١]، وابن الجوزي[١٢].

---

(١) انظر: عالم الجن والشياطين:٣٢.
(٢) تفسير السعدي:٤٣١.
(٣) تفسير الطبري:١٠٣/١٧.
(٤) انظر: النكت والعيون:١٦١/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري:١٠٤/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٠٣/١٧-١٠٤.
(٧) انظر: معاني القرآن:٨٩/٢.
(٨) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن:٣٤١/٥.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٣٨٦):ص٢٢٦٤/٧.
(١٠) الكشف والبيان عن تفسير القرآن:٣٤١/٥.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٦١/٣.
(١٢) انظر: زاد المسير:٥٣٤/٢.

وقال النسفي:" أي: هذا طريق حق علي أن أراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته"[١].

الخامس: أنه يعني بقوله هذا: الإخلاص، فالمعنى: إن الإخلاص طريق إلي مستقيم، و «علي» بمعنى «إلي». ذكره ابن الجوزي[٢].

قال السمعاني:" أكثر أهل المعاني على أن الآية للتهديد والوعيد، كالرجل يقول لغيره: طريقك علي، مسيرك إلي، أي: لا تفلت مني. وهذا في معنى قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر : ١٤]، أي: على طريق الخلق"[٣].

وقرأ الحسن[٤]، ومجاهد[٥]، وابن سيرين[٦]، والنخعي[٧]، وقتادة[٨]،وحميد[٩]، ويعقوب[١٠]: «عليٌّ مستقيم» برفع الياء وتنوينها، ومعناه: رفيع مستقيم، أي: رفيع أن ينال ، مستقيم أن يمال[١١].

القرآن

{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)} [الحجر : ٤٢]

التفسير:

إن عبادي الذين أخلصوا لي لا أجعل لك سلطانًا على قلوبهم تضلُّهم به عن الصراط المستقيم، لكن سلطانك على مَنِ اتبعك مِنَ الضالين المشركين الذين رضوا بولايتك وطاعتك بدلا من طاعتي.

قوله تعالى:{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر : ٤٢]، أي:" إن عبادي الذين أخلصوا لي لا أجعل لك سلطانًا على قلوبهم تضلُّهم به عن الصراط المستقيم"[١٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن عبادي ليس لك عليهم حجة"[١٣].

قال ابن كثير:" أي : الذين قدرت لهم الهداية ، فلا سبيل لك عليهم ، ولا وصول لك إليهم"[١٤].

قال الثعلبي:" قال أهل المعاني: يعني على قلوبهم"[١٥].

وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية، فقال: "معناه ليس لك عليهم سلطان أن تلقيهم في ذنب يضيق عنه عبدي، وهؤلاء الذين رأى فيهم إحسانهم"[١٦].

قوله تعالى:{إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الحجر : ٤٢]، أي:" لكنْ من غوى وضل من الكافرين فلك عليهم تسلط"[١٧].

قال ابن كثير:" استثناء منقطع "[١٨].

---

(١) تفسير النسفي:١٩٠/٢.
(٢) انظر: زاد المسير:٥٣٤/٢.
(٣) تفسير السمعاني:١٤٠/٣.
(٤) انظر: النكت والعيون:١٦١/٣.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٦١/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٠٤/١٧.
(٧) انظر: النكت والعيون:١٦١/٣.
(٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٣٨٧):ص٢٢٦٤/٧.
(٩) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن:٣٤١/٥.
(١٠) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن:٣٤١/٥.
(١١) انظر: معاني القرآن للفراء:٨٩/٢، والنكت والعيون:١٦١/٣، والمبسوط في القراءات العشر:٢٦٠.
(١٢) التفسير الميسر:٢٦٤.
(١٣) تفسير الطبري:١٠٥/١٧.
(١٤) تفسير ابن كثير:٥٣٥/٤.
(١٥) الكشف والبيان:٣٤٢/٥.
(١٦) الكشف والبيان:٣٤٢/٥.
(١٧) صفوة التفاسير:١٠١/٢.
(١٨) تفسير ابن كثير:٥٣٥/٤.

قال الطبري:" إلا من اتبعك على ما دعوته إليه من الضلالة ممن غوى وهلك"[1].

قال السعدي:" فرضي بولايتك وطاعتك بدلا من طاعة الرحمن، والغاوي ضد الراشد، فهو الذي عرف الحق وتركه والضال الذي تركه من غير علم منه به"[2].

عن يزيد بن قسيط، قال: "كانت الأنبياء لهم مساجد خارجة من قُراهم، فإذا أراد النبيّ أن يستنبئ ربه عن شيء، خرج إلى مسجده، فصلى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينما نبيّ في مسجده، إذا جاء عدوّ الله حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبيّ ﷺ: أعُوذُ بالله مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ، فقال عدوّ الله: أرأيت الذي تعوَّذ منه فهو هو، فقال النبيّ ﷺ: أعُوذُ باللَّهِ مِن الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ فردّد ذلك ثلاث مرّات، فقال عدوّ الله: أخبرني بأيّ شيء تنجو مني، فقال النبيّ ﷺ: بَلْ أَخْبِرْني بأيّ شيْءٍ تَغْلِبُ ابْنَ آدَمَ، مرّتين، فأخذ كلّ واحد منهما على صاحبه، فقال النبيّ ﷺ: إنَّ اللَّهَ تعالى ذِكْرُهُ يقُولُ: {إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}، قال عدوّ الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد، قال النبيّ ﷺ: ويقول اللَّهُ تَعالى ذِكْرُهُ: {وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} وإنّي والله ما أحْسَسْتُ بِكَ قَطُّ إلا اسْتَعَذْتُ بالله مِنْكَ، فقال عدوّ الله: صدقت بهذا تنجو مني، فقال النبي ﷺ: فأخْبِرْنِي بأيّ شَيْءٍ تَغْلِبُ ابْنَ آدَمَ؟ قال: آخذه عند الغضب، وعند الهوى"[3].

فوائد الآيتين[٤١-٤٢]:

١- طريق الله مستقيم إلى الله تعالى يسلكه الناس حتى ينتهوا إلى الله سبحانه فيحاسبهم ويجزيهم بكسبهم الخير بالخير والشر بالشر.

٢- أن دعوة الشيطان للضلال والفساد إنما تثمر مع الذين يعرضون عن ذكر الله، ويتركون السلاح الذي أمر الله بالتسلح به ضد وساوس الشيطان ومراوغاته التي لا تهدأ لجر هذا الإنسان إلى الهاوية، أما المؤمنون فقد عرفوا السلاح الذي به يقاومون هذا التسلط، قال تعالى: إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون [الأعراف: ٢٠١]. وقال: وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم [الأعراف: ٢٠٠].

والطائف هو الوسوسة أو مبدؤها، وهو إذا مس المؤمنين تذكروا فإذا هم مبصرون، فلا يقعون في فخ طاعته، قال محمد رشيد رضا: "والنفس الزكية الفطرة، المستقيمة لله تعالى بهداية الكتاب والسنة لا يكاد الشيطان يصلها، وإذا طاف بها طائف من وسوسته في حال الغفلة كان هو المذكر لها، فإذا هي مبصرة قائمة بما يجب عليها، فمثلها في عدم تأثير الوسوسة فيها أو عدم إفسادها لها كمثل البدن القوي في عدم استعداده لفتك جراثيم الأمراض به، كما أن النفس الفاسدة الفطرة بالشرك أو النفاق والمعاصي وسوء الأخلاق تكون مستعدة لطاعة الشيطان، كاستعداد البدن الضعيف والمزاج الفاسد لتأثير ميكروبات الأمراض، ومن الأرواح والأبدان ما ليس في منتهى القوة ولا غاية الضعف، فكل منها يتأثر بقدر استعداده، وتكون عاقبة السلامة إن كان أقرب إلى الصحة والقوة، والهلاك إن كان بضد ذلك"[4].

فكلما قوي الإيمان كلما ازداد الشيطان بعدا، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إيها يا ابن الخطاب: والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك"[5].. وقال أيضا: "إن الشيطان ليفرق منك يا عمر"[6]، وقال: "إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس فروا من عمر"[1].

---

(١) تفسير الطبري:١٧/١٠٥.

(٢) تفسير السعدي:٤٣١.

(٣) أخرجه الطبري:١٧/١٠٥.

(٤)تفسير المنار:٧/ ٥١٤.

(٥)رواه البخاري (٣٦٨٣). من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٦)رواه الترمذي (٣٦٩٠)، وأحمد (٥/ ٣٥٣) (٢٣٠٣٩)، وابن حبان (١٥/ ٣١٥) (٦٨٩٢)، والبيهقي (١٠/

تنبيه:

قام بعض من لا علم له[2]، بتحريف قول الله - عز وجل -: {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} هكذا: {قَالَ هَذَا صِرَاطُ عَلِيٍّ مُسْتَقِيمٌ}، يقصد عليًّا بن أبي طالب - رضي الله عنه -ثم يقول: «(عَلِيٌّ) أو (عَلَيَّ) هي هي، (عَلِيٌّ) هو (عَلَيَّ)».اهـ.

فتأمل!!! هذا الجاهل كيف يحرف كلام الله - عز وجل -، وما علاقة عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - بهذا الحوار بين الله - عز وجل - وإبليس!!!

القرآن

{وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣)} [الحجر : ٤٣]

التفسير:

وإن النار الشديدة لَموعدُ إبليس وأتباعه أجمعين.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لإبليس: وإن جهنم لموعد من تبعك أجمعين"[3].

قال السعدي:" أي: إبليس وجنوده"[4].

قال ابن أبي زمنين:" يعني: الغاوين"[5].

قال الواحدي:" يريد: إبليس ومَنْ تبعه من الغاوين"[6].

قال السمعاني:" يعني: موعد إبليس ومن تبعه للخلود فيها"[7].

قال مقاتل:" يعني: كفار الجن والإنس وإبليس وذريته"[8].

قال ابن كثير:" أي : جهنم موعد جميع من اتبع إبليس ، كما قال عن القرآن : { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } [هود : ١٧]"[9].

القرآن

{لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)} [الحجر : ٤٤]

التفسير:

لها سبعة أبواب كل باب أسفل من الآخر، لكل بابٍ مِن أتباع إبليس قسم ونصيب بحسب أعمالهم.

قوله تعالى:{لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ} [الحجر : ٤٤]، أي:" لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم"[10].

قال الطبري:" يقول: لجهنم سبعة أطباق"[11].

قال الواحدي:" لجهنم سبعة أطباقٍ طبقٌ فوق طبقٍ"[12].

(١٠/ ٧٧) (١٩٨٨٨). من حديث بريدة رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح غريب، وصحح إسناده عبدالحق الإشبيلي في ((الأحكام الصغرى)) (٨٤٥) كما أشار إلى ذلك في المقدمة، وصححه ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٢٥٢).

(١)رواه الترمذي (٣٦٩١)، والنسائي (٥/ ٣٠٩). من حديث عائشة رضي الله عنها. قال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال ابن عدي في ((الكامل في الضعفاء)) (٣/ ٤٩٣): (فيه) خارجة بن عبد الله بن سليمان وهو عندي لا بأس به وبرواياته، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي))..

(٢) وهو حسن شحاتة.

(٣) تفسير الطبري:١٠٥/١٧.

(٤) تفسير السعدي:٤٣١.

(٥) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٥/٢.

(٦) الوجيز:٥٩٢.

(٧) تفسير السمعاني:١٤١/٣.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٠/٢.

(٩) تفسير ابن كثير:٥٣٦/٤.

(١٠) صفوة التفاسير:١٠١/٢.

(١١) تفسير الطبري:١٠٥/١٧.

(١٢) الوجيز:٥٩٢.

قال السعدي:" كل باب أسفل من الآخر"(١).

قال مقاتل:" بعضها أسفل من بعض كل باب أشد حرا من الذي فوقه بسبعين جزءا بين كل بابين سبعين سنة أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية، ثم سقر"(٢).

قال ابن أبي زمنين:" بعضها تحت بعض مطبقة؛ الباب الأعلى جهنم، ثم سقر، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية، وجهنم والنار يقدمان الأسماء"(٣).

قال ابن كثير:" أخبر أن لجهنم سبعة أبواب : { لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ } أي : قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه ، لا محيد لهم عنه - أجارنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في دَرَك بقدر فعله"(٤).

قوله تعالى:{لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [الحجر : ٤٤]، أي:" لكل جماعة من أتباع إبليس بابٌ معينٌ معلوم"(٥).

قال الطبري:أي: "لكلِّ طَبَق منهم: يعني من أتباع إبليس {جزء}، يعني: قسما ونصيبا مقسوما"(٦).

قال السعدي:" أي: من أتباع إبليس {جزء مقسوم} بحسب أعمالهم قال الله تعالى {فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ(٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} [الشعراء : ٩٤-٩٥] "(٧).

قال مقاتل:" يعني: عدد معلوم من كفار الجن والإنس يعني الباب الثاني يضعف على الباب الأعلى في شدة العذاب سبعين ضعفا"(٨).

قال الفراء:" {لكل باب منهم}، يعنى: من الكفار، {جزء مقسوم}، يقول: نصيب معروف. والسبعة الأبواب أطباق بعضها فوق بعض. فأسفلها الهاوية، وأعلاها جهنم"(٩).

عن عكرمة: قوله "{لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ}، قال: لها سبعة أطباق"(١٠).

عن ابن جريج، قوله "{لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ}، قال: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، والجحيم فيها أبو جهل"(١١).

عن هبيرة، عن عليّ، قال: "أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأوّل، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم تمتلئ كلها"(١٢).

عن حطان بن عبد الله، قال: "قال عليّ: تدرون كيف أبواب النار؟ قلنا: نعم كنحو هذه الأبواب، فقال: لا ولكنها هكذا، فوصف أبو هارون أطباقا بعضها فوق بعض، وفعل ذلك أبو بشر"(١٣).

وعن حِطان، قال: سمعت عليا وهو يخطب، قال: "إن أبواب جهنم هكذا، ووضع شُعبة إحدى يديه على الأخرى"(١٤).

---

(١) تفسير السعدي:٤٣١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٠/٢.
(٣) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٥/٢.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٣٦/٤.
(٥) صفوة التفاسير:١٠١/٢.
(٦) تفسير الطبري:١٠٥/١٧.
(٧) تفسير السعدي:٤٣١.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٠/٢.
(٩) معاني القرآن:٨٩/٢.
(١٠) أخرجه الطبري:١٠٦/١٧.
(١١) أخرجه الطبري:١٠٧/١٧.
(١٢) أخرجه الطبري:١٠٦/١٧.
(١٣) أخرجه الطبري:١٠٦/١٧.
(١٤) أخرجه الطبري:١٠٦/١٧.

عن قتادة، قوله "{لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ}، وهي والله منازل بأعمالهم"(١).

وقال جويبر ، عن الضحاك : "{ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ } قال : باب لليهود ، وباب للنصارى ، وباب للصابئين ، وباب للمجوس ، وباب للذين أشركوا - وهم كفار العرب - وباب للمنافقين ، وباب لأهل التوحيد ، فأهل التوحيد يُرجى لهم ولا يُرجى لأولئك أبدًا"(٢).

وفي رواية الثعلبي عن أبي سنان عن الضحاك في قول الله: "{لكل باب منهم جزء مقسوم}، قال: للنار سبعة أبواب هي سبعة أدراك بعضها على بعض: فأولها: أهل التوحيد يعذبون على قدر أعمالهم وأعمارهم في الدنيا ثم يخرجون.والثاني: فيه اليهود.والثالثة: فيه النصارى.والرابع: فيه الصابئون.والخامسة: فيه المجوس.والسادس: فيه مشركوا العرب.والسابع: فيه المنافقون. فذلك قوله: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء : ١٤٥] الآية"(٣).

وعن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : "لجهنم سبعة أبواب : باب منها لمن سلَّ السيف على أمتي - أو قال : على أمة محمد"(٤).

وعن سَمُرَة بن جُنْدَب ، عن النبي ﷺ في قوله : { لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ } قال : "إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه ، وإن منهم من تأخذه النار إلى حُجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه ، منازل بأعمالهم ، فذلك قوله : { لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ }"(٥).

قال القشيري:" اجتمعوا اليوم فى أصل الضلالة، ثم الكفر ملل مختلفة، ثم يجتمعون غدا فى العقوبة وهم زمر مختلفون، لكلّ دركة من دركات جهنم قوم مخصّون"(٦).

فوائد الآيتين:[٤٣-٤٤]:

١- النار دار العذاب، أعدها الله للكافرين والعصاة فيها أشد العذاب، وصنوف العقوبات، وخزنتها ملائكة غلاظ شداد. والكفار مخلدون فيها، طعامهم الزقوم، وشرابهم الحميم.
٢- بيان أن لجهنم طبقات واحدة فوق أخرى ولكل طبقة بابها فوقها يدخل معه أهل تلك الطبقة لا غير.
٣- أعلمنا ربنا عز وجل أنه قسم تابعي إبليس من الغاوين سبعة أجزاء على عدد أبواب النار، فجعل لكل باب منهم جزءا معلوما، قال تعالى: { لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ }.
٤- أن العذاب في جهنم ألوان، والمعذبون طبقات، فمنهم من لا طعام له إلا من غسلين ومنهم من لا طعام له إلا من ضريع، ومنهم من لا طعام له إلا الزقوم، ويدل لهذا قوله تعالى: {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [الحجر: ٤٤] .

القرآن

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)} [الحجر : ٤٥]

التفسير:

إن الذين اتقوا الله بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى في بساتين وأنهار جارية.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الذين اتقوا الله بطاعته وخافوه، فتجنبوا معاصيه في جنات وعيون"(٧).

---

(١) أخرجه الطبري:١٠٧/١٧.

(٢) تفسير ابن كثير:٥٣٦/٤-٥٣٧، وانظر: الكشف والبيان:٣٤٢/٥.

(٣) الكشف والبيان:٣٤٢/٥، وتفسير ابن كثير:٥٣٦/٤

(٤)سنن الترمذي برقم (٣١٢٣) وقال : "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول".

(٥) أخرجه ابن ابي حاتم، كما في تفسير ابن كثير:٥٣٧/٤، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٢/٥) مطولا ، ، وأصل الحديث في صحيح مسلم برقم (٢٨٤٥) دون ذكر الآية إلى قوله : "تأخذه النار إلى حجزته".

(٦) لطائف الإشارات:٢٧٢/٢.

(٧) تفسير الطبري:١٠٧/١٧.

قال مقاتل: "{المتقين} الشرك {في جنات وعيون}، يعني: بساتين وأنهار جارية"[١].
قال السعدي:" يقول تعالى: {إن المتقين} الذين اتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان {في جنات وعيون} قد احتوت على جميع الأشجار وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات"[٢].
قال ابن كثير:" لما ذكر تعالى حال أهل النار ، عطف على ذكر أهل الجنة ، وأنهم في جنات وعيون"[٣].
قال الزمخشري:" المتقى على الإطلاق: من يتقى ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه"[٤].
قال سهل:" المتقي في الدنيا في جنات الرضى يتقلب، وفي عيون الأنس يسبح، هذا باطن الآية"[٥].
قال الماتريدي:" إن كان أهل الكبائر في قوله: {لها سبعة أبواب}، فيكون قوله: إن المتقين الذين اتقوا الكبائر؛ وإن كان أصحاب الكبائر لم يدخلوا في قوله: {لها سبعة أبواب}، فيكون قوله: {إن المتقين}، للذين اتقوا الشرك، وقوله - عز وجل -: {في جنات}، أي: في: بساتين، والبساتين: هي التي التقت بالأشجار والنخيل، والعيون قد تكون جارية في الدنيا، وقد تكون غير جارية، فأخبر في آية أخرى بأن عيون الآخرة تكون جارية؛ بقوله: {فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ} [الرحمن : ٥٠].
{وعيون}: قال بعضهم: ذكر العيون؛ ليعلم أن مياه الجنة - ليست تكون من الثلوج والأنهار العظام - على ما تكون في الدنيا - ولكن تنبع فيها.
وقال بعضهم: ذكر العيون؛ لأنه ينبع في بستان كل أحد عين على حدة، لا يأتي بستانه من ملك آخر، ومن بستان آخر، على ما يكون في الدنيا؛ ولكن تنبع في جنة كل أحد عين على حدة، على ما أراد الله، ليس أنها تتصل بالأرض؛ كما ذكر في قصة بني إسرائيل: {فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا} [البقرة : ٦٠]، أنشأ الله في ذلك الحجر ما يخرج لهم على غير اتصاله بالأرض، ولكن بلطفه ينشئ فيه ماء، فعلى ذلك في الجنان التي وعد.
ويشبه أن يكون ذكر هذا لما يختلف رغائب الناس في الدنيا: منهم من يرغب في العين؛ ويتلذذ بالنظر إليها، ومنهم من يرغب في النهر الجاري، فذكر مرة العيون، ومرة الأنهار؛ كقوله: { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، على ما ذكر مرة الخيام، والقباب، والغرف، وأنواع الفرش والبسط، والكيزان والأكواب، والجواري والغلمان، وغير ذلك على ما يرغب الناس في الدنيا: منهم من يرغب في نوع لا يرغب في نوع آخر؛ فذكر فيها كل ما يرغبون في الدنيا؛ ليبعثهم ذلك على العمل الذي به يوصل إلى ذلك "[٦].
وقرأ نبيح والجراح وأبو واقد ويعقوب في رواية رويس: «وعيون» بكسر العين، مثل: بيوت وشيوخ[٧].

القرآن

{ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦)} [الحجر : ٤٦]

التفسير:
يقال لهم: ادخلوا هذه الجنات سالمين من كل سوء آمنين من كل عذاب.

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٠/٢.
(٢) تفسير السعدي:٤٣١.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٣٧/٤.
(٤) الكشاف:٥٧٩/٢.
(٥) تفسير التستري:١٥٣.
(٦) تأويلات أهل السنة:٤٤٤/٦.
(٧) انظر: المحرر الوجيز:٣٦٣/٣.

قال الطبري:" إن الذين اتقوا الله بطاعته وخافوه، فتجنبوا معاصيه في جنات وعيون، يقال لهم: {ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ} من عقاب الله، أو أن تُسلبوا نعمة أنعمها الله عليكم، وكرامة أكرمكم بها"[١].

قال البغوي:" أي: يقال لهم ادخلوا الجنة {بسلام} أي: بسلامة {آمنين} من الموت والخروج والآفات"[٢].

قال ابن كثير:" أي : سالمين من الآفات ، مسلمًا عليكم ، { آمِنِينَ } من كل خوف وفزع ، ولا تخشوا من إخراج ، ولا انقطاع ، ولا فناء"[٣].

قال ابن عطية:" «السلام» هاهنا يحتمل أن يكون السلامة، ويحتمل أن يكون التحية"[٤]. التحية"[٤].

قرأ الجمهور «ادخلوها» على الأمر، بمعنى: يقال لهم: «ادخلوها» ، وقرأ رويس عن يعقوب «أدخلوها» على بناء الفعل للمفعول[٥].

فوائد الآيتين:[٤٥-٤٦]:

١- دعوة القرآن إلى التقوى تتخذ أساليب شتى من الأمر بها، وبيان آثارها والثناء على أهلها والترغيب في محاسنهم وتجلية فضائلهم والترهيب من تركها والإعراض عنها والانصاف بأضدادها، حتى يظهر الفرق بين المتقين والفجار، أو بين أهل البر والتقوى وأهل الإثم والعدوان[٦].

٢- من بركة التقوى الثواب بالجنات النعيم.

٣- تقرير نعيم الجنة، وأن نعيمها جسماني روحاني معا دائم أبدا.

٤- أن في الجنة عيون كثيرة مختلفة الطعوم والمشارب {إن المتقين في جنات وعيو} [الحجر: ٤٥] ، {إن المتقين في ظلال وعيون} [المرسلات: ٤١] ، وقال في وصف الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف ربه {فيهما عينان تجريان} [الرحمن: ٥٠] . وقال في وصف الجنتين اللتين دونهما {فيهما عينان نضاختان} [الرحمن: ٦٦] .

وفي الجنة عينان يشرب المقربون ماءها صرفاً غير مخلوط، ويشرب منهما الأبرار الشراب مخلوطاً ممزوجاً بغيره:

- العين الأولى: عين الكافور قال تعالى: {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً* عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا} [الإنسان: ٥-٦] . فقد أخبر أن الأبرار يشربون شرابهم ممزوجاً من عين الكافور، بينما عباد الله يشربونها خالصاً.
- العين الثانية: عين التسنيم، قال تعالى: {إن الأبرار لفي نعيم* على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم* عيناً يشرب بها المقربون} [المطففين: ٢٢-٢٨] .

ومن عيون الجنة عين تسمى السلسبيل، قال تعالى: {ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً * عيناً فيها تسمى سلسبيلاً} [الإنسان: ١٧-١٨] . ولعل هذه هي العين الأولى نفسها.

٥- ومن أساليب القرآن الكريم أنه كلما يذكر الجنة عطف عليها بذكر النار وكلما يذكر أهل النار عطف عليهم بذكر أهل الجنة، فتارة يعد ويتوعد، وتارة يخبر عما أعد في الجنة من النعيم المقيم لأوليائه ويخبر عما أرصد في النار من العذاب الأليم لأعدائه وغير

---

(١) تفسير الطبري:١٠٧/١٧.
(٢) تفسير البغوي:٣٨٣/٤.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٣٧/٤.
(٤) المحرر الوجيز:٣٦٣/٣.
(٥) انظر: المحرر الوجيز:٣٦٣/٣.
(٦) انظر: كيف نتعامل مع القرآن العظيم:٨٢.

ذلك فمن رام استقصاءه فليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته بتدبر وقلب شهيد، والله الموفق.

القرآن

{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧)} [الحجر : ٤٧]

التفسير:

ونزعنا ما في قلوبهم من حقد وعداوة، يعيشون في الجنة إخوانًا متحابين، يجلسون على أسرَّة عظيمة، تتقابل وجوههم تواصلا وتحاببًا.

سبب النزول:

قال علي بن أبي طالب: "فينا والله نزلت أهل بدر: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ}"[١].

وأخرج ابن مردويه من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله: "{ونزعنا ما في صدورهم من غل} الآية، قال: نزلت في علي وطلحة والزبير"[٢].

وأخرج الشيرازي في الألقاب وابن مردويه وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس :"{ونزعنا ما في صدورهم من غل} قال: نزلت في عشرة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود"[٣].

وعن سفيان عن الكلبي عن أبي صلح في :"قوله :{إخوانا على} يقول: {علي سرر متقابلين}، قال عشرة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ملك وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعبد الله بن مسعود"[٤].

قوله تعالى:{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ} [الحجر : ٤٧]، أي:" أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من الحقد والبغضاء والشحناء"[٥].

قال الطبري:" يقول: وأخرجنا ما في صدور هؤلاء المتقين الذين وصف صفتهم من حقد وضغينة بعضهم لبعض"[٦].

قال ابن أبي زمنين:" يعني: ما كان بينهم في الدنيا من الحسد والضغائن"[٧].

قال البغوي:أي:" وأخرجنا، {ما في صدورهم من غل} من غش وعداوة كانت بينهم في الدنيا"[٨].

وفي قوله تعالى:{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ} [الحجر : ٤٧]، أقوال:

أحدها : الأهواء والبدع ، قاله سهل بن عبد الله[٩].

والثاني : التباغض والتحاسد[١٠].

والثالث : الحقد[١١].

والرابع : العداوة. قاله علي[١٢]، والضحاك[١٣]، وابن عيينة[١٤].

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٨٤٦٦):ص١٤٧٨/٥.

(٢) الدر المنثور:٨٥/٥.

(٣) الدر المنثور:٨٥/٥.

(٤) تفسير سفيان الثوري(٤٧٤: ٦: ٩):ص١٦٠.

(٥) صفوة التفاسير:١٠٤/٢.

(٦) تفسير الطبري:١٠٧/١٧.

(٧) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٦/٢.

(٨) تفسير البغوي:٢٢٩/٣.

(٩) انظر: النكت والعيون:٢٢٤/٢.

(١٠) انظر: النكت والعيون:٢٢٤/٢.

(١١) انظر: النكت والعيون:٢٢٤/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري:١٩٨/١٧.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٤٦٥٨):ص٤٣٨/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٨٤٦٩):ص١٤٧٨/٥

(١٤) انظر: تفسير الطبري:١٩٨/١٧.

والخامس: نزع من نفوسهم أن يتمنوا ما لغيرهم(١).

السادس: أخرج ما في قلوبهم من الغش الذي كان في الدنيا بعضهم لبعض فصاروا متحابين. قاله مقاتل(٢).

قال الزمخشري:" «الغل»: الحقد الكامن في القلب، من انغل في جوفه وتغلغل، أى: إن كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم"(٣).

وفي نزعه وجهان(٤):

أحدهما : أن الله نزع ذلك من صدورهم بلطفه .

والثاني : ان ما هداهم إليه من الإيمان هو الذي نزعه من صدورهم .

وفي هذا «الغل» قولان :

أحدهما : أنه غل الجاهلية ، قاله الحسن(٥)، وأبو جعفر(٦).

والثاني : أنهم لا يتعادون ولا يتحاقدون بعد الإيمان(٧).

قال ابن عطية:" ذكر الله تعالى في هذه الآية أن ينزع الغل من قلوب أهل الجنة، ولم يذكر لذلك موطنا، وجاء في بعض الحديث أن ذلك على الصراط، وجاء في بعضها أن ذلك على أبواب الجنة، وفي لفظ بعضها أن الغل ليبقى على أبواب الجنة كمعاطن الإبل، وهذا على أن الله تعالى يجعل ذلك تمثيلا بلون يخلقه هناك ونحوه، وهذا كحديث ذبح الموت، وقد يمكن أيضا أن يسل من الصدور، ولذلك جواهر سود فيكون كمبارك الإبل، وجاء في بعض الأحاديث أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم في الجنة، والذي يقال في هذا أن الله ينزعه في موطن من قوم وفي موطن من آخرين"(٨).

قال أبو أمامة:" يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غلّ، ثم قرأ {وَنزعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ}"(٩).

قال السدي:" إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا، وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فشربوا من إحداهما، فينزع ما في صدورهم من غل، فهو «الشراب الطهور»، واغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم"نضرة النعيم"، فلم يشعثوا ولم يتسخوابعدها أبدا"(١٠).

قال الحسن:" بلغني أن النبي ﷺ قال: يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلامتهم في الدنيا، فيدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل"(١١).

عن أبي نضرة قال:" يحبس أهل الجنة دون الجنة حتى يقضى لبعضهم من بعض، حتى يدخلوا الجنة حين يدخلونها ولا يطلب أحد منهم أحدا بقلامة ظفر ظلمها إياه. ويحبس أهل النار دون النار حتى يقضى لبعضهم من بعض، فيدخلون النار حين يدخلونها ولا يطلب أحد منهم أحدا بقلامة ظفر ظلمها إياه"(١٢).

---

(١) انظر: النكت والعيون:٢٢٤/٢.
(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٠/٢.
(٣) الكشاف:٥٧٩/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون:٢٢٤/٢.
(٥) انظر: النكت والعيون:٢٢٤/٢.
(٦) انظر: الدر المنثور:٨٥/٥.
(٧) انظر: النكت والعيون:٢٢٤/٢.
(٨) المحرر الوجيز:٣٦٣/٣.
(٩) أخرجه الطبري:١٠٧/١٧.
(١٠) أخرجه الطبري(١٤٦٦٣):ص٤٣٨/١٢-٤٣٩.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٤٦٨):ص١٤٧٨/٥.
(١٢) أخرجه الطبري(١٤٦٦٤):ص٤٣٩/١٢.

قال القشيري:" أمر الخليل عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها فقال: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ}[الحج:٢٦] ، وأمر جبريل عليه السلام حتى غسل قلب المصطفى- ﷺ- فطهّره . وتولّى هو- سبحانه- بنفسه تطهير قلوب العاصين، فقال: {وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ} وذلك رفقا بهم، فقد يصنع الله بالضعيف ما يتعجّب منه القوى، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهرت عيوبهم، فتولّى ذلك بنفسه رفقا بهم، ويقال قال: {ما فِي صُدُورِهِمْ} ولم يقل ما فى قلوبهم لأن القلوب فى قبضته يقلبها، وفى الخبر: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»[١]: يريد بذلك قدرته، فاستعمل لفظ «الإصبع» لذلك توسعا. وقيل بين إصبعين أي نعمتين"[٢].

قوله تعالى:{إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر : ٤٧]، أي:" حال كونهم إخوةً متحابين لا يكدّر صفوهم شيء، على سررٍ متقابلين وجهاً لوجه"[٣].

قال القرطبي:" أي: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلا وتحاببا"[٤].

قال البغوي:أي:" يقابل بعضهم بعضا، لا ينظر أحد منهم إلى قفا صاحبه، وفي بعض الأخبار: إن المؤمن في الجنة إذا ود أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان"[٥].

وفي قوله تعالى:{مُتَقَابِلِينَ} [الحجر : ٤٧]، وجوه من التفسير:

أحدها : متقابلين بالوجوه يرى بعضهم بعضاً فلا يصرف طرفه عنه تواصلاً وتحابياً، قاله مجاهد[٦].

قال مجاهد:" لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه"[٧].

قال ابن عباس:" أهل الجنة لا ينظر بعضهم في قفا بعض ثم قرأ {متكئين عليها متقابلين}"[٨].

الثاني : متقابلين بالمحبة والمودة ، لا يتفاضلون فيها ولا يختلفون ، قاله علي بن عيسى[٩].

الثالث : متقابلين في المنزلة لا يفضل بعضهم فيها على بعض لاتفاقهم على الطاعة واستهوائهم في الجزاء ، قاله أبو بكر بن زياد[١٠].

الرابع : متقابلين في الزيارة والتواصل ، قاله قتادة[١١].

وقال مقاتل:" فى الزيارة يرى بعضهم بعضا متقابلين على الأسرة يتحدثون"[١٢].

الخامس : متقابلين قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهم بالود ، حكاه القاسم[١٣].

السادس: أن الأسرة تدور كيفما شاءوا، فلا يرى أحد قفا أحد. حكاه القرطبي[١٤].

---

(١)روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص إنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء) ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (اللهم مصرف القلوب صوف قلوبنا على طاعتك) حديث (٢٦٥٤).

(٢) لطائف الإشارات:٢٧٣/٢.

(٣) صفوة التفاسير:١٠٤/٢.

(٤) تفسير القرطبي:٣٣/١٠.

(٥) تفسير البغوي:٣٨٣/٤.

(٦) انظر: تفسير الطبري:١١٠/١٧.

(٧) أخرجه الطبري:١١٠/١٧.

(٨) الدر المنثور:٨٥/٥.

(٩) انظر: النكت والعيون:١٦٢/٣.

(١٠) انظر: النكت والعيون:١٦٢/٣.

(١١) انظر: النكت والعيون:١٦٢/٣.

(١٢) تفسير مقاتل ب نسليمان:٤٣٠/٢-٤٣١.

(١٣) انظر: النكت والعيون:١٦٢/٣.

(١٤) انظر: تفسير القرطبي:٣٣/١٠.

قال ابن عطية:" {مُتَقَابِلِينَ}، الظاهر أن معناه في الوجوه، إذ الأسرة متقابلة فهي أحسن في الرتبة"[1].

قال ابن عباس: "على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر، السرير ما بين صنعاء إلى الجابية وما بين عدن إلى أيلة"[2].

قال الماوردي:" قيل: إن هذه الآية نزلت في العشرة من قريش"[3].

أخرج ابن مردويه من طريق عبد الله بن مليل عن علي في قوله: "{ونزعنا ما في صدورهم من غل} قال: نزلت في ثلاثة أحياء من العرب: في بني هاشم وبني تيم وبني عدي وفي أبي بكر وفي عمر"[4].

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن كثير النواء قال: "قلت لأبي جعفر: إن فلانا حدثني عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي: {ونزعنا ما في صدورهم من غل} قال: والله إنها لفيهم أنزلت وفيمن تنزل إلا فيهم، قلت: وأي غل هو؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تيم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا وأخذت أبا بكر الخاصرة فجعل علي يسخن يده فيكوي بها خاصرة أبي بكر فنزلت هذه الآية"[5].

عن إبراهيم، قال: "جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على عليّ، فحجبه طويلا ثم أذن له فقال له: أما أهل البلاء فتجفوهم، قال عليّ: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله :{وَنزعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}"[6].

عن أبي حبيبة مولى لطلحة، قال: "دخل عمران بن طلحة على عليّ بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، فرحَّب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله {إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} ، ورجلان جالسان على ناحية البساط، فقالا الله: أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس وتكونون إخوانا؟ فقال: عليّ: قوما أبعد أرض وأسحقها. فمن هم إذن إن لم أكن أنا وطلحة؟"[7].

عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا هذه الآية إخوانا على سرر متقابلين «المتحابين في الله في الجنة ينظر بعضهم إلى بعض"[8].

الفوائد:

١- لا عداوة ولا حسد في الجنة.

٢- أن المؤمنين سوف يوقفوا على "قنطرة بين الجنة والنار"، للقصاص:

ففي الحديث "يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى لمنزله في الجنة منه لمنزله كان في الدنيا"[9].

واختلف العلماء في هذه القنطرة؛ هل هي طرف الجسر الذي على متن جهنم أو هي جسر مستقل؟!

---

(١) المحرر الوجيز:٣/٣٦٤.
(٢) تفسير القرطبي:١٠/٣٣.
(٣) النكت والعيون:٣/١٦٣.
(٤) الدر المنثور:٥/٨٤.
(٥) الدر المنثور:٥/٨٥.
(٦) أخرجه الطبري:١٧/١٠٨، وابن ابي حاتم(٨٤٦٧):ص٥/١٤٧٨ مختصرا.
(٧) أخرجه الطبري:١٧/١٠٨-١٠٩.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٤٠٥):ص٧/٢٢٦٧-٢٢٦٨.
(٩)أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في الصحيح ٥/ ٩٦، كتاب المظالم (٤٦)، باب قصاص المظالم (١)، الحديث (٢٤٤٠)، وفي ١١/ ٣٩٥، كتاب الرقاق (٨١)، باب القصاص يوم القيامة. . (٤٨)، الحديث (٦٥٣٥).

والصواب في هذا أن نقول: الله أعلم، وليس يعنينا شأنها، لكن الذي يعنينا أن الناس يوقفون عليها، فهذه القنطرة التي بين الجنة والنار؛ لأجل تنقية ما في القلوب، حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل؛ كما قال الله تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧].

قوله: "فيقتص لبعضهم من بعض": وهذا القصاص غير القصاص الأول الذي في عرصات القيامة، لأن هذا قصاص أخص؛ لأجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في قلوب الناس، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير، وذلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القصاص.

فهذه القنطرة التي بين الجنة والنار؛ لأجل تنقية ما في القلوب، حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل؛ كما قال الله تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧].

فإذا هذبوا مما في قلوبهم من العداوة والبغضاء ونقوا منها؛ فإنه يؤذن لهم في دخول الجنة؛ فإذا أذن لهم في الدخول؛ فلا يجدون الباب مفتوحًا، ولكن النبي - صلى الله عليه وسلم - يشفع إلى الله في أن يفتح لهم باب الجنة؛ كما سيأتي في أقسام الشفاعة إن شاء الله[١].

٣- أن صفة التقوى تجمع بين المتاحبين من أهلها حين تنقلب كل صدقة ومحبة إلى عداوة ومشقة، قال تعالى:{ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}.

٤- ومن بركة التقوى أن الله عز وجل ينزع ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم، قال تعالى:{ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}[الحجر:٤٧]

القرآن

{لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)} [الحجر : ٤٨]

التفسير:

لا يصيبهم فيها تعب ولا إعياء، وهم باقون فيها أبدًا.

قوله تعالى:{لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ} [الحجر : ٤٨]، أي:" لا يصيبهم فيها تعب ولا إعياء"[٢].

قال الزجاج:" أي: لا ينالهم تعب"[٣].

قال أبو الليث:" يقول: لا يصيبهم في الجنة تعب، ولا مشقة"[٤].

قال ابن الجوزي:" أي: لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب"[٥].

قال ابن كثير:" يعني : المشقة والأذى ، كما جاء في الصحيحين : «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصَب ، لا صخب فيه ولا نصب»[٦]"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: لا يَمسّ هؤلاء المتقين الذين وصف صِفتهم في الجنات تَعَب"[٨].

قال القشيري:" أي: لا يلحقهم تعب لا بنفوسهم ولا بقلوبهم. وإذا أرادوا أمرا لا يحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكان إلى مكان"[١].

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين:٢/١٦٣-١٦٤.
(٢) التفسير الميسر:٢٦٤.
(٣) معاني القرآن:٣/١٨٠.
(٤) بحر العلوم:٢/٢٥٧.
(٥) زاد المسير:٢/٥٣٦.
(٦)صحيح البخاري برقم (٣٨٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٣٢) من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه.
(٧) تفسير ابن كثير:٤/٥٣٧.
(٨) تفسير الطبري:١٧/١١١.

- عن السدي في قوله: "{لا يمسهم فيها نصب}، قال: المشقة والأذى"[2].

قال ابن عطية:" «النصب» التعب، يقع على القليل والكثير، ومن الكثير قول موسى عليه السلام لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً [الكهف: ٦٢] ومن ذلك قول الشاعر[3]:
كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ "[4].

قال أبو حيان:" ولما كانت الدنيا محل تعب بما يقاسى فيها من طلب المعيشة، ومعاناة التكاليف الضرورية لحياة الدنيا وحياة الآخرة، ومعاشرة الأضداد، وعروض الآفات والأسقام، ومحل انتقال منها إلى دار أخرى مخوف أمرها عند المؤمن، لا محل إقامة، أخبر تعالى بانتفاء ذلك في الجنة بقوله: {لا يمسهم فيها نصب}، وإذا انتفى المس، انتفت الديمومة"[5].

قوله تعالى:{وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر : ٤٨]، أي:" وهم باقون فيها أبدًا"[6].

قال أبو الليث:" أي: من الجنة"[7].

قال الطبري:" يقول: وما هم من الجنة ونعيمها وما أعطاهم الله فيها بمخرجين، بل ذلك دائم أبدا"[8].

قال السمعاني والبغوي:" قوله: {وما هم منها بمخرجين}، هذا أنص آية في القرآن على الخلود؛ هكذا قال أهل العلم"[9].

وفي الحديث:" يقال لأهل الجنة يا أهل الجنة خلود لا موت ولأهل النار يا أهل النار خلود لا موت"[10].

الفوائد:

١- صفاء نعيم الجنة من كل ما ينغصه أو يكدره.
٢- نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باق.
٣- ومن فوائد الآية: أبدية الجنة، وفمن أدلته أيضا قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} هود/١٠٨. وقد أكد الله تعالى خلود الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من كتابه وأخبر أنهم {لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} [الدخان:٥٦].

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة، كقوله صلى الله عليه وسلم: " من يدخل الجنة ينعم، لا ييأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه "[11].

وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة: " ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، فذلك قول الله عز وجل: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف:٤٣]"[12].

---

(١) اطائف الإشارات:٣٧٤/٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٠٦):ص٢٢٦٨/٧.
(٣)هو النابغة. وعجزه:
وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيء الكَوَاكِبِ
مطلع القصيدة فى ديوانه:٤٢، وهو فى اللسان (نصب).
وقد روى «أميمة» بالضم والفتح. وانظر مختار الشعر الجاهلى ١٥٣.
(٤) المحرر الوجيز:٣٦٤/٣.
(٥) البحر المحيط:٤٨٣/٦.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٤.
(٧) بحر العلوم:٢٥٧/٢.
(٨) تفسير الطبري:١١١/١٧.
(٩)تفسير السمعاني:١٤٢/٣، وتفسير البغوي:٣٨٣/٤
(١٠)أخرجه البخارى (٢٣٩٧/٥، رقم ٦١٧٩) .
(١١) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب ((دوام نعيم أهل الجنة)) ح ((٢٨٣٦)) ٢١٨١/٤.
(١٢)أخرجه مسلم في الموضع السابق ح ((٢٨٣٧)) وأحمد في المسند ٣١٩/٢، ٣٨/٣، ٩٥. وهذا لفظ مسلم.

قثد اتفق أهل السنة على أن الجنة لا تفنى، وذهب جمهور منهم إلى أن النار أيضا لا تفنى وقالت طائفة قليلة منهم بفناء النار.

واعلم أن النار في الآخرة ناران: نار تفنى، ونار تبقى أبداً لا تفنى، فالأولى هي نار العصاة المذنبين من المسلمين، والأخرى نار الكفار والمشركين، هذا خلاصة ما حرره ابن القيم في "الوابل الصيب" وهو الحق الذي لا ريب فيه وبه تجتمع الأدلة، والله تعالى كما قال في أهل الجنة: {لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر:٤٨]، قال مثله في الكافرين: {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة:١٦٧].

القرآن

{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)} [الحجر : ٤٩]

التفسير:

أخبر -أيها الرسول- عبادي أني أنا الغفور للمؤمنين التائبين، الرحيم بهم.

سبب نزول الآيتين[٤٩، ٥٠]:

عن مصعب بن ثابت قال: "مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون، فقال: «اذكروا الجنة واذكروا النار»، فنزلت: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}{وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}"[(١)].

قوله تعالى:{نَبِّئْ عِبَادِي} [الحجر : ٤٩]، أي:" أخبر -أيها الرسول- عبادي"[(٢)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أخبر عبادي يا محمد"[(٣)].

قال الواحدي:" أخبر أوليائي"[(٤)].

قال ابن كثير:" أي : أخبر يا محمد عبادي "[(٥)].

قوله تعالى:{أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الحجر : ٤٩]، أي:" أني أنا الغفور للمؤمنين التائبين، الرحيم بهم"[(٦)].

قال ابن كثير:" أني ذو رحمة"[(٧)].

قال القاسمي:" أي: لمن تاب وآمن وعمل صالحا"[(٨)].

قال الطبري:" أني أنا الذي أستر على ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا، بترك فضيحتهم بها وعقوبتهم عليها، الرحيم بهم أن أعذّبهم بعد توبتهم منها عليها"[(٩)].

قال البيضاوي:" في ذكر المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين من يتقي الذنوب بأسرها كبيرها وصغيرها، وفي توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده"[(١٠)].

قال أبو حيان:" وفي قوله:«نبىء» الآية، ترجيح جهة الخير من جهة أمره تعالى رسوله بهذا التبليغ، فكأنه إشهاد على نفسه بالتزام المغفرة، والرحمة. وكونه أضاف العباد إليه فهو تشريف لهم، وتأكيد اسم أن بقوله: «أنا»، وإدخال «ال» على هاتين الصفتين وكونهما جاءتا بصيغة المبالغة والبداءة بالصفة السارة أولا وهي «الغفران»، واتباعها بالصفة التي نشأ عنها

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٠٥):ص٢٢٦٧/٧.
(٢) التفسير الميسر:٢٦٤.
(٣) تفسير الطبري:١١١/١٧.
(٤) الوجيز:٥٩٣.
(٥) تفسير ابن كثير:٥٣٧/٤.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٤.
(٧) تفسير ابن كثير:٥٣٧/٤.
(٨) محاسن التأويل:٣٣٧/٦.
(٩) تفسير الطبري:١١١/١٧.
(١٠) تفسير البيضاوي:٢١٣/٣.

الغفران وهي «الرحمة»... وناسب ذكر «الغفران والرحمة» اتصال ذلك بقوله: {إن المتقين}. وتقديما لهذين الوصفين العظيمين اللذين وصف بهما نفسه "[١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -:«لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»[٢].

قال قتادة:" بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله، لما تورع من حرام. ولو يعلم قدر عذابه، لجمع نفسه»"[٣].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله - ﷺ - بسبي فإذا امرأة من السبي تبتغي إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله - ﷺ -: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟»، قلنا: لا والله، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[٤].

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: " لو يعلم المؤمن ما عند الله عز وجل من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من رحمته أحد "[٥].

قال القرطبي:" وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره فيخوف ويرجي، ويكون الخوف في الصحة أغلب عليه منه في المرض.. فالقنوط إياس، والرجاء إهمال، وخير الأمور أوساطها"[٦].

القرآن

{وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)} [الحجر : ٥٠]

التفسير:

وأن عذابي هو العذاب المؤلم الموجع لغير التائبين.

قال الواحدي: أي:" لأعدائي"[٧].

قال القاسمي:" أي: لمن لم يتب من كفره"[٨].

قال الطبري:" يقول: وأخبرهم أيضا أن عذابي لمن أصرّ على معاصيّ وأقام عليها ولم يتب منها، هو العذاب الموجع الذي لا يشبهه عذاب. هذا من الله تحذير لخلقه التقدم على معاصيه، وأمر منه لهم بالإنابة والتوبة"[٩].

قال ابن كثير:أي:" وذو عقاب أليم، هذه الآية الكريمة ، دالة على مقامي الرجاء والخوف ، وذكر في سبب"[١٠].

قال المراغي:" أي وأخبرهم أيضا بأن عذابى لمن أصر على معاصى وأقام عليها ولم يتب منها- هو العذاب المؤلم الموجع الذي لا يشبهه عذاب آخر، وفى هذا تهديد شديد وتحذير لخلقه أن يقدموا على معاصيه، ومن الأمر لهم بالإنابة والتوبة، والخلاصة- إن الله جمع لعباده بين التبشير والتحذير، ليكونوا على قدمى الرجاء والخوف، وحال الأنس والهيبة"[١١].

---

(١) البحر المحيط:٤٨٣/٦-٤٨٤.
(٢) رواه البخاري (رقم ٣١٩٤)، ومسلم (رقم ٢٧٥١).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٠٧):ص٢٢٦٨/٧.
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٩٩)، ومسلم (رقم ٢٧٥٤)، واللفظ لمسلم.
(٥) أخرجه أحمد(٩١٦٤):ص٨٥/١٥-٨٦، و وأخرجه مسلم (٢٧٥٥)-٢٣، وابن حبان (٦٥٦):ص٤٣٢/٢. إسناده صحيح، انظر: "الصحيحة" (١٦٣٤).
(٦) تفسير القرطبي:٣٤/١٠.
(٧) الوجيز:٥٩٣.
(٨) محاسن التأويل:٣٣٧/٦.
(٩) تفسير الطبري:١١١/١٧.
(١٠) تفسير ابن كثير:٥٣٧/٤.
(١١) تفسير المراغي:٣٢/١٤.

قال قتادة:" بلغنا أن نبيّ الله ﷺ قال: "لَوْ يَعلمُ العبدُ قَدْر عَفْوِ اللَّهِ لما تورّعَ من حرام، وَلَو يَعلم قَدْر عَذَابهِ لَبخَع نفسَه"[١].

قال أبو حيان:" جاء قوله: {وأن عذابي}، في غاية اللطف إذ لم يقل على وجه المقابلة: وأني المعذب المؤلم، كل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة"[٢].

قال الشوكاني:" أمره بأن يذكر لهم شيئا مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال: {وأن عذابي هو العذاب الأليم}، أي: الكثير الإيلام، وعند ما جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسطا بين اليأس والرجاء، وخير الأمور أوساطها، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف، وبين حالتي الأنس والهيبة"[٣].

عن ابن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ قال:" طَلَع عَلَيْنَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة، فقال: ألا أرَاكُمْ تَضْحَكُونَ؟ ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى، فقال: إنّي لمَّا خَرَجْتُ جاءَ جَبْرَئِيل ﷺ فَقَالَ: يا مُحَمَّد إنَّ الله يَقُولُ: لِمَ تُقَنِّطُ عبادِي؟ {نبِّئ عبادِي أنّي أنا الغَفُورُ الرَّحيمُ وأنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الألِيمُ}"[٤].

فوائد الآيتين:[٤٩-٥٠]:

١- وعد الله بالمغفرة لمن تاب من أهل الإيمان والتقوى من موحديه.

٢- وعيده لأهل معاصيه إذا لم يتوبوا إليه قبل موتهم.

٣- الخوف من الاتكال على سعة رحمة رب العالمين، والله رحمته واسعة، فلو أن إنساناً قال: أنا لن أصلي ولن أزكي ولن أعمل شيئاً لأن الله رحيم فنقول له: الله هو الذي أخبر: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ} [الحجر:٤٩ - ٥٠] فلا تأخذ جزءاً من الآية وتنسى الباقي، فالله غفور رحيم وهو شديد العقاب قال: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج:١٢ - ١٤] فبطشه شديد وهو الغفور الودود، فتأخذ بالقرآن كله وليس ببعضه[٥].

٤- التنبيه على أنه لا يُشتَقُّ لله تعالى أسماءٌ من مخلوقاته الضارة، لأنه لم يقل: إني المعذِّب المؤلم، كما قال: إني أنا الغفور الرحيم، وذلك تعليمٌ لحسن الأدب والتعبير عن مختلفات أفعاله التي دارَتْ على الحِكَم والغايات الحميدة، وهذا هو مذهب أهل السنة.

فإن قلت: هل ورد في القرآن اسمٌ لله عزَّ وجلَّ يناسب ما وقع من المصائب والبَلاوِي؟

قلت: نعم، وهو المُبْتَلِي، قال الله تعالى: {وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ} [المؤمنون: ٣٠]، وقال: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ} [الفجر: ١٥]، وقال: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢] وهو من أسمائه الحسنى، لأن الابتلاء من فعل الحكيم، لِيَمِيزَ الخبيث من الطيب، فالحكمة فيه ظهور طيب الطيب، وإبانته ورَفْعُ منزلته، لا ظهورُ خبث الخبيث، ولكن المحاسن لا تُعرَفُ إلاَّ بأضدادها.

والحجة الواضحة على أن ذلك المراد لا عَكسُه قوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢] وقال: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} [محمد: ٣١] ولم يقل: أيُّكم أقبح عملاً، ولذلك قال العارفون: إن الخلق كلهم مثل شجرةٍ، ثمرتها المقصود بها أهل الخير منهم.

(١) أخرجه الطبري:١١١/١٧.
(٢) البحر المحيط:٤٨٣/٦.
(٣) فتح القدير:١٦١/٣.
(٤) أخرجه الطبري:١١١/١٧.
(٥) انظر: فتح المجيد في كتاب التوحيد:٦/٢.

وفي الحديث: " لما دعا الخليلُ على من رآه يعصي، قال الله له: إنَّ قَصْرَ عبدي مني إحدى ثلاثٍ: إما أن يتوب فأتوب عليه، أو يستغفرني، فأغفر له، أُخرِجَ من صلبه من يعبدني"(١).

وربما عبَّر عن المبتلي بالعزيز المقتدر، كقوله: {فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر: ٤٢]، كما أشار إليه في سورة الشعراء حيث قال بعد كل قصةٍ فيها تعذيب أعدائه الكافرين، ورحمة أوليائه المؤمنين: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء: ٩] حتى تكرَّر ذلك ثمان مرارٍ بعد ثمان قصصٍ، فكان فيه تنبيهٌ لنا على تسمية العزيز القدير بالنظر إلى انتقامه (٢) من الكافرين، وإنزاله بهم المضار والعقوبات، وتسميته بالرحيم بالنظر إلى المؤمنين كقوله: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣].

وكذلك قد يُسمَّى بالدَّيَّان أو الحكيم أو خَفِي الحكمة في هذه المواضع، ونحو ذلك مما وَرَدَ به السمع واستُعمِلَ في الثناء، والله أعلم(٢).

٥- ومن الفوائد: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

- فـ«الغفور»: هو: "الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب عل كل من يتوب ففي الحديث: "إن الله يقول يابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة"(٣). وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} [النجم:٣٢].

وقد فتح الله الأسباب لنيل مغفرته بالتوبة، والاستغفار، والإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى عباد الله، والعفو عنهم، وقوة الطمع في فضل الله، وحسن الظن بالله، وغير ذلك مما جعله الله مقرباً لمغفرته"(٤).

قال الخطابي:"«الغفور»:هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة(٥).

- و«الرحيم»:أي: "ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء" (٦).

قال الشيخ ابن عثيمين:"«الرحيم»:أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده"(٧)، عباده"(٧)، وهو "صيغة مبالغة، أو صفة مشبهة من الرحمة؛ والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الذاتية الفعلية؛ فهي باعتبار أصل ثبوتها لله صفة ذاتية؛ وباعتبار تجدد من يرحمه الله صفة فعلية؛ ولهذا علقها الله سبحانه وتعالى بالمشيئة في قوله تعالى: {يعذب من يشاء ويرحم من يشاء} [العنكبوت: ٢١]، فهي صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل، وأهل التأويل -والأصح أن نسميهم أهل التحريف- يقولون: إن الرحمة غير حقيقية؛ وأن المرادبرحمة الله إحسانه؛ أو إرادة الإحسان؛ فيفسرونها إما بالإرادة؛ وإما بالفعل؛ وهذا لا شك أنه خطأ؛ وحجتهم: أنهم يقولون: إن الرحمة رقة، ولين؛ والرقة، واللين لا تناسبان عظمة الخالق سبحانه وتعالى؛

---

(١) رواه الطبراني في " الأوسط " كما في " المجمع " ٨/ ٢٠١، قال الهيثمي: وفيه علي بن أبي علي اللهبي وهو متروك.

(٢) انظر: العواصم: ٧/٢٢٢-٢٢٣.

(٣)أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ١٤٧) بنحوه، والترمذي في سننه (٥/ ٥٤٨) كتاب الدعوات باب في فضل التوبة والاستغفار، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥) كتاب الآداب باب فضل العمل، والدارمي (٢/ ٢٣٠) كتاب الرقاق باب إذا تقرب العبد إلى الله عن أنس، وقال الترمذي هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وصححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه. انظر: السلسلة الصحيحة (١/ ٢٠٠).

(٤)الحق الواضح المبين، السعدي:٧٣، ٧٤، وانظر: أسماء الله الحسنى:٢١٩.

(٥) انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.

(٦) انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

(٧) تفسير ابن عثيمين الفاتحة والبقرة:٥/١.

فنقول لهم: إن هذه الرحمة رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق فإنها تليق به سبحانه وتعالى؛ ولا تتضمن نقصاً؛ فهو ذو رحمة بالغة، وسلطان تام؛ فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين"[1].

٦- ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه -؛ والعلماء يأخذون من مثل هذه الآية ثبوت الأثر - [2].

القرآن

{وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)} [الحجر : ٥١]

التفسير:

وأخبرهم -أيها الرسول- عن ضيوف إبراهيم من الملائكة الذين بشَّروه بالولد، وبهلاك قوم لوط.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وأخبر عبادي يا محمد عن ضيف إبراهيم: يعني الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم خليل الرحمن حين أرسلهم ربهم إلى قوم لوط ليهلكوهم"[3].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : وخبرهم يا محمد عن قصة { ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ } والضيف : يطلق على الواحد والجمع ، كالزور والسَّفْر"[4].

قال الثعلبي:" يعني الملائكة الذين أرسلهم الله ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط"[5].

قال أبو الليث:" أي: عن أضياف إبراهيم، إلا أن هذا اللفظ مصدر، والمصدر لا يثنى ولا يجمع، وذلك حين بعث الله تعالى جبريل في اثني عشر من الملائكة"[6].

قال الماتريدي:" أي: نبئهم بتمام ما فيه من الزجر والموعظة؛ لأن في ذلك أخبار ما نزل بالمكذبين؛ بتكذيبهم الرسل، وهو الإهلاك، ونجاة من صدق الرسل، ففيه تمام ما يزجرهم، ويعظهم، من الترهيب والترغيب، فإن فيهم آية لرسالتك ونبوتك؛ لأنه يخبرهم على ما في كتبهم لم يشهدها هو، فيدلهم أنه إنما عرف ذلك بالله، أو نبئهم؛ فإن ذلك ما يزجرهم عن مثل صنيعهم، وفيه ذكر نعم الله؛ لأنهم جاءوا بالبشارة؛ بشارة الولد، وجاءوا بإهلاك قوم مجرمين، فذلك بالذي يزجرهم عن مثله، والبشارة ترغبهم في مثل صنيع إبراهيم، فنبئهم فإن فيه ما ذكرنا. ودل قوله: {ضيف إبراهيم}، أن الضيف اسم لكل نازل على آخر، طعم عنده أو لم يطعم، وكان نزله للطعام أو لا"[7].

وفي اسم«إبراهيم»، وجهان:

أحدهما : أنه اسم أعجمي ، وهذا قول الأكثرين[8]. وقيل معناه:«أب رحيم».

الثاني : أنه عربي مشتق من «البرهمة» وهي: إدامة النظر[9].

قال الفخر:" اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير أمر النبوة ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد، ثم ذكر عقيبه أحوال القيامة وصفة الأشقياء والسعداء، أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام

---

(١) تفسير ابن عثيمين:الفاتحة والبقرة:٢/٢٥٢-٢٥٣.

(٢) انظر: المصدر نفسه:٢/٢٥٩.

(٣) تفسير الطبري:١٧/١١٢.

(٤) تفسير ابن كثير:٤/٥٤١.

(٥) الكشف والبيات عن تفسير القرآن:٥/٣٤٤.

(٦) بحر العلوم:٢/٢٥٨.

(٧) تأويلات أهل السنة:٦/٤٤٧.

(٨) انظر: النكت والعيون:٢/٤٨١-٤٨٢.

(٩) انظر: النكت والعيون:٢/٤٨١-٤٨٢.

ليكون سماعها مرغبا في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء، ومحذرا عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء، فبدأ أولا بقصة إبراهيم عليه السلام، والضمير، في قوله: ونبئهم راجع إلى قوله: عبادي والتقدير: ونبىء عبادي عن ضيف إبراهيم، يقال: أنبأت القوم إنباء ونبأتهم تنبئة: إذا أخبرتهم، وذكر تعالى في الآية أن ضيف إبراهيم عليه السلام بشروه بالولد بعد الكبر. وبإنجاء المؤمنين من قوم لوط من العذاب وأخبروه أيضا بأنه تعالى سيعذب الكفار من قوم لوط بعذاب الاستئصال، وكل ذلك يقوي ما ذكره من أنه غفور رحيم للمؤمنين، وأن عذابه عذاب أليم في حق الكفار"[١].

فإن قيل: "كيف سماهم ضيفا مع امتناعهم عن الأكل؟

قلنا: لما ظن إبراهيم أنهم إنما دخلوا عليه لطلب الضيافة جاز تسميتهم بذلك. وقيل أيضا: إن من يدخل دار الإنسان ويلتجئ إليه يسمى ضيفا وإن لم يأكل"[٢].

القرآن

{إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢)} [الحجر : ٥٢]

التفسير:

حين دخلوا عليه فقالوا: سلامًا؛ فرد عليهم السلام، ثم قدَّم لهم الطعام فلم يأكلوا، قال: إنا منكم فزعون.

قوله تعالى:{إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا} [الحجر : ٥٢]، أي:" حين دخلوا عليه فقالوا: سلامًا"[٣].

قال الطبري: يقول" فقال الضيف لإبراهيم: سلاما"[٤].

قال أبو الليث:" أي: [دخلوا]على إبراهيم، فسلموا عليه"[٥].

قال الفخر:" أي: نسلم عليك سلاما أو سلمت سلاما"[٦].

وفي قوله تعالى:{فَقَالُوا سَلَامًا} [الحجر : ٥٢]، ، وجهان[٧]:

أحدهما: تحية من الملائكة لإبراهيم عليه السلام فحياهم بمثله فدل على أن السلام تحية الملائكة والمسلمين جميعاً .

الثاني : سلمت أنت وأهلك من هلاك قوم لوط.

قال الزمخشري:" «سلاما»، أى: نسلم عليك سلاما، أو سلمت سلاما"[٨].

واختلف في «السلم» و«السلام» على وجهين [٩]:

أحدهما : أن السلم من المسالمة والسلام من السلامة .

الثاني : أنهما بمعنى واحد ، قال الشاعر ، وقد أنشده الفراء لبعض العرب[١٠]:

مَرَرْنَا فَقُلْنَا إِيهِ سِلْمٌ فَسَلَّمَتْ   كَمَا اكْتَلَّ بِالْبَرقِ الغَمَامُ الَّلوَائِحُ

حكي الماتريدي عن أبي بكر الأصم، قال: "السلام جعله الله أمانا بين الخلق، وعطفا فيما بينهم، وسببا لإخراج الضغائن من قلوبهم"[١١].

---

(١) مفاتيح الغيب:١٥٠/١٩.
(٢) المثدر نفسه والصحيفة نفسها.
(٣) التفسير الميسر:٢٦٥.
(٤) تفسير الطبري:١١٢/١٧.
(٥) بحر العلوم:٢٥٨/٢.
(٦) مفاتيح الغيب:١٥٠/١٩.
(٧) انظر: النكت والعيون:٤٨٢/٢.
(٨) الكشاف:٥٨٠/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٣٨٢/١٥-٣٨٣، والنكت والعيون:٤٨٢/٢.
(١٠) لم أعرف قائله، والبيت من شواهد الطبري:٣٨٢/١٥، اللسان في مادة (كلل) ، عن ابن الأعرابي.
. يقال: " انكل السحاب عن البرق، واكتل "، أي: لمع به، و" اللوائح " التي لاح برقها، أي لمع وظهر.
(١١) تأويلات أهل السنة:٤٤٧/٦.

قوله تعالى:{قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ} [الحجر : ٥٢]، أي:" فرد عليهم السلام، ثم قدَّم لهم الطعام فلم يأكلوا، قال: إنا منكم فزعون"[١].

قال الطبري: " يقول: قال إبراهيم: إنا منكم خائفون"[٢].

قال الزمخشري:أي: "خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل. وقيل: لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت"[٣].

قال ابن كثير:" أي : خائفون. وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم ضيافة ، وهو العجل السمين الحنيذ "[٤].

قال الفخر:" وكان خوفه لامتناعهم من الأكل. وقيل: لأنهم دخلوا عليه بغير إذن وبغير"[٥].

قال الكلبي: "فأنكرهم إبراهيم في تلك الأرض، لأنهم لم يطعموا من طعامه"[٦].

قال الماتريدي:" يقول بعض أهل التأويل: إنما خاف؛ لأنه ظن أنهم لصوص وأهل ريبة، لكن هذا لا يحتمل أن يخاف منهم؛ ويظن أنهم لصوص وأهل ريبة، وقد سلموا عليه وقت ما دخلوا عليه، واللصوص وأهل الريبة إذا دخلوا بيت آخر لا يسلمون عليه، لكنه إنما خافهم إذ رأى أيديهم لا تصل إليه؛ كما قال: {فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة}، عند ذلك خافهم؛ فلما رأى ذلك ظن إبراهيم أنهم ملائكة؛ إنما جاءوا لأمر عظيم؛ حيث لم يتناولوا مما قرب إليهم؛ وبين إبراهيم وبين المكان الذي يرتحل منه - مكان يقع لهم الحاجة إلى الطعام"[٧].

قال السدّي : "لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صُور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه ، فلما رآهم إبراهيم أجَلَّهم ،{ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ } فذبحه ثم شواه في الرضف ، فهو الحنيذ حين شواه، وأتاهم به فقعد معهم ، وقامت سارة تخدمهم فذلك حين يقول : «وامرأته قائمة وهو جالس» في قراءة ابن مسعود : "فلما قَربه إليهم قال ألا تأكلون قالوا : يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن. قال فإن لهذا ثمنا. قالوا: وما ثمنه ؟ قال : تذكرون اسم الله على أوله ، وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال : حُق لهذا أن يتخذه ربه خليلا" ، { فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ } يقول : فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم ، وأوجس منهم خيفة ، فلما نظرت إليه سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ، ضحكت وقالت : عجبا لأضيافنا هؤلاء ، إنا نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم ، وهم لا يأكلون طعامنا"[٨].

روي عن نوح بن قيس عن عثمان بن مِحْصن -في ضيف إبراهيم- قال : "كانوا أربعة : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل، ورفائيل. قال نوح بن قيس : فزعم نوح بن أبي شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم ، فقرب إليهم العجل ، مسحه جبريل بجناحه ، فقام يدرج حتى لحق بأمه ، وأم العجل في الدار"[٩].

القرآن

{قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣)} [الحجر : ٥٣]

التفسير:

قالت الملائكة له: لا تفزع إنَّا جئنا نبشرك بولد كثير العلم بالدين، هو إسحاق.

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٥.
(٢) تفسير الطبري:١١٢/١٧.
(٣) الكشاف:٥٨٠/٢.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤.
(٥) مفاتيح الغيب:١٥٠/١٩.
(٦) بحر العلوم:٢٥٨/٢.
(٧) تأويلات أهل السنة:٤٤٨/٦.
(٨) تفسير ابن كثير:٣٣٣/٤.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم كما في تفسير ابن كثير:٣٣٣/٤.

قوله تعالى:{قَالُوا لَا تَوْجَلْ} [الحجر : ٥٣]، أي:" قالت الملائكة له: لا تفزع"(١).
قال الطبري: " يقول: قال الضيف لإبراهيم: لا تخف"(٢).
قال ابن كثير:" أي : لا تخف"(٣).
عن عكرمة :"{قالوا لا توجل}، قالوا: لا تخف"(٤).
قرأ الحسن: «لا توجل»، بضم التاء من: أوجله يوجله إذا أخافه. وقرئ: «لا تأجل». و«لا تواجل»، من :واجله، بمعنى: أوجله(٥).
قوله تعالى:{إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} [الحجر : ٥٣]، أي:" جئنا نبشرك بولد كثير العلم بالدين، هو إسحاق"(٦).
قال ابن كثير:" وهو إسحاق ، عليه السلام "(٧).
قال الزمخشري:" {إنا نبشرك}، استئناف في معنى التعليل للنهى عن «الوجل»، أرادوا: أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل"(٨).
قال الماتريدي:" وقال في آية أخرى: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} [الصافات : ١٠١]، «الحلم»: هو الذي ينفي عن صاحبه كل أخلاق دنية، و«العلم»: هو الذي يدعو صاحبه إلى كل خلق رفيع؛ ليعلم أنه اجتمع فيه جميع الخصال الرفيعة، ونفى عنه كل خلق دنيء"(٩).
وقرئ :«نبشرك»، بفتح النون والتخفيف (١٠).
القرآن
{قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤)} [الحجر : ٥٤]
التفسير:
قال إبراهيم متعجبًا: أبشَّرتموني بالولد، وأنا كبير وزوجتي كذلك، فبأي أعجوبة تبشِّرونني؟
قوله تعالى:{قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ} [الحجر : ٥٤]، أي:" قال إبراهيم أبشرتموني بالولد على حالة الكبر والهرم"(١١).
قال الطبري: " قال إبراهيم للملائكة الذين بشَّروه بغلام عليم: فبأي شيء تبشرون"(١٢).
قال الماتريدي:" أبشرتموني أن يولد لي، وأنا على الحال التي أنا عليها، أو يرد إلي شبابي وشباب امرأتي"(١٣).
قال الزمخشري:" يعنى: أبشرتموني مع مس الكبر، بأن يولد لي. أى: أن الولادة أمر عجيب مستنكر في العادة مع الكبر"(١٤).
قال ابن كثير:" ثم قال متعجبًا من كبره وكبر زوجته ومتحققًا للوعد : { أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُون }"(١٥).
عن مجاهد: "{عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ}، ومعناه: لأن مسني الكبر وبأن مسني الكبر"(١).

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٥.
(٢) تفسير الطبري:١١٢/١٧.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٠٨):ص٢٢٦٨/٧.
(٥) انظر: الكشاف:٥٨٠/٢.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٥.
(٧) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤.
(٨) الكشاف:٥٨٠/٢-٥٨١.
(٩) تأويلات أهل السنة:٤٤٨/٦.
(١٠) انظر: الكشاف:٥٨٠/٢.
(١١) صفوة التفاسير:١٠٤/٢.
(١٢) تفسير الطبري:١١٢/١٧.
(١٣) تأويلات أهل السنة:٤٤٨/٦.
(١٤) الكشاف:٥٨١/٢.
(١٥) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤.

قال القشيري:" وإنّ الكبير قد فاته الوقت الذي يفرح فيه من الدنيا بشيء"[٢].

قوله تعالى:{فَبِمَ تُبَشِّرُونَ} [الحجر : ٥٤]، أي:" فبأي شيء تبشروني؟"[٣].

قال القشيري:أي:" بماذا تبشروني وقد طعنت فى السنّ، وعن قريب أرتحل إلى الآخرة؟"[٤].

قال الماتريدي: أي:"على الحال التي أنا عليها وامرأتي، أو يرد الشباب إلينا، وإلا لا يحتمل أن يخفى عليه قدرة الله هبة الولد في حال الكبر، لكنه لم ير الولد يولد في تلك الحال، فاستخبرهم أنه يولد في تلك الحال، أو يرد إلى حالة أخرى حالة الشباب"[٥].

قال الزمخشري:" {فبم تبشرون}، هي «ما» الاستفهامية، دخلها معنى التعجب، كأنه قال: فبأى أعجوبة تبشروني. أو أراد: أنكم تبشروننى بما هو غير متصور في العادة، فبأى شيء تبشرون، يعنى: لا تبشروننى في الحقيقة بشيء، لأن البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء. ويجوز أن لا يكون صلة لبشر، ويكون سؤالا عن الوجه والطريقة يعنى: بأى طريقة تبشروننى بالولد، والبشارة به لا طريقة لها في العادة"[٦].

قال الصابوني:" قال ذلك على وجه التعجب والاستبعاد"[٧].

وفي قوله تعالى:{فَبِمَ تُبَشِّرُونَ} [الحجر : ٥٤]، وجهان:

أحدهما : أنه قال ذلك استفهاماً لهم ، هل بشروه بأمر الله ؟ ليكون أسكن لنفسه[٨].

الثاني : أنه قال ذلك تعجباً من قولهم ، قاله مجاهد[٩].

قال مجاهد:" عجب من كبره، وكبر امرأته"[١٠].

وقرئ: «تبشرون»، بفتح النون وبكسرها على حذف نون الجمع، والأصل «تبشرونن»، و«تبشرون» بإدغام نون الجمع في نون العماد[١١].

والأصل في «تبشرون»: "تبشرونني؛ فحذفت أحد النونين؛ لاستثقال جمعهما هذا فيمن قرأها بكسر النون"[١٢].

فوائد الآيات:[٥١-٥٤]:

١- أن الملائكة ليسوا كالبشر: يأكلون، ويشربون، وينامون، ويتصفون الذكورة أو الأنوثة؛ وإنما هم عالم آخر، قائم بنفسه، ومستقل بذاته، لا يتصفون بشيء مما يتصف به البشر من الحالات المادية، ولهم قدرة على أن يتمثلوا بصور بشرية، وغيرها من الصور الحسية.

٢- استحباب تبشير المؤمن بما هو خير له ولو بالرؤيا الصالحة.

٣- مشروعية السلام لمن دخل على غيره أو وقف عليه أو مر به ووجوب رد السلام.

٤- مشروعية خدمة أهل البيت لضيوفهم ووجوب إكرام الضيف وفي الحديث الصحيح "ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"[١].

---

(١) أخرجه الطبري:١١٣/١٧.
(٢) لطائف الإشارات:٢٧٥/٢.
(٣) صفوة التفاسير:١٠٤/٢.
(٤) لطائف الإشارات:٢٧٥/٢.
(٥) تأويلات أهل السنة:٤٤٨/٦.
(٦) الكشاف:٥٨١/٢.
(٧) صفوة التفاسير:١٠٤/٢.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٦٤/٣.
(٩) انظر: تفسير الطبري:١١٢/١٧-١١٣.
(١٠) أخرجه الطبري:١١٢/١٧-١١٣.
(١١) انظر: الكشاف:٥٨١/٢.
(١٢) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٧/٢.

القرآن

{قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥)} [الحجر : ٥٥]

التفسير:

قالوا: بشَّرناك بالحق الذي أعلمَنا به الله، فلا تكن من اليائسين أن يولد لك.

قوله تعالى:{قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ} [الحجر : ٥٥]، أي:" قالوا: بشَّرناك بالحق الذي أعلمَنا به الله"(٢).

قال الطبري: " قال ضيف إبراهيم له: بشرناك بحقّ يقين، وعلم منَّا بأن الله قد وهب لك غلاما عليما"(٣).

قال البغوي:{بِالْحَقِّ}، " أي: بالصدق"(٤).

قال الواحدي: {بِالْحَقِّ}، أي:" بما قضاه الله أن يكون"(٥).

قال السمعاني:" «الحق»: وضع الشيء في موضعه على ما تدعو إليه الحكمة.. ومعنى «الحق» -هاهنا- هو: الصدق"(٦).

قال الزمخشري:" قوله: {بشرناك بالحق}، يحتمل أن تكون الباء فيه صلة، أى: بشرناك باليقين الذي لا لبس فيه، أو بشرناك بطريقة هي حق وهي قول الله ووعده، وأنه قادر على أن يوجد ولدا من غير أبوين، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر"(٧).

قوله تعالى:{فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ} [الحجر : ٥٥]، أي:" فلا تكن من اليائسين أن يولد لك"(٨).

عن السدي :"{من القانطين}، قال: الآيسين"(٩).

قال الطبري: " فلا تكن من الذين يقنطون من فضل الله فييأسون منه، ولكن أبشر بما بشرناك به واقبل البُشرى"(١٠).

قال الماتريدي:" الأنبياء قد نهوا عن أشياء قد عصموا عنها ما لا يحتمل أن يكون منهم ما نهوا عنه؛ نحو قوله: { فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [آل عمران : ٦٠]، {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يونس : ١٠٥]، و{مِنَ الظَّالِمِينَ}، {الكافرين}، وأمثاله، وذلك مما لا يتوهم كونه منهم؛ وذلك لما ذكرنا أن العصمة لا ترفع المحنة؛ لأنها لو رفعت لذهبت فائدة العصمة؛ لأنها إنما يحتاج إليها عند المحنة، وأما إذا لم يكن محنة فلا حاجة تقع إليها، فعلى ذلك إبراهيم لم يكن قنط من رحمة ربه؛ أنه لا يهب له الولد في حال كبره"(١١).

---

(١)حديث أبى شريح: أخرجه أحمد (٣١/٤، رقم ١٦٤١٧) ، والبخارى (٢٢٤٠/٥، رقم ٥٦٧٣) ، ومسلم (٦٩/١، رقم ٤٨) وأبو داود (٣٤٢، رقم ٣٧٤٨) ، والترمذى (٣٤٥/٤، رقم ١٩٦٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٢١١/٢ رقم ٣٦٧٢) . وأخرجه أيضا: أبو عوانة (٤٢/١، رقم ٩٥).
حديث أبى هريرة: أخرجه أحمد (٢٦٧/٢، رقم ٧٦١٥) ، والبخارى (٢٢٤٠/٥، رقم ٥٦٧٢) ، ومسلم (١٠٩١/٢ رقم ١٤٦٨) ، وأبو داود (٣٣٩/٤، رقم ٥١٥٤) والترمذى (٦٥٩/٤، رقم ٢٥٠٠) وقال: صحيح. وابن ماجه (١٣١٣/٢ رقم ٣٩٧١) ، وابن حبان (٢٥٩/٢، رقم ٥٠٦) . وأخرجه أيضا: الطيالسى (ص ٣٠٨، رقم ٢٣٤٧) ، وأبو يعلى (٨٥/١ رقم ٦٢١٨) .
حديث ابن عمرو: أخرجه أحمد (١٧٤/٢، رقم ٦٦٢١) .
حديث رجل من مزينة: أخرجه أحمد (٤١٢/٥، رقم ٢٣٥٤٣).
(٢) التفسير الميسر:٢٦٥.
(٣) تفسير الطبري:١١٣/١٧ .
(٤) تفسير البغوي:٣٨٥/٤.
(٥) الوجيز:٥٩٣.
(٦) تفسير السمعاني:١٤٣/٣ .
(٧) الكشاف:٥٨١/٢.
(٨) التفسير الميسر:٢٦٥.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤١٠):ص٢٢٦٨/٧.
(١٠) تفسير الطبري:١١٣/١٧.
(١١) تأويلات أهل السنة:٤٤٩/٦.

قال الزجاج:" «القنوط» بمعنى: اليأس"[1].
وقرأ يحيى بن وثاب :«القَنِطِينَ»[2].

القرآن

{قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)} [الحجر : ٥٦]

التفسير:

قال: لا ييئس من رحمة ربه إلا الخاطئون المنصرفون عن طريق الحق.

قال ابن كثير:" فأجابهم بأنه ليس يقنط ، ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر وأسنَّت امرأته ، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك "[3].

قال السمعاني:" يعني: إلا الكافرون، والقنوط من رحمة الله كبيرة من الكبائر كالأمن من مكر الله"[4].

قال البغوي:" {الضالون}، أي: الخاسرون"[5].

قال الزمخشري:" أراد: ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون، كقوله :{لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف : ٨٧]، يعنى: لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمته، ولكن استبعادا له في العادة التي أجراها الله"[6].

قال الماتريدي:" أخبر أن القنوط من رحمة الله هو ضلال، والإياس من رحمته كفر، فعندهم تضيق رحمته حتى لا يسع فيها الكبائر، والمعتزلة يقنطون من رحمة ربهم؛ لقولهم في أصحاب الكبائر ما يقولون"[7].

عن السدي :"{ومن يقنط من رحمة ربه}، قال: من ييأس من رحمة ربه"[8].

روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر؟ فقال: "الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله"[9].

عن ابن مسعود قال: "أكبر الكبائر الشرك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من روح الله"[10].

عن سفيان بن عيينة قال: "من ذهب يقنط الناس من رحمة الله، أو يقنط نفسه فقد أخطأ، ثم نزع بهذه الآية :{ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون}"[11].

عن موسى بن علي، عن أبيه قال: بلغني إن نوحا عليه السلام قال لابنه سام: يا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الشرك بالله فإنه من يأت الله عز وجل مشركا فلا حجة له. ويا بني، لا تدخل القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الكبر فإن الكبر رداء الله، فمن ينازع الله رداءه يغضب الله عليه. ويا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من القنوط فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا ضال"[12].

قال الطحاوي: "الأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل الإسلام، فيجب أن يكون العبد خائفا راجيا، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. والرجاء المحمود: رجاء رجل عمل

---

(١) معاني القرآ،:١٨١/٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري:١١٣/١٧.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤.
(٤) تفسير السمعاني:١٤٤/٣.
(٥) تفسير البغوي:٣٨٥/٤.
(٦) الكشاف:٥٨١/٢.
(٧) تأويلات أهل السنة:٤٤٩/٦.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤١٢):ص٢٢٦٨/٧.
(٩)أخرج عبد الرزاق في "المصنف" (١٠ / ٤٦٠).
(١٠)عزاه الهيثمي للطبراني وقال: "إسناده صحيح" مجمع الزوائد: (١ / ١٠٤).
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤١١):ص٢٢٦٨/٧.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤١٣):ص٢٢٦٨/٧-٢٢٦٩.

بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنبا، ثم تاب منه إلى الله، فهو راج لمغفرته. أما إذا كان الرجل متماديا في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب. وقد مدح الله تعالى أهل الخوف والرجاء بقوله: {أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه{ [الزمر:٩]، وقال: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا}[السجدة:١٦}، فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا. وكل أحد إذا خفته، هربت منه، إلا الله"[١].

فوائد الآيتين:[٥٥-٥٦]:

١- حرمة القنوط واليأس من رحمة الله تعالى.
٢- أن القانط من رحمة الله ضال؛ لأن القنوط من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكر الله، ولا يحصل إلا عند من جهل كون أن الله تعالى قادر على ما يريد.
٣- إذا كان اليأس على وجه الاستبعاد للمأمون، وترجح أنه لا يكون، على أنه يكون في النفس فذلك خطأ وضلال. وقال الله عز وجل: {ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون}[٢].
٤- ومن الفوائد: الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط من رحمة الله، بل يرجوها مع العمل الصالح، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[البقرة:٢١٨]. فذكر سبحانه أنهم يرجون رحمة الله مع الاجتهاد في الأعمال الصالحة فأما الرجاء مع الإصرار على المعاصي، فذاك من غرور الشيطان.

القرآن

{قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧)} [الحجر : ٥٧]

التفسير:

قال: قال إبراهيم ما شأنكم وما أمركم الذي جئتم من أجله -أيها المرسلون- من عند الله؟

قال الطبري: " قال إبراهيم للملائكة: فما شأنكم: ما أمرُكم أيُّها المرسلون؟"[٣].

قال الماتريدي:" فما خبركم، وما قصتكم، وما شأنكم؟ والخطب: الشأن؛ أي: على أي أمر وشأن أرسلتم"[٤].

قال القشيري:" فلما فرغ قلبه من هذا الحديث، وعرف أنه لن يصيبه ضرر منهم سألهم عن حالهم: قال ما شأنكم؟ وإلى أين قصدكم؟"[٥].

قال ابن كثير:" يقول تعالى إخبارًا عن إبراهيم ، عليه السلام ، لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى : إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له "[٦].

قال السدي:" قال: ما خطبُكم أيها المرسلون؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم لوط، فجادلهم في قوم لوط قال، أرأيتم إن كان فيها مائة من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا! فلم يزل يحُطُّ حتى بلغ عشرة من المسلمين، فقالوا: لا نعذبهم، إن كان فيهم عشرة من المسلمين، ثم قالوا: "يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه ليس فيها إلا أهل بيت من المؤمنين " هو لوط وأهل بيته، وهو قول الله

(١)شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي: ٣٥٧-٣٥٨.
(٢) انظر: المنهاج في شعب الإيمان:٥١٩/١.
(٣) تفسير الطبري:١١٤/١٧.
(٤) تأويلات أهل السنة:٤٤٩/٦.
(٥) لطائف الإشارات:٢٧٥/٢-٢٧٦.
(٦) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤.

تعالى ذكره: {يجادلنا في قوم لوط}. فقالت الملائكة: {يا إبراهيم أعرض عن هذا إنَّه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود}"[1].

عن أبي المثني ومسلم أبو الحبيل الأشجعي قالا: "... قال إبراهيم: أتعذب عالمًا من عالمك كثيرًا، فيهم مائة رجل؟ قال: لا وعزتي، ولا خمسين! قال: فأربعين؟ فثلاثين؟ حتى انتهى إلى خمسة. قال: لا! وعزتي لا أعذبهم ولو كان فيهم خمسة يعبدونني! قال الله عز وجل: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [سورة الذاريات:٣٦] ، أي لوطًا وابنتيه، قال: فحلّ بهم من العذاب، قال الله عز وجل: {وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة الذاريات:٣٧] ، وقال: {فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط}"[2].

القرآن

{قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) {إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) {إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ(٦٠)} [الحجر : ٥٨-٦٠]

التفسير:

قالوا: إن الله أرسلنا لإهلاك قوم لوط المشركين الضالين إلا لوطًا وأهله المؤمنين به، فلن نهلكهم وسننجيهم أجمعين، لكن زوجته الكافرة قضينا بأمر الله بإهلاكها مع الباقين في العذاب.

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ} [الحجر : ٥٨]، أي:" قالوا: إن الله أرسلنا لإهلاك قوم لوط المشركين الضالين لإهلاكهم"[3].

قال الطبري: " قالت الملائكة له: إنا أرسلنا إلى قوم قد اكتسبوا الكفر بالله"[4].

قال ابن كثير:" يعنون : قوم لوط "[5].

قوله تعالى: {إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر : ٥٩] ، أي: إلا لوطًا وأهله المؤمنين به، فلن نهلكهم وسننجيهم أجمعين"[6].

قال الطبري: " يقول: إلا اتباع لوط على ما هو عليه من الدِّين، فإنا لن نهلكهم بل ننجيهم من العذاب الذي أمرنا أن نعذّب به قوم لوط"[7].

قال ابن كثير:" أخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم"[8].

قال الزمخشري:" لا يخلو من من أن يكون استثناء من «قوم»، فيكون منقطعا، لأن «القوم» موصوفون بالإجرام، فاختلف لذلك الجنسان وأن يكون استثناء من الضمير في «مجرمين»، فيكون متصلا، كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم، كما قال: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الذاريات : ٣٦]، فإن قلت: فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين؟ قلت: نعم، وذلك أن آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلا، ومعنى إرسالهم إلى «القوم المجرمين»، كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمى. في أنه في معنى التعذيب والإهلاك، كأنه قيل: إنا أهلكنا قوما مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم. وأما في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصا بمعنى: الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول، قوله إنا لمنجوهم بم يتعلق على الوجهين؟ قلت: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر «لكن» في الاتصال بآل لوط،

---

(١) أخرجه الطبري(١٨٣٤٥):ص١٥/٤٠٤.
(٢) أخرجه الطبري(١٨٣٤٨):ص١٥/٤٠٥.
(٣) التفسير الميسر:٢٦٥.
(٤) تفسير الطبري:١٧/١١٤.
(٥) تفسير ابن كثير:٤/٥٤١.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٥.
(٧) تفسير الطبري:١٧/١١٤.
(٨) تفسير ابن كثير:٤/٥٤١.

لأن المعنى. لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلاما مستأنفا، كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حال آل لوط، فقالوا: إنا لمنجوهم"(١).

وقرئ :«لمنجوهم»، بالتخفيف والتثقيل(٢).

قوله تعالى: {إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ} [الحجر : ٦٠]، أي: لكن زوجته الكافرة قضينا بأمر الله بإهلاكها مع الباقين في العذاب"(٣).

قال مقاتل:" يعني: الباقين في العذاب"(٤).

قال الطبري: يقول:" سوى امرأة لوط قضى الله فيها إنها لمن الباقين، ثم هي مهلكة بعد"(٥).

قال ابن كثير:" أي : الباقين المهلكين "(٦).

قال القشيري:" لمشاركتها معهم فى الفساد، وكانت تدل قومه على أضافه، فاستوجبت العقوبة"(٧).

قال الزمخشري:" فإن قلت: فلم أسند الملائكة فعل التقدير- وهو لله وحده- إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدر الله؟ قلت: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدبر والآمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنهم لا يتميزون عنه"(٨).

وفي قوله تعالى: {إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا} [الحجر : ٦٠]، وجهان:

أحدهما : معناه: قضينا ، قاله النخعي(٩).

الثاني : معناه: كتبنا ، قاله علي بن عيسى(١٠).

وفي قوله تعالى:{ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ} [الحجر : ٦٠]، وجهان(١١):

أحدهما : أي: من الباقين في العذاب مع المجرمين.

الثاني : من الماضين بالعذاب .

قال أبو عوسجة: "الغابرون: الباقون، والغابرون: الماضون أيضا؛ يقال: غبر يغبر غبرا: إذا بقي، وإذا مضى أيضا"(١٢).

قال معمر: "بلغنا أنه كان في قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان، أو ما شاء الله من ذلك"(١٣).

وقرئ: «قدرنا»، بالتخفيف(١٤).

فوائد الآيات:[٥٧-٦٠]:

١- التنديد بالإجرام وبيان عقوبة المجرمين.

٢- أن القضاء يرجع إلى كتابة ما سبق في علم الله تعالى وتيسير كل لما خلق له.

---

(١) الكشاف:٥٨١/٢-٥٨٢.
(٢) انظر: الكشاف:٥٨٢/٢.
(٣) التفسير الميسر:٢٦٥.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٢/٢.
(٥) تفسير الطبري:١١٤/١٧.
(٦) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤.
(٧) لطائف الإشارات:٢٧٦/٢.
(٨) الكشاف:٥٨٢/٢-٥٨٣.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٦٤/٣.
(١٠) انظر: النكت والعيون:١٦٤/٣.
(١١) انظر: تأويلات أهل السنة:٤٥٠/٦، والنكت والعيون:١٦٥/٣.
(١٢) تأويلات أهل السنة:٤٥٠/٦.
(١٣) أخرجه الطبري(١٨٣٤٤):ص٤٠٤/١٥.
(١٤) انظ{: الكشاف:٥٨٣/٢.

٣- لا قيمة للنسب ولا للمصاهرة ولا عبرة بالقرابة إذا فصل الكفر والإجرام بين الأنساب والأقرباء فامرأة لوط هلكت مع الهالكين ولم يشفع لها أنها زوجة نبي ورسول عليه السلام.

القرآن

{فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢)} [الحجر : ٦١ - ٦٢]

التفسير:

فلما وصل الملائكة المرسلون إلى لوط، قال لهم: إنكم قوم غير معروفين لي.

قوله تعالى:{فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ} [الحجر : ٦١]، أي:" فلما وصل الملائكة المرسلون إلى لوط"[١].

قال الطبري:" فلما أتى رسلُ الله آل لوط"[٢].

قال ابن كثير:" جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه ، فدخلوا عليه داره"[٣].

قوله تعالى:{قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} [الحجر : ٦٢]، أي:" قال لهم: إنكم قوم غير معروفين لي"[٤].

قال مجاهد:" أنكرهم لوط"[٥].

قال الطبري:" أنكرهم لوط فلم يعرفهم، وقال لهم: نُنْكركم لا نعرفكم"[٦].

قال الزمخشري:" أى: تنكركم نفسي وتنفر منكم، فأخاف أن تطرقوني بشر، بدليل قوله {بل جئناك بما كانوا فيه يمترون}"[٧].

قال القشيري:" فلمّا وافى المرسلون من آل لوط أنكرهم لأنه لم يجدهم على صورة البشر، وتفرّس فيهم على الجملة أنهم جاءوا لأمر عظيم"[٨].

القرآن

{قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣)} [الحجر : ٦٣]

التفسير:

قالوا: لا تَخَفْ، فإنَّا جئنا بالعذاب الذي كان يشك فيه قومك ولا يُصَدِّقون.

قال الطبري: "فقالت الرسل: بل نحن رسل الله جئناك بما كان فيه قومك يشكون أنه نازل بهم من عذاب الله على كفرهم به"[٩].

قال الزجاج:" أي: جئناك بالعذاب الذي كانوا يشكون في نزوله"[١٠].

قال القشيري:" قالوا: بل جئناك بما كان قومك يشكّون فيه من تعذيبنا إياهم، وآتيناك بالحق، أي: بالحكم الحق"[١١].

قال ابن كثير:" يعنون : بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم ، وحلوله بساحتهم "[١٢].

قال ابن أبي زمنين:" {يمترون} يشكون، من العذاب؛ كانوا يقولون: لا نعذب؛ حين كان يخوفهم بالعذاب إن لم يؤمنوا"[١].

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٥.
(٢) تفسير الطبري:١١٤/١٧.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤.
(٤) التفسير الميسر:٢٦٥.
(٥) أخرجه الطبري:١١٥/١٧.
(٦) تفسير الطبري:١١٤/١٧.
(٧) الكشاف:٥٨٣/٢.
(٨) لطائف الإشارات:٢٧٦/٢.
(٩) تفسير الطبري:١١٤/١٧-١١٥.
(١٠) معاني القرآ:١٨٢/٣.
(١١) لطائف الإشارات:٢٧٦/٢.
(١٢) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤.

قال الزمخشري:" أى: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوك، وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله، فيمترون فيه ويكذبونك"(٢).

عن مجاهد:"{بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ}، قال. بعذاب قوم لوط"(٣).

القرآن

{وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤)} [الحجر : ٦٤]

التفسير:

وجئناك بالحق من عند الله، وإنا لصادقون.

قوله تعالى:{وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ} [الحجر : ٦٤]، أي:" وجئناك بالحق من عند الله"(٤).

قال ابن أبي زمنين:" يعني: بعذابهم"(٥).

قال الطبري:" قالت الرسل للوط: وجئناك بالحق اليقين من عند الله، وذلك الحقّ هو العذاب الذي عذب الله به قوم لوط"(٦).

قال الزمخشري:" {بالحق}، باليقين من عذابهم"(٧).

قال ابن كثير:" كما قال تعالى:{ مَا نُنزلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ } [الحجر : ٨]"(٨).

قوله تعالى:{وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [الحجر : ٦٤]، أي:" إنا لصادقون فيما أخبرناك به يا لوط من أن الله مهلك قومك"(٩).

قال الزمخشري:" في الإخبار بنزوله بهم"(١٠).

قال ابن كثير:" قوله:{ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه "(١١).

القرآن

{فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)} [الحجر : ٦٥]

التفسير:

فاخرج مِن بينهم ومعك أهلك المؤمنون، بعد مرور جزء من الليل، وسر أنت وراءهم؛ لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب، واحذروا أن يلتفت منكم أحد وراءه؛ لئلا يرى العذاب فيصيبه كذلك، وأسرعوا إلى حيث أمركم الله؛ لتكونوا في مكان أمين.

قوله تعالى:{فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ} [الحجر : ٦٥]، أي:" سرْ بأهلك في طائفةٍ من الليل"(١٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مخبرا عن رسله أنهم قالوا للوط، فأسر بأهلك ببقية من الليل"(١٣).

قال ابن أبي زمنين:" أي: في طائفة من الليل؛ والسرى لا يكون إلا ليل"(١٤).

---

(١) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٨/٢.
(٢) الكشاف:٥٨٣/٢.
(٣) أخرجه الطبري:١١٥/١٧.
(٤) التفسير الميسر:٢٦٥.
(٥) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٨/٢.
(٦) تفسير الطبري:١١٥/١٧.
(٧) الكشاف:٥٨٣/٢.
(٨) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤.
(٩) تفسير الطبري:١١٥/١٧.
(١٠) الكشاف:٥٨٣/٢.
(١١) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤.
(١٢) صفوة التفاسير:١٠٥/٢.
(١٣) تفسير الطبري:١١٥/١٧.
(١٤) تفسير ابن أبي زمنين:٣٨٨/٢.

قال الزجاج:" أي: بظلمة من الليل. يقال: معنى قطع من الليل أي قطعة صالحة، وكذلك مضى عنك من الليل، وسعو من الليل"[١].

قال ابن كثير:" أمروه أن يَسري بأهله بعد مضي جانب من الليل "[٢].

وقال ابن كثير:" أمروه أن يسري بأهله من آخر الليل"[٣].

قال القرطبي:" فإن قيل: السرى لا يكون إلا بالليل، فما معنى:{بقطع من الليل}؟

فالجواب: أنه لو لم يقل:" بقطع من الليل" جاز أن يكون أوله"[٤].

وفي قوله تعالى:{بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ} [الحجر : ٦٥]، وجوه من التفسير:

أحدها : بسواد من الليل. قاله ابن عباس[٥]، وحكاه الماوردي عن قتادة[٦].

الثاني: بآخر الليل، قاله الكلبي[٧]، وبه قال السمعاني[٨].

ويؤيد هذا التفسير قوله تعالى {إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ}[القمر: ٣٤]، لأن السحر آخر الليل وأشده ظلمة. والله أعلم.

الثالث : بالسحر الأول. قاله أبو صخر[٩].

الرابع: ببعض الليل، قاله ابن زيد[١٠].

وقال مقاتل:" «بقطع»، يعني: بعض، وهو السحر من الليل"[١١].

الخامس : بظلمة الليل، قاله قطرب[١٢].

السادس : بطائفة من الليل. قاله قتادة[١٣]، وحكاه القرطبي عن ابن عباس[١٤].

السابع: ببقية من الليل. قاله الضحاك[١٥].

الثامن: بعد مضي صدر من الليل. قاله قتادة[١٦].

التاسع: بعد جنح من الليل. قاله الأخفش[١٧].

العاشر: بساعة من الليل. قاله ابن الأعرابي[١٨].

الحادي عشر: بعد هدء من الليل. حكاه القرطبي[١٩].

الثاني عشر: هزيع[٢٠] من الليل. حكاه القرطبي[٢١].

الثالث عشر: إنه نصف الليل، مأخوذ من: قطعه نصفين، حكاه الماوردي[١]، وأنشد قول الشاعر[٢]:

---

(١) معاني القرآن:٣/٦٨-٦٩.
(٢) تفسير ابن كثير:٤/٥٤١.
(٣) تفسير ابن كثير:٤/٣٣٨.
(٤) تفسير القرطبي:٩/٨٠.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٠٨٣):ص٦/٢٠٦٥.
(٦) انظر: النكت والعيون:٢/٤٩١.
(٧) انظر: النكت والعيون:٣/١٦٥.
(٨) انظر: تفسير السمعاني:٢/٤٤٨.
(٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١١٠٨٥):ص٦/٢٠٦٥.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:١٧/١١٦.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٢٩٣.
(١٢) انظر: النكت والعيون:٣/١٦٥.
(١٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١١٠٨٤):ص٦/٢٠٦٥.
(١٤) انظر: تفسير القرطبي:٩/٧٩.
(١٥) انظر: تفسير القرطبي:٩/٧٩.
(١٦) انظر: تفسير القرطبي:٩/٧٩.
(١٧) انظر: تفسير القرطبي:٩/٧٩.
(١٨) انظر: تفسير القرطبي:٩/٧٩.
(١٩) انظر: تفسير القرطبي:٩/٧٩.
(٢٠)يقال: مر هجيع -أو هزيع- من الليل، أي: ساعة وطائفة منه. أفاده الصحاح.
(٢١) انظر: تفسير القرطبي:٩/٧٩-٨٠.

ونائحةٍ تَنُوْحُ بقِطْعِ ليلٍ ... على رَجُلٍ بقارعةِ الصعيد

قال القرطبي: وكلها متقاربة"[3].

وقرئ: «فأسر»، بقطع الهمزة ووصلها، من: أسرى وسرى. وروى صاحب الإقليد: فسر، من السير والقطع في آخر الليل[4].

قوله تعالى:{وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ} [الحجر : ٦٥]، أي:" كنْ من ورائهم وسرْ خلفهم لتطمئنَّ عليهم"[5].

قال ابن كثير:" [أمروه] أن يكون لوط ، عليه السلام ، يمشي وراءهم ، ليكون أحفظ لهم"[6].

وقال ابن كثير:" [أمروه] أن يتَّبع أدبارهم ، أي : يكون ساقة لأهله"[7].

قال قتادة:" أُمِر أن يكون خلف أهله، يتبع أدبارهم في آخرهم إذا مشوا"[8].

عن ابن زيد:" {وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ}: أدبار أهله"[9].

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما معنى أمره باتباع أدبارهم ؟ قلت قد بعث الله الهلاك على قومه، ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم، وخرج مهاجرا فلم يكن له بد من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك، فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعا عليهم وعلى أحوالهم"[10].

قوله تعالى:{وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ} [الحجر : ٦٥]، أي:" لا يتلفتْ أحد منكم وراءه لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم فيرتاع"[11].

قال ابن عباس:" ولا يتخلف منكم أحد"[12].

قال مجاهد:" لا ينظر وراءه أحد"[13]. وفي رواية:" لا يلتفت وراءه أحد، ولا يُعَرِّج"[14].

قال ابن كثير:" أي : إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم ، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال"[15].

قال القرطبي:" أي: لا ينظر وراءه منكم أحد"[16].

قال القشيري:" لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب"[17].

---

(١) انظر: النكت والعيون:٤٩١/٢.

(٢) البيت غير منسوب في: النكت والعيون:٤٩١/٢، وتفسير السمعاني: ٤٤٨/٢، وتفسير القرطبي:٨٠/٩، والبحر المحيط:١٨٩/٦، والدر المصون:٣٦٥/٦، وغيرها.

والبيت أورده أبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء: ٨٥/١، والسيوطي في الدر المنثور:٤٦٢/٤، والآلوسي في روح المعاني: ٣٠٥/٦، ونسبوه لمالك بن كنانة بلفظ:

ونائحة تقوم بقطع ليل ... على رجل أهانته شعوب

(٣) تفسير القرطبي:٨٠/٩.

(٤) انظر: الكشاف:٥٨٣/٢.

(٥) صفوة التفاسير:١٠٥/٢.

(٦) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤.

(٧) تفسير ابن كثير:٣٣٨/٤.

(٨) اخرجه الطبري:١١٦/١٧.

(٩) أخرجه الطبري:١١٦/١٧.

(١٠) .

(١١) صفوة التفاسير:١٠٥/٢.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٠٨٦):ص٢٠٦٥/٦.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٠٨٧):ص٢٠٦٦/٦.

(١٤) أخرجه الطبري:١١٦/١٧.

(١٥) تفسير ابن كثير:٥٤١/٤-٥٤٢.

(١٦) تفسير القرطبي:٨٠/٩.

(١٧) لطائف الإشارات:٢٧٦/٢.

قال الزمخشري:" نهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ويطيبوها عن مساكنهم، ويمضوا قدما غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوى إليه أخادعه، كما قال(١):

تلفت نحو الحى حتي وجدتنى ... وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

أو جعل النهى عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف، لأن من يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة"(٢).

قوله تعالى:{وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ} [الحجر : ٦٥]، أي:" سيروا حيث يأمركم الله عَزَّ وَجَلَّ"(٣).

قال ابن كثير:" كأنه كان معهم من يهديهم السبيل"(٤).

قال القشيري:" فلكم السلامة ولقومكم العقوبة"(٥).

قال السدي:" أخرجهم الله إلى الشام"(٦).

القرآن

{وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦)} [الحجر : ٦٦]

التفسير:

وأوحينا إلى لوط أن قومك مستأصَلون بالهلاك عن آخرهم عند طلوع الصبح.

قوله تعالى:{وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ} [الحجر : ٦٦]، أي:" وأوحينا إلى لوط"(٧).

قال ابن زيد:" وأوحينا إليه"(٨).

قال القشيري:" أي :علّمناه وعرّفناه"(٩).

قال ابن كثير:" أي : تقدمنا إليه في هذا "(١٠).

قوله تعالى:{أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ} [الحجر : ٦٦]، أي:" أن قومك مستأصَلون بالهلاك عن آخرهم عند طلوع الصبح"(١١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وفرغنا إلى لوط من ذلك الأمر، وأوحينا أن آخر قومك وأوّلهم مجذوذ مستأصل صباح ليلتهم"(١٢).

قال القشيري:" أي: أنهم مهلكون ومستأصلون بالعقوبة"(١٣).

قال ابن كثير:" أي : وقت : الصباح كما قال في الآية الأخرى : { إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } [هود : ٨١]"(١٤).

قال ابن عباس:" يعني: استئصال هلاكهم مصبحين"(١٥).

---

(١)البيت للصمة بن عبد الله القشيري، في شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ٣: ١١٤، و "الليت"، صفحة العنق، العنق، و "الأخدع" عرق في العنق.

(٢) الكشاف:٥٨٤/٢.

(٣) صفوة التفاسير:١٠٥/٢.

(٤)تفسير ابن كثير:٥٤٢/٤ .

(٥) لطائف الإشارات:٢٧٦/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤١٦):ص٢٢٦٩/٧.

(٧) التفسير الميسر:٢٦٥.

(٨) أخرجه الطبري:١١٧/١٧.

(٩) لطائف الإشارات:٢٧٦/٢.

(١٠)تفسير ابن كثير:٥٤٢/٤ .

(١١) التفسير الميسر:٢٦٥.

(١٢) تفسير الطبري:١١٦/١٧.

(١٣) لطائف الإشارات:٢٧٦/٢.

(١٤)تفسير ابن كثير:٥٤٢/٤ .

(١٥) أخرجه الطبري:١١٧/١٧.

قال الزمخشري:" فسر ذلك الأمر بقوله :{أن دابر هؤلاء مقطوع}، وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له.. و{دابرهم}: آخرهم، يعنى: يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد"[1].

وقرأ الأعمش: «إن»، بالكسر على الاستئناف، كأن قائلا قال: أخبرنا عن ذلك الأمر، فقال: إن دابر هؤلاء. وفي قراءة ابن مسعود: «وقلنا إن دابر هؤلاء»[2].

فوائد الآيات:[٦١-٦٦]:

١- استحباب السير في الليل لما فيه من البركة بقطع المسافات البعيدة بدون تعب.

٢- مشروعية مشي المسئول وكبير القوم وراء الجيش والقافلة لتفقد أحوالهم، والإطلاع على من يتخلف منهم لأمر، وكذا كان رسول الله ﷺ يفعل.

٣- كراهية الإشفاق على الظلمة الهالكين، لقوله: {ولا يلتفت منكم أحد}.

القرآن

{وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧)} [الحجر : ٦٧]

التفسير:

وجاء أهل مدينة لوط إلى لوط حين علموا بمن عنده من الضيوف، وهم فرحون يستبشرون بضيوفه؛ ليأخذوهم ويفعلوا بهم الفاحشة.

قال الطبري:" وجاء أهل مدينة سَدُوم وهم قوم لوط لما سمعوا أن ضيفا قد ضاف لوطا مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعا منهم في ركوب الفاحشة"[3].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم ، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين "[4].

قال مقاتل:"{ يستبشرون}، بدخول الرجال منزل لوط"[5].

قال الزمخشري:" أهل المدينة أهل سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور، مستبشرين بالملائكة"[6].

قال قتادة:" استبشروا بأضياف نبيّ الله ﷺ لوط، حين نزلوا لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر"[7].

القرآن

{قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨)} [الحجر : ٦٨]

التفسير:

قال: هؤلاء ضيوفي فلا تقصدوهم بسوء فتُلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال لوط لقومه: إن هؤلاء الذين جئتموهم تريدون منهم الفاحشة ضيفي، وحقّ على الرجل إكرام ضيفه، فلا تفضحون أيها القوم في ضيفي، وأكرموني في ترككم التعرّض لهم بالمكروه"[8].

قال ابن الجوزي:" فقال لهم لوط: إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون أي: بقصدكم إياهم بالسوء، يقال: فضحه يفضحه: إذا أبان من أمره ما يلزمه به العار"[9].

---

(١) الكشاف:٥٨٤/٢.

(٢) انظر: الكشاف:٥٨٤/٢-٥٨٥.

(٣) تفسير الطبري:١١٧/١٧.

(٤)تفسير ابن كثير:٥٤٣/٤ .

(٥)تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٣/٢ .

(٦) الكشاف:٥٨٥/٢.

(٧) أخرجه الطبري:١١٧/١٧.

(٨) تفسير الطبري:١١٧/١٧.

(٩) زاد المسير:٥٣٨/٢.

قال الزمخشري:أي: " {فلا تفضحون} بفضيحة ضيفي، لأن من أساء إلى ضيفه أو جاره فقد أساء إليه، كما أن من أكرم من يتصل به فقد أكرم"[(١)].

وفي قوله تعالى:{ فَلَا تَفْضَحُونِ} [الحجر : ٦٨]، وجهان[(٢)]:

أحدهما: معناه: فلا تفضحوني في ضيفي؛ فإنهم إنما نزلوا بنا على أمن منا؛ فلا تفضحوني عندهم، وهو ما قال في آية أخرى: {وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي} [هود : ٧٨].

والثاني: معناه: لا تفضحوني في الخلق، يقولون: إن في أهل بيت لوط يفعل بالأضياف كذا، وإنما عرف أهل بيتي عند الخلق بالصلاح والأمن فلا تفضحوني في الخلق.

قال ابن كثير:" وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما قال في سياق سورة هود ، وأما هاهنا فتقدم ذِكرُ أنهم رسل الله ، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم. ولكن الواو لا تقتضي الترتيب ، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه"[(٣)].

وأثبت يعقوب «الياء» في قوله:«تفضحون» في الوصل والوقف"[(٤)].

القرآن

{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩)} [الحجر : ٦٩]

التفسير:

خافوا الله أن يحلَّ بكم عقابه، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه.

قوله تعالى:{وَاتَّقُوا اللَّهَ} [الحجر : ٦٩]، أي:" خافوا الله أن يحلَّ بكم عقابه"[(٥)].

قال الماتريدي: أي:" صنيعكم بالرجال"[(٦)].

قال الطبري:" يقول: وخافوا الله فيّ وفي أنفسكم أن يحلّ بكم عقابه"[(٧)].

قوله تعالى:{وَلَا تُخْزُونِ} [الحجر : ٦٩]، أي:" ولا تهينوني بالتعرض لضيوفي بالمكروه"[(٨)].

قال الماتريدي: أي:" عند الخلق؛ قيل: هو من الهوان"[(٩)].

قال الطبري:" يقول: ولا تذلوني ولا تهينوني فيهم، بالتعرّض لهم بالمكروه"[(١٠)].

قال الزمخشري: أي:"ولا تهينونى ولا تفضحوني، من الخزي. أو ولا تخجلوني، من الخزاية وهي الحياء في ضيفي في حق ضيوفى فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة"[(١١)].

قال وهب بن منبه: "فدخلوا على لوط يعني الملائكة فلما رأتهم امرأته أعجبها حسنهم وجمالهم فأرسلت إلى أهل القرية أنه قد نزل بنا قوم لم نر قوما أحسن منهم ولا أجمل فتسامعوا بذلك فغشوا دار لوط من كل ناحية تسوروا عليهم الجدران فلقيهم لوط فقال: يا قوم لا تفضحوني في ضيفي وإني أزوجكم بناتي ف هن أطهر لكم فقالوا: لو كنا نريد بناتك لقد عرفنا مكانهم ولكن لا بد لنا من هؤلاء القوم الذين نزلوا بك، خل بيننا وبينهم"[(١٢)].

وأثبت يعقوب «الياء» في قوله:« تخزون» في الوصل والوقف [(١٣)].

---

(١) الكشاف:٥٨٥/٢.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة:٤٥٣/٦.
(٣)تفسير ابن كثير:٥٤٣/٤ .
(٤) انظر: زاد المسير:٥٣٨/٢.
(٥) صفوة التفاسير:١٠٥/٢.
(٦) تأويلات أهل السنة:٤٥٣/٦.
(٧) تفسير الطبري:١١٧/١٧.
(٨) صفوة التفاسير:١٠٥/٢.
(٩) تأويلات أهل السنة:٤٥٣/٦.
(١٠) تفسير الطبري:١١٧/١٧.
(١١) الكشاف:٤١٤/٢.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٠٧٠):ص٢٠٦٣/٦.
(١٣) انظر: زاد المسير:٥٣٨/٢.

القرآن
{قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠)} [الحجر : ٧٠]
التفسير:
قالوا ألم نمنعك عن ضيافة أحد؟
قال قتادة:" ألم ننهك أن تضيف أحدا؟"[١].
قال ابن كثير:" أي : أو ما نهيناك أن تضيف أحدًا ؟"[٢].
قال ابن الجوزي:" أي: عن ضيافة العالمين"[٣].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال للوط قومه: أو لم ننهك أن تضيف أحدا من العالمين"[٤].
قال القشيري:" قال قومه: ألم ننهك عن أن تحيى أحدا، وأمرناك ألا تمنع منّا أحدا؟"[٥].
فوائد الآيات:[٦٧-٧٠]:
١- فظاعة العادات السيئة وما تحدثه من تغير في الإنسان.
٢- إنكار الفاحشة وأنها أقبح فاحشة تعرفها الإنسانية هي إتيان الذكور.
٣- أسوأ الحياة أن لا يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

القرآن
{قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١)} [الحجر : ٧١]
التفسير:
قال لوط لهم: هؤلاء نساؤكم بناتي فتزوَّجوهن إن كنتم تريدون قضاء وطركم.
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال لوط لقومه: تزوّجوا النساء فأتوهنّ، ولا تفعلوا ما قد حرّم الله عليكم من إتيان الرجال، إن كنتم فاعلين ما آمركم به، ومنتهين إلى أمري"[٦].
قال الزمخشري:" {هؤلاء بناتي}، إشارة إلى النساء، لأن كل أمة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته، فكأنه قال لهم: هؤلاء بناتي فانكحوهن، وخلوا بنى فلا تتعرضوا لهم إن كنتم فاعلين شك في قبولهم لقوله، كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون. وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم"[٧].
قال قتادة:" أمرهم نبيّ الله لوط أن يتزوّجوا النساء، وأراد أن يَقِيَ أضيافه ببناته"[٨].
قال ابن كثير:" فأرشدهم إلى نسائهم ، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة، هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء ، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقر"[٩].
وقوله تعالى:{ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي}[الحجر : ٧١]، فيهن قولان:
أحدهما : أنه أراد نساء أمته ولم يرد بنات نفسه. قاله مجاهد[١٠].
قال مجاهد:" لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبي أبو أمته"[١١].

---

(١) أخرجه الطبري:١١٧/١٧.
(٢) تفسير ابن كثير:٥٤٣/٤.
(٣) زاد المسير:٥٣٨/٢.
(٤) تفسير الطبري:١١٧/١٧.
(٥) لطائف الإشارات:٢٧٦/٢.
(٦) تفسير الطبري:١١٨/١٧.
(٧) الكشاف:٥٨٥/٢.
(٨) أخرجه الطبري:١١٨/١٧.
(٩) تفسير ابن كثير:٥٤٣/٤.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٠٦٦):ص٢٠٦٢/٦.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٠٦٦):ص٢٠٦٢/٦.

وقال سعيد بن جبير :" إنما دعاهم إلى نسائهم قال: وكل نبي هو أبو أمته وكان في بعض القراءة :«النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم»"[١].

الثاني : أنه أراد بنات نفسه وأولاد صلبه لأن أمره فيهن أنفذ من أمره في غيرهن ، وهو معنى قول حذيفة بن اليمان[٢]، ومقاتل[٣].

قال حذيفة بن اليمان:" عرض بناته عليهم تزويجا وأراد نبي الله ﷺ إن يفي بتزويج بناته"[٤].

قال مقاتل:"فعرض عليهم ابنتيه من الحياء تزويجا واسم إحداهما ريثا والأخرى زعوثا"[٥].

عن كعب :" {هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ}[٦]، قال: تزوجوهن"[٧].

فإن قيل : كيف يزوجهم ببناته مع كفر قومه وإيمان بناته ؟

قيل عن هذا ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه كان في شريعة لوط يجوز تزويج الكافر بالمؤمنة ، وكان هذا في صدر الإسلام جائزاً حتى نسخ ، قاله الحسن[٨].

قال الزمخشري:" أراد أن يقي أضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم، وأراد: هؤلاء بناتي فتزوجوهن وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزا، كما زوج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن وائل[٩] قبل الوحى وهما كافران، وقيل كان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه"[١٠].

الثاني : أنه يزوجهم على شرط الإيمان كما هو مشروط بعقد النكاح . ذكره الماوردي[١١].

الثالث : أنه قال ذلك ترغيباً في الحلال وتنبيهاً على المباح ودفعاً للبادرة من غير بذل نكاحهن ولا بخطبتهن، قاله ابن أبي نجيح[١٢].

قال الزمخشري:" يجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم وإظهارا لشدة امتعاضه[١] مما أوردوا عليه، طمعا في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك، فيتركوا فيتركوا له ضيوفه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم"[٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٠٦٧):ص٢٠٦٢/٦. والآية في [سورة الأحزاب : ٦].
(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١١٠٦٩):ص٢٠٦٣/٦.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٣/٢.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١١٠٦٩):ص٢٠٦٣/٦.
(٥)تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٣/٢ .
(٦)[هود : ٧٨].
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١١٠٦٥):ص٢٠٦٢/٦.
(٨) انظر: النكت والعيون:٤٨٨/٢.
(٩) قال المحقق:" قوله «أبو العاص بن وائل» غلط فاحش وإنما هو أبو العاص بن الربيع، ليس في نسبته من اسمه وائل. وكأنه انتقل ذهنه إلى العاص بن وائل السهمي والد عمرو، وليس له في هذه القضية مدخل، وأما قصة تزويج أبى العاص بن الربيع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذا عتبة بن أبى لهب فذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبراني من طريقه قال: كان أبو العاص بن الربيع من رجال مكة مالا وأمانة وكانت خديجة خالته. فسألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه بزينب وكان لا يخالفها. وذلك قبل أن ينزل عليه فلما أكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالنبوة آمنت خديجة وبناته وثبت أبو العاص على شركه. قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوج عتبة بن أبى لهب بنته رقية. فلما دعا قريشا إلى أمرين قال بعضهم لبعض: قد فرغتم محمدا من همه ببناته. فردوهن عليه فمشوا إلى أبى العاص. فأبى عليهم. ثم مشوا إلى عتبة بن أبى لهب. ففارق رقية. وزوجوه بنت سعيد بن العاص. فتزوجها بعده عثمان بن عفان. فذكر قصة أبى العاص وأسره ببدر» وروى البيهقي في الدلائل من طريق قتادة «أن النبي صلى الله عليه وسلم زوج ابنته أم كلثوم في الجاهلية عتبة ابن أبى لهب. ورقية أخاه. فلما جاء الإسلام أمر أبو لهب ولديه فطلقا البنتين".
(١٠) الكشاف:٤١٣/٢-٤١٤.
(١١) انظر: النكت والعيون:٤٨٨/٢.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١١٠٦٨):ص٢٠٦٣/٦.

وحرك ياء «بناتي» نافع، وأبو جعفر[٣].

الفوائد:

١- بيان دفاع لوط عليه السلام عن ضيفه حتى فداهم ببناته، ولا شك أن النبي لوط - عليه السلام – لم يرد بذلك الإتيان من غير الطريق المعهود بين الناس.

القرآن

{لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)} [الحجر : ٧٢]

التفسير:

وحياتك يا محمد، إن قوم لوط لفي ضلالهم وجهلهم يتخبطون ويترددون.

قوله تعالى:{لَعَمْرُكَ} [الحجر : ٧٢]، أي:" وحياتك يا محمد"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ"[٥].

قال ابن كثير:" أقسم تعالى بحياة نبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، وفي هذا تشريف عظيم ، ومقام رفيع وجاه عريض "[٦].

قال القشيري:" أقسم بحياته تخصيصا له فى شرفه، وتفضيلا له على سائر البرية، فقال وحياتك- يا محمد-، ويقال: أقسم بحياته لأنه لم يكن فى وقته حياة أشرف من حياته"[٧].

وفي قوله تعالى:{لَعَمْرُكَ} [الحجر : ٧٢]، وجوه:

أحدها: أن معناه: وحياتك يا محمد، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس[٨].

قال ابن عباس:" ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى ذكره {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}"[٩].

وقال ابن عباس:" ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ، قال: وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا {إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}"[١٠].

والثاني: لَعَيْشُكَ ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس[١١]، وبه قال الأخفش[١٢]

قال ابن الجوزي:" وهو يرجع إلى معنى الأول"[١٣].

والثالث: أن معناه: وحقك على أمتك، تقول العرب: لعمر الله لا أقوم، يعنون: وحق الله، ذكره ابن الأنباري[١٤].

والرابع: أنها كلمة من كلام العرب. قاله قتادة[١٥]، ومقاتل[١٦].

---

(١)قوله «لشدة امتعاضه» امتعض من الأمر: غضب منه وشق عليه، كذا في الصحاح.

(٢) الكشاف:٤١٤/٢.

(٣) انظر: زاد المسير:٥٣٨/٢.

(٤) صفوة التفاسير:١٠٥/٢.

(٥) تفسير الطبري:١١٨/١٧.

(٦) تفسير ابن كثير:٥٤٢/٤.

(٧) لطائف الإشارات:٢٧٧/٢.

(٨) أخرجه الطبري:١١٨/١٧.

(٩) أخرجه الطبري:١١٨/١٧.

(١٠) أخرجه الطبري:١١٨/١٧.

(١١) أخرجه الطبري:١١٩/١٧.

(١٢) انظر: زاد المسير:٥٣٨/٢.

(١٣) زاد المسير:٥٣٨/٢.

(١٤) انظر: زاد المسير:٥٣٨/٢.

(١٥) انظر: تفسير الطبري:١١٨/١٧.

(١٦)تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٣/٢ .

الخامس: أنها كلمة ليس معناها القسم، وإنما معناها العدة من الله بإطالة عمر لوط عليه السلام بعد إهلاك قومه، في الوقت الذي يخبر الله أنه سينقذ في قوم لوط العذاب والهلاك عاجلاً[١].

قال إبراهيم: "كانوا يكرهون أن يقول الرجل: لعمري، يرونه كقوله: وَحَيَاتِي"[٢].

وقال الزمخشري:" {لعمرك} على إرادة القول، أى: قالت الملائكة للوط عليه السلام: لعمرك.. وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له، والعمرو العمر واحد، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فيه، وذلك لأن الحلف كثير الدور على ألسنتهم، ولذلك حذفوا الخبر، وتقديره: لعمرك مما أقسم به، كما حذفوا الفعل في قولك: بالله"[٣].

قوله تعالى:{إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر : ٧٢]، أي:" إن قوم لوط لفي ضلالهم وجهلهم يتخبطون ويترددون"[٤].

قال الطبري:" إن قومك من قريش لفي ضلالتهم وجهلهم يتردّدون"[٥].

قال مقاتل:" يعنى: لفي ضلالتهم يترددون"[٦].

قال السعدي:" هذه السكرة هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم"[٧].

قال الزمخشري:" أى: غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطإ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم، من ترك البنين إلى البنات {يعمهون} يتحيرون، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك"[٨].

قال القشيري:أي:" إنهم فى خمار سكرهم، وغفلة ضلالتهم لا يترقبون عقوبة، ولا يخافون سوءا"[٩].

عن قتادة، قوله :"{لَفِي سَكْرَتِهِمْ}، أي: في ضلالتهم، {يَعْمَهُونَ}: أي يلعبون"[١٠].

قال الأعمش:" لفي غفلتهم يتردّدون"[١١].

عن مجاهد:{يَعْمَهُونَ}، قال: يتردّدون"[١٢].

عن ابن عباس، قوله :"{إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}، قال: يتمادَوْن"[١٣].

وقرئ: «في سكرهم» و«في سكراتهم»[١٤].

الفوائد:

١- شرف النبي ﷺ حيث أقسم الله تعالى بحياته في قوله {لعمرك} .

٢- لما خص الله تعالى نبينا عليه السلام من بين البشر بأن أقسم بحياته فقال:{لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون}، بان أنه أفضلهم وأكرمهم.

فإن قيل: فقد أقسم بالتين والزيتون وطور سينين فما في هذا؟

---

(١) ذكره محقق كتاب: منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس:ص٣٠٤.
(٢) أخرجه الطبري:١١٩/١٧.
(٣) الكشاف:٥٨٥/٢.
(٤) صفوة التفاسير:١٠٥/٢.
(٥) تفسير الطبري:١١٨/١٧.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٣/٢.
(٧) تفسير السعدي:٤٣٣.
(٨) الكشاف:٥٨٥/٢.
(٩) لطائف الإشارات:٢٧٧/٢.
(١٠) أخرجه الطبري:١١٨/١٧.
(١١) أخرجه الطبري:١١٨/١٧.
(١٢) أخرجه الطبري:١١٩/١٧.
(١٣) أخرجه الطبري:١١٩/١٧.
(١٤) انظر: الكشاف:٥٨٦/٢.

قيل: ما من شيء أقسم به إلا وذلك دلالة على فضله على ما يدخل في عداده[1].
عداده[1].

قال الإمام الحافظ ابن الجوزي في الوفاء: "أقسم الحق - عز وجل - بحياته وإنما يقع القسم بالمعظم وبالمحبوب، قال الله تعالى: {لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون} [الحجر: ٧٢]"[2].

٣- أن قوله تعالى:{لعمرك}، هذا قسم بغير الله، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح: " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك "[3]، أما حلف الله بحياة نبيه في قوله: "لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون" فالله يفعل ما يريد، ويقسم بما شاء، وفي الآية شرف عظيم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

القرآن

{فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣)} [الحجر : ٧٣]

التفسير:

فأخذتهم صيحةُ العذاب المهلكة المدمرة وقت شروق الشمس.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فأخذتهم صاعقة العذاب، -وهي الصيحة- إذ أشرقت الشمس"[4].

قال مقاتل:" يعني: صيحة جبريل- عليه السلام- حين طلعت الشمس "[5].

قال ابن كثير:" وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس ، وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلى عَنان السماء ثم قلْبها ، وجعل عاليها سافلها ، وإرسال حجارة السجيل عليهم "[6].

قال الزجاج:" أي: أخذت قوم لوط الصيحة بالعذاب مشرقين، يقال أشرقنا فنحن مشرقون، إذا صادفوا شروق الشمس، وهو طلوعها، كما تقول أصبحنا إذا صادفوا الصبح. يقال: شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت بمعنى واحد، إلا أن معنى «مشرقين» في معنى: مصادفين لطلوع الشمس"[7].

قال السعدي:" { مشرقين} أي: وقت شروق الشمس حين كانت العقوبة عليهم أشد "[8].

قال الزمخشري:" «الصيحة»: صيحة جبريل عليه السلام مشرقين داخلين في الشروق وهو بزوع الشمس"[9].

قال ابن جريج:" حين أشرقت الشمس ذلك: {مشرقين}"[10].

القرآن

{فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤)} [الحجر : ٧٤]

التفسير:

فقلبنا قُراهم فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليهم حجارة من طين متصلب متين.

---

(١) انظر: المنهاج في شعب الإيمان:٨٥/٢.
(٢) نقلا عن لوامع الأنوار البهية، لأبي العون:٢٩٥/٢.
(٣)رواه الترمذي في (النذور والأيمان ما جاء في أن من حلف بغير الله فقد أشرك (١٥٣٥).
(٤) تفسير الطبري:١١٩/١٧.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٣/٢-٤٣٤.
(٦) تفسير ابن كثير:٥٤٣/٤.
(٧) معاني القرآن:١٨٤/٣.
(٨) تفسير السعدي:٤٣٣.
(٩) الكشاف:٥٨٥/٢.
(١٠) أخرجه الطبري:١١٩/١٧.

قوله تعالى:{فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا} [الحجر : ٧٤]، أي:" فقلبنا قُراهم فجعلنا عاليها سافلها"[١].

قال السعدي:" أي: قلبنا عليهم مدينتهم"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فجعلنا عالي أرضهم سافلها"[٣].

قال مقاتل:أي:" المدائن الأربع عاليها سافلها "[٤].

قال مجاهد: "أخذ جبريل عليه السلام قوم لوط من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وامتعتهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم"[٥].

قال قتادة:" بلغنا أن جبريل عليه السلام أخذَ بعُرْوة القرية الوُسْطى، ثم ألوَى بها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء ضَواغِي كلابهم، ثم دمَّر بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعهم الحجارة، قال قتادة: وبلغنا أنهم كانوا أربعة آلاف ألف"[٦].

عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: "بعث الله جبريل عليه السلام إلى المؤتفكة قرية لوط عليه السلام التي كان لوط فيهم، فاحتملها بجناحه، ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نُباح كلابها وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله: {جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل}، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات، وكنّ خمس قريات، "صنعة" و"صعوة" "وعثرة"، و"دوما" و"سدوم" -وسدوم هي القرية العظمى -ونجى الله لوطًا ومن معه من أهله، إلا امرأته كانت فيمن هلك"[٧].

قوله تعالى:{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ} [الحجر : ٧٤]، أي:" وأمطرنا عليهم حجارة من طين متصلب متين"[٨].

قال السعدي:" تتبع فيها من شذ من البلد منهم"[٩].

قال مقاتل:أي:" سدوم، ودامورا، وعاموا، وصابورا، وأمطرنا على من كان خارجا من المدينة حجارة من سجيل، ولعل الرجل منهم يكون في قرية أخرى فيأتيه الحجر فيقتله «من سجيل» يعني: الحجارة خلطها الطين"[١٠].

وفي قوله تعالى:{ مِنْ سِجِّيلٍ}[الحجر : ٧٤]، أقوال:

أحدها : أنه فارسي معرب وهو: «سنك وكيل» فالسنك : الحجر ، و«الكيل» الطين، قاله ابن عباس[١١]، ومجاهد[١٢]، وسعيد بن جبير[١٣]، وعكرمة[١٤]، ووهب[١٥].

قال الزجاج:" قال الناس في سجيل أقوالا، ففي التفسير أنها من جل وحجارة. وقال أهل اللغة: هو فارسي معرب، والعرب لا تعرف هذا. والذي عندي أنه إذا كان هذا التفسير صحيحا فهو فارسي أعرب لأن الله - جل وعز - قد ذكر هذه الحجارة في قصة قوم لوط، فقال: {لنرسل

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٦.
(٢) تفسير السعدي:٤٣٣.
(٣) تفسير الطبري:١١٩/١٧.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٣/٢-٤٣٤.
(٥) أخرجه الطبري(١٨٤٥٨):ص٤٤٠/١٥.
(٦) أخرجه الطبري(١٨٤٦٢):ص٤٤١/١٥.
(٧) أخرجه الطبري(١٨٤٦٦):ص٤٤٢/١٥-٤٤٣.
(٨) التفسير الميسر:٢٦٦.
(٩) تفسير السعدي:٤٣٣.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٣/٢-٤٣٤.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٨٤٣٢)، (١٨٤٣٣):ص٤٣٣/١٥-٤٣٤.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٨٤٢٤)-(١٨٤٢٧):ص٤٣٣/١٥.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٨٤٢٨):ص٤٣٣/١٥.
(١٤) انظر: تفسير الطبري:١١٩/١٧.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٨٤٣١):ص٤٣٣/١٥.

عليهم حجارة من طين} فقد تبين للعرب ما عني بـ «سجيل»، ومن كلام الفرس ما لا يحصى مما قد أعربته العرب، نحو: جاموس وديباج. فلا أنكر أن هذا مما أعرب"[١].
الثاني : فارسية ونبطية: «سج»، «إيل». قاله سعيد بن جبير[٢].
قال الطبري:" فذهب سعيد بن جبير في ذلك إلى أن اسم الطين بالفارسية "جل " لا "إيل"، وأن ذلك لو كان بالفارسية لكان "سِجْل " لا "سجيل"، لأن الحجر بالفارسية يدعى "سج "والطين "جل"، فلا وجه لكون الياء فيها وهي فارسية"[٣].
الثالث: أنه طين قد طبخ حتى صار كالأرحاء ، ذكره ابن عيسى[٤].
الرابع : أنه الحجارة الصلبة الشديدة ، قاله أبو عبيدة[٥]، وأنشد قول ابن مقبل[٦]:
وَرَجْلَةً يَضْرِبُونَ البَيْضَ عَنْ عُرُض ... ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّيلا
إلا أن النون قلبت لاماً .
الخامس : {من سجيل}، يعني: من سماء الدنيا، والسماء الدنيا اسمها «سجيل»، قاله ابن زيد[٧].
زيد[٧].
السادس : {من سجيل} من جهنم، واسمها «سجين» فقلبت النون لاماً[٨].
السابع : {أن السجيل} من «السجل»، وهو «الكتاب»، وتقديره من مكتوب الحجارة التي كتب الله تعالى أن يعذب بها أو كتب عليها. وهذا قول الزجاج[٩].
قال الزجاج:" معنى «من سجيل» من طين عليه كتاب. واشتقاق ذلك من السجل، ودليل هذا التفسير قوله: {حِجَارَةً مِنْ طِينٍ(٣٣)مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ} [الذاريات : ٣٣-٣٤]، فأعلم أنها من طين وأنها مسومة، أي: معلمة لعلامات الكتاب"[١٠].
الثامن : أنه «فِعِّيل» من السجل وهو الإرسال ، يقال: أسجلته، أي: أرسلته ، ومنه سمي الدلو سجلاً لإرساله فكان السجل هو المرسل عليهم. حكاه الطبري عن آخرين[١١].
التاسع : أنه مأخوذ من «السجل» الذي هو «العطاء»، يقال: سجلت له سجلاً من العطاء ، فكأنه قال سُجلوا البلاء، أي: أعطوه. حكاه الطبري عن آخرين[١٢].
قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله المفسرون، وهو أنها حجارة من طين، وبذلك وصفها الله في كتابه في موضع، وذلك قوله: {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ} [سورة الذاريات: ٣٣، ٣٤]"[١٣].
الفوائد:
١- مظاهر قدرة الله تعالى في قلب أربع مدن في ساعة فكان الأعلى أسفل والأسفل أعلى.
٢- أنه كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما كان بين السحر وطلوع الفجر وإذا بديارهم قد أقتلعت من أصلها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير فبرز المرسوم- الذي لا يرد- عن الرب الجليل، إلى عبده

---

(١) معاني القرآن:٧٠/٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٨٤٣٥):ص٤٣٦/١٥.
(٣) تفسير الطبري:٤٣٦/١٥.
(٤) انظر: النكت والعيون:٤٩٢/٢.
(٥) انظر: معاني القرآن:٢٩٦/١.
(٦)مجاز القرآن ١: ٢٩٦، ومنتهى الطلب: ٤٤، والمعاني الكبير: ٩٩١، واللسان (سجن) ، وغيرها.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٨٤٣٤):ص٤٣٤/١٥.
(٨) انظر: النكت والعيون:٤٩٣/٢.
(٩) انظر: معاني القرآن: ١٨٤/٣.
(١٠) معاني القرآن:١٨٤/٣.
(١١) انظر: تفسير الطبري:٤٣٥/١٥.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:٤٣٥/١٥.
(١٣) تفسير الطبري:٤٣٥/١٥.

ورسوله جبرائيل، بأن قلبها عليهم كما أخبر به في محكم التنزيل، فقال عزّ من قائل: {فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل}.

القرآن

{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)} [الحجر : ٧٥]

التفسير:

إن فيما أصابهم لَعظاتٍ للناظرين المعتبرين.

قال ابن كثير:" أي : إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسَّمه بعين بصره وبصيرته "[١].

قال الطبري:" يقول: إن في الذي فعلنا بقوم لوط من إهلاكهم، وأحللنا بهم من العذاب لَعَلامات ودلالات للمتفرّسين المعتبرين بعلامات الله، وعبره على عواقب أمور أهل معاصيه والكفر به. وإنما يعني تعالى ذكره بذلك قوم نبيّ الله ﷺ من قريش، يقول: فلقومك يا محمد في قوم لوط، وما حلّ بهم من عذاب الله حين كذّبوا رسولهم، وتمادوا في غيهم، وضلالهم، مَعْتَبَر"[٢].

قال السعدي:" {للمتوسمين}، أي: المتأملين المتفكرين، الذين لهم فكر وروية وفراسة، يفهمون بها ما أريد بذلك، من أن من تجرأ على معاصي الله، خصوصا هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرأوا على أشنع السيئات"[٣].

عن ابن عباس في قوله: "{إن في ذلك لآيات}، قال: علامة. أما ترى الرجل يرسل بخاتمه إلى أهله فيقول هاتوا كذا وكذا؟ فإذا رأوه عرفوا أنه حق"[٤].

وفي تفسير قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} [الحجر : ٧٥]، وجوه:

أحدها : للمتفرّسين، قاله مجاهد [٥]، وبه قال الزجاج[٦].

قال الزجاج:" وحقيقته في اللغة المتوسمون النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء، تقول: توسمت في فلان كذا وكذا، أي: عرفت وسم ذلك فيه"[٧].

وروي عن النبي- ﷺ- أنه قال : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"[٨]، ثم تلا هذه الآية.

وعن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم "[٩].

قال القشيري:" «الفراسة»: خاطر يحصل من غير أن يعارضه ما يخالفه عند ظهور برهان عليه، فيخرج من القلب عين ما يقع لصاحب الفراسة. مشتق من فريسة الأسد إذ لفريسته يقهر. والحق- سبحانه- يطلع أولياءه على ما خفى على غيرهم، وصاحب الفراسة لا يكون بشرط التفرس فى جميع الأشياء وفى جميع الأوقات بل يجوز أن تسدّ عليه عيون الفراسة فى

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٤٣/٤.
(٢) تفسير الطبري:١٢٠/١٧.
(٣) تفسير السعدي:٤٣٣.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٢٤):ص٢٢٧٠/٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري:١٢٠/١٧.
(٦) انظر: معاني القرآ،:١٨٤/٣.
(٧) معاني القرآن:١٨٤/٣.
(٨)حديث أبى سعيد: أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (٣٥٤/٧) ، والترمذى (٢٩٨/٥، رقم ٣١٢٧) ، وقال: وقال: حديث غريب. وأبو نعيم فى الحلية (٢٨١/١٠) . وأخرجه أيضا: الطبرى (٤٦/١٤) .
حديث أبى أمامة: أخرجه الطبرانى (١٠٢/٨ رقم ٧٤٩٧) قال الهيثمى (٢٦٨/١٠) : إسناده حسن. والحكيم (٨٦/٣) ، وابن عدى (٢٠٦/٤، ترجمة ١٠١٥ عبد الله بن صالح) ، والخطيب (٩٩/٥) . وأخرجه أيضا: الطبرانى فى الأوسط (٣١٢/٣، رقم ٣٢٥٤) ، والقضاعى (٣٨٧/١، رقم ٦٦٣) .
حديث ابن عمر: أخرجه الطبرى (٤٦/١٤) .
ومن غريب الحديث: "اتقوا فراسة المؤمن": هى ما يوقعه الله فى قلوب أوليائه، فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والتخمين.
(٩) أخرجه الطبري:١٢١/١٧.

بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام فنبيّنا- ﷺ- كان يقول لعائشة- رضى الله عنها- فى زمان الإفك: «إن كنت فعلت فتوبى إلى الله»[١]. وكابراهيم ولوط- عليهما السلام- لم يعرفا الرسل"[٢].
الرسل"[٢].
الثاني : للناظرين. قاله ابن عباس[٣]، وقاله الضحاك[٤]. قال زهير بن أبي سلمى[٥]:
وفيهنّ مَلْهًى للَّطِيفِ ومنظَرٌ ... أنيقٌ لعَيْنِ النَّاظرِ المُتَوسِّمِ
الثالث: للمعتبرين ، قاله قتادة[٦].
الرابع : المتفكرون والمعتبرون الذين يتوسمون الأشياء، ويتفكرون فيها ويعتبرون. قاله ابن زيد[٧].
الخامس : المتبصرين المتثبّتين ، قاله أبو عبيدة[٨].
قال الحسن : "هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذي أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار "[٩].
قال الشنقيطي:" أصل «التوسم»: تفعل من «الوسم»، وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها. يقال: توسمت فيه الخير إذا رأيت ميسمه فيه، أي علامته التي تدل عليه... وللعلماء فيه أقوال متقاربة يرجع معناها كلها إلى شيء واحد"[١٠].
قال ابن القيم:" المتوسمون: هم المتفرسون الذين يأخذون بالسيماء، وهي العلامة، قال مجاهد رحمه الله: المتوسمين المتفرسين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للناظرين. وقال قتادة: للمقرين، وقال مقاتل: للمتفكرين.
ولا تنافي بين هذه الأقوال. فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم، أورثه فراسة وعبرة وفكرة. وقال تعالى في حق المنافقين :{وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}، فالأول فراسة النظر والعين. والثاني فراسة الأذن والسمع"[١١].
قال ابن العربي:" التوسم: وهو تفعل من الوسم، وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها. قال الشاعر يمدح النبي - ﷺ -[١٢]:
إنِّي تَوَسَّمْتُ فيك الخيرَ أَعْرِفُه ... والله يَعلم أني ثابتُ البَصَرِ
وفي «الفراسة» أيضا، يقال: تفرست وتوسمت. وحقيقتها الاستدلال بالخلق على الخلق، وذلك يكون بجودة القريحة، وحدة الخاطر، وصفاء الفكر. يحكى أن الشافعي ومحمد بن الحسن كانا جالسين بفناء الكعبة، ودخل رجل على باب المسجد، فقال أحدهما: أراه نجارا، وقال الآخر: بل

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٥٧)، من حديث عائشة بلفظ: "إن كنت قارفت سوءا أو ظلمت، فتوبي إلى الله".
(٢) لطائف الإشارات:٢/٢٧٧-٢٧٨.
(٣) انظر: تفسير الطبري:١٧/١٢١.
(٤) انظر: تفسير الطبري:١٧/١٢٢.
(٥)شرح ديوان زهير" ص ٣٧، وورد في: "شرح القصائد السبع الطوال" ص ٢٥٢، وورد برواية: (للصديق) (للصديق) بدل (للطيف) في "تفسير الماوردي" ٣/ ١٦٧، و"أشعار الشعراء الستة الجاهليين" ١/ ٢٨٠، و"تفسير القرطبي" ١٠/ ٤٣. (ملهى) اللهو أو موضعه، (اللطيف) يعني نفسه، يتلطف في الوصول إليهن، (أنيق) المعجِب، (المتوسم) المتثبت، وقيل: الناظر الذي يتفرّس في نظره، كأنه يطلب شيئًا من سِمته، يعرفها به، والوسامة: الحُسن.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٧/١٢١.
(٧) انظر: تفسير الطبري:١٧/١٢١.
(٨) انظر: مجاز القرآن:١/٣٥٤.
(٩) النكت والعيون:٣/١٦٧-١٦٨.
(١٠) أضواء البيان:٢/٢٨٦.
(١١) التفسير القيم:٣٥٠.
(١٢) ديوانه: ٩٤. ورواية الديوان:
إن تفرست فيك الخير أعرفه ... فراسة خالفتهم في الذي نظروا

حدادا، فتبادر من حضر إلى الرجل فسألوه، فقال لهم: كنت نجارا، وأنا الآن حداد، وهذه زيادة على العادة، فزعمت الصوفية أنها كرامة"[١].

القرآن

{وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦)} [الحجر : ٧٦]

التفسير:

وإن قراهم لفي طريق ثابت يراها المسافرون المارُّون بها.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإن هذه المدينة، مدينة سَدُوم، لبطريق واضح مقيم يراها المجتاز بها لا خفاء بها، ولا يبرح مكانها، فيجهل ذو لبّ أمرها، وغبّ معصية الله، والكفر به"[٢].

قال ابن كثير:" أي : وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي ، والقذف بالحجارة ، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة لبطريق مَهْيَع مسالكه مستمرة إلى اليوم ، كما قال تعالى : { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨]"[٣].

قال الزمخشري:" وإن هذه القرى يعنى آثارها {لبسبيل مقيم} ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، وهم يبصرون تلك الآثار، وهو تنبيه لقريش كقوله: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ} [الصافات : ١٣٧] "[٤].

قال السعدي:" أي: مدينة قوم لوط {لبسبيل مقيم} للسالكين، يعرفه كل من تردد في تلك الديار"[٥].

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ} [الحجر : ٧٦]، وجوه:

أحدها : لهلاك دائم ، قاله ابن عباس[٦].

الثاني : لبطريق واضح، قاله مجاهد[٧]، وقتادة[٨]، وبه قال الزجاج[٩].

الثالث: لبطريق معلم. قاله مجاهد[١٠]، والضحاك[١١].

قال ابن زيد:" السبيل: الطريق"[١٢].

قال أبو عبيدة:" «وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ»، أي: بطريق"[١٣].

قال الماوردي:" يعني بقوله: {وإنها}، أهل مدائن قوم لوط وأصحاب الأيكة قوم شعيب"[١٤].

القرآن

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)} [الحجر : ٧٧]

---

(١) أحكام القرآن:١٠٦/٣.
(٢) تفسير الطبري:١٢٢/١٧.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٤٤/٤.
(٤) الكشاف:٥٨٥/٢.
(٥) تفسير السعدي:٤٣٣.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٢٨):ص٢٢٧٠/٧.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٢٩):ص٢٢٧٠/٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:١٢٢/١٧.
(٩) انظر: معاني القرآ،:١٨٥/٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:١٢٢/١٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري:١٢٣/١٧.
(١٢) أخرجه الطبري:١٢٣/١٧.
(١٣) مجاز القرآن:٣٥٤/١.
(١٤) النكت والعيون:١٦٨/٣.

التفسير:
إن في إهلاكنا لهم لَدلالةً بيّنةً للمصدقين العاملين بشرع الله.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن في صنيعنا بقوم لوط ما صنعنا بهم، لعلامة ودلالة بينة لمن آمن بالله على انتقامه من أهل الكفر به، وإنقاذه من عذابه، إذا نزل بقوم أهل الإيمان به منهم"(١).

قال أبو الليث:" أي: في هلاك قوم لوط لآية أي لعلامة وعبرة للمؤمنين"(٢).

قال الواحدي:" لعبرةً للمصدِّقين يعني: إنَّ المؤمنين اعتبروا بها"(٣).

قال ابن كثير:" أي : إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطا وأهله ، لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله "(٤).

قال مقاتل:" يعني: إن في هلاك قوم لوط لعبرة {للمؤمنين}،يعني: للمصدقين بتوحيد الله-عز وجل- لمن بعدهم فيحذرون عقوبتهم، يخوف كفار مكة بمثل عذاب الأمم الخالية"(٥).

عن ابن عباس :"{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً}، قال: أما ترى الرجل يرسل بخاتمه إلى أهله فيقول: هاتوا خذي،هاتوا خذي، فإذا رأوه علموا أنه حقّ"(٦).

عن سعيد بن جبير، في قوله :"{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً}، قال: هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا"(٧).

فوائد الآيات:[٧٥-٧٧]:

١- الحث على نظر التفكر والاعتبار والتفرس فإنه أنفع للعقل البشري.

٢- وفي هذه القصة من العبر:

أ- عنايته تعالى بخليله إبراهيم، فإن لوطا عليه السلام من أتباعه، وممن آمن به فكأنه تلميذ له، فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحقوا ذلك، أمر رسله أن يمروا على إبراهيم عليه السلام كي يبشروه بالولد ويخبروه بما بعثوا له، حتى إنه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم حتى أقنعوه، فطابت نفسه.

ب- وكذلك لوط عليه السلام، لما كانوا أهل وطنه، فربما أخذته الرقة عليهم والرأفة بهم قدر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له: {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} [هود : ٨١].

ت- ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية [ازداد] شرهم وطغيانهم، فإذا انتهى أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه(٨).

٣- أن " غض النظر عن المحرمات" يورث الفراسة الصادقة التي يميز بها بين المحق والمبطل، والصادق والكاذب، فان الله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو جنس عمله، ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيراً منه، فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بان يطلق نور بصيرته عوضا عن حبسه بصره لله، ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة، التي إنما تنال ببصيرة القلب.

وضد هذا ما وصف الله به اللوطية من العمه، الذي هو ضد البصيرة، فقال تعالى: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» ، فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل،

---

(١) تفسير الطبري:١٢٣/١٧.
(٢) بحر العلوم:٢٦٠/٢.
(٣) الووجيز:٥٩٦.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٤٤/٤.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٤/٢.
(٦) أخرجه الطبري:١٢٣/١٧.
(٧) أخرجه الطبري:١٢٣/١٧.
(٨) انظر: تفسير السعدي:٤٣٢.

والعمه الذي هو فساد البصيرة، ثم عقب الله تعالى على قصتهم بقوله: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ» ، وفي ذلك إشارة لما تقدم[١].

القرآن

{وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨)} [الحجر : ٧٨]

التفسير:

وقد كان أصحاب المدينة الملتفة الشجر -وهم قوم شعيب- ظالمين لأنفسهم لكفرهم بالله ورسولهم الكريم.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وقد كان أصحاب الغيضة { ظالمين}، يقول:كانوا بالله كافرين "[٢].

قال الواحدي:" قوم شعيب وكانوا أصحاب غياضٍ وأشجار"[٣].

قال سهل بن عبدالله:" أصحاب الأيكة متبعو الشهوات"[٤].

قال ابن كثير:" أصحاب الأيكة : هم قوم شعيب، وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان. فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة"[٥].

قال قتادة:" ذكر لنا أنهم كانوا أهل غيضة، وكان عامة شجرهم هذا الدوم، وكان رسولهم فيما بلغنا شعيب، أرسل إليهم وإلى أهل مدين، أرسل إلى أمتين من الناس وعذبتا بعذابين شتى. أما أهل مدين، فأخذتهم الصيحة. وأما أصحاب الأيكة فكانوا أهل شجر متكاوش. ذكر لنا أنه سلط عليهم الحر سبعة أيام لا يظلهم منه ظل ولا يمنعهم منه شيء، فبعث الله عليهم سحابة فجعلوا يلتمسون الروح منها، فجعلها الله عليهم عذابا، بعث عليهم نارا فاضطرمت عليه فأكلتهم. فذلك : {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الشعراء : ١٨٩] "[٦].

عن خصيف، قال، قوله "{أصحاب الأيكة}، قال: الشجر، وكانوا يأكلون في الصيف الفاكهة الرطبة، وفي الشتاء اليابسة"[٧].

قال محمد بن كعب القرظي: "إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، ففرقوا إن يدخلوا البيوت إن تسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلا أطيب ولا أبردا! ... هلموا أيها الناس. فدخلوا جميعا تحت الظلة، فصاح فيهم صيحة واحدة فماتوا جميعا"[٨].

وفي معنى: «الْأَيْكَةِ»، أقوال:

أحدها : أنها الغيْضَة[٩]، قاله ابن عباس[١٠]، وسعيد بن جبير[١١]، ومجاهد[١٢]، والضحاك[١٣]، والسدي[١]، وسهل بن عبدالله[٢]، ومقاتل[٣]، والفراء[٤]، ويحيى بن سلام[٥]، وابن قتيبة[٦].

---

(١) .

(٢) تفسير الطبري:١٢٣/١٧.

(٣) الووجيز:٥٩٦.

(٤) تفسير التستري:١٥١.

(٥) تفسير ابن كثير:٥٤٤/٤.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٣٠):ص٢٢٧٠/٧-٢٢٧١.

(٧) أخرجه الطبري:١٢٤/١٧.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٣٣):ص٢٢٧٠/٧-٢٢٧١.

(٩)أي الأجَمَة: وهي مجتمع الشجر في مغيض ماء. انظر: "جمهرة اللغة" ٢/ ٩٥٧، "الصحاح" (غيض) ٣/ ١٠٩٧.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٣١):ص٢٢٧١/٧.

(١١) انظر: تفسير الطبري:١٢٤/١٧.

(١٢) انظر: النكت والعيون:١٦٨/٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري:١٢٥/١٧.

قال مقاتل:" وكان أكثر الشجر: الدوم وهو المقل"(٧).

وفي رواية عن ابن عباس، قال :"مجمع الشجر"(٨).

الثاني : أنه االشجر الملتف المجتمع، وهذا قول قتادة(٩)، وبه قال ابن جرير الطبري(١٠)، وأنشد قول أمية(١١):

كَبُكا الحَمامِ عَلى فُرُو ... ع الأَيْكِ في الغُصُنِ الجَوَانِحْ

ومنه قول النابغة الذبياني(١٢):

تَجْلُو بِقادمَتَيْ حَمَامَةِ أَيْكَةٍ ... بَرَدًا أُسِفّ لِثاتُهُ بالإِثْمِد

الثالث : أن الأيكة اسم البلد ، وليكة اسم المدينة بمنزلة «بكة» من «مكة»، حكاه ابن شجرة(١٣).

قال الزجاج:{ الأيكة}، " أي: أصحاب الشجر، و«الأيك» الشجر، وهؤلا أهل موضع كان ذا شجر، فانتقم الله منهم بكفرهم، قيل إنه أخذهم الحر أياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا عن آخرهم"(١٤).

القرآن

{فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩)} [الحجر : ٧٩]

التفسير:

فانتقمنا منهم بالرجفة وعذاب يوم الظلة، وإن مساكن قوم لوط وشعيب لفي طريق واضح يمرُّ بهما الناس في سفرهم فيعتبرون.

قوله تعالى:{فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} [الحجر : ٧٩]، أي:" فانتقمنا منهم بالرجفة وعذاب يوم الظلة"(١٥).

قال الواحدي:" بالعذاب أخذهم الحرُّ أيَّاماً ثمَّ اضطرم عليهم المكان ناراً فهلكوا"(١٦).

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٨٧٠٥):ص١٥١٩/٥.
(٢) انظر: تفسير التستري:١٥١.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٤/٢.
(٤) انظر: معاني القرآن:٩١/٢.
(٥) انظر: تفسير يحيى بن سلام:٥٢١/٢.
(٦) انظر: غريب القرآن:٣٢٠.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٤/٢.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٣٢):ص٢٢٧١/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري:١٢٥/١٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:١٢٣/١٧-١٢٤.
(١١)البيت لأمية بن أبي الصلت الثقفي، ولم أجده في ديوانه، ووجدته في سيرة ابن هشام (٣: ٣١ طبعة الحلبي) من قصيدة له يرثي بها قتلى بدر وأولها ألا بكيت على الكرا ... م بني الكرام أولي الممادح
كبكا الحمام ... البيت. والأيك: الشجر الملتف، واحدته أيكة، والجوانح: الموائل. يقول: جنح: إذا مال. وفي (اللسان أيك) : الأيكة: الشجر الكثير الملتف. وقيل: هي الغيضة تنبت السد والأراك ونحوهما من ناعم الشجر، وخص بعضهم به منت الأثل ومجتمعه.
(١٢)البيت للنابغة الذبياني زياد بن معاوية (مختار الشعر الجاهلي بشرح مصطفى السقا طبعة الحلبي ص ١٨٥) قال شارحه: تجلو: تكشف. والقوادم: الريش المقدم في جناح الطائر. ويكون شديد السواد. شبه سواد شفتيها بالقوادم؛ وشبه بياض ثغرها ببياض البرد. واللثاث: مغارز الأسنان، ومن عاداتهم أن يذروا عليها الإثمد، ليبين بياض الأسنان. اهـ. والأيكة: الشجر الكثير الملتف. وقيل: هي الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر. وخص بعضهم به منبت الأثل ومجتمعه. وقال أبو حنيفة الدينوري: قد تكون الأيكة: الجماعة من الشجر، حتى من النخل. قال: والأول أعرف. والجمع أيك.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١٦٨/٣.
(١٤) معاني القرآن:١٥٨/٣.
(١٥) التفسير الميسر:٢٦٦.
(١٦) الوجيز:٥٩٦.

قوله تعالى:{وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ} [الحجر : ٧٩]، أي:" وإن مساكن قوم لوط وشعيب لفي طريق واضح يمرُّ بهما الناس في سفرهم فيعتبرون"(١).

قال ابن كثير:" كانوا-أي قوم شعيب- قريبًا من قوم لوط ، بَعْدَهم في الزمان ، ومسامتين لهم في المكان ؛ ولهذا قال تعالى : { وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ } أي : طريق مبين، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم : { وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ }"(٢).

قال الطبري:" يقول: وإن مدينة أصحاب الأيكة، ومدينة قوم لوط، لبطريق يأتمون به في سفرهم، ويهتدون به {مبين} يقول: يبين لمن ائتم به استقامته، وإنما جعل الطريق إماما لأنه يؤم ويتبع"(٣).

قال الواحدي:" يعني: الأيكة ومدينة قوم لوطٍ لبطريقٍ واضحٍ"(٤).

قال الماوردي:" ويعني بقوله {وإنهما}، أصحاب الأيكة وقومَ لوط"(٥).

قال مقاتل:" يعني: قوم لوط، وقوم شعيب، {لبإمام}، يعني: طريق مبين، يعني: مستقيم، وكان عذاب قوم شعيب- عليه السلام- أن الله- عز وجل- حبس عنهم الرياح فأصابهم حر شديد لم ينفعهم من الحر شيء وهم في منازلهم، فلما أصابهم ذلك الحر خرجوا من منازلهم إلى الغيضة ليستظلوا بها من الحر فأصابهم من الحر أشد مما أصابهم في منازلهم ثم بعث الله- عز وجل- لهم سحابة فيها عذاب فنادى بعضهم بعضا ليخرجوا من الغيضة فيستظلون تحت السحابة لشدة حر الشمس يلتمسون بها الروح فلما لجئوا إليها أهلكهم الله- عز وجل- فيها حرا وغما تحت السحابة، قال: حدثنا عبيد الله، سمعت أبي، قال: سمعت أبا صالح ، يقول: غلت أدمغتهم فى رءوسهم، كما يغلى الماء في المرجل على النار من شدة الحر تحت السحابة، فذلك قوله سبحانه: {فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم}(٦)"(٧).

وفي قوله تعالى:{وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ} [الحجر : ٧٩]، وجهان:

أحدهما : بطريق معلم. قاله مجاهد(٨).

الثاني: لبطريق واضح. قاله قتادة(٩).

وقال ابن عباس:" طريق ظاهر"(١٠).

الثالث: بطريق مستبين. قاله الضحاك(١١)، والسدي(١٢).

قال الفراء:"يقول: بطريق لهم يمرون عليها في أسفارهم. فجعل الطريق إماما لأنه يؤم ويتبع"(١٣).

قال الزجاج:" أي: لبطريق يؤتم أي يقصد فيبين"(١٤).

قال أبو عبيدة:" «الإمام»: كلما ائتممت واهتديت به"(١٥).

قال الماوردي: "وإنما سمي «الكتاب» إماماً، لتقدمه على سائر الكتب"(١).

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٦.
(٢) تفسير ابن كثير:٥٤٤/٤.
(٣) تفسير الطبري:١٢٥/١٧.
(٤) الووجيز:٥٩٦.
(٥) النكت والعيون:١٦٩/٣.
(٦) [الشعراء:١٨٩].
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٤/٢-٤٣٥.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٣٥):ص٢٢٧١/٧.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٣٦):ص٢٢٧١/٧.
(١٠) أخرجه الطبري:١٢٥/١٧.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٣٧):ص٢٢٧١/٧.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٦٩/٣.
(١٣) معاني القرآن:٩١/٢.
(١٤) معاني القرآن:١٥٨/٣.
(١٥) مجاز القرآ،:٣٥٤/١.

وقال مؤرج : "هو الكتاب بلغة حِمْيَر"[٢].

فوائد الآيتين:[٧٨-٧٩]:

١- بيان نقمة الله تعالى من الظالمين للاعتبار والاتعاظ.

٢- تقرير نبوة الرسول ﷺ إذ مثل هذه الأخبار لن تكون إلا عن وحي إلهي.

٣- ومن الفوائد: أن «الإمام» في اللغة لفظ مشترك بين ثلاثة معان هي:

أ- القدوة والمثال: قال لبيد بن ربيعة[٣]:

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آباؤُهُمْ ... وَلِكلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإمَامُهَا

ب- الكتاب: ومنه قوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [الْإِسْرَاء: ٧١].

ت- الطريق: ومنه قوله تعالى: {وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ} [الْحجر: ٧٩].

القرآن

{وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠)} [الحجر : ٨٠]

التفسير:

ولقد كذَّب سكان «وادي الحِجْر» صالحًا عليه السلام، وهم ثمود فكانوا بذلك مكذبين لكل المرسلين.

قال الطبري: ولقد كذب سكان الحجر، وجعلوا لسكناهم فيها ومقامهم بها أصحابها، كما قال تعالى ذكره: (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا) فجعلهم أصحابها لسُكناهم فيها ومقامهم بها"[٤].

قال مقاتل:" يعني بـ«المرسلين» صالحا وحده- عليه السلام- يقول: كذبوا صالحا"[٥].

قال قتادة:" كان أصحاب الحجر ثمود، قوم صالح"[٦].

قال ابن كثير:" أصحاب الحجر هم : ثمود الذين كذبوا صالحا نبيهم ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين"[٧].

قال البغوي:" يعنى: بتكذيبهم صالحا، لأن من كذب واحدا منهم فكأنهما كذبهم جميعا، أو أراد صالحا ومن معه من المؤمنين، كما قيل: الخبيبون في ابن الزبير وأصحابه"[٨].

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا إن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم إن يصيبكم مثل ما أصابهم»"[٩].

---

(١) النكت والعيون:١٦٩/٣.

(٢) النكت والعيون:١٦٩/٣.

(٣)البيت في: ديوانه: ٣٢٠، وورد منسوبًا له في: "تفسير الطبري" ٤/ ١٠٠، و"جمهرة أشعار العرب" (١٣٧)، و"الزاهر" ٢/ ٣٥٢، و"شرح القصائد السبع" لابن الأنباري ٥٩٣، و"تهذيب اللغة" ١/ ٢٠٦، و"تفسير الثعلبي" ٣/ ١٢١ ب، و"شرح المعلقات السبع" للزوزني ٢٥١، و"شرح القصائد العشر" للتبريزي ١٧٣، و"اللسان" ١/ ١٣٤ (أمم)، و"الدر المصون" ٣/ ٣٩٩.

والبيت من معلقته. وقد تقدم هذا البيت أبياتٌ يذكر فيها قومه، ويذكر أنَّ مِن قومه مَن لهم فضائل متعددة، ومكارم وجلائل من الأعمال متنوعة. وفي هذا البيت يقول: إن هؤلاء الذين ذكرتهم وأشرت إليهم هم من معشر فيهم هذه العادات والفضائل سنة قديمة متَّبعة، سنَّها لهم آباؤهم فتوارثوا عنهم، ولكل قوم سنة، وإمامها؛ أي: مِثَال يُحتَذَى ويُسَارُ على طريقته.

(٤) تفسير الطبري:١٢٦/١٧.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٥/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٣٩):ص٢٢٧١/٧.

(٧) تفسير ابن كثير:٥٤٤/٤.

(٨) تفسير البغوي:٥٨٦/٢. وينصه في الكشاف:٣٨٩/٤.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٤٠):ص٢٢٧١/٧-٢٢٧٢.

قال سالم بن عبد الله: إن عبد الله بن عمر قال:" مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر، فقال لنا رسول الله ﷺ: «لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، ثم زجر فأسرع حتى خلفها»"[١].

اختلف أهل التفسير في معنى«الْحِجْرِ»، على أقوال:

أحدها : أنه الوادي، قاله قتادة[٢].

الثاني : أنها مدينة ثمود ، قاله ابن شهاب، واختاره ابن جرير الطبري[٣].

الثالث : اسم القرية الحجر وهو بوادي القرى. قاله مقاتل[٤].

الرابع: ما حكاه ابن جرير أن الحجر أرض بين الحجاز والشام[٥].

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال وهو بالحجر: "هؤلاء قوم صالح أهلكهم الله إلا رجلا كان في حرم الله منعه حرم الله من عذاب الله، قيل: يا رسول الله من هو؟ قال: أبو رغال"[٦].

القرآن

{وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١)} [الحجر : ٨١]

التفسير:

وآتينا قوم صالح آياتنا الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، ومن جملتها الناقة، فلم يعتبروا بها، وكانوا عنها مبتعدين معرضين.

قوله تعالى:{وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا} [الحجر : ٨١]، أي:" وآتينا قوم صالح آياتنا الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق"[٧].

قال الطبري:" يقول: وأريناهم أدلتنا وحججنا على حقيقة ما بعثنا به إليهم رسولنا صالحا"[٨].

قال مقاتل:" يعني: الناقة آية لهم فكانت ترويهم من اللبن في يوم شربها من غير أن يكلفوا مؤنة"[٩].

قال ابن كثير:" آتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح ، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت تسرح في بلادهم ، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عَتَوا وعقروها قال لهم : { تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } [هود : ٦٥] وقال تعالى : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى } [فصلت : ١٧]"[١٠].

قوله تعالى:{فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} [الحجر : ٨١]، أي:" فلم يعتبروا بها، وكانوا عنها مبتعدين معرضين"[١١].

قال الطبري:" فكانوا عن آياتنا التي آتيناهموها معرضين لا يعتبرون بها ولا يتعظون"[١٢].

قال مقاتل:" حين لم يتفكروا في أمر الناقة وابنها فيعتبروا"[١].

---

(١) أخرجه الطبري:١٢٦/١٧.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٣٨):ص٢٢٧١/٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري:١٢٦/١٧.
(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٥/٢.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٧٩/٣.
(٦) أخرجه الطبري:١٢٦/١٧.
(٧) التفسير الميسر:٢٦٦.
(٨) تفسير الطبري:١٢٦/١٧.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٥/٢.
(١٠) تفسير ابن كثير:٥٤٥/٤.
(١١) التفسير الميسر:٢٦٦.
(١٢) تفسير الطبري:١٢٦/١٧.

فوائد الآيتين[٨٠-٨١]:
الفوائد:
١- من كذَّب نبيًا فقد كذَّب الأنبياء كلهم؛ لأنهم على دين واحد.
٢- الحذر من الإعراض عن آيات الله-عز وجل-، إذ أخبر تعالى عن المشركين المكذبين المعاندين أنهم كلما أتتهم من آيةٍ أي: دلالةٍ معجزةٍ وحجةٍ من الدلالات على وحدانية الله تعالى وصدق رسله الكرام فإنهم يُعرضون عنها فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها، وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ} [الحجرات: ٨٠، ٨١]. وقال تعالى في شأن قريش: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأنبياء: ١،٢]. وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ} [الأحقاف: ٣]. وهذا في شأن الأُمِّيّين فهم معرضون مع الجهل، وأما الكتابيون فهم معرضون مع العلم فكفرهم أشد من كفر الأُمِّيّين وهو أعظم. قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ} [آل عمران: ٢٣]. فالإعراض من سيما أهل الكتاب كذلك خالف هدي نبينا محمدٍ - ﷺ - هديهم فقد توعد الله تعالى من أعرض عن آياته فقال: {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ} [طه: ٩٩، ١٠٠]. يعني عن القرآن {فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً} [طه: ١٠٠، ١٠١]، وقال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [طه: ١٢٤،١٢٦][٢].

القرآن

{وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢)} [الحجر : ٨٢]

التفسير:
وكانوا ينحتون الجبال، فيتخذون منها بيوتًا، وهم آمنون من أن تسقط عليهم أو تخرب.
قالالنسفي:" أي: ينقبون في الجبال بيوتا أو يبنون من الحجارة {آمنين} لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تنهدم"[٣].
قال ابن كثير:" أي : من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشرا وبطرا وعبثا ، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر ، الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فَقَنَّع رأسه وأسرع دابته ، وقال لأصحابه : «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»[٤]"[٥].
قال القرطبي:" قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصور والرخام: ثمود. فبنوا من المدائن ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة. ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبعمائة ألف، كلها من الحجارة..وكانوا لقوتهم يخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتا لأنفسهم"[٦].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٥/٢.
(٢) انظر: شرح مسائل الجاهلية:٢٥/١٤.
(٣) تفسير النسفي:١٩٧/٢.
(٤)جاء من حديث ابن عمر ، رضي الله عنهما ، رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٣٨٠) ومسلم في صحيحه برقم (٢٩٨) ولفظه : "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم.." الحديث. ورواه البخاري في صحيحه برقم (٤٧٠٢) بلفظ : "لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم".
(٥) تفسير ابن كثير:٥٤٥/٤.
(٦) تفسير القرطبي:٤٨/٢٠.

قال السعدي:" {وكانوا} من كثرة إنعام الله عليهم {ينحتون من الجبال بيوتا آمنين} من المخاوف مطمئنين في ديارهم، فلو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحا عليه السلام لأدر الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم -لما كذبوا وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم وقالوا: {يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف : ٧٧]"(١).

وفي قوله تعالى:{آمِنِينَ (٨٢)} [الحجر : ٨٢]، وجوه(٢):

أحدهما: آمنين لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تتهدم ويتداعى بنيانها، ومن نقب اللصوص ومن الأعداء وحوادث الدهر.

قال مقاتل:" { آمنين} من أن تقع عليهم الجبال إذا نحتوها وجوفوها"(٣).

الثاني: آمنين من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميهم منه.

الثلث: آمنين من الموت.

القرآن

{فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣)} [الحجر : ٨٣]

التفسير:

فأخذتهم صاعقة العذاب وقت الصباح مبكرين.

قال الطبري:" يقول: فأخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا من اليوم الرابع من اليوم الذي وُعدوا العذاب، وقيل لهم: تَمتَّعوا في داركم ثلاثة أيام"(٤).

قال السمعاني:" {مصبحين}، أي: حين دخلوا في الصبح"(٥).

قال ابن كثير:" أي : وقت الصباح من اليوم الرابع"(٦).

قال القشيري:" أخبر أنهم أخذتهم الصيحة على بغتة"(٧).

قال السعدي:" فتقطعت قلوبهم في أجوافهم وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى، مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة"(٨).

القرآن

{فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)} [الحجر : ٨٤]

التفسير:

فما دفع عنهم عذابَ الله الأموالُ والحصونُ في الجبال، ولا ما أُعطوه من قوة وجاه.

قال الطبري:" يقول: فما دفع عنهم عذاب الله ما كانوا يجترحون من الأعمال الخبيثة قبل ذلك"(٩).

قال السمعاني:" أي: ما دفع عنهم ما كانوا يكسبون"(١٠).

قال ابن كثير:" أي : ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضَنُّوا بمائها عن الناقة ، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه ، فما دفعت عنهم تلك الأموال ، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك "(١١).

قال البغوي: {ما كانوا يكسبون}، من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد"(١).

---

(١) تفسير السعدي:٤٣٤.
(٢) انظر: تفسير الطبري:١٢٧/١٧، وتفسير البغوي:٥٨٧/٢، والكشاف:٥٨٧/٢. وتفسير البيضاوي: ١٩٧/٢.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٥/٢.
(٤) تفسير الطبري:١٢٧/١٧.
(٥) تفسير السمعاني:١٤٨/٣.
(٦) تفسير ابن كثير:٥٤٥/٤.
(٧) لطائف الإشارات:٢٧٩/٢.
(٨) تفسير السعدي:٤٣٤.
(٩) تفسير الطبري:١٢٧/١٧.
(١٠) تفسير السمعاني:١٤٨/٣.
(١١) تفسير ابن كثير:٥٤٥/٤.

قال القشيري:"لم تغن عنهم حيلتهم لمّا حلّ حينهم"[٢].
قال السعدي:" لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار ولا غزارة أموال"[٣].
قال المراغي:" أي: فما دفع عنهم ما نزل بهم ما كانوا يكسبون من تحت البيوت وجمع الأموال وكثرة العدد وجمع العدد، بل خروا حاثمين هلكى حين حل بهم قضاء الله"[٤].
فوائد الآيات:[٨٢-٨٤]:
١- أن ثمود: قوم صالح عليه السلام اشتهروا بقوتهم، وهم أول من نحت الجبال والصور والرخام، وكانوا لقوتهم يخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتا لأنفسهم.
٢- إن توقيت زمان التوبة في حق كل فرد من العباد، وأما في حق عمر الدنيا، فقد تقدم في الآيات والأحاديث أنها تنقطع بطلوع الشمس من مغربها لأنها أول آيات القيامة العظام وحين الإياس من الدنيا، كما أن رؤية ملك الموت آية الانتقال من الدنيا وحين الإياس من الحياة، وكذلك الأمم المخسوف بها انقطعت التوبة عنهم برؤيتهم العذاب.
٣- أن من أنعم الله عليه بولاية أومال فجعلها طريقا إلى طاعة الله فهو ممدوح، وهو أحد الرجلين الذين يغبطهما المؤمن، وإن كان غير هذا فلا، فإن العطاء ما أغنى أصحاب الحجر: {وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (الحجر: ٨٢-٨٤) . ما أغنى عنهم ذلك وقت البلاء كما أغنت الأعمال الصالحة عن أهلها برحمة الله تعالى.

القرآن
{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)} [الحجر : ٨٥]
التفسير:
وما خلَقْنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق دالتين على كمال خالقهما واقتداره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. وإن الساعة التي تقوم فيها القيامة لآتية لا محالة؛ لتوفَّى كل نفس بما عملت، فاعف -أيها الرسول- عن المشركين، واصفح عنهم وتجاوز عما يفعلونه.
قوله تعالى:{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} [الحجر : ٨٥]، أي:" وما خلَقْنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق دالتين على كمال خالقهما واقتداره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له"[٥].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وما خلقنا الخلائق كلها، سماءها وأرضَها، ما فيهما وما بينهما، يعني بقوله {وَمَا بَيْنَهُمَا} مما في أطباق ذلك {إلا بِالْحَقِّ} يقول: إلا بالعدل والإنصاف، لا بالظلم والجور، وإنما يعني تعالى ذكره بذلك: أنه لم يظلم أحدا من الأمم التي اقتصّ قَصَصَهَا في هذه السورة، وقصص إهلاكه إياها بما فعل به من تعجيل النقمة له على كفره به، فيعذّبه ويهلكه بغير استحقاق، لأنه لم يخلق السموات والأرض وما بينهما بالظلم والجور، ولكنه خلق ذلك بالحقّ والعدل"[٦].

---
(١) تفسير البغوي:٥٨٧/٢.
(٢) لطائف الإشارات:٢٧٩/٢.
(٣) تفسير السعدي:٤٣٤.
(٤) تفسير المراغي:٤١/١٤.
(٥) التفسير الميسر:٢٦٦.
(٦) تفسير الطبري:١٢٧/١٧.

قال ابن كثير:" {بِالْحَقِّ } أي : بالعدل"[١].
قال الزمخشري:" {بِالْحَقِّ}، إلا خلقا ملتبسا بالحق والحكمة، لا باطلا وعبثا. أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال"[٢].
قوله تعالى:{وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ} [الحجر : ٨٥]، أي:" وإن الساعة التي تقوم فيها القيامة لآتية لا محالة؛ لتوفَّى كل نفس بما عملت"[٣].
قال ابن كثير:" أخبر نبيه بقيام الساعة ، وأنها كائنة لا محالة"[٤].
قال الزمخشري:" وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك، ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك"[٥].
قوله تعالى:{فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} [الحجر : ٨٥]، أي:" فاعف -أيها الرسول- عن المشركين، واصفح عنهم وتجاوز عما يفعلونه"[٦].
قال البغوي:" فأعرض عنهم واعف عفوا حسنا"[٧].
قال الزمخشري:" فأعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضا جميلا بحلم وإغضاء"[٨].
قال ابن كثير:" أمره بالصفح الجميل عن المشركين ، في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به ، كما قال تعالى:{فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الزخرف : ٨٩]"[٩].
وفي قوله تعالى:{فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} [الحجر : ٨٥]، وجوه[١٠]:
أحدها : أنه الإعراض من غير جزع .
الثاني : أنه صفح المنكر عليهم بكفرهم ، المقيم على وعظهم ، قاله ابن بحر[١١].
الثالث : أنه العفو عنهم بغير توبيخ ولا تعنيف .
الرابع : أنه الرضا بغير عتاب ، قاله علي بن أبي طالب[١٢].
وفي حكم هذا الصفح، قولان :
أحدهما : أنه أمر بالصفح عنهم في حق الله تعالى قبل القتال، ثم نسخ بالسيف ، فقال لهم النبي -ﷺ- بعد ذلك ، «لقد أتيتكم بالذبح، وبعثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة». قاله عكرمة[١٣]، ومجاهد[١٤]، والضحاك[١٥]، وقتادة[١٦]، و سفيان بن عيينة[١٧].
عن الضحاك، في قوله :{فاصفح الصفح الجميل} ، {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}[١٨]، {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين}[١٩]،] و{قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ

(١) تفسير ابن كثير:٥٤٥/٤.
(٢) الكشاف:٥٨٧/٢.
(٣) التفسير الميسر:٢٦٦.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٤٥/٤.
(٥) الكشاف:٥٨٧/٢.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٦.
(٧) تفسير البغوي:٣٩٠/٤.
(٨) الكشاف:٥٨٧/٢.
(٩) تفسير ابن كثير:٥٤٤/٤.
(١٠) انظر: النكت والعيون:١٧٠/٣.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٧٠/٣.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٧٠/٣.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١٧٠.
(١٤) أخرجه الطبري:١٢٨/١٧، وابن الجوزي في نواسخ القرآن:١٦٣.
(١٥) أخرجه الطبري:١٢٨/١٧.
(١٦) أخرجه ابن الجوزي في نواسخ القرآن:١٦٣، وذكره ابن كثير في تفسيره:٥٤٥/٤.
(١٧) أخرجه الطبري:١٢٨/١٧.
(١٨)[الزخرف : ٨٩].
(١٩)[الأنعام : ١٠٦/ الحجر: ٩٤.

الله}[1]، وهذا النحو كله في القرآن أمر الله به نبيه ﷺ أن يكون ذلك منه، حتى أمره بالقتال، فنسخ ذلك كله. فقال (وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد}"[2].

عن مجاهد : {فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ}[3]، قال: هذا قبل القتال"[4].

وعن سفيان بن عيينة، في قوله: "{فاصفح الصفح الجميل}، وقوله : {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}[5]، قال: كان هذا قبل أن ينزل الجهاد. فلما أمر بالجهاد قاتلهم فقال: «أنا نبي الرحمة الرحمة ونبي الملحمة، وبعثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة»"[6].

قال ابن كثير:" وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا فإن هذه مكية ، والقتال إنما شرع بعد الهجرة"[7].

الثاني : أنه أمره بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم ، قاله الحسن[8].

قال الزمخشري:" يجوز أن يراد به المخالقة[9] فلا يكون منسوخا"[10].

الفوائد:

١- لم يخلق الله الخلق عبثا بل خلقه ليعبد بالذكر والشكر، فمن عبده نجا، ومن أعرض عن ذكره وترك عبادته أذاقه عذاب الخزي في الدنيا والآخرة أو في الآخرة وهو أشد وأخزى.

٢- بيان أن الصفح الجميل هو الذي لا جزع معه.

القرآن

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦)} [الحجر : ٨٦]

التفسير:

إنَّ ربك هو الخلاَّق لكل شيء، العليم به، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن ربك هو الذي خلقهم وخلق كلّ شيء، وهو عالم بهم وبتدبيرهم، وما يأتون من الأفعال"[11].

قال أبو الليث:" أي: عليما بمن يؤمن، وبمن لا يؤمن، ويقال العليم متى تقوم الساعة"[12].

قال السمعاني:" يعني: الخالق العليم بخلقه"[13].

قال البغوي:" {العليم} بخلقه"[14].

عن ابن عباس {إن ربك هو الخلاق العليم}، قال: "يريد العلم بما خلق"[15].

قال القشيري:" إذ لا يصح الفعل بوصف الانتظام والاتساق من غير عالم"[1].

---

(١)[الجاثية : ١٤].
(٢) أخرجه الطبري:١٢٨/١٧.
(٣)[الحجر : ٨٥].
(٤) أخرجه الطبري:١٢٨/١٧.
(٥)[الأنعام : ١٠٦/ الحجر: ٩٤.
(٦) أخرجه الطبري:١٢٨/١٧.
(٧) تفسير ابن كثير:٥٤٥/٤-٥٤٦.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٧٠/٣.
(٩)أى المعاملة بحسن الخلق. وفي الصحاح: يقال خالص المؤمن، وخالق الفاجر.
(١٠) الكشاف:٥٨٧/٢.
(١١) تفسير الطبري:١٢٨/١٧.
(١٢) بحر العلوم:٢٦١/٢.
(١٣) تفسير السمعاني:١٤٩/٣.
(١٤) تفسير البغوي:٣٩٠/٤.
(١٥) حكاه الواحدي في التفسير البسيط:٦٤٦/١٢، وقد ورد هذا المعنى غير منسوب في "تفسير البيضاوي" ٣/ ١٧٣، والخازن ٣/ ١٠١، وأبي السعود ٥/ ٨٨.

قال ابن كثير:قوله: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}، " تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة ، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق ما يشاء ، وهو العليم بما تمزق من الأجساد ، وتفرق في سائر أقطار الأرض ، كما قال تعالى : { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [يس : ٨١ - ٨٣]"(٢).

الفوائد:

١– الآية دليل انفراده سبحانه وتعالى بالخلق.

٢– اثبات اسمين من اسمائه تعالى، هما:«الخلاق»،«العليم»:

- فـ«الخالق» «والخلاق» من صفات الذات وصفات الفعل معاً، أي:" المبدع للخلق، والمخترع له على غير مثال سبق"(٣).

فالخلاق والخالق يؤخذ منهما صفة الخلق بناء على القاعدة التي سبقت في هذا الباب، وهي: أن كل اسم من أسماء الله تعالى فهو متضمن لصفة وليست كل صفة متضمنة لاسم، ولهذا كانت الصفات أوسع من باب الأسماء، فالخلق صفة لله تعالى، فهو يخلق ما يشاء إيجاداً وإعداماً، كما قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) (الملك: الآية ٢) فجعل الموت مخلوقاً مع أن الموت عدم، لكنه عدم على وجه معين وليس عدما محضاً، فمفارقة الروح الجسد موت، وليس عدما، بل مفارقة تفقد بها الحياة(٤).

و«الخلاق» من أسماء الله، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} [الحجر: ٨٦]، فالخلاق يتضمن صفة الخلق، ويستلزم صفة العلم والقدرة إذ لا خلق إلا بعلم وقدرة(٥).

- و«العليم»، أي: "المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء(٦).

قال السعدي:" هو الذي أحاط علمه بالظواهر، والبواطن، والإسرار، والإعلان، والواجبات، والمستحيلات، والممكنات. وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي، والحاضر، والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء"(٧).

قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"(٨).

القرآن

---

(١)لطائف الإشارات:٢٧٩/٢ .

(٢) تفسير ابن كثير:٥٤٦/٤.

(٣) شأن الدعاء:٤٩.

(٤)انظر: شرح العقيدة السفارينية:٢٨١-٢٨٢.

(٥) انظر: شرح العقيدة السفارينية:١٦٣.

(٦) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

(٧) تفسير أسماء الله الحسنى :١٩٥.

(٨) شأن الدعاء:٥٧.

{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)} [الحجر : ٨٧]

التفسير:

ولقد آتيناك -أيها النبي- فاتحة القرآن، وهي سبع آيات تكرر في كل صلاة، وآتيناك القرآن العظيم.

سبب النزول:

قال الحسين بن الفضل: "إن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد فيها أنواع من البز وأوعية الطيب والجواهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها فأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه القوافل، ويدل على صحة هذا قوله على أثرها {لا تمدن عينيك} الآية"[(١)] [مرسل].

قوله تعالى:{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي} [الحجر : ٨٧]، أي:" ولقد آتيناك -أيها النبي- فاتحة القرآن"[(٢)].

وفي قوله تعالى:{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي} [الحجر : ٨٧]، وجوه:

أحدها : أن السبع المثاني هي الفاتحة ، قاله علي بن أبي طالب[(٣)]، وابن مسعود-في إحدى الروايات-[(٤)]، وابن عباس-في أحد قوليه-[(٥)]، والحسن[(٦)]، ومجاهد-في أحد قوليه-[(٧)]، وقتادة[(٨)]، وأبي بن كعب[(٩)]، الربيع بن أنس[(١٠)]، وابو العالية[(١١)]، وعطاء[(١٢)]، وإبراهيم[(١٣)]، وإبراهيم[(١٣)]، وعبدالله بن عبيد بن عمير[(١٤)]، وأبي مليكة[(١٥)]، ويحيى بن يعمر[(١٦)]، وأبو فاختة[(١٧)]، وشهر بن حوشب[(١٨)]، وخالد الحنفي قاضي مرو[(١٩)].

قال أبو العالية :" لقد نزلت هذه السورة سبعا من المثاني وما أنزل شيء من الطُول"[(٢٠)].

وفي سبب تسميتها بذلك، أقوال:

١- إذ هي سبع آياتٍ اتِّفاقاً[(١)]، وليس في القرآن ما هو كذلك سواها[(٢)]، إنْ غَيَّر بعضُهم عَدّ عَدّ التَّسمية آية دون {صراط الذين أنعمتَ عليهم}، وبعضُهم عَكَس[(٣)]، وهذا القول هو المشهور[(٤)].

---

(١) اسباب النزول للواحدي:٢٧٧.
(٢) التفسير الميسر:٢٦٦.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٤١):ص٢٢٧٢/٧، وتفسير الطبري:١٣٣/١٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري:١٣٣/١٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري:١٣٣/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٣٣/١٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري:١٣٥/١٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:١٣٦/١٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري:١٣٤/١٧.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٤٢):ص٢٢٧٢/٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري:١٣٤/١٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:١٣٦/١٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:١٣٥/١٧.
(١٤) انظر: تفسير الطبري:١٣٥/١٧.
(١٥) انظر: تفسير الطبري:١٣٥/١٧.
(١٦) انظر: تفسير الطبري:١٣٤/١٧.
(١٧) انظر: تفسير الطبري:١٣٤/١٧.
(١٨) انظر: تفسير الطبري:١٣٥/١٧.
(١٩) انظر: تفسير الطبري:١٣٦/١٧.
(٢٠) أخرجه الطبري:١٣٤/١٧.

٢- لأنها تثنى كلما قرىء القرآن. قاله الربيع بن أنس[٥]، والحسن[٦]،وقتادة[٧].
قال ابن عاشور: "ووجه الوصف به أن تلك الآيات تثنى في كل ركعة كذا في الكشاف[٨] قيل وهو مأثور عن عمر بن الخطاب[٩]، وهو مستقيم لأن معناه أنها تضم إليها السورة في كل ركعة" [١٠][١].

(١) اتفق القراء والمفسرون بأنها سبع آيات، ولم يشذ عن ذلك إلا الحسن البصري فقال هي ثمان آيات، وإلا الحسين الجعفي فقال هي ست آيات، وقال البعض أنها تسع آيات، ويتعين حينئذ كون البسملة ليست من الفاتحة لتكون سبع آيات ومن عدّ البسملة أدمج الآيتين.(انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٣٥/١).

(٢) ليس في القرآن سورة هي سبع آيات سوى " الفاتحة "، و " أرأيت " ولا ثالث لهما. قال جعفر بن أحمد بن الحسين السرّاج البغدادي في أرجوزته التي نظم فيها النظائر:
فَسُوْرَةُ الحَمْدِ لَهَا نَظِيْرَهْ أَرَأَيْتَ إِنْ أَنْتَ قَرَأْتَ السُّوْرَه
كلاهما إذا عددتَّ سبعُ. وليس للحق اليقين دفعُ
(انظر: أرجوزة في نظائر القرآن العظيم ل٢٠ نسخة مكتبة بلدية الإسكندرية، ومنها نسخة مصورة بمعهد البحوث العلمية برقم ١١٤٣) وهو جعفر بن أحمد بن الحسين أبو محمد السراج البغدادي القارئ، كان عالما بالقراءات والنحو واللغة، كثير التصنيف، توفي سنة خمسمائة. سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٨٨ وبغية الوعاة ١/ ٤٨٥.

(٣)انظر في: البيان في عد آي القرآن، لأبي عمرو الداني ١٣٩.

(٤)وأما تأويل اسمها أنها " السَّبْعُ " ، فإنها سبعُ آيات ، لا خلاف بين الجميع من القرَّاء والعلماء في ذلك ،وإنما اختلفوا في الآي التي صارت بها سبع آيات :
القول الأول : فقال معظم أهل الكوفة ومكة : صارت سبع آيات بـ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ورُوي ذلك عن جماعة من أصحاب رسول الله -ﷺ- والتابعين والشافعي يعد البسملة آية منها.
القول الثاني : قالوا هي سبع آيات ، وليس منهن (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ولكن السابعة (أنعمت عليهم)، وذلك قول معظم قَرَأةِ أهل المدينة والبصرة والشام ومُتْقنيهم ومنهم الإمام مالك.
قال الطيبي: وعدّ التسمية أولى؛ لأن (أنعمت عليهم) لا يناسب وزانه وزان فواصل السور، ولما روى البغوي(هو الحسن بن مسعود بن محمد محيي السنة أبو محمد البغوي الشافعي المفسر، كان سيدا إماما، عالما علامة، زاهدا قانعا بالسير، توفي سنة ست عشرة وخمسمائة. سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٣٩ وطبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٧٥.) في " شرح السنة " عن ابن عباس أنه قال: " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الآية السابعة "(رواه الشافعي في المسند ٧٩ ومن طريقه البغوي في شرح السنة ٣/ ٥٠ من طريق عبد المجيد، والطبري في تفسير الطبري ١٤/ ٥٥ من طريق يحيى الأموي، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٥٧ من طريق حفص بن غياث، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٤ من طريق حجاج بن محمد الأعور، وحفص بن غياث، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٢٠٠ من طريق أبي عاصم كلهم (عبد المجيد، ويحيى وحفص، وحجاج، وأبو عاصم) عن ابن جريح عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وصحح السيوطي سنده في الإتقان ١/ ٢٤٦ وفي التصحيح نظر، فإن في سنده عبد العزيز بن جريج، قال الحافظ بن حجر عنه: لين، التقريب ٦١١).

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٤٢):ص٢٢٧٢/٧.

(٦) انظر: تفسير الطبري:١٣٥/١٧.

(٧) انظر: تفسير الطبري:١٣٦/١٧.

(٨) يقول الامام الزمخشري: " وسورة الحمد والمثاني لأنها تثنى في كل ركعة"(عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ)، : دار الكتاب العربي ـ بيروت، ١٤٠٧م:ص١/١).

(٩) قال السيوطي في حاشيته على تفسير البيضاوي:" أخرجه ابن جرير في تفسيره بسند حسن عنه قال: " السبع المثاني فاتحة الكتاب تثنى في كل ركعة"، ولم أر هذا اللفظ في تفسير الطبري عن عمر، ولكن رأيت فيه: ما لهم رغبة عن فاتحة الكتاب، وما يبتغي بعد المثاني: ١٤/ ٥٤.(انظر: نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين،المملكة العربية السعودية (٣ رسائل دكتوراة)، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٥ م:ص٤٩/١.

(١٠)تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد بن الطاهر ابن عاشو، دار التنوسية للنشر، التونس، ١٩٨٤:ص١٣٥/١.

٣- وإمَّا لأنَّها تَثنَّى نزولها، فَمَرَّة بمكَّة حين فُرِضَت الصَّلاة وأخرى بالمدينة حين حُوِّلَت القِبلة[٢]، قال ابن عاشور: " وَهَذَا قَوْلٌ بَعِيدٌ جِدًّا وَتَكَرُّرُ النُّزُولِ لَا يُعْتَبَرُ قَائِلُهُ، وَقَدِ اتُّفِقَ عَلَى أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ فَأَيُّ مَعْنًى لِإِعَادَةِ نُزُولِهَا بِالْمَدِينَةِ"[٣].

٤- وإمَّا لاشتمال كلٍّ مِن آياتها السَّبع على الثَّناء عليه جلَّ شأنُه؛ إمّا تصريحاً أو تلويحاً، وهو مبنيٌّ على ما هو الصَّحيح مِن عَدِّ التَّسمية آية منها، وعَدِّ {صراط الذين أنعمت عليهم} بعضاً من السَّابعة، وإلَّا فتَضمُّنها الثَّناء غير ظاهر .

٥- لأنها يثني فيها الرحمن الرحيم ، ومنه قول الشاعر[٤]:

نشدتكم بمنزل القرآن ... أمّ الكتاب السّبع من مثاني
ثُنّين مِن آيٍ مِن القرآن ... والسبع سبع الطول الدواني

إذ تتكرُر ما تضمَّنته من المقاصد: فالثَّناء عليه سبحانه قد تَكَرَّر في جُملتَي البسملة والحمدِ لَه. وتخصيصُه عزَّ وعلا بالإقبال عليه وحده والإعراض عمَّا سواه قد تكرَّر في جملَتَي العبادة والإستعانة. وطلبُ الهداية إلى الصِّراط المُستقيم مُكرَّر بـ{صراط الذين أنعمت عليهم}، كما أنَّ سؤال البُعد عن الطَّريق غير القويم مُكرَّر بِذِكر {المغضوب عليهم ولا الضالين}[٥].

الثاني : أنها السبع الطوَل: «البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس»، قاله ابن مسعود[٦]، وابن عباس[٧]، وابن عمر[٨]، وسعيد بن جبير[٩]، ومجاهد[١٠]، والضحاك[١١].

وقال سفيان:" المثاني المثين: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف وبراءة والأنفال سورة واحدة"[١٢].

قال ابن عباس:" هي السبع الطول. ولم يعطهن أحد إلا النبي ﷺ، وأعطي موسى منهن اثنتين"[١٣].

وقال سعيد بن جبير:"هي السبع الطُّوَل، أعطِيَ موسى ستا، وأُعطِيَ محمد صلى الله عليه وسلم سبعا"[١٤].

---

(١) وقيل أن في كلام صاحب (الكشّاف): "لأنّها تُثنَّى في كلِّ ركعة"، وهو بظاهره غير صحيح، ووجوه التَّكلُّف لتوجيهه مشهورة، أجودُها حمل الرَّكعة على الصَّلاة تسمية لِلكلِّ باسم الجزء، ولا يردُ عليه الوِتْر إذ ليست في مذهبه، ولا صلاة الجنازة، وإنْ جُعِلت صلاة حقيقة لعدم إطلاقه الرَّكعة عليها .

(٢)قال السيوطي في الإتقان: الأكثرون على أنها مكية ... واستدل لذلك بقوله تعالى "ولقد آتيناك سبعا من المثاني" وفسرها - ﷺ - بالفاتحة كما في الصحيح، وسورة الحجر مكية بالإتقان، وقد امتن على رسوله فيها بها، فتدل على تقدم نزول الفاتحة عليها، إذ يبعد أن يمتن عليه بما لم ينزل بعد.

وانظر في: صحيح البخاري ٤/ ١٥٢٥ ح٣٩١٩ وتفسير الطبري ٢٦/ ٦٩ والمحرر الوجيز ١٣/ ٤٢٧ وزاد المسير ٧/ ٤١٨ والتفسير الكبير ١/ ١٧٧ وتفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٢٥ والإتقان في علوم القرآن ١/ ٣٤.

(٣) تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد بن الطاهر ابن عاشو، دار التنوسية للنشر، التونس، ١٩٨٤:ص١٣٥/١.

(٤) انظر: النكت والعيون:٣/!٧٠.

(٥) انظر: الاتقان في علوم القرآن: ١٥٠/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري:١٢٩/١٧.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٤٣):ص٢٢٧٢/٧.

(٨) انظر: تفسير الطبري:١٢٩/١٧.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٤٤):ص٢٢٧٢/٧.

(١٠) انظر: تفسير الطبري:١٣١/١٧.

(١١)انظر: تفسير الطبري:١٣٢/١٧ .

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٤٥):ص٢٢٧٢/٧.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٤٣):ص٢٢٧٢/٧.

(١٤) أخرجه الطبري:١٣٢/١٧.

قال الزمخشري:" اختلف في السابعة فقيل: الأنفال وبراءة، لأنهما في حكم سورة واحدة، ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية. وقيل سورة يونس. وقيل: هي آل حم"(١).

وفي تسميتها بالمثاني، وجوه:

١- لأنها ثنى فيها القضاء والقصص. قاله سعيد بن جبير(٢).

٢- سميت المثاني، لما تردد يتردد فيهن الخير والأمثال والعبر. قال ابن عباس(٣).

٣- لأنها قد تجاوزت المائة الأولى إلى المائة الثانية . قال جرير(٤):

جزى الله الفرزدق حين يمسي ... مضيعاً للمفصل والمثاني

الثالث : أن المثاني القرآن كله، قاله الضحاك(٥)، وأبو مالك(٦)، وطاوس(٧)، وهو مروي عن ابن عباس أيضا(٨)، وسمي بذلك لأنه يذكر الله القصة الواحدة مرارا، قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} [الزمر : ٢٣].

ومنه قول صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله -ﷺ-(٩):

فقد كان نوراً ساطعاً يهتدى به ... يخص بتنزيل المثاني المعظم

الرابع : أن المثاني معاني القرآن السبعة: أمر ونهي وتبشير وإنذار وضرب أمثال وتعديد نعم وأنباء قرون ، قاله زياد بن أبي مريم(١٠).

الخامس : أنه سبع كرامات أكرمه الله بها ، أولها الهدى ثم النبوة ، ثم الرحمةِ ثم الشفقة ثم المودة ثم الألفة ثم السكينة وضم إليها القرآن العظيم ، قاله جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما(١١).

قال ابن جرير الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: عني بالسبع المثاني: السبع اللواتي هنّ آيات أم الكتاب"(١٢).

ثم استشهد بالروايات الآتية:

- عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "أمّ القُرآنِ السَّبْعُ المَثانِي الَّتِي أعْطِيتُها"(١٣).
- عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال لأبيّ: "إنّي أُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنزلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلا فِي الإنْجِيلِ وَلا فِي الزَّبُورِ وَلا فِي الفُرْقانِ مِثْلُها قال نعم يا رسول الله، قال: إنّي لأَرْجُو أنْ لا تَخْرُجَ مِنْ هَذَا البابِ حتى تَعْلَمَها، ثم أخذ رسول الله ﷺ بيدي يحدثني، فجعلت أتباطأ مخافة أن يبلغ البابَ قبل أن ينقضي الحديث، فلما دنوت قلت: يا رسول الله ما السورة التي وعدتني؟ قال: ما تَقرأُ فِي الصَّلاةِ؟ فقرأت عليه أمّ القرآن، فقال: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنزلَ فِي التَّوْراةِ ولا في الإنْجِيلِ ولا في الزَّبُورِ ولا في الفُرْقان مِثْلُها، إنَّها السَّبْعُ مِن المَثاني والقُرآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُهُ "(١٤).

---

(١) الكشاف:٥٨٧/٢.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٤٤):ص٢٢٧٢/٧.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٤٦):ص٢٢٧٢/٧.
(٤) ديوانه: ٤٦٦، وفيه«لحى» بدل«جزى».
(٥) انظر: تفسير الطبري:١٣٧/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٣٧/١٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري:١٣٧/١٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:١٣٧/١٧.
(٩) ذكره الماوردي في النكت والعيون:١٧١/٣، والقرطبي في تفسيره:٥٥/١٠.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٤٧):ص٢٢٧٢/٧، وتفسير الطبري:١٣٦/١٧.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٧١/٣.
(١٢) تفسير الطبري:١٣٧/١٧.
(١٣) أخرجه الطبري:١٣٧/١٧.
(١٤) أخرجه الطبري:١٣٧/١٧-١٣٨.

- عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: "الرَّكْعَتانِ اللَّتان لا يُقْرأُ فِيهما كالخِدَاجِ لَمْ يُتِمَّا، قال رجل: أرأيت إن لم يكن معي إلا أمّ القرآن؟ قال: "هي حسبك هِيَ أمُّ القُرآنِ، هِيَ السَّبْعُ المَثانِي"[1].
- عن أبيّ بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال له: "إذا افْتَتَحْت الصَّلاةَ بِم تَفْتَتِحُ؟ قال: الحمد لله ربّ العالمين، حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ: "هِي السَّبْعُ المَثاني والقُرآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُعْطيتُ "[2].

قوله تعالى:{وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} [الحجر : ٨٧]، أي:" وآتيناك القرآن العظيم"[3].

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف صح عطف القرآن العظيم على السبع، وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟

قلت: إذا عنى بالسبع للفاتحة أو الطوال، فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن، لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل. ألا ترى إلى قوله بما أوحينا إليك هذا القرآن يعنى سورة يوسف، وإذا عنيت الأسباع فالمعنى: ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم، أى: الجامع لهذين النعتين، وهو الثناء أو التثنية والعظم"[4].

الفوائد:

١- فضل الفاتحة إذ هي السبع المثاني.
٢- تشريفه ﷺ بإنزال القرآن عليه.
١- دلّت الآية على إعطاء الله لرسوله-ﷺ- الخير الكثير، كما جاء في قوله تعالى: {ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم}.
٢- المنة بايتاء السبع المثاني والقرآن العظيم، وفيه التعزية عما أصابه وعما صرف عنه.
٣- وصفَ اللهُ تعالى القرآن بالعظمةِ.
٤- ثناء الله على كتابه، إذ أثنى الله تعالى على كتابه العزيز في آيات كثيرة مما يدل على عظمته كما وصفه "بالعظيم" في قوله تعالى:{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}.

فالقرآن هو النعمة العُظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة فعليك أن تستغني به[5].

القرآن

{لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)} [الحجر : ٨٨]

التفسير:

لا تنظر بعينيك وتتمنَّ ما مَتَّعْنا به أصنافًا من الكفار مِن مُتَع الدنيا، ولا تحزن على كفرهم، وتواضَعْ للمؤمنين بالله ورسوله.

سبب النزول:

عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: "أضاف النبي ﷺ ضيف، ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمد رسول الله: أسلفني دقيقا إلى هلال رجب. قال: لا، إلا برهن. فأتيت النبي ﷺ [فأخبرته] فقال: أما والله إني لأمين من في السماء وأمين من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه. فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: {ولا

(١) أخرجه الطبري:١٣٨/١٧.
(٢) أخرجه الطبري:١٣٨/١٧.
(٣) التفسير الميسر:٢٦٦.
(٤) الكشاف:٥٨٨/٢.
(٥) انظر: الكشاف للزمخشري :٢/ ٥٤٩.

تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا} ... إلى آخر الآية، كأنه يعزيه عن الدنيا"[(١)].

قوله تعالى:{لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ} [الحجر : ٨٨]، أي:" لا تنظر إلى ما متعنا به بعض هؤلاء الكفار مِن مُتَع الدنيا"[(٢)].

قال ابن عباس:" نهى الرجل إن يتمنى مال صاحبه"[(٣)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تتمنينّ يا محمد ما جعلنا من زينة هذه الدنيا متاعا للأغنياء من قومك، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يتمتعون فيها، فإن مِنْ ورائهم عذابًا غليظًا"[(٤)].

قال الزمخشري:" أى: لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له إلى ما متعنا به {أزواجا منهم}، أصنافا من الكفار"[(٥)].

قال ابن كثير:" يقول تعالى لنبيه : كما آتيناك القرآن العظيم ، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها ، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه ، فلا تغبطهم بما هم فيه... ومن هاهنا ذهب ابن عُيَيْنَة إلى تفسير الحديث الصحيح : «ليس منا من لم يتغَنَّ بالقرآن»[(٦)]، إلى أنه يُستغنى به عما عداه ، وهو تفسير صحيح ، ولكن ليس هو المقصود من الحديث "[(٧)].

قال مكي بن ابي طالب:" معناه : استعن بما آتاك الله من القرآن عما في أيدي الناس. ومنه حديث النبي ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[(٨)]، أي: يستغني به عن المال. وعلى هذا هذا تأول الحديث سفيان بن عيينة، وتأول الآية. وروى: «من حفظ القرآن فرأى أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً»[(٩)].

فالمعنى: لا تتمنين ما جعلنا من زينة الدنيا متاعاً للأغنياء من قومك المشركين"[(١٠)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٤٨):ص٢٢٧٣/٧.

(٢) صفوة التفاسير:١٠٧/٢، والتفسير الميسر:٢٦٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٤٩):ص٢٢٧٣/٧.

(٤) تفسير الطبري:١٤١/١٧.

(٥) الكشاف:٥٨٨/٢.

(٦)حديث أبى هريرة: أخرجه البخارى (٢٧٣٧/٦، رقم ٧٠٨٩) ، والخطيب (٣٩٥/١) ، والبيهقى (٢٢٩/١٠، ٢٢٩/١٠، رقم ٢٠٨٣٥) ، وابن عساكر (٢٤٢/٥١) .

حديث سعد بن أبى وقاص: أخرجه عبد الرزاق (٤٨٣/٢، رقم ٤١٧٠) ، وابن أبى شيبة (١١٩/٦، رقم ٢٩٩٤٢) ، والطيالسى (٢٨/١، رقم ٢٠١) ، وأحمد (١٧٩/١، رقم ١٥٤٩) ، والدارمى (٤١٧/١، رقم ١٤٩٠) ، وأبو داود (٧٤/٢، رقم ١٤٦٩، ١٤٧٠) ، وابن حبان (٣٢٦/١، رقم ١٢٠) ، والحاكم (٧٥٨/١، رقم ٢٠٩١) وقال صحيح الإسناد، والبيهقى (٢٣٠/١٠، رقم ٢٠٨٣٦) ، والضياء (١٧٣/٣، رقم ٩٧١) .

حديث أبى لبابة بن عبد المنذر: أخرجه أبو داود (٧٤/٢، رقم ١٤٧١) ، وابن قانع (٩٧/١) ، والطبرانى (٣٤/٥، رقم ٤٥١٤) ، والبيهقى (٥٤/٢، رقم ٢٢٥٧) .

حديث ابن عباس: أخرجه الطبرانى (١٢١/١١، رقم ١١٢٣٩) ، والحاكم (٧٦٠/١، رقم ٢٠٩٥) . وأخرجه أيضا: القضاعى (٢٠٨/٢، رقم ١١٩٩) . قال الهيثمى (١٧٠/٧) : رواه البزار، والطبرانى، ورجال البزار رجال الصحيح.

حديث ابن الزبير: أخرجه أيضا: البزار (١٤٨/٦، رقم ٢١٩٢) . قال الهيثمى (١٧٠/٧) : فيه محمد بن ماهان قال الدارقطنى: ليس بالقوى، وبقية رجاله ثقات.

حديث عائشة: أخرجه الحاكم (٧٦٠/١، بعد رقم ٢٠٩٥).

(٧) تفسير ابن كثير:٥٤٦/٤-٥٤٨. [بتصرف]

(٨)أبو داود "٢/ ٧٤/ ح١٤٧١" في الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة. وإسناده صحيح.

(٩) حكاه النحاس عن عبدالله بن عمر، انظر: معاني القرآن:٤١/٤، وحكاه الألوسي عن ابي بكر الصديق-رضي الله عنه-، وقال:" وقد أخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة ما هو بمعناه، وقال العراقي: إن الخبر مروي لكن لم أقف على روايته عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه في شيء من كتب الحديث". روح المعاني: ٣٢٢/٧.

(١٠) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٢٦/٦-٣٩٢٧.

قال السمعاني:" وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما من عليه بالقرآن، نهاه عن الرغبة في الدنيا والنظر إلى زينتها، ومزاحمة أهلها عليها، وروى أبو عبيد أن سفيان بن عيينة قال في معنى قوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[١]، أي: لم يستغن بالقرآن، ثم تأول هذه الآية {ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم، لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم} على هذا.

وفي الخبر عن النبي أنه قال: « من أوتي القرآن فظن أن أحدا أعطى أفضل مما أعطى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا »[٢]"[٣].

قال المغامسي:" بمعنى أنه جعل للدنيا أكثر من قدرها، وصغر عظيماً فلم يعرف قدر القرآن؛ لأن الله قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} [الحجر:٨٧]"[٤].

قال الماوردي:" يعني: ما متعناهم به من الأموال"[٥].

وفي قوله تعالى:{أَزْوَاجًا مِنْهُمْ} [الحجر : ٨٨]، وجوه:

أحدها : أنهم الأشباه ، قاله مجاهد[٦].

الثاني : أنهم الأصناف قاله أبو بكر بن زياد[٧].

قال السمعاني:" معناه: أصنافا منهم، وهم اليهود والنصارى وسائر المشركين"[٨].

الثالث : أنهم الأغنياء ، قاله ابن أبي نجيح[٩].

قال مكي بن ابي طالب:" معنى: {أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ} أمثالاً منهم، يعني: الأغنياء منهم. والأزواج في اللغة: الأصناف"[١٠].

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف وصل هذا بما قبله؟

قلت: يقول لرسول الله ﷺ: قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة، وهي القرآن العظيم، فعليك أن تستغني به، ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا"[١١].

قوله تعالى:{وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} [الحجر : ٨٨]، أي:" لا تحزن لعدم إيمانهم"[١٢].

قال الطبري:" يقول: ولا تحزن على ما مُتعوا به فعجّل لهم. فإن لك في الآخرة ما هو خير منه، مع الذي قد عَجَّلنا لك في الدنيا من الكرامة بإعطائنا السبع المثاني والقرآن العظيم، يقال منه: مَدَّ فلانٌ عينه إلى مال فلان: إذا اشتهاه وتمناه وأراده"[١٣].

قال مكي بن أبي طالب:" أي: على ما متعوا به من ذلك. فعجل لهم في الدنيا فإن لك في الآخرة مما هو خير لك من ذلك"[١٤].

قال السمعاني:" يعني: لا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا"[١٥].

---

(١)أبو داود "٢/ ٧٤/ ح١٤٧١" في الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة. وإسناده صحيح..

(٢) حكاه النحاس عن عبدالله بن عمر، انظر: معاني القرآن:٤١/٤، وحكاه الألوسي عن ابي بكر الصديق-رضي الله عنه-، وقال:" وقد أخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة ما هو بمعناه، وقال العراقي: إن الخبر مروي لكن لم أقف على روايته عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه في شيء من كتب الحديث". روح المعاني: ٣٢٢/٧.

(٣) تفسير السمعاني:١٥١/٣.

(٤) سلسلة محاسن التأويل:٢/٢٧ [دروس صوتية].

(٥) النكت والعيون:١٧١/٣.

(٦) انظر: تفسير الطبري:١٤١/١٧.

(٧) انظر: النكت والعيون:١٧١/٣.

(٨) تفسير السمعاني:١٥١/٣.

(٩) انظر: النكت والعيون:١٧١/٣.

(١٠) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٢٧/٦.

(١١) الكشاف:٥٨٨/٢.

(١٢) صفوة التفاسير:١٠٧/٢.

(١٣) تفسير الطبري:١٤١/١٧.

(١٤)الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٢٧/٦ .

(١٥) تفسير السمعاني:١٥١/٣.

قال ابن كثير:" ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك "(١).

قوله تعالى:{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر : ٨٨]، أي:" وتواضَعْ للمؤمنين بالله ورسوله"(٢).

قال مكي بن ابي طالب:" أي: ألن جانبك لمن آمن بل وقربهم من نفسك. والجناحان من ابن آدم جنباه، والجناحان الناحيتان، ومنه قول الله تعالى {واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ} [طه: ٢٢]، وقيل: معناه: إلى ناحيتك وجنبك"(٣).

قال ابن كثير:" أي: ألِن لهم جانبك كما قال تعالى : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [التوبة : ١٢٨]"(٤).

وفي حكم هذه الآية قولان:

أحدهما: انها محكمة. وهو الصحيح.

الثاني: أن هذا كان قبل أن يؤمر بقتالهم ثم نسخ بآية السيف(٥).

قال ابن الجوزي وهذا ليس بشيء؛ لأن المعنى: لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا، وقيل: لا تحزن بما أنعمت عليهم في الدنيا، ولا وجه لنسخ، وكذلك قال أبو الوفاء بن عقيل: قد ذهب بعضهم إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف؛ وليس بصحيح"(٦).

ولم يذكر الطبري والنحاس ومكي بن أبي طالب، دعوى النسخ في هذه الآية إذ لم يعتبروا هذا القول الضعيف جديرا بالذكر.

القرآن

{وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)} [الحجر : ٨٩]

التفسير:

وقل: إني أنا المنذر الموضِّح لما يهتدي به الناس إلى الإيمان بالله رب العالمين، ومنذركم أن يصيبكم العذاب.

قال مكي بن ابي طالب:" أي أنا النذير المنذر لكم عذابا، " المبين " لكم ما جئتكم به من الإنذار والأعذار والوعد والوعيد"(٧).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وقل يا محمد للمشركين: إني أنا النذير الذي قد أبان إنذاره لكم من البلاء والعقاب أن ينزل بكم من الله على تماديكم في غيكم"(٨).

قال القرطبي:" في الكلام حذف، أي: إني أنا النذير المبين عذابا، فحذف المفعول، إذ كان الإنذار يدل عليه، كما قال في موضع آخر: {أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُود} [فصلت : ١٣]"(٩).

قال البيضاوي:أي: " أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا"(١٠).

وفي حكم الآية قولان:

أحدهما: انها محكمة. وهو الصحيح.

الثاني: أن معناها نسخ بآية السيف. لأن المعنى: اقتصر على الإنذار.

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٤٦/٤.
(٢) التفسير الميسر:٢٦٦.
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٢٧/٦-٣٩٢٨
(٤) تفسير ابن كثير:٥٤٦/٤.
(٥)ذكره ابن حزم في ناسخه (٣٤٣) وابن سلامة في ناسخه (٥٨) وابن هلال في ناسخه المخطوط ورقة (٢٧) (٢٧) .
(٦) نواسخ القرآن:١٦٣-١٦٤.
(٧) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٢٨/٦.
(٨) تفسير الطبري:١٤٢/١٧.
(٩) تفسير القرطبي:٥٧/١٠.
(١٠) تفسير البيضاوي:٢١٧/٣.

قال ابن حزم: "نسخ معناها ولفظها بآية السيف"[١].
وقال ابن سلامة: "نسخ معناها لا لفظها"[٢].
قال ابن الجوزي:" وهذا خيال فاسد، لأنه ليس في الآية ما يتضمن هذا، ثم هي خبر فلا وجه للنسخ"[٣].

فوائد الآيتين:[٨٨-٨٩]:

١- على الدعاة إلى الله أدت لا يلتفتوا إلى ما في أيدي الناس من مال ومتاع، فإن ما آتاهم الله من الإيمان والعلم والتقوى خير مما آتى أولئك من المال والمتاع.
٢- أمر الله نبيه ﷺ الزهد في الدنيا والتجافي عنها تحقيراً لشأنها وترغيباً لنبيه ﷺ فيما لديه من النعيم المقيم.
٣- استحباب لين الجانب للمؤمنين والعطف عليهم والرحمة لهم.

القرآن

{كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)} [الحجر : ٩٠ - ٩١]

التفسير:

كما أنزله الله على الذين قسَّموا القرآن، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه الآخر من اليهود والنصارى وكفار قريش، وهم الذين جعلوا القرآن أقسامًا وأجزاء.

قوله تعالى: {كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ}[الحجر: ٩٠]، أي:" أنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه، فانقسموا إلى قسمين"[٤].

قال أبو عبيدة:" أي: على الذين اقتسموا"[٥].

قال الفراء:" يقول: أنذرتكم ما أنزل بالمقتسمين"[٦].

قال مكي بن ابي طالب:" أي: : مثل العذاب الذي أنزلنا على المقتسمين"[٧].

قال الطبري:" يقول: مثل الذي أنزل الله تعالى من البلاء والعقاب على الذين اقتسموا القرآن"[٨].

قال الماوردي: "وقيل: إنهم العاص بن وائل وعبتة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث ، وأمية بن خلف ومنبه بن الحجاج"[٩].

قال البيضاوي:أي:" مثل العذاب الذي أنزلناه عليهم، فهو وصف لمفعول النذير أقيم مقامه"[١٠].

وفي قوله تعالى: {كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ}[الحجر: ٩٠]، وجوه:

أحدها : أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى اقتسموا القرآن فجعلوه أعضاءً أي أجزاءً فآمنوا ببعض منها وكفروا ببعض ، قاله ابن عباس[١١]، والحسن[١٢]، وسعيد بن جبير[١٣].

---

(١)في ناسخه :٣٤٣.
(٢) في ناسخه:٥٨.
(٣) نواسخ القرآن:٤٨٩/٢.
(٤) صفوة التفاسير:١٠٧/٢.
(٥) مجاز القرآن:٣٥٥/١.
(٦) معاني القرآن:٩١/٢.
(٧) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٢٨/٦.
(٨) تفسير الطبري:١٤٢/١٧.
(٩) النكت والعيون:١٧٣/٣.
(١٠) تفسير البيضاوي:٢١٧/٣.
(١١) انظر: تفسير الطبري:١٤٢/١٧-١٤٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:١٤٣/١٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:١٤٣/١٧.

وعن مجاهد:"{كما أنزلنا على المقتسمين}، قال: أهل الكتاب"[١].

الثاني : أنهم أهل الكتاب اقتسموا القرآن استهزاءً به ، فقال بعضهم : هذه السورة لي ، وهذه السورة لك ، فسموا مقتسمين ، قاله ابن عباس أيضا[٢]، وعكرمة[٣].

قال عكرمة:" كانوا يستهزءون، يقول هذا: لي سورة البقرة، ويقول هذا: لي سورة آل عمران"[٤].

الثالث : أنهم أهل الكتاب اقتسموا كتبهم ، فآمن بعضهم ببعضها، وآمن آخرون منهم بما كفر به غيرهم وكفروا بما آمن به غيرهم ، فسماهم الله تعالى مقتسمين ، قاله مجاهد[٥].

الرابع : أنهم قوم صالح تقاسموا على قتله ، فسموا مقتسمين ، كما قال تعالى: {قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَه} [النمل : ٤٩]، قاله ابن زيد[٦].

الخامس : أنهم رجال من أهل مكة بعثهم أهل مكة على عقابها[٧] أيام الحج فقالوا: إذا سألكم الناس عن النبي ﷺ فقولوا: كاهن. وقالوا لبعضهم قولوا: ساحر، ولبعضهم: يفرق بين الاثنين ولبعضهم قولوا: مجنون، فأنزل الله تبارك وتعالى بهم خزيا فماتوا أو خمسة منهم شر ميتة فسموا المقتسمين لأنهم اقتسموا طرق مكة. قاله الفراء[٨].

السادس : أنهم رهط خمسة من كفار قريش، قسموا كتاب الله، فجعلوا بعضه شعراً وبعضه كهانة وبعضه أساطير الأولين ، قاله قتادة[٩].

السابع : أنهم قوم أقسموا أيماناً تحالفوا عليها ، قاله الأخفش[١٠].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلم قومه الذين عضوا القرآن ففرقوه، أنه نذير لهم من سخط الله تعالى وعقوبته، أن يحل بهم على كفرهم ربهم، وتكذيبهم نبيهم، ما حل بالمقتسمين من قبلهم ومنهم، وجائز أن يكون عني بالمقتسمين: أهل الكتابين: التوراة والإنجيل، لأنهم اقتسموا كتاب الله، فأقرت اليهود ببعض التوراة وكذبت ببعضها، وكذبت بالإنجيل والفرقان، وأقرت النصارى ببعض الإنجيل وكذبت ببعضه وبالفرقان. وجائز أن يكون عني بذلك: المشركون من قريش، لأنهم اقتسموا القرآن، فسماه بعضهم شعرا، وبعض كهانة، وبعض أساطير الأولين. وجائز أن يكون عني به الفريقان، وممكن أن يكون عني به المقتسمون على صالح من قومه، فإذ لم يكن في التنزيل دلالة على أنه عني به أحد الفرق الثلاثة دون الآخرين، ولا في خبر عن الرسول ﷺ، ولا في فطرة عقل، وكان ظاهر الآية محتملا ما وصفت، وجب أن يكون مقتضيا بأن كل من اقتسم كتابا لله بتكذيب بعض وتصديق بعض، واقتسم على معصية الله ممن حل به عاجل نقمة الله في الدار الدنيا قبل نزول هذه الآية، فداخل في ذلك لأنهم لأشكالهم من أهل الكفر بالله، كانوا عبرة، وللمتعظين بهم منهم عظة"[١١].

قال ابن كثير:" قوله : { الْمُقْتَسِمِينَ } أي : المتحالفين ، أي : تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ، كما قال تعالى إخبارًا عن قوم صالح أنهم : { قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ } [النمل : ٤٦] أي : نقتلهم ليلا قال مجاهد : تقاسموا : تحالفوا. { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ } [النحل : ٣٨]{ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ }

---

(١) أخرجه الطبري:١٤٤/١٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:١٤٤/١٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري:١٤٤/١٧.
(٤) أخرجه الطبري:١٤٤/١٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري:١٤٤/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٤٥/١٧.
(٧)العقاب: جمع عقبة وهى المرقى فى الجبل أو الطريق فيه.
(٨) انظر: معاني القرآن:٩١/٢-٩٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري:١٤٤/١٧.
(١٠) انظر: النكت والعيون:١٧٣/٣.
(١١) تفسير الطبري:١٤٥/١٧.

[إبراهيم : ٤٤]{ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ } [الأعراف : ٤٩] فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه ، فسموا مقتسمين"[١].

قوله تعالى: { الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ }[الحجر: ٩١]، أي:" جعلوا القرآن أجزاءً متفرقة وقالوا فيه أقوالاً مختلفة"[٢].

وفي قوله تعالى: { الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ }[الحجر: ٩١]، وجوه من التفسير:

أحدها : يعني فرقاً، فجعلوا بعضه شعراً ، وبعضه سحراً ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين. قاله ابن عباس[٣]، ومجاهد[٤]، والضحاك[٥]، وقتادة[٦]، وعطاء[٧]، وابن زيد[٨].

قال الفراء:" يقول: فرقوه إذ جعلوه سحرا وكذبا وأساطير الأولين"[٩].

قال أبو عبيدة:" أي عضوه أعضاء، أي: فرّقوه فرقا، قال رؤبة[١٠]:

وليس دين الله بالمعضّى

يعني: بالمفرَّق"[١١].

قال الماوردي:" {عضين} جمع: عضو مأخوذ من عضَّيت الشيء تعضية إذا فرقته"[١٢].

قال مجاهد:" هم رهط من قريش، عضهوا كتاب الله، فزعم بعضهم أنه سحر، وزعم بعضهم أنه كهانة، وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين"[١٣].

قال الضحاك:" جعلوا كتابهم أعضاء كأعضاء الجزور، وذلك أنهم تقطعوه زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون، وهو قوله: {فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا}"[١٤].

عن عطاء :"{الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ}، قال: المشركون من قريش، عضُّوا القرآن فجعلوه أجزاء، فقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: مجنون، فذلك العِضُون"[١٥].

قال قتادة:" عضهوا كتاب الله، زعم بعضهم أنه سِحْر، وزعم بعضهم أنه شِعْر، وزعم بعضهم أنه كاهن"[١٦].

قال ابن زيد:" جعلوه أعضاء كما تُعَضَّى الشاة. قال بعضهم: كَهانة، وقال بعضهم: هو سحر، وقال بعضهم: شعر، وقال بعضهم:{أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا} .. الآية"[١٧].

الثاني : أن «العضين» جمع: عضه، وهو البهت، ومن قولهم : عضهتُ الرجل أعضهه عضهاً إذا بهتّه، لأنهم بهتوا كتاب الله تعالى فيما رموه به، قاله قتادة[١٨]. ومنه قول الشاعر[١٩]:

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٤٨/٤.
(٢) صفوة التفاسير:١٠٧/٢.
(٣) انظرك تفسير الطبري:١٤٦/١٧.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٥١):ص٢٢٧٣-٢٢٧٤.
(٥) انظرك تفسير الطبري:١٤٦/١٧.
(٦) انظرك تفسير الطبري:١٤٦/١٧.
(٧) انظرك تفسير الطبري:١٤٦/١٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:١٤٦/١٧-١٤٧.
(٩) معاني القرآن:٩٢/٢.
(١٠)ديوانه ٨١، والطبري ١٤/ ٤١، واللسان (عضا).
(١١) مجاز القرآن:٣٥٥/١.
(١٢) النكت والعيون:١٧٣/٣.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٥١):ص٢٢٧٣-٢٢٧٤.
(١٤) اخرجه الطبري:١٤٦/١٧.
(١٥) اخرجه الطبري:١٤٦/١٧.
(١٦) اخرجه الطبري:١٤٦/١٧.
(١٧) أخرجه الطبري:١٤٦/١٧-١٤٧.
(١٨) انظر: النكت والعيون:١٧٣/٣.
(١٩) لم اقف عليه، وانظر الشعؤ في: النكت والعيون:١٧٣/٣، وتفسير العز بن عبدالسلام:١٨٣/٢.

إن العضيهة ليستْ فعل أحرار

قال القرطبي:" المعنى: أكثروا البهت على القرآن ونوعوا الكذب فيه، فقالوا: سحر وأساطير الأولين، وأنه مفترى، إلى غير ذلك"(١).

الثالث : أن «العضين»: المستهزئون، لأنه لما ذكر في القرآن :«البعوض والذباب والنمل والعنكبوت»، قال أحدهم : أنا صاحب البعوض ، وقال آخر : أنا صاحب الذباب، وقال آخر : أنا صاحب النمل. وقال آخر : أنا صاحب العنكبوت ، استهزاء منهم بالقرآن ، قاله الشعبي والسدي .

الرابع : أنه عنى بالعضه: السحر ، لأنهم جعلوا القرآن سحراً ، قاله مجاهد(٢)، وعكرمة(٣)، قال قال الشاعر(٤):

لك من عضائهن زمزمة

يعني: من سحرهن .

قال مجاهد:" قريش فرقوا القرآن، قالوا: هو سحر"(٥).

قال عكرمة:" العضه: السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضهة"(٦).

وفي الحديث:« لعن الله العاضهة والمستعضهة»(٧)، قال الماوردي: "يعني: الساحرة والمستسحرة"(٨).

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يُعْلِم قوما عَضَهُوا القرآن أنه لهم نذير من عقوبة تنزل بهم بِعضْهِهِمْ إياه مثل ما أنزل بالمقتسمين، وكان عَضْهُهُم إياه: قذفهموه بالباطل، وقيلهم إنه شعر وسحر، وما أشبه ذلك.

وإنما قلنا إن ذلك أولى التأويلات به لدلالة ما قبله من ابتداء السورة وما بعده، وذلك قوله {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ}، على صحة ما قلنا، وإنه إنما عُنِيَ بقوله {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} مشركي قومه، وإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أنه لم يكن في مشركي قومه من يؤمن ببعض القرآن ويكفر ببعض، بل إنما كان قومه في أمره على أحد معنيين: إما مؤمن بجميعه، وإما كافر بجميعه. وإذ كان ذلك كذلك، فالصحيح من القول في معنى قوله {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} الذين زعموا أنهم عَضَهوه، فقال بعضهم: هو سحر، وقال بعضهم: هو شعر، وقال بعضهم: هو كهانة، وما أشبه ذلك من القول، أو عَضَّهُوه ففرقوه، بنحو ذلك من القول، وإذا كان ذلك معناه احتمل قوله عِضِين، أن يكون جمع: عِضة، واحتمل أن يكون جمع عُضْو، لأن معنى التعضية: التفريق، كما تُعَضى الجَزُور والشاة، فتفرق أعضاء. والعَضْه: البَهْت، ورميه بالباطل من القول، فهما متقاربان في المعنى"(٩).

وفي اشتقاق العضين وجهان :

أحدهما : أنه مشتق من: «الأعضاء»، وهو قول عبيدة(١٠).

الثاني : أنه مشتق من «العضه»، وهو السحر ، قاله عكرمة(١)، وهو اختيار الفراء(٢).

---

(١) تفسير القرطبي:٥٩/١٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري:١٤٨/١٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري:١٤٨/١٧.

(٤) الشعر من شواهد الماوردي في النكت والعيون:١٧٣/٣.

(٥) أخرجه الطبري:١٤٨/١٧.

(٦) أخرجه الطبري:١٤٨/١٧.

(٧)ضعيف. أخرجه ابن عدي في «الكامل» ٣/ ٣٣٩ من حديث ابن عباس وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، وكلاهما ضعيف. وقال الحافظ في «تخريج الكشاف» ٢/ ٥٩٠: وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية ابن جريج عن عطاء اه. وهذا مرسل، فهو ضعيف.

(٨) النكت والعيون:١٧٣/٣.

(٩) تفسير الطبري:١٤٩/١٧.

(١٠) انظر: مجاز القرآن:٣٥٥/١.

قال الفراء:" «العضون» في كلام العرب: السحر بعينه. ويقال: عضوه، أي: فرقوه كما تعضى الشاة والجزور. وواحدة الـ«عضين»: عضة"[٣].

القرآن

{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)} [الحجر : ٩٢ - ٩٣]

التفسير:

فوربك لنحاسبنَّهم يوم القيامة ولنجزينهم أجمعين، عن تقسيمهم للقرآن بافتراءاتهم، وتحريفه وتبديله، وغير ذلك مما كانوا يعملونه من عبادة الأوثان، ومن المعاصي والآثام.

قوله تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}[الحجر: ٩٢]، أي:" فأقسمُ بربك يا محمد لنسألنَّ الخلائق أجميعن"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فوربك يا محمد لنسألن هؤلاء الذين جعلوا القرآن في الدنيا عضين في الآخرة"[٥].

عن ابن عمر[٦]، وأنس[٧]، ومجاهد[٨]: قوله "{فوربك لنسألنهم أجمعين}، عن شهادة أن لا اله إلا الله".

قال ابن عباس:" لا يسألهم هل عملهم كذا وكذا لأنه أعلم منهم بذلك، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا"[٩].

قال عبد الله: "والذي لا إله غيره، ما منكم أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم، ماذا غرك مني بي ابن آدم؟ ماذا عملت فيما علمت ابن آدم؟ ماذا أجبت المرسلين؟"[١٠].

وفي قوله تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}[الحجر: ٩٢]، وجهان[١١]:

أحدهما:أن يكون راجعا إلى {المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين}، لأن عود الضمير إلى الأقرب أولى، ويكون التقدير أنه تعالى أقسم بنفسه أن يسأل هؤلاء المقتسمين عما كانوا يقولونه من اقتسام القرآن وعن سائر المعاصي.

والثاني: أن يكون راجعا إلى جميع المكلفين، لأن ذكرهم قد تقدم في قوله: {وقل إني أنا النذير المبين} [الحجر: ٨٩] أي: لجميع الخلق وقد تقدم ذكر المؤمنين وذكر الكافرين، فيعود قوله: {فو ربك لنسئلنهم أجمعين} على الكل.

قال الرازي: "ولا معنى لقول من يقول إن السؤال إنما يكون عن الكفر أو عن الإيمان، بل السؤال واقع عنهما وعن جميع الأعمال، لأن اللفظ عام فيتناول الكل"[١٢].

قوله تعالى:{عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الحجر: ٩٣]، أي:" عما كانوا يعملون في الدنيا"[١٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري:١٤٨/١٧.
(٢) معاني القرآن:٩٢/٢.
(٣) معاني القرآن:٩٢/٢.
(٤) صفوة التفاسير:٢/!٠٧.
(٥) تفسير الطبري:١٤٩/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٥٠/١٧.
(٧) أخرجه الطبري:١٥٠/١٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:١٥٠/١٧.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٥٣):ص٢٢٧٤/٧.
(١٠) اخرجه الطبري:١٥٠/١٧.
(١١) انظر: مفاتيح الغيب:١٦٤/١٩.
(١٢) مفاتيح الغيب:١٦٤/١٩.
(١٣) صفوة التفاسير:٢/!٠٧.

قال الطبري:" عما كانوا يعملون في الدنيا، فيما أمرناهم به، وفيما بعثناك به إليهم من آي كتابي الذي أنزلته إليهم، وفيما دعوناهم إليه من الإقرار به ومن توحيدي والبراءة من الأنداد والأوثان"[١].

عن أنس، عن النبي صلي الله عليه وسلم:"{فو ربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون}، قال: يسأل العباد كلهم يوم القيامة عن خلتين: عما كانوا يعبدون، وعما أجابوا به المرسلين"[٢].

عن معاذ بن جبل قال: "قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ إن المؤمن ليسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعه، فلا ألفينك يوم القيامة، واحد أسعد بما أتي الله منك»" [٣].

فوائد الآيات:[٩٠-٩٣]:

١- حرمة الاختلاف في كتاب الله تعالى على نحو ما اختلف فيه أهل الكتاب.

٢- الترهيب والزجر لهؤلاء من الإقامة على هذه الأفعال القبيحة.

القرآن

{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)} [الحجر : ٩٤]

التفسير:

فاجهر بدعوة الحق التي أمرك الله بها، ولا تبال بالمشركين، فقد برَّأك الله ممَّا يقولون.

قوله تعالى:{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} [الحجر : ٩٤]، أي:" فاجهر بتبليغ أمر ربك"[٤].

قال الأخفش:" أي: اصدع بالأمر"[٥].

قال القرطبي:" المعنى: اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله، فإن الله كافيك من أذاك"[٦].

أذاك"[٦].

قال ابن عباس:" أنزل الله تعالى ذكره: {فاصدع بما تؤمر}، فإنه أمر من الله تعالى ذكره نبيه ﷺ بتبليغ رسالته قومه، وجميع من أرسل إليه"[٧].

عن ابن زيد:" ابن زيد، قوله :"{ فاصدع بما تؤمر}، قال: بالقرآن الذي يوحى إليه أن يبلغهم إياه"[٨].

قال عبد الله بن عبيدة: "مازال النبي مستخفيا حتى نزلت :{فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين}، فخرج هو وأصحابه"[٩].

وفي قوله تعالى:{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} [الحجر : ٩٤]، وجوه من التفسير:

أحدها : فامضِ بما تؤمر ، قاله ابن عباس[١٠].

الثاني : معناه: فاظهر بما تُؤمر ، قاله الكلبي[١١]. قال الشاعر[١٢]:

ومَن صادعٌ بالحق يعدك ناطقٌ ... بتقوى ومَن إن قيل بالجوْر عيّرا

الثالث : يعني: إجهر بالقرآن في الصلاة ، قاله مجاهد[١٣].

---

(١) تفسير الطبري:١٤٩/١٧.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٥٢):ص٢٢٧٤/٧.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٥٠):ص٢٢٧٣/٧.
(٤) صفوة التفاسير:١٠٧/٢.
(٥) معاني القرآن:٥١١/٢.
(٦) تفسير القرطبي:٦٢/١٠.
(٧) أخرجه الطبري:١٥١/١٧.
(٨) أخرجه الطبري:١٥٢/١٧.
(٩) أخرجه الطبري:١٥٢/١٧.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٥٤):ص٢٢٧٤/٧.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٧٤/٣.
(١٢) البيت غير منسوب في النكت والعيون:١٧٤/٣.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٥٦):ص٢٢٧٤/٧، وتفسير الطبري:١٥١/١٧.

الرابع : يعني: أعلن بما يوحى إليك حتى تبلغهم ، قاله ابن زيد(١).
الخامس : معناه: افرق بين الحق والباطل ، قاله ابن عيسى(٢).
السادس : معناه: فرق القول فيهم مجتمعين وفرادى، حكاه النقاش(٣).
وقال رؤية : "ما في القرآن أعْرَبُ من قوله {فاصدع بما تؤمر} {وأعرض عن الجاهلين}"(٤).
السابع: معناه: افرق وامضه، قاله أبو عبيدة(٥)، واستشهد بقول أبي ذؤيب(٦):
وكأنهن ربابة وكأنه يسر ... يفيض على القداح ويصدع
أي: يفرّق على القداح، أي: بالقداح(٧).
قوله تعالى:{وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر : ٩٤]، أي:" ولا تلتفت إلى ما يقول المشركون"(٨).
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبييه ﷺ: بلغ قومك ما أرسلت به، واكفف عن حرب المشركين بالله وقتالهم. وذلك قيل أن يفرض عليه جهادهم، ثم نسخ ذلك بقوله {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}"(٩).
وفي قوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر : ٩٤]، ثلاثة وجوه:
أحدها : أنه منسوخ بقوله تعالى: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [التوبة : ٥]. قاله ابن عباس(١٠)، والضحاك(١١)، وسفيان بن عيينة(١٢)، وبه قال الطبري(١٣).
وذكر هذا القول النحاس(١٤)، وأبو محمد مكي بن أبي طالب(١٥) بدون إسناد، عن علي عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر المنثور معزيا إلى أبي داود في ناسخه، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس(١٦).
وفي رواية علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما :"{وأعرض عن المشركين} قال: نسختها: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم}(١٧)"(١٨).
وفي رواية علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "أما قوله: {وأعرض عن المشركين} ونحوه، مما أمر الله المؤمنين بالعفو عن المشركين، فإنه نسخ ذلك قوله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم}(١٩)"(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري:١٥٢/١٧.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٧٤/٣.
(٣) انظر: النكت والعيون:١٧٤/٣.
(٤) النكت والعيون:١٧٤/٣. وقال السيوطي:" ذكر أبو عبيدة عن رؤبة: ما في القرآن أعرب من قوله: {فاصدع بما تؤمر}". الإتقان:١٥٥/٤
(٥) انظر: مجاز القرآن:٣٥٥/١.
(٦)ديوان الهذليين ١/ ٦، والطبري ١٤/ ٤٣، والاقتضاب ٤٥٠، والقرطبي ١٠/ ٦١، واللسان والتاج (ريب، صدع، يسر).
(٧) انظر: مجاز القرآن:٣٥٥/١.
(٨) صفوة التفاسير:١٠٧/٢.
(٩) تفسير الطبري:١٥٣/١٧.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٥٥):ص٢٢٧٤/٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري:١٢٨/١٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:١٢٨/١٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:١٥٣/١٧.
(١٤)انظر: الناسخ والمنسوخ: ١٧٩.
(١٥) انظر: الإيضاح: ٢٨٥.
(١٦) انظر: الدر المنثور: ٤/ ١٠٦.
(١٧)[التوبة : ٥].
(١٨) أخرجه ابن الجوزي في نواسخ القرآن:٤٩٠/٢.
(١٩)[التوبة : ٥].

وروي عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما :"{وأعرض عن المشركين}، قال: هذا من المنسوخ"[٢].

عن الضحاك، في قوله :{فاصفح الصفح الجميل} ، {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}[٣]، {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين}[٤]،] و {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ الله}[٥]، وهذا النحو كله في القرآن أمر الله به نبيه ﷺ أن يكون ذلك منه، حتى أمره بالقتال، ذلك كله. فقال (وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد}"[٦].

وعن سفيان بن عيينة، في قوله: "{فاصفح الصفح الجميل}، وقوله : {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين}[٧]، قال: كان هذا قبل أن ينزل الجهاد. فلما أمر بالجهاد قاتلهم فقال: «أنا نبي الرحمة ونبي الملحمة، وبعثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة»"[٨].

الثاني : أعرض عن الاهتمام باستهزائهم[٩].

الثالث : معناه: بالاستهانة بهم ، قاله ابن بحر[١٠].

القرآن

{إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)} [الحجر : ٩٥]

التفسير:

إِنَّا كَفَيْنَاك المستهزئين الساخرين من زعماء قريش.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنا كفيناك المستهزئين يا محمد، الذين يستهزئون بك ويسخرون منك، فاصدع بأمر الله، ولا تخف شيئا سوى الله، فإن الله كافيك من ناصبك وآذاك كما كفاك المستهزئين. وكان رؤساء المستهزئين قوما من قريش معروفين"[١١].

قال ابن عاشور:" جملة {إنا كفيناك المستهزئين}، تعليل للأمر بالإعلان بما أمر به، فإن اختفاء النبيء ﷺ بدار الأرقم كان بأمر من الله تعالى لحكمة علمها الله أهمها تعدد الداخلين في الإسلام في تلك المدة بحيث يغتاظ المشركون من وفرة الداخلين في الدين مع أن دعوته مخفية، ثم إن الله أمر رسوله- عليه الصلاة والسلام- بإعلان دعوته لحكمة أعلى تهيأ اعتبارها في علمه تعالى، والتعبير عنهم بوصف «المستهزئين» إيماء إلى أنه كفاه استهزاءهم وهو أقل أنواع الأذى، فكفايته ما هو أشد من الاستهزاء من الأذى مفهوم بطريق الأحرى، والتعريف في المستهزئين للجنس فيفيد العموم، أي كفيناك كل مستهزء. وفي التعبير عنهم بهذا الوصف إيماء إلى أن قصارى ما يؤذونه به الاستهزاء، كقوله تعالى: {لن يضروكم إلا أذى} [سورة آل عمران: ١١١] ، فقد صرفهم الله عن أن يؤذوا النبيء ﷺ بغير الاستهزاء. وذلك لطف من الله برسوله ﷺ. ومعنى الكفاية تولي الكافي مهم المكفي، فالكافي هو متولي عمل عن غيره لأنه أقدر عليه أو لأنه يبتغي راحة المكفى"[١٢].

عن مجاهد :{إنا كفيناك المستهزئين}، هم من قريش"[١٣].

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٧٣٦).:ص٣٢/١٢

(٢) أخرجه ابن الجوزي في نواسخ القرآن:٤٩٠/٢، وأخرجه الطبري بهذا الإسناد الذي هو مسلسل بالضعفاء عن ابن عباس.

(٣)[الزخرف : ٨٩].

(٤)[الأنعام : ١٠٦/ الحجر: ٩٤.

(٥)[الجاثية : ١٤].

(٦) أخرجه الطبري:١٢٨/١٧.

(٧)[الأنعام : ١٠٦/ الحجر: ٩٤.

(٨) أخرجه الطبري:١٢٨/١٧.

(٩) انظر: النكت والعيون:١٧٥/٣.

(١٠) انظر: النكت والعيون:١٧٥/٣.

(١١) تفسير الطبري:١٥٣/١٧.

(١٢) التحرير والتنوير:٨٩/١٤.

(١٣) أخرجه الطبري:١٥٨/١٧.

قال ابن عباس: "كان رأسهم الوليد بن المغيرة، وهو الذي جمعهم"[١].
وفي عددهم ثلاثة أقوال:
أحدها: أنهم كانوا سبعة، قاله الشعبي[٢]،ابن أبي بَزَّة [٣].
وعدهم ابن أبي بزة، فقال:" العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، والحارث بن عدي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث- وهو ابن خال رسول الله ﷺ- [٤]، وأصرم وبعكك، وبعكك، ابنا عبد الحارث بن السباق"[٥].
وكذلك عدهم مقاتل، إلا أنه قال مكان الحارث بن عدي: "الحارث بن قيس السهمي"[٦]، السهمي"[٦]، وقال: "أصرم وبعكك ابنا الحجاج بن السباق"[٧].
الثاني: أنهم كانوا ثمانية، وكلهم مات في بدر. وهذا القول رواه عمرو بن دينار عن ابن عباس[٨].
والثالث: أنهم كانوا خمسة: الوليد بن المغيرة، وأبو زمعة بن عبد الأسود، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس، قاله ابن عباس[٩]، و عُروة بن الزُّبير[١٠]، وسعيد وسعيد بن جبير[١١]، وعكرمة[١٢]، وقتادة[١٣]، ومقسم[١٤].
واسم أبي زمعة: الأسود بن المطلب. وكذلك ذكرهم سعيد بن جبير، إلا أنه قال مكان الحارث بن قيس، الحارث ابن عيطلة[١٥].
قال الزهري: كانت أمه تسمى عيطلة وأبوه قيس"[١٦]
قال ابن الجوزي:" فهو واحد، وإنما ذكرت ذلك، لئلا يظن أنه غيره"[١٧].
وفي رواية عن ابن عباس: مكان الحارث بن قيس: عدي بن قيس [١٨].
أخرج أبو جعفر الطبري بسنده عن سلمة عن محمد، قال: "كان عظماء المستهزئين كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر من قومه، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، من بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الأسود بن المطلب أبو زمعة، وكان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: اللهم أعم بصره، وأثكله ولده، ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد بن سهم، ومن خزاعة: الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن ملكان، فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى ذكره {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك

---

(١) أخرجه الطبري:١٥٤/١٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:١٥٦/١٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري:١٥٨/١٧.
(٤) إلى هنا أخرجه الطبري:١٥٨/١٧.
(٥) زاد المسير:٥٤٦/٢.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٣٩/٢.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٤٠/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري:١٥٩/١٧.
(٩) انظر: زاد المسير:٥٤٦/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:١٥٣/١٧-١٥٤.
(١١) انظر: تفسير الطبري:١٥٥/١٧.
(١٢) كانظر: تفسير الطبري:١٥٦/١٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:١٥٧/١٧.
(١٤) انظر: تفسير الطبري:١٥٧/١٧.
(١٥) أخرجه الطبري:١٥٥/١٧.
(١٦) اخرجه الطبري:١٥٦/١٧.
(١٧) زاد المسير:٥٤٦/٢.
(١٨) انظر: زاد المسير:٥٤٦/٢.

المستهزئين} ... إلى قوله {فسوف يعلمون} قال محمد بن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء، أن جبرئيل أتى رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت فقام، وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به الأسود بن المطلب، فرمى في وجهه بورقة خضراء، فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه، فمات منه حبنا، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله كان أصابه قبل ذلك بسنتين، وهو يجر سبله، يعني إزاره، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلا له، فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش وليس بشيء، فانتقض به فقتله، ومر به العاص بن وائل السهمي، فأشار إلى أخمص رجله، فخرج على حمار له يريد الطائف، فوقص على شبرقة، فدخل في أخمص رجله منها شوكة، فقتلته.

قال أبو جعفر: الشبرقة: المعروف بالحسك، منه حبنا والحبن: الماء الأصفر، ومر به الحارث بن الطلاطلة، فأشار إلى رأسه، فامتخط قيحا فقتله"(١).

عن قتادة، وعن مقسم :"{إنا كفيناك المستهزئين}، قال: هم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، مروا رجلا رجلا على النبي ﷺ ومعه جبرئيل، فإذا مر به رجل منهم قال جبرئيل: كيف تجد هذا؟ فيقول: بئس عدو الله، فيقول جبرئيل: كفاكه، فأما الوليد بن المغيرة، فتردى، فتعلق سهم بردائه، فذهب يجلس فقطع أكحله فنزف فمات، وأما الأسود بن عبد يغوث، فأتي بغصن فيه شوك، فضرب به وجهه، فسالت حدقتاه على وجهه، فكان يقول: دعوت على محمد دعوة، ودعا علي دعوة، فاستجيب لي، واستجيب له، دعا علي أن أعمى فعميت: ودعوت عليه أن يكون وحيدا فريدا في أهل يثرب فكان كذلك، وأما العاص بن وائل، فوطئ على شوكة فتساقط لحمه عن عظامه حتى هلك، وأما الأسود بن المطلب وعدي بن قيس، فإن أحدهما قام من الليل وهو ظمآن، فشرب ماء من جرة، فلم يزل يشرب حتى انفتق بطنه فمات، وأما الآخر فلدغته حية فمات"(٢).

وأخرج الطبري بسنده عن قتادة: "{كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين}، هم رهط خمسة من قريش عضهوا القرآن، زعم بعضهم أنه سحر وزعم بعضهم أنه شعر وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين: أما أحدهم: فالأسود بن عبد يغوث، أتى على نبي الله ﷺ وهو عند البيت، فقال له الملك: كيف تجد هذا؟ قال: بئس عبد الله على أنه خالي، قال: كفيناك، ثم أتى عليه الوليد بن المغيرة، فقال له الملك: كيف تجد هذا؟ قال: بئس عبد الله، قال: كفيناك، ثم أتى عليه عدي بن قيس أخو بني سهم، فقال الملك: كيف تجد هذا؟ قال: بئس عبد الله، قال: كفيناك، ثم أتى عليه الأسود بن المطلب، فقال له الملك: كيف تجد هذا؟ قال: بئس عبد الله، قال: كفيناك، ثم أتى عليه العاص بن وائل، فقال له الملك: كيف تجد هذا؟ قال: بئس عبد الله، قال: كفيناك، فأما الأسود بن عبد يغوث، فأتي بغصن من شوك فضرب به وجهه حتى سالت حدقتاه على وجهه، فكان بعد ذلك يقول: دعا علي محمد بدعوة ودعوت عليه بأخرى، فاستجاب الله له في واستجاب الله لي فيه، دعا علي أن أثكل وأن أعمى، فكان كذلك، ودعوت عليه أن يصير شريدا طريدا، فطردناه مع يهود يثرب وسراق الحجيج، وكان كذلك، وأما الوليد بن المغيرة، فذهب يرتدي، فتعلق بردائه سهم غرب (٣) فأصاب أكحله أو أبجله، فأتي في كل ذلك، فمات، وأما العاص بن وائل، فوطئ على شوكة، فأتي في ذلك، جعل يتساقط لحمه عضوا عضوا فمات وهو كذلك، وأما الأسود بن المطلب وعدي بن قيس، فلا أدري ما أصابهما.

ذكر لنا أن نبي الله ﷺ يوم بدر، نهى أصحابه عن قتل أبي البختري، وقال: خذوه أخذا، فإنه قد كان له بلاء، فقال له أصحاب النبي ﷺ: يا أبا البختري إنا قد نهينا عن قتلك فهلم إلى الأمنة والأمان، فقال أبو البختري: وابن أخي معي؟ فقالوا: لم نؤمر إلا بك، فراودوه ثلاث

---

(١) تفسير الطبري:١٧/١٥٣-١٥٤.
(٢) أخرجه الطبري:١٧/١٥٧.
(٣)سهم غرب، بسكون الراء وفتحها: لا يدري من أين أتاه (اللسان).

مرات، فأبى إلا وابن أخيه معه، قال: فأغلظ للنبي ﷺ الكلام، فحمل عليه رجل من القوم فطعنه فقتله، فجاء قاتله وكأنما على ظهره جبل أوثقه مخافة أن يلومه النبي ﷺ، فلما أخبر بقوله: قال النبي ﷺ: أبعده الله وأسحقه، وهم المستهزئون الذين قال الله: {إنا كفيناك المستهزئين}، وهم الخمسة الذين قيل فيهم: {إنا كفيناك المستهزئين}، استهزءوا بكتاب الله، ونبيه ﷺ"(١).

قال سعيد بن جبير:" كان المستهزئين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأبو زمعة والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن عيطلة. فأتاه جبرئيل، فأومأ بأصبعه إلى رأس الوليد، فقال: ما صنعت شيئا، قال: كفيت، وأومأ بيده إلى أخمص العاص، فقال النبي ﷺ: ما صنعت شيئا، فقال: كفيت، وأومأ بيده إلى عين أبي زمعة، فقال النبي ﷺ: ما صنعت شيئا، قال: كفيت. وأومأ بأصبعه إلى رأس الأسود، فقال النبي ﷺ: دع لي خالي. فقال: كفيت، وأومأ بأصبعه إلى بطن الحارث، فقال النبي ﷺ: ما صنعت شيئا، فقال كفيت. قال: فمر الوليد على قين لخزاعة وهو يجر ثيابه، فتعلقت بثوبه بروة أو شررة (٢) وبين يديه نساء، فجعل يستحي أن يطأ من ينتزعها، وجعلت تضرب ساقه فخدشته، فلم يزل مريضا حتى مات، وركب العاص بن وائل بغلة له بيضاء إلى حاجة له بأسفل مكة، فذهب ينزل، فوضع أخمص قدمه على شبرقة، فحكت رجله، فلم يزل يحكها حتى مات، وعمي أبو زمعة، وأخذت الأكلة في رأس الأسود، وأخذ الحارث الماء في بطنه"(٣).

عن عامر: "{إنا كفيناك المستهزئين}، قال: كلهم من قريش: العاص بن وائل، فكفي بأنه أصابه صداع في رأسه، فسال دماغه حتى لا يتكلم إلا من تحت أنفه، والحارث بن عيطلة بصفر في بطنه، وابن الأسود فكفي بالجدري، والوليد بأن رجلا ذهب ليصلح سهما له، فوقعت شظية فوطئ عليها، وعبد يغوث فكفي بالعمي، ذهب بصره"(٤).

القرآن

{الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦)} [الحجر : ٩٦]

التفسير:

الذين أشركوا مع الله غيره من الأوثان والأصنام، سوف يعلمون عاقبة أمرهم في الدارين.

قوله تعالى:{الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} [الحجر : ٩٦]، أي:" الذين اتخذوا شريكًا مع الله من الأوثان وغيرها"(٥).

قال الشوكاني:" وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال: {الذين يجعلون مع الله إلها آخر}، فلم يكن ذنبهم مجرد الاستهزاء، بل لهم ذنب آخر وهو الشرك بالله سبحانه"(٦).

قال القاسمي:" وصفهم بذلك، تسلية له عليه الصلاة والسلام. وتهوينا للخطب عليه، بأنهم أصحاب تلك الجريمة العظمى، التي هي أكبر الكبائر، التي سيخذلون بسببها"(٧).

قال السعدي: " ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله، فإنهم أيضا يؤذون الله ويجعلون معه {إلها آخر} وهو ربهم وخالقهم ومدبرهم"(٨).

قوله تعالى:{فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر : ٩٦]، أي:" فسوف يعلمون عاقبة عملهم في الدنيا والآخرة"(١).

---

(١) تفسير الطبري:١٧/١٥٧-١٥٨.

(٢)البروة: لغة في البرة، وهي الحلقة من صفر ونحوه، يريد بها ما يتطاير من الحديد عند الطرق بالمطارق، والشررة: واحدة الشرر، وفي الأصل: شرة، ولا معنى له هنا.

(٣) أخرجه الطبري:١٧/١٥٥.

(٤) اخرجه الطبري:١٧/١٥٦.

(٥) التفسير الميسر:٢٦٧.

(٦) فتح القدير:٣/١٧٣.

(٧) محاسن التأويل:٦/٣٤٦.

(٨) تفسير السعدي:٤٣٥.

قال السعدي: أي: " غب أفعالهم إذا وردوا القيامة"[2].
قال النسفي:أي:" عاقبة أمرهم يوم القيامة"[3].
قال الخازن:" يعني: إذا نزل بهم العذاب، ففيه وعيد وتهديد"[4].
قال الشوكاني:" ثم توعدهم فقال: {فسوف يعلمون} كيف عاقبتهم في الآخرة وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه"[5].
فوائد الآيات:[٩٤-٩٦]
١- مشروعية الجهر بالحق وبيانه لاسيما إذا لم يكن هناك اضطهاد.

القرآن
{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧)} [الحجر : ٩٧]
التفسير:
ولقد نعلم بانقباض صدرك -أيها الرسول-؛ بسبب ما يقوله المشركون فيك وفي دعوتك.
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولقد نعلم يا محمد أنك يضيق صدرك بما يقول هؤلاء المشركون من قومك من تكذيبهم إياك واستهزائهم بك وبما جئتهم به، وأن ذلك يُحْرِجك"[6].
قال الماوردي:" يعني: من الاستهزاء ، وقيل من الكذب بالحق"[7].
قال الخازن:" يعني: بسبب ما يقولون، وهو ما كانوا يسمعونه من الاستهزاء به، والقول الفاحش والجبلة البشرية تأبى ذلك فيحصل عند سماع ذلك ضيق الصدر"[8].
قال السعدي: أي: [بما يقولون]" لك من التكذيب والاستهزاء، فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقون، ولكن الله يمهلهم ولا يهملهم"[9].
قال الشوكاني:" ذكر تسلية أخرى لرسول الله ﷺ بعد التسلية الأولى بكفايته شرهم ودفعه لمكرهم فقال: {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون}، من الأقوال الكفرية المتضمنة للطعن على رسول الله ﷺ بالسحر والجنون والكهان والكذب، وقد كان يحصل ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقتضى الجبلة البشرية والمزاج الإنساني"[10].

القرآن
{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨)} [الحجر : ٩٨]
التفسير:
فافزع إلى ربك عند ضيق صدرك، وسَبِّح بحمده شاكرًا له مثنيا عليه، وكن من المصلِّين لله العابدين له، فإن ذلك يكفيك ما أهمَّك.
قال الطبري:" يقول: فافزع فيما نابك من أمر تكرهه منهم إلى الشكر لله والثناء عليه والصلاة، يكفك الله من ذلك ما أهمّك، وهذا نحو الخبر الذي رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه كان «إذا حَزَبَه أمر فَزِع إلى الصلاة»[11]"[1].

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٧.
(٢) تفسير السعدي:٤٣٥.
(٣) تفسير النسفي:٢٠٠/٢.
(٤) تفسير الخازي:٦٥/٣.
(٥) فتح القدير:١٧٣/٣.
(٦) تفسير الطبري:١٥٩/١٧.
(٧) النكت والعيون:١٧٥/٣.
(٨) تفسير الخازي:٦٥/٣.
(٩) تفسير السعدي:٤٣٥.
(١٠) فتح القدير:١٧٣/٣.
(١١)الحديث: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى "».

قال الخازن:" أمره بالتسبيح والعبادة"[٢].

قال الشوكاني:" أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال: فسبح بحمد ربك أي: متلبسا بحمده أي: افعل التسبيح المتلبس بالحمد"[٣].

قال السعدي:" أي: أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه ويعينك على أمورك"[٤].

قال الشوكاني:" أي: المصلين، فإنك إذا فعلت ذلك كشف الله همك وأذهب غمك وشرح صدرك"[٥].

قال القرطبي:" أي: فافزع إلى الصلاة، فهي غاية التسبيح ونهاية التقديس. وذلك تفسير لقوله: {وكن من الساجدين}، لا خفاء أن غاية القرب في الصلاة حال السجود، كما قال عليه السلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأخلصوا الدعاء»[٦]. ولذلك خص السجود بالذكر"[٧].

قال ابن العربي:" وقد ظن بعض الناس أن المراد به ههنا الأمر بالسجود نفسه، فيرى هذا الموضع محل سجود في القرآن، وقد شاهدت الإمام بمحراب زكريا من البيت المقدس طهره الله يسجد في هذا الموضع عند قراءته له في تراويح رمضان، وسجدت معه فيها، ولم يره جماهير العلماء"[٨].

أخرجه أحمد(٢٣٢٩٩):ص٣٣٠/٣٨. إسناده ضعيف، فيه محمد بن عبد الله، ويقال: محمد بن عبيد أبو قدامة تفرد بالرواية عنه عكرمة بن عمار اليمامي، ولم يوثقه أحد، فهو مجهول.
أخرجه أبو داود (١٣١٩) ، والطبري في "تفسيره" ٢٦٠/١، والخطيب البغدادي في "تاريخه" ٢٧٤/٦ من طرق عن يحيى بن زكريا، بهذا الإسناد.
وأخرجه الطبري ٢٦٠/١ من طريق وهب بن جرير، عن عكرمة، به.
وأخرجه أبو عوانة (٦٨٤٢) ، والبيهقي في "الدلائل" ٤٥١/٣-٤٥٢ من طريق أبي حذيفة موسى بن مسعود، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبيد أبي قدامة، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة، قال: ذكر حذيفة مشاهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم فذكر قصة طويلة، هذا الحديث في أثنائها.
وأخرجه ابن قانع في "معجم الصحابة" ١٨٩/٢ من طريق سريج بن يونس، عن يحيى بن زكريا، عن عكرمة، عن محمد بن عبد الله، عن عبد العزيز أخي حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر فيه حذيفة.
وأخرجه كذلك ابن قانع ١٨٩/٢ من طريق ابن جريج، عن عكرمة، عن محمد بن عبيد بن أبي قدامة، عن عبد العزيز بن اليمان، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه ... فذكره.
وفي حديث صهيب فيما حكاه النبي صلى الله عليه وسلم عن نبي من الأنبياء السابقين: فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة. سلف في مسنده بسند صحيح برقم (١٨٩٣٧) .
قوله: "حزبه" بموحدة في آخره، أي: نزل به أمر شديد، أمر أتعبه وأرهقه وفكر فيه كثيرا. وبذلك يعلمنا رسول الله ألا نقصر رؤيتنا على رأينا وحده، ولكن لنلجأ إلى الله. فنهزم الأمر الذي يحزبنا ولا نقدر عليه بأن نقيم مع الله حزبا بالصلاة.

.
(١) تفسير الطبري:١٥٩/١٧.
(٢) تفسير الخازي:٦٥/٣.
(٣) فتح القدير:١٧٣/٣.
(٤) تفسير السعدي:٤٣٥.
(٥) فتح القدير:١٧٣/٣.
(٦) الحديث:« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء ».
أخرجه مسلم (٣٥٠/١، رقم ٤٨٢) ، وأبو داود (٢٣١/١، رقم ٨٧٥) ، والنسائى (٢٢٦/٢، رقم ١١٣٧) .
وأخرجه أيضا: أحمد (٤٢١/٢، رقم ٩٤٤٢) ، وابن حبان (٢٥٤/٥، رقم ١٩٢٨) ، والبيهقى (١١٠/٢، رقم ٢٥١٧).
(٧) تفسير القرطبي:٦٣/١٠.
(٨) أحكام القرآ،:١١٥/٣.

وقد ذكر أبو بكر النقاش :"أن هاهنا سجدة عند أبي حذيفة ويمان بن رئاب، ورأى أنها واجبة"(١).

فوائد الآيتين:[٩٧-٩٨]:

١- الاستعانة بالله تعالى وحده في نيل المطلوب ودفع المرهوب.

٢- أنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله - ﷺ - وبما جاء به إلا أهلكه الله وقتَلَه شر قتلة.

٣- أنه ﷺ كان يضيق صدره بإيذاء القوم وشرهم كما أخبر الله تعالى: {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون} فيقص الله قصة من قصص الأنبياء مناسبة لحاله في ذلك الوقت لتثبيت قلبه، كما أخبر الله تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود : ١٢٠].

٤- مشروعية صلاة الحاجة فمن حزبه أمر أو ضاق به فليصل صلاة يفرج الله تعالى بها ما به أو يقضي حاجته إن شاء وهو العليم الحكيم.

٥- فضل التسبيح بجملة: سبحان الله وبحمده ومن قالها مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر، فمن الأحاديث في فضل التسبيح والذكر:

- «كلمات من ذكرهن مائة مرة دبر كل صلاة الله أكبر سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا حول ولا قوة إلا بالله لو كانت خطاياه مثل زبد البحر لمحتهن»(٢).
- « ما على الأرض أحد يقول لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا كفرت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»(٣).
- «ما من عبد يقول حين ترد إليه روحه لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير إلا غفر الله له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»(٤).
- « من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»(٥).
- « من سبح الله فى دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين وكبر الله ثلاثا وثلاثين فتلك تسعة وتسعون وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»(٦).
- « من سبح فى دبر صلاة الغداة مائة تسبيحة وهلل مائة تهليلة غفر له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»(٧).
- « من قال بعد الفجر ثلاث مرات وبعد العصر ثلاث مرات أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه كفرت عنه ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر»(٨).

---

(١) تفسير القرطبي:٦٣/١٠.

(٢)أخرجه أحمد (١٧٣/٥، رقم ٢١٥٥١) . قال الهيثمى (١٠١/١٠) : رواه أحمد موقوفا، وأبو كثير لم أعرفه، أعرفه، وبقية رجاله حديثهم حسن.

(٣)أخرجه أحمد (١٥٨/٢، رقم ٦٤٧٩) ، والترمذى (٥٠٩/٥، رقم ٣٤٦٠) وقال: حسن غريب.

(٤) أخرجه ابن سني عن عائشة، و الحارث كما فى بغية الباحث (٩٥٥/٢، رقم ١٠٥٤). وانظر: جامع الأحاديث(٢٠٦٢٥):ص٢٢٥/١٩-٢٢٦.

(٥)أخرجه ابن أبى شيبة (٥٤/٦، رقم ٢٩٤١٧) ، وأحمد (٣٠٢/٢، رقم ٧٩٩٦) ، والبخارى (٢٣٥٢/٥، رقم رقم ٦٠٤٢) ومسلم (٢٠٧١/٤، رقم ٢٦٩١) ، والترمذى (٥١١/٥، رقم ٣٤٦٦) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٢٥٣/٢، رقم ٣٨١٢) ، وابن حبان (١١١/٣، رقم ٨٢٩).

(٦)أخرجه أحمد (٣٧١/٢، رقم ٨٨٢٠) ، ومسلم (٤١٨/١، رقم ٥٩٧) ، وابن حبان (٣٥٩/٥، رقم ٢٠١٦) . . وأخرجه أيضا: البيهقى (١٨٧/٢، رقم ٢٨٤٨).

(٧)أخرجه النسائى (٧٩/٣، رقم ١٣٥٤).

(٨)(ابن السنى، وابن النجار عن معاذ)، جامع الأحاديث(٢٣١٣٠):ص١٢٦/٢١، وأخرجه أيضا: الديلمى (٤٧٧/٣، رقم ٥٤٧٦) ..

- « من قال حين يأوى إلى فراشه أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر وإن كانت عدد ورق الشجر وإن كانت عدد رمل عالج وإن كانت عدد أيام الدنيا»(١).
- « من قال حين يستيقظ وقد رد الله عليه روحه لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شىء قدير غفر الله ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر»(٢).
- « ن قال لا إله إلا أنت سبحانك عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت خير الغافرين غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»(٣).
- « من قال لا إله إلا أنت سبحانك عملت سوءا وظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم غفرت ذنوبه ولو كان فارا من الزحف»(٤).
- « من قال لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة ومن صام يوما ابتغاء وجه الله ختم له به دخل الجنة ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة»(٥).
- « من قال لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم، ثلاث مرات كان مثل من أدرك ليلة القدر»(٦).
- « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق»(٧).
- « من قال لا إله إلا الله صعدت فلا يردها حجاب حتى تصل إلى الله فإذا أوصلت إلى الله نظر الله إلى صاحبها وحق على الله أن لا ينظر إلى موحد إلا رحمه»(٨).
- « من قال لا إله إلا الله طلست ما فى صحيفته من السيئات حتى يعود إلى مثلها»(٩).
- « ن قال لا إله إلا الله قبل كل شىء ولا إله إلا الله بعد كل شىء ولا إله إلا الله يبقى ويفنى كل شىء عوفى من الهم والحزن»(١٠).
- « من قال لا إله إلا الله كتب له بها عند الله عهد ومن قال سبحان الله وبحمده كتب له بها مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة»(١١).
- « من قال لا إله إلا الله كتب له عشرون حسنة ومن قال الحمد لله كتب له ثلاثون حسنة ومن قال الله أكبر كتب له عشرون حسنة»(١٢).

---

(١)أخرجه أحمد (١٠/٣، رقم ١١٠٨٩) ، والترمذى (٤٧٠/٥، رقم ٣٣٩٧) وقال: حسن غريب. وأبو يعلى (٤٩٥/٢ رقم ١٣٣٩).
(٢)أخرجه الخطيب (٣٠١/٨) . وأخرجه أيضا: الحارث كما فى بغية الباحث (٩٥٥/٢، رقم ١٠٥٤).
(٣)أخرجه الديلمى (٤٧٥/٣، رقم ٥٤٧١).
(٤)(ابن النجار عن ابن عباس)، جامع الأحاديث(٢٣٢٣٠):ص١٧١/٢١، وأخرجه أيضا: الديلمى (٤٧٥/٣، رقم ٥٤٧١).
(٥)أخرجه أحمد (٣٩١/٥ رقم ٢٣٣٧٢) قال الهيثمى (٢١٥/٧) رجاله رجال الصحيح غير عثمان بن مسلم البتى وهو ثقة.
(٦)أخرجه ابن عساكر (٢٧٦/٦٥).
(٧)أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٣٢٨/٢، رقم ٢١٢٤) . وأخرجه أيضا: فى الكبير (٤٨/٧، رقم ٦٣٤٨) . وللحديث أطراف أخرى منها: "من لقى الله لا يشرك به شيئا".
(٨) أخرجه ابن صصرى فى أماليه عن سعيد بن زيد ، جامع الأحاديث(٢٣٢٣٦):ص١٧٢/٢١، وأخرجه أيضا: الخطيب (٣٩٤/١١).
(٩)أخرجه الخطيب (٢١٣/٢).
(١٠)أخرجه الطبرانى (٢٩٠/١٠ رقم ١٠٦٩١) . وأخرجه أيضا: الديلمى (٤٧٣/٣ رقم ٥٤٦٦) قال الهيثمى (١٣٧/١٠) : فيه العباس بن بكار وهو ضعيف وثقه ابن حبان.
(١١)أخرجه الطبرانى (٤٣٦/١٢ رقم ١٣٥٩٥) وابن عساكر (٦٤/٣٤) قال الهيثمى (٤٢٠/١٠) : فيه أيوب بن عتبة وهو ضعيف.
(١٢)(ابن شاهين فى الترغيب فى الذكر عن أبى هريرة، جامع الأحاديث(٢٣٢٤٠):ص١٧٤/٢١، وأخرجه أيضا: أحمد (٣١٠/٢، رقم ٨٠٧٩).

- « من قال لا إله إلا الله لم يضره معها خطيئة كما لو أشرك بالله لم ينفعه معه حسنة»[1].
- « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة»[2].
- « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة قالوا يا رسول الله فما إخلاصها قال أن تحجزكم عن كل ما حرم الله عليكم»[3].

القرآن

{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)} [الحجر : ٩٩]

التفسير:

واستمِرَّ في عبادة ربك مدة حياتك حتى يأتيك اليقين، وهو الموت.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: واعبد ربك حتى يأتيك الموت، الذي هو موقن به"[4].

قال الواحدي:" قال جماعة المفسرين: يعني الموت، وسمي «الموت» يقينا، لأنه موقن به"[5].

قال الشوكاني:" أمره بعبادة ربه، أي: بالدوام عليها إلى غاية هي قوله حتى يأتيك اليقين أي: الموت"[6].

قال السعدي:" أي: الموت، أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبا في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه ﷺ تسليما كثيرا"[7].

قال الزجاج:" أي: حتى يأتيك الموت، كما قال عيسى ابن مريم: {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} [مريم : ٣١]، فإن قال قائل كيف تكون عبادة لغير الحي، أي كيف يعبد الإنسان وهو ميت؟ فإن مجاز هذا الكلام مجاز «أبدا»، المعنى: اعبد ربك أبدا، واعبده إلى الممات، لأنه لو قيل: اعبد ربك - بغير التوقيت - لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون مطيعا، فإذا قال حتى يأتيك اليقين، أي أبدا وما دمت حيا، فقد أمرت بالإقامة على العبادة"[8].

قال ابن العربي:" «اليقين»: الموت، فأمره باستمرار العبادة أبدا، وذلك مدة حياته، وكان هذا أبلغ من قوله أبدا، لاحتمال لفظة الأبد للحظة الواحدة، ولجميع الأبد، كما قال العبد الصالح: {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} [مريم : ٣١].

والدليل على أن اليقين الموت «أن أم العلاء الأنصارية وكانت بايعت رسول الله - ﷺ - أخبرت أنهم اقتسموا المهاجرين قرعة، فصار لنا عثمان بن مظعون قالت: فأنزلناه مع أبنائنا، فوجع وجعه الذي مات فيه، فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه دخل رسول الله - ﷺ - فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله - ﷺ -: وما

---

(١)أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (١٩/١) قال الهيثمى: رواه أحمد والطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح ما خلا التابعى فإنه لم يسم ورواه الطبرانى فجعله من رواية مسروق عن عبد الله بن عمرو.

(٢)حديث أبى سعيد الخدرى: أخرجه أيضا: ابن عدى (٨٣/٧، ترجمة ٢٠٠٧ الوليد بن القاسم بن الوليد) ، وقال: كل أحاديثه غير محفوظة.

حديث أبى شيبة الخدرى: أخرجه الطبرانى (٣١٣/٢٢ رقم ٧٩٠) . قال الحافظ فى الإصابة (٢٠٩/٧، ترجمة ١٠١٠٩ أبو شيبة الأنصارى الخدرى) قال أبو زرعة له صحبة ولا يعرف اسمه وقال ابن السكن له حديث واحد ... وذكر الحديث وفى إسناده شرس، عن أبيه قال أبو حاتم الرازى: شرس وأبوه مجهولان.

(٣)أخرجه الخطيب (٦٣/١٢).

(٤) تفسير الطبري:١٥٩/١٧.

(٥) التفسير الوسيط:٥٤/٣.

(٦) فتح القدير:١٧٣/٣.

(٧) تفسير السعدي:٤٣٥.

(٨) معاني القرآن:١٨٧/٣.

يدريك أن الله أكرمه؟ قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمه؟ فقال رسول الله - ﷺ -: أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير». الحديث[1]"[2].

وفي {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر : ٩٩]، وجهان:

أحدهما : الحق الذي لا ريب فيه من نصرك على أعدائك، حكاه الماوردي عن شجرة[3].

الثاني : الموت الذي لا محيد عنه، قاله الحسن[4]، ومجاهد[5]، وقتادة[6]، و سالم بن عبد الله[7]، الله[7]، وابن زيد[8].

قال ابن زيد:" إذا جاءه الموت، جاءه تصديق ما قال الله له، وحدثه من أمر الآخرة"[9].

والدليل على ذلك قوله تعالى إخبارًا عن أهل النار أنهم قالوا : { لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ } [المدثر : ٤٣ - ٤٧].

وفي الصحيح من حديث الزهري ، عن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أم العلاء - امرأة من الأنصار - «أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون - وقد مات - قلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ : "وما يدريك أن الله أكرمه ؟" فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ، فمن ؟ فقال : "أما هو فقد جاءه اليقين ، وإني لأرجو له الخير»[10][11].

قال ابن كثير:" ويستدل من هذه الآية الكريمة وهي قوله : { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } - على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتا فيصلي بحسب حاله ، كما ثبت في صحيح البخاري ، عن عمران بن حصين ، رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : «صَلِّ قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جَنْب»[12].

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء ، عليهم السلام ، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين هاهنا الموت"[13].

الفوائد:

١- امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبًا في عبادة الله، حتى أتاه اليقين من ربه.
٢- أن العبادة أشرف الخصال، قال ابن العربي:" أمره بعبادته إذا قصر عباده في خدمته؛ فإن ذلك طب علته، وهي كما قدمنا أشرف الخصال، والتسمي بها أشرف الخطط، قال شيوخ المعاني: ألا ترى كيف سمى الله بها رسوله عند أفضل منازله، وهي الإسراء،

---

(١)أخرجه أحمد (٤٣٦/٦، رقم ٢٧٤٩٧) ، والبخارى (٤١٩/١، رقم ١١٨٦) . وأخرجه أيضا: ابن المبارك (٣١٥/١، رقم ٩٠٢) ، وابن سعد (٣٩٨/٣) ، والنسائى فى الكبرى (٣٨٥/٤، رقم ٧٦٣٤).
(٢) أحكام القرآن:١١٦/٣.
(٣) انظر: النكت والعيون:١٧٦/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري:١٦٠/١٧.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٥٧):ص٢٢٧٤/٧، وتفسير الطبري:١٦٠/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٦٠/١٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري:١٦٠/١٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:١٦٠/١٧.
(٩) أخرجه الطبري:١٦٠/١٧.
(١٠)صحيح البخاري برقم (١٢٤٣).
(١١) انظر: تفسير ابن كثير:٥٥٣/٤-٥٥٤.
(١٢)) صحيح البخاري برقم (١١١٧).
(١٣) تفسير ابن كثير:٥٥٤/٤.

فقال: {سبحان الذي أسرى بعبده} [الإسراء: ١]، ولم يقل نبيه ولا رسوله، ولقد أحسن الشاعر فيما جاء به من اللفظ حيث يقول(١):

يا قومِ قلبي عندَ زهْراءِ ... يَعْرِفُه السامعُ والرائي

لا تَدْعُني إلاَّ بيا عبدَها ... فإنه أَشْرَفُ أسمائي"(٢).

وقال القشيري:" العبادة نزهة القاصدين، ومستروح المريدين، ومربع الأنس للمحبين، ومرتع البهجة للعارفين. بها قرّة أعينهم، وفيها مسرة قلوبهم، ومنها راحة أرواحهم. وإليه أشار صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أرحنا بها يا بلال»(٣). ولقد قال مخلوق فى مخلوق(٤):

يا قوم ثارى عند أسمائى ... يعرفه السامع والرائي

لا تدعنى إلا بيا عبدها ... فإنه أصدق أسمائى"(٥).

٣- أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة لله والمرضية له، والتي خلق الخلق لها كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦]، وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [المؤمنون:٢٣]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم.

وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ} [النحل:٣٦]، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٩٢]، كما قال في الآية الأخرى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون:٥١ - ٥٢].

وجعل ذلك لازماً لرسوله إلى الموت كما قال: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر:٩٩]، وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء:١٩ - ٢٠]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ} [الأعراف:٢٠٦]، وذم المستكبرين عنها بقوله: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر:٦٠]، ونعت صفوة خلقه بالعبودية له، فقال تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} [الإنسان:٦]، وقال: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} [الفرقان:٦٣ - ٦٤]، الآيات.

ولما قال الشيطان: {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [الحجر:٣٩ - ٤٠]، قال الله تعالى: {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}

---

(١) الشعر بلا نسبة في لطائف الإشارات:٤٩/١، وفيه«يا قوم ثارى عند أسمائى»، وتفسير القرطبي:١٣٢/١، والدر المصون:١٩٩/١، وأضواء البيان:٨/٣.

(٢) أحكام القرآن:١١٦/٣.

(٣) الحديث« يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها ».

حديث رجل من خزاعة: أخرجه أحمد (٣٦٤/٥، رقم ٢٣١٣٧) ، وأبو داود (٢٩٦/٤، رقم ٤٩٨٥) .

حديث سالم الخزاعى: أخرجه الطبرانى (٢٧٦/٦، رقم ٦٢١٤) .

حديث على: أخرجه الخطيب (٤٤٢/١٠) .

حديث بلال: أخرجه الخطيب (٤٤٢/١٠) .

(٤) سبق تخريجه مع قول ابن العربي، وعند القشيري جاء صدر البيت الأول بلفظ:«يا قوم ثارى عند أسمائى» أسمائى» بلا من « يا قوم قلبي عند زهراء».

(٥) لطائف الإشارات:٤٩/١.

[الحجر:٤١ - ٤٢]، وقال في وصف الملائكة بذلك: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} [الأنبياء : ٢٦][١].

٤- ومن الفوائد: أن الأعمال بالخواتيم، والعبرة بكمال النهاية لا نقص البداية، ومن دعاء الصالحين: سؤال الوفاة على الإسلام كما قال السحرة: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرَاً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [الأعراف: ١٢٦]، ويوسف عليه السلام يقول: {تَوَفَّنِي مُسْلِمَاً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١]، وهذا كله من سؤال الله حسن الخاتمة. نسأل الله حسن الختام.

«آخر تفسير سورة (الحجر)، والحمد لله وحده»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة « النحل»

سورة «النحل»: هي السورة «السادسة عشر» في ترتيب المصحف، نزلت بعد سورة «الكهف»[٢]، وعدد آياتها (١٢٨) مائة وثمانية وعشرون، وكلماتها (٢٨٤٠) ألفان وثمانمائة وأربعون. وحروفها (٧٧٠٧) سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف[٣].

ومجموع فواصل آياتها يجمعها: «نمر»، منها اثنتان على «الراء» آخراهما {قَدِيرٌ} [النحل : ٧٠، ٧٧] [٤].

- **أسماء السورة:**
- **أولا:- اسمها التوقيفي: سورة «النحل»:**

وهو اسمها المشهور في المصاحب وكتب التفسير وكتب السنة، إذ وردت تسميتها بسورة«النحل» في كلام الصحابة-رضوان الله عليهم-، وذلك كما يلي:

---

(١) انظر: شرح رسالة العبودية لابن تيمية: الدرس(١).[مرقم آليا]

(٢) انظر: الكشاف: ٥٩٢/٢.

(٣)انظر: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:١/ ٢٧٨.

(٤)انظر: المصد نفسه والصحيفة نفسها.

- عن أبيّ بن كعب، قال: "دخلتُ المسجدَ فصليتُ، فقرأتُ «النحل»، ثم جاء رجل آخر فقرأها على غير قراءتي، ثم جاء رجل آخر فقرأ خِلافَ قراءتِنا، فدخل نفسي من الشكّ والتكذيب أشدُّ مما كنتُ في الجاهلية، فأخذتُ بأيديهما فأتيتُ بهما النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، استقرئ هذين. فقرأ أحدُهما، فقال: أصبتَ. ثم استقرأ الآخر، فقال: أصبتَ. فدخل قلبي أشدُّ مما كان في الجاهلية من الشكّ والتكذيب، فضرب رسول الله ﷺ صدري، وقال: أعاذك الله من الشكّ، وأخْسَأ عنك الشيطانَ. قال إسماعيل: ففِضْتُ عرقًا -ولم يقله ابنُ أبي ليلى- قال: فقال: أتاني جبريلُ فقال: اقرأ القرآن على حرف واحد. فقلت: إن أمتي لا تستطيعُ. حتى قال سبع مرات، فقال لي: اقرأ على سبعة أحرفٍ، ولك بكل ردة رُدِدتها مسألة. قال: فاحتاجَ إليّ فيها الخلائق، حتى إبراهيم ﷺ"[١].
- عن عطاء بن يسار، قال: "نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكية، إلا ثلاث آيات في آخرها نزلت في المدينة بعد أُحد، حيث قُتِل حمزة ومُثِّل به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَئِنْ ظَهَرْنا عَلَيْهِمْ لَنُمَثِّلَنَّ بِثَلاثِينَ رَجُلا مِنْهُمْ»، فلما سمع المسلمون بذلك، قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلنّ بهم مُثْلة لم يمثِّلها أحد من العرب بأحد قطُّ فأنزل الله :{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} ... إلى آخر السورة"[٢].
- قال ابن عباس: "نزلت سورة النحل بمكة"[٣].

- **وجه التسمية:**

سميت سورة«النحل»، لما فيها من عجائب ذكر النحل التي تشير إلى عجيب صنع الخالق، ولفظ«النحل» لم يذكر في القرآن إلا في هذه السورة، وذلك في قوله تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} [النحل : ٦٨].

قال المهايمني:"سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}، المشير إلى أنه لا يستبعد أن يلهم الله -عز وجل- بعض خواص عباده أن يستخرجوا الفوائد الحلوة الشافية في هذا الكتاب، بحمل كلماته على مواضع الشرف، وعلى المعاني المثمرة، وعلى التصرفات العالية..."[٤].

وقال القاسمي: "تسمية السورة بذلك تسمية بالأمر المهم، ليتفطن الغرض الذي يرمي إليه، كالجمعة لأهمية الاجتماع الأسبوعي، وما ينجم عنه من مصالح الأمور العامة، والحديد لمنافعه العظيمة والعنكبوت والنحل والنمل للتفطن لصغار الحيوانات الحكيمة الصنع، وهكذا"[٥].

- **ثانيا:- اسمها الإجتهادي: سورة«النعم»:**

وسماها سورة «النِعَم»-بكسر النون وفتح العين قتادة كما أخرج عنه ابن أبي حاتم،

عن قتادة :" {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا}[٦]، قال: من الشجر ومن غيرها، {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا}[٧]، قال: غارات يسكن فيها. { وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُم}[٨]، من القطن

(١) اخرجه الطبري(٣٢):ص٣٧/١، وانظر: الدر المنثور:١٠٨/٥.
(٢) أخرجه الطبري:٣٢٣/١٧.
(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور:١٠٧/٥، وعزاه إلى ابن مردويه.
(٤) تفسير المهايمي:٤٠٣/١.
(٥) محاسن التأويل:٧٦/١٠.
(٦)[النحل : ٨١].
(٧)[النحل : ٨١].
(٨)[النحل : ٨١].

القطن والكتان والصوف، {وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ}[١]، من الحديد، {كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}[٢]، ولذلك هذه السورة تسمى سورة النعم"[٣].

وروى حماد عن علي بن زيد قال: "كان يقال لسورة النحل: سورة النعم، يريد لكثرة تعداد النعم فيها"[٤].

وعدها السخاوي[٥]، والسيوطي[٦]، اسما للسورة وأضاف إليها الكلبي[٧]، والسخاوي[٨]: والسخاوي[٨]: «سورة النعيم»[٩].

كما ذكرها كثير من المفسرين في كتبهم، كيحيى بن سلام[١٠]، والماتريدي[١١]، وأبو الليث[١٢]، ومكي بن ابي طالب[١٣]، والماوردي[١٤]، والسمعاني[١٥]، والزمخشري[١٦]، وابن عطية[١٧]، وابن الجوزي[١٨]، والرازي[١٩]، والقرطبي[٢٠]، والخازن[٢١]، وابن كثير[٢٢]، وابن رجب الحنبلي[٢٣]. والبقاعي[٢٤]، وغيرهم.

- **وجه التسمية:**

قال الزركشي:" تسمى سورة «النعم»، لما عدد الله فيها من النعم على عباده"[٢٥].

قال السعدي:" هذه السورة تسمى سورة «النعم»، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما، وما له من نعوت الكمال ويعلموا أنه خلقهما مسكنا لعباده الذين يعبدونه، بما يأمرهم به في الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله"[٢٦].

- **مكية السورة ومدنيتها:**

اختلف أهل التفسير في مكان نزول السورة على أقوال:

---

(١)[النحل : ٨١].
(٢)[النحل : ٨١].
(٣) تفسير ابن أبي حاتم(١٢٦١٧):ص٢٢٩٥/٧.
(٤) زاد المسير:٥٤٨/٢.
(٥) انظر: جمال القراء وكمال الإقراء:٩١.
(٦) انظر: الإتقان في علوم القرآن: ١٩٣/١.
(٧) انظر: تفسير العز بن عبدالسلام:٢٠٠/٢.
(٨) انظر: جمال القراء وكمال الإقراء:٩١.
(٩) انظر: تفسير العز بن عبدالسلام:٢٠٠/٢.
(١٠) انظر: تفسيره: ٨٠/١.
(١١) انظر تأويلات أهل السنة:٥٥٠/٦.
(١٢) انظر: بحر العلوم:٢٨٥/٢.
(١٣) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٤٤/٦.
(١٤) انظر: النكت والعيون:٢٠٧/٣.
(١٥) انظر: تفسيره:١٥٨/٣.
(١٦) انظر: الكشاف:٥٩٢/٢، .
(١٧) انظر: المحرر الوجيز:٣٧٧/٣.
(١٨) انظر: زاد المسير:٥٤٨/٢.
(١٩) انظر: مفاتيح الغيب:١٦٧/١٩.
(٢٠) انظر: التفسير:٦٥/١٠.
(٢١) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل: ٦٦/٣.
(٢٢) تفسيره:٥٩١/٤.
(٢٣) انظر: تفسيره:٢٧٤/٢.
(٢٤) انظر: نظم الدرر:٤٢٣/١٠.
(٢٥) البرهان في علوم القرآن:٢٦٩/١.
(٢٦) تفسير السعدي:٤٣٥.

أحدها: أنها مكية جميعها. قاله ابن عباس[١]، وابن الزبير[٢]، والحسن[٣]، وعكرمة[٤]، ومجاهد[٥]، وعطاء[٦]، وجابر[٧]، وعطية[٨]، وحكاه الأصم عن بعضهم[٩]، وبه قال مكي بن بن أبي طالب[١٠]، وابو الليث[١١]، وابن كثير[١٢]، والسيوطي[١٣].

قال ابن عاشور:" هي مكية في قول الجمهور"[١٤].

والثاني: أنها مكية إلا آية واحدة، وهي قوله: {وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا} [النحل: ١٢٦] الآية. قاله الشعبي[١٥].

الثاني: أنها مكية إلا ثلاث آيات نزلت في مدينة، ثم اختلف فيهن، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الآيات الثلاث: من قوله: {وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا} [النحل: ١٢٦] إلى آخر السورة[١٦]. قاله ابن عباس[١٧]، وعطاء بن يسار[١٨]، والشعبي[١٩]، وبه قال السمعاني[٢٠]، والزمخشري[٢١]، والرازي[٢٢]، والفيروزآبادي[٢٣].

أخرج النحاس من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: "سورة النحل نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها فانهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله ﷺ من أحد"[٢٤].

القول الثاني: أن الآيات الثلاث، هي: قوله تعالى: {وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا} [النحل: ١٢٦] نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد، وقوله تعالى :{وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: ١٢٧] ، وقوله {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا}، [النحل: ١١٠]. قاله ابن عطية[٢٥].

- القول الثالث:أن الآيات الثلاث، هي من قوله تعالى: {وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [النحل : ٩٥]، إلى قوله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور:١٠٧/٥، وعزاه إلى ابن مردويه.
(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور:١٠٧/٥، وعزاه إلى ابن مردوية.
(٣) انظر: زاد المسير:٥٤٨/٢، وتفسير القرطبي:٦٥/١٠.
(٤) انظر: زاد المسير:٥٤٨/٢، وتفسير القرطبي:٦٥/١٠.
(٥) انظر: زاد المسير:٥٤٨/٢.
(٦) انظر: زاد المسير:٥٤٨/٢، وتفسير القرطبي:٦٥/١٠.
(٧) انظر: تفسير القرطبي:٦٥/١٠.
(٨) انظر: زاد المسير:٥٤٨/٢.
(٩) انظر: مفاتيح الغيب:١٦٧/١٩.
(١٠) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية: ٣٩٤٣/٦.
(١١) انظر: بحر العلوم:٢٦٥/٢.
(١٢) انظر: تفسير ابن كثير:٥٥٥/٤.
(١٣) انظر: الدر المنثور:١٠٧/٥.
(١٤) التحرير والتنوير:٩٣/١٤.
(١٥) حكاه عنه أبو الليث في بحر العلوم:٢٦٥/٢، وقال:" أخبرنا الثقة بإسناده عن الشعبي...".
(١٦) وهي: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)} [النحل : ١٢٦ - ١٢٨].
(١٧) اورده السيوطي في الر المنثور:١٠٧/٥، وزاد نسبته إلى النحاس من طريق مجاهد، وانظر: الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٤٣/٦.
(١٨) أخرجه الطبري:٣٢٣/١٧.
(١٩) انظر: زاد المسير:٥٤٨/٢.
(٢٠) انظر: تفسير السمعاني:١٥٨/٣.
(٢١) انظر: الكشاف:٥٩٢/٢.
(٢٢) انظر: مفاتيح الغيب:١٦٧/١٩.
(٢٣) انظر: البصائر:٢٧٨/١.
(٢٤) الدر المنثور:١٠٧/٥.
(٢٥) انظر: المحرر الوجيز:٣٧٧/٣.

ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل : ٩٧]. وهذا مروي عن ابن عباس ايضا(١).

الثالث: أنها مكية إلا أربع آيات نزلت بالمدينة: قوله: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُم} [النحل : ٤١] الآية، وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا} [النحل : ١١٠] الآية، وقوله: وقوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا} [النحل : ١٢٦]، وقوله: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ} [النحل : ١٢٧] إلى آخرها. وهذا قول ابن عباس(٢).

الرابع: أنها مكية إلا خمس آيات، ثم اختلف فيهن، على قولين:

القول الأول: أن الآيات الخمس، هي قوله تعالى: {وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} [النحل : ٩٥] ... الآيتين، ومن قوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُم} [النحل : ١٢٦] ... إلى آخرها. وهذا قول قتادة(٣).

القول الثاني: أن الآيات الخمس، هي، من قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} [النحل : ٤١] الآية، وقوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا} [النحل : ١١٠] الآية، وقوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُم} [النحل : ١٢٦] ... إلى آخرها. وهذا قول ابن السائب(٤).

الخامس: أنها مكية إلا سبع آيات، وهي: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا} [النحل : ١١٠] الآية، وقوله تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ} [النحل : ١٠٦]، الآية، وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُم} [النحل : ٤١] الآية، وقوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً} [النحل : ١١٢] الآية، وقوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ} [النحل : ١٢٦] ... إلى آخرها. فإن هذه الآيات مدنيات. وهذا قول مقاتل(٥).

السادس: أن أول أربعين آية مكية، وبقيتها نزلت بالمدينة، قاله جابر بن زيد(٦).

- **مناسبة سورة«النحل» مع سورة «الحجر»:**

قال المراغي:" ووجه ارتباطها بما قبلها أنه لما قال فى السورة السالفة: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر : ٩٢]، كان ذلك تنبيها إلى حشرهم يوم القيامة وسؤالهم عما فعلوه فى الدنيا، فقيل: {أَتَى أَمْرُ اللهِ} [النحل : ١]، وأيضا فإن قوله فى آخرها: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر : ٩٩]، شديد الالتئام بقوله: {أَتَى أَمْرُ اللهِ} [النحل : ١]"(٧).

- **أغراض السورة ومقاصدها**

لقد ركزت مقاصد سورة «النحل» على موضوعات العقيدة الكبرى: الألوهية، والوحي، والبعث. وألمت بمقاصد جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسة. فمن أهم الحقائق التي أبرزتها السورة حقيقة الوحدانية الكبرى، التي تصل بين دين إبراهيم عليه السلام ودين محمد ﷺ. وأبرزت أيضاً حقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال. وبينت وظيفة الرسل، وسنة الله في المكذبين لهم. وموضوع التحليل والتحريم وأوهام الوثنية. وتحدثت عن الهجرة في سبيل الله، وفتنة المسلمين في دينهم، والكفر بعد الإيمان، وجزاء هذا كله عند الله. وبالإضافة لموضوعات العقيدة، فقد قصدت السورة إلى بيان موضوعات المعاملة: العدل، والإحسان، والإنفاق، والوفاء بالعهد، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة.

ويمكن إجمال المقاصد التي دارت حولها آيات هذه السورة وفق التالي :

---

(١) انظر: زاد المسير:٢/ ٥٤٨.
(٢) حكاه عنه أبو الليث في بحر العلوم:٢/٢٦٥.
(٣) انظر: زاد المسير:٢/ ٥٤٨.
(٤) انظر: زاد المسير:٢/ ٥٤٨.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٤٥٧-٤٥٨.
(٦) انظر: زاد المسير:٢/ ٥٤٨.
(٧) انظر: تفسير المراغي:١٤/٥١.

١- ذكر النعم التي أنعم الله بها على عباده، وتفصيلها بما يثير دافع الشكر؛ ليقترب الإنسان من المنعم. كنعمة السمع والبصر، ونعمة الزوجة والولد، ونعم المطر والأنعام، ونعمة الملجأ الذي يقي الحر والبرد ...
٢- الحديث عن أدلة التوحيد؛ وذلك ببيان عظمة ما خلق سبحانه، وحقيقة المعاد والحساب، وإنذار المشركين باقتراب يوم الحساب والعذاب. وتعليل عدم إيمان الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ بأن {قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ} [النحل : ٢٢]، فالجحود صفة كامنة فيها، تصدهم عن الإقرار بالآيات البينات؛{وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} [النحل : ٢٢] ، فالاستكبار يصدهم عن الإذعان والتسليم .
٣- عرضت السورة نموذجاً بشريًّا للناس حين يصيبهم الضر، فيجأرون إلى الله وحده، {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [النحل : ٥٣]، حتى إذا كشف عنهم الضرر، راحوا يشركون بخالقهم وكاشف كروبهم: {ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} [النحل : ٥٤].
٤- بيان جملة من الأحكام الشرعية العامة من قبيل: الأمر بالعدل، والإحسان، والنهي عن الفحشاء والمنكر، وخلف العهد، والهجرة، والجهاد، إضافة إلى الدعوة إلى شكر المُنعم على نعمه الجزيلة، التي لا تعد ولا تحصى .
٥- تحدثت السورة عن إبراهيم عليه السلام، ووصفته بأنه: {كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل : ١٢٠].
٦- تحدثت عن بدع المشركين، كاتخاذ الأنداد من دون الله، {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [النحل : ٧٣]، ووأد البنات {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} [النحل : ٥٨].
٧- ذكرت بعض آداب قراءة القرآن، وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؛ لطرد شبحه من مجلس القرآن الكريم، وحذرت الناس من وساوس الشيطان، {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل : ٩٨].
٨- ذكرت السورة بعض تقولات المشركين عن القرآن؛ فمنهم من يرمي الرسول صلى الله عليه وسلم بافترائه على الله، {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [النحل : ١٠١]. ومنهم من يقول: إن غلاماً أعجمياً هو الذي يعلمه هذا القرآن {يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} [النحل : ١٠٣].
٩- أرشدت السورة الدعاة إلى الله إلى أن تكون دعوتهم بالتي هي أحسن، لا بالتي هي أعنف، كي لا ينفِّروا الناس عن هذا الدين، الذي ارتضاه سبحانه للناس أجمعين .
١٠- قررت السورة مبدأ العقوبة بالمثل، وزادت عليه بطلب العفو، والصبر على الأذى .
١١- خُتمت السورة ببيان أن الله سبحانه مع عباده المتقين، الذين يلتزمون أحكامه، ولا يتجاوزون حدوده. وأنه مع عباده المحسنين، الذين يحسنون لأنفسهم بتقديم الطاعات والقربات، ويحسنون لغيرهم بحسن الأخلاق والمعاملات [١] .

- **فضائل السورة:**

ومما وردت به الروايات من فضائل هذه السورة:

- عن أبي بن كعب، قال: "قال رسول الله، ﷺ: «من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم عليه في دار الدنيا، وأعطي من الأجر كالذي مات فأحسن الوصية»"[٢].

---

(١) انظر: اسلام ويب. [موقع الكتروني].
(٢) أخرجه الواحدي في التفسير الوسيط(٥١٤):ص٥٥/٣، وذكره الثعلبي في الكشف والبيان:٢٤١/٣، والزمشري في الكشاف:٦٤٥/٢، والبيضاوي في التفسير:٢٤٦/٣، وغيرهم.
وذكره المستغفري في فضائل القرآن(١١٨٢):ص٧٧٩/٢. بلفظ: «من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى يوم القيامة بما أنعم عليه في دار الدنيا فإن مات يوم تلاها أو ليلة تلاها كان له من الأجر كالذي مات فأحسن الوصية».

قال الفيروزآبادي:" روى المفسرون فى فضل السورة أحاديث ساقطة..."[1]. ثم ساق بعض الاحاديث من ضمنها الحديث السابق.

- عن جويرية بن بشير الهجيمي قال: "سمعت الحسن، قرأ يوما هذه الآية: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} [النحل : ٩٠] إلى آخرها ثم وقف فقال: إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله، والشر كله في آية واحدة فوالله ما ترك العدل، والإحسان من طاعة الله شيئا إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء، والمنكر والبغي، من معصية الله شيئا إلا جمعه "[2].
- أخرج الإمام أحمد بسند حسن ، عن عثمان بن أبي العاص، قال: "كنت عند رسول الله ﷺ جالسا إذ شخص ببصره ثم صوبه حتى كاد أن يلزقه بالأرض، قال: ثم شخص ببصره فقال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة» {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون} [النحل: ٩٠]"[3].
- عن قتادة، قال: "ذكر لنا أن هَرِم بن حَيان العَبْدِي لما حضره الموت، قيل له: أوص، قال: ما أدري ما أُوصي، ولكن بيعوا درعي، فاقضوا عني ديني، فإن لم تف، فبيعوا فرسي، فإن لم يف فبيعوا غلامي، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: «بَلْ نَصْبر»"[4].
- روي البخاري عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، "قرأ يوم الجمعة على المنبر بسورة النحل حتى إذا جاء السجدة نزل، فسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها، حتى إذا جاء السجدة، قال: «يا أيها الناس إنا نمر بالسجود، فمن سجد، فقد أصاب ومن لم يسجد، فلا إثم عليه ولم يسجد عمر رضي الله عنه» وزاد نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، «إن الله لم يفرض السجود إلا أن نشاء»[5].

هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

قال الفيروزآبادي :" روى المفسرون فى فضل السورة أحاديث ساقطة. منها حديث أبى الواهى: من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله بالنعم التى أنعم عليه فى دار الدنيا، وأعطى من الأجر كالذى مات فأحسن الوصية". وعن جعفر :"أن من قرأ هذه السورة فى كل شهر كفى عنه سبعون نوعا من البلاء، أهونها الجذام والبرص، وكان مسكنه فى جنة عدن وسط الجنان". وحديث على: "يا على من قرأ سورة النحل فكأنما نصر موسى وهارون على فرعون، وله بكل آية قرأها مثل ثواب أم موسى". البصائر: ٢٨٧/١.

(١) البصائر:٢٨٧/١.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان(١٣٨):ص٢٩٥/١.

(٣) المسند(١٧٩١٨):ص٤٤١/٢٩.

(٤) أخرجه الطبري:٣٢٧/١٧.

(٥) صحيح البخاري(١٠٧٧):ص٤٢/٢.

القرآن

{أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)} [النحل : ١]

التفسير:

قَرُب قيام الساعة وقضاء الله بعذابكم -أيها الكفار- فلا تستعجلوا العذاب استهزاء بوعيد الرسول لكم. تنزَّه الله سبحانه وتعالى عن الشرك والشركاء.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدهما: قال مقاتل:" وذلك أن كفار مكة لما أخبرهم النبي- ﷺ- الساعة فخوفهم بها أنها كائنة فقالوا: متى تكون تكذيبا بها؟ فأنزل الله- عز وجل- يا عبادي: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ}.. فلما سمع النبي- ﷺ- من جبريل- عليه السلام- {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ}، وثب قائما وكان جالسا مخافة الساعة فقال جبريل- عليه السلام-: {فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ}، فاطمأن النبي- ﷺ- عند ذلك"[١].

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ٢/٤٥٩.

والثاني: عن أبى بكر بن حفص قال:" لما نزلت:{أَتَى أَمْرُ اللَّهِ}، قاموا، فنزلت: {فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ}"(١).

قوله تعالى:{أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل : ١]، أي:" فرُب قيام الساعة وقضاء الله بعذابكم -أيها الكفار- فلا تستعجلوا العذاب استهزاء بوعيد الرسول لكم"(٢).

قال الشوكاني:" أي: عقابه للمشركين.. وفي نهيهم عن الاستعجال تهكم بهم"(٣).

وفي قوله تعالى:{أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل : ١]، ثلاثة وجوه(٤):

أحدها : أنه بمعنى: سيأتي أمر الله تعالى .

الثاني : معناه: دنا أمر الله تعالى .

الثالث : أنه مستعمل على حقيقة إتيانه في ثبوته واستقراره .

وفي قوله تعالى:{أَتَى أَمْرُ اللَّهِ} [النحل : ١]، وجوه من التفسير:

أحدها : أنه إنذار رسول الله -ﷺ-، قاله أبو مسلم(٥).

الثاني : أنه الأحكام والحدود والفرائض. قاله الضحاك(٦).

الثالث : أنه وعيد أهل الشرك ونصرة الرسول -ﷺ- قاله ابن جريج(٧).

قال ابن جريج:" لما نزلت هذه الآية، يعني :{أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ}، قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن أمر الله أتى، فأمسِكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء، قالوا: ما نراه نزل شيء فنزلت :{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ}، فقالوا: إن هذا يزعم مثلها أيضا، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء، قالوا: ما نراه نزل شيء فنزلت :{وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}"(٨).

الرابع : أنه القيامة ، وهو قول الكلبي(٩).

قال الطبري: والصواب "قول من قال: هو تهديد من الله أهل الكفر به وبرسوله، وإعلام منه لهم قرب العذاب منهم والهلاك وذلك أنه عقَّب ذلك بقوله سبحانه وتعالى {عَمَّا يُشْرِكُونَ}، فدلّ بذلك على تقريعه المشركين ووعيده لهم. وبعد، فإنه لم يبلغنا أن أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ استعجل فرائض قبل أن تُفرض عليهم فيقال لهم من أجل ذلك: قد جاءتكم فرائض الله فلا تستعجلوها. وأما مستعجلو العذاب من المشركين، فقد كانوا كثيرا"(١٠).

وفي قوله تعالى:{ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل : ١]، ثلاثة وجوه(١١):

أحدهما : فلا تستعجلوا التكذيب فإنه لن يتأخر.

الثاني : فلا تستعجلوا أن يتقدم قبل وقته، فإنه لن يتقدم.

الثالث: فلا تستعجلوا وعيدي. قاله مقاتل(١٢).

قال الزمخشري:" كانوا يستمجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر، استهزاء وتكذيبا بالوعد، فقيل لهم أتى أمر الله الذي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظرا لقرب وقوعه فلا تستعجلوه"(١).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٥٩):ص٢٢٧٥/٧، والطبري:١٦٢/١٧ .
(٢)التفسير الميسر:٢٦٧ .
(٣) فتح القدير:١٧٦/٣-١٧٧.
(٤) انظر: النكت والعيون:١٧٧/٣.
(٥) حكاه الماوردي عنه في النكت والعيون:١٧٧/٣.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٦١):ص٢٢٧٦/٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري:١٦٢/١٧.
(٨) أخرجه الطبري:١٦٢/١٧.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٧٨/٣.
(١٠) تفسير الطبري:١٦٤/١٧.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٧٨/٣.
(١٢) انظر: مقاتل بن سليمان:٤٥٩/٢.

قوله تعالى:{سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [النحل : ١]، أي:" تنزَّه الله سبحانه وتعالى عن الشرك والشركاء"(٢).

قال الطبري: يقول تعالى تنزيها لله وعلوّا له عن الشرك الذي كانت قريش ومن كان من العرب على مثل ما هم عليه يَدِين"(٣).

قال الزمخشري:" تبرأ عز وجل عن أن يكون له شريك، وأن تكون آلهتهم له شركاء. أو عن إشراكهم، فإن قلت: كيف اتصل هذا باستعجالهم؟ قلت: لأن استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك"(٤).

قال الشوكاني:" أي: تنزه وترفع عن إشراكهم، أو عن أن يكون له شريك، وشركهم هاهنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب، أو قيام الساعة استهزاء وتكذيبا، فإنه يتضمن وصفهم له سبحانه بأنه لا يقدر على ذلك، وأنه عاجز عنه والعجز وعدم القدرة من صفات المخلوق لا من صفات الخالق، فكان ذلك شركا"(٥).

عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع في السماء، ثم ينادي مناد فيها: يا أيها الناس: فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم. ومنهم من يشك. ثم ينادي الثانية، يا أيها الناس. فيقول الناس بعضهم لبعض هل سمعتم؟ فيقولون: نعم. ثم ينادي الثالثة: يا أيها الناس، أتى أمر الله فلا تستعجلوه- قال رسول الله ﷺ: فو الذي نفسي بيده، إن الرجلين ليشريان الثوب فما يطويانه أبدا، وإن الرجل ليمدن حوضه فما يسقى فيه شيئا أبدا، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبدا، قال: ويشتغل الناس»(٦).

وقرئ: « تشركون»، بالتاء والياء(٧).

الفوائد:

١- استدل بتفرده بالربوبية، وكمال التصرف، وحمايته ما يريد أن يحميه على استحقاقه وحده للعبادة، ووجوب إفراده بالإلهية قال -تعالى-: أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} فاستدل -سبحانه- على قدرته على البعث.

٢- قرب يوم القيامة وأن البعث آت لا محالة، فلا معنى لاستعجاله، وكل آت قريب.

٣- الإيمان بأمارات الساعة، وقد أشار القرآن إلى قربها ودنوها وكثير من علاماتها، قال الله تعالى: {أتى أمر الله فلا تستعجلوه} [النحل: ١] وقال تعالى: {اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون} [الأنبياء: ١] الآيات.

القرآن

{يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)} [النحل : ٢]

التفسير:

ينزِّل الله الملائكة بالوحي مِن أمره على مَن يشاء من عباده المرسلين: بأن خوِّفوا الناس من الشرك، وأنه لا معبود بحق إلا أنا، فاتقون بأداء فرائضي وإفرادي بالعبادة والإخلاص.

قوله تعالى:{يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ} [النحل : ٢]، أي:" يُنزّل الملائكة بالوحي والنبوة بإرادته وأمره"(١).

---

(١) الكشاف:٥٩٢/٢.
(٢)التفسير الميسر:٢٦٧ .
(٣) تفسير الطبري:١٦٤/١٧.
(٤) الكشاف:٥٩٢/٢-٥٩٣.
(٥) فتح القدير:١٧٧/٣.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٥٨):ص٢٢٧٥/٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري:١٦٤/١٧.

قال السعدي:" أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح"[2].

وفي قوله تعالى:{يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ} [النحل : ٢]، وجوه من التفسير:

أحدها : أن «الروح» -ها هنا-: «الوحي»، وهو النبوة ، قاله ابن عباس، وبه قال ابن قتيبة[3].

وعن الحسن:"{ينزل الملائكة بالروح}، قال: بالنبوة"[4].

قال الثعلبي:" {بالروح}، بالوحي سماه روحا، لأنه تحيا به القلوب والحق، ويموت به الكفر والباطل"[5].

الثاني : أنه كلام الله تعالى وهو القرآن ، قاله الربيع ابن أنس[6].

قال الربيع:" كل كلِم تكلم به ربنا فهو روح منه :{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا}، ... إلى قوله :{أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}"[7].

وعن الضحاك قوله: "{ينزل الملائكة بالروح}، قال: القرآن"[8]

الثالث : أنه بيان الحق الذي يجب اتباعه ، قاله ابن عيسى[9].

الرابع : أنها أرواح الخلق. وهذا معنى قول مجاهد[10].

قال مجاهد :"لا ينزل ملك إلا ومعه روح"[11].

الخامس : أن «الروح»: الرحمة ، قاله الحسن[12].

السادس: أن «الروح»: الرحمة والوحي. قاله قتادة[13].

والسادس: أن يكون «الروح»: الهداية ، لأنها تحيا بها القلوب كما تحيي الروح الأبدان. أفاده الماوردي[14].

قال القشيري:" يراد بالروح الوحى والقرآن، وفى الجملة الروح ما هو سبب الحياة إمّا حياة القلب أو حياة الدنيا"[15].

قال الزجاج:" الروح - والله أعلم - كان فيه من أمر الله حياة للنفوس والإرشاد إلى أمر الله"[16].

قال الثعلبي: " {ينزل الملائكة بالروح من أمره}، يعني جبرئيل، وقال: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا} [مريم : ١٧]، «الروح»: الوحي، يعني: من الإضافة إليه على التخصيص كقوله لآدم -عليه السلام- {ونفخت فيه من روحي}،، قال الثعلبي: سمعت الأستاذ أبا القاسم الحبيبي يقول: كان لهارون الرشيد غلام نصراني متطبب وكان أحسن خلق الله وجها وأكملهم أدبا وأجمعهم للخصال التي يتوسل بها إلى الملوك وكان الرشيد مولعا بأن يسلم وهو ممتنع وكان الرشيد يمنيه الأماني [فيأبى] فقال له ذات يوم: ما لك لا تؤمن؟ قال: لأن في كتابكم حجة على من انتحله، قال وما هو؟ قال: قوله {وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه}، أفغير هذا دين النصارى أن عيسى

---

(١) صفوة التفاسير:١١١/٢.
(٢) تفسير السعدي:٤٣٥.
(٣) انظر: غريب القرآن:٢٤١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٦٥):ص٢٢٧٦/٧.
(٥) الكشف والبيان:٦/٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٦٦/١٧.
(٧) أخرجه الطبري:١٦٦/١٧.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٦٦):ص٢٢٧٦/٧.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٧٨/٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:١٦٦/١٧.
(١١) أخرجه الطبري:١٦٦/١٧.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٧٨/٣.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:١٦٦/١٧.
(١٤) انظر: النكت والعيون:١٧٨/٣.
(١٥) لطائف الإشارات:٢٨٥/٢.
(١٦) معاني القرآن:١٩٠/٣.

جزء منه، [فغم] قلب الرشيد لذلك فدعا العلماء والفقهاء فلم يكن منهم من يزيل تلك الشبهة حتى قيل: قدم حجاج خراسان وفيهم رجل يقال له علي بن الحسين بن واقد من أهل مرو إمام في أهل القرآن، فدعاه وجمع بينه وبين الغلام، فسأل الغلام فأعاد قوله، فاستعجم على علي بن الحسين الوقت جوابه فقال: يا أمير المؤمنين قد علم الله في سابق علمه أن مثل هذا [الحدث] يسألني في مجلسك، وإنه لم يخل كتابه من جوابي وليس يحضرني في الوقت لله علي أن لا أطعم حتى آتي الذي فيأمن حقها ان شاء الله، فدخل بيتا مظلما، وأغلق عليه بابه [وانشغل] في قراءة القرآن حتى بلغ سورة الجاثية :{وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه}، فصاح بأعلى صوته: افتحوا الباب فقد وجدت، ففتحوا، ودعا الغلام وقرأ عليه الآية بين يدي الرشيد، وقال: إن كان قوله {وروح منه}، توجبان عيسى بعض منه وجب أن يكون ما في السماوات وما في الأرض بعضا منه، فانقطع النصراني وأسلم وفرح الرشيد فرحا شديدا ووصل علي بن الحسين بصلة فاخرة فلما عاد إلى مرو صنف كتاب «النظائر في القرآن» وهو كتاب لا يوازيه في بابه كتاب"[(١)].

ويقرأ: «تنزل الملائكة»[(٢)].

قوله تعالى:{عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [النحل : ٢]، أي:" على مَن يشاء من عباده المرسلين"[(٣)].

قال السمعاني:" يعني: من النبيين والمرسلين"[(٤)].

قال السعدي:" ممن يعلمه صالحا، لتحمل رسالته"[(٥)].

قوله تعالى:{أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} [النحل : ٢]، أي:" بأن خوِّفوا الناس من الشرك، وأنه لا معبود بحق إلا أنا، فاتقون بأداء فرائضي وإفرادي بالعبادة والإخلاص"[(٦)].

قال الزجاج:" المعنى: أنذروا أهل الكفر والمعاصي بأنه لا إله إلا أنا، أي مروهم بتوحيدي، وألا يشركوا بي شيئا"[(٧)].

قال قتادة:" إنما بعث الله المرسلين أن يوحد الله وحده، ويطاع أمره، ويجتنب سخطه"[(٨)].

قال السعدي:" وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله: {أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون} أي: على معرفة الله تعالى وتوحده في صفات العظمة التي هي صفات الألوهية وعبادته وحده لا شريك له فهي التي أنزل الله بها كتبه وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحث وتجاهد من حاربها وقام بضدها"[(٩)].

الفوائد:

١- تسمية الوحي بالروح لما يحصل به من الحياة النافعة فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.
٢- أن الملائكة رسل الله إلى الأنبياء.
٣- دعوة الرسل أممهم إلى إفراد الله بالعبادة، وأن التوحيد هو دين الرسل.

القرآن

---

(١) الكشف والبيان:٤١٩/٣-٤٢٠.
(٢) انظر: معاني القرآ، للفراء:١٩٠/٣.
(٣)التفسير الميسر:٢٦٧ .
(٤) تفسير السمعاني:١٥٩/٣.
(٥) تفسير السعدي:٤٣٥.
(٦)التفسير الميسر:٢٦٧ .
(٧) .
(٨) أخرجه الطبري:١٦٦/١٧.
(٩) تفسير السعدي:٤٣٥.

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣)} [النحل : ٣]

التفسير:

خلق الله السموات والأرض بالحق؛ ليستدِل بهما العباد على عظمة خالقهما، وأنه وحده المستحق للعبادة، تنزَّه -سبحانه- وتعاظم عن شركهم.

قوله تعالى:{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [النحل : ٣]، أي:" خلق الله السموات والأرض بالحق الثابت، والحكمة الفائقة، لا عبثاً ولا جُزافا"[١].

قال البيضاوي:" أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته"[٢].

قال الشوكاني:" أي: أوجدهما على هذه الصفة التي هما عليها بالحق أي: للدلالة على قدرته ووحدانيته وقيل: المراد بالحق هنا الفناء والزوال"[٣].

قال القاسمي:" {بالحق}، أي: بالحكمة"[٤].

قال النسفي:" دل على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض"[٥].

قال السعدي:" أخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما، وما له من نعوت الكمال ويعلموا أنه خلقهما مسكنا لعباده الذين يعبدونه، بما يأمرهم به في الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله"[٦].

قال ابن عاشور:" الاستدلال بخلق السماوات والأرض أكبر من سائر الأدلة وأجمع لأنها محوية لهما، ولأنهما من أعظم الموجودات، فلذلك ابتدئ بهما"[٧].

قوله تعالى:{تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [النحل : ٣]، أي:" تمجَّد وتقدَّس -سبحانه-عن الشريك والنظير"[٨].

قال البيضاوي:" تعالى عما يشركون منهما أو مما يفتقر في وجوده أو بقائه إليهما ومما لا يقدر على خلقهما. وفيه دليل على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام"[٩].

قال السعدي:" أي: تنزه وتعاظم عن شركهم فإنه الإله حقا، الذي لا تنبغي العبادة والحب والذل إلا له تعالى"[١٠].

الفوائد:

١- تفرده سبحانه وتعالى باستحقاقه بآياته الكونية.
٢- أن الله تعالى خلق السماوات والأرض للحق وإظهار الحق لا على وجه العبث واللعب.

القرآن

{خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤)} [النحل : ٤]

التفسير:

خَلَقَ الإنسان من ماء مهين فإذا به يَقْوى ويغترُّ، فيصبح شديد الخصومة والجدال لربه في إنكار البعث، وغير ذلك، كقوله: {مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} ، ونسي الله الذي خلقه من العدم.

---

(١) صفوة التفاسير:١١١/٢.
(٢) تفسير البيضاوي:٢٢٠/٣.
(٣) فتح القدير:١٧٧/٣.
(٤) محاسن التأويل:٣٥١/٦.
(٥) تفسير النسفي:٢٠٣/٢.
(٦) تفسير السعدي:٤٣٥.
(٧) التحرير والتنوير:١٠١/١٤.
(٨) صفوة التفاسير:١١١/٢.
(٩) تفسير البيضاوي:٢٢٠/٣.
(١٠) تفسير السعدي:٤٣٥.

سبب النزول:
قال الواحدي:" نزلت الآية في أبي بن خلف الجمحي حين جاء بعظم رميم إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رم؟
قال الواحيد: نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة يس: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [يس : ٧٧]، إلى آخر السورة، نازلة في هذه القصة"[١].
ونقل الماوردي عن الكلبي :"أن هذه الآية نزلت في أُبي بن خلف الجمحي حين أخذ عظاماً نخرة فذراها وقال : أنُعادُ إذا صرنا هكذا"[٢].
قوله تعالى:{خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ} [النحل : ٤]، أي:" خَلَق الإنسان من ماء مهين"[٣]. مهين"[٣].
قال القاسمي:" أي: مهينة ضعيفة "[٤].
قال السعدي:" بدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: {خلق الإنسان من نطفة} لم يزل يدبرها ويرقيها وينميها حتى صارت بشرا تاما كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة"[٥].
قوله تعالى:{فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [النحل : ٤]، أي:" فإِذا به بعد تكامله بشراً مخاصمٌ لخالقه، واضح الخصومة، يكابر ويعاند، وقد خُلق ليكون عبداً لا ضداً"[٦].
قال القاسمي:" فإذا هو بعد تكامله بشرا خصيم مبين أي مخاصم لخالقه مجادل. يجحد وحدانيته ويحارب رسله. وهو إنما خلق ليكون عبدا لا ضدا"[٧].
قال السعدي:" حتى إذا استتم فخر بنفسه وأعجب بها {فإذا هو خصيم مبين} يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول وما أنعم الله عليه به، من النعم فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ الآدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور، إلى طور حتى صار عاقلا متكلما، ذا ذهن ورأي: يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها"[٨].
وفي صفته بذلك ثلاثة أوجه :
أحدها : تعريف قدرة الله تعالى في إخراجه من النطفة المهينة إلى أن صار بهذه الحال في البيان والمكنة[٩].
الثاني : ليعرفه نعم الله تعالى عليه في إخراجه إلى هذه الحال بعدما خلقه من نطفة مهينة[١٠].
الثالث : يعرفه فاحش ما ارتكب من تضييع النعمة بالخصومة في الكفر ، قاله الحسن[١١].
الفوائد:
١- إثبات الصانع وصفاته، والنبوة، والرد على منكريها.
٢- تفرده تعالى باستحقاقه الإلهية بآياته الكونية.
٣- تقرير عقيدة البعث من القبور، إذ احتج الله عليهم بابتدائه لخلقهم الذي أقروا به وأنه يحييهم بعد أن صاروا عظاماً رميما كما أنشأهم أول مرة.

---

(١) أسباب النزول::٢٨٥. [بدون إسناد]
(٢) النكت والعيون:١٧٩/٣.
(٣)التفسير الميسر:٢٦٧ .
(٤) محاسن التأويل:٣٥١/٦.
(٥) تفسير السعدي:٤٣٥.
(٦) صفوة التفاسير:١١١/٢.
(٧) محاسن التأويل:٣٥١/٦.
(٨) تفسير السعدي:٤٣٥.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٧٩/٣.
(١٠) انظر: النكت والعيون:١٧٩/٣.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٧٩/٣.

القرآن

{وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥)} [النحل : ٥]

التفسير:

والأنعامَ من الإبل والبقر والغنم خلقها الله لكم -أيها الناس- وجعل في أصوافها وأوبارها الدفء، ومنافع أُخر في ألبانها وجلودها وركوبها، ومنها ما تأكلون.

قوله تعالى:{وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ} [النحل : ٥]، أي:" والأنعامَ من الإبل والبقر والغنم خلقها الله لكم -أيها الناس-"(١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن حججه عليكم أيها الناس ما خلق لكم من الأنعام، فسخَّرها لكم"(٢).

قال الزجاج:" وأكثر ما تستعمل «الأنعام» في الإبل خاصة، وتكون للإبل والغنم والبقر"(٣).

قال ابن كثير:" يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام ، وهي الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع "(٤).

قوله تعالى:{فِيهَا دِفْءٌ} [النحل : ٥]، أي:" وجعل في أصوافها وأوبارها الدفء"(٥).

قال الطبري:" وجعل لكم من أصوافها وأوبارها وأشعارها ملابس تدفئون بها"(٦).

قال الزجاج:" «الدفء»: ما يدفئهم من أوبارها وأصوافها"(٧).

قال ابن قتيبة:" «الدفء»: ما استدفأت به. يريد ما يتخذ من أوبارها من الأكسية والأخبية وغير ذلك"(٨).

قال القرطبي:" «الدفء»: السخانة، وهو ما استدفئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ملابس ولحف وقطف"(٩).

وفي قوله تعالى:{فِيهَا دِفْءٌ} [النحل : ٥]، وجوه:

أحدها : أنه اللباس، قاله ابن عباس(١٠)، ومجاهد(١١)، وقتادة(١٢).

وقال ابن زيد:" دفء اللحف(١٣) التي جعلها الله منها"(١٤).

الثاني : ما ستدفىء به من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، قاله الحسن(١٥).

الثالث : أن الدفء صغار أولادها التي لا تركب ، حكاه الكلبي(١٦).

---

(١)التفسير الميسر:٢٦٧ .
(٢) تفسير الطبري:١٦٧/١٧.
(٣) معاني القرآن:١٩٠/٣.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٥٧/٤.
(٥)التفسير الميسر:٢٦٧ .
(٦) تفسير الطبري:١٦٧/١٧.
(٧) معاني القرآن:١٩٠/٣.
(٨) غريب القرآن:٢٤١.
(٩) تفسير القرطبي:٦٩/١٠.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:١٦٨/١٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري:١٦٨/١٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:١٦٨/١٧.
(١٣)اللحف: جمع لحاف، وهو كل ما يلتحف به الإنسان للدفء، من عباءة، وكساء، ونحوهما.
(١٤) أخرجه الطبري:١٦٩/١٧.
(١٥) انظر: النكت والعيون:١٧٩/٣.
(١٦) انظر: النكت والعيون:١٧٩/٣.

قال الزجاج:" أخبر الله - عز وجل - أن في الأنعام ما يدفئنا، ولم يقل لكم فيها ما يكنكم ويدفئكم من البرد، لأن ما ستر من الحر ستر من البرد، وما ستر من البرد ستر من الحر، قال الله - عز وجل - في موضع آخر: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَر} [النحل : ٨١]، فعلم أنها تقي البرد أيضا، وكذلك إذا قيل: {لكم فيها دفء}، علم أنها تستر من البرد، وتستر من الحر"[١].

قوله تعالى:{وَمَنَافِعُ} [النحل : ٥]، أي:" ومنافع أُخر في ألبانها وجلودها وركوبها"[٢].

قال الطبري:" ومنافع من ألبانها، وظهورها تركبونها"[٣].

وفي قوله تعالى:{وَمَنَافِعُ} [النحل : ٥]، وجوه من التفسير:

أحدها : النسل، قاله ابن عباس[٤].

الثاني : ما ينفعون به من الأطعمة والأشربة. قاله ابن عباس أيضا[٥].

وقال الزجاج:" يعني: ألبانها وأبوالها وغير ذلك" [٦].

الثالث: مركب ولحم ولبن. قال ه مجاهد[٧].

قال مجاهد:" نتاجها وركوبها وألبانها ولحومها"[٨].

الرابع: يعني: الركوب والعمل. ذكره الماوردي[٩].

قوله تعالى:{وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [النحل : ٥]، أي:" ومن الأنعام ما تأكلون لحمه"[١٠].

قال الطبري:" يقول: ومن الأنعام ما تأكلون لحمه كالإبل والبقر والغنم، وسائر ما يؤكل لحمه"[١١].

قال القرطبي:" أفرد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم المنافع. وقيل: المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح"[١٢].

القرآن

{وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)} [النحل : ٦]

التفسير:

ولكم فيها زينة تُدْخل السرور عليكم عندما تَرُدُّونها إلى منازلها في المساء، وعندما تُخْرجونها للمرعى في الصباح.

قال مقاتل:" {حين تريحون}، يعني: حين تروح من مراعيها إليكم عند المساء، {وحين تسرحو} :من عندكم بكرة إلى الرعي"[١٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولكم في هذه الأنعام والمواشي التي خلقها لكم {جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ}، يعني: تردّونها بالعشيّ من مسارحها إلى مراحها ومنازلها التي تأوي إليها ولذلك سمي المكان المراح، لأنها تراح إليه عشيا فتأوي إليه، يقال منه: أراح فلان ماشيته فهو يريحها إراحة، وقوله {وَحِينَ تَسْرَحُونَ}، يقول: وفي وقت إخراجكموها غدوة من مُراحها إلى مسارحها، يقال منه: سرح فلان ماشيته يسرحها تسريحا، إذا أخرجها للرعي غدوة، وسَرَحت

---

(١) معاني القرآن:١٩٠/٣.
(٢)التفسير الميسر:٢٦٧ .
(٣) تفسير الطبري:١٦٧/١٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري:١٦٨/١٧.
(٥) انظر تفسير الطبري:١٦٨/١٧.
(٦) معاني القرآن:١٩٠/٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري:١٦٨/١٧.
(٨) أخرجه الطبري:١٦٩/١٧.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٧٩/٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:١٦٧/١٧.
(١١) تفسير الطبري:١٦٧/١٧.
(١٢) تفسير القرطبي:٧٠/١٠.
(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٠/٢.

الماشية: إذا خرجت للمرعى تسرح سرحا وسروحا، فالسرح بالغداة، والإراحة بالعشيّ، ومنه قول الشاعر[١]:

كأنَّ بَقايا الأتْنِ فَوْقَ مُتُونِهِ ... مدَّبُ الدَّبيّ فَوْقَ النَّقا وَهْوَ سارِح"[٢].

قال ابن قتيبة:" إذا راحت عظام الضروع والأسنمة، فقيل: هذا مال فلان، {وحين تسرحون} بالغداة. ويقال: سرحت الإبل بالغداة وسرحتها"[٣].

قال ابن كثير:" { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ } وهو وقت رجوعها عشيًا من المرعى فإنها تكون أَمَدّه خواصر، وأعظمه ضروعًا ، وأعلاه أسنمة،{ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } أي : غُدوة حين تبعثونها إلى المرعى "[٤].

قال ابن الجوزي:" {ولكم فيها جمال}، أي: زينة، حين تريحون أي: حين تردونها إلى مراحها، وهو المكان الذي تأوي إليه، فترجع عظام الضروع والأسنمة، فيقال: هذا مال فلان، {وحين تسرحون}: ترسلونها بالغداة إلى مراعيها، فإن قيل: لم قدم الرواح وهو مؤخر؟ فالجواب: أنها في حال الرواح تكون أجمل لأنها قد رعت، وامتلأت ضروعها، وامتدت أسنمتها"[٥].

عن قتادة: قوله "{وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}، وذلك أعجب ما يكون إذا راحت عظاما ضروعها، طوالا أسنمتها، وحين تسرحون إذا سرحت لرعيها"[٦].

وقال قتادة: "إذا راحت كأعظم ما تكون أسنمة، وأحسن ما تكون ضروعا"[٧].

والآية الكريمة تحتمل وجهين من التفسير[٨]:

أحدهما : أن الرواح من المراعي إلى الأفنية، والسراح انتشارها من الأفنية إلى المراعي.

الثاني : أنه على عموم الأحوال في خروجها وعودها من مرعى أو عمل أو ركوب.

قال الزجاج:" «الإراحة»: أن تروح الإبل من مراعيها إلى الموضع الذي تقيم فيه، {وحين تسرحون}، أي: حين تخلونها للرعي"[٩].

وفي الجمال بها وجهان[١٠]:

أحدهما : قول الحسن إذا رأوها : هذه نَعَمُ فلان ، قاله السدي[١١].

الثاني : توجه الأنظار إليها ، وهو محتمل .

وقد قدم الرواح على السراح وإن كان بعده لتكامل درها ولأن النفس به أسَرُّ .

قال الزجاج:" وفيما ملكه الإنسان جمال وزينة - كما قال عز وجل: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف : ٤٦]، و«المال» ليس يخص الورق والعين دون الأملاك، وأكثر مال العرب الإبل، كما أن أكثر أموال أهل البصرة النخل، إنما يقولون مال فلان بموضع كذا وكذا يعنون النخل"[١٢].

---

(١)البيت غير منسوب في معاني القرآن للفراء:٢١٠/٣، وروايته فيه:
كأن بقَايا الأثر فوقَ متونه ... مدَب الدَّبي فوق النقا وهو سارِح
لعل الشاعر يصف حمارًا وحشيًا. يقول: إن الأتن قد عضضنه، فتركن فوق متونة آثارًا، كانت كأنها طريق للدبى، وهو صغار الجراد. فوق النقا، وهو الكثيب الأبيض من الرمل.

(٢) تفسير الطبري:١٦٩/١٧.

(٣) غريب القرآن:٢٤١.

(٤) تفسير ابن كثير:٥٥٧/٤.

(٥) زاد المسير:٥٥١/٢.

(٦) أخرجه الطبري:١٦٩/١٧-١٧٠.

(٧) أخرجه الطبري:١٧٠/١٧.

(٨) انظر: النكت والعيون:١٨٠/٣.

(٩) معاني القرآن:١٩٠/٣.

(١٠) انظر: النكت والعيون:١٨٠/٣.

(١١) انظر: النكت والعيون:١٨٠/٣.

(١٢) معاني القرآن:١٩٠/٣.

قال ابن العربي: الجمال "يكون في الصورة وتركيب الخلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال.

فأما جمال الخلقة فهو أمر يدركه البصر، فيلقيه إلى القلب متلائما، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا بسببه لأحد من البشر.

وأما جمال الأخلاق فبكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة، والعدل والعفة، وكظم الغيظ، وإرادة الخير لكل واحد.

وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لصالح الخلق، وقاضية بجلب المنافع إليهم، وصرف الشر عنهم، وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة محسوب، وهو مرئي بالأبصار، موافق للبصائر، ومن جمالها كثرتها.

فإذا وردت الإبل على الذرى سامية الذرى هجمات هجانا توافر حسنها، وعظم شأنها، وتعلقت القلوب بها.

إذا رأيت البقر نعاجا ترد أفواجا أفواجا، تقر بقريرها، معها صلغها وأتابعها، فقد انتظم جمالها وانتفاعها.

وإذا رأيت الغنم فيها السالغ والسخلة، والغريض والسديس صوفها أهدل، وضرعها منجدل، وظهرها منسجف، إذا صعدت ثنية مرعت، وإذا أسهلت عن ربوة طمرت، تقوم بالكساء، وتقر على الغداء والعشاء، وتملأ الحواء سمنا وأقطا، بله البيت، حتى يسمع الحديث عنها كيت وكيت، فقد قطعت عنك لعل وليت.

وإذا رأيت الخيل نزائع يعابيب، كأنها في البيداء أهاضيب، وفي الهيجاء يعاسيب، رءوسها عوال، وأثمانها غوال، لينة الشكير، وشديدة الشخير، تصوم وإن رعت، وتفيض إذا سعت، فقد متعت الأحوال وأمتعت. وإذا رأيت البغال كأنها الأفدان بأكفال كالصوى، وأعناق كأعناق الظبا، ومشي كمشي القطا أو الدبى فقد بلغت فيها المنى، وليس في الحمير زينة، وإن كانت عن الخدمة مصونة، ولكن المنفعة بها مضمونة"(١).

القرآن

{وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧)} [النحل : ٧]

التفسير:

وتحمل هذه الأنعام ما ثَقُل من أمتعتكم إلى بلد بعيد، لم تكونوا مستطيعين الوصول إليه إلا بجهد شديد من أنفسكم ومشقة عظيمة، إن ربكم لَرؤوف رحيم بكم، حيث سخَّر لكم ما تحتاجون إليه، فله الحمد وله الشكر.

قوله تعالى:{وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ} [النحل : ٧]، أي:" وتحمل هذه الأنعام ما ثَقُل من أمتعتكم إلى بلد بعيد، لم تكونوا مستطيعين الوصول إليه إلا بجهد شديد من أنفسكم ومشقة عظيمة"(٢).

قال الطبري:" يقول: وتحمل هذه الأنعام أثقالكم إلى بلد آخر لم تكونوا بالغيه إلا بجهد من أنفسكم شديد، ومشقة عظيمة"(٣).

قال الزجاج:" أي: لو تكلفتم بلوغه على غير الإبل لشق عليكم ذلك"(٤).

قال يحيى بن سلام:يعني:" لولا أنها تحمل أثقالكم لم تكونوا بالغي ذلك البلد"(٥).

---

(١) أحكام القرآن:٣/١١٨-١١٩.
(٢) التفسير الميسر:٢٦٨.
(٣) تفسير الطبري:١٧/١٧٠.
(٤) معاني القرآن:٣/١٩١.
(٥) تفسير يحيى بن سلام:١/٥١.

قال ابن كثير:" { وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ }: وهي الأحمال المثقلة التي تَعجزُون عن نقلها وحملها ، { إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأنْفُسِ } وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة ، وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها في أنواع الاستعمال ، من ركوب وتحميل ، كما قال تعالى : { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ } [المؤمنون : ٢١ ، ٢٢] ، وقال تعالى : { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُون } [غافر : ٧٩ ، ٨١]"(١).

قال القرطبي:" «الأثقال» أثقال الناس من متاع وطعام وغيره، وهو ما يثقل الإنسان حمله. وقيل: المراد أبدانهم، يدل على ذلك قوله تعالى:" {وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [الزلزلة : ٢].. و«شق الأنفس»: مشقتها وغاية جهدها "(٢).

في «البلد»، قولان(٣):

أحدهما : أنه مكة، لأنها من بلاد الفلوات، قاله عكرمة(٤).

الثاني : أنه محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظهر .

قال يحيى بن سلام:يعني:" إلى البلد الذي تريدونه"(٥).

وفي «شق الأنفس»، وجهان:

أحدهما : بجهد الأنفس، مأخوذ من المشقة. قاله عكرمة(٦)، وقتادة(٧)، ومقاتل(٨).

قال عكرمة:" لو تكلفونه لم تبلغوه إلا بجهد شديد"(٩).

وقال مجاهد:" مشقة عليكم"(١٠).

قال ابن قتيبة:" أي بمشقة. يقال: نحن بشق من العيش، أي بجهد. وفي حديث أم زرع: «وجدني في أهل غنيمة بشق»(١١)"(١٢).

الثاني : أن «الشق»: النصف، فكأنه يذهب بنصف النفس(١٣).

وروي عن أبي جعفر قارئ المدينة، أنه كان يقرأ «لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس» بفتح الشين، وكان يقول: إنما الشقّ: شقّ النفس"(١٤).

قوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [النحل : ٧]، أي:" إنَّ ربكم أيها الناس الذي سخَّر لكم هذه الأنعام لعظيمُ الرأفة والرحمة بكم"(١٥).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن ربكم أيها الناس ذو رأفة بكم، ورحمة، من رحمته بكم، خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم، وخلق السموات والأرض أدلة لكم على وحدانية ربكم ومعرفة إلهكم، لتشكروه على نعمه عليكم، فيزيدكم من فضله"(١٦).

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٥٧/٤.
(٢) تفسير القرطبي:٧١/١٠.
(٣) انظر: النكت والعيون:١٨٠/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري:١٧٠/١٧.
(٥) تفسير يحيى بن سلام:٥١/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٧٠/١٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري:١٧٠/١٧.
(٨) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٠/٢.
(٩) أخرجه الطبري:١٧٠/١٧.
(١٠) أخرجه الطبري:١٧٠/١٧.
(١١) أخرجه البخاري(٥١٨٩)، ومسلم(٢٤٤٨).
(١٢) غريب القرآن:٢٤١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:١٧١/١٧، والنكت والعيون:١٨٠/٣.
(١٤) أخرجه الطبري:١٧١/١٧.
(١٥) صفوة التفاسير:١١١/٢.
(١٦) تفسير الطبري:١٧١/١٧-١٧٢.

قال ابن كثير:" أي : ربكم الذي قيَّض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم ، كما قال : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ } [يس : ٧١ ، ٧٢] ، وقال : { وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ } [الزخرف : ١٢ - ١٤]"[١].

فوائد الآيات:[٥-٧]:

١- تسخير ما في الكون للإنسان، إذ وجه القرآن الكريم الإنسان إلى البحث في الكون، والتعرف على خوّاصه وأسراره، والانتفاع به في الحياة.

٢- بيان ما أنعم الله تعالى على عباده بما خلق لهم، وبيان الحكمة في خلقه الأشياء.

٣- إنعامه تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع الكثيرة.

قال القرطبي:" دلت هذه الآية على لباس الصوف، وقد لبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله كموسى وغيره. وفي حديث المغيرة: فغسل وجهه وعليه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين ... الحديث، خرجه مسلم وغيره[٢]"[٣].

قال ابن العربي:" في هذا دليل على لباس الصوف، فهو أولى ذلك وأولاه، فإنه شعار المتقين ولباس الصالحين، وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهاد والعارفين، وهو يلبس لينا وخشنا، وجيدا ومقاربا ورديئا، وإليه نسب جماعة من الناس الصوفي؛ لأنه لباسهم في الغالب، فالياء للنسب والهاء للتأنيث، وقد أنشدني بعض أشياخهم بالبيت المقدس[٤]:

تشاجر الناس في الصوفي واختلفوا ... فيه وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفي حتى سمي الصوفي"[٥].

٤- تقرير التوحيد والنبوة والبعث الآخر بذكر مظاهر القدرة الإلهية والعلم والحكمة والرأفة والرحمة.

٥- إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما:«الرءوف»«والرحيم»:

- فـ«الرؤوف»:" أي: شديد الرأفة بعباده"[٦].

قال الخطابي:"«الرؤوف»: هو الرحيم العاطف برأفته على عباده، وقال بعضهم: الرأفة أبلغ الرحمة وأرقها. ويقال: إن الرافة أخص، والرحمة أعم، وقد تكون الرحمة في الكراهة للمصلحة، ولا تكاد الرأفة تكون في الكراهة؛ فهذا موضع الفرق بينهما"[٧].

قال الزجاج:" يقال إن الرأفة والرحمة واحد وقد فرقوا بينهما أيضا وذلك أن الرأفة هي المنزلة الثانية يقال فلان رحيم فإذا اشتدت رحمته فهو رؤوف"[٨].

- و«الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء [٩].

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٥٧/٤.
(٢) صحيح مسلم(٢٧٤)(٧٩)، وهو عند أحمد (١٨١٩٣)، والبخاري(٣٦٣).
(٣) تفسير القرطبي:٧٠/١٠.
(٤) الشعر منسوب لأبي الفتح البستي، كما في زهر الآداب للقيرواني:٨١٣/٢.
(٥) أحكام القرآن:١١٨/٣.
(٦) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي:١٩٨.
(٧) شأن الدعاء:٩١.
(٨) تفسير اسماء الله الحسنى:٦٢.
(٩) انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

١- ومن الفوائد: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه- [١].

القرآن

{وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)} [النحل : ٨]

التفسير:

وخلق لكم الخيل والبغال والحمير؛ لكي تركبوها، ولتكون جمَالا لكم ومنظرًا حسنًا؛ ويخلق لكم من وسائل الركوب وغيرها ما لا عِلْمَ لكم به؛ لتزدادوا إيمانًا به وشكرا له.

قوله تعالى:{وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} [النحل : ٨]، أي:" وخلق الخيل والبغال والحمير للحمل والركوب وهي كذلك زينة وجمال"[٢].

قال الزجاج:" أي: وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وخلق الخيل والبغال والحمير لكم أيضا لتركبوها وزينة: يقول: وجعلها لكم زينة تتزينون بها مع المنافع التي فيها لكم، للركوب وغير ذلك"[٤].

عن قتادة :"{لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}، قال: جعلها لتركبوها، وجعلها زينة لكم، وكان بعض أهل العلم يرى أن في هذه الآية دلالة على تحريم أكل لحوم الخيل"[٥].

عن ابن عباس، قوله :"{وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا}، قال: هذه للركوب. {وَالأنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ}، قال: هذه للأكل"[٦].

عن مولى نافع بن علقمة: "أن ابن عباس كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله {وَالأنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، فهذه للأكل، {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا}، فهذه للركوب"[٧].

عن سعيد، عن ابن عباس: "أنه سئل عن لحوم الخيل، فكرهها وتلا هذه الآية: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا} ... الآية"[٨].

عن الحكم :"{وَالأنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، فجعل منه الأكل. ثم قرأ حتى بلغ {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا}، قال: لم يجعل لكم فيها أكلا. قال: وكان الحكم يقول: والخيل والبغال والحمير حرام في كتاب الله"[٩].

وروي عن إبراهيم، عن الأسود: "أنه أكل لحم الفرس"[١٠].

قال إبراهيم:" نحر أصحابنا فرسا في النجع وأكلوا منه، ولم يروا به بأسا"[١١].

قال لطبري:" لو كان في قوله تعالى ذكره {لِتَرْكَبُوهَا} دلالة على أنها لا تصلح، إذ كانت للركوب للأكل - لكان في قوله {فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} دلالة على أنها لا تصلح إذ كانت للأكل والدفء للركوب. وفي إجماع الجميع على أن ركوب ما قال تعالى ذكره {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، جائز حلال غير حرام، دليل واضح على أن أكل ما قال {لِتَرْكَبُوهَا} جائز حلال غير حرام، إلا بما نص على تحريمه أو وضع على تحريمه دلالة من كتاب أو وحي إلى رسول الله

---

(١) انظر: تسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:٢/٢٥٩.
(٢) صفوة التفاسير:٢/١١١.
(٣) معاني القرآن:٣/١٩١.
(٤) تفسير الطبري:١٧/١٧٢.
(٥) أخرجه الطبري:١٧/١٧٢.
(٦) أخرجه الطبري:١٧/١٧٢.
(٧) أخرجه الطبري:١٧/١٧٢.
(٨) أخرجه الطبري:١٧/١٧٢-١٧٣.
(٩) أخرجه الطبري:١٧/١٧٣.
(١٠) أخرجه الطبري:١٧/١٧٣.
(١١) أخرجه الطبري:١٧/١٧٣.

ﷺ. فأما بهذه الآية فلا يحرم أكل شيء، وقد وضع الدلالة على تحريم لحوم الحمر الأهلية بوحيه إلى رسول الله ﷺ"[1].

قال جابر:" كنا نأكل لحم الخيل على عهد رسول الله ﷺ. قلت: فالبغال؟ قال: أما البغال فلا"[2].

قال الزجاج:" وكثير من الناس يقولون إن لحوم الخيل والبغال والحمير دلت عليه هذه الآية أنها حرام، لأنه قال في الإبل {ومنها تأكلون. . . . ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم} وقال في الخيل {والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة}، ولم يذكر فيها الأكل. وقال قوم لو كانت حرمت بهذه الآية لم يحرم النبي - ﷺ - لحوم الحمر الأهلية، ولكفاه ما دل عليه القرآن. وهذا غلط لأن القرآن قد دل على أن الخمر حرام، وقال النبي - ﷺ - حرمت الخمر بعينها. فذكر النبي - ﷺ - ما حرم في الكتاب بأنه حرام توكيدا له وزيادة في البيان"[3].

قوله تعالى:{وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [النحل : ٨]، أي:" ويخلق لكم من وسائل الركوب وغيرها ما لا عِلْمَ لكم به"[4].

قال أبو بكر الجزائري:أي:" من سائر الحيوانات ومن ذلك السيارات والطائرات والقطر"[5].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ويخلق ربكم مع خلقه هذه الأشياء التي ذكرها لكم ما لا تعلمون مما أعدّ في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها مما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر"[6].

قال القاسمي:" أي: من المخلوقات في القفار والبحار. وصيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار. أو لاستحضار الصورة"[7].

قال الصابوني:" أي: ويخلق في المستقبل ما لا تعلمونه الآن كوسائل النقل الحديث: القاطرات، والسيارات، والطائرات النفاثة وغيرها مما يجدُّ به الزمان وهو من تعليم الله"[8].

وفي قوله تعالى:{وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [النحل : ٨]، وجوه من التفسير:

أحدها : ما لا تعلمون من الخلق، حكاه الماوردي عن الجمهور[9].

قال القرطبي:" قال الجمهور، من الخلق. وقيل، من أنواع الحشرات والهوام في أسافل الأرض والبر والبحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به"[10].

الثاني: البراذين. رواه ابن عمر عن رسول الله-ﷺ-[11].

الثالث: في عين تحت العرش، حكاه الماوردي عن ابن عباس[12].

الرابع: أنه خلق السوس في الثياب. قاله مجاهد[1].

---

(١) تفسير الطبري:١٧/١٧٣-١٧٤.
(٢) أخرجه الطبري:١٧/١٧٤.
(٣) معاني القرآن:٣/١٩١-١٩٢
(٤) التفسير الميسر:٢٦٨.
(٥) أيسر التفاسير:٣/١٠١.
(٦) تفسير الطبري:١٧/١٧٤.
(٧) محاسن التأويل:٦/٣٥٣.
(٨) صفوة التفاسير:٢/١١١.
(٩) انظر: النكت والعيون:٣/١٨٠.
(١٠) تفسير القرطبي:١٠/٨٠.
(١١) أورده السيوطي في الدر المنثور:٥/١١٣، وعزاه إلى الخطيب في تاريخه وابن عساكر.
وساق ابن عساكر في ترجمة محمد بن حمد بن زكريا من طريق الخطيب عن ابن عمر-رضي الله عنهما-، ومحمد ضعفه ابن عساكر. [انظر: لسان الميزان:٥/٣٧٠]، وانظر: موسوعة الحافظ ابن حجر الحديثية:٤/٥١٦].
(١٢) انظر: النكت والعيون:٣/١٨٠.
والبراذين جمع برذون (بكسر الباء وسكون الراء وفتح الذال وسكون الواو) : وهو ما كان من الخيل من نتاج غير العراب، وهو دون الفرس وأضعف منه. [انظر: "تهذيب اللغة" (برذن) ١/ ٣٠٧]

الخامس: أنه خلق السوس في الثياب والدود في الفواكه. قاله قتادة[٢]، والسدي[٣].
السادس: يعني :ما أعد في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها ما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر. حكاه الثعلبي[٤]، والقرطبي[٥].
السابع : ما ورد من الأخبار حول المخلوقات والكائنات التي تعيش خارج الأرض، فمن تلك الأخبار:

- عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «إن لله تعالى أرضا من وراء أرضكم هذه، بيضاء نورها، وبياضها مسيرة شمسكم هذه أربعين يوما» . قالوا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني مثل الدنيا أربعين مرة، فيها عباد لله تعالى، لم يعصوه طرفة عين ". قالوا: يا رسول الله، أمن الملائكة هم؟ قال: «ما يعلمون أن الله خلق الملائكة» . قالوا: يا رسول الله، أفمن ولد آدم هم؟ قال: «ما يعلمون أن الله عز وجل خلق آدم» . قالوا: يا رسول الله، أفمن ولد إبليس هم؟ قال: «ما يعلمون أن الله عز وجل خلق إبليس» . قالوا: يا رسول الله، فمن هم؟ قال: «هم قوم يقال لهم الروحانيون، خلقهم الله عز وجل من ضوء نوره»[٦].
- وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: "قال رسول الله ﷺ: إن مما خلق الله لأرضا من لؤلؤة بيضاء مسيرة ألف عام عليها جبل من ياقوتة حمراء محدق بها في تلك الأرض ملك قد ملأ شرقها وغربها له ستمائة رأس في كل رأس ستمائة وجه في كل وجه ستون ألف فم في كل فم ستون ألف لسان يثني على الله ويقدسه ويهلله ويكبره بكل لسان ستمائة ألف وستين ألف مرة فإذا كان يوم القيامة نظر إلى عظمة الله فيقول: وعزتك ما عبدتك حق عبادتك، فذلك قوله: {ويخلق ما لا تعلمون}"[٧].
- وعن الشعبي قال: إن لله عبادا من وراء الأندلس كما بيننا وبين الأندلس ما يرون أن الله عصاه مخلوق رضراضهم الدر والياقوت وجبالهم الذهب والفضة لا يحرثون ولا يزرعون ولا يعملون عملا لهم شجر على أبوابهم لها ثمر هي طعامهم وشجر لها أوراق عراض هي لباسهم"[٨].
- وروي مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: "{ويخلق ما لا تعلمون}، قال: يريد أن عن يمين العرش نهرا من نور مثل السماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبع، يدخل جبرئيل كل سحر فيغتسل فيزداد نورا إلى نوره وجمالا إلى جماله وعظما إلى عظمته فينتفض فيخرج الله من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور:١١٣/٥، وعزاه إلى ابن عساكر.
(٢) انظر: الكشف والبيان:٦/ ٩، وتفسير القرطبي:٨٠/١٠.
(٣) انظر: تفسير القرطبي:٨٠/١٠.
(٤) انظر: الكشف والبيان:٩/٦.
(٥) انظر: تفسير القرطبي:٨٠/١٠.
(٦) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة»(٩٥١٢)ص:١٤٣٩/٤-١٤٤٠، وأخرجه ابن الجوزي في المنتظم:١٧٠/١، قال :" أخبرنا إسماعيل بن أحمد، قال: أخبرنا عاصم بن الحسن، قال: أخبرنا أبو الحسين بن بشران، قال: حدثنا أبو صفوان، قال: حدثنا أبو بكر القرشي، قال: حدثني إسحاق بن حاتم المدائني، قال: حدثنا يحيى بن سليم، عن عثمان بن أبي دهرس، قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «إن بهذا المغرب أرضا بيضاء مسيرة للشمس أربعين سنة بها خلق من خلق الله لم يعصوا الله طرفة عين» ، قالوا: فأين الشيطان عنهم؟ قال: «ما تدرون خلق الشيطان أم لم يخلق» ، قالوا: ومن وراء آدم هم؟ قال: «وما تدرون خلق آدم أم لم يخلق».
(٧) الدر المنثور:١١٣/٥.
(٨) أورده السيوطي في الدر المنثور:١١٣/٥-١١٤، وعزاه إلى أبي الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات.

ألف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك بالبيت المعمور وفي الكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة"[١].

- وعن وهب أنه قيل له: "أخبرنا من أتى سعالة الريح وانه رأى بها أربع نجوم كأنها أربعة أقمار فقال وهب: {ويخلق ما لا تعلمون}"[٢].

قال السخاوي: «وهذه الأخبار أسانيدها ضعيفة لكن باجتماعها يكسب قوة»[٣].

الثامن: أن المراد: ما يستجد من وسائل المواصلات في المستقبل. وهذا قول بعض العلماء المعاصرين منهم: أحمد بن مصطفى المراغي[٤]، وعبدالرحمن السعدي[٥]، وسيد قطب[٦]،وابن قطب[٦]،وابن عاشور[٧]،وأبو زهرة[٨]،وإبراهيم القطان[٩]،والشعراوي[١٠]،ومحمد سيد طنطاوي[١١]، وأبو بكر الجزائري[١٢]، ومحمد علي الصابوني[١٣]، ووهبة مصطفى الزحيلي[١٤]، وغيرهم.

وعلى هذا القول فإن الفعل المضارع «يخلق» يدل على التجدد والتحديث، وهو الحاصل في وسائل النقل والمواصلات، إذ دائما تتجدد وتتطور، ويحصل الجديد فيها.

قال المراغي:" غير هذه الدواب مما يهدى إليه العلم وتستنبطه العقول كالقطر البرية والبحرية والطائرات التي تحمل أمتعتكم وتركبونها من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر، والمطاود الهوائية التي تسير فى الجو والغواصات التي تجرى تحت الماء إلى نحو أولئك مما تعجبون منه، ويقوم مقام الخليل والبغال والحمير فى الركوب والزينة"[١٥].

قال السعدي:" {ويخلق ما لا تعلمون}، أي: مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلا جامعا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيرا في قوله: {فيهما من كل فاكهة زوجان} فكذلك هنا ذكر ما نعرفه من المراكب كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: {ويخلق ما لا تعلمون}"[١٦].

قال الشعراوي:" قوله تعالى: {وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [النحل: ٨]، أدخل كُلّ ما اخترعنا نحن البشر من وسائل المواصلات؛ حتى النقل بالأزرار كالفاكس وغير ذلك"[١٧].

---

(١) الكشف والبيان:٩/٦.
(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور:١١٤/٥، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.
(٣)انظر الحديث في: تفسير ابن كثير: ٨/ ١٨٤ وانظر: كنز العلمال(٢٩٨٤٣):ص٣٦٨/١٠.
(٤) تفسير المراغي:٥٧/١٤.
(٥) تفسير السعدي:٤٣٦.
(٦) في ظلال القرآن:٢١٦١/٤-٢١٦٢.
(٧) التحرير والتنوير:١١٠/١٤-١١١.
(٨) زهرة التفاسير:٤١٣٥/٨-٤١٣٦.
(٩) انظر: تيسير التفسير:٣٥٦/٢.
(١٠) تفسير الشعراوي:٧٥٤٣/١٢.
(١١) تفسير الطنطاوي:١١٠/٨.
(١٢) أيسر التفاسير:١٠١/٣.
(١٣) صفوة التفاسير:١١١/٢.
(١٤) التفسير المنير:٩١/١٤.
(١٥) تفسير المراغي:٥٧/١٤.
(١٦) تفسير السعدي:٤٣٦.
(١٧) تفسير الشعراوي:٧٥٤٣/١٢.

قال الطنطاوي:" ختم- سبحانه- الآية الكريمة بما يدل على عظيم قدرته، وسعة علمه، فقال:{ويخلق ما لا تعلمون}، أى: ويخلق- سبحانه- في الحال والاستقبال، مالا تعلمونه- أيها الناس- من أنواع المخلوقات المختلفة سوى هذه الدواب، كالسفن التي تمخر عباب الماء، والطائرات التي تشق أجواز الفضاء، والسيارات التي تنهب الأرض نهبا لسرعتها، وغير ذلك من أنواع المخلوقات التي لا يعلمها سواه- سبحانه- والتي أوجدها لمنفعتكم ومصلحتكم.
وهذه الجملة الكريمة تدل على أن القرآن من عند الله- تعالى- فقد أوجد- سبحانه- العقول البشرية، التي ألهمها صنع الكثير من المخترعات النافعة في البر وفي البحر وفي الجو، والتي لم يكن للناس معرفة بها عند نزول القرآن الكريم، وتشير- أيضا- إلى مزيد فضل الله- تعالى- على الناس، حيث أخبرهم بأنه سيخلق لهم في مستقبل الأيام من وسائل الركوب وغيرها، ما فيه منفعة لهم، سوى هذه الدواب التي ذكرها، فعليهم أن يستعملوا هذه الوسائل في طاعة الله- تعالى- لا في معصيته وعليهم أن يتقبلوا هذه الوسائل، وأن يفتحوا عقولهم لكل ما هو نافع"[١].
قال ابن عاشور:" و{يخلق}، مضارع مراد به زمن الحال لا الاستقبال، أي: هو الآن يخلق ما لا تعلمون أيها الناس مما هو مخلوق لنفعهم وهم لا يشعرون به، فكما خلق لهم الأنعام والكراع خلق لهم ويخلق لهم خلائق أخرى لا يعلمونها الآن، فيدخل في ذلك ما هو غير معهود أو غير معلوم للمخاطبين وهو معلوم عند أمم أخرى كالفيل عند الحبشة والهنود، وما هو غير معلوم لأحد ثم يعلمه الناس من بعد مثل دواب الجهات القطبية كالفقمة والدب الأبيض، ودواب القارة الأمريكية التي كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن، فيكون المضارع مستعملا في الحال للتجديد، أي هو خالق ويخلق، ويدخل فيه كما قيل ما قيل ما يخلقه الله من المخلوقات في الجنة، غير أن ذلك خاص بالمؤمنين، فالظاهر أنه غير مقصود من سياق الامتنان العام للناس المتوسل به إلى إقامة الحجة على كافري النعمة، فالذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنها إيماء إلى أن الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه وتسمى «بسكلات»، وأرتال السكك الحديدية، والسيارات المسيرة بمصفى النفط وتسمى «أطوموبيل»، ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفى في الهواء. فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها، وإلهام الله الناس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرجوا في سلم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأن الكل من نعمته"[٢].
قال أبو زهرة:" أي يخلق ما نعلم وما لا نعلم، وما كان يعلمه العرب، وما لَا يعلمونه، ولو أن المتأمل المستبصر تعرف إعجاز القرآن في إخباره بما كان مغيبا في زمان نزوله لوجده في مثل هذه الآية، فإن مما خلقه اللَّه تعالى مما كان العرب لَا يعلمونه، ولم يكن قط في عصر نزول القرآن - السيارات التي تنهب الأرض نهبا، والطائرات التي تقطع أجواء الفضاء قطعا، ومما يجري الآن في عصر الفضاء فإن ذلك كله خلقه اللَّه تعالى، ومكن الإنسان في عصره ما لم يكن ليعلمه، وسنرى مما يخلقه اللَّه، ويعلمه من بعدنا، ولا نعلمه نحن"[٣].
قال سيد قطب:" يعقب بها على خلق الأنعام للأكل والحمل والجمال، وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة.. ليظل المجال مفتوحاً في التصور البشري لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة، فلا يغلق تصورهم خارج حدود البيئة، وخارج حدود الزمان الذي يظلهم، فوراء الموجود في كل مكان وزمان صور أخرى، يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصورهم وإدراكهم، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد أو حين تكشف فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها، ولا يقولوا: إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل

---

(١) تفسير الطنطاوي:١١٠/٨.
(٢) التحرير والتنوير:١١٠/١٤-١١١.
(٣) زهرة التفاسير:٤١٣٥/٨-٤١٣٦.

والبغال والحمير فلا نستخدم سواها. وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ما عداها!. إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها، ومقدرات الحياة كلها ومن ثم يهيِّئ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة، ويتمخض عنه العلم، ويتمخض عنه المستقبل. استقباله بالوجدان الديني المتفتح المستعد لتلقي كل جديد في عجائب الخلق والعلم والحياة، ولقد جدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان. وستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان. والقرآن يهيِّئ لها القلوب والأذهان، بلا جمود ولا تحجر «وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ»(١).

قال الزحيلي:" ثم جاء دور الامتنان بوسائل النقل والمواصلات الحديثة: ويخلق ما لا تعلمون أي ويخلق لكم غير هذه الحيوانات من وسائل النقل كالقطارات والسيارات والسفن والطائرات وغيرها"(٢).

والتحقيق عندي أن يقال: بأنه لا شك بوجود مخلوقات أخرى غير ما ذكر، وفي الوقت نفسه لا يلزم من ذلك معرفتنا بهذه المخلوقات، فقد قال الله تعالى :{وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} النحل: ٨ }، وقال تعالى :{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [النحل: ٤٩]، وقال تعالى :{وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} [ص: ٨٨]، وقال تعالى:{ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٦٧ }، فهذه الآيات وما أشبهها تدل على أن لله تعالى مخلوقات أخرى غير ما نعلمه أو نشاهده، قال أبو السعود في تفسيره: "{ويخلق ما لا تعلمون}، أي: يخلق في الدنيا غير ما عدد من أصناف النعم فيكم ولكم مالا تعلمون كنهه وكيفية خلقه فالعدول إلى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد أو لاستحضار الصورة "(٣).

الفوائد:

١- كون الخيل والبغال والحمير خلقت للركوب والزينة لا ينفي منفعة أخرى فيها وهي أكل لحوم الخيل لثبوت السنة بإباحة لحوم الخيل، ومنع لحوم البغال والحمير كما في الصحيحين.

٢- سعة علمه سبحانه وتعالى، وفي الحديث: عن رسول الله - ﷺ - من طريق ابن عباس: " أن الخَضِرَ قال لموسى ما علمي وعِلمُكَ وعِلْمُ جميع الخلائق في علم الله إلاَّ مثل ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر "(٤)، ويشهد لهذا قوله تعالى: {وما أُوتِيتُمْ مِنَ العِلمِ إلاَّ قَليلاً} [الإسراء: ٨٥].

٣- يستفاد من قوله تعالى{ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}: تيسير الله للبشر اختراع السيارات والطيارات والقطارات ، وتطوير السفن، وسيخترع البشر أنواعاً أخرى لمزيد من الانتفاع بها.

٤- بطلان نظرية ابن سينا: أن الموجودات صدرت عن الله لا على سبيل القصد والاختيار بل ضرورة.

ولا شك أن كل عاقل يدرك بطلان تلك النظرية وفسادها ومنافاتها للفطرة السليمة التي لم تتلوث بالآراء الفلسفية، وقد قوبلت تلك النظرية وغيرها بالاستخفاف والاستهزاء من جانب العلماء فنجد مثلاً ابن خلدون يقول: "إن هذا الذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه، فأما إسنادهم الموجودات كلها إلى العقل الأول، واكتفاؤهم به في الترقي إلى الواجب، فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله، فالوجود أوسع نطاقاً من ذلك، {ويخلق ما لا تعلمون}"(٥).

---

(١) في ظلال القرآن:٢١٦١/٤-٢١٦٢.
(٢) التفسير المنير:٩١/١٤.
(٣) تفسير أبي السعود:٩٨/٥.
(٤)أخرجه أحمد ٥/ ١١٨، والبخاري (١٢٢) و (٣٤٠١).
(٥)مقدمة ابن خلدون : ٥١٦.

القرآن

{وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)} [النحل : ٩]

التفسير:

وعلى الله بيان الطريق المستقيم لِهدايتكم، وهو الإسلام، ومن الطرق ما هو مائل لا يُوصل إلى الهداية، وهو كل ما خالف الإسلام من الملل والنحل. ولو شاء الله هدايتكم لهداكم جميعًا للإيمان.

قوله تعالى:{وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} [النحل : ٩]، أي:" وعلى الله بيان الطريق المستقيم لِهدايتكم، وهو الإسلام"[١].

قال ابن كثير:" لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسَار عليه في السبل الحسية ، نبه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيرًا ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية ، كما قال تعالى : { وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى } [البقرة : ١٩٧] ، وقال : { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ } [الأعراف : ٢٦].

ولما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها ، التي يركبونها (١) ويبلغون عليها حاجة في صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة - شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه ، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه ، فقال : { وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ } كما قال : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } [الأنعام : ١٥٣] ، وقال : { هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ } [الحجر : ٤١]"[٢].

وفي قوله تعالى:{وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} [النحل : ٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: طريق الحق على الله. مجاهد[٣].

الثاني: أنه الاسلام. قاله السدي[٤].

الثالث: معناه: وعلى الله البيان، أي: تبين الهدى والضلال. قاله ابن عباس[٥]، وقتادة[٦]، والضحاك[٧]، ومقاتل[٨].

قال الضحاك:" يقول: على الله البيان، يبين الهدى من الضلالة، ويبين السبيل التي تفرّقت عن سبله، ومنها جائر"[٩].

وقال قتادة:" على الله بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته"[١٠].

وقال ابن زيد:" «السبيل»: طريق الهدى"[١١].

وقال التستري:" {قصد السبيل}: طريق السنة"[١٢].

قال يحيى بن سلام:" والسبيل قصد الطريق، الهدى إلى الجنة، كقوله: {إن علينا للهدى} [الليل: ١٢] ، وكقوله: {قال هذا صراط علي مستقيم} [الحجر: ٤١]"[١٣].

قال ابن كثير:" قولُ مجاهد هاهنا أقوى من حيث السياق ؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقًا تسلك إليه ، فليس يصل إليه منها إلا طريقُ الحق ، وهي الطريق التي شَرَعها ورضيها وما

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٨.

(٢) تفسير ابن كثير:٥٦٠/٤.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٧٩):ص٢٢٧٨/٧، وتفسير الطبري:١٧٥/١٧.

(٤) انظر تفسير ابن كثير:٥٦٠/٤.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٧٧)، و(١٢٤٧٨):ص٢٢٧٨/٧، وتفسير الطبري:١٧٥/١٧.

(٦) انظر: تفسير الطبري:١٧٥/١٧.

(٧) انظر: تفسير الطبري:١٧٦/١٧.

(٨) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٠/٢.

(٩) أخرجه الطبري:١٧٦/١٧.

(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٤٨٠):ص٢٢٧٨/٧.

(١١) أخرجه الطبري:١٧٥/١٧.

(١٢) الاعتصام للشاطبي:٨٥/١.

(١٣) تفسير حيى بن سلام:٥٣/١.

عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة ؛ ولهذا قال تعالى : { وَمِنْهَا جَائِرٌ }، أي : حائد مائل زائغ عن الحق"[١].

وفي هؤلاء الجائرين عن سبيل الحق، قولان :

أحدهما : أنهم أهل الأهواء المختلفة ، قاله ابن عباس[٢].

وقال ابن عباس:" السبيل المتفرقة"[٣].

الثاني : ملل الكفر[٤].

قال الفراء:" يقال: الجائر اليهودية والنصرانية. يدل على هذا أنه القول قوله {ولو شاء لهداكم أجمعين}"[٥].

قوله تعالى:{وَمِنْهَا جَائِرٌ} [النحل : ٩]، أي:" ومن الطرق ما هو مائل لا يُوصل إلى الهداية، وهو كل ما خالف الإسلام من الملل والنحل"[٦].

قال قتادة:" أي من السبل، سبل الشيطان"[٧].

وقال قتادة:" على السبيل ناكب عن الحق"[٨].

قال أبو عبيدة:" أي: من السبل سبيل جائر"[٩].

قال مقاتل:" يقول ومن السبيل ما تكون جائرة على الهدى"[١٠].

قال يحيى بن سلام:أي:" ومن السبيل جائر، أي: عن السبيل جائر، وهو الكافر، جار عن سبيل الهدى"[١١].

قال ابن كثير:" أي : حائد مائل زائغ عن الحق"[١٢].

قال الأخفش:"{ السبيل} مؤنثة في لغة أهل الحجاز"[١٣].

عن ابن عباس، قوله :"{وَمِنْهَا جَائِرٌ}، يعني: السبل المتفرّقة"[١٤].

وعن ابن عباس، قوله :"{وَمِنْهَا جَائِرٌ}، يقول: الأهواء المختلفة"[١٥].

عن الضحاك :"{ وَمِنْهَا جَائِرٌ، يعني: السبل التي تفرّقت عن سبيله"[١٦].

عن ابن جريج :"{وَمِنْهَا جَائِرٌ}، السبل المتفرقة عن سبيله"[١٧].

عن ابن زيد :قوله "{وَمِنْهَا جَائِرٌ}، قال: من السبل جائر عن الحقّ قال: قال الله: {وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}"[١٨].

وذكر ابن وضاح قال: "سئل عاصم بن بهدلة وقيل له: يا أبا بكر، أرأيت قول الله تعالى: {وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين }؟ قال: حدثنا أبو وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "خط عبد الله خطا مستقيما، وخط خطوطا عن يمينه

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٦٠/٤.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٧٧):ص٢٢٧٨/٧.
(٣) اخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٧٨):ص٢٢٧٨/٧.
(٤) انظر: النكت والعيون:١٨١/٣.
(٥) معاني القرآن:٩٨/٢.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٨.
(٧) أخرجه الطبري:١٧٦/١٧.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٤٨٠):ص٢٢٧٨/٧.
(٩) مجاز القرآن:٣٦٢/١.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٠/٢.
(١١) تفسير حيى بن سلام:٥٣/١.
(١٢) تفسير ابن كثير:٥٦٠/٤.
(١٣) معاني القرآ،:٤١٤/٢.
(١٤) أخرجه الطبري:١٧٦/١٧.
(١٥) أخرجه الطبري:١٧٦/١٧.
(١٦) أخرجه الطبري:١٧٦/١٧.
(١٧) أخرجه الطبري:١٧٦/١٧.
(١٨) أخرجه الطبري:١٧٦/١٧.

وخطوطا عن شماله، فقال: "خط رسول الله ﷺ هكذا، فقال للخط المستقيم (هذا سبيل الله)، وللخطوط التي عن يمينه وشماله هذه سبل متفرقة، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، والسبيل مشتركة، قال الله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه} إلى آخرها"(١).

قال الشاطبي:" فهذا التفسير يدل على شمول الآية لجميع طرق البدع، لا تختص ببدعة دون أخرى"(٢).

قال قتادة : وفي قراءة عبدالله بن مسعود: «ومنكم جائر»"(٣). قال الشاطبي:" قالوا: يعني هذه الأمة"(٤).

قوله تعالى:{وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [النحل : ٩]، أي:" ولو شاء الله هدايتكم لهداكم جميعًا للإيمان"(٥).

قال الطبري:" يقول: ولو شاء الله للطف بجميعكم أيها الناس بتوفيقه، فكنتم تهتدون وتلزمون قصد السبيل، ولا تجورون عنه، فتتفرّقون في سبل عن الحقّ جائرة"(٦).

عن ابن زيد، قال:" لو شاء لهداكم أجمعين لقصد السبيل، الذي هو الحقّ، وقرأ {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}، الآية، وقرأ: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} ... الآية"(٧).

الفوائد:

١- أن الهداية أعظم النعم وأول الحجج على العبد.

٢- ذم البدعة في الدين، جاء في ذمّ البدعة نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، وحذّر منها الصحابة والتابعون لهم بإحسان(٨).

٣- الإسلام هو السبيل التي بينها الله تعالى فضلا منه ورحمة وما عداه فهي سبل جائرة عن العدل والحق.

٤- لا ريب في أن الله أحكم الحاكمين وأن ربنا لا يظلم أحدا، ولذلك فهو لا يجبر الإنسان على الإيمان أو الكفر. وأما الآيات المشار إليها من كونه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فهذا حق فإن الله تعالى يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله وهذا كله بحكمته سبحانه، فهذه الآيات دليل على أن مشيئة الله فوق مشيئة عباده، ولكنها لا تنفي وجود مشيئة للعباد؛ بدليل الآيات السابق ذكرها، وإن طلبت دليلا محسوسا على ذلك فقارن بين تحريك الإنسان ليده، وبين ارتعاشها وحركتها لا إراديا، فإنك ستجد فرقا ولا بد، وهذا الفرق هو دليل عدم الجبر، وأن الإنسان له مشيئة، إذا شاء حرك يده وإذا شاء لم يحركها، إلا أن هذا وذاك لا يكونان إلا بإذن الله، فلولا أن الله أذن له بذلك لم يستطع فعله، ولكن هذا لا يعني أنه مسلوب الإرادة والمشيئة، كهذا الذي ترتعش يده دون إرادة منه، والفرق واضح بين الحالين.

فإذا تقرر أن للعبد مشيئة، وأنه ليس مسلوب الإرادة والاختيار، فلا عجب من كونه يجازى على ما يختاره ويفعله.ونحن لسنا مخيرين بإطلاق، كما أننا لسنا مسيرين بإطلاق.

القرآن

---

(١)رواه الإمام ابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص٣٨)، وتقدم تخريجه (ص٨٥).

(٢) الإعتصام:٨٧/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٨٠):ص٢٢٧٨/٧، والطبري:١٧٦/١٧، وانظر: تفسير ابن كثير:٥٦٠/٤.

(٤) الاعتصام:٨٦/١.

(٥) التفسير الميسر:٢٦٨.

(٦) تفسير الطبري:١٧٦/١٧.

(٧) أخرجه الطبري:١٧٧/١٧.

(٨)للتوسع في هذا الموضوع، انظر: عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة: ٧٠٦/٢ وما بعدها .

{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)} [النحل : ١٠]

التفسير:

هو الذي أنزل لكم من السحاب مطرًا، فجعل لكم منه ماءً تشربونه، وأخرج لكم به شجرًا تَرْعَوْن فيه دوابّكم، ويعود عليكم دَرُّها ونفْعُها.

قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [النحل : ١٠]، أي:" هو الذي أنزل لكم من السحاب مطرًا"(١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والذي أنعم عليكم هذه النعم، وخلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم، هو الربّ الذي أنزل من السماء مطرا"(٢).

قوله تعالى:{لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ} [النحل : ١٠]، أي:" فجعل لكم منه ماءً تشربونه"(٣).

قال الطبري:" لكم من ذلك الماء، شراب تشربونه"(٤).

قوله تعالى:{وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} [النحل : ١٠]، أي:" وأخرج لكم به شجرًا تَرْعَوْن فيه دوابّكم، ويعود عليكم دَرُّها ونفْعُها"(٥).

قال الطبري:" ومنه شراب أشجاركم، وحياة غروسكم ونباتها، {فِيهِ تُسِيمُونَ}، يقول: في الشجر الذي ينبت من الماء الذي أنزل من السماء تسيمون، ترعون"(٦).

قال الفراء:" قوله: {تسيمون}، ترعون إبلكم"(٧).

عن ابن عباس، قوله :"{وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}، يقول: شجر يرعون فيه أنعامهم وشاءهم"(٨).

عن عكرمة، قوله: "{فِيهِ تُسِيمُونَ}، قال: ترعون"(٩). وروي عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى، وابن زيد مثل ذلك(١٠).

قال ابن زيد:" لإسامة: الرّعية"(١١).

الفوائد:

١- تقرير الاختصاص بالتدبير والتصريف في الكليات والجزئيات مع اختلاف أنواعها والاستدلال بذلك عل إلهيته وحده لا شريك له.
٢- التفكر في خلق السموات والأرض وما فيهما من الآيات الدالة على عظمته وكمال قدرته وأنه الإله الواحد الأحد الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده دون من سواه.
٣- أن نزول الماء من السماء ، المراد بذلك السحاب.
٤- إنزال الله - تبارك وتعالى - الماء من السماء لينبت به الزرع، إذ ذكر الله - تعالى - نعمته على عباده في إنزاله الماء من السماء، والمراد به إنزاله من السحاب، وقد جعل من هذا الماء النازل من السماء شراباً يشرب منه العباد ودوابُّهم ومواشيهم، ومنه تتغذى الآبار وتتدفق العيون، ومنه ما يسقي الزرع والشجر الذي فيه تسيمون أنعامكم، أي: ترعونها فيه.

القرآن

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٨.
(٢) تفسير الطبري:١٧٧/١٧.
(٣) التفسير الميسر:٢٦٨.
(٤) تفسير الطبري:١٧٧/١٧.
(٥) التفسير الميسر:٢٦٨.
(٦) تفسير الطبري:١٧٧/١٧.
(٧) معاني القرآن:٩٨/٢.
(٨) أخرجه الطبري:١٧٧/١٧.
(٩) أخرجه الطبري:١٧٨/١٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:١٧٨/١٧.
(١١) أخرجه الطبري:١٧٨/١٧.

{يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)} [النحل : ١١]

التفسير:

يُخرج لكم من الأرض بهذا الماء الواحد الزروع المختلفة، ويُخرج به الزيتون والنخيل والأعناب، ويُخرج به كل أنواع الثمار والفواكه. إن في ذلك الإخراج لدلالةً واضحة لقوم يتأملون، فيعتبرون.

قوله تعالى:{يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ} [النحل : ١١]، أي:" يُخرج لكم من الأرض بهذا الماء الواحد الزروع المختلفة، ويُخرج به الزيتون والنخيل والأعناب، ويُخرج به كل أنواع الثمار والفواكه"[(١)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يُنبت لكم ربكم بالماء الذي أنزل لكم من السماء زرعَكم وزيتونَكم ونخيلكم وأعنابكم"[(٢)].

قال ابن كثير:" أي : يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها"[(٣)].

قال البغوي:" أي: ينبت الله لكم بالماء الذي أنزل {الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات}"[(٤)].

وقرأ عاصم برواية المفضل وحماد ويحيى:«ننبت»، بالنون[(٥)].

قوله تعالى:{وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} [النحل : ١١]، أي:" ويُخرج به كل أنواع الثمار والفواكه"[(٦)].

قال الطبري:" يعني: من كلّ الفواكه غير ذلك أرزاقا لكم وأقواتا وإداما وفاكهة، نعمة منه عليكم بذلك وتفضّلا وحُجة على من كفر به منكم"[(٧)].

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم قيل :«ومن كل الثمرات»؟

قلت: لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة"[(٨)].

قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل : ١١]، أي:" إن في ذلك الإخراج لدلالةً واضحة لقوم يتأملون، فيعتبرون"[(٩)].

قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه: إن في إخراج الله بما ينزل من السماء من ماء ما وصف لكم لدلالة واضحة، وعلامة بينة لقوم يعتبرون مواعظ الله، ويتفكَّرون في حججه، فيتذكرون وينيبون"[(١٠)].

قال الزمخشري:أي:" ينظرون فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته"، و«الآية»: الدلالة الواضحة[(١١)].

قال ابن كثير:" أي : دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : { أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَأَنزلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } [النمل : ٦٠]"[(١)].

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٨.
(٢) تفسير الطبري:١٧٩/١٧.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٦١/٤.
(٤) تفسير البغوي:١٢/٥.
(٥) انظر: الكشف والبيان:١٠/٦.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٨.
(٧) تفسير الطبري:١٧٩/١٧.
(٨) الكشاف:٥٩٧/٢.
(٩) التفسير الميسر:٢٦٨.
(١٠) تفسير الطبري:١٧٩/١٧.
(١١) الكشاف:٥٩٧/٢.

القرآن

{وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)} [النحل : ١٢]

التفسير:

وسخَّر لكم الليل لراحتكم، والنهار لمعاشكم، وسخَّر لكم الشمس ضياء، والقمر نورًا ولمعرفة السنين والحساب، وغير ذلك من المنافع، والنجوم في السماء مذللات لكم بأمر الله لمعرفة الأوقات، ونضج الثمار والزروع، والاهتداء بها في الظلمات. إن في ذلك التسخير لَدلائلَ واضحةً لقوم سيعقلون عن الله حججه وبراهينه.

قوله تعالى:{وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} [النحل : ١٢]، أي:" وسخَّر لكم الليل لراحتكم، والنهار لمعاشكم، وسخَّر لكم الشمس ضياء، والقمر نورًا ولمعرفة السنين والحساب، وغير ذلك من المنافع"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن نِعَمه عليكم أيها الناس مع التي ذكرها قبل أن سخر لكم الليل والنهار يتعاقبان عليكم، هذا لتصرّفكم في معاشكم، وهذا لسكنكم فيه، {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} لمعرفة أوقات أزمنتكم وشهوركم وسنينكم، وصلاح معايشكم"(٣).

قال الزمخشري:" معنى تسخيرها للناس: تصييرها نافعة لهم، حيث يسكنون بالليل، ويبتغون من فضله بالنهار، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر" (٤).

قال ابن كثير:" ينبه تعالى عباده على آياته العظام ، ومننه الجسام ، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان ، والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثوابت والسيارات ، في أرجاء السموات نورا وضياء لمهتدين بها في الظلمات ، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه ، يسير بحركة مُقدرة ، لا يزيد عليها ولا ينقص منها ، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره ، كما قال : { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف : ٥٤]"(٥).

قوله تعالى:{وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ} [النحل : ١٢]، أي:" والنجوم في السماء مذللات لكم بأمر الله لمعرفة الأوقات، ونضج الثمار والزروع، والاهتداء بها في الظلمات"(٦).

قال الطبري:{مسخرات}" لكم بأمر الله تجري في فلكها لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر"(٧).

روى حفص عن عاصم: «والنجوم مسخرات»: بالرفع على الخبر والابتداء، وقرأ ابن عامر والشمس والقمر: «والنجوم مسخرات» كلها بالرفع على الابتداء والخبر(٨).

قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [النحل : ١٢]، أي:" إن في ذلك التسخير لَدلائلَ واضحةً لقوم سيعقلون عن الله حججه وبراهينه"(٩).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن في تسخير الله ذلك على ما سخره لدلالات واضحات لقوم يعقلون حجج الله ويفهمون عنه تنبيهه إياهم"(١).

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٦١/٤.
(٢) التفسير الميسر:٢٦٨.
(٣) تفسير الطبري:١٧٩/١٧.
(٤) الكشاف:٥٩٧/٢.
(٥) تفسير ابن كثير:٥٦١/٤.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٨.
(٧) تفسير الطبري:١٧٩/١٧.
(٨) انظر: الكشف والبيان:١٠/٦.
(٩) التفسير الميسر:٢٦٨.

قال ابن كثير:" أي : لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم ، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه"[٢].

قال الزمخشري:" فجمع «الآية». وذكر «العقل»، لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة" [٣].

قال سهل بن عبدالله:" اعلم أن الله تعالى لما أراد إظهار علمه أودع علمه العقل، وحكم أنه لا يصل أحد إلى شيء منه إلا بالعقل، فمن فاته العقل فقد فاته العلم"[٤].

القرآن

{وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣)} [النحل : ١٣]

التفسير:

وسخَّر ما خلقه لكم في الأرض من الدوابِّ والثمار والمعادن، وغير ذلك مما تختلف ألوانه ومنافعه. إن في ذلك الخَلْق واختلاف الألوان والمنافع لَعبرةً لقوم يتعظون، ويعلمون أنَّ في تسخير هذه الأشياء علاماتٍ على وحدانية الله تعالى وإفراده بالعبادة.

قوله تعالى:{وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} [النحل : ١٣]، أي:" وسخَّر ما خلقه لكم في الأرض من الدوابِّ والثمار والمعادن، وغير ذلك مما تختلف ألوانه ومنافعه"[٥].

قال الطبري:أي:" وسخر لكم ما خلق لكم في الأرض مختلفا ألوانه من الدوابّ والثمار"[٦].

قال أبو الليث:" أي: وما خلق لكم في الأرض من الدواب والأشجار والثمار مختلفا ألوانه"[٧].

قال الزمخشري:" يعنى: ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيئات والمناظر" [٨].

قال ابن كثير:" لما نبه سبحان على معالم السماوات ، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجماداتعلى اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص"[٩].

عن قتادة: قوله: {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ}،"قال: هو الدواب والأشجار والثمار"[١٠].

وعن قتادة:"{وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأرْضِ}، يقول: وما خلق لكم مختلفا ألوانه من الدوابّ، ومن الشجر والثمار، نعم من الله متظاهرة فاشكروها لله"[١١].

قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} [النحل : ١٣]، أي:" إن في ذلك الخَلْق واختلاف الألوان والمنافع لَعبرةً لقوم يتعظون، ويعلمون أنَّ في تسخير هذه الأشياء علاماتٍ على وحدانية الله تعالى وإفراده بالعبادة"[١٢].

قال أبو الليث:" أي في اختلاف ألوانها لعبرة لقوم يتعظون"[١].

---

(١) تفسير الطبري:١٧/١٧٩-١٨٠.
(٢) تفسير ابن كثير:٤/٥٦١.
(٣) الكشاف:٢/٥٩٧.
(٤) تفسير التستري:٩٠.
(٥) التفسير الميسر:٢٦٨.
(٦) تفسير الطبري:١٧/١٨٠.
(٧) بحر العلوم:٢/٢٦٨.
(٨) الكشاف:٢/٥٩٧.
(٩) تفسير ابن كثير:٤/٥٦١-٥٦٢.
(١٠) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره(١٤٧٤):ص٢/٢٦٥.
(١١) أخرجه الطبري:١٧/١٨٠.
(١٢) التفسير الميسر:٢٦٨.

قال ابن كثير:{ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ}، " أي : آلاء الله ونعمه فيشكرونها "[٢].
قال البغوي:{ يَذَّكَّرُونَ }، أي: يعتبرون"[٣].
فوائد الآيات:[١١-١٣]:
١- فضيلة التفكر والتذكر والتعقل وذم أضدادها لأن الآيات الكونية كالآيات القرآنية إذا لم يتفكر فيها العبد لا يهتدي إلى معرفة الحق المنشود وهو معرفة الله تعالى ليعبده بالذكر والشكر وحده دون سواه.
٢- ومن فوائد الآيات: إثبات وجود الله تعالى.

فإن وجوده -سبحانه وتعالى- يتمثل بوضوح في كل هذا الوجود، من أصغر مخلوق إلى أكبره ومن الذرة إلى المجرة، بل إن الإنسان من أكبر الأدلة على وجود الله الحكيم الخبير، فأي موجود يستطيع أن يزعم أنه هو الذي أوجد نفسه، وعلى الصورة التي أرادها أو قدر لنفسه رزقه وأجله ومصيره بعد ذلك؟! لكن هناك فئة شاذة استهواهم الشيطان فمات قلبهم وإن كانوا أحياء يرزقون، فذهبوا يعترضون على وجود الله تعالى وهذه الفئة هم الملاحدة، ولقد كثرت الردود على الملاحدة في هذه القضية الخطيرة بما لا يكاد يحتاج إلى زيادة، لكن المؤمن السليم الفطرة الذي لم تنحرف به شياطين الإنس والجن حصل في قلبه تضايق من سرد هذه الأدلة؛ فالله -عز وجل- أجل وأعظم من أن يحتاج وجوده إلى شخص من الناس يثبته أو يجادل خصومه لإثبات وجوده.

لا يمكن أن نجد إنسانًا سليم العقل والفطرة يعتقد أن الله سبحانه وتعالى يخفى على عباده، فالعقل والكون كله وجميع المخلوقات من نبات وجماد وحيوان وإنسان وغيرها ومن ساكن ومتحرك، كلها تدل على وجود الله سبحانه وتعالى، وتشهد بقدرته وحكمته ولطفه وعظمته جميع ذرات هذا الكون، ولذلك فلسنا في حاجة إلى الإتيان بحشود من الأدلة، وما أكثرها على وجود الله وما أكثرها في كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم، ففي كتاب الله وسنة نبيه -ﷺ- ما يشفي ويكفي لمن عنده أدنى شك في وجود المولى -عز وجل.

ومن العجيب أن يستدل الملاحدة على إنكار وجود الله تعالى بأدلة هي أقوى الأدلة على وجوده وخلقه لهذا الكون وتدبيره له، ولعل الذين جرءوا فنفوا وجود الله -عز وجل- إنما حملهم على هذا ما وجدوه من أوصاف الإله سبحانه في التوراة والإنجيل، التي حرفت بأيدي اليهود والنصارى، فهم يصفونه في هذه الكتب المحرفة -وحاشاه- من أنه شاخ وكبر وينسى ويأكل ويشرب ويمشي ويجلس ويحزن ويندم ويهم بالشيء ثم لا يفعله، تعالى الله عما يصفون.

نعم؛ إن مثل هذا الإله بصفاته من السهل جدًّا إنكاره، خصوصًا إذا أضفنا إليه الصفات التي وردت في التلمود، من تعلقه ببني إسرائيل وتدليله لهم وغضبه أحيانًا عليهم، ثم يضرب وجهه ويندم ويبكي ويلعب مع الحوت الكبير، إلى آخر تلك الصفات التي تدل على سقوط المتصف بها، فضلًا عن اعتقاد احترامه، ولكننا لا نبحث عن هذا الإله ولا عن الإله الذي اعتقدت الشيوعية فيه أنه يحابي الظلمة، أو أنه لا وجود له إلا في أذهان الرجعيين لأنه غير منظور وغير موجود، متجاهلين أنه ليس كل موجود حتمًا يُرى، كوجود الهواء الذي نحس به ولا نراه وكوجود العقل في الإنسان، إذ نفرق بين المجنون وبين العاقل بوجود الروح إذ نفرق بين الحي والميت، والجاذبية والمغناطيسية والكهرباء وغيرها من الأمثلة التي لا تحصى.

---

(١) بحر العلوم:٢٦٨/٢.
(٢) تفسير ابن كثير:٥٦١/٤-٥٦٢.
(٣)تفسير البغوي:١٢/٥ .

فنحن نؤمن بهذا الإله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، الإله الذي يعلم السر وأخفى، إله خلق فسوى وقدر فهدى وأخرج المرعى فجعله غثاء أحوى، نؤمن بهذا الإله الحق ونكفر ونلعن من يشك في وجوده، فلقد تيقن كل إنسان أنه لم يخلق نفسه وأن فاقد الشيء لا يعطيه، فلا المادة ولا الطبيعة خلقت أحدًا، إذ إن المادة والطبيعة مخلوقة مقهورة، كما أنه لا يجرؤ أحد على أن يقول: إنه يخلق شيئًا ما أو إنه خلق نفسه أو غيره، وقد استيقن بهذا حتى أكابر الملاحدة، وما جحد من جحد منهم وجود الله إلا عنادًا واستكبارًا وبغضًا للكنيسة ورجالها، ولقد صاح المفكرون في أوروبا وشهدوا على النصرانية والإلحاد بالضلال، وهذه الشهادة -الصادرة على ضلال هذه الطوائف من أهلها- إنما هي أكبر دليل على أن الإلحاد لا استقرار له ولا مكان، وإنما هو زوبعة عارضة ستنتهي -إن شاء الله تعالى- كما انتهت سائر الأفكار الباطلة.

ومن الذين شهدوا على ذلك من علماء أوروبا "رسل تشارلز أرمست" وهو أستاذ للأحياء والنبات بجامعة "فرانكفورت" بألمانيا حيث قال هذا الأستاذ: "لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين أو من الفيروس، أو من تجمع بعض الجزئيات البروتينية الكبيرة، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات، ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به أن جميع الجهود التي بذلت -للحصول على المادة الحية من غير الحية- قد باءت بفشل وخذلان ذريعيْن.

ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجميع الذرات والجزيئات من طريق المصادفة يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها، وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية، وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة فهذا شأنه وحده، ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازًا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله، الذي خلق الأشياء ودبرها، إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته، شهادة تقوم على الفكر والمنطق. ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيمانًا راسخًا".

ويقول "إرفنج وليم" الحاصل على الدكتوراه من جامعة "أيوا" وأخصائي وراثة النباتات، وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة "ميتشجن" يقول: "إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها، والتي لا يحصيها عد، وهي التي تتكون منها جميع المواد، كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا -بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها- كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة"، ويقول "وينشستر" المتخصص في علم الأحياء يقول: "ولقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء، وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة، وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون.

انظر إلى نبات برسيم ضئيل وقد نما على أحد جوانب الطريق، فهل تستطيع أن تجد له نظيرًا في روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة؟! إنه آلة حية تقوم بصورة دائبة -لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار- بالآلاف من التفاعلات الكيميائية والطبيعية، ويتم ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم، وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية، فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة؟!.

إن الله لم يصنعها هكذا وحدها ولكنه خلق الحياة وجعلها قادرة على صيانة نفسها، وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل، مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي

تعينها على التمييز بين نبات وآخر. إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء وأكثرها إظهارًا لقدرة الله".

هذه نماذج من أقوال علماء الغرب عن عظمة الكون وشهادته على وجود الله، وهناك عشرات -بل مئات الأدلة- على خالق هذا الكون ومدبره، وشهادة هؤلاء العلماء -كل في مجال تخصصه- شهادة حق والحق مقبول من أي شخص كان.

والملاحدة وهم ينكرون وجود الله تعالى، ولا يعترفون بأنه هو الخالق المدبر لهذا الكون وما فيه، هم أقل وأذل من أن يصلوا إلى قناعة بإنكارهم، وهذا إجرام شنيع ولم يكتفوا به، بل أضافوا إلى هذا الإجرام زعمهم أن العلم هو الذي دل على هذا، وأن البديل عن الله تعالى هي الطبيعة، التي قالوا عنها بأنها هي التي خلقت السموات والأرض والإنسان والنبات وسائر المخلوقات، فكيف تم ذلك حسب تعليلهم؟

قالوا -وبئس ما قالوا-: إن وجود هذا الكون وما فيه إنما هو نتيجة حركة أجزاء المادة، وتجمعها على نسب وكيفيات مخصوصة بوجه الضرورة بدون قصد ولا إدراك، وبسبب تلك الحركة أخذت تتجمع أجزاء المادة المختلفة الأشكال على كيفيات وأوضاع شتى، فنتجت تلك المتنوعات. هذا هو مبلغهم من العلم، مبلغهم من العلم أن كل شيء وجد بطبيعته عن طريق الصدفة والحركة التطورية دون قصد ولا إدراك، على أن هذه الطبيعة التي يزعمون أنها تفعل كل ما تريد نجد أن بعضهم لا يحترمها، بل يتعمد الإساءة إليها وإهانتها بأنواع السباب واللمز في إرادتها وقوتها ووفائها.

وإليك ما قاله وزير خارجية أكبر دول العالم وأقواها، في عتابه المرير وتهكمه بالطبيعة حينما لم تحقق لهم آمالهم وما يطلبونه منها، فقد قال "كولن باول": "إننا ندين تخلف الثلج عن موسم الأعياد، راجيًا الطبيعة الأم أن تعالج هذه المسألة". إلى أن قال: "لا يمكن لشيء أن يبرر إفساد هذا الحدث الهائل. إننا ندعو الطبيعة إلى القيام بمبادرة فورية". وقال: "إننا نعتبر استمرار الطبيعة في رفض القيام بواجباتها حيال الدول المتحضرة عملًا استفزازيًّا". فيا ترى ماذا يقصد بالطبيعة الأم؟! إنه إلحاد وكفر وسخف، فما هي الطبيعة الأم التي يتحدث عنها هؤلاء ويقولون:إنها هي التي تخلق وتحيي وتميت وترزق من تشاء وتمنع من تشاء، وتخاطب بتلك اللهجة الحارة المفتقرة إلى الأدب؟! فمن المعروف أن الطبيعة لا تخلو عن أن تكون:

أولًا: إما أن تكون هي نفس الذوات الموجودة في الكون من الحيوان والنبات والجماد، وهذه كما نرى لا يصح الاستغاثة بها ليتساقط الثلج في موسم الأعياد، ليلهوا ويلعب بها طغاة اليهود.

ثانيًا: وإما أن تكون هي صفات الأشياء الموجودة في العالم؛ من حركة وسكون وحرارة وبرودة وليونة ويبوسة إلى غير ذلك، وهذه أيضًا كذلك لا تملك لنفسها وجودًا ولا عدمًا، ومهما كان الجواب فإنه خطأ وجهل شنيع حين يسند إيجاد هذا الكون البديع عن طريق طبيعة لا تعقل، فلا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرًا ولا نفعًا، فهل يتصور أحد أن من لا يعقل يخلق من يعقل، وهل يستطيع شيء لا إرادة له ولا غاية أن يخلق كائنًا له إرادة وغاية؟!.

إن الإنسان كائن عاقل مدبر وله إرادة وله هدف وله غاية، والطبيعة ليست لها تلك الصفات فهي ناقصة، فهل يمكن للناقص أن يوجد الكامل؟! إن هذا الكون محكم متقن كما قال الله تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: ٤٠].

فالكواكب محكمة بإتقان والبحار لا يطغى بعضها على بعض، والحيوانات لا تلد إلا نفس الحيوان من جنسها، والشجرة لا تنبت إلا نفس الشجرة، وقس على هذا سائر ما تراه في هذا الكون، فالإنسان هو الإنسان والبقرة هي البقرة والكبش هو الكبش أينما اتجهت في هذه الأرض، مما يدل على أن الخالق واحد، فكيف تستطيع الطبيعة أن

تدير هذا الكون بهذه الدقة المعجزة، التي تشهد آياتها في كل ما حولنا من شؤون الكون؟! والحياة تشهد أن لها خالقًا قاهرًا.

ثم يقال أيضًا لهؤلاء الملاحدة: هل لأجزاء المادة إرادة وقصد في تنويع المخلوقات في العالم؛ من نجوم وكواكب ومعادن ونباتات وحيوانات وبشر؟! كيف يفترض إنسان أن يكون كل هذا وجد بفعل ذرات الطبيعة الصماء؟! إن المادة لا عقل لها ولا بصر كي ترتب المخلوقات وتنظم شؤونها، ولا منطق لها كي تفكر في مستقبل الأشياء وما تحتاجه، وهذا يعني أن القول بخلق الطبيعة للوجود لا يخرج عن تفسير الماء بالماء، فالأرض خلقت الأرض والسماء خلقت السماء، والأصناف صنعت نفسها والأشياء أوجدت ذواتها، فهي الحادث وهي المحدث وهي المخلوق والخالق في الوقت ذاته، وبطلان هذا القول بين وهو لا يخرج عن أمرين: إما الادعاء بأن الشيء وجد لذاته من غير سبب وهذا قول فاسد، وإما ازدواج الخالق والمخلوق في كائن واحد، فالسبب عين المسبب وهو مستحيل وهو تهافت وتناقض لا يحتاج لشرح.

ولو كانت الطبيعة هي الخالق -كما يقولون- لكانت قوانينها واحدة، المريض لابد أن يموت والصحيح لا يمرض، والنبات الذي يسقى بماء واحد لا يختلف طعم ثمره، لكننا نرى العكس أحيانًا نرى المريض يشفى والصحيح يموت بدون مرض أو علة، ونرى الزرع والنبات في ساحة واحدة يمتص غذاءه في الأرض من تراب واحد ويسقى بماء واحد، ولكن الثمر قد يختلف في المذاق وفي الألوان وفي الروائح والمنافع والمضار، فهل هذا كله من صنع الطبيعة الصماء أو المادة العمياء، وهل هذا هو العلم الذي يقولون به؟! إن هذا هو الجهل بعينه وليس بالعلم!.

ثم تأمل قول الله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرعد: ٤]. وقوله تعالى: {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} [النحل: ١٣].

وقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} [الحج: ٦٥، ٦٦]، وقوله تعالى: {أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [النمل: ٦٠ – ٦٢]، وتأمل هذه الآيات ودلالاتها إذا أردت أن تخرج من ظلمات الجهل إلى نور العلم واليقين، فهذا هو الحق وهذا هو البرهان الذي يجب أن نطأطئ له الرءوس والعقول إجلالًا وخضوعًا.

ومما يجدر بنا في هذا المقام أن نعرض لبعض ما سجله العلماء التجريبيون؛ مِن الإيمان بالله تعالى عن قناعة ويقين، من خلال بحوثهم وتجاربهم في اكتشافاتهم العلمية، وقد ذكر بعض الباحثين أمثلة كثيرة لهؤلاء العلماء، منها ما جاء في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) وقد عرض لثلاثين مقالة لمجموعة من كبار العلماء الأمريكيين، في تخصصات علمية مختلفة في علوم الكون والحياة من كيمياء وفيزياء وتشريح وأحياء وغيرها، وكلهم أدهشهم ما توصلوا إليه من ملاحظات وما شاهدوه من عجائب خلق الله سبحانه وتعالى.

فمنهم من قال: إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته؟ هناك احتمالات أربعة للإجابة على هذا السؤال.

- فإما أن يكون هذا الكون هو مجرد وهم وخيال، وهذا يتعارض مع ما سلمنا به من أنه موجود.
- وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم وهذا مرفوض بداهة.
- وإما أن يكون هذا الكون أزلي الوجود ليس لنشأته بداية وهذا الاحتمال يساوي ما يقوله المؤمنون بالله من أزلية الخالق، لكن قوانين الكون تدل على أن أصله وأساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذًا حدث من الأحداث، فلا يمكن إحالة وجود هذا الحدث المنظم البديعي إلى المصادفة عقلًا، ولذلك فهذا الاحتمال باطل.
- وإما أن يكون لهذا الكون خالق أزلي أبدعه، وهو الاحتمال الذي تقبله العقول دون اعتراض، وليس يرد على إثبات هذا الاحتمال ما يبطله عقلًا فوجب الاعتماد عليه(١).

القرآن

{وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)} [النحل : ١٤]

التفسير:

وهو الذي سخَّر لكم البحر؛ لتأكلوا مما تصطادون من سمكه لحمًا طريًا، وتستخرجوا منه زينة تَلْبَسونها كاللؤلؤ والمرجان، وترى السفن العظيمة تشق وجه الماء تذهب وتجيء، وتركبونها؛ لتطلبوا رزق الله بالتجارة والربح فيها، ولعلكم تشكرون لله تعالى على عظيم إنعامه عليكم، فلا تعبدون غيره.

قوله تعالى:{وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ} [النحل : ١٤]، أي:" وهو تعالى - بقدرته ورحمته - ذلّل لكم البحر المتلاطم الأمواج للركوب فيه والغوص في أعماقه"(٢).

قوله تعالى:{لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا} [النحل : ١٤]، أي:" لتأكلوا من البحر السمك الطريَّ الذي تصطادونه"(٣).

عن قتادة :"{لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا}، يعني: حيتان البحر"(٤).

قال الزمخشري:" {لحما طريا}: هو السمك، ووصفه بالطراءة، لأن الفساد يسرع إليه، فيسارع إلى أكله خيفة للفساد عليه. فإن قلت: ما بال الفقهاء قالوا: إذا حلف الرجل لا يأكل لحما، فأكل سمكا، لم يحنث. والله تعالى سماه لحما كما ترى؟ قلت: مبنى الإيمان على العادة، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه: اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بالسمك، كان حقيقا بالإنكار. ومثاله أن الله تعالى سمى الكافر دابة في قوله: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الأنفال : ٥٥] ، فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافرا لم يحنث" (٥).

قوله تعالى:{وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [النحل : ١٤]، أي:" وتستخرجوا منه الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان"(٦).

قال الزمخشري:" حلية هي اللؤلؤ والمرجان» والمراد بلبسهم: لبس نسائهم، لأنهن من جملتهم، ولأنهن إنما يتزين بها من أجلهم، فكأنها زينتهم ولباسهم" (٧).

عن قتادة: "{وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا}، قال: هذا اللؤلؤ"(٨).

---

(١) انظر: اتجاهات فكرية معاصرة:١٩٣-٢٠١.
(٢) صفوة التفاسير:١١٢/٢.
(٣) صفوة التفاسير:١١٢/٢.
(٤) أخرجه الطبري:١٨١/١٧.
(٥) الكشاف:٥٩٨/٢.
(٦) صفوة التفاسير:١١٢/٢.
(٧) الكشاف:٥٩٨/٢.
(٨) أخرجه الطبري:١٨١/١٧.

عن إسماعيل بن عبد الملك، قال: "جاء رجل إلى أبي جعفر، فقال: هل في حليّ النساء صدقة؟ قال: لا هي كما قال الله تعالى {حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا...}"(١).

قوله تعالى:{وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ} [النحل : ١٤]، أي:" وترى السفن العظيمة تشق عُباب البحر جاريةً فيه وهي تحمل الأمتعة والأقوات"(٢).

قال ابن قتيبة:" أي: جواري، ومخرها: خرقها للماء، و{الفلك}: السفن"(٣).

وفي قوله تعالى:{وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ} [النحل : ١٤]، وجوه:

أحدها : أي: جواري. قاله ابن عباس(٤).

الثاني : أن «المواخر»: المواقر ، قاله الحسن-في إحدى الروايات-(٥).

الثالث : أنها التي تجري فيه متعرّضة، قاله أبو صالح(٦).

الرابع : أنها تمخر الريح من السفن، ولا تمخر الريح من السفن، إلا الفلك العظام. قاله مجاهد(٧).

عن ابن زيد، قوله :"{مَوَاخِرَ}، قال: تمخر الريح"(٨).

وقال الفراء: أنها "صوت جري الفلك بالرياح"(٩).

الخامس: المعنى: السفينتان تجريان بريح واحدة كل واحدة مستقبلة الأخرى، قاله الحسن(١٠)، والضحاك(١١)، و قتادة(١٢).

السادس : أنها تشق الماء بصدرها. قاله عكرمة(١٣).

وقال عكرمة:" ما أخذ عن يمين السفينة وعن يسارها من الماء، فهو المواخر"(١٤).

قال ابن عيسى:"أنها التي تشق الماء من عن يمين وشمال، لأن المخر في كلامهم شق الماء وتحريكه "(١٥).

قال أبو عبيدة:" من مخرت الماء، أي شقّته بجآجئها"(١٦). "«مخرت السفن الماء» والمعنى: شقّت"(١٧).

قال الفراء:" مخرها: خرقها للماء إذا مرت فيه، واحدها ماخرة"(١٨).

قال ابن قتيبة:"{ مواخر فيه}، أي: جواري تشق الماء. يقال: مخرت السفينة. ومنه مخر الأرض، إنما هو شق الماء لها"(١٩).

قال الزمخشري:" المخر: شق الماء بحيزومها" (٢٠).

---

(١) أخرجه الطبري:١٨١/١٧.
(٢) صفوة التفاسير:١١٢/٢-١١٣.
(٣) غريب القرآن:٢٤٢، و٣٦٠.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٨٥):ص٢٢٧٨/٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري:١٨١/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٨١/١٧.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٨٦):ص٢٢٧٨/٧.
(٨) أخرجه الطبري:١٨٢/١٧.
(٩) انظر: معاني القرآن:٩٨/٢.
(١٠) انظر:تفسير الطبري:١٨٢/١٧.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٨٨):ص٢٢٧٩/٧.
(١٢) انظر:تفسير الطبري:١٨٢/١٧.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٨٧):ص٢٢٧٩/٧.
(١٤) أخرجه الطبري:١٨١/١٧.
(١٥) انظر: النكت العيون:١٨٢/٣.
(١٦) مجاز القرآن:٣٥٧/١.
(١٧) المصدر نفسه:١٥٣/٢.
(١٨) مجاز القرآن:٣٦٨/٢.
(١٩) غريب القرآن:٢٤٢.
(٢٠) الكشاف:٥٩٨/٢.

قال ابن جرير الطبري:" «المخْر» في كلام العرب: صوت هبوب الريح، إذا اشتدّ هبوبها، وهو في هذا الموضع: صوت جري السفينة بالريح إذا عصفت وشقها الماء حينئذ بصدرها، يقال منه: مخرت السفينة تمخر مخرا ومخورا، وهي ماخرة، ويقال: امتخرت الريح وتمخرتها: إذا نظرتَ من أين هبوبها وتسمَّعت صوت هبوبها، ومنه قول واصل مولى ابن عيينة. كان يقال: إذا أراد أحدكم البول فليتمخر الريح، يريد بذلك: لينظر من أين مجراها وهبوبها ليستدبرها فلا ترجع عليه البول وتردّه عليه"(١).

قوله تعالى:{وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} [النحل : ١٤]، أي:" سخر لكم البحر لتنتفعوا بما ذُكر ولتطلبوا من فضل الله ورزقه سبل معايشكم بالتجارة"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولتتصرّفوا في طلب معايشكم بالتجارة سخر لكم"(٣).

قال الزمخشري:" ابتغاء الفضل: التجارة" (٤).

عن مجاهد :"{وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ}، قال: تجارة البرّ والبحر"(٥).

عن السدي قوله: "{وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ}، قال: هو التجارة"(٦).

قوله تعالى:{وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل : ١٤]، أي:" ولتشكروا ربكم على عظيم إنعامه وجليل إفضاله"(٧).

قال الطبري:" يقول: ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم من ذلك سخر لكم ما سخر من هذه الأشياء التي عدّدها في هذه الآيات"(٨).

الفوائد:

١- تسخير ما في الكون للإنسان.
٢- بيان العلة في الرزق وأنها الشكر فالله سبحانه وتعالى يرزق ليشكر.
٣- إباحة أكل الحوت وكل دواب البحر، فحدثنا ربنا - تبارك وتعالى - عن تسخيره البحر لنا، والبحر في هذه الأرض أكثر من اليابسة، وقد سخر لنا هذا البحر الشاسع الواسع المتلاطم بالأمواج، وجعل فيه الأسماك والحيتان، وأحلها لعباده، ولحمها طري صالح للأكل، وجعل فيها الحلي التي نستخرجها من البحار.
٤- لا زكاة في اللؤلؤ والمرجان لأنه من حلية النساء.

القرآن

{وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)} [النحل : ١٥]

التفسير:

وأرسى في الأرض جبالا تثبتها حتى لا تميل بكم، وجعل فيها أنهارًا؛ لتشربوا منها، وجعل فيها طرقًا؛ لتهتدوا بها في الوصول إلى الأماكن التي تقصدونها.

قوله تعالى:{وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ} [النحل : ١٥] ، أي:"ونصب في الأرض جبالاً ثوابت راسيات لئلا تضطرب بكم وتميل"(٩).

قال ابن قتيبة:" أي: جبالا ثوابت لا تبرح. وكل شيء ثبت فقد رسا، لئلا تميد بكم الأرض. والميد: الحركة والميل. ومنه يقال: فلان يميد في مشيته: إذا تكفأ"(١).

---

(١)تفسير الطبري:١٨٢/١٧ .
(٢) صفوة التفاسير:١١٣/٢.
(٣)تفسير الطبري:١٨٢/١٧ .
(٤) الكشاف:٥٩٨/٢.
(٥) اخرجه الطبري:١٨٢/١٧.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٨٩):ص٢٢٧٩/٧.
(٧) صفوة التفاسير:١١٣/٢.
(٨)تفسير الطبري:١٨٢/١٧ .
(٩) صفوة التفاسير:١١٣/٢.

قال الزجاج:" رواسي) جبالا رواسي ثوابت، {أن تميد}، معناه: كراهة أن تميد، ومعنى «تميد» لا تستقر، يقال: ماد الرجل يميد ميدا، إذا دير به والميدى: الذين يدار بهم إذا ركبوا في البحر"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن نعمه عليكم أيها الناس أيضا، أن ألقى في الأرض رواسي، وهي جمع راسية، وهي الثوابت في الأرض من الحبال. وقوله {أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ} يعني: أن لا تميد بكم، وذلك كقوله {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا}، والمعنى: أن لا تضلوا. وذلك أنه جلّ ثناؤه أرسى الأرض بالجبال لئلا يميد خلقه الذي على ظهرها، بل وقد كانت مائدة قبل أن تُرْسَى بها، ، و«الميد»: هو الاضطراب والتكفؤ، يقال: مادت السفينة تميد ميدا: إذا تكفأت بأهلها ومالت، ومنه الميد الذي يعتري راكب البحر، وهو الدوار"(٣).

قال الثعلبي:" يعني: لئلا تميد بكم، أي تتحرك وتميل، والميل: هو الاضطراب والتكفؤ، ومنه قيل للدوار الذي يعتري راكب البحر: ميد"(٤).

قال القرطبي:" أي جبالا ثابتة. رسا يرسو إذا ثبت وأقام. قال(٥):

فَصَبَرْتُ نَفْسًا عِنْدَ ذَلِكَ حُرَّةً ... تَرْسُو إِذَا نَفَسُ الجبَانِ تَطَلّع

{أن تميد بكم}، أي: لئلا تميد، عند الكوفيين. وكراهية أن تميد، على قول البصريين. والميد: الاضطراب يمينا وشمالا"(٦).

عن مجاهد :"{أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ} : أن تكفأ بكم"(٧).

قال الفراء:" { أن تميد بكم}، لئلا تميد بكم"(٨).

عن قتادة، عن الحسن، قوله :"{وَأَلْقَى فِي الأرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ}، قال: الجبال أن تميد بكم. قال قتادة: سمعت الحسن يقول: لما خلقت الأرض كادت تميد، فقالوا: ما هذه بمقرّة على ظهرها أحدا، فأصبحوا وقد خُلقت الجبال، فلم تدر الملائكة مم خُلقت الجبال"(٩).

عن قيس بن عباد: "أن الله تبارك وتعالى لما خلق الأرض جعلت تمور، قالت الملائكة. ما هذه بمقرّة على ظهرها أحدا، فأصبحت صبحا وفيها رواسيها"(١٠).

قال عليّ بن أبي طالب،: "لما خلق الله الأرض قمصت، وقالت: أي ربّ أتجعل عليّ بني آدم يعملون عليّ الخطايا ويجعلون عليّ الخبث، قال: فأرسى الله عليها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان قرارها كاللحم يترجرج"(١١).

قال وهب: "لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتمور، فقالت الملائكة: إن هذه غير مقرة أحدا على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ولم تدر الملائكة مم خلقت الجبال"(١٢).

---

(١) غريب القرآن:٢٤٢.

(٢)معاني القرآن:١٩٣/٣ .

(٣) أخرجه الطبري:١٨٣/١٧.

(٤) الكشف والبيان:١١/٦.

(٥) البيت لعنتره في ديوانه: ٨٩ من أبيات، يقول قبله، يذكر الغراب، ويتشاءم به. إنَّ الَّذِينَ نَعَبْتَ لِي بِفِرَاقِهِمْ ... قَدْ أَسْهَرُوا لَيْلَ التِّمَامِ وأَوْجَعُوا

وَعَرَفْتُ أَنَّ مَنِيَّتِي إِنْ تَأْتِنِي ... لا يُنْجِنِي مِنْهَا الفِرَارُ الأسْرَعُ

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذَلِكَ حُرَّةً ... .

و" نفس عارفة "، حاملة الشدائد صبور، إذا حملت على أمر احتملته، من طول مكابدتها لأهوال هذه الحياة. و" ترسو "، تثبت. و" تطلع "، تنزو متلفتة إلى مهرب، أو ناصر، من الجزع والرعب.

(٦) تفسير القرطبي:٩٠/١٠.

(٧) أخرجه الطبري:١٨٣/١٧.

(٨) معاني القرآ:٣٢٧/٢.

(٩) أخرجه الطبري:١٨٣/١٧-١٨٤.

(١٠) أخرجه الطبري:١٨٣/١٧.

(١١) أخرجه الطبري:١٨٣/١٧.

(١٢) الكشف والبيان:١١/٦.

قال الرازي:" المشهور عن الجمهور في تفسير هذه الآية أن قالوا: إن السفينة إذا ألقيت على وجه الماء، فإنها تميد من جانب إلى جانب، وتضطرب، فإذا وضعت الأجرام الثقيلة في تلك السفينة استقرت على وجه الماء فاستوت. قالوا فكذلك لما خلق الله تعالى الأرض على وجه الماء اضطربت ومادت، فخلق الله تعالى عليها هذه الجبال الثقال فاستقرت على وجه الماء بسبب ثقل هذه الجبال"(١).

قوله تعالى:{وَأَنْهَارًا} [النحل : ١٥]، أي:" وجعل في الأرض أنهاراً"(٢).

قال النسفي:أي:" وجعل فيها أنهارا، لأن «ألقى فيه» معنى:«جعل»"(٣).

قال الطبري:" يقول: وجعل فيها أنهارا، فعطف بالأنهار على الرواسي، وأعمل فيها ما أعمل في الرواسي، إذ كان مفهوما معنى الكلام والمراد منه، وذلك نظير قول الراجز(٤):

تَسْمَعُ في أجْوَافِهِنَّ صَوْرَا ... وفي اليَدَيْنِ حَشَّةً وبَوْرا

والحشة: اليُبس، فعطف بالحشة على الصوت، والحشة لا تسمع، إذ كان مفهوما المراد منه وأن معناه وترى في اليدين حَشَّةً"(٥).

قوله تعالى:{وَسُبُلًا} [النحل : ١٥]، أي:" وجعل في الأرض طرقاً ومسالك"(٦).

قال النسفي:أي:"طرقا"(٧).

قال الطبري: "معنى الكلام :" وجعل لكم أيها الناس في الأرض سُبلا وفجاجا تسلكونها، وتسيرون فيها في حوائجكم، وطلب معايشكم رحمة بكم، ونعمة منه بذلك عليكم ولو عماها عليكم لهلكتم ضلالا وحيرة"(٨).

عن قتادة، قوله :"{سُبُلا}، أي: طرقا"(٩).

قوله تعالى:{لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [النحل : ١٥]، أي:" لكي تهتدوا بهذه الطرق الأماكن التي تقصدون"(١٠).

قال النسفي: يعني:" إلى مقاصدكم أو إلى توحيد ربكم"(١١).

قال الطبري:" يقول: لكي تهتدوا بهذه السبل التي جعلها لكم في الأرض إلى الأماكن التي تقصدون والمواضع التي تريدون، فلا تضلوا وتتحيروا"(١٢).

الفوائد:

الفوائد:

---

(١) مفاتيح الغيب:١٨٩/٢٠.

(٢) صفوة التفاسير:١١٣/٢.

(٣) تفسير النسفي:٢٠٦/٢.

(٤)هذا من الرجز، ولم أقف على قائله. والصور الصوت (اللسان) ، أو لعله محرف عن الضور بالضاد، والمراد به: الصوت يشبه الأنين في الجوف من شدة الجوع، قال في اللسان: الضور: شدة الجوع. والتضور، التلوي والصياح، من وجع الضرب أو الجوع. وتضور الذئب والكلب والأسد والثعلب: صاح عند الجوع. والحشة، بتشديد الشين " اليبس، يقال حشت اليد وأحشت وهو محش: يبست. وأكثر ذلك في الشلل. والبور بالفتح: مصدر بار، بمعنى هلك وفسد. والبور أيضًا: الهالك الفاسد، ولعله يريد وصف ناقته بأنه أضر بها الجوع فصاحت، وأن في يديها يبسا أي شللا وفسادا. وقد بين الإمام الطبري موضع الشاهد في التفسير.

(٥) تفسير الطبري:١٨٤/١٧.

(٦) صفوة التفاسير:١١٣/٢.

(٧) تفسير النسفي:٢٠٦/٢.

(٨) تفسير الطبري:١٨٤/١٧.

(٩) أخرجه الطبري:١٨٤/١٧.

(١٠) صفوة التفاسير:١١٣/٢.

(١١) تفسير النسفي:٢٠٦/٢.

(١٢) تفسير الطبري:١٨٤/١٧.

١- قوله تعالى:{وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم }، دليل على استقرار الأرض وسكونها، واعتقاد المسلمين كافة بأن الأرض ثابتة تبعاً لما امتن الله به علينا بقوله: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ} [النحل : ١٥/ لقمان:١٠].
٢- دلّت قوله تعالى: {وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم } على أن الجبال مثل الثقل للأرض؛ لئلا تميد أي: تضرب في سيرها، لأن الأرض قد أرسيت بالجبال من جميع نواحيها والجبال متوجهة بثقلها نحو المركز الذي هو وسط الأرض، فصارت الجبال للأرض، كالأوتاد التي تمنعها من الحركة. ولهذا قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا}[النبأ:٦-٧].

قال ابن منظور في لسان العرب: "وأوتاد الأرض؛ لأنها تثبتها، وأوتاد البلاد: رؤساؤها. وأوتاد الفم: أسنانه على التشبيه"[١].

فهذه الآية وما في معناها من الآيات الكثيرة من أوضح الأدلة على ثبات الأرض واستقرارا، وقد استدل بها الراسخون في العلم على ذلك.

القرآن

{وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)} [النحل : ١٦]

التفسير:

وجعل في الأرض معالم تستدلُّون بها على الطرق نهارًا، كما جعل النجوم للاهتداء بها ليلا.

قوله تعالى:{وَعَلَامَاتٍ} [النحل : ١٦]، أي:" وجعل في الأرض معالم تستدلُّون بها على الطرق نهارًا"[٢].

قال الطبري: أي:" وجعل لكم أيها الناس علامات تستدلون بها نهارا على طرقكم في أسفاركم"[٣].

قال النسفي:" هي: معالم الطرق وكل ما يستدل به السابلة من جبل وغير ذلك"[٤].

وفي قوله تعالى:{وَعَلَامَاتٍ} [النحل : ١٦]، أربعة أقوال:

أحدها : أنها معالم الطريق بالنهار ، وبالنجوم يهتدون بالليل ، قاله ابن عباس[٥].

الثاني : أنها النجوم أيضاً لأن من النجوم ما يهتدي بها ، قاله مجاهد[٦]، وقتادة[٧]، وإبراهيم النخعي[٨].

قال قتادة:" «العلامات»: النجوم، وإن الله تبارك وتعالى إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصلات: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدي بها، وجعلها رجوما للشياطين. فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد رأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلَّف ما لا علم له به"[٩].

قال الزجاج:" خلق الله - جل ثناؤه - النجوم لأشياء، منها أنها جعلت زينة للسماء الدنيا، ومنها أنها جعلت رجوما للشياطين، ومنها أنها يهتدى بها، ومنها أنها يعلم بها عدد السنين والحساب"[١٠].

الثالث :أنها أنهار الجبال. قاله السدي[١١].

---

(١) اللسان:٤٤٥/٣.
(٢) التفسير الميسر:٢٦٩.
(٣) تفسير الطبري:١٨٦/١٧.
(٤) تفسير النسفي:٢٠٧/٢.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٩٦).:ص٢٢٧٩/٧، وتفسير الطبري:١٨٥/١٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٨٥/١٧.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٩٤).:ص٢٢٧٩/٧، وتفسير الطبري:١٨٥/١٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:١٨٥/١٧.
(٩) أخرجه الطبري:١٨٥/١٧.
(١٠) معاني القرآن:١٩٣/٣.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٤٩٥).:ص٢٢٧٩/٧

الرابع: أن «العلامات»: الجبال. رواه الطبري عن الكلبي(١).

قال ابن جرير الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره عدّد على عباده من نعمه، إنعامه عليهم بما جعل لهم من العلامات التي يهتدون بها في مسالكهم وطرقهم التي يسيرونها، ولم يخصص بذلك بعض العلامات دون بعض، فكلّ علامة استدلّ بها الناس على طرقهم، وفجاج سبُلهم، فداخل في قوله {وَعَلامَاتٍ} والطرق المسبولة: الموطوءة، علامة للناحية المقصودة، والجبال علامات يهتدي بهن إلى قصد السبيل، وكذلك النجوم بالليل. غير أن الذي هو أولى بتأويل الآية أن تكون العلامات من أدلة النهار، إذ كان الله قد فصل منها أدلة الليل بقوله {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} وإذا كان ذلك أشبه وأولى بتأويل الآية، فالواجب أن يكون القول في ذلك ما قاله ابن عباس في الخبر الذي رويناه عن عطية عنه، وهو أن العلامات معالم الطرق وأماراتها التي يهتدى بها إلى المستقيم منها نهارا، وأن يكون النجم الذي يهتدى به ليلا هو الجدي والفرقدان، لأن بها اهتداء السفر دون غيرها من النجوم"(٢).

قوله تعالى:{وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [النحل : ١٦]، أي:" وبالنجوم يهتدون ليلاً في البراري والبحار"(٣).

قال الطبري: أي:" ونجوما تهتدون بها ليلا في سُبلكم"(٤).

قال ابن عباس:" يعني: بالليل"(٥).

وفي «النجم»، ثلاثة أقوال(٦):

أحدهما : أنه جمع النجوم الثابتة، فعبر عنها بالنجم الواحد إشارة إلى الجنس .

الثاني : أنه الجدي وحده لأنه أثبت النجوم كلها في مركزه .

الثالث: أنه الجدي والفرقدان. حكاه الفراء(٧).

وفي المراد بالاهتداء بها قولان :

أحدهما : أنه أراد الاهتداء بها في جميع الأسفار ، حكاه الماوردي عن الجمهور(٨).

الثاني : أنه أراد الاهتداء به في القِبلة .

قال ابن عباس : "سألت رسول الله -ﷺ- عن قوله تعالى:{وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}، قال: «هو الجدي يا ابن عباس عليه قبلتكم ، وبه تهتدون في بركم وبحركم»"(٩).

الفوائد:

١- جواز الاستدلال بالنجوم على جهة القبلة وغيرها من الجهات، قال تعالى: {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}، وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأنعام : ٩٧].

٢- بطلان «النوء»، وهو من الاعتقاد في النجوم الذي سبق بسط القول في بيان بطلانه فإنهم يعتقدون أن لمطالع الكواكب ومغاربها وسيرها وانتقالها واقترانها وافتراقها تأثيرا في هبوب الرياح وسكونها، وفي مجيء المطر وتأخره، وفي رخص الأسعار وغلائها وغير ذلك. فإذا وقع شيء من الحوادث نسبوه إلى النجوم فقالوا: هذا بنوء عطارد أو المشتري أو المريخ أو كذا أو كذا.

---

(١) انظر:تفسير الطبري:١٨٦/١٧.

(٢) تفسير الطبري:١٨٦/١٧.

(٣) صفوة التفاسير:١١٣/٢.

(٤) تفسير الطبري:١٨٦/١٧.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٤٩٦):ص٢٢٧٩/٧.

(٦) انظر:: النكت والعيون:١٨٣/٣.

(٧) انظر: معاني القرآن:٩٨/٢.

(٨) انظر:: النكت والعيون:١٨٣/٣.

(٩) النكت والعيون:١٨٣/٣.

ورد الله تعالى ذلك عليهم وأكذبهم بما أنزله على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الرُّومِ: ٤٨-٥٠] وقال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ، هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [لُقْمَانَ: ١٠-١١] وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} [الْوَاقِعَةِ: ٧٥-٨٢][١].

روي عن زيد بن خالد الجهني، قال: «صلى لنا رسول الله - ﷺ - صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس. قال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادى مؤمن بى - قال إسحاق: كافر بالكوكب - ومؤمن بالكوكب كافر بى، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا، وكذا، فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب»[٢].

وقد استدل بعض المنجمين بآيات من كتاب الله على صحة علم التنجيم ١-منها قوله: {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}.

والجواب أنه ليس المراد بهذه الآية أن النجوم علامات على الغيب يهتدي بها الناس في علم الغيب، وإنما المعنى وعلامات، أي: دلالات على قدرة الله وتوحيده.

فالاستدلال بها على صحة علم التنجيم استدلال على ما يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام بما لا يدل عليه لا نصًّا ولا ظاهرًا، وذلك أفسد أنواع الاستدلال، فإن الأحاديث جاءت عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم وذمه، منها

- حديث " من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد "[٣].
- عن على قال: قال رجل: يا رسول الله متى الساعة فزبره رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، حتى إذا صلى الفجر رفع رأسه إلى السماء فقال: تبارك خالقها ورافعها ومبدلها وطاويها كطى السجل للكتاب ثم نظر إلى الأرض فقال: تبارك خالقها وواضعها ومبدلها وطاويها كطى السجل للكتاب ثم قال: أين السائل عن الساعة فجثى رجل من آخر القوم على ركبتيه فإذا هو عمر بن الخطاب، فقال رسول الله - ﷺ -: عند حيف الأئمة، وتكذيب بالقدر، وإيمان بالنجوم، وقوم يتخذون الأمانة مغنما والزكاة مغرما والفاحشة زيارة، فسألته عن الفاحشة زيارة فقال: الرجلان من أهل الفسق يصنع أحدهما طعاما وشرابا ويأتيه بالمرأة فيقول: اصنع لى كما صنعت، فيتزاورون على ذلك هلكت أمتى يا ابن الخطاب"[٤].
- أخرج عبد بن حميد عن رجاء بن حيوة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "مما أخاف على أمتي التصديق بالنجوم والتكذيب بالقدر وظلم الأئمة"[٥].

---

(١) انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول:٩٨٠/٣.

(٢)أخرجه أحمد (١١٧/٤، رقم ١٧١٠٢) ، والبخارى (٢٩٠/١، رقم ٨١٠) ، ومسلم (٨٣/١، رقم ٧١) ، والنسائى (٥٦٢/١، رقم ١٨٣٣) . وأخرجه أيضا: الشافعى (٨٠/١) ، وأبو داود (١٦/٤، رقم ٣٩٠٦) ، وابن حبان (٤١٧/١، رقم ١٨٨) ، وأبو عوانة (٢٦/١) ، والبيهقى (٣٥٧/٣، رقم ٦٢٤٣).

(٣)أخرجه أحمد (٣١١/١، رقم ٢٨٤١) ، وأبو داود (١٥/٤، رقم ٣٩٠٥) ، والبيهقى (١٣٨/٨، رقم ١٦٢٩٠ ١٦٢٩٠) . وأخرجه أيضا: ابن أبى شيبة (٢٣٩/٥، رقم ٢٥٦٤٦) ، وابن ماجه (١٢٢٨/٢، رقم ٣٧٢٦).

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى [كنز العمال ٣٩٦٤٣]، وأخرجه أيضا: البزار (١٤٥/٢، رقم ٥٠٧). ٥٠٧).

(٥) الدر المنثور:٣١/٨.

- وعن أبي محجن مرفوعًا: " أخاف على أمتى من بعدى ثلاثا حيف الأئمة وإيمانا بالنجوم وتكذيبا بالقدر "(١).
- . أخرج أبو يعلى وابن مردويه والخطيب عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أخاف على أمتي خصلتين تكذيبا بالقدر وتصديقا بالنجوم وفي لفظ: وحذقا بالنجوم"(٢).
- وروى الإمام أحمد والبخاري عن ابن عمر مرفوعًا: " مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم أحد ما يكون فى غد إلا الله ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ولا يدرى أحد متى يجىء المطر إلا الله"(٣).
- وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: " لقد طهر الله أهل هذه الجزيرة من الشرك إن لم تضلهم النجوم"(٤).
- وعن ابن عمر مرفوعًا: "تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا"(٥).
- وعن أبي هريرة قال: "نهى رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم"(٦).
- عن على قال: "نهانى رسول الله - ﷺ - عن النظر فى النجوم وأمرنى بإسباغ الطهور"(٧).
- وأخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يقول:" لا تسألوا عن النجوم ولا تفسروا القرآن برأيكم ولا تسبوا أحدا من أصحابي فإن ذلك الايمان المحض"(٨).
- وأخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية والخطيب عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ إذا ذكر أصحابي فامسكوا وإذا ذكر القدر فامسكوا وإذا ذكر النجوم فامسكوا"(٩).
- وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والخطيب عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخاف على أمتي خصلتين تكذيبا بالقدر وتصديقا بالنجوم". وفي لفظ: «وحذقا بالنجوم»"(١٠).
- وأخرج ابن أبي شيبة وأبوداود وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم من اقتبس علما من النجوم أقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد"(١).

---

(١)أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم (٤٨/٢) ، وابن عساكر (٤٠١/٥٨) ، وذكره الرافعى (٣٩٠/٢) . قال الحافظ فى الإصابة (٣٦٠/٧، ترجمة ١٠٥٠١) : فيه أبو سعد البقال سعيد بن المرزبان، ضعيف مدلس.
ومن غريب الحديث: "حيف الأئمة": ظلمهم.
(٢) الدر المنثور:٣٣٠/٣.
(٣)أخرجه أحمد (٢٤/٢، رقم ٤٧٦٦) ، والبخارى (٢٦٨٧/٦، رقم ٦٩٤٤) .
.
(٤)أخرجه أيضا: البزار (١٣١/٤، رقم ١٣٠٣) ، وأبو يعلى (٦٩/١٢، رقم ٦٧٠٩) ، والطبرانى فى الأوسط (١٨٠/١، رقم ٥٧٦) جميعا بنحوه. قال الهيثمى (٢٩٩/٣) : رواه أبو يعلى، والبزار بنحوه، والطبرانى فى الأوسط، وفيه قيس بن الربيع، وثقه شعبة والثورى، وضعفه الناس، وبقية رجال أبى يعلى ثقات. وقال فى موضع آخر (١١٦/٥) : رواه أبو يعلى، والطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه قيس بن الربيع، وثقه شعبة والثورى، وضعفه الناس، وبقية رجاله ثقات.
(٥)أبو داود: الملاحم (٤٣٣٨) ، وأحمد (٥/١، ٧/١، ٩/١).
(٦)أخرجه أيضا: ابن حبان فى الضعفاء (١٩٩/٢، ترجمة ٥٠) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٠٦/٤، رقم ٥١٩٨) ، وابن عدى (٢٧٨/٥، ترجمة ١٤١٥) ، والخطيب (١٣٣/٦) .
وأورده السيوطي في الدر المنثور:٣٢٩/٣، وعزاه إلى ابن مردويه والمرهبي والخطيب..
(٧)أخرجه الخطيب فى موضح أوهام الجمع والتفريق (٨١/٢، رقم ١٨٣) .
(٨) الدر المنثور:٣٢٩/٣.
(٩) الدر المنثور:٣٣٠/٣.
(١٠) الدر المنثور:٣٣٠/٣.

- وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة والخطيب عن ابن عباس قال: إن قوما ما ينظرون في النجوم ويحسبون ابراجا وما أرى الذين يفعلون ذلك من خلاق"[٢].
- وأخرج الخطيب عن ميمون بن مهران قال: قلت لابن عباس أوصني، قال: أوصيك بتقوى الله وإياك وعلم النجوم فإنه يدعوا إلى الكهانة وإياك أن تذكر أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ إلا بخير فيكبك الله على وجهك في جهنم فإن الله أظهر بهم هذا الدين وإياك والكلام في القدر فإنه ما تكلم فيه اثنان إلا اثما أو اثم أحدهما"[٣].
- وأخرج الخطيب في كتاب النجوم بسند ضعفه عن عطاء قال:" قيل لعلي بن أبي طالب: هل كان للنجوم أصل قال: نعم كان نبي من الأنبياء يقال له يوشع بن نون فقال له قومه: انا لا نؤمن بك حتى تعلمنا بدء الخلق وآجاله فأوحى الله تعالى إلى غمامة فأمطرتهم واستنقع على الجبل ماء صافيا ثم أوحى الله إلى الشمس والقمر والنجوم أن تجري في ذلك الماء ثم أوحى إلى يوشع بن نون أن يرتقي هو وقومه على الجبل فارتقوا الجبل فقاموا على الماء حتى عرفوا بدء الخلق وآجاله بمجاري الشمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنهار فكان أحدهم يعلم متى يموت ومتى يمرض ومن ذا الذي يولد له ومن الذي لا يولد له، قال: فبقوا كذلك برهة من دهرهم ثم إن داود عليه السلام قاتلهم على الكفر فأخرجوا إلى داود في القتال من لم يحضر أجله ومن حضر أجله خلفوه في بيوتهم فكان يقتل من أصحاب داود ولا يقتل من هؤلاء أحد فقال داود رب ها أنا أقاتل على طاعتك ويقاتل هؤلاء على معصيتك فيقتل أصحابي ولا يقتل من هؤلاء أحد فأوحى الله إليه: أني كنت علمتهم بدء الخلق وآجاله وإنما أخرجوا إليك من لم يحضر أجله ومن حضر أجله خلفوه في بيوتهم فمن ثم يقتل من أصحابك ولا يقتل منهم أحد، قال داود: يا رب على ماذا علمتهم قال: على مجاري الشمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنهار فدعا الله فحبست الشمس عليهم فزاد في النهار فاختلطت الزيادة بالليل والنهار فلم يعرفوا قدر الزيادة فاختلط عليهم حسابهم. قال علي رضي الله عنه: فمن ثم كره النظر في النجوم"[٤].
- وأخرج المرهبي في فضل العلم عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: "لما فتح الله على نبيه ﷺ خيبر دعا بقوسه واتكأ على سيتها وحمد الله وذكر ما فتح الله على نبيه ونصره ونهى عن خصال: عن مهر البغي وعن خاتم الذهب وعن المياثر الحمر وعن لبس الثياب القسي وعن ثمن الكلب وعن أكل لحوم الحمر الأهلية وعن الصرف الذهب بالذهب والفضة بالفضة بينهما فضل وعن النظر في النجوم"[٥].
- وأخرج المرهبي عن مكحول قال: قال ابن عباس: "لا تعلم النجوم فانها تدعو إلى الكهانة"[٦].
- وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: "قال رسول الله ﷺ أن متعلم حروف أبي جاد وراء في النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيامة"[٧].

٣- ومن الفوائد: أن علم النجوم ينقسم إلى قسمين:
أحدهما: علم التأثير. والثاني: علم التسيير.
فالأول: علم التأثير. وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) الدر المنثور:٣٣٠/٣.
(٢) الدر المنثور:٣٣٠/٣.
(٣) الدر المنثور:٣٣٠/٣.
(٤) الدر المنثور:٣٣٠/٣-٣٣١.
(٥) الدر المنثور:٣٣١/٣.
(٦) الدر المنثور:٣٣١/٣.
(٧) الدر المنثور:٣٣١/٣.

أ- أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة، بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور؛ فهذا شرك أكبر؛ لأن من ادعى أن مع الله خالقا؛ فهو مشرك شركا أكبر؛ فهذا جعل المخلوق المسخر خالقا مسخرا.

ب- أن يجعلها سببا يدعي به علم الغيب؛ فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا؛ لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا، مثل أن يقول: هذا الإنسان ستكون حياته شقاء؛ لأنه ولد في النجم الفلاني، وهذا حياته ستكون سعيدة؛ لأنه ولد في النجم الفلاني؛ فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلة لا دعاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة؛ لأن الله يقول: {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله} [سورة النمل: من الآية ٦٥] وهذا من أقوى أنواع الحصر؛ لأنه بالنفي والإثبات، فإذا ادعى أحد علم الغيب؛ فقد كذب القرآن.

ت- أن يعتقدها سببا لحدوث الخير والشر، أي أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئا إلا بعد وقوعه؛ فهذا شرك أصغر.

فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله في الكسوف: " إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده "(١)؛ فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

فالجواب من وجهين:

الأول: أنه لا يسلم أن للكسوف تأثيرا في الحوادث والعقوبات، من الجدب والقحط والحروب، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أما بعد أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد"(٢)، لا في ما مضى ولا في المستقبل، وإنما يخوف الله بهما العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثاني: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيرا؛ فإن النص قد دل على ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به، لكن يكون خاصا به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب: أننا لا نسلم أصلا أن لهما تأثيرا في هذا؛ لأن الحديث لا يقتضيه؛ فالحديث ينص على التخويف، والمخوف هو الله تعالى، والمخوف عقوبته، ولا أثر للكسوف في ذلك، وإنما هو علامة فقط.

الثاني: علم التسيير. وهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية؛ فهذا مطلوب، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجبا، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة؛ فالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبلة، والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبلة؛ فهذا فيه فائدة عظيمة.

الثاني: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية؛ فهذا لا بأس به، وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات؛ كمعرفة أن القطب يقع شمالا، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالا، وهكذا؛ فهذا جائز، قال تعالى: {وعلامات وبالنجم هم يهتدون} [سورة النحل: الآية ١٦] .

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر؛ فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون.

والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل: طلع النجم الفلاني؛ فهو وقت الشتاء أو الصيف: أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو بالحر أو بالرياح.

والصحيح عدم الكراهة-والله أعلم-(٣).

---

(١)أخرجه أحمد (٤٢٨/٥، رقم ٢٣٦٧٩) ، وابن سعد (١٤٢/١).
(٢)أخرجه أحمد (٤٢٨/٥، رقم ٢٣٦٧٩) ، وابن سعد (١٤٢/١).
(٣) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد:٦/٢-٧.

القرآن

{أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧)} [النحل : ١٧]

التفسير:

أتجعلون الله الذي يخلق كل هذه الأشياء وغيرها في استحقاق العبادة كالآلهة المزعومة التي لا تخلق شيئًا؟ أفلا تتذكرون عظمة الله، فتفردوه بالعبادة؟

قوله تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ} [النحل : ١٧]، أي:" أتجعلون الله الذي يخلق كل هذه الأشياء وغيرها في استحقاق العبادة كالآلهة المزعومة التي لا تخلق شيئًا؟"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لعبدة الأوثان والأصنام: أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددناها عليكم وينعم عليكم هذه النعم العظيمة، كمن لا يخلق شيئا ولا ينعم عليكم نعمة صغيرة ولا كبيرة؟ يقول: أتشركون هذا في عبادة هذا؟ يعرّفهم بذلك عظم جهلهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، وقلَّة شكرهم لمن أنعم عليهم بالنعم التي عدّدها عليهم، التي لا يحصيها أحد غيره"[٢].

قال المراغي:" أي: أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددناها عليكم وينعم هذه النعم العظيمة- كمن لا يخلق شيئا ولا ينعم نعما صغيرة ولا كبيرة [٣].

قال السعدي:" لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة، وما أنعم به من النعم العميمة ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفء له ولا ند له فقال: {أفمن يخلق} جميع المخلوقات وهو الفعال لما يريد {كمن لا يخلق} شيئا لا قليلا ولا كثيرا"[٤].

قال الزمخشري:" فإن قلت: كمن لا يخلق أريد به الأصنام، فلم جيء بـ«من» الذي هو لأولى العلم؟ قلت:فيه أوجه:

أحدها: أنهم سموها آلهة وعبدوها، فأجروها مجرى أولى العلم. ألا ترى إلى قوله على أثره:{ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون}.

والثاني: المشاكلة بينه وبين من يخلق.

والثالث: أن يكون المعنى: أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم، فكيف بما لا علم عنده، كقوله: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا} [الأعراف : ١٩٥]، يعنى: أن الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب، لأن هؤلاء أحياء وهم أموات، فكيف تصح لهم العبادة؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا.

فإن قلت: هو إلزام للذين عبدوا الأوثان سموها آلهة تشبيها بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟

قلت: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيها بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله :{أفمن يخلق كمن لا يخلق}"[٥].

قوله تعالى:{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [النحل : ١٧]، أي:" أفلا تتذكرون عظمة الله، فتفردوه بالعبادة؟"[٦].

قال الطبري:" يقول: أفلا تذكرون نعم الله عليكم، وعظيم سُلطانه وقُدرته على ما شاء، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعا ولا تدفع عنها ضرّا، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه مقيمون من عبادتكموها وإقراركم لها بالألوهة؟"[٧].

---

(١) التفسير الميسر:٢٦٩.
(٢) تفسير الطبري:١٨٦/١٧.
(٣) تفسير المراغي:٦٤/١٤.
(٤) تفسير السعدي:٤٣٧.
(٥) الكشاف:٥٩٩/٢.
(٦) التفسير الميسر:٢٦٩.
(٧) تفسير الطبري:١٨٧/١٧.

قال السعدي:" {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}، فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته، وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أندادا في عبادته بل أخلصوا له الدين"(١).

قال المراغي: أي:" أفلا تذكرون هذه النعم وهذا السلطان العظيم والقدرة على ما شاء من الحكمة، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعا، ولا تدفع ضرا، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه من عبادتها، وإقراركم لها بالألوهية.

وخلاصة هذا- الإنكار عليهم ورميهم بالجهل وسوء التقدير وقلة الشكر لمن أنعم عليهم بما لا يحصى من النعم، مع وضوح ذلك وقلة احتياجه إلى تدبر وتفكر وإطالة نظر، بل يكفى فيه تنبه العقل، ليعلم أن العبادة لا تليق إلا للنعم بكل هذه النعم، أما هذه الأصنام التي لا فهم لها ولا قدرة ولا اختيار، فلا تنبغى عبادتها ولا الاشتغال بطاعتها"(٢).

الفوائد:

١- تفرد الرب تعالى بالخلق، قال تعالى:{ أفمن يخلق كمن لا يخلق}، فإن الله تعالى تمدح بالخلق وأثنى على نفسه بذلك ولو شاركه فيه غيره لبطلت فائدة التمدح.
٢- المقارنة بين الحي الخلاق العليم، وبين الأصنام الميتة المخلوقة لتقرير بطلان عبادة غير الله تعالى لأن من يخلق ليس كمن لا يخلق.
٣- أن توحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس. فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزا، والعاجز لا يصلح أن يكون إلها. قال تعالى: {أفمن يخلق كمن لا يخلق}، وقال تعالى: {أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون}[الأعراف:١٩١].

القرآن

{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)} [النحل : ١٨]

التفسير:

وإن تحاولوا حَصْرَ نِعَم الله عليكم لا تَقْوا بحَصْرها؛ لكثرتها وتنوعها. إن الله لَغفور لكم رحيم بكم؛ إذ يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعم، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة.

قوله تعالى:{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [النحل : ١٨]، أي:" وإن تحاولوا حَصْرَ نِعَم الله عليكم لا تَقُوا بحَصْرها؛ لكثرتها وتنوعها"(٣).

قال الزمخشري:" {لا تحصوها}، أي:" لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم، فضلا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر"(٤).

قال المراغي:" أي: وإن تعدوا نعم الله لا تضبطوا عددها فضلا عن أن تستطيعوا القيام بشكرها، فإن العبد مهما أتعب نفسه فى طاعته، وبالغ فى شكران نعمه، فإنه يكون مقصرا، فنعم الله كثيرة، وعقل المخلوق قاصر عن الإحاطة بها (٥).

قال السعدي:" {وإن تعدوا نعمة الله} عددا مجردا عن الشكر {لا تحصوها} فضلا عن كونكم تشكرونها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى"(٦).

---

(١) تفسير السعدي:٤٣٧.
(٢) تفسير المراغي:٦٤/١٤.
(٣) التفسير الميسر:٢٦٩.
(٤) الكشاف:٦٠٠/٢.
(٥) تفسير المراغي:٦٤/١٤.
(٦) تفسير السعدي:٤٣٧.

وفي قوله تعالى:{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [النحل : ١٨]، وجهان(١):
أحدهما : لا تحفظوها ، قال الكلبي(٢).
الثاني : لا تشكروها وهو مأثور .
ويحتمل المقصود بهذا الكلام وجهين(٣):
أحدهما : أن يكون خارجاً مخرج الامتنان تكثيراً لنعمته أن تحصى.
الثاني : أنه تكثير لشكره أن يؤدى. وعلى هذا الوجه يكون الكلام خارجا مخرج الغفران.
ذكر يحيى بن سلام عن أبي أمية، عن الحسن، "أن داود النبي قال: إلهي، لو كان لي بكل شعرة في جسدي لسانان يسبحانك الليل والنهار، والدهر كله ما أديت شكر نعمة واحدة أنعمتها علي"(٤).
قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل : ١٨]، أي:" إن الله غفور لما صدر منكم من تقصير رحيم بالعباد حيث ينعم عليهم مع تقصيرهم وعصيانهم"(٥).
قال الزمخشري:" حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها"(٦).
قال المراغي:أي: {غفو} "فيستر عليكم تقصيركم فى القيام بشكرها، {رحيم}، بكم فيقيض عليكم نعمه مع استحقاقكم للقطع والحرمان، بما تأتون وما تذرون من أصناف الكفر والعصيان، ومن أفظع ذلك وأعظمه جرما المساواة بين الخالق والمخلوق "(٧).
قال السعدي: أي: "يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير"(٨).
قال بعض الحكماء: "إن أيّ جزء من البدن إذا اعتراه الألم نغص على الإنسان النعم، وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت فى ملكه حتى يزول عنه ذلك الألم، وهو سبحانه يدبر جسم الإنسان على الوجه الملائم له، مع أنه لا علم له بوجود ذلك، فكيف يطيق حصر نعمه عليه أو يقدر على إحصائها، أو يتمكن من شكر أدناها؟"(٩).

القرآن
{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩)} [النحل : ١٩]
التفسير:
والله سبحانه يعلم كل أعمالكم، سواء ما تخفونه منها في نفوسكم وما تظهرونه لغيركم، وسيجازيكم عليها.
قال الزمخشري:أي:" من أعمالكم، وهو وعيد"(١٠).
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والله الذي هو إلهكم أيها الناس، يعلم ما تسرّون في أنفسكم من ضمائركم فتخفونه عن غيركم، فما تبدونه بألسنتكم وجوارحكم وما تعلنونه بألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم، وهو محص ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم به يوم القيامة، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء منكم بإساءته، ومُسائلكم عما كان منكم من الشكر في الدنيا على نعمه التي أنعمها عليكم فيها التي أحصيتم، والتي لم تحصوا"(١١).

---

(١) انظر: النكت والعيون:١٨٣/٣.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٨٣/٣.
(٣) انظر: النكت والعيون:١٨٣/٣.
(٤) تفسير يحيى بن سلام:٥٦/١.
(٥) صفوة التفاسير:١١٣/٢.
(٦) الكشاف:٦٠٠/٢.
(٧) تفسير المراغي:٦٤/١٤.
(٨) تفسير السعدي:٤٣٧.
(٩) حكاه المراغي في تفسيره:٦٤/١٤.
(١٠) الكشاف:٦٠٠/٢.
(١١) تفسير الطبري:١٨٧/١٧.

قال يحيى بن سلام:" ما يسر المشركون من نجواهم في أمر النبي، ما يتشاورون به بينهم في أمره، مثل قوله: {وأسروا النجوى الذين ظلموا} أشركوا {هل هذا}، يعنون محمدا {إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون} [الأنبياء: ٣] أنه سحر، يعنون: القرآن. قال: {وما تعلنون} [النحل: ١٩] من شركهم وجحودهم"(١).

قال السعدي: "وكما أن رحمته واسعة وجوده عميم ومغفرته شاملة للعباد فعلمه محيط بهم، {يعلم ما تسرون وما تعلنون}، بخلاف من عبد من دونه"(٢).

قال رجل من قيس يكنى أبا بعد الله: "بينا ذات ليلة عند الحسن، فقام من الليل يصلي فلم يزل يردد هذه الآية حتى اسحر:{وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}، فلما أصبح قلنا: يا أبا سعيد لم تكد تجاوز هذه الآية سائر الليلة، قال: إن فيها معتبرا ما يرفع طرفا ولا يرده إلا وقع على نعمة، وما لا يعلم من نعم الله أكثر"(٣).

فوائد الآيتين:[١٨-١٩]:

١- أن الله تعالى عظيم المواهب. فإنه أعطى الحياة والعقل والنطق وصور فأحسن الصور، وأنعم فأجزل، وأسنى النعم وأكثر العطايا والمنح. قال- وقوله الحق- {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}.

٢- عجز الإنسان عن شكر نعم الله تعالى يتطلب منه أن يشكر ما يمكنه منها وكلمة «الحمد لله» تعد رأس الشكر والاعتراف بالعجز عن الشكر من الشكر، والشكر صرف النعم فيما من أجله أنعم الله تعالى بها.

٣- ومن الفوائد: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

- فـ«الغفور»: هو: "الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب عل كل من يتوب ففي الحديث: "إن الله يقول يابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة"(٤). وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} [النجم:٣٢].

وقد فتح الله الأسباب لنيل مغفرته بالتوبة، والاستغفار، والإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى عباد الله، والعفو عنهم، وقوة الطمع في فضل الله، وحسن الظن بالله، وغير ذلك مما جعله الله مقرباً لمغفرته"(٥).

قال الخطابي:"«الغفور»:هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة(٦).

- و«الرحيم»:أي: "ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء" (٧).

٤- ومن الفوائد: أن الله يخبرُ عن الأسماء بأفعالها، قال تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ}، وقال تعالى: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه : ٤٦]، فلو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنها بأفعالها، فلا يقال: يسمع ويرى ويعلم ويريد،

---

(١) تفسير يحيى بن سلام:٥٦/١.
(٢) تفسير السعدي:٤٣٧.
(٣) المنهاج في شعب الإيمان:٢١٨/٢.
(٤)أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ١٤٧) بنحوه، والترمذي في سننه (٥/ ٥٤٨) كتاب الدعوات باب في فضل التوبة والاستغفار، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥) كتاب الآداب باب فضل العمل، والدارمي (٢/ ٢٣٠) كتاب الرقاق باب إذا تقرب العبد إلى الله عن أنس، وقال الترمذي هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وصححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه. انظر: السلسلة الصحيحة (١/ ٢٠٠).
(٥)الحق الواضح المبين، السعدي:٧٣، ٧٤، وانظر: أسماء الله الحسنى:٢١٩.
(٦) انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.
(٧) انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

فإن ثبوت أحكام الصفات فرعُ ثبوتها، فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها[1].

القرآن

{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠)} [النحل : ٢٠]

التفسير:

والآلهة التي يعبدها المشركون لا تخلق شيئًا وإن صَغُر، فهي مخلوقات صنعها الكفار بأيديهم، فكيف يعبدونها؟

قال الزجاج:" يعنى: به الأوثان التي كانت تعبدها العرب"[2].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأوثانكم الذين تدعون من دون الله أيها الناس آلهة لا تخلق شيئا وهي تخلق، فكيف يكون إلها ما كان مصنوعا مدبرا، لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرّا"[3].

قال السمعاني:" أراد به الأصنام. وقوله: {وهم يخلقون} معناه: أن المخلوق لا يكون إلها"[4].

قال الزمخشري: أي:" والآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله..نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين"[5].

قال السعدي: " فإنهم {لا يخلقون شيئا} قليلا ولا كثيرا {وهم يخلقون} فكيف يخلقون شيئا مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟ ومع هذا ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم، ولا غيره"[6].

يقرأ :«تدعون من دون الله»، بالتاء والياء[7].

الفوائد:

١- أن الله سُبحانه هو الخالقُ وحدَهُ لا شريك له.

٢- بطلان الشرك وتقرير التوحيد، فإن من يخلق غيره هو المعبود وأن من لا يخلق شيئا لا يصح أن يعبد، ولهذا قال تعالى بعده قريبا منه {والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون} .

٣- وجوب إفراده سبحانه وتعالى بالإلهية.

٤- عجز تلك الآلهة المزعومة وضعفها، وحقارتها، وقلة شأنها، وأنَّ الإله هو رب واحد لا شريك له.

القرآن

{أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)} [النحل : ٢١]

التفسير:

هم جميعًا جمادات لا حياة فيها ولا تشعر بالوقت الذي يبعث الله فيه عابديها، وهي معهم ليُلقى بهم جميعًا في النار يوم القيامة.

---

(١) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة:٣٤٦.
(٢) معاني القرآن:١٩٣/٣.
(٣) تفسير الطبري:١٨٨/١٧.
(٤) تفسير السمهعاني:١٦٥/٣.
(٥) الكشاف:٦٠٠/٢.
(٦) تفسير السعدي:٤٣٧.
(٧) انظر: معاني القرآن للزجاج:١٩٣/٣.

قوله تعالى:{أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ} [النحل : ٢١]، أي:" تلك الأصنام جمادات لا حياة فيها"(١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين من قريش: والذين تدعون من دون الله أيها الناس {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ}، وجعلها جلّ ثناؤه أمواتا غير أحياء، إذ كانت لا أرواح فيها"(٢).

قال مكي بن أبي طالب:" يعني: أوثانهم، أي لا أرواح لها"(٣).

قال قتادة:" هي هذه الأوثان التي تُعبد من دون الله أموات لا أرواح فيها، ولا تملك لأهلها ضرّا ولا نفعا"(٤).

قوله تعالى:{وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النحل : ٢١]، أي:" ما تشعر هذه الأصنام متى يبعث عابدوها"(٥).

قال الزجاج:" أي: ما يشعرون متى يبعثون"(٦).

قال الطبري:" يقول: وما تدري أصنامكم التي تدعون من دون الله متى تبعث، وقيل: إنما عنى بذلك الكفار، إنهم لا يدرون متى يبعثون"(٧).

قال الفراء:" يقول: هي أموات فكيف تشعر متى تبعث، يعنى: الأصنام، ويقال للكفار: وما يشعرون أيان"(٨).

قال مكي بن أبي طالب:" أي: وما يشعر هؤلاء الأوثان متى يبعث المشركون. وقيل الضميران للمشركين، أي: وما يشعر المشركون متى يبعثون"(٩).

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي :«أيان يبعثون» بكسر ألف «إيان»، قال الفراء:" وهي لغة لسليم وقد سمعت بعض العرب يقول: متى إيوان ذاك، والكلام أوان ذلك"(١٠).

قال سهل: "خلق الله تعالى الخلق، ثم أحياهم باسم الحياة، ثم أماتهم بجهلهم بأنفسهم، فمن كانت حياته بالعلم فهو الحي، وإلا فهم الأموات بجهلهم"(١١).

الفوائد:

١- أن المخلوق لا يصلح أن يدعي من دون الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" "حقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده، فلا يدعى إلا هو ولا يخشى إلا هو، ولا يتقى إلا هو ولا يتوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، لا لأحد من الخلق"(١٢).

٢- ومن فوائد الآية: أن أمارة ما بين الحي، والميت التحرك، وما لا يتحرك فهو ميت، لا يوصف بحياة، كما وصف الله تعالى الأصنام الميتة فقال: {والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون (٢٠) أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون (٢١)} [النحل: ٢٠ - ٢١].

وقد تحدث ابن تيمية عن لفظ «الحركة» هل يوصف الله به أو يجب نفيه؟ وبين أقوال الناس في ذلك ثم قال: "وذكر عثمان بن سعيد الدارمي إثبات لفظ «الحركة» في كتاب نقضه على بشر المريسي ونصره على أنه قول أهل السنة والحديث، وذكره

---

(١) انظر: التفسير الميسر:٢٦٩، وصفوة التفاسير:١١٣/٢.

(٢) تفسير الطبري:١٨٨/١٧.

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٧٠/٦.

(٤) أخرجه الطبري:١٨٨/١٧.

(٥) صفوة التفاسير:١١٣/٢.

(٦) معاني القرآن:١٩٣/٣.

(٧) تفسير الطبري:١٨٨/١٧.

(٨) معاني القرآن:٩٩/٢.

(٩) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٧٠/٦.

(١٠) معاني القرآن:٩٩/٢.

(١١) تفسير التستري:٩٠.

(١٢)منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٤٩٠/٣.

حرب إسماعيل الكرماني: لما ذكر مذهب أهل السنة والأثر عن أهل السنة والحديث قاطبة، وذكر ممن لقي منهم على ذلك: أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وعبد الله بن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور، وهو قول أبي عبد الله بن حامد وغيره.

وكثير من أهل الحديث والسنة يقول: المعنى صحيح، لكن لا يطلق هذا اللفظ لعدم مجيء الأثر به، كما ذكر ذلك أبوعمر بن عبد البر وغيره في كلامهم على حديث النزول".

وقال أيضا: "والذي يجب القطع به أن الله ليس كمثله شيء في جميع ما يصف به نفسه، فمن وصفه بمثل صفات المخلوقين في شيء من الأشياء فهو مخطئ قطعا كمن قال: إنه ينزل فيتحرك وينتقل، كما ينزل الإنسان من السطح إلى أسفل الدار، كقول من يقول: إنه يخلو من العرش فيكون نزوله تفريغا لمكان وشغلا لآخر فهذا باطل يجب تنزيه الرب عنه، كما تقدم "[1].

وقال الموصلي: "وأما الذين أمسكوا عن الأمرين وقالوا: لا نقول: يتحرك، وينتقل ولا ننفي ذلك عنه فهم أسعد بالصواب والاتباع، فإنهم نطقوا بما نطق به النص وسكتوا عما سكت عنه"[2].

القرآن

{إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢)} [النحل : ٢٢]

التفسير:

إلهكم المستحق وحده للعبادة هو الله الإله الواحد، فالذين لا يؤمنون بالبعث قلوبهم جاحدة وحدانيته سبحانه؛ لعدم خوفهم من عقابه، فهم متكبرون عن قبول الحق، وعبادة الله وحده.

قوله تعالى:{إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [النحل : ٢٢]، أي:" إلهكم المستحق وحده للعبادة هو الله الإله الواحد"[3].

قال الزمخشري:" يعنى: أنه قد ثبت بما تقدم من إبطال أن تكون الإلهية لغيره، وأنها له وحده لا شريك له فيها"[4].

قال القرطبي:" لما بين استحالة الإشراك بالله تعالى بين أن المعبود واحد لا رب غيره ولا معبود سواه"[5].

قال السعدي:" وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يكن له كفوا أحد، فأهل الإيمان والعقول أجلته قلوبهم وعظمته، وأحبته حبا عظيما، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة"[6].

قوله تعالى:{فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ} [النحل : ٢٢]، أي:" لا يؤمنون بالبعث قلوبهم جاحدة وحدانيته سبحانه؛ لعدم خوفهم من عقابه"[7].

قال الزمخشري:" فكان من نتيجة ثبات الوحدانية ووضوح دليلها: استمرارهم على شركهم، وأن قلوبهم منكرة للوحدانية"[1].

---

(١)انظر: مجموع الفتاوى ٥/ ٥٦٥-٥٧٨.

(٢)مختصر الصواعق المرسلة ٢/ ٢٧٥،وانظر: المزيد في: الاستقامة لابن تيمية تحقيق رشاد سالم ٢/ ٧٠-٧٨..

(٣) التفسير الكيسر:٢٦٩.

(٤) الكشاف:٦٠١/٢.

(٥) تفسير القرطبي:٩٥/١٠.

(٦) تفسير السعدي:٤٣٧.

(٧) التفسير الكيسر:٢٦٩.

قال القرطبي:" أي: لا تقبل الوعظ ولا ينجع فيها الذكر، وهذا رد على القدرية"[2].
قال السعدي:" {قلوبهم منكرة} لهذا الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلا وعنادا وهو: توحيد الله"[3].
قوله تعالى:{وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} [النحل : ٢٢]، أي:" ، فهم متكبرون عن قبول الحق، وعبادة الله وحده"[4].
قال السعدي:أي: " عن عبادته"[5].
قال الزمخشري:" وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها"[6].
قال القرطبي:" أي: متكبرون متعظمون عن قبول الحق"[7].
الفوائد:
١- إثبات الوحدانية لله تعالى، قال تعالى:{ **{إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ}**، وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥،] فبيّن أن من تقدم من الرسل كانوا يحتجون على الكفار في الوحدانية بالوحي ولم يؤمروا إلا بذلك.
قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: "توحيد الرسل إثبات صفات الكمال لله على وجه التفصيل، وعبادته وحده لا شريك له، فلا يجعل له نداً في قصد ولا حب ولا خوف ولا رجاء ولا لفظ ولا حلف ولا نذر، بل يرفع العبد الأنداد له من قلبه وقصده ولسانه وعبادته"[8].
٢- التنديد بجريمة الاستكبار عن الحق والإذعان له.

القرآن
{لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)} [النحل : ٢٣]
التفسير:
حقًا أنَّ الله يعلم ما يخفونه مِن عقائد وأقوال وأفعال، وما يظهرونه منها، وسيجازيهم على ذلك، إنه عز وجل لا يحب المستكبرين عن عبادته والانقياد له، وسيجازيهم على ذلك.
قوله تعالى:{لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [النحل : ٢٣]، أي:" حقًا أنَّ الله يعلم ما يخفونه مِن عقائد وأقوال وأفعال، وما يظهرونه منها، وسيجازيهم على ذلك"[9].
قال الزمخشري:" حقا أن الله يعلم سرهم وعلانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد "[10].
قال السعدي:" أي: حقا لا بد {أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون} من الأعمال القبيحة"[11].
قوله تعالى:{إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} [النحل : ٢٣]، أي:" إنه عز وجل لا يحب المستكبرين عن عبادته والانقياد له، وسيجازيهم على ذلك"[12].

---

(١) الكشاف:٦٠١/٢.
(٢) تفسير القرطبي:٩٥/١٠.
(٣) تفسير السعدي:٤٣٧.
(٤) التفسير الكيسر:٢٦٩.
(٥) تفسير السعدي:٤٣٧.
(٦) الكشاف:٦٠١/٢.
(٧) تفسير القرطبي:٩٥/١٠.
(٨)الروح لابن قيم الجوزية ص ٣٨٦، وانظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية ٩٣٣/٣، مدارج السالكين إلى منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية ٤٥٩/٣.
(٩) التفسير الكيسر:٢٦٩.
(١٠) الكشاف:٦٠١/٢.
(١١) تفسير السعدي:٤٣٧.
(١٢) التفسير الكيسر:٢٦٩.

قال الزمخشري:" يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعنى المشركين. ويجوز أن يعم كل مستكبر، ويدخل هؤلاء تحت عمومه"(١).

قال السعدي:" بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم"(٢).

الفوائد:

١- أن علمه تعالى واحد وجودي قديم باق ذاتي.

٢- نفي حبه -سبحانه وتعالي- عن الذين يتصفون بصفالت الفساد والإلحاد والكفر.

وفي الحديث الشريف: "إن الله إذا أحب عبدا نادى جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانا فابغضوه فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فابغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض"(٣).

القرآن

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤)} [النحل : ٢٤]

التفسير:

وإذا سُئِل هؤلاء المشركون عمَّا نزل على النبي محمد ﷺ قالوا كذبًا وزورًا: ما أتى إلا بقصص السابقين وأباطيلهم.

قوله تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ} [النحل : ٢٤]، أي:" وإذا سُئِل هؤلاء المشركون عمَّا نزل على النبي محمد ﷺ"(٤).

قال البغوي:" {وإذا قيل لهم}، يعني: لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، وهم مشركو مكة الذين اقتسموا عقابها إذا سأل منهم الحاج: {ماذا أنزل ربكم}"(٥).

قال السعدي:" يقول تعالى -مخبرا عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: {وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم} أي: إذا سألوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها أم تكفرون وتعاندون؟"(٦).

قال البيضاوي:" القائل بعضهم على التهكم أو الوافدون عليهم أو المسلمون"(٧).

قوله تعالى:{قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [النحل : ٢٤]، أي:" قالوا كذبًا وزورًا: ما أتى إلا بقصص السابقين وأباطيلهم"(٨).

قال البغوي:أي:" أحاديثهم وأباطيلهم"(٩).

قال البيضاوي:" أي: ما تدعون نزوله، أو المنزل أساطير الأولين، وإنما سموه منزلا على التهكم أو على الفرض أي على تقدير أنه منزل فهو أساطير الأولين لا تحقيق فيه، والقائلون قيل هم المقتسمون"(١٠).

قال السعدي:" فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه، فيقولون عنه: إنه {أساطير الأولين} أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلا بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها"(١).

---

(١) الكشاف:٦٠١/٢.

(٢) تفسير السعدي:٤٣٧.

(٣)أخرجه مسلم (٢٦٣٧)، والترمذي (٣١٦١)، وغيرهما من طريق سهيل، به. وأخرجه البخاري (٧٤٨٥)، من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبي صالح، به.

(٤) التفسير الكيسر:٢٦٩.

(٥) تفسير البغوي:١٥/٥.

(٦) تفسيرالسعدي:٤٣٨.

(٧) تفسير البيضاوي:٢٢٤/٣.

(٨) التفسير الكيسر:٢٦٩.

(٩) تفسير البغوي:١٥/٥.

(١٠) تفسير البيضاوي:٢٢٤/٣.

وفي قوله تعالى:{قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [النحل : ٢٤]، وجهان(٢):
أحدهما : أي: أحاديث الأولين استرذالاً له واستهزاءً به .
الثاني : أنه مثل ما جاء به الأولون ، تكذيباً له ولجميع الرسل .
قال الرازي:" اعلم أنه كان مقصود القوم من ذكر قولهم :«إن هذا إلا أساطير الأولين» القدح في كون القرآن معجزا، فكأنهم قالوا: إن هذا الكلام من جنس سائر الحكايات المكتوبة، والقصص المذكورة للأولين، وإذا كان هذا من جنس تلك الكتب المشتملة على حكايات الأولين وأقاصيص الأقدمين لم يكن معجزا خارقا للعبادة.
وأجاب القاضي عنه بأن قال: هذا السؤال مدفوع لأنه يلزم أن يقال لو كان في مقدوركم معارضته لوجب أن تأتوا بتلك المعارضة وحيث لم يقدروا عليها ظهر أنها معجزة "(٣).

القرآن
{لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)} [النحل : ٢٥]
التفسير:
ستكون عاقبتهم أن يحملوا آثامهم كاملة يوم القيامة -لا يُغْفَر لهم منها شيء - ويَحْملوا من آثام الذين كذبوا عليهم؛ ليبعدوهم عن الإسلام من غير نقص من آثامهم. ألا قَبُحَ ما يحملونه من آثام.
قوله تعالى:{لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [النحل : ٢٥]، أي:" ستكون عاقبتهم أن يحملوا آثامهم كاملة يوم القيامة -لا يُغْفَر لهم منها شيء -"(٤).
قال البغوي:"[ليحملوا] ذنوب أنفسهم، {كاملة}، وإنما ذكر الكمال لأن البلايا التي تلحقهم في الدنيا وما يفعلون من الحسنات لا تكفر عنهم شيئا "(٥).
قال البيضاوي:" أي: قالوا ذلك إضلالا للناس فحملوا أوزار ضلالهم كاملة فإن إضلالهم نتيجة رسوخهم في الضلال"(٦).
قال السعدي:" حملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة"(٧).
قوله تعالى:{وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [النحل : ٢٥]، أي:" ويَحْملوا من آثام الذين كذبوا عليهم؛ ليبعدوهم عن الإسلام من غير نقص من آثامهم"(٨).
قال السعدي:" أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوهم إليه، فيحملون إثم ما دعوهم إليه، وأما الذين يعلمون فكل مستقل بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا"(٩).
قال البيضاوي:أي:" وبعض أوزار ضلال من يضلونهم وهو حصة التسبب. {بغير علم}، حال من المفعول، أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلال، وفائدتها الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم، إذ كان عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق والمبطل"(١٠).
قال البغوي:{ يضلونهم بغير علم}، أي:" بغير حجة فيصدونهم عن الإيمان"(١١).
قوله تعالى:{أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [النحل : ٢٥]، أي:" ألا قَبُحَ ما يحملونه من آثام"(١٢).

---

(١) تفسيرالسعدي:٤٣٨.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٨٤/٣.
(٣) مفاتيح الغيب:٥٠٦/١٢.
(٤) التفسير الكيسر:٢٦٩.
(٥) تفسير البغوي:١٥/٥.
(٦) تفسير البيضاوي:٢٢٤/٣.
(٧) تفسيرالسعدي:٤٣٨.
(٨) التفسير الكيسر:٢٦٩.
(٩) تفسيرالسعدي:٤٣٨.
(١٠) تفسير البيضاوي:٢٢٤/٣.
(١١) تفسير البغوي:١٥/٥.
(١٢) التفسير الكيسر:٢٦٩.

قال البغوي:أي:" يحملون"[١].
قال البيضاوي:أي:" بئس شيئا يزرونه فعلهم"[٢].
قال السعدي:" أي: بئس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم، من وزرهم ووزر من أضلوه"[٣].

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا"[٤].

الفوائد:

١- بيان تبعة من يدعو إلى ضلالة فإنه يتحمل وزر كل من عمل بها.
٢- ومن الفوائد: أن القولُ في الدِّين بغير علم إضلال، وعلى من أضلَّ إثمُ من وقع في الضلال بسبب إضلاله، فضلاً عن إثمه؛ لوقوعه في الضلال، قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}[النحل: ٢٤-٢٥] .

فيجب على من لا يعلم أن يقول: لا أدري، أو أن يسأل غيره، ولنا في رسول الله ﷺ أُسْوةٌ حسنة، فعندما سُئِل عن شرّ البقاع، قال: «لا أدري»[٥].

وقال عليه الصلاة والسلام: "ما أدري أتُبَّعٌ لعين هو أم لا، وما أدري أعزير نبي هو أم لا"[٦] .

ولَمَّا سُئِل ابن عمر- رضي الله عنهما - عن مسألة فقال: "لا علم لي بها، فلما أدبر الرجل قال ابن عمر: نِعْمَ ما قال ابن عمر: سئِل عما لا يعلم فقال: لا علم لي به"[٧].

فإذا مارس الجاهلُ العلم، وأفتى في الدِّين، وقع في البدعة قاصداً أو غير قاصد، وكان مبتدعاً بادِّعائهِ العلم أولاً، وبما استحدثه مما خالف الشرع بعد ذلك، وانتشار ذلك سبب في قبض العلم، وفشو الجهل والظلام، قال ﷺ: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يُقبضُ العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسُئِلُوا فأفتُوا بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا"[٨].

على أن الجهل ليس قاصراً على من ليس عنده علم مطلقاً، فإنه يشمل من عنده علم كثير، ولكنه يتجاوز ما يعلم إلى ما لا يعلم ويتجرأ على ما لا يعرف، بلا دليل واضح، أو اجتهاد مقبول.

وألوان الجهل كثيرة، وكلهما تؤدي إلى إحداث البدع:

---

(١) تفسير البغوي:١٥/٥.
(٢) تفسير البيضاوي:٢٢٤/٣.
(٣) تفسيرالسعدي:٤٣٨.
(٤)أخرجه مسلم في العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، برقم (٢٦٧٤) : ٤ / ٢٠٦٠، والبغوي في شرح السنة: ١ / ٢٣٢.
(٥)رواه أحمد في مسنده (٨١/١) ، ورواه الحاكم في المستدرك (٨٩/١) ، وقال: قد احتجا جميعاً برواة هذا الحديث إلا عبد الله بن محمد بن عقيل. وسكت عنه الذهبي. ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٨/٢) ، رقم (١٥٤٥، ١٥٤٦) . ورواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٧٠/٢) . وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: أنه رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني والبزار، ورجال أحمد وأبي يعلى والبزار رجال الصحيح خلا عبد الله بن محمد بن عقيل وهو حسن وفيه كلام. يراجع: مجمع الزوائد (٧٦/٤).
(٦)رواه أبو داود في سننه (٣٤/٥، ٣٥) . حديث رقم (٤٦٧٤).
(٧) .
(٨)رواه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري (١٩٤/١) كتاب العلم، حديث (١٠٠) . ورواه مسلم في في صحيحه المطبوع مع شرح النووي (٢٢٣/١٦، ٢٢٤) كتاب العلم. وفي رواية مسلم: حتى إذا لم يترك عالماً).

- فمنها: الجهل بأساليب اللغة.
- ومنها: الجهل بالسنَّةِ[١].

القرآن

{قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦)} [النحل : ٢٦]

التفسير:

قد دبَّر الكفار من قَبْل هؤلاء المشركين المكايد لرسلهم، وما جاءوا به من دعوة الحق، فأتى الله بنيانهم من أساسه وقاعدته، فسقط عليهم السقف مِن فوقهم، وأتاهم الهلاك مِن مأمنهم، من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون أنه يأتيهم منه.

قوله تعالى:{قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [النحل : ٢٦]، أي:" قد دبَّر الكفار من قَبْل هؤلاء المشركين المكايد لرسلهم، وما جاءوا به من دعوة الحق"[٢].

قال البيضاوي:" أي: سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله عليهم الصلاة والسلام"[٣].

قوله تعالى:{فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ} [النحل : ٢٦]، أي:" فأتى الله بنيانهم من أساسه وقاعدته"[٤].

قال البيضاوي:" فأتاها أمره من جهة العمد التي بنوا عليها بأن ضعضعت"[٥].

قال الطبري:" معناه: هدم الله بنيانهم من أصله، والقواعد: جمع قاعدة، وهي الأساس، وكان بعضهم يقول: هذا مثَل للاستئصال، وإنما معناه: إن الله استأصلهم، وقال: العرب تقول ذلك إذا استؤصل الشيء"[٦].

قوله تعالى:{فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ} [النحل : ٢٦]، أي:" فسقط عليهم السقف مِن فوقهم"[٧].

قال البيضاوي:" وصار سبب هلاكهم"[٨].

وفي قوله تعالى:{فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ} [النحل : ٢٦]، وجهان:

أحدهما : فخرّ أعالي بيوتهم وهم تحتها، فلذلك قال: {من فوقهم}، وإن كنا نعلم أن السقف عال إلا أنه لا يكون فوقهم إذ لم يكونوا تحته، قاله قتادة[٩].

قال قتادة:" أتاها أمر الله من أصلها فخر عليهم السقف من فوقهم، السقف عالي البيوت فائتفكت بهم بيوتهم، فأهلكهم الله ودمرهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون"[١٠].

الثاني : يعني أن العذاب أتاهم من السماء التي هي فوقهم، لمَّا رأوه استسلموا وذلوا. قاله ابن عباس[١١].

قال الطبري:" وأولى القولين بتأويل الآية، قول من قال: معنى ذلك: تساقطت عليهم سقوف بيوتهم، إذ أتى أصولها وقواعدها أمر الله، فائتفكت بهم منازلهم لأن ذلك هو الكلام

---

(١) انظر: البدع الحولية:٤٩-٥٠.
(٢) التفسير الكيسر:٢٦٩.
(٣) تفسير البيضاوي:٢٢٤/٣.
(٤) التفسير الكيسر:٢٦٩.
(٥) تفسير البيضاوي:٢٢٤/٣.
(٦) تفسير الطبري:١٩٣/١٧.
(٧) التفسير الكيسر:٢٦٩.
(٨) تفسير البيضاوي:٢٢٤/٣.
(٩) انظر: تفسير الطبري:١٩٣/١٧.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٠٨):ص٢٢٨٢/٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري:١٩٤/١٧.

المعروف من قواعد البنيان، وخرّ السقف، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر الأعرف منها، أولى من توجيهها إلى غير ذلك ما وُجِد إليه سبيل"[١].

وفي الذين خر عليهم السقف من فوقهم ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه النمرود بن كنعان وقومه حين أراد صعود السماء وبنى الصرح، فهدمه الله تعالى عليه ، قاله ابن عباس[٢]، ومجاهد[٣]، وزيد بن أسلم[٤]، والسدي[٥].

قال زيد بن أسلم:" إن أوّل جبار كان في الأرض نمرود، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربع مئة سنة يُضرب رأسه بالمطارق، أرحم الناس به من جمع يديه، فضرب رأسه بهما، وكان جبارا أربع مئة سنة، فعذّبه الله أربع مئة سنة كمُلكه، ثم أماته الله، وهو الذي كان بنى صَرْحا إلى السماء، وهو الذي قال الله: {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِم}"[٦].

الثاني : أنه بختنصر وأصحابه ، حكاه الماوردي عن بعض المفسرين[٧].

الثالث : يعني المقتسمين الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الحجر ، قاله الكلبي[٨].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قد مكر الذين من قبل هؤلاء المشركين الذين يصدّون عن سبيل الله، من أراد اتباع دين الله، فراموا مغالبة الله ببناء بَنَوه، يريدون بزعمهم الارتفاع إلى السماء لحرب من فيها، وكان الذي رام ذلك فيما ذُكر لنا جبار من جبابرة النَّبَط، فقال بعضهم: هو نمرود بن كنعان، وقال بعضهم: هو بختنصر، وقد ذكرت بعض أخبارهما في سورة إبراهيم. وقيل: إن الذي ذُكر في هذا الموضع هو الذي ذكره الله في سورة إبراهيم"[٩].

قوله تعالى:{وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} [النحل : ٢٦]، أي:" وأتاهم الهلاك مِن مأمنهم، من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون أنه يأتيهم منه"[١٠].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأتى هؤلاء الذين مكروا من قَبْل مشركي قريش، عذاب الله من حيث لا يدرون أنه أتاهم منه"[١١].

قال البيضاوي:أي:" لا يحتسبون ولا يتوقعون، وهو على سبيل التمثيل"[١٢].

الفوائد:

١- سوء عاقبه المكر وأنه يحيق بأهله لا محالة والمراد به المكر السيء.
٢- أن ما يأتي الناس من العقوبات إنما هو أمر وعذابه، فقوله {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ} [النحل: ٢٦] ، وإنما هو أمره وعذابه، لأن الله لا يأتي من سيسان الحيطان ومن قواعد الأرض، وهذا هو ما يجب أن يفهم، وهو يدلنا على أنه لا يجوز للإنسان أن يأخذ لفظاً معيناً على نسق واحد في جميع موارده، بل يجب عليه أن يتعرف على مراد المتكلم من قرائن الأحوال والسياق.

القرآن

---

(١) تفسير الطبري:١٩٤/١٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:١٩٣/١٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري:١٩٤/١٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري:١٩٣/١٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري:١٩٢/١٧.
(٦) أخرجه الطبري:١٩٣/١٧.
(٧) انظر: النكت والعيون:١٨٦/٣.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٨٦/٣.
(٩) تفسير الطبري:١٩٢/١٧.
(١٠) التفسير الكيسر:٢٦٩.
(١١) تفسير الطبري:١٩٤/١٧.
(١٢) تفسير البيضاوي:٢٢٤/٣.

{ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧)} [النحل : ٢٧]

التفسير:

ثم يوم القيامة يفضحهم الله بالعذاب ويذلُّهم به، ويقول: أين شركائي من الآلهة التي عبدتموها من دوني؛ ليدفعوا عنكم العذاب، وقد كنتم تحاربون الأنبياء والمؤمنين وتعادونهم لأجلهم؟ قال العلماء الربانيون: إن الذل في هذا اليوم والعذاب على الكافرين بالله ورسله.

قوله تعالى:{ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ} [النحل : ٢٧]، أي:" ثم يوم القيامة يفضحهم الله بالعذاب ويذلُّهم به"[١].

قال ابن كثير:" أي : يظهر فضائحهم ، وما كانت تُجنّه ضمائرهم ، فيجعله علانية ، كما قال تعالى : { يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ } [الطارق : ٩] أي : تظهر وتشتهر ، كما في الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غَدْرَته ، فيقال : هذه غَدْرَة فلان بن فلان»[٢]"[٣].

قوله تعالى:{وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ} [النحل : ٢٧]، أي:" ويقول: أين شركائي من الآلهة التي عبدتموها من دوني؛ ليدفعوا عنكم العذاب، وقد كنتم تحاربون الأنبياء والمؤمنين وتعادونهم لأجلهم؟"[٤].

قال ابن كثير:" وهكذا هؤلاء ، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ، ويخزيهم الله على رءوس الخلائق ، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعا لهم وموبخا : { أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ } تحاربون وتعادون في سبيلهم ، أي: أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا ؟ { هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ } [الشعراء : ٩٣] ، { فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ } [الطارق : ١٠]. فإذا توجهت عليهم الحجة ، وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة ، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار"[٥].

قوله تعالى:{قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ} [النحل : ٢٧]، أي:" قال العلماء الربانيون: إن الذل في هذا اليوم والعذاب على الكافرين بالله ورسله"[٦].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال الذين أوتوا العلم: إن الخزي اليوم والسوء على من كفر بالله فجحد وحدانيته"[٧].

قال ابن كثير:"{قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}، وهم السادة في الدنيا والآخرة ، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة ، فيقولون حينئذ : { إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ } أي : الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله ، وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه"[٨].

الفوائد:

١- بيان خزي الله تعالى يوم القيامة لأهل الشرك به والمعاصي له ولرسوله، وذلك لِمَا ينكشِفُ من كذبهم ودعاويهم لربوبية الأصنام وسائر المخلوقين، كما قال الله تعالى: {وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين} [النحل: ٣٩].

١- ووجه الحصر أن الألف واللاَّم في الخزي تفيد العموم على ما هو مقرر في الأصول

٢- فضل أهل العلم إذ يتخذ منهم شهداء يوم القيامة ويشمتون بأهل النار.

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٢)صحيح البخاري برقم (٣١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٥).
(٣) تفسير ابن كثير: ٥٦٧/٤.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٥) تفسير ابن كثير: ٥٦٧/٤.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٧) تفسير الطبري:١٩٥/١٧.
(٨) تفسير ابن كثير: ٥٦٧/٤.

القرآن

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)} [النحل : ٢٨]

التفسير:

الذين تقبض الملائكة أرواحهم في حال ظلمهم لأنفسهم بالكفر، فاستسْلَموا لأمر الله حين رأوا الموت، وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون الله، وقالوا: ما كنا نعمل شيئًا من المعاصي، فيقال لهم: كَذَبْتم، قد كنتم تعملونها، إن الله عليم بأعمالكم كلها، وسيجازيكم عليها.

سبب النزول:

قال عكرمة: "كان ناس بمكة أقرّوا بالإسلام ولم يهاجروا، فأخرج بهم كرها إلى بدر، فقتل بعضهم، فأنزل الله فيهم: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ}"(١).

قوله تعالى:{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} [النحل : ٢٨]، أي:" الذين تقبض الملائكة أرواحهم في حال ظلمهم لأنفسهم بالكفر"(٢).

قال الطبري:" يقول: الذين تقبض أرواحهم الملائكة، وهم على كفرهم وشركهم بالله، وقيل: إنه عنى بذلك من قتل من قريش ببدر، وقد أخرج إليها كرها"(٣).

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم "(٤).

قوله تعالى:{فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ} [النحل : ٢٨]، أي:" فاستسْلَموا لأمر الله حين رأوا الموت، وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون الله، وقالوا: ما كنا نعمل شيئًا من المعاصي"(٥).

قال الطبري:" يقول: فاستسلموا لأمره، وانقادوا له حين عاينوا الموت قد نزل بهم قالوا ما كنا نعمل من سوء، يخبر عنهم بذلك أنهم كذّبوا وقالوا: ما كنا نعصي الله اعتصاما منهم بالباطل رجاء أن ينجوا بذلك"(٦).

قال مقاتل:" {فألقوا السلم}، يعني: الخضوع والاستسلام، ثم قالوا: {ما كنا نعمل من سوء}، يعني: من شرك لقولهم في الأنعام: {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِين} [الأنعام : ٢٣]"(٧).

قال ابن كثير:" أي : أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين : { مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ } كما يقولون يوم المعاد : { وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } [الأنعام : ٢٣]{ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ } [المجادلة : ١٨] "(٨).

قوله تعالى:{بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل : ٢٨]، أي:" فيقال لهم: كَذَبْتم، قد كنتم تعملونها، إن الله عليم بأعمالكم كلها، وسيجازيكم عليها"(٩).

قال الطبري:" فكذّبهم الله فقال: بل كنتم تعملون السوء وتصدّون عن سبيل الله {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} يقول: إن الله ذو علم بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصيه، وتأتون فيها ما يسخطه"(١٠).

---

(١) أخرجه الطبري:١٩٥/١٧.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٣) تفسير الطبري:١٩٥/١٧.
(٤) تفسير ابن كثير: ٥٦٧/٤.
(٥) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٦) تفسير الطبري:١٩٦/١٧.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٦/٢.
(٨) تفسير ابن كثير: ٥٦٧/٤.
(٩) التفسير الميسر:٢٧٠.
(١٠) تفسير الطبري:١٩٦/١٧.

قال مقاتل:" فكذبهم الله- عز وجل-، فردت عليهم خزنة جهنم من الملائكة فقالوا: بلى قد عملتم السوء {إن الله عليم بما كنتم تعملون}، يعني: بما كنتم مشركين"(١).

الفوائد:

١- الإيمان بملك الموت وأعوانه، إذ نؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين.

وأن السنة قد دلت على إثبات هذه الأصناف من الملائكة: ملك الموت وملائكة الرحمة وملائكة العذاب :

- عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ قال النبي - ﷺ – "إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون يعني بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، ـ إلى أن قال ـ وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ..."(٢).

- وفي الصحيحين عن النبي - ﷺ -: "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا! فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس! فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت: ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة"(٣).

٢- بيان استسلام الظلمة عند الموت وانهزامهم وكذبهم.

٣- بيان موقف الملائكة مع الكافرين الجاحدين، ذلك أنه من بدء سكرات الموت، فإنَّ الملائكة تتلقف أولئك الخاسرين بالتعنيف والأذى، والحساب العسير، على ما فرطوا في جنب الله، واتباعهم للعقائد الضالة، ثم يعرضون عليهم مشاهد مما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة.

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٦/٢.

(٢)رواه أحمد ٤/ ٢٨٧- واللفظ له ـ، وأبو داود (٤٧٥٣)، وصححه ابن خزيمة في التوحيد ص ١١٩، وابن جرير في تهذيب الآثار ـ مسند عمر - رضي الله عنه - ٢/ ٤٩١ - ، والحاكم ١/ ٣٧، من حديث البراء (مطولا، وصححه ـ أيضا ـ ابن القيم في الروح ص ٨٨، وإعلام الموقعين ١/ ١٧٨، وتهذيب السنن ٧/ ١٣٩.

(٣)البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦) ـ واللفظ له ـ من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

٤- ومن أسمائه تعالى: «العليم»:- أي:" المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء"[١].

القرآن
{فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)} [النحل : ٢٩]
التفسير:
فادخلوا أبواب جهنم، لا تخرجون منها أبدًا، فلبئست مقرًا للذين تكبَّروا عن الإيمان بالله وعن عبادته وحده وطاعته.
قوله تعالى:{فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا} [النحل : ٢٩]، أي:" فادخلوا أبواب جهنم، لا تخرجون منها أبدًا"[٢].
قال مقاتل:" قالت الخزنة لهم: {فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها}، من الموت"[٣].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره، يقول لهؤلاء الظلمة أنفسهم حين يقولون لربهم: ما كنا نعمل من سوء: ادخلوا أبواب جهنم، يعني: طبقات جهنم ، ماكثين فيها"[٤].
قوله تعالى:{فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [النحل : ٢٩]، أي:" فلبئست مقرًا للذين تكبَّروا عن الإيمان بالله وعن عبادته وحده وطاعته"[٥].
قال الطبري:" يقول: فلبئس منزل من تكبر على الله ولم يقرّ بربوبيته، ويصدّق بوحدانيته جهنم"[٦].
قال مقاتل:" يعني: مأوى المتكبرين عن التوحيد فأخبر الله عنهم في الدنيا، وأخبر بمصيرهم في الآخرة"[٧].
قال ابن كثير:" أي : بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان ، لمن كان متكبرًا عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، ويأتي أجسادهم في قبورها من حرّها وسمومها ، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم ، وخلدت في نار جهنم ، { لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا } [فاطر : ٣٦] ، كما قال الله تعالى : { النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [غافر : ٤٦]"[٨].
الفوائد:
١- أنه لا ينجو من النار من الجن والإنس إلا الأتقياء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم.
٢- ومن الفوائد: أن النار خالدة لا تبيد، لقوله تعالى:{ فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا}، وقوله تعالى: {أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [النساء: ٢٥٧]، وقال :{فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ} [المؤمنون: ١٠٣ – ١٠٤]، وقال: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} [الزخرف: ٧٤] وقال: {فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا} [الحشر: ١٧] وقال: {فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا} [البينة: ٦] وقال: {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٧].

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٦/٢.
(٤) تفسير الطبري:١٩٦/١٧.
(٥) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٦) تفسير الطبري:١٩٦/١٧.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٦/٢.
(٨) تفسير ابن كثير:٥٦٧/٤.

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "يدخل الله أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كل خالد فيما هو فيه"(١).

القرآن

{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠)} [النحل : ٣٠]

التفسير:

وإذا قيل للمؤمنين الخائفين من الله: ما الذي أنزل الله على النبي محمد ﷺ؟ قالوا: أنزل الله عليه الخير والهدى. للذين آمنوا بالله ورسوله في هذه الدنيا، ودَعَوْا عباد الله إلى الإيمان والعمل الصالح، مَكْرُمَة كبيرة من النصر لهم في الدنيا، وسَعَة الرزق، ولَدار الآخرة لهم خير وأعظم مما أُوتوه في الدنيا، ولَنِعْم دارُ الذين خافوا الله في الدنيا فاتقوا عقابه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه دار الآخرةُ.

قوله تعالى:{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ} [النحل : ٣٠]، أي:" وإذا قيل للمؤمنين الخائفين من الله: ما الذي أنزل الله على النبي محمد ﷺ؟"(٢).

قوله تعالى:{قَالُوا خَيْرًا} [النحل : ٣٠]، أي:" قالوا: أنزل الله عليه الخير والهدى"(٣).

قال ابن كثير:" هذا خبر عن السعداء ، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء ، فإن أولئك قيل لهم : { مَاذَا أَنزلَ رَبُّكُمْ } فقالوا معرضين عن الجواب : لم ينزل شيئًا ، إنما هذا أساطير الأولين. وهؤلاء { قَالُوا خَيْرًا } أي : أنزل خيرا ، أي : رحمة وبركة وحسنًا لمن اتبعه وآمن به"(٤).

قال قتادة:" هؤلاء المؤمنون، يقال لهم: ماذا أنزل ربكم فيقولون: {خيرا للذين أحسنوا}، أي: آمنوا بالله وكتبه وأمروا بطاعته، وحثوا عباد الله على الخير ودعوهم إليه"(٥).

قوله تعالى:{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} [النحل : ٣٠]، أي:" للذين آمنوا بالله ورسوله في هذه الدنيا، ودَعَوْا عباد الله إلى الإيمان والعمل الصالح، مَكْرُمَة كبيرة من النصر لهم في الدنيا، وسَعَة الرزق"(٦).

قال ابن كثير:" ثم أخبروا عما وعد الله به عباده فيما أنزله على رسله فقالوا : { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ } كما قال تعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل : ٩٧] ، أي : من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة"(٧).

قوله تعالى:{وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ} [النحل : ٣٠]، أي:" ولَدار الآخرة لهم خير وأعظم مما أُوتوه في الدنيا"(٨).

قال ابن كثير:" ثم أخبر بأن دار الآخرة خير ، أي : من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا ، كما قال تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ } [القصص : ٨٠] وقال تعالى : { وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأبْرَارِ } [آل عمران : ١٩٨] وقال تعالى { وَالآخِرَةُ

---

(١)رواه البخاري (٦٥٤٤)، ومسلم (٢٨٥٠).
(٢) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٣) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٦٨/٤.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥١٠):ص٢٢٨٢/٧.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٧) تفسير ابن كثير:٥٦٨/٤.
(٨) التفسير الميسر:٢٧٠.

خَيْرٌ وَأَبْقَى } [الأعلى : ١٧] ، وقال لرسوله ﷺ: { وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولَى } [الضحى : ٤]"[١].

قوله تعالى:{وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ} [النحل : ٣٠]، أي:" ولَنِعْم دارُ الذين خافوا الله في الدنيا فاتقوا عقابه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه دار الآخرةُ"[٢].

قال ابن كثير:" ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا: { وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ }"[٣].

الفوائد:

١- إطلاق لفظ «خير» على القرآن وهو حق خير فالذي أوتي القرآن أوتي الخير كله، فلا ينبغي أن يرى أحدا من أهل الدنيا خيرا منه وإلا سخط نعمة الله تعالى عليه.

٢- أن الحياة الطيبة يعجل الله بها للمؤمنين فى الدنيا قبل الآخرة.

وتتمثل هذه الحياة فى ولاية الله للمؤمن، وهدايته له، ونصره على أعدائه، وحفظه مما يبيت له، وأخذه بيده كلما عثر أو زلت به قدم؛ فضلا عما يفيضه عليه من متاع مادى، يكون عونا له على قطع مرحلة الحياة فى يسر.

٣- أن المقصود الأول من تمييز الخبيث من الطيب في تمحيص المؤمنين هو الخيرُ الحاصل للطيب لا الشر الحاصل للخبيث لقوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُمْ أحسَنُ عَمَلاً} [الملك: ٢] ولم يقل: أيكم أقبح عملاً.ومن أحسن ما يحتج به على هذا، قولُه تعالى: {وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا} [النحل: ٣٠] إلى آخر الآيات في الوعد والوعيد والمشيئة.

وأصرح من ذلك كلِّه قصة الخَضِر وموسى لتأويل الشرِّ فيها بأنه المقصود به الخير نصاً صريحاً، وبيان أن ذلك هو تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلاَّ الله، ومن أحسن ما يُستدلُّ به على ذلك قوله تعالى: {لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان: ٣٢ - ٣٣].

قال الزمخشري: ولا يأتونك بسؤال عجيبٍ من سؤالاتهم الباطلة كأنه مثلٌ في البطلان إلاَّ أتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه، وبما هو أحسن معنىً ومُؤَدَّى من سؤالاتهم"[٤].

ويُوضِّح ذلك ما اتفقوا على صحته من حديث: " إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: أن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش "[٥].

ويعضده حديثِ علي عليه السلام، عن رسول الله - ﷺ - في حديث التوجُّه في الصلاه المعروف، وفيه: " الخيرُ في يديك، والشر ليس إليك "[٦].

ذكر النواوي : "أي: ليس بشرٍّ بالنظر إلى حكمتك، فإنه لا يفعل العبث "[١].

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٦٨/٤.

(٢) التفسير الميسر:٢٧٠.

(٣) تفسير ابن كثير:٥٦٨/٤.

(٤) الكشاف:١٣٣/٦.

(٥)صحيح البخاري: ٥٢٢/١٣، ورقمه: ٧٥٥٤. والحديث في صحيح مسلم: ٢١٠٧/٤، ورقمه: ٢٧٥١.

(٦)أخرجه الطيالسي (١٥٢)، والشافعي في " المسند " ١/ ٧٤ و٧٧، وعبد الرزاق (٢٥٦٧) و (٥٩٠٣)، وأحمد ١/ ٩٤ و١٠٢ و١٠٣، وابن أبي شيبة ١/ ٢٣٢، ومسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠) و (٧٦١)، والترمذي (٢٦٦) و (٣٤٢١) و (٣٤٢٢) و (٣٤٢٣)، والنسائي ٢/ ١٢٩ و١٣٠، والدارمي ٢/ ٢٨٢، وابن الجارود (١٧٩)، والطحاوي في " شرح معاني الآثار " ١/ ١٩٩ و٢٣٩، وفي " شرح مشكل الآثار " ١/ ٤٨٨، وابن خزيمة في " صحيحه " (٤٦٢) و (٤٦٣) و (٤٦٤) و (٧٤٣)، وأبو عوانة ١/ ١٠٠ و١٠١ و ١٠٢، وابن حبان (١٧٧١) و (١٧٧٢) و (١٧٧٣) و (١٧٧٤)، والدارقطني ١/ ٢٩٦ و ٢٩٧ - ٢٩٨، والبيهقي ٢/ ٣٢ و٣٣ و٧٤، والبغوي (٥٧٢).

وانظر لزاماً الباب الحادي والعشرين في تنزيه القضاء الإلهي عن الشر، من كتاب " شفاء العليل " للعلامة ابن قيم الجوزية ص ١٧٨ - ١٨٥.

القرآن
{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)} [النحل : ٣١]

التفسير:

جنات إقامة لهم، يستقرون فيها، لا يخرجون منها أبدًا، تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، لهم فيها كل ما تشتهيه أنفسهم، بمثل هذا الجزاء الطيب يجزي الله أهل خشيته وتقواه.

قوله تعالى:{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} [النحل : ٣١]، أي:" جنات إقامة لهم، يستقرون فيها"[٢].

قال ابن كثير:" قوله : { جَنَّاتُ عَدْنٍ } بدل من قوله: { دَارُ الْمُتَّقِينَ } أي : لهم في الدار الآخرة { جَنَّاتُ عَدْنٍ}، أي : إقامة يدخلونها"[٣].

قوله تعالى:{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [النحل : ٣١]، أي:" تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار"[٤].

قال ابن كثير:" أي : بين أشجارها وقصورها "[٥].

قوله تعالى:{لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ} [النحل : ٣١]، أي:" لهم فيها كل ما تشتهيه أنفسهم"[٦].

وفي الحديث : "إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم ، فلا يشتهي أحد منهم شيئًا إلا أمطرته عليهم ، حتى إن منهم لمن يقول : أمطرينا كواعب أترابًا ، فيكون ذلك"[٧].

عن كثير بن مرة قال: "من الزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره عليكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم، قال كثير: لئن أشهدني الله ذلك لأقولن: أمطرينا جواري مزينات"[٨].

قوله تعالى:{كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ} [النحل : ٣١]، أي:" بمثل هذا الجزاء الطيب يجزي الله أهل خشيته وتقواه"[٩].

قال ابن كثير:" أي : كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله "[١٠].

الفوائد:

١- أن المتقين يدخلون يوم القيامة جنات إقامة في النعيم لايرحلون ولايتحولون.
٢- سعادة الدارين لأهل الإحسان وهم أهل الإيمان والإسلام والإحسان في إيمانهم بالإخلاص وفي إسلامهم بموافقه الشرع ومراقبة الله تعالى في ذلك.
٣- فضيلة التقوى، والتقوى: في اصطلاح الشرع هو: "اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه" [١١].

---

(١) كتاب الأذكار:٩٣، وشرح مسلم: ٥٩/٦.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٦٨/٤.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٥) تفسير ابن كثير:٥٦٨/٤.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٧)رواه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، كما في تفسير ابن كثير:٥٦٨/٤.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٨٦٤٤):ص٣٣١٠/١٠.
(٩) التفسير الميسر:٢٧٠.
(١٠) تفسير ابن كثير:٥٦٨/٤.
(١١)تفسير ابن عثيمين: ١/ ٢٨.

روي عن سفيان، عن رجل قال: "نال رجل من عمر بن عبد العزيز، فقيل له: ما يمنعك منه؟ فقال: «إن المتقي ملجم»"[1]. قال أبو خير الهاشمي:" كأنّ له لجاما يمنعه من العدول عن سنن الحقّ قولا وفعلا"[2].

القرآن

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)} [النحل : ٣٢]

التفسير:

الذين تقبض الملائكةُ أرواحَهم، وقلوبُهم طاهرة من الكفر، تقول الملائكة لهم: سلام عليكم، تحية خاصة لكم وسلمتم من كل آفة، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون من الإيمان بالله والانقياد لأمره.

قوله تعالى:{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ} [النحل : ٣٢]، أي:" هم الذين تقبض الملائكةُ أرواحهم حال كونهم أبراراً، قد تطهروا من دنس الشرك والمعاصي، طيبةً نفوسهم بلقاء الله"[3].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كذلك يجزي الله المتقين الذين تقبض أرواحهم ملائكة الله، وهم طيبون بتطييب الله إياهم بنظافة الإيمان، وطهر الإسلام في حال حياتهم وحال مماتهم"[4].

قال الواحدي:"{ طيبين} طاهرين من الشِّرك"[5].

قال البغوي:" مؤمنين طاهرين من الشرك"[6].

قال السمعاني:" يعني: طاهرين زاكين من الشرك، وقيل: معناه: أن وفاتهم تقع طيبة سهلة"[7].

قال البيضاوي:" طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي، لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم. وقيل فرحين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية إلى حضرة القدس"[8].

عن مجاهد، قوله :"{الذين تتوفاهم الملائكة طيبين}، قال: أحياء وأمواتا، قدر الله ذلك لهم"[9].

قوله تعالى:{يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ} [النحل : ٣٢]، أي:" تقول الملائكة لهم: سلام عليكم، تحية خاصة لكم وسلمتم من كل آفة"[10].

قال الطبري:يعني: أن الملائكة تقبض أرواح هؤلاء المتقين، وهي تقول لهم: سلام عليكم صيروا إلى الجنة بشارة من الله تبشرهم بها الملائكة"[11].

قال السمعاني:" يقال: إن المراد منه تسليم الملائكة، يبلغون سلام الله إليهم"[1].

---

(١) رواه ابن سعد في "الطبقات" :٣٧٤/٥، ورواه أبو نعيم في "الحلية" (٣٣٩/٥) من طريق قبيصة، عن سفيان قال: نال رجل من عمر ... فذكره، والبيهقي في شعب الإيمان(٥٤٠٤):ص٥١٨/٧، عن مالك قال: قال عمر بن عبد العزيز: "التقي ملجم لا يستطيع كل ما يريد".

(٢) الأمثال:٨٢/١، وانظر: أمثال أبي عبيد ٤٠، فصل المقال ٢٢، مجمع الأمثال ١٣٩/١، المستقصى ٣٠٧/١، ٣٠٧/١، نكتة الأمثال: ٥.

يضرب في الحثّ على السكوت.

(٣) صفوة التفاسير:١١٦/٢.

(٤) تفسير الطبري:١٩٨/١٧.

(٥) الوجيز:٦٠٥.

(٦) تفسير البغوي:١٧/٥.

(٧) تفسير السمعاني:١٧٠/٣.

(٨) تفسير البيضاوي:٢٢٥/٣.

(٩) أخرجه الطبري:١٩٨/١٧.

(١٠) التفسير الميسر:٢٧٠.

(١١) تفسير الطبري:١٩٨/١٧.

قال البغوي:" {يقولون} يعني: الملائكة لهم، {سلام عليكم} وقيل: يبلغونهم سلام الله"[٢].

قال الزمخشري:" قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا ولى الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة"[٣].

قال البيضاوي:" يقولون سلام عليكم لا يحيقكم بعد مكروه"[٤].

قال محمد بن كعب القرظي: "إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك فقال: السلام عليك ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، ثم نزع بهذه الآية: {الذين تتوفاهم الملائكة طيبين} ... إلى آخر الآية"[٥].

وعن ابن عباس، قوله :"{فسلام لك من أصحاب اليمين}، قال: الملائكة يأتونه بالسلام من قبل الله، وتخبره أنه من أصحاب اليمين"[٦].

عن البراء، قال: "قوله {سلام قولا من رب رحيم}، قال: يسلم عليه عند الموت"[٧].

قوله تعالى:{ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل : ٣٢]، أي:" ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون من الإيمان بالله والانقياد لأمره"[٨].

قال الطبري:" يقول: بما كنتم تصيبون في الدنيا أيام حياتكم فيها طاعة الله، طلب مرضاته"[٩].

قال السمعاني:" يعني: يقال لهم: ادخلوا الجنة بإيمانكم وطاعتكم"[١٠].

قال البيضاوي:" حين تبعثون فإنها معدة لكم على أعمالكم، وقيل هذا التوفي وفاة الحشر لأن الأمر بالدخول حينئذ "[١١].

الفوائد:

١- بشرى أهل الإيمان والتقوى عند الموت، وعند القيام من القبور بالنعيم المقيم في جوار رب العالمين.

٢- أعمال القلوب والجوارح سبب في دخول الجنة وليست ثمنا لها لغلائها، وإنما الأعمال تزكي النفس وتطهر الروح وبذلك يتأهل العبد لدخول الجنة.

٣- من الملائكة الموكل بقبض الأرواح وهو ملك الموت وأعوانه، وقد جاء في بعض الآثار تسميته عزرائيل، وخلاص كلام أهل العلم في هذا: أنه لا يصح في تسمية ملك الموت بعزرائيل - ولا غيره - حديث، والله أعلم[١٢].

أخرج إبن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن أشعث بن أسلم، قال:" سأل إبراهيم صلوات الله عليه ملك الموت وإسمه عزرائيل وله عينان في وجهه وعينان في قفاه فقال يا ملك الموت ماذا تصنع إذا كانت نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء وإلتقى

---

(١) تفسير السمعاني:١٧٠/٣.

(٢) تفسير البغوي:١٧/٥.

(٣)الكشاف:٦٠٣/٢ .

(٤) تفسير البيضاوي:٢٢٥/٣.

(٥) أخرجه الطبري:١٩٨/١٧-١٩٩.

(٦) أخرجه الطبري:١٩٩/١٧.

(٧) أخرجه الطبري:١٩٩/١٧.

(٨) التفسير الميسر:٢٧٠.

(٩) تفسير الطبري:١٩٩/١٧.

(١٠) تفسير السمعاني:١٧٠/٣.

(١١) تفسير البيضاوي:٢٢٥/٣.

(١٢)انظر: أحكام الجنائز للألباني ص/ ١٥٦. الحجج البينات للغماري. أهوال القبور لابن رجب. البداية لابن كثير ١/ ٤٧، ٥٠. الاعتراضات والعراقيل لمن يسمي ملك الموت عزرائيل - لعبد الحي الكتاني، ذكر في مقدمة فهرس الفهارس والأثبات له ١/ ٢٦، ولم أطلع عليه. العقيدة في ضوء الكتاب والسنة للأشقر ٢/ ١٨. الفتاوى ٤/ ٢٥٩. الألفاظ الموضحات للدويش ٢/ ٣٦ .

الزحفان كيف تصنع قال أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين قال ودحيت له الأرض فتركت مثل الطست يتناول منها حيث شاء"[١].

ويجدر القول بأنه أحيانا يسمع المحتضر يرحب بالقادمين عليه من الملائكة[٢]، ويقول: مرحبًا! وأحيانًا يقول: مرحبًا؛ اجلس هنا! كما ذكره ابن القيم في كتاب "الروح"، وأحيانًا يحس بأن هذا الرجل أصيب بشيء مخيف، فيتغير وجهه عند الموت إذا نزلت عليه ملائكة العذاب والعياذ بالله.

القرآن

{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣)} [النحل : ٣٣]

التفسير:

ما ينتظر المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة؛ لتقبض أرواحهم وهم على الكفر، أو يأتي أمر الله بعذاب عاجل يهلكهم، كذلك صنع من قبلهم من المجرمين حتى حلَّ بهم العذاب، وما ظلمهم الله بإهلاكهم، وإنزال العذاب بهم، ولكنهم هم الذين كانوا يظلمون أنفسهم بما جعلهم أهلا للعذاب.

قوله تعالى:{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ} [النحل : ٣٣]، أي:" ما ينتظر المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة؛ لتقبض أرواحهم وهم على الكفر، أو يأتي أمر الله بعذاب عاجل يهلكهم"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هل ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، أو يأتي أمر ربك بحشرهم لموقف القيامة"[٤].

قال السعدي:" يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، وذكروا فلم يتذكروا، {إلا أن تأتيهم الملائكة} لقبض أرواحهم {أو يأتي أمر ربك} بالعذاب الذي سيحل بهم فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم"[٥].

عن قتادة، قوله :"{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ}، قال: بالموت، وقال في آية أخرى {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ}، وهو ملك الموت، وله رسل، قال الله تعالى (أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ) ذاكم يوم القيامة"[٦].

عن مجاهد :"{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ}، يقول: عند الموت حين تتوفاهم، أو يأتي أمر ربك ذلك يوم القيامة"[٧].

قوله تعالى:{كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [النحل : ٣٣]، أي:" كذلك صنع من قبلهم من المجرمين حتى حلَّ بهم العذاب"[٨].

قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه: كما يفعل هؤلاء من انتظارهم ملائكة الله لقبض أرواحهم، أو إتيان أمر الله فعل أسلافهم من الكفرة بالله، لأن ذلك في كلّ مشرك بالله"[٩].

---

(١) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للسيوطي:٥٢-٥٣.

(٢)لما رواه البراء بن عازب في قصة خروجه مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في جنازة رجل من الأنصار. الأنصار. أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٩٥ و ٢٩٦)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والآجري في "الشريعة" (٣٦٧)، والحاكم في "المستدرك" (١/ ٣٧)؛ وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، ووافقهما الألباني في "أحكام الجنائز" (١٥٩). وقال الحافظ المنذري في "الترغيب والترهيب" (٤/ ٣٦٩): هذا الحديث حديث حسن.

(٣) التفسير الميسر:٢٧٠.

(٤) تفسير الطبري:١٩٩/١٧.

(٥) تفسير السعدي:٤٣٩.

(٦) أخرجه الطبري:١٩٩/١٧-٢٠٠.

(٧) أخرجه الطبري:٢٠٠/١٧.

(٨)صفوة التفاسير:١١٦/٢.

(٩) تفسير الطبري:١٩٩/١٧.

قال المراغي:" أي: هكذا تمادى أسلافهم فى شركهم حتى ذاقوا بأسنا، وحل بهم عذابنا ونكالنا"(١).

قال السعدي:" كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب"(٢).

قوله تعالى:{وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [النحل : ٣٣]، أي:" وما ظلمهم الله بإهلاكهم، وإنزال العذاب بهم، ولكنهم هم الذين كانوا يظلمون أنفسهم بما جعلهم أهلا للعذاب"(٣).

قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه: وما ظلمهم الله بإحلال سُخْطه، {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، بمعصيتهم ربهم وكفرهم به، حتى استحقوا عقابه، فعجَّل لهم"(٤).

قال المراغي:" أي: وما ظلمهم الله بإنزال العذاب بهم، لأنه أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم، بإرسال رسله، وإنزال كتبه، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل وتكذيبهم ما جاءوا به"(٥).

قال السعدي:" فإنها مخلوقة لعبادة الله ليكون مآلها إلى كرامة الله فظلموها وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم"(٦).

الفوائد:

١- معالجة كل ذنب بالتوبة منه.

٢- ما ينتظر المحرمون بإصرارهم على الظلم والشر والفساد إلا العذاب، عاجلا أو آجلا فهو نازل بهم حتما مقضيا إن لم يبادروا إلى التوبة الصادقة.

٣- - انتفاء الظلم عن الله تعالى، قال تعالى::{وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، ويكون نفي الظلم لكمال العدل، فكل صفة نفاها الله عن نفسه فإنما يراد بها ثبوت كما الضد.

القرآن

{فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤)} [النحل : ٣٤]

التفسير:

فنزلت بهم عقوبة ذنوبهم التي عملوها، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه.

قوله تعالى:{فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا} [النحل : ٣٤]، أي:" فنزلت بهم عقوبة ذنوبهم التي عملوها"(٧).

قال يحيى بن سلام وابن أبي زمنين: أي:" ثواب ما عملوا"(٨).

قال السعدي:" أي: عقوبات أعمالهم وآثارها"(٩).

وقال السدي: أي :"عذاب ما عملوا من الشرك"(١٠).

قال مكي بن ابي طالب:" أي: أصاب هؤلاء الذين تقدم ذكرهم من الأمم الماضية عقاب ذنوبهم ونقم معاصيهم"(١١).

---

(١) تفسير المراغي:٧٧/١٤.
(٢) تفسير السعدي:٤٣٩.
(٣) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٤) تفسير الطبري:١٩٩/١٧.
(٥) تفسير المراغي:٧٧/١٤.
(٦) تفسير السعدي:٤٣٩.
(٧) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٨) تفسير يحيى بن سلام:٦٢/١، وتفسير ابن أبي زمنين:٤٠٢/٢.
(٩) تفسير السعدي:٤٣٩.
(١٠) تفسير يحيى بن سلام:٦٢/١.
(١١) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٨٦/٦.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فأصاب هؤلاء الذين فعلوا من الأمم الماضية فعل هؤلاء المشركين من قريش «سيئات ما عملوا»، يعني: عقوبات ذنوبهم، ونقم معاصيه التي اكتسبوها"(١).

قوله تعالى:{وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [النحل : ٣٤]، أي:" وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه"(٢).

قال يحيى بن سلام وابن أبي زمنين:أي:" ثواب ما كانوا به يستهزئون بآيات الله وبالرسل"(٣).

قال الطبري:" يقول: وحل بهم من عذاب الله ما كانوا يستهزئون منه، ويسخرون عند إنذارهم ذلك رسل الله، ونزل ذلك بهم دون غيرهم من أهل الإيمان بالله"(٤).

قال مكي بن ابي طالب:" أي: وحل بهم العذاب الذين كانوا به يستهزؤون ويسخرون إذا أنذرتهم الرسل"(٥).

قال السعدي:" فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب استهزأوا به، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه"(٦).

الفوائد:

١- الجزاء بجنس العمل في الآخرة:

كما أن سنة الجزاء بجنس العمل حاكمة في معاملة الله خلقه في الحياة الدنيا، فهي كذلك في الآخرة، ومن ثم كانت سنة أساسية بين السنن، والتطبيقات القرآنية تترى في هذا المعنى، وتصل إلى حد التواتر، من حيث العدد، وإلى القطع من حيث المعنى والمراد من ذلك (٧).

١- ومن الفوائد: أن الغرض من الجزاء المعجل لكي يثوب الإنسان إلى رشده، ويرجع عن خطئه، قال تعالى: {فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤون}[النحل: ٣٤](٨).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أراد الله بعبده خيرا عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة"(٩).

ما يصيب الإنسان إن كان يسره فهو نعمة بينه، وإن يسوؤه فهو نعمة، لأنه يكفر خطاياه، ويثاب عليه بالصبر ومن جهة إن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها العبد، قال تعالى:{وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم} [البقرة: ٢١٦]، وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى صبر(١٠). والمقصود أن الله تعالى منعم بهذا كله، وإن كان لا يظهر في الابتداء لأكثر الناس، فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون(١١).

القرآن

---

(١) تفسير الطبري:٢٠٠/١٧.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٠.
(٣) تفسير يحيى بن سلام:٦٣/١، وتفسير ابن أبي زمنين:٤٠٢/٢.
(٤) تفسير الطبري:٢٠٠/١٧.
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٨٦/٦.
(٦) تفسير السعدي:٤٣٩.
(٧) انظر: السنن الإلهية د. مجدي عاشور :٢٥٠.
(٨) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس :١/ ١٥٢.
(٩)سنن الترمذي رقم ٢٣٩٦ حديث حسن غريب.
(١٠)مجموع الفتاوى :٨/ ٢٠٩ - ٢١٠.
(١١) . انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس :١/ ١٥٢.

{وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)} [النحل : ٣٥]

التفسير:

وقال المشركون: لو شاء الله أن نعبده وحده ما عبدنا أحدًا غيره، لا نحن ولا آباؤنا مِن قبلنا، ولا حَرَّمَنا شيئًا لم يحرمه، بمثل هذا الاحتجاج الباطل احتج الكفار السابقون، وهم كاذبون؛ فإن الله أمرهم ونهاهم ومكَّنهم من القيام بما كلَّفهم به، وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم، فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل من بعد إنذار الرسل لهم، فليس على الرسل المنذِرين لهم إلا التبليغ الواضح لما كُلِّفوا به.

قوله تعالى:{وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا} [النحل : ٣٥]، أي:" قال أهل الكفر والإشراك"(١).

قال مكي بن أبي طالب:" معناه: وقال الذين عبدوا مع الله سبحانه غيره من الأوثان والأصنام من قريش وغيرهم"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وقال الذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثان والأصنام من دون الله"(٣).

قوله تعالى:{لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} [النحل : ٣٥]، أي:" لو شاء الله أن نعبده وحده ما عبدنا أحدًا غيره، لا نحن ولا آباؤنا مِن قبلنا، ولا حَرَّمَنا شيئًا لم يحرمه"(٤).

قال الطبري:" ما نعبد هذه الأصنام إلا لأن الله قد رضي عبادتنا هؤلاء، ولا نحرم ما حرمنا من البحائر والسوائب، إلا أن الله شاء منا ومن آبائنا تحريمناها ورضيه، لولا ذلك لقد غير ذلك ببعض عقوباته أو بهدايته إيانا إلى غيره من الأفعال"(٥).

قال مكي بن أبي طالب: أي:" قد رضي الله عنافي عبادتنا ما عبدنا. لأنه لو شاء، ما عبدناها، ولو شاء ما حرمنا البحائر والسوائب، وما بقينا على ما نحن عليه، إلا لأن الله عز وجل قد رضي ذلك. ولو لم يرض عنا لغير ذلك ببعض عقوباته ولهدانا إلى غيره من الأفعال.. وهذا القول الذي قالوه إنما قالوه على طريق الهزء والاستخفاف. كما قال قوم شعيب عليه السلام له: {إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد} [هود: ٨٧] على طريق الهزء. ولو قالوه على طريق الجد لكانوا مؤمنين. وكذلك، لو قال قائل مذنب على طريق الجد: لو شاء الله ما أذنبت، ولو شاء الله ما قتلت النفس، لم يكن بذلك كافراً ولا منقوصاً، وكان كلامه حسناً"(٦).

قال السعدي:" أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئا من الأنعام التي أحلها كالبحيرة والوصيلة والحام ونحوها من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقا ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب. فلو كان يحب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله، فإن الله أمرهم ونهاهم ومكنهم من القيام بما كلفهم وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم. فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريده من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية"(٧).

---

(١) صفوة التفاسير:١١٧/٢.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٨٦/٦.
(٣) تفسير الطبري:٢٠١/١٧.
(٤) التفسير الميسر:٢٧١.
(٥) تفسير الطبري:٢٠١/١٧.
(٦) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٨٦/٦-٣٩٨٧.
(٧) تفسير السعدي:٤٤٠.

ويحتمل قولهم هذا وجوها[(١)]:

أحدها: قالوا ذلك على الاستهزاء به؛ كقوله: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا} [مريم : ٦٦]. وهذا اختيار الزجاج[(٢)].

قال الزجاج:" إنما كفر أولئك وكذبوا، لأنهم كانوا يقولون: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء على جهة الهزؤ، والدليل على ذلك أن قوم شعيب قالوا لشعيب: {أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [هود : ٨٧] فلو قالوا له هذا معتقدين لكانوا مؤمنين، وإنما قالوه مستهزئين، وقد اتفقت الأمة على أن الله لو شاء ألا يعبد غيره مشيئة اضطرار إلى ذلك لم يقدر أحد على غير ذلك، ولكن الله جل ثناؤه تعبد العباد ووفق من أحب توفيقه، وأضل من أحب إضلاله، وهؤلاء قالوا هذه محققين ما قيل لهم أنهم مكذبون إذ كان الإجماع على أن الله - عز وجل - يقدر على أن يجبر العباد على طاعته وأعلم الله أنهم مكذبون كما كذب الذين من قبلهم"[(٣)].

والثاني: قولهم: {لو شاء الله}، أي: لو أمر الله أن نعبده ولا نعبد غيره لفعلنا؛ كقوله: {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف : ٢٨].

والثالث: قالوا: لو لم يرض الله منا ذلك ما تركنا فعلنا ذلك؛ ولكن أهلكنا.

قال الباقلاني:" وأما تعلق الملحد والقدري بقوله تعالى: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا} [الأنعام : ١٤٨] ، وقوله: {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الزخرف : ٢٠]، وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا} [النحل : ٣٥].

فالجواب عنه: أن القوم إنما قالوا ذلك على وجه النفاق واعتقاد خلاف ما يظهرون من هذا القول، وعلى وجه الهزل بالرسول والإنكار لقوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوه} [الأنعام : ١٣٧]، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا} [الأنعام : ١٠٧] ، {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} [السجدة : ١٣]، ونحو هذا القول، فقالوا هذا القول على وجه الرد والإنكار، كما قال سبحانه في ذمهم بقولهم: {أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَه} [يس : ٤٧] ، وهذا القول حق لمن قالوه معتقدين لصحته ولكنهم قالوا ذلك على سبيل التكذيب للرسول، وكما ذم المنافقين بقوله تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون، فأكذبهم في قولهم، لأنهم قالوه نفاقا على غير وجه الاعتقاد لصحته"[(٤)].

قوله تعالى:{كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [النحل : ٣٥]، أي:" مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من قبلهم من المجرمين، واحتجوا مثل احتجاجهم الباطل، وتناسوا كسبهم لكفرهم ومعاصيهم، وأن كل ذلك كان بمحض اختيارهم بعد أن أنذرتهم رسلهم عذاب النار وغضب الجبار"[(٥)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كذلك فعل الذين من قبلهم من الأمم المشركة الذين استن هؤلاء سنتهم، فقالوا مثل قولهم، سلكوا سبيلهم في تكذيب رسل الله، واتباع أفعال آبائهم الضلال"[(٦)].

قال مكي بن أبي طالب: أي:" من الأمم المشركة فاستن هؤلاء بسنتهم وسلكوا سبيلهم في تكذيب الرسل"[(١)].

---

(١) انظرك تأويلات أهل السنة:٥٠١/٦.
(٢) انظر: معاني القرآن: ١٩٧/٣.
(٣) معاني القرآن:١٩٧/٣.
(٤) الإنتصار للقرآن:٦٦٦/٢-٦٦٧.
(٥) صفوة التفاسير:١١٧/٢.
(٦) تفسير الطبري:٢٠١/١٧.

قوله تعالى:{فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النحل : ٣٥]، أي:" فليس على الرسل المنذِرين لهم إلا التبليغ الواضح لما كُلِّفوا به"(٢).

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: فهل أيها القائلون: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، على رسلنا الذين نرسلهم بإنذاركم عقوبتنا على كفركم، إلا البلاغ المبين: يقول: إلا أن تبلغكم ما أرسلنا إليكم من الرسالة. ويعني بقوله {المبين}: الذي يبين عن معناه لمن أبلغه، ويفهمه من أرسل إليه"(٣).

قال مكي بن أبي طالب:" أي: البلاغ الظاهر المعنى المفهوم عند الرسل إليه"(٤).

قال الزجاج:" أي: الإبلاغ الذي يبينون معه أنهم أنبياء"(٥).

قال السعدي:" أي: البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسل من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل"(٦).

الفوائد:

١- الرد على شبهة المشركين في احتجاجهم بالمشيئة الإلهية.

فإن عبدة الأصنام لهم قول في القدر قبيح وهو القول بالجبر وإنكار الأمر والنهي فنسبوا إلى الله عزوجل كل ما يكون من شركهم وفسقهم قال الله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام : ١٤٨].

فأثبتوا هنا القدر ومشيئة الله جل وعلا وجعلوها حجة في إنكار الأمر والنهي، لهذا بين الله ضلالهم واستحقاق الذين من قبلهم العذاب بسببه فقال بعد آية الأنعام: {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَخْرُصُونَ}، وقول المشركين شر من قول المعتزلة لإبطالهم الأمر والنهي ونسبتهم القبائح إلى محبة الله ورضاه، وأما المعتزلة فإنهم يعظمون الأمر والنهي إلا أنهم ينكرون القدر ظناً منهم أن بين القدر والأمر والنهي تعارض(٧).

٢- الإيمان بأن الرسل والأنبياء-عليهم السلام- قد بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بيانا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل له خلافه. قال تعالى: {فهل على الرسل إلا البلاغ المبين} [النحل: ٣٥].

٣-

القرآن

{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)} [النحل : ٣٦]

التفسير:

ولقد بعثنا في كل أمة سبقَتْ رسولا آمرًا لهم بعبادة الله وطاعته وحده وتَرْكِ عبادة غيره من الشياطين والكهنة والأوثان وغير ذلك مما يتخذ من دون الله وليًا، فكان منهم مَن هدى الله، فاتبع المرسلين، ومنهم المعاند الذي اتبع سبيل الغيِّ، فوجبت عليه الضلالة، فلم يوفقه الله. فامشوا في الأرض، وأبصروا بأعينكم كيف كان مآل هؤلاء المكذبين، وماذا حلَّ بهم مِن دمار؛ لتعتبروا؟

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٨٦/٦-٣٩٨٧.

(٢) التفسير الميسر:٢٧١.

(٣) تفسير الطبري:٢٠١/١٧-٢٠٢.

(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٨٧/٦.

(٥) معاني القرآن:١٩٧/٣.

(٦) تفسير السعدي:٤٤٠.

(٧)وللاستزيادة من هذا المعنى انظر: كلام شيخ الإسلام في محموع الفتاوى ٩٩/٨-١٠٥.

قوله تعالى:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل : ٣٦]، أي:" ولقد بعثنا في كل أمة سبقَتْ رسولا آمرًا لهم بعبادة الله وطاعته وحده وتَرْكِ عبادة غيره من الشياطين والكهنة والأوثان وكل من دعا إلى الضلال"[١].

قال السمعاني:" أي: وحدوا الله واجتنبوا الأصنام"[٢].

قال الزمخشري:" ولقد أمد إبطال قدر السوء ومشيئة الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولا يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة الله، وباجتناب الشر الذي هو طاعة الطاغوت"[٣].

قال القرطبي:" أي: بأن اعبدوا الله ووحدوه.واتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولقد بعثنا أيها الناس في كل أمة سلفت قبلكم رسولا كما بعثنا فيكم بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادة، وابعدوا من الشيطان، واحذروا أن يغويكم، ويصدكم عن سبيل الله، فتضلوا"[٥].

قال الماتريدي:" يخبر رسوله أنك لست بأول رسول، مبعوث إلى أمتك؛ ولكن قد بعث إلى كل أمة رسول، وهو كقوله: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير}، يصبره على ما يصيبه منهم من المكروه والأذى؛ أي: لست أنت بأول من يصيبه ذلك، بل كان لك قبلك إخوان أصابهم من أممهم ما يصيبك من أمتك، وقوله :{أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}، على ذلك كان بعث الرسل جميعا إلى قومهم بالدعاء إلى توحيد الله؛ وجعل العبادة له، والنهي عن عبادة الأوثان دونه "[٦].

قال يحيى بن سلام:" { واجتنبوا الطاغوت}، يعني: اجتنبوا الأوثان، والطاغوت: الشيطان، هو دعاهم إلى عبادة الأوثان، مثل قوله: {وإن يدعون إلا شيطانا مريدا} [النساء: ١١٧]"[٧].

قال السدي: "{واجتنبوا الطاغوت} [النحل: ٣٦] ، يعني: واجتنبوا الأوثان"[٨].

قال البغوي:"«الطاغوت»: هو كل معبود من دون الله"[٩].

قال الزجاج:" فأعلم الله أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة"[١٠].

قال سهل :" العبادة زينة العارفين، وأحسن ما يكون العارف إذا كان في ميادين العبودية والخدمة، يترك ما له لما عليه"[١١].

واختلف في معنى« الطَّاغُوتَ»، على أقوال:

أحدها : أنه الشيطان[١٢]، وهو قول عمر بن الخطاب[١]، ومجاهد[٢]، والشعبي[٣]، والضحاك[٤]، والضحاك[٤]، وقتادة[٥]، والسدي[٦]، وعكرمة[٧]، واختاره ابن كثير[٨]، والقاسمي[٩] وآخرون. وآخرون.

---

(١) انظر: التفسير الميسر:٢٧١، وصفوة التفاسير:١١٧/٢.
(٢) تفسير السمعاني:١٧٢/٣.
(٣) الكشاف:٦٠٥/٢.
(٤) تفسير القرطبي:١٠٣/١٠.
(٥) تفسير الطبري:٢٠١/١٧.
(٦) تأويلات أهل السنة:٥٠١/٦-٥٠٢.
(٧) التصاريف لتفسير القرآن:٢٠٧، وتفسير يحيى بن سلام:٦٣/١.
(٨) تفسير يحيى بن سلام:٦٣/١.
(٩) تفسير البغوي:١٨/٥.
(١٠) معاني القرآن:١٩٨/٣.
(١١) تفسير التستري:٩٠.
(١٢) قال الشنقيطي:" قال بعض العلماء : (الطاغوت): الشيطان، ويدل لهذا قوله تعالى : {إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه}، أي يخوفكم من أوليائه . وقوله تعالى : {الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا، وقوله : {أفتتخذونه وذريته أولياء من

والثاني : أنه الساحر ، وهو قول أبي العالية[١٠]، ومجد ابن سيرين[١١] والشعبي[١٢].
والثالث : الكاهن ، وهو قول جابر[١٣]، وسعيد بن جبير[١٤]، والرفيع[١٥]، وابن جريج[١٦].
والرابع : الأصنام والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله تعالى[١٧] . روي ذلك عن مالك[١٨].
والخامس : مَرَدَة الإنس والجن[١٩].
والسادس : وقيل: أنه كل ذي طغيان طغى على الله ، فيعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده، أو بطاعة له ، سواء كان المعبود إنساناً أو صنماً، روي ذلك عن الإمام مالك[٢٠] ، وابن القيم[٢١] ، وهذا قول أبي جعفر الطبري[٢٢].
والسابع : أنها النفس لطغيانها فيما تأمر به من السوء ، كما قال تعالى:{إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [يوسف : ٥٣]، ذكره الماوردي[٢٣].
والراجح-والله أعلم- أن «الطاغوت» عبارة عن كل مُعتدٍ وكل معبود من دون الله[٢٤]، وهو اختيار الإمام الطبري وأبي حيان[١] وغيرهم. وبه قال أكثر أهل العلم.

دونى وهم لكم عدو} وقوله : {إنهم اتخذوا الشياطين أولياء}، والتحقيق أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت والحظ الأكبر من ذلك للشيطان كما قال تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بنى ءادم أن لا تعبدوا الشيطان (وقال : (إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا {وقال عن خليله ابرهيم} يا أبت لا تعبد الشيطان وقال : {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون}،إلى غير ذلك من الآيات".[أضواء البيان: ١/١٥٩].
(١) أنظر: تفسير الطبري(٥٨٣٤) و(٥٨٣٥):ص٤١٧/٥. وابن ابي حاتم(٢٦١٨):ص٤٩٥/٢.
(٢) أنظر: تفسير الطبري(٥٨٣٦):ص٤١٧/٥.
(٣)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٣٧):ص٤١٧/٥.
(٤)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٣٨):ص٤١٧/٥.
(٥)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٣٩):ص٤١٧/٥.
(٦)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤٠):ص٤١٧/٥.
(٧)البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾، قبل الحديث رقم ٤٥٨٣، ولفظه: "الْجِبْتُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: شَيْطَانٌ، وَالطَّاغُوتُ: الْكَاهِنُ".
(٨) أنظر: تفسير ابن كثير: ٦٨٣/١، إذ يقول: " ومعنى قوله في الطاغوت : إنه الشيطان قوي جدًّا فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية ، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها".
(٩) محاسن التأويل: ١٩٤/٢.
(١٠)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤١):ص٤١٧/٥.
(١١)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤٢):ص٤١٧/٥.
(١٢) أنظر تفسير ابن أبي حاتم(٢٦٢٠):ص٤٩٥/٢.
(١٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ}، قبل الحديث رقم (٤٥٨٣)، ولفظه: ""كَانَتْ الطَّوَاغِيتُ الَّتِي يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهَا: فِي جُهَيْنَةَ وَاحِدٌ، وَفِي أَسْلَمَ وَاحِدٌ، وَفِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ، كُهَّانٌ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ".
(١٤)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤٣):ص٤١٨/٥.
(١٥)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤٤):ص٤١٨/٥. والرفيه: ، هو أبو العالية الرياحي.
(١٦)أنظر: تفسير الطبري(٥٨٤٥):ص٤١٨/٥.
(١٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢/ ٤٤٦- ٤٤٧، تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾.
(١٨) تفسير ابن أبي حاتم(٢٦٢٢):ص٤٩٥/٢.
(١٩) أنظر: النكت والعيون: ٣٢٧/١.
(٢٠) ذكره القرطبي في تفسيره، ٥/ ٢٤٨، عن ابن وهب، عن الإمام مالك، وانظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص ٤٤.
(٢١) وأجمع ما قيل في تعريف الطاغوت ما ذكره ابن القيم / بقوله: "والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع" . [إعلام الموقعين عن رب العالمين، ١/ ٥٠].
(٢٢) أنظر: تفسير الطبري: ٤١٩/٥.
(٢٣) أنظر: النكت والعيون: ٣٢٧/١.
(٢٤)انظر :المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى: ٣٠٤

واختلفوا في أصل كلمة «الطَّاغُوتِ»، على وجهين[٢]:
القول الأول: أنه اسم أعجمي معرّب، ومن ثم اختلف هؤلاء في اشتقاقه على أقوال[٣]:
أ- قال الشوكاني: "الطاغوت: فعلوت، من طغى يطغي ويطغو، إذا جاوز الحد"[٤].
ب-قال سيبويه: "هو اسم مذكَّر"[٥] مفرد، أي اسم جنس، يشمل القليل والكثير.
ج- وقال أبو على الفارسي: "إنه مصدر: كرهبوت، وجبروت، يوصف به الواحد، والجمع، وقلبت لامه إلى موضع العين، وعينه إلى موضع اللام"[٦]، كجبذ، وجذب، ثم تقلب الواو ألفًا؛ لتحركها، وتحرك ما قبلها، فقيل: طاغوت. واختار هذا القول النحاس[٧].
وقيل: "أصل الطاغوت في اللغة: مأخوذ من الطغيان، يؤدي معناه من غير اشتقاق، كما قيل: لآلٍ، من اللؤلؤ"[٨].
قوله تعالى:{فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ} [النحل : ٣٦]، أي:" فمنهم من أرشده الله إلى عبادته ودينه فآمن"[٩].
قال السمعاني:" معناه: فمنهم من هداه الله للإيمان"[١٠].
قال الزمخشري:" أى: لطف به لأنه عرفه من أهل اللطف"[١١].
قال القرطبي:" أي: أرشده إلى دينه وعبادته"[١٢].
قال الطبري:" يقول: فممن بعثنا فيهم رسلنا من هدى الله، فوفقه لتصديق رسله، والقبول منها، والإيمان بالله، والعمل بطاعته، ففاز وأفلح، ونجا من عذاب الله"[١٣].
قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ} [النحل : ٣٦]، أي:" ومنهم من وجبت له الشقاوة والضلالة فكفر"[١٤].
قال السمعاني: أي:" ومنهم من وجبت عليه الضلالة، وتركه في الكفر بالقضاء السابق، فهذه الآية تبين أن من آمن بمشيئة الله، وأن من كفر، كفر بمشيئة الله"[١٥].

---

(١) قال أبو حيان بعد أن سرد الأقوال في معنى (الطاغوت): " وينبغي أن تجعل هذه الأقوال كلها تمثيلاً ، لأن الطاغوت محصور في كل واحد منها".[البحر المحيط: ٢/ ٢١٠].
(٢) أنظر: النكت والعيون:٣٢٨/١.
(٣) انظر: فتح القدير: ٢٧٥/١، والمحرر الوجيز: ٣٤٤/١، وتفسير القرطبي: ٢٨١/٣، والبحر المحيط:٥٩٩/٢، وفتح البيان في مقاصد القرآن: ٩٩/٢، والحجة للقراء السبعة: ١٣٧/٤.
(٤)فتح القدير: ٢٧٥/١.
(٥) الكتاب: ٢٤٠/٣. وذكر صاحب اللسان(طغى)، قال ابن منظور: يقع على الواحد، والجمع، والمذكر، والمؤنث، وهي مشتقة من طغى، والطاغوتُ الشيطان، والكاهِنُ، وكلُّ رأْسٍ في الضَّلالة، وقد يكون واحداً قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ}[النساء: ٦٠]، وقد يكون جَمْعاً، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ}[البقرة: ٢٥٧]، وهو مثل الفُلْكِ يُذَكَّرُ ويؤنَّث، قال تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا}[الزمر: ١٧]، والطاغوتُ يكونُ من الأَصْنامِ، ويكون من الجِنّ والإنس، ويكون من الشياطين، وجمعُ الطاغوتِ: طَواغِيتُ، والطَّوَاغِي: جمع طاغيَةٍ، ويجوز أن يُراد بالطَّواغِي: من طَغَى في الكُفرِ، وجاوَزَ الحَدَّ".[لسان العرب لابن منظور، ١٥/ ٧، مادة (طغى) ، و مقاييس اللغة، ٣/ ٣٢٢، مادة (طغى)،و المصباح المنير، ٢/ ٢٧٣، مادة (طغى)].
(٦) المحرر الوجيز: ٣٤٤/١.
(٧) أنظر: معاني القرآن: ٢٧٠/١.
(٨) معاني القرآن للنحاس: ٢٦٩/١.
(٩) صفوة التفاسير:١١٧/٢.
(١٠) تفسير السمعاني:١٧٢/٣.
(١١) الكشاف:٦٠٥/٢.
(١٢) تفسير القرطبي:١٠٣/١٠.
(١٣) تفسير الطبري:٢٠١/١٧.
(١٤) صفوة التفاسير:١١٧/٢.
(١٥) تفسير السمعاني:١٧٢/٣.

قال الزمخشري:" أى: ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف، لأنه عرفه مصمما على الكفر لا يأتى منه خير"[1].

قال ابن الجوزي:" أي: وجبت في سابق علم الله، فأعلم الله عز وجل أنه إنما بعث الرسل بالأمر بالعبادة، وهو من وراء الإضلال والهداية"[2].

قال الطبري:" يقول: وممن بعثنا رسلنا إليه من الأمم آخرون حقت عليهم الضلالة، فجاروا عن قصد السبيل، فكفروا بالله وكذبوا رسله، واتبعوا الطاغوت، فأهلكهم الله بعقابه، وأنزل عليهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين"[3].

قوله تعالى:{فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [النحل : ٣٦]، أي:" فامشوا في الأرض، وأبصروا بأعينكم كيف كان مآل هؤلاء المكذبين، وماذا حلَّ بهم مِن دمار؛ لتعتبروا؟"[4].

قال القرطبي:" أي: فسيروا معتبرين في الأرض، [فانظروا]كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك"[5].

قال السمعاني: "معناه: مآل أمر المكذبين ومرجعهم"[6].

قال ابن الجوزي:" أي: معتبرين بآثار الأمم المكذبة"[7].

قال الزمخشري: أي:"{ فانظروا} ما فعلت بالمكذبين حتى لا يبقى لكم شبهة في أنى لا أقدر الشر ولا أشاؤه، حيث أفعل ما أفعل بالأشرار"[8].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: إن كنتم أيها الناس غير مصدقي رسولنا فيما يخبركم به عن هؤلاء الأمم الذين حل بهم ما حل من بأسنا بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله، فسيروا في الأرض التي كانوا يسكنونها، والبلاد التي كانوا يعمرونها، فانظروا إلى آثار الله فيهم، وآثار سخطه النازل بهم، كيف أعقبهم تكذيبهم رسل الله ما أعقبهم، فإنكم ترون حقيقة ذلك، وتعلمون به صحة الخبر الذي يخبركم به محمد ﷺ"[9].

قال قتادة:" كان عاقبتهم أن دمر الله عليهم، ثم صيرهم إلى النار"[10].

الفوائد:

١- التوحيد هو أول دعوة الرسل، فنقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له.
٢- لم تبق أمة إلا بعث إليها رسولا بدليل قوله تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦].
٣- عموم هذه الآية يدل على أن من قبل نوح أرسل فيهم رسل، وأولهم آدم، ويجمع بين ذلك بأن الناس قبل نوح كانوا على الفطرة، وما جاءت به الرسل مطابق للفطرة، وأما نوح فقد أرسل بعد أن وجد الشرك وخرج الناس عن الفطرة، فتكون أوليته بهذا الاعتبار.
٤- في الآية بطلان مذهب القدرية، لأنهم زعموا أن الله هدى الناس كلهم ووفقهم للهدى، والله تعالى يقول:{فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة}.

---

(١) الكشاف:٦٠٥/٢.
(٢) زاد المسير:٥٥٩/٢.
(٣) تفسير الطبري:٢٠١/١٧.
(٤) التفسير الميسر: ٢٧١.
(٥) تفسير القرطبي:١٠٤/١٠.
(٦) تفسير السمعاني:١٧٢/٣.
(٧) زاد المسير:٥٥٩/٢.
(٨) الكشاف:٦٠٥/٢.
(٩) تفسير الطبري:٢٠١/١٧.
(١٠) تفسير يحيى بن سلام:٦٣/١.

القرآن

{إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧)} [النحل : ٣٧]

التفسير:

إن تبذل -أيها الرسول- أقصى جهدك لهداية هؤلاء المشركين فاعلم أن الله لا يهدي مَن يضلُّ، وليس لهم من دون الله أحد ينصرهم، ويمنع عنهم عذابه.

قوله تعلى:{إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ} [النحل : ٣٧]، أي:" إن تبذل -أيها الرسول- أقصى جهدك لهداية هؤلاء المشركين"(١).

قال الواحدي:" أيْ: تطلبها بجهدك"(٢).

قال السمعاني:" «الحرص»: طلب الشيء بالجد والاجتهاد"(٣).

وقرأ النخعي: «إن تحرص»، بفتح الراء(٤).

قوله تعلى:{فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ} [النحل : ٣٧]، أي:" فاعلم أن الله لا يهدي مَن يضلُّ"(٥).

قال البغوي:" أي: لا يهدي الله من أضله. وقيل: معناه لا يهتدي من أضله الله"(٦).

قال الزمخشري:" ذكر عناد قريش وحرص رسول الله ﷺ على إيمانهم، وعرفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة، وأنه لا يهدي من يضل أى لا يلطف بمن يخذل، لأنه عبث، والله تعالى متعال عن العبث، لأنه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه"(٧).

وفي قوله تعلى:{فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ} [النحل : ٣٧]، قراءتان(٨):

إحداهما: «لا يهدي من يضل» بفتح الياء الأولى وضم الثانية، قراءة أهل الكوفة.

والثاني: «لا يهدي من يضل»، بضم اليائين، قرأ بها الباقون.

قال الزمخشري:" أى: لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله"(٩).

قال السمعاني:" أما القراءة الأولى فمعناه: لا يهدي الله من أضله، وأما القراءة الثانية فمعناه: فإن من يضله الله لا يهدى، وقيل: لا يقدر أحد على هدايته، قالوا: وهذا أولى القراءتين"(١٠).

قوله تعلى:{وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [النحل : ٣٧]، أي:" وليس لهم من دون الله أحد ينصرهم، ويمنع عنهم عذابه"(١١).

قال البغوي:" أي: مانعين من العذاب"(١٢).

قال الزمخشري:" أى: لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله"(١٣).

الفوائد:

١- التحذير من تعمد الضلال وطلبه والحرص عليه فإن من طلب ذلك وأضله الله لا ترجى هدايته.

---

(١) التفسير الميسر: ٢٧١.
(٢) الوجيز:٦٠٦.
(٣) تفسير السمعاني:١٧٢/٣.
(٤) انظر: الكشاف:٦٠٥/٢.
(٥) التفسير الميسر: ٢٧١.
(٦) تفسير البغوي:١٩/٥.
(٧) الكشاف:٦٠٥/٢.
(٨) انظر: تفسير السمعاني:١٧٢/٣، والكشاف:٦٠٥/٢
(٩) الكشاف:٦٠٥/٢.
(١٠) تفسير السمعاني:١٧٢/٣.
(١١) التفسير الميسر: ٢٧١.
(١٢) تفسير البغوي:١٩/٥.
(١٣) الكشاف:٦٠٥/٢.

٢- أن الهدى المنفي عنه في الآية، هو الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق، لأن ذلك بيد الله وحده، وليس بيده ﷺ.

وأما الهدى المثبت له ﷺ، هو الهدى العام الذي هو البيان، والدلالة والإرشاد، وقد فعل ذلك ﷺ فبين المحجة البيضاء، حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها هالك.

القرآن

{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨)} [النحل : ٣٨]

التفسير:

وحلف هؤلاء المشركون بالله أيمانًا مغلَّظة أن الله لا يبعث مَن يموت بعدما بَلِيَ وتفرَّق، بلى سيبعثهم الله حتمًا، وعدًا عليه حقًا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون قدرة الله على البعث، فينكرونه.

سبب النزول:

قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية:" كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فقال المشرك: إنك تزعم أنك تبعث بعد الموت، فأقسم بالله جهد يمينه: لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله :{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}"[١].[مرسل]

قوله تعالى:{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ} [النحل : ٣٨]، أي:" وحلف هؤلاء المشركون بالله أيمانًا مغلَّظة أن الله لا يبعث مَن يموت بعدما بَلِيَ وتفرَّق"[٢].

قال ابن كثير:" أي : استبعدوا ذلك ، فكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك ، وحلفوا على نقيضه"[٣].

قال الزمخشري:" {وأقسموا بالله} معطوف على {وقال الذين أشركوا} إيذانا بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان، حقيقتان بأن تحكيا وتدونا: توريك ذنوبهم على مشيئة الله، وإنكارهم البعث مقسمين عليه"[٤].

قال البغوي:" وهم منكرو البعث"[٥].

قوله تعالى:{بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا} [النحل : ٣٨]، أي:" بلى سيبعثهم الله حتمًا، وعدًا عليه حقًا"[٦].

قال ابن كثير:" أي : بلى سيكون ذلك ، { وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا }، أي : لا بد منه "[٧].

قال الزمخشري:" {بلى}: إثبات لما بعد النفي، أى: بلى يبعثهم. و«وعد الله»: مصدر مؤكد لما دل عليه {بلى} "[٨].

قوله تعالى:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [النحل : ٣٨]، أي:" ولكن أكثر الناس لا يعلمون قدرة الله على البعث، فينكرونه"[٩].

قال الزمخشري:أي:" لا يعلمون أنهم يبعثون"[١٠].

---

(١)مرسل، أخرجه ابن جرير (١٧/ ٢٠٣-٢٠٤)، ووعزاه السيوطي في الدر (٤/ ١١٨) لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم، وذكره الواحدي في أسباب النزول:٢٨٥.

(٢) التفسير الميسر: ٢٧١.

(٣) تفسير ابن كثير:٥٧١/٤.

(٤) الكشاف:٦٠٦/٢.

(٥) تفسير البغوي:١٩/٥.

(٦) التفسير الميسر: ٢٧١.

(٧) تفسير ابن كثير:٥٧١/٤.

(٨) الكشاف:٦٠٦/٢.

(٩) التفسير الميسر: ٢٧١.

(١٠) الكشاف:٦٠٦/٢.

قال ابن كثير:" أي : فَلِجَهْلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر "[١].

القرآن
{لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)} [النحل : ٣٩]
التفسير:
يبعث الله جميع العباد؛ ليبين لهم حقيقة البعث الذي اختلفوا فيه، ويعلم الكفار المنكرون له أنهم على باطل، وأنهم كاذبون حين حلفوا أنْ لا بعث.

قوله تعالى:{لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ} [النحل : ٣٩]، أي:" يبعث الله جميع العباد؛ ليبين لهم حقيقة البعث الذي اختلفوا فيه"[٢].

قال البغوي:" أي: ليظهر لهم الحق فيما يختلفون فيه"[٣].

قال الزمخشري: "أى: يبعثهم ليبين لهم، والضمير لمن يموت، وهو عام للمؤمنين والكافرين، والذي اختلفوا فيه هو الحق"[٤].

قوله تعالى:{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ} [النحل : ٣٩]، أي:" ويعلم الكفار المنكرون له أنهم على باطل، وأنهم كاذبون حين حلفوا أنْ لا بعث"[٥].

قال الزمخشري: " {أنهم كذبوا} في قولهم: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء، وفي قولهم: «لا يبعث الله من يموت». وقيل: يجوز أن يتعلق بقوله :{ولقد بعثنا في كل أمة رسولا}، أى: بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه، وأنهم كانوا على الضلالة قبله، مفترين على الله الكذب"[٦].

قال ابن كثير:" أي : في أيمانهم وأقسامهم : لا يبعث الله من يموت ؛ ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا ، وتقول لهم الزبانية : { هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [الطور : ١٤ - ١٦]"[٧].

فوائد الآيتين:[٣٨-٣٩]:
١- ذم المكذبين بالمعاد.
كان بعض السلف يقول في دعائه :"اللهم إنك قلت عن أهل النار أنهم {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت} ونحن نقسم بالله جهد أيماننا ليبعثن الله من يموت اللهم لا تجمع بين أهل القسمين في دار واحدة"[٨].
٢- لقد كان الجاهليون يرون أن: الموت نهاية؛ وأنهم غير مبعوثين، وأن البعث بعد الموت شيء غير معقول؛ لذا تعجبوا من قول النبي بوجود البعث والحساب.
٣- أن المشركين كاوا يمارون فى الساعة أشد المراء، ويكذبون بها كأعظم ما يكون التكذيب، ويحلفون بالأيمان المغلظة أن ذلك لن يكون، فذكر الله تكذيبهم، ورد عليهم بأن ذلك مقتضى حكمته، حتى يتميز الحق من الباطل، ويتبين الصادق من الكاذب.

القرآن
{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)} [النحل : ٤٠]
التفسير:

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٧١/٤.
(٢) التفسير الميسر: ٢٧١.
(٣) تفسير البغوي:١٩/٥.
(٤) الكشاف:٦٠٦/٢.
(٥) التفسير الميسر: ٢٧١.
(٦) الكشاف:٦٠٦/٢.
(٧) تفسير ابن كثير:٥٧١/٤.
(٨) كلمة الإخلاص وتحقيق معناها:٦٨-٦٩.

إنَّ أمر البعث يسير علينا، فإنَّا إذا أردنا شيئًا فإنما نقول له: «كن» ، فإذا هو كائن موجود.
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائناهم، ولا في غير ذلك ما نخلق ونكوّن ونحدث، لأنا إذا أردنا خلقه وإنشاءه، فإنما نقول له كن فيكون، لا معاناة فيه، ولا كُلفة علينا"(١).
قال أبو الليث:" يعني: إن بعثهم على الله يسير إذا أردناه أن نقول له كن فيكون"(٢).
قال البغوي:" يقول الله تعالى: إذا أردنا أن نبعث الموتى فلا تعب علينا في إحيائهم، ولا في شيء مما يحدث، إنما نقول له: كن، فيكون"(٣).
قال الزمخشري: " أى: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: أحدث، فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل لأن مرادا لا يمتنع عليه، وأن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل، ولا قول ثم، والمعنى: أن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات"(٤).
قال ابن كثير:" أي : أن يأمر به دفعة واحدة فإذا هو كائن، كما قال الشاعر(٥) :
إذا ما أراد الله أمرًا فإنما... يقول له : "كن" ، قولة فيكون
أي : أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف ، لأنه هو الواحد القهار العظيم ، الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه"(٦).
عن أبي هريرة:" قال الله تعالى : سَبَّني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني ، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني ، فأما تكذيبه إياي فقال : { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ } قال : وقلت : { بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } وأما سبه إياي فقال : { إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ } [المائدة : ٧٣] ، وقلت : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [سورة الإخلاص]"(٧).
وعن همام بن منبه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله: كذبني عبدي، ولم يكن ذلك له، وشتمني عبدي ولم يكن ذلك له، فأما تكذيبه إياي، أن يقول: لن يعيدنا كما بدأنا، وأما شتمه إياي، أن يقول: اتخذ الله ولدا، وأنا الصمد، لم ألد، ولم يكن لي كفوا أحد"(٨).
قال الفراء:" «القول» مرفوع بقوله:{أن نقول} كما تقول: إنما قولنا الحق. وأما قوله {فيكون} فهي منصوبة بالرد على «نقول»"(٩).
وقرئ:«فَيَكُونَ» نصبا، عطفا على قوله {أَنْ نَقُولَ لَهُ}، وكأن معنى الكلام على مذهبهم: ما قولنا لشيء إذا أردناه إلا أن نقول له: كن، فيكون. وقد حُكي عن العرب سماعا: أريد أن آتيك فيمنعني المطر، عطفا بيمنعني على آتيك(١٠).
الفوائد:

---

(١) تفسير الطبري:١٧/٢٠٤-٢٠٥.
(٢) بحر العلوم:٢/٢٧٤.
(٣) تفسير البغوي:٥/١٩.
(٤) الكشاف:٢/٦٠٦.
(٥) الشعر غير منسوب في تفسير ابن كثير:٤/٥٧٢.
(٦) تفسير ابن كثير:٤/٥٧١.
(٧) رواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير:٤/٥٧١، ورواه الطبري في تفسيره (٢٠٤/١٧) من طريق حجاج به موقوفا.
(٨)أخرجه البخاري في التفسير، سورة البقرة، باب "وقالوا: اتخذ الله ولدا سبحانه" ٨ / ١٦٨، والبغوي في التفسير:٥/١٩.
(٩) معاني القرآن:٢/١٠٠.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:١٧/٢٠٥.

١- إن كل ما يجري في هذا الكون فهو بمشيئة الله، سبحانه وتعالى، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يخرج عن إرادته الكونية شيء.
٢- لا يستعظم على الله خلق شيء وإيجاده، لأنه يوجد بكلمة التكوين فقط.
٣- ومن الفوائد: أن كلام الله خير مخلوق.

قال ابن أبي حاتم: "حدثنا أبي قال: قال أحمد بن حنبل دل على أن القرآن غير مخلوق حديث عبادة: «أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب"...الحديث(١). قال: إنما نطق القلم بكلامه لقوله: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} . قال: فكلام الله سابق على أول خلقه فهو غير مخلوق"(٢).

القرآن

{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)} [النحل : ٤١]

التفسير:

والذين تركوا ديارهم مِن أجل الله، فهاجروا بعدما وقع عليهم الظلم، لنسكننهم في الدنيا دارًا حسنة، ولأجر الآخرة أكبر؛ لأن ثوابهم فيها الجنة. لو كان المتخلفون عن الهجرة يعلمون علم يقين ما عند الله من الأجر والثواب للمهاجرين في سبيله، ما تخلَّف منهم أحد عن ذلك.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: قال الواحدي:" نزلت في أصحاب النبي ﷺ، بمكة: بلال، وصهيب، وخباب، وعمار، وأبي جندل بن سهيل، أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم وآذوهم، فبوأهم الله تعالى المدينة بعد ذلك"(٣). [بدون إسناد]

الثاني: قال الكلبي:"نزلت في بلال وعمار وصهيب وخباب بن الأرتّ عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا في الدنيا ، فلما خلوهم هاجروا إلى المدينة"(٤).

الثالث: قال داود بن أبي هند:" نزلت : {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} ... إلى قوله {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}(٥)، في أبي جندل بن سهيل"(٦).

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} [النحل : ٤١]، أي:" والذين تركوا ديارهم مِن أجل الله، فهاجروا بعدما وقع عليهم الظلم"(٧).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم عداوة لهم في الله على كفرهم إلى آخرين غيرهم، من بعد ما نيل منهم في أنفسهم بالمكاره في ذات الله"(٨).

---

(١)أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٧) من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه فذكره. قال الشيخ الألباني رحمه الله في "ظلال الجنة" (١/ ٤٨): "وإسناده لا بأس به في الشواهد رجاله ثقات غير ابن لهيعة وهو سيئ الحفظ لكنه يتقوى بما قبله وما بعده" -يعني من كتاب السنة لابن أبي عاصم. وأخرجه: أبو داود (٥/ ٧٦/ ٤٧٠٠) من طريق إبراهيم بن أبي عبلة عن أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصامت لابنه، فذكره. الترمذي (٤/ ٣٩٨/ ٢١٥٥) وقال: "وهذا حديث غريب من هذا الوجه". وفيه قصة طويلة.
وأخرجه أيضا في (٥/ ٣٩٤ - ٣٩٥/ ٣٣١٩) وقال: "هذا حديث حسن غريب"
(٢)الفتح :١٣/ ٤٤٣.
(٣) أسباب النزول:٢٨٥.
(٤) النكت والعيون:١٨٩/٣.
(٥)[النحل : ٤٢].
(٦) أخرجه الطبري:٢٠٧/١٧، وأخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥١٦):ص٢٢٨٣/٧، وعبدالرزاق في تفسيره(١٤٨٦):ص٢٦٨/٢، وذكره الماوردي في النكت والعيون:١٨٩/٣.
(٧) التفسير الميسر:٢٧١.
(٨) تفسير الطبري:٢٠٥/١٧.

قوله تعالى:{لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} [النحل : ٤١]، أي:" لنسكننهم في الدنيا دارًا حسنة"[١].

قال الطبري:" يقول: لنسكننهم في الدنيا مسكنا يرضونه صالحا"[٢].

قال الثعلبي:" أنزلهم المدينة وأطعمهم الغنيمة"[٣].

وفي قوله تعالى:{لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} [النحل : ٤١]، وجوه من التفسير:

أحدها : نزول المدينة، قاله ابن عباس[٤]، والشعبي[٥]، وقتادة[٦].

قال ابن عباس:" هم قوم هاجروا إلى رسول الله ﷺ من أهل مكة بعد ظلمهم، وظلمهم المشركون"[٧].

قال قتادة:" هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين"[٨].

الثاني : الرزق الحسن، قاله مجاهد[٩].

وروي عن العوام، عمن حدثه:" أن عمر بن الخطاب كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه، يقول: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ذخره لك في الآخرة أفضل. ثم تلا هذه الآية: {لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون}"[١٠].

الثالث : أنه النصر على عدوهم ، قاله الضحاك[١١].

الرابع : أنه لسان صدق ، حكاه الماوردي عن ابن جرير[١٢].

الخامس: أنه ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات. أفاده الماوردي[١٣].

والسادس: أنه ما بقي لهم في الدنيا من الثناء، وما صار فيها لأولادهم من الشرف. أفاده الماوردي أيضا[١٤].

عن أبان بن تغلب قال: "كان الربيع بن خثيم يقرأ هذا الحرف في النحل {والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة}، ويقرأ في العنكبوت: «لنثوينهم من الجنة غرفا»، ويقول: التنبؤ في الدنيا والثواء في الآخرة"[١٥].

قال الطبري: والصواب "قول من قال: معنى {لنبوئنهم} : لنحلنهم ولنسكننهم، لأن التبوء في كلام العرب الحلول بالمكان والنزول به، ومنه قول الله تعالى: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} [يونس : ٩٣]، وقيل: إن هذه الآية نزلت في أبي جندل بن سهيل"[١٦].

---

(١) التفسير الميسر:٢٧١.
(٢) تفسير الطبري:٢٠٥/١٧.
(٣) الكشف والبيان:١٧/٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٢٠٦/١٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٢٠٦/١٧.
(٦) انظر: الطبري:٢٠٥/١٧-٢٠٦.
(٧) أخرجه الطبري:٢٠٦/١٧.
(٨) أخرجه الطبري:٢٠٥/١٧-٢٠٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٢٠٦/١٧.
(١٠) أخرجه الطبري:٢٠٦/١٧، وانظر: النكت والعيون:١٨٩/٣.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٨٨/٣.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٨٨/٣. ولم أقف عليه في تفسير الطبري.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١٨٨/٣.
(١٤) انظر: النكت والعيون:١٨٨/٣.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥١٩):ص٢٢٨٤/٧.
(١٦) تفسير الطبري:٢٠٦/١٧.

قوله تعالى:{وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [النحل : ٤١]، أي:" ولأجر الآخرة أكبر لو كان الناس يعلمون"(١).

قال الطبري:" يقول: ولثواب الله إياهم على هجرتهم فيه في الآخرة أكبر، لأن ثوابه إياهم هنالك الجنة التي يدوم نعيمها ولا يبيد"(٢).

عن قتادة:" قال: "قال الله {ولأجر الآخرة أكبر}، أي والله لما يثيبهم الله عليه من جنته أكبر، {لو كانوا يعلمون}"(٣).

الفوائد:

١- فضل الهجرة ووجوبها عند اضطهاد المؤمن وعدم تمكنه من عبادة الله تعالى.

٢- أن الهجرة في الغالب على أهلها السلامة والعز والتمكين كما جرى ذلك لرسول الله ﷺ وأتباعه سلفا وخلفا وبها يحصل الجهاد وتعلو كلمة الله ويعمل في الأرض بطاعة الله.

٣- أن مصالح الهجرة في الدنيا أكثر من أن تحصر كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ} [النحل: ٤١]

القرآن

{الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)} [النحل : ٤٢]

التفسير:

هؤلاء المهاجرون في سبيل الله هم الذين صبروا على أوامر الله وعن نواهيه وعلى أقداره المؤلمة، وعلى ربهم وحده يعتمدون، فاستحقوا هذه المنزلة العظيمة.

سبب النزول:

قال داود بن أبي هند:" نزلت : {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} ... إلى قوله {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}(٤)، في أبي جندل بن سهيل"(٥).

قوله تعالى:{الَّذِينَ صَبَرُوا} [النحل : ٤٢]، أي:" هؤلاء المهاجرون في سبيل الله هم الذين صبروا على أوامر الله وعن نواهيه وعلى أقداره المؤلمة"(٦).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم، وآتيناهم الثواب الذي ذكرناه، الذين صبروا في الله على ما نابهم في الدنيا"(٧).

قال القشيري:" «الصبر»: الوقوف بحسب جريان القضاء"(٨).

قوله تعالى:{وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل : ٤٢]، أي:" وعلى ربهم وحده يعتمدون"(٩).
يعتمدون"(٩).

قال الطبري:" يقول: وبالله يثقون في أمورهم، وإليه يستندون في نوائب الأمور التي تنوبهم"(١٠).

قال الحسن: "وهم الذين {هاجروا في الله من بعد ما ظلموا}"(١١).

---

(١) التفسير الميسر:٢٧١، وصفوة التفاسير:١١٨/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٠٧/١٧.
(٣) أخرجه الطبري:٢٠٧/١٧.
(٤)[النحل : ٤٢].
(٥) أخرجه الطبري:٢٠٧/١٧، وأخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥١٦):ص٢٢٨٣/٧، وعبدالرزاق في تفسيره(١٤٨٦):ص٢٦٨/٢، وذكره الماوردي في النكت والعيون:١٨٩/٣.
(٦) التفسير الميسر:٢٧١.
(٧) تفسير الطبري:٢٠٧/١٧.
(٨) لطائف الإشارات:٢٩٩/٢.
(٩) التفسير الميسر:٢٧١.
(١٠) تفسير الطبري:٢٠٧/١٧.
(١١) تفسير يحيى بن يلام:٦٥/١.

قال يحيى بن سلام:" وتفسير الكلبي: أن هؤلاء صهيب، وخباب بن الأرت، وبلال، وعمار بن ياسر، وفلان مولى ابن خلف الجمحي، أخذوا بعدما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، فعذبهم المشركون على أن يكفروا بنبي الله، فعذبوا حتى بلغوا مجهودهم"[1].

قال القشيري:" «التوكل» التوقي بالله بحسن الرجاء.. ويقال: الثقة فى الله فى استدفاع المحذور"[2].

الفوائد:

١- فضيلة الصبر على أقدار الله المؤلمة، وامتثال أمر الله وتحمل المشاق في سبيل الله.

٢- بيان فضيلة التوكل، حيث أن الله تعالى يكفي عبده إذا توكل عليه، كما في الحديث: "لو أنكم توكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصا وتروح بطانا"[3].

والتوكل :"هو الاعتماد، ولكنه أخص فهو عبادة"[4].

القرآن

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣)} [النحل : ٤٣]

التفسير:

وما أرسلنا في السابقين قبلك -أيها الرسول- إلا رسلا من الرجال لا من الملائكة، نوحي إليهم، وإن كنتم -يا مشركي قريش- لا تصدقون بذلك فاسألوا أهل الكتب السابقة، يخبروكم أن الأنبياء كانوا بشرًا، إن كنتم لا تعلمون أنهم بشر.

في سبب نزول الآية وجوه:

أحدهما: عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: "لما بعث الله محمدا رسولا أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد، قال: فأنزل الله: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ}[5]، وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} "[6].

وقال مقاتل:" نزلت في أبي جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي معيط، وذلك أنهم قالوا في سبحان: أبعث الله بشرا رسولا يأكل، ويشرب، وترك الملائكة فأنزل الله-عز وجل: {{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ} يا محمد- ﷺ { إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ}"[7].

الثاني: عن سعيد بن جبير في قوله: "{فسئلوا أهل الذكر}، قال: نزلت في عبد الله بن سلام ونفر من اهل التوراة، كانوا أهل كتب يقول: فاسألوهم إن كنتم لا تعلمون إن الرجل ليصلي ويصوم ويحج ويعتمر، وإنه لمنافق. قيل: يا رسول الله، بماذا دخل عليه النفاق؟ قال: يطعن على إمامه، وإمامه من قال الله في كتابه: {فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}"[8].

---

(١) تفسير يحيى بن يلام:٦٥/١.

(٢) لطائف الإشارات:٢٩٩/٢.

(٣)صحيح. أحمد (٣٧٠)، والترمذي (٢٣٤٤) عن عمر مرفوعا. الصحيحة (٣١٠).

(٤)أفاده الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في أشرطة فتاوى سلسلة الهدى والنور (ش ٣٢٦).

(٥)[يونس : ٢].

(٦) أخرجه الطبري:٢٠٨/١٧، وفي إسناده عنده بشر بن عمارة وهو ضعيف، ومن طريق الضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

وذكره ابن ابي حاتم(١٢٥٢١):ص٧/ ٢٢٨٤، عن ابن عباس، دون ذكر الإسناد.

وعزاه في الدر (٤/ ١١٨) لابن جرير وابن أبي حاتم ، وذكره الواحدي في أسباب النزول:٢٨٦، بدون إسناد،

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٠/٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٦٤):ص٢٢٨٩/٧.

قوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ} [النحل : ٤٣]، أي:" وما أرسلنا في السابقين قبلك -أيها الرسول- إلا رسلا من الرجال لا من الملائكة، نوحي إليهم"(١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى أمة من الأمم، للدعاء إلى توحيدنا، والانتهاء إلى أمرنا ونهينا، إلا رجالا من بني آدم نوحي إليهم وحينا لا ملائكة، يقول: فلم نرسل إلى قومك إلا مثل الذي كنا نرسل إلى من قبلهم من الأمم من جنسهم وعلى منهاجهم"(٢).

قال ابن عباس:" أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم"(٣).

قال قتادة:" وما نعلم أن الله أرسل رسولا قط إلا من أهل القرى، لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمود"(٤).

قوله تعالى:{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل : ٤٣]، أي:" اسألوا يا معشر قريش العلماء بالتوارة والإنجيل يخبرونكم أن الأنبياء كانوا بشرًا، إن كنتم لا تعلمون أنهم بشر"(٥).

قال الطبري:" يقول لمشركي قريش: وإن كنتم لا تعلمون أن الذين كنا نرسل إلى من قبلكم من الأمم رجال من بني آدم مثل محمد ﷺ وقلتم: هم ملائكة: أي ظننتم أن الله كلمهم قبلافاسألوا أهل الذكر، وهم الذين قد قرءوا الكتب من قبلهم: التوراة والإنجيل، وغير ذلك من كتب الله التي أنزلها على عباده"(٦).

وقال مقاتل:" يعني: التوراة {إن كنتم لا تعلمون} بأن الرسل كانوا من البشر فسيخبرونكم أن الله- عز وجل- لم يبعث رسولا إلا من الإنس"(٧).

وفي قوله تعالى:{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل : ٤٣]، خمسة أقوال:
أحدها : أن أهل الذكر العلماء بأخبار من سلف من القرون الخالية الذين يعلمون أن الله تعالى ما بعث رسولاً إلا من رجال الأمة ، وما بعث إليهم ملكاً(٨).
الثاني : أنه عنى بـ«أهل الذكر» أهل الكتاب خاصة، قاله ابن عباس ومجاهد .

قال الزجاج:" وأهل جميع الكتب يعترفون أن الأنبياء كلهم بشر.. والدليل على أن أهل الذكر أهل الكتب قوله تعالى{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم} [النحل : ٤٤]، وقوله: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاه} [الأنبياء : ٥٠]"(٩).
الثالث : أنهم أهل القرآن ، قاله ابن زيد .
الرابع: معناه: فاسألوا من آمن من أهل الكتاب. حكاه الزجاج(١٠).
الخامس: أنهم قيل لهم اسألوا كل من يذكر بعلم وافق أهل هذه الملة أو خالفهم. أفاده الزجاج(١١).
الفوائد:
١- وجوب سؤال أهل العلم على كل من لا يعلم أمور دينه من عقيدة وعبادة وحكم، وأن الآية عامة في كل مسألة من مسائل الدين، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها من العلماء الراسخين في العلم.

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٠٧/١٧.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٠٥١):ص٢٢١٠/٧.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٠٥٢):ص٢٢١٠/٧.
(٥) التفسير الميسر:٢٧٢، وصفوة التفاسير:١١٨/٢.
(٦) تفسير الطبري:٢٠٨/١٧.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٠/٢.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٨٩/٣.
(٩) معاني القرآن:٢٠١/٣.
(١٠) انظر: معاني القرآن:٢٠١/٣.
(١١) انظر: معاني القرآن:٢٠١/٣.

٢- ذهب الجمهور إلى عدم جواز نبوة النساء، وأن النبوة خاصة بالرجال. قاله القاضي عياض، ونقل النووي وابن تيمية الإجماع على ذلك عن غير واحد مثل القاضيين: أبي بكر بن الطيب وأبي يعلى وابن أبي الفراء، والأستاذ أبي المعالي الجويني وغيرهم(١).

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ... } . [النحل: ٤٣] . وبقوله تعالى: {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة} . [المائدة: ٧٥] . فجعل غاية مريم الصديقة كما جعل غاية المسيح الرسالة.

وذكروا لذلك حكما؛ منها: أن النبوة عبء ثقيل لا تتحمله طبيعة المرأة الضعيفة، ولأن الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة، والأنوثة تقتضي التستر وتنافي الاشتهار لما بين الاشتهار والاستتار من التمانع. ولعلو مرتبة الذكور على الأنوثة فلذلك جعل الله القوامة للرجال على النساء، والنبوة تقتضي قوامة النبي على من يتابعه، ولأن المرأة يطرأ عيلها بحكم طبيعتها ما يعطلها عن كثير من الوظائف والاتصال بالملأ الأعلى كالحيض والحمل والولادة ونحوه، ولكون النفوس مائلة في ذواتهن بحسب الطبع فيغفلون عن مقالهن، وكل ذلك مانع من القيام بأعباء الرسالة وتكاليفها. كما ناقش الجمهور أدلة المخالفين بردود قوية(٢).

القرآن

{بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)} [النحل : ٤٤]

التفسير:

وأَرْسَلْنا الرسل السابقين بالدلائل الواضحة وبالكتب السماوية، وأنزلنا إليك -أيها الرسول- القرآن؛ لتوضح للناس ما خفي مِن معانيه وأحكامه، ولكي يتدبروه ويهتدوا به.

قوله تعالى:{بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ} [النحل : ٤٤]، أي:" وأَرْسَلْنا الرسل السابقين بالدلائل الواضحة وبالكتب السماوية"(٣).

قال الطبري:" وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر.. والبينات: هي الأدلة والحجج التي أعطاها الله رسله أدلة على نبوتهم شاهدة لهم على حقيقة ما أتوا به إليهم من عند الله. والزبر: هي الكتب، وهي جمع زبور، من زبرت الكتاب وذبرته: إذا كتبته"(٤).

عن ابن عباس :"{بالبينات والزبر}، قال: الزبر: الكتب"(٥).

عن مجاهد :"{بالبينات والزبر}، قال: الآيات. والزبر: الكتب"(٦).

عن الضحاك:"{ بالزبر}، يعني: بالكتب"(٧).

عن السدي عن أصحابه في قوله: "{بالبينات والزبر} قال «البينات»: الحلال والحرام الذي كانت تجيء به الأنبياء، و«الزبر»: كتب الأنبياء"(٨).

---

(١) انظر: فتح الباري ٤٧١/٦، ٤٧٣، و قصص الأنبياء ص ٤٨٣، لابن كثير، والجواب الصحيح ٣٣١/١، لابن تيمية.

(٢)للتوسع: قصص الأنبياء، ص ٤٨٢-٤٨٦، للإمام ابن كثير، لوامع الأنوار البهية ٢٦٥/٢، ٢٦٦، للسفاريني، للسفاريني، الرسل والرسالات ص ٨٤-٨٩، د. عمر الأشقر.

(٣) التفسير الميسر:٢٧٢.

(٤) تفسير الطبري:٢١١/١٧.

(٥) أخرجه الطبري:٢١١/١٧.

(٦) أخرجه الطبري:٢١١/١٧.

(٧) أخرجه الطبري:٢١١/١٧.

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٦٦):ص٢٢٨٩/٧.

قوله تعالى:{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ} [النحل : ٤٤]، أي:" وأنزلنا إليك -أيها الرسول- القرآن"[١].

قال الطبري:" يقول: وأنزلنا إليك يا محمد هذا القرآن تذكيرا للناس وعظة لهم"[٢].

عن السدي عن أصحابه في قوله:{وأنزلنا إليك الذكر}، قال: هو القرآن"[٣].

قوله تعالى:{لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل : ٤٤]، أي:" لتوضح للناس ما خفي مِن معانيه وأحكامه"[٤].

قال الطبري:" يقول: لتعرفهم ما أنزل إليهم من ذلك"[٥].

قال مجاهد:" ما أحل لهم وما حرم عليهم"[٦].

قال قتادة:" أرسله الله إليهم ليتخذ بذلك الحجة عليهم"[٧].

قوله تعالى:{وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل : ٤٤]، أي:" ولكي يتدبروه ويهتدوا به"[٨].

قال الطبري:" يقول: وليتذكروا فيه ويعتبروا به أي بما أنزلنا إليك"[٩].

عن مجاهد :{ولعلهم يتفكرون}، قال: يطيعون"[١٠].

الفوائد:

١- ما بعث الله نبيا إلا ومعه آية تدل على صدقه: فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبته للعذر وإقامة الحجة - لم يبعث نبيا إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٤)بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ} [النحل: ٤٣-٤٤] . وقال تعالى: {قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ} [آل عمران: ١٨٣][١١].

٢- ومن الفوائد: أن السنة لا غنى عنها لأنها المبينة لمجمل القرآن والموضحة لمعانيه، وقد بين الرسول ﷺ وجوب تبليغ السنة ونشرها على أوسع نطاق ممكن، فقال عليه الصلاة والسلام:

- "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[١٢].
- وقال ﷺ: "ليبلغ الشاهد الغائب"[١٣].
- وقال ﷺ: "فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"[١٤].

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٢) تفسير الطبري:٢١١/١٧.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٦٦):ص٢٢٨٩/٧.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٥) تفسير الطبري:٢١١/١٧.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٦٧):ص٢٢٨٩/٧.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٦٧):ص٢٢٨٩/٧. هكذا الترقيم بالمطبوع!
(٨) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٩) تفسير الطبري:٢١١/١٧.
(١٠) أخرجه الطبري:٢١١/١٧.
(١١) انظر: شرح الطحاوية، تحقيق: الارناؤوط:٤٩/١.
(١٢)رواه الإمام أحمد في مسنده (١٥٩/٢) . ورواه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري (٤٩٦/٦) كتاب الأنبياء، حديث رقم (٣٤٦١) . ورواه الترمذي في سننه (١٤٧/٤) أبواب العلم، حديث رقم (٢٨٠٧).
(١٣)رواه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري (١٥٨/١) كتاب العلم، حديث رقم (٦٧) . ورواه مسلم في صحيحه (٩٨٨/٢) كتاب الحج، حديث رقم (١٣٥٤).
(١٤)رواه الإمام أحمد في مسنده (١٢٦/٤) . ورواه أبو داود في سننه (١٣/٥-١٥) كتاب السنة، حديث رقم (٤٦٠٧) . ورواه الترمذي في سننه (١٤٩/٤، ١٥٠) أبواب العلم، حديث رقم (٢٨١٦) ، وقال: حديث حسن صحيح. ورواه ابن ماجه في سننه (١/ ١٦) ، المقدمة، حديث رقم (٤٢، ٤٣).

- وقال ﷺ: "نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره"[1] .
فما تقدَّم من النصوص يدلُّ على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، ونشر سنته، ونشر سنته ﷺ وتبليغها؛ لأنَّ في ذلك وقاية من إحداث البدع وظهورها.

القرآن
{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥)} [النحل : ٤٥]
التفسير:
أفأمن الكفار المدبِّرون للمكايد أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون، أو يأتيهم العذاب من مكان لا يُحِسُّونه ولا يتوقعونه.
قوله تعالى:{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ} [النحل : ٤٥]، أي:" أفأمن الكفار المدبِّرون للمكايد أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون"[2].
قال الزجاج:" أي: أفأمنوا أن يفعل بهم ما فعل بقوم لوط، والذين أهلكوا من الأمم السالفة بتعجيل العذاب في الدنيا"[3].
عن قتادة في قوله: "{أفأمن الذين مكروا السيئات}، أي: الشرك"[4].
عن الضحاك في قوله: "{أفأمن الذين مكروا السيئات}، قال: تكذيبهم الرسل وأعمالهم بالمعاصي"[5].
قوله تعالى:{أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} [النحل : ٤٥]، أي:" أو يأتيهم العذاب من مكان لا يُحِسُّونه ولا يتوقعونه"[6].

القرآن
{أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦)} [النحل : ٤٦]
التفسير:
أو يأخذهم العذاب، وهم يتقلبون في أسفارهم وتصرفهم؟ فما هم بسابقين الله ولا فائتيه ولا ناجين من عذابه؛ لأنه القوي الذي لا يعجزه شيء.
قوله تعالى:{أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ} [النحل : ٤٦]، أي:" أو يأخذهم العذاب، وهم يتقلبون في أسفارهم وتصرفهم؟"[7].
وفي قوله تعالى:{أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ} [النحل : ٤٦]، وجوه:
أحدها : في إقبالهم وإدبارهم ، حكاه الماوردي عن ابن بحر[8].
الثاني : في اختلافهم ، قاله ابن عباس[9].
الثالث : أن يأخذهم بالليل والنهار ، قاله ابن جريج[10].
الرابع : في سفرهم. قاله ابن عباس أيضا[11]، وقتادة[1].

---

(١)رواه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٧/١) . ورواه أبو داود في سننه (٦٨/٤، ٦٩) كتاب العلم، حديث رقم (٢٦٦٠) . ورواه الترمذي في سننه (١٤٢/٤) أبواب العلم، حديث رقم (٢٧٩٥) ، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٣) معاني القرآن:٢٠١/٣.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٦٨):ص٢٢٨٩/٧.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٦٨):ص٢٢٨٩/٧.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٧) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٩٠/٣.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٦٨):ص٢٢٨٩/٧.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٦٨):ص٢٢٨٩/٧.
(١١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٥٢٢):ص٢٢٨٤/٧، والنكت والعيون:١٩٠/٣.

قال ابن عباس:" إن شئت أخذته في سفر"[٢].
الخامس:على أي حال كانوا بالليل والنهار. قاله الضحاك[٣].
السادس: في تصرفهم في أسفارهم، وسائر ما ينقلبون فيه. قاله الزجاج[٤].
قوله تعالى:{فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ} [النحل : ٤٦]، أي:" فإنهم على أي حال لا يعجزون الله"[٥].

القرآن

{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)} [النحل : ٤٧]

التفسير:

أو يأخذهم الله بنقص من الأموال والأنفس والثمرات، أو في حال خوفهم من أخذه لهم، فإن ربكم ليرحم خلقه رحمه واسعة في عاجلهم وآجلهم.

قوله تعالى:{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ} [النحل : ٤٧]، أي:" أو يهلكهم الله حال كونهم خائفين مترقبين لنزول العذاب"[٦].

قال أبو عبيدة: {عَلَى تَخَوُّفٍ}، مجازه: على تنقّص قال[٧]:

ألام على الهجاء وكل يوم ... يلاقينى من الجيران غول
تخوّف غدرهم مالى وأهدى ... سلاسل فى الحلوق لها صليل

أي: تنقّص غدرهم مالى. سلاسل يريد القوافي تنشد فهو صليلها وهو قلائد فى أعناقهم وقال طرفة[٨]:

وجامل خوّف من نيبه ... زجر المعلّى أصلا والسفيح
«خوّف من نيبه»، أي: لا يدعه يزيد"[٩].

قال الطبري:" يعني: أو يهلكهم بتخوف، وذلك بنقص من أطرافهم ونواحيهم الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم، يقال منه: تخوف مال فلان الإنفاق: إذا انتقصه، ونحو تخوفه من التخوف بمعنى التنقص، قول الشاعر[١٠]:

تخوف السير منها تامكا قردا ... كما تخوف عود النبعة السفن
يعني بقوله تخوف السير: تنقص سنامها"[١١].

وفي قوله تعالى:{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ} [النحل : ٤٧]، وجوه:

أحدها : يعني: على تنقص، بأن يهلك واحد بعد واحد فيخافون الفناء، قاله ابن عباس[١٢]، ومجاهد[١٣]، وقتادة، حكاه الماوردي عن الضحاك[١٤].

قال ابن عباس:" يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه، وتخوف بذلك"[١٥].

---

(١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٥٢٣):ص٢٢٨٤/٧.
(٢) أخرجه الطبري:٢١٣/١٧.
(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٥٢٤):ص٢٢٨٤/٧.
(٤) انظر: معاني القرآن:٢٠١/٣.
(٥) صفوة التفاسير:١١٨/٢.
(٦) صفوة التفاسير:١١٨/٢.
(٧)من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٦٠، والبيت الثاني في تفسير الطبري:٣١٤/١٧.
(٨)فى ملحق ديوانه من الستة ١٨٣، وفى اللسان والتاج (جمل، خوف).
(٩) مجاز القرآن:٣٦٠/١.
(١٠)البيت لابن مقبل (لسان العرب: خوف).
(١١) تفسير الطبري:٢١٣/١٧.
(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٥٢٢):ص٢٢٨٤/٧، والنكت والعيون:١٩٠/٣، حكاه بلا نسبة.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:٢١٥/١٧.
(١٤) انظر: النكت والعيون:١٩٠/٣.
(١٥)أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٢٢):ص٢٢٨٤/٧.

قال قتادة:" فيعاقب أو يتجاوز"(١).
الثاني : يعني: على التنقص، تنقصهم من البلد والأطراف. قاله ابن زيد(٢).
الثالث: يعني: أن يأخذ بعضا بالعذاب ويترك الأخرى، وذلك أنه كان يعذب القرية فيهلكها ويترك الأخرى. قاله الضحاك(٣)، والحسن(٤)، ومقاتل(٥).
قال الحسن:" أن يهلك القرية فتخاف القرية الأخرى"(٦).
قال مقاتل:" يأخذ أهل هذه القرية بالعذاب ويترك الأخرى قريبا منها لكي يخافوا فيعتبروا، يخوفهم بمثل ذلك"(٧).
الرابع : على تقريع بما قدموه من ذنوبهم ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً(٨).
قال ابن عباس:" التنقص، والتفزيع"(٩).
وروي عن عن عمر :"أنه سألهم عن هذه الآية {أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف}، فقالوا: ما نرى إلا أنه عند تنقص ما يردده من الآيات، فقال عمر: ما أرى إلا أنه على ما تنتقصون من معاصي الله، قال: فخرج رجل من كان عند عمر، فلقي أعرابيا، فقال: يا فلان ما فعل ربك؟ قال: قد تخيفته، يعني تنقصته، قال: فرجع إلى عمر فأخبره، فقال: قدر الله ذلك"(١٠).
الخامس: معناه: ينقص من أعمالهم. وهو مروي عن ابن عباس كذلك(١١).
السادس : معناه: على عجل، وهذا قول الليث(١٢).
السابع : معناه: أن ينتقصهم في أموالهم وثمارهم حتى يهلكهم، قاله الزجاج(١٣)، وابن قتيبة(١٤).
قال ابن قتيبة:" يقال: تخوفته الدهور وتخونته، إذا نقصته وأخذت من ماله أو جسمه"(١٥).
قوله تعالى:{فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [النحل : ٤٧]، أي:" فإن ربكم ليرحم خلقه رحمه واسعة حيث لم يعاجلكم بالعقوبة"(١٦).
قال الطبري:" يقول: فإن ربكم أن لم يأخذ هؤلاء الذين مكروا السيئات بعذاب معجل لهم، وأخذهم بموت وتنقص بعضهم في أثر بعض، لرءوف بخلقه، رحيم بهم، ومن رأفته ورحمته بهم لم يخسف بهم الأرض، ولم يعجل لهم العذاب، ولكن يخوفهم وينقصهم بموت"(١٧).
قال مقاتل:" يعني: يرق لهم، {رحيم} بهم حين لا يعجل عليهم بالعقوبة"(١٨).
قال الماوردي:"أي: لا يعاجل بل يمهل"(١٩).

---

(١) أخرجه الطبري:٢١٥/١٧.
(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٥٢٦):ص٢٢٨٥/٧.
(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٥٢٤):ص٢٢٨٤/٧.
(٤) انظر: النكت والعيون:١٩٠/٣.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧١/٢.
(٦) انظر: النكت والعيون:١٩٠/٣.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧١/٢.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٩٠/٣.
(٩) اخرجه الطبري:٢١٥/١٧.
(١٠) اخرجه الطبري:٢١٤/١٧.
(١١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٥٢٥):ص٢٢٨٥/٧.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٩٠/٣.
(١٣) انظر: معاني القرآن:٢٠١/٣.
(١٤) انظر: غريب القرآن:٢٤٣.
(١٥) غريب القرآن:٢٤٣.
(١٦) التفسير الميسر:٢٧٢، وصفوة التفاسير:١١٨/٢.
(١٧) تفسير الطبري:٢١٥/١٧.
(١٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧١/٢.
(١٩) انظر: النكت والعيون:١٩٠/٣.

فوائد الآيات:[٤٥-٤٧]:
١- حرمة الأمن من مكر الله.
٢- ومن فوائد الآية: إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما:«الرءوف»«والرحيم»:
فـ«الرؤوف»:" أي: شديد الرأفة بعباده"(١).

قال الخطابي:"«الرؤوف»: هو الرحيم العاطف برأفته على عباده، وقال بعضهم: الرأفة أبلغ الرحمة وأرقها. ويقال: إن الرافة أخص، والرحمة أعم، وقد تكون الرحمة في الكراهة للمصلحة، ولا تكاد الرأفة تكون في الكراهة؛ فهذا موضع الفرق بينهما"(٢).

قال الزجاج:" يقال إن الرأفة والرحمة واحد وقد فرقوا بينهما أيضا وذلك أن الرأفة هي المنزلة الثانية يقال فلان رحيم فإذا اشتدت رحمته فهو رؤوف"(٣).

- و«الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء (٤).
٣- ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه- (٥).
٤- ومن الفوائد: أن القرآن كلام الله - عز وجل -، واشتمل القرآن على ألفاظ العرب جميعاً.

إذ تجد القرآن فيه كلمات بلغة قريش، وفيه كلمات بلغة هذيل، وفيه كلمات بلغة تميم، وفيه كلمات بلغة هوازن، وفيه كلمات بلغة أهل اليمن، وفيه بلغات كثيرة بلغة حِمْيَر، {وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ} [النجم:٦١] ، قال ابن عباس، " السامدون: المغنون بالحميرية "(٦).

فإن بعض قريش خَفِيَ عليها بعض الكلمات إذ وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: "بينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر، فقال: يا أيها الناس: ما تقولون في قول الله عز وجل: {أو يأخذهم على تخوف} [النحل: ٤٧]؟ فسكت الناس، فقام شيخ فقال: يا أمير المؤمنين: هذه لغتنا بني هذيل، التخوف: التنقص، قال عمر: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي(٧) يصف ناقة(٨):

تخوف الرحل منها تامكا صلبا ... كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر رضي الله عنه: يا أيها الناس، عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم "(٩).

---

(١) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي:١٩٨.
(٢) شأن الدعاء:٩١.
(٣) تفسير اسماء الله الحسنى:٦٢.
(٤) انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.
(٥) انظر: تسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:٢٥٩/٢.
(٦) اخرجه الطبري:٥٦٠/٢٢.
(٧)هو عامر بن الحليس، من بني سهل بن هذيل، شاعر جاهلي، وقيل: أدرك الإسلام امتاز شعره بالحكم وقوة السبك.
(٨)اختلف في نسبة البيت، فنسبه بعضهم لأبي كبير كما عند الواحدي هنا، ونسبه الأزهري لابن مقبل، ونسبه الجوهري لذي الرمة، ونسبه بعضهم لزهير، وقيل: لعبد الله بن عجلان، وقيل: لابن مزاحم الثمالي ورد البيت في "تفسير الطبري"، ١٤/ ١١٣، "تهذيب اللغة" (خاف) ١/ ٩٦٦، (سفن) ٢/ ١٧٠٨، "الصحاح" (خوف) ٤/ ١٣٥٩، "أمالي القالي" ٢/ ١١٢، "الكشاف" ٢/ ٤١١، "تفسير القرطبي" ١٠/ ١١٠، "تفسير الرازي" ٢٠/ ٣٩، "اللسان" (خوف) ٣/ ١٢٩٢، (سفن) ٤/ ٢٠٣٢، "مشاهد الإنصاف شرح شواهد الكشاف" ص ١٣٠.
(٩) التفسير البسيط للواحدي: ٤٠٢/١، أخذه المصنف الحكاية من تفسير شيخه الثعلبي من سورة «النحل». وقد وقد ذكر هذه الحكاية عدد من المفسرين. انظر: "الكشاف" ٢/ ٤١١، "تفسير الرازي" ٢٠/ ٣٩، "تفسير القرطبي" ١٠/ ١١٠.

يعني {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ} يعني يبدأ يتنقص شيئاً فشيئاً، ينقصون عما كانوا فيه من النعمة شيئاً فشيئاً، حتى يأتيهم الأجل، عمر القرشي خفيت عليه هذه الكلمة؛ لأنها بلغة أخرى.

فهل يستطيع أحد من العرب أن يحيط بلغة العرب جميعاً؟ لا يمكن، أن يحيط بلغة العرب جميعاً بألفاظها وتفاصيلها لا يمكن، ولهذا تجد في القرآن الكلمة بلغة مختلفة، وتجد فيه التركيب النحوي بلغة من لغات العرب، فيكون مثلاً على لغة حِمْيَرْ في النحو، أو على لغة [سَدُوسْ] في النحو، أو على لغة هذيل في النحو، فإذاً الألفاظ والمعاني والتراكيب النحوية في القرآن تنوَّعت ودخل فيها كل لغات في العرب.

هذا لا يمكن أن يكون من كلام أحد، لا يستطيع أن يحيط هذه الإحاطة إلا من خَلَقَ اللغات وهو رب العالمين[١].

القرآن

{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)} [النحل : ٤٨]

التفسير:

أَعَمِيَ هؤلاء الكفار، فلم ينظروا إلى ما خلق الله من شيء له ظل، كالجبال والأشجار، تميل ظلالها تارة يمينًا وتارة شمالا تبعًا لحركة الشمس نهارًا والقمر ليلا كلها خاضعة لعظمة ربها وجلاله، وهي تحت تسخيره وتدبيره وقهره؟

قوله تعالى:{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ} [النحل : ٤٨]، أي:" أَعَمِيَ هؤلاء الكفار، فلم ينظروا إلى ما خلق الله من شيء له ظل، كالجبال والأشجار"[٢].

قال الطبري: أي:" أو لم ير هؤلاء الذين مكروا السيئات، إلى ما خلق الله من جسم قائم، شجر أو جبل أو غير ذلك"[٣].

قال السعدي:" يقول تعالى: {أولم يروا} أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله، {إلى ما خلق الله من شيء} أي: إلى جميع مخلوقاته"[٤].

قرأ ذلك بعض قراء الكوفيين: «أولم تروا»، بالتاء على الخطاب[٥].

قوله تعالى:{يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ} [النحل : ٤٨]، أي:" تميل ظلالها تارة يمينًا وتارة شمالا تبعًا لحركة الشمس نهارًا والقمر ليلا ساجدة للهِ سجود خضوعٍ لمشيئته تعالى وانقياد"[٦].

قال الطبري:" يقول: يرجع [ظلاله]من موضع إلى موضع، فهو في أول النهار على حال، ثم يتقلص، ثم يعود إلى حال أخرى في آخر النهار[سجدا لله]"[٧].

قال السعدي:أي:" كيف تتفيأ أظلتها، {عن اليمين} وعن {الشمائل سجدا لله} أي: كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله"[٨].

وفي قوله تعالى:{يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ} [النحل : ٤٨]، وجوه من التفسير:

أحدها : يرجع ظلالُه، لأن «الفيء»: الرجوع ، ولذلك كان اسماً للظل بعد الزوال لرجوعه. ذكره الماوردي[١].

---

(١) انظر: إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل، الدرس(١٢٥-١٢٦)[مرقم آليا].

(٢) التفسير الميسر:٢٧٢.

(٣) تفسير الطبري:٢١٦/١٧.

(٤) تفسير السعدي:٤٤٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري:٢١٦/١٧.

(٦) التفسير الميسر:٢٧٢، وصفوة التفاسير:١١٩/٢.

(٧) تفسير الطبري:٢١٦/١٧.

(٨) تفسير السعدي:٤٤٢.

الثاني : معناه: تميل ظلاله ، قاله ابن عباس[٢].

قال الواحدي:" وهو معنى وليس بتفسير؛ لأنه إذا قرن بقوله: {عن اليمين والشمائل} صار المعنى: أنه يتميل عن الجوانب"[٣].

الثالث : تدور ظلاله ، قاله ابن ابن قتيبة[٤].

قال ابن قتيبة:" أي: تدور ظلاله وترجع من جانب إلى جانب. والفيء: الرجوع. ومنه قيل للظل بالعشي: فيء، لأنه فاء عن المغرب إلى المشرق"[٥].

الرابع : تتحول ظلاله ، قاله مقاتل[٦].

قال مقاتل:" وذلك أن الشجر، والبنيان، والجبال، والدواب، وكل شيء، إذا طلعت عليه الشمس يتحول ظل كل شيء عن اليمين قبل المغرب، فذلك قوله سبحانه: «يتفيؤا ظلاله» يعني: يتحول الظل فإذا زالت الشمس، تحول الظل عن الشمال قبل المشرق كسجود كل شيء في الأرض لله- تعالى- ظله فى النهار"[٧].

قال الواحدي:" معنى تفيؤ الظلال: أن يعود الظل بعد نسخ الشمس إياه، وأما معنى تفيؤها عن اليمين والشمائل فهو أن يكون للأشجار فيء عن اليمين والشمائل، إذا كانت الشمس يمين الشخص كان الفيء عن شماله، وإذا كانت على شماله كان الفيء عن يمينه، فهذا وجه ذكره بعض أهل التأويل، والذي عليه المفسرون"[٨].

وقرأ أبو عمرو:« تتفيأ ظلاله»، بالتاء[٩].

وفي قوله تعالى:{عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ} [النحل : ٤٨]، وجهان:

أحدهما : يعني تارة إلى جهة اليمين ، وتارة إلى جهة الشمال ، قاله ابن عباس [١٠].

قال الماوردي :"لأن الظل يتبع الشمس حيث دارت"[١١].

الثاني : أن اليمين أول النهار ، والشمال آخر النهار ، قاله قتادة[١٢]، والضحاك[١٣]، وابن جريج[١٤].

قال الضحاك:" تسجد الظلال لله غدوة إلى أن يفئ الظل، ثم تسجد لله إلى الليل، يعني: ظل كل شيء"[١٥].

قال ابن جريج:" إذا فاءت الظلال، ظلال كل شيء بالغدو سجدت لله، وإذا فاءت بالعشي سجدت لله"[١٦].

وفي قوله تعالى:{ سُجَّدًا لِلَّهِ} [النحل : ٤٨]، ثلاثة وجوه:

أحدها : أن ظل كل شيء سجوده ، قاله قتادة[١٧].

---

(١) .
(٢) انظر: تفسير الطبري:٢١٦/١٧.
(٣) التفسير البسيط:٧٥/١٣.
(٤) انظر: غريب القرآن: ٢٤٣، والنكت والعيون:١٩١/٣.
(٥) غريب القرآن:٢٤٣.
(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧١/٢.
(٧)تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧١/٢.
(٨)التفسير البسيط:٧٥/١٣-٧٦. وورد في "الحجة للقراء" ٥/ ٧٢، بنصه.
(٩) انظر: السبعة في القراءات:٣٧٤، ومعاني القرآن للزجاج:٢٠٢/٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:٢١٦/١٧.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٩١/٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:٢١٦/١٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:٢١٦/١٧.
(١٤) انظر: تفسير الطبري:٢١٦/١٧.
(١٥) أخرجه الطبري:٢١٦/١٧.
(١٦) أخرجه الطبري:٢١٦/١٧.
(١٧) انظر: تفسير الطبري:٢١٧/١٧.

الثاني : أن سجود الظلال سجود أشخاصها، قاله الضحاك[١].

قال الضحاك:" سجد ظل المؤمن طوعا، وظل الكافر كرها"[٢].

قال مجاهد:" ظل المؤمن يسجد طوعًا وهو طائع، وظلُّ الكافر يسجد طوعًا وهو كاره"[٣].

الثالث : أن سجود الظلال كسجود الأشخاص تسجد لله خاضعة ، قاله الحسن[٤]، ومجاهد[٥].

قال مجاهد:" هو سجود الظلال، ظلال كل شيء ما في السموات وما في الأرض من دابة، قال: سجود ظلال الدواب، وظلال كل شيء"[٦].

وقال مجاهد:" إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل"[٧].

قال ابن زيد:" ذُكر أن ظلال الأشياء كلها تسجد له، وقرأ: {سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [سورة النحل:٤٨] . قال: تلك الظلال تسجد لله"[٨].

قال الضحاك"" إذا فاء الفيء توجه كل شيء ساجدا قبل القبلة، من نبت أو شجر، قال: فكانوا يستحبون الصلاة عند ذلك"[٩].

قال ابن عباس:" ما خلق من كل شيء عن يمينه وشمائله، فلفظ «ما» لفظ عن اليمين والشمائل، قال: ألم تر أنك إذا صليت الفجر، كان ما بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلا ثم بعث الله عليه الشمس دليلا وقبض الله الظل"[١٠].

قال الحسن : "أما ظلك فيسجد لله، وأما أنت فلا تسجد لله ، فبئس والله ما صنعت"[١١].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر في هذه الآية أن ظلال الأشياء هي التي تسجد، وسجودها: ميلانها ودورانها من جانب إلى جانب، وناحية إلى ناحية، كما قال ابن عباس يقال من ذلك: سجدت النخلة إذا مالت، وسجد البعير وأسجد: إذا أميل للركوب. وقد بينا معنى السجود في غير هذا الموضع بما أغنى عن إعادته"[١٢].

قال الصابوني:" الغرضُ الإخبار عن عظمة الله تعالى وسلطانه الذي قهر كلَّ شيء، ودان له كل شيء، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الآدميّن، والكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى"[١٣].

قال أبو هلال العسكري:" وإنما ذكر السجود؛ لأنه أبين أحوال الخضوح وهو مشاهد، ومن عادة العرب أن يشبه الشيء الذي يقع عليه البصر بما يقع عليه البصر حتى يكون السامع به كالرائي له، وعلى هذا جاء قوله - تعالى: {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} [البقرة : ٢٥٦/ لقمان: ٢٢]، أي: هو بمنزلة من قد استمسك بالعروة الشديدة المأمونة الانقطاع، ومن ذلك قولهم: فلان من شجرة صالحة لما كانت الشجرة على أصل يتشعب منه غصونها، شبه أبو العشيرة التي تجمعها بها وجعلت أغصانها كولده، ونحوه قوله: {أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [هود : ٨٠]، وتأويله: العز والمنعة كما يفعل «الأركان»"[١٤].

---

(١) انظر: تفسير الطبري:٢١٧/١٧.
(٢) أخرجه الطبري:٢١٧/١٧.
(٣) أخرجه الطبري(٢٠٣٠٢):ص٤٠٤/١٦.
(٤) انظر: النكت والعيون:١٩١/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٢١٧/١٧.
(٦) أخرجه الطبري:٢١٧/١٧.
(٧) أخرجه الطبري:٢١٧/١٧.
(٨) أخرجه الطبري(٢٠٣٠٤):ص٤٠٤/١٦.
(٩) أخرجه الطبري:٢١٧/١٧.
(١٠) أخرجه الطبري:٢١٧/١٧.
(١١) النكت والعيون:١٩١/٣.
(١٢) تفسير الطبري:٢١٧/١٧-٢١٨.
(١٣) صفوة التفاسير:٧١/٢.
(١٤) الوجوه والنظائر:٤٨٣.

قوله تعالى:{وَهُمْ دَاخِرُونَ} [النحل : ٤٨]، أي:" وهم خاضعون صاغرون"(١).
قال أبو عبيدة:" أي: صاغرون، يقال: فلان دخر لله، أي ذلّ وخضع"(٢).
قال الزجاج:" أي هذه الأشياء مجبولة على الطاعة"(٣).
قال الطبري وابن كثير:" وهم صاغرون"(٤).
قال السعدي:" أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده"(٥).

الفوائد:

١- الخلق كلهم يسجدون لله طوعا أو كرها إذ الكل خانع خاضع لحكم الله وتدبيره فيه.
٢- أن الكونُ وفطرتُهُ في الخُضُوعِ والطَّاعةِ لله:

فإن جميع الكون بسمائه وأرضه وأفلاكه وكواكبه، ودوابه وشجره ومدره وبره وبحره، وملائكته وجنه وإنسه؛ كله خاضع لله، مطيع لأمره الكوني، قال تعالى: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [آل عمران: ٨٣] ، وقال تعالى: {بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} [البقرة: ١١٦] ، {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [النحل: ٤٩] ، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ} [الحج: ١٨] ، {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد: ١٥] .

فكُلُّ هذه الكائنات والعوالم مُنقادة لله، خاضعة لسلطانه؛ تجري وفق إرادته وطوع أمره، لا يستعصي عليه منها شيء؛ تقوم بوظائفها، وتؤدي نتائجها بنظام دقيق، وتنزه خالقها عن النقص والعجز والعيب، قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤] .

فهذه المخلوقات صامتها وناطقها، وحيها وميتها، كلها مُطيعةٌ لله، مُنقادة لأمره الكوني، وكُلُّها تنزه الله عن النقائص والعيوب بلسان الحال، ولسان المقال. فكلما تدبّر العاقل هذه المخلوقات؛ علم أنها خُلقت بالحق وللحق، وأنها مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء عن أمر مدبرها؛ فالجميع مُقِرُّون بالخالق بفطرتهم(٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: "وهم خاضعون مُستسلمون، قانتون مضطرون، من وجوه:

- منها: علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه.
- ومنها: خضوعُهُم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقداره ومشيئته.
- ومنها: دعاؤهم إياهُ عندَ الاضطرار.

والمؤمن يخضع لأمر ربه طوعا، وكذلك لما يقدره من المصائب، فإنه يفعل عندها ما أمر به من الصبر وغيره طوعا، فهو مسلم لله طوعا خاضع له طوعا، والسجود مقصوده الخضوع، وسجود كل شيء بحسبه سجودا يناسبها ويتضمن الخضوع للرب"(٧).

---

(١) صفوة التفاسير:١١٩/٢.
(٢) مجاز القرآن:٣٦٠/١.
(٣) معاني القرآن:٢٠٢/٣.
(٤) تفسير الطبري:٢١٨/١٧، وتفسير ابن كثير:٥٧٦/٤.
(٥) تفسير السعدي:٤٤٢.
(٦) انظر: عقيدة التوحيد، صالح الفوزان:٢٥-٢٦.
(٧) مجموع الفتاوى:٤٥/١-٤٦.

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على قوله تعالى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران: ٨٣] .

قال: "فذكر سبحانه إسلام الكائنات طوعًا وكرهًا؛ لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد التام؛ سواء أقر المقر بذلك أو أنكره؛ وهم مَدينون له مُدَبَّرون؛ فهمُ مسلمون له طوعًا وكرهًا، وليس لأحد من المخلوقات خروج عمَّا شاءه وقدَّره وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو رب العالمين ومليكُهُم، يصرفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلهم، وبارئهم ومصورهم، وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع، مفطور فقير محتاج مُتعبدٌ مقهور؛ وهو سبحانه الواحد القهار الخالق البارئ المصور"(١) .

القرآن

{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩)} [النحل : ٤٩]

التفسير:

ولله وحده يسجد كل ما في السموات وما في الأرض مِن دابة، والملائكة يسجدون لله، وهم لا يستكبرون عن عبادته.

قوله تعالى:{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ} [النحل : ٤٩]، أي:" ولله وحده يسجد كل ما في السموات وما في الأرض مِن دابة، والملائكة يسجدون لله"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولله يخضع ويستسلم لأمره ما في السموات وما في الأرض من دابة يدب عليها، والملائكة التي في السموات"(٣).

قال الزجاج:" المعنى ولله يسجد ما في السماوات من الملائكة وما في الأرض من دابة والملائكة، أي :وتسجد ملائكة الأرض، والدليل على أن الملائكة في الأرض أيضا قوله تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق : ١٨]، وقوله: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ا} [الرعد : ١١]، وقوله: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ(١٠) كِرَامًا} [الانفطار : ١٠]"(٤).

قال السعدي:أي:" من الحيوانات الناطقة والصامتة، {والملائكة} الكرام خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم"(٥).

قال قتادة:" لم يدع شيئا من خلقه إلا عبده له طائعا أو كارها"(٦).

وأما سجود: {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ} [النحل : ٤٩]، فيحتمل وجهين(٧):

أحدهما : أن سجوده خضوعه لله تعالى .

الثاني : أن ظهور ما فيه من قدرة الله يوجب على العباد السجود لله سبحانه.

قال السعدي:"وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان:

- سجود اضطرار: ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق من مؤمن وكافر وبر وفاجر وحيوان ناطق وغيره.

---

(١) مجموع الفتاوى:٢٠٠/١٠

(٢) التفسير الميسر:٢٧٢.

(٣) تفسير الطبري:٢١٩/١٧.

(٤) معاني القرآن:٢٠٢/٣-٢٠٣.

(٥) تفسير السعدي:٤٤٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٣٠):ص٢٢٨٥/٧.

(٧) انظر: النكت والعيون:١٩١/٣.

- وسجود اختيار: يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم [من المخلوقات]"[١].

وفي تخصيص «الملائكة بالذكر»، وإن دخلوا في جملة من في السموات والأرض وجوه:

أحدها : أنه خصهم بالذكر لاختصاصهم بشرف المنزلة فميزهم من الجملة بالذكر وإن دخلوا فيها .

الثاني : لخروجهم من جملة من يدب، لما جعل الله تعالى لهم من الأجنحة فلم يدخلوا في الجملة، فلذلك ذكروا .

الثالث : أن في الأرض ملائكة يكتبون أعمال العباد لم يدخلوا في جملة ملائكة السماء فلذلك أفردهم بالذكر . أفاده الماوردي[٢].

قوله تعالى:{وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [النحل : ٤٩]، أي:" وهم لا يستكبرون عن عبادته"[٣].

قال الطبري:" وهم لا يستكبرون عن التذلل له بالطاعة "[٤].

قال ابن كثير:" أي : تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته"[٥].

قال السعدي:" أي: عن عبادته على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم كما قال تعالى: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} [النساء : ١٧٢]"[٦].

الفوائد:

١- خصَّ الملائكة بالذكر بعد العموم لفَضْلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم.

٢- فضل السجود الطوعي الاختياري.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: مشروعية السجود للقارئ والمستمع إذا بلغ هذه الآية {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [النحل : ٤٩]، الآية ويستحب أن يكون طاهرا مستقبلا القبلة، ويكبر عند الخفض والرفع ولا يسلم.

القرآن

{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)} [النحل : ٥٠]

التفسير:

يخاف الملائكة ربهم الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الصفات، ويفعلون ما يُؤْمرون به من طاعة الله.

قوله تعالى:{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} [النحل : ٥٠]، أي:" يخاف الملائكة ربهم الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الصفات"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يخاف هؤلاء الملائكة التي في السموات، وما في الأرض من دابة، ربهم من فوقهم، أن يعذبهم إن عصوا أمره"[٨].

قال الزجاج:" أي: يخافون ربهم خوف مخلدين معظمين"[٩].

قال الواحدي:" يعني: الملائكة هم فوق ما في الأرض من دابَّة ومع ذلك يخافون الله فلأَنْ يخافَ مَنْ دونهم أولى"[١].

---

(١) تفسير السعدي:٤٤٢.

(٢) انظر: النكت والعيون:١٩٢/٣.

(٣) التفسير الميسر:٢٧٢.

(٤) تفسير الطبري:٢١٩/١٧.

(٥) تفسير ابن كثير:٥٧٦/٤.

(٦) تفسير السعدي:٤٤٢.

(٧) التفسير الميسر:٢٧٢.

(٨) تفسير الطبري:٢٢٠/١٧.

(٩) معاني القرآن:٢٠٢/٣.

قال الثعلبي:" يعني: يخافون [قدرة] ربهم أن يأتيهم بالعذاب من فوقهم.. معناه يخافون ربهم الذي فوقهم بالقول والقدرة فلا يعجزه شيء ولا يغلبه أحد [يدل عليه] قوله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام :١٨/ ٦١]، وقوله إخبارا عن فرعون: {وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُون} [الأعراف : ١٢٧]"[٢].

قال السعدي:" لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره"[٣].

وذكر الماوردي في قوله تعالى:{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} [النحل : ٥٠]، وجهين[٤]:

أحدهما : يعني عذاب ربهم من فوقهم لأن العذاب ينزل من السماء .

الثاني : يخافون قدرة الله التي هي فوق قدرتهم وهي في جميع الجهات .

قال القشيري:" يقال: خير شىء للعبد فى الدنيا والآخرة الخوف إذ يمنعه من الزّلة ويحمله على الطاعة"[٥].

قوله تعالى:{وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل : ٥٠]، أي:" ويفعلون ما يُؤْمرون به من طاعة الله"[٦].

قال الطبري:" يقول: ويفعلون ما أمرهم الله به، فيؤدون حقوقه، ويجتنبون سخطه"[٧].

قال ابن كثير:" أي : مثابرين على طاعته تعالى ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره "[٨].

قال السعدي:" أي: مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره، طوعا واختيارا"[٩].

قال مكي بن أبي طالب:" أي: يطيعونه فيما أمرهم به"[١٠].

قال أبو إسحاق: "معناه: يخافون ربهم خوف مطيعين مجلين له، لا يجاوزون أمره"[١١].

قال الزجاج:" وصفهم بالطاعة وأنهم لا يجاوزون أمرا له ولا يتقدمونه "[١٢].

وفي قوله تعالى:{وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل : ٥٠]، وجهان:

أحدهما : من العبادة ، حكاه الماوردي عن ابن عباس[١٣].

الثاني : من الانتقام من العصاة[١٤].

الفوائد:

١- في الآية: إثبات صفة العلو والفوقية لله على جميع خلقه، كما يليق بجلاله وكماله.
٢- نص الله عز وجل على أن الملائكة متعبدون قال تعالى: {ويفعلون ما يؤمرون}[١٥].
٣- ومن فوائد الآية: أن الملائكة مطبوعون على طاعة الله، ليس لديهم القدرة على العصيان: {لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون} [التحريم: ٦]، فتركهم للمعصية، وفعلهم للطاعة جبلّة، لا يكلفهم أدنى مجاهدة؛ لأنه لا شهوة لهم.

---

(١) الوجيز:٦٠٩.
(٢) الكشف والبيان:٢١/٦.
(٣) تفسير السعدي:٤٤٢.
(٤) انظر النكت والعيون:١٩٢/٣.
(٥) لطائف الإشارات:٣٠١/٢.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٧) تفسير الطبري:٢٢٠/١٧.
(٨) تفسير ابن كثير:٥٧٦/٤.
(٩) تفسير السعدي:٤٤٢.
(١٠)الهداية إلى بلوغ النهعاية:٤٠٠٩/٦ .
(١١)الهداية إلى بلوغ النهعاية:٤٠٠٩/٦ .
(١٢) معاني القرآن:٢٠٢/٣.
(١٣) انظر النكت والعيون:١٩٢/٣.
(١٤) انظر النكت والعيون:١٩٢/٣.
(١٥) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل:١٣٣/٣

ولعلّ هذا هو السبب الذي دعا فريقاً من العلماء إلى القول: إن الملائكة ليسوا بمكلفين، وإنهم ليسوا بداخلين في الوعد والوعيد(١) .

ويمكن أن نقول: إن الملائكة ليسوا بمكلفين بالتكاليف نفسها التي كلف بها أبناء آدم. أما القول بعدم تكليفهم مطلقاً، فهو قول مردود، فهم مأمورون بالعبادة والطاعة: {يخافون ربَّهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون} [النحل: ٥٠] . وفي الآية أنهم يخافون ربهم، والخوف نوع من التكاليف الشرعية، بل هو من أعلى أنواع العبودية، كما قال فيهم: {وهم من خشيته مشفقون} [الأنبياء: ٢٨](٢).

القرآن

{وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١)} [النحل : ٥١]

التفسير:

وقال الله لعباده: لا تعبدوا إلهين اثنين، إنما معبودكم إله واحد، فخافوني دون سواي.

سبب النزول:

قال مقاتل:" وذلك أن رجلا من المسلمين، دعا الله- عز وجل- في صلاته، ودعا الرحمن. فقال رجل من المشركين: أليس يزعم محمد- ﷺ- وأصحابه أنهم يعبدون ربا واحدا، فما بال هذا يدعو ربين اثنين. فأنزل الله- عز وجل- فى قوله: { لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}"(٣).

قوله تعالى:{وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ} [النحل : ٥١]، أي:" وقال الله لعباده: لا تعبدوا إلهين اثنين"(٤).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وقال الله لعباده: لا تتخذوا لي شريكا أيها الناس، ولا تعبدوا معبودين، فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتم لي شريكا، ولا شريك لي"(٥).

قال ابن أبي زمنين:" أي: لا تعبدوا مع الله غيره"(٦).

قال السعدي:" يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم والوحدانية فقال: {لا تتخذوا إلهين اثنين} أي: تجعلون له شريكا في إلهيته"(٧).

قال الزجاج:" فذكر «اثنين» توكيدا لقوله «إلهين»، كما ذكر «الواحد» في قوله: {إنما هو إله واحد}"(٨).

قوله تعالى:{إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [النحل : ٥١]، أي:" إنما معبودكم إله واحد"(٩).

قال الطبري:" إنما هو إله واحد ومعبود واحد، وأنا ذلك"(١٠).

قال السعدي:" متوحد في الأوصاف العظيمة متفرد بالأفعال كلها. فكما أنه الواحد في ذاته وأسمائه ونعوته وأفعاله، فلتوحدوه في عبادته"(١١).

قوله تعالى:{فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [النحل : ٥١]، أي:" فخافوني دون سواي"(١٢).

---

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية: ٤٠٩/٢ .
(٢) انظر: عالم الملائكة الأبرار:٢٩.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٢/٢ .
(٤) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٥) تفسير الطبري:٢٢٠/١٧.
(٦) تفسير ابن أبي زمنين:٤٠٥/٢ .
(٧) تفسير السعدي:٤٤٢.
(٨) معاني القرآ،:٢٠٤/٣.
(٩) التفسير الميسر:٢٧٢.
(١٠) تفسير الطبري:٢٢٠/١٧.
(١١) تفسير السعدي:٤٤٢.
(١٢) التفسير الميسر:٢٧٢.

قال الطبري:" يقول: فإياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكا"[١].

قال مقاتل:" يعني:إياي فخافون في ترك التوحيد، فمن لم يوحد فله النار "[٢].

قال السعدي:" أي: خافوني وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي من غير أن تشركوا بي شيئا من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة"[٣].

قال الزمخشري:" نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم، وجاز لأن الغالب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم"[٤].

الفوائد:

١- تقرير التوحيد، ونفي كل معبود سوى الله إثبات العبادة لله وحده التي لا يستحقها غيره.

٢- وجوب الرهبة من الله دون سواه.

القرآن

{وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)} [النحل : ٥٢]

التفسير:

ولله كل ما في السموات والأرض خلقًا وملكًا وعبيدًا، وله وحده العبادة والطاعة والإخلاص دائمًا، أيليق بكم أن تخافوا غير الله وتعبدوه؟

قوله تعالى:{وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النحل : ٥٢]، أي:" ولله كل ما في السموات والأرض خلقًا وملكًا وعبيدًا"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولله ملك ما في السموات والأرض من شيء، لا شريك له في شيء من ذلك، هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم، وبيده حياتهم وموتهم"[٦].

قوله تعالى:{وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا} [النحل : ٥٢]، أي:" وله وحده العبادة والطاعة والإخلاص دائمًا"[٧].

قال ابن قتيبة:" يريد: أنه ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلكة، غير الله. فإن الطاعة تدوم له"[٨].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: وله الطاعة والإخلاص دائما ثابتا واجبا"[٩].

وفي معنى« الدِّينُ» هنا، ثلاثة أقوال:

أحدهما : أنه الإخلاص ، قاله مجاهد[١٠].

وروي عن أبي صالح قوله: "{وله الدين واصبا}، قال: لا إله إلا الله"[١١].

الثاني : يعني: الإسلام . قال مقاتل[١٢].

الثالث: أنه الطاعة ، قاله ابن قتيبة[١٣]، وحكاه الماوردي عن ابن بحر[١].

---

(١) تفسير الطبري:٢٢٠/١٧.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٢/٢.

(٣) تفسير السعدي:٤٤٢.

(٤) الكشاف:٦١٠/٢.

(٥) التفسير الميسر:٢٧٢.

(٦) تفسير الطبري:٢٢١/١٧.

(٧) التفسير الميسر:٢٧٢.

(٨) غريب القرآن:٢٤٣.

(٩) تفسير الطبري:٢٢١/١٧.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٣٢):ص٢٢٨٥/٧.

(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٣٣):ص٢٢٨٦/٧.

(١٢) تنظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٢/٢.

(١٣) انظر: غريب القرآن:٢٤٣.

وفي قوله تعالى:{وَاصِبًا} [النحل : ٥٢]، وجوه من التفسير:
أحدها : واجباً ، قاله ابن عباس[٢].
الثاني : خالصاً ، حكاه الفراء والكلبي[٣].
الثالث : مُتعِباً، و«الوصب» : التعب والإعياء، ذكره الطبري[٤]، واستشهد بقول الشاعر[٥]:
لا يغمز الساق من أين ولا وصب ... ولا يعض على شرسوفه الصفر
الرابع : دائماً، قاله ابن عباس[٦]، والحسن، ومجاهد [٧]، وعكرمة[٨]، وقتادة[٩]، والضحاك[١٠]، وسفيان[١١]، وابن زيد[١٢]، ومقاتل[١٣]، والفراء[١٤]، وأبو عبيدة[١٥]، وابن قتيبة[١٦]، ومنه قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} [الصافات : ٩]، أي: دائم ، وقال الدؤلي[١٧]:
لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه ... يوماً بذم الدهر أجمع واصبا
الخامس: دائما خالصا. قاله الفراء أيضا[١٨].
قال الزمخشري:" «الواصب»: الواجب الثابت، لأن كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه. ويجوز أن يكون من الوصب، أى: وله الدين ذا كلفة ومشقة، ولذلك سمى تكليفا. أو: وله الجزاء ثابتا دائما سرمدا لا يزول، يعنى الثواب والعقاب"[١٩].
قوله تعالى:{أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ} [النحل : ٥٢]، أي:" أيليق بكم أن تخافوا غير الله وتعبدوه؟"[١].

---

(١) انظر: النكت والعيون:١٩٣/٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري/٢٢٣/١٧.
(٣) انظر: النكت والعيون:١٩٣/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٢٢١/١٧.
(٥)هذا البيت لأعشى باهلة، واسمه عامر بن الحارث جمهرة أشعار العرب لمحمد بن أبي الخطاب القرشي (١٣٥ - ١٣٧) من قصيدة يقولها في أخ له اسمه المنتشر، قتله بنو الحارث بن كعب وقطعوه إربا إربا (عضوا عضوا) برجل منهم كان فعل معه مثل ذلك. ورواية البيت فيه وفي اللسان (صفر) : لا يتأسى لما في القدر يرقبه ... ولا يعض على شرسوفه الصفر
قال: والصفر دويبة تكون في البطن، تدعيها الأعراب، ويكون منها الجوع. وخطأ رواية البيت الصاغاني، وأورده كرواية المؤلف. (انظر هامش اللسان: أرى) . والغمز: العصر باليد. والشرسوف: جمعه شراسيف، وهي أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٣٤):ص٢٢٨٥/٧.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٣٢):ص٢٢٨٥/٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٢٢٢/١٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٢٢٢/١٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:٢٢٢/١٧.
(١١) انظر: تفسير سفيان الثوري(٤٨٨: ٥: ١٣):ص١٦٥.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:٢٢٢/١٧-٢٢٣.
(١٣) تنظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٢/٢.
(١٤) انظر: معاني القرآن:١٠٤/٢.
(١٥) انظر: مجاز القرآن:٣٦١/١.
(١٦) انظر: غريب القرآن:٢٤٣.
(١٧)البيت لأبي الأسود الدؤلي، ويقال فيه الديلي أيضا، استشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن (١: ٣٦١) على أن معنى "واصبا": دائما. وروايته فيه كرواية (الطبري:٢٢١/١٧) . واستشهد به كذلك القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٠: ١١٤) ورواه بروايتين: الأولى كرواية الطبري، وقال قبلها، أنشد الغزنوي والثعلبي وغيرهما ... البيت. والأخرى باختلاف في الشطر الثاني. وهو: "بدم يكون الدهر أجمع واصبا" وظاهر أن هذه الرواية محرفة عن الأولى. وقال صاحب لسان العرب في "وصب". وفي التنزيل العزيز، "وله الدين واصبا" قال أبو إسحاق، قيل في معناه: دائبا: أي طاعته دائمة واجبة أبدا. قال: ويجوز، والله أعلم أن يكون "وله الدين واصبا": أي له الدين والطاعة، رضي العبد بما يؤمر به، أو لم يرض به، سهل عليه، أو لم يسهل، فله الدين وإن كان فيه الوصب، والوصب: شدة التعب، وفيه: "بعذاب واصب" أي دائم ثابت. وقيل: موجع.
(١٨) انظر: معاني القرآن:٣٨٣/٢.
(١٩) الكشاف:٦١١/٢.

قال البغوي:" أي: تخافون، استفهام على طريق الإنكار"[٢].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أفغير الله أيها الناس تتقون، أي ترهبون وتحذرون أن يسلبكم نعمة الله عليكم بإخلاصكم العبادة لربكم، وإفرادكم الطاعة له، وما لكم نافع سواه"[٣].
قال قتادة:" فإن الله تبارك وتعالى لم يدع شيئا من خلقه إلا عبده طائعا أو كارها"[٤].
قال الحسن:" شغل الناس وحال بينهم وبين كثير من شهواتهم، فما يستطيعه إلا من عرف فضله ورجا عاقبته"[٥].
الفوائد:
١- وجوب الدين لله إذ هو الإله الحق دون غيره.
٢- أن الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها، فلذلك يجب إخلاصه بالله تعالى، قال تعالى: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ} [النحل: ٥٣]، وقد ذكره الله تعالى في كتابه عن سادات المقربين من الملائكة والأولياء والصالحين قال الله تعالى: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ}[النحل:٥٠]، وقال الله تعالى: {وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء:٢٨]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ} [المؤمنون:٥٧]. وقال تعالى: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ} [الأحزاب:٣٩]. وأمر بإخلاصه له فقال تعالى: {وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [البقرة:٤٠]. وقال تعالى: {فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ}

القرآن
{وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣)} [النحل : ٥٣]
التفسير:
وما بكم مِن نعمةٍ هدايةٍ، أو صحة جسم، وسَعَة رزقٍ وولد، وغير ذلك، فمِنَ الله وحده، فهو المُنْعِم بها عليكم، ثم إذا نزل بكم السقم والبلاء والقحط فإلى الله وحده تَضِجُّون بالدعاء.
قوله تعالى:{وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [النحل : ٥٣]، أي:" وما بكم مِن نعمةٍ هدايةٍ، أو صحة جسم، وسَعَة رزقٍ وولد، وغير ذلك، فمِنَ الله وحده، فهو المُنْعِم بها عليكم"[٦].
قال الطبري: أي:" ما يكن بكم في أبدانكم أيها الناس من عافية وصحة وسلامة، وفي أموالكم من نماء، فالله المنعم عليكم بذلك لا غيره، لأن ذلك إليه وبيده"[٧].
قال البغوي:" أي: وما يكن بكم من نعمة فمن الله"[٨].
قال الزمخشري: يعني:" وأى شيء حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة، فهو من الله"[٩].
قوله تعالى:{ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [النحل : ٥٣]، أي:" ثم إذا نزل بكم السقم والبلاء والقحط فإلى الله وحده تَضِجُّون بالدعاء"[١٠].
قال الطبري: " يقول: إذا أصابكم في أبدانكم سقم ومرض، وعلة عارضة، وشدة من عيش، فإلى الله تصرخون بالدعاء وتستغيثون به، ليكشف ذلك عنكم"[١١].
قال البغوي: أي: " تضجون وتصيحون بالدعاء والاستغاثة"[١٢].

---
(١) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٢) تفسير البغوي:٢٤/٥.
(٣) تفسير الطبري:٢٢٣/١٧.
(٤) أخرجه الطبري:٢٢٢/١٧.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٣٥):ص٢٢٨٦/٧.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٧) تفسير الطبري:٢٢٤/١٧.
(٨) تفسير البغوي:٢٤/٥.
(٩) الكشاف:٦١١/٢.
(١٠) التفسير الميسر:٢٧٢.
(١١) تفسير الطبري:٢٢٤/١٧.
(١٢) تفسير البغوي:٢٤/٥.

قال الزمخشري: " فما تتضرعون إلا إليه"[١].

قال ابن كثير:" أي : لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو ، فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه ، وتسألونه وتلحون في الرغبة مستغيثين به كما قال تعالى : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنْسَانُ كَفُورًا } [الإسراء : ٦٧]"[٢].

قال قتادة:" الخلق كلهم يقرون لله أنه ربهم ثم يشركون بعد ذلك"[٣].

وقال الحسن في قول الله: "{الصمد}، الذي يصمد إليه في الحوائج، ثم تلا هذه الآية: {ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون}"[٤].

وفي تفسير« الضُّرُّ»، ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه القحط، قاله مقاتل[٥].

قال مقاتل:" يعني: الشدة وهو الجوع، والبلاء وهو قحط المطر بمكة سبع سنين"[٦].

الثاني : الفقر ، قاله الكلبي[٧].

الثالث : السقم ، قاله ابن عباس[٨].

أنه البلاء والمصيبة. قاله ابن قتيبة[٩].

وفي قوله تعالى:{فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [النحل : ٥٣]، ثلاثة أقوال:

أحدها : تضجون بالدعاء وبالمسألة، قاله السدي[١٠] وابن قتيبة[١١].

الثاني : تستغيثون. ذكره الماوردي[١٢].

الثالث : تتضرعون بالدعاء، قاله مجاهد[١٣].

قال مقاتل:" يعني: تضرعون بالدعاء لا تدعون غيره أن يكشف عنكم ما نزل بكم من البلاء والدعاء حين قالوا في «حم» الدخان: {رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ} [الدخان : ١٢]، يعني: مصدقين بالتوحيد"[١٤].

قال الطبري: «تَجْأَرُونَ»:" من جؤار الثور، يقال منه: جأر الثور يجأر جؤارا، وذلك إذا رفع صوتا شديدا من جوع أو غيره، ومنه قول الأعشى[١٥]:

وما أيبلي على هيكل ... بناه وصلب فيه وصارا

---

(١) الكشاف:٦١١/٢.

(٢) تفسير ابن كثير:٥٧٧/٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٣٧):ص٢٢٨٦/٧.

(٤) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب(٨٨):ص٤٩/٢.

(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٢/٢.

(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٢/٢.

(٧) انظر: النكت والعيون:١٩٣/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري:٢٢٥/١٧.

(٩) انظر: غريب القرآن:٢٤٣.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٣٦):ص٢٢٨٥/٧.

(١١) انظر: غريب القرآن:٢٤٣.

(١٢) انظر: النكت والعيون:١٩٣/٣.

(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٣٥):ص٢٢٨٥/٧.

(١٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٢/٢.

(١٥)البيتان من شعر الأعشى ميمون بن قيس (ديوانه طبع القاهرة ص ٥٣) من قصيدة له سبعون بيتا، يمدح بها قيس ابن معد يكرب. والأيبلي: الراهب صاحب الأيبل، وهو العصا التي يدق بها الناقوس. والهيكل: موضع في صدر الكنيسة، يقرب في القربان. صلب صور فيه الصليب. وفي اللسان صار:
صور عن أبي علي الفارسي. ويلوح لي أن المراد بصور في البيت: هو ما قاله الأعشى في بيت آخر وهو قوله وفي وصف الخمر "وصلى على دنها وارتسم". ومعنى ارتسم: أشار بيده على جبهته وقلبه وصدره يمنة ويسرة، كما يفعل المسيحيون. وراوح بين العملين: تداول هذا مرة، وهذا مرة. وجأر إلى الله جؤارا: تضرع إليه بالدعاء والاستغاثة. يقول: ليس الراهب المعتكف في هيكله أمام صليبه، دائبا على صلواته سجودا وتضرعا إلى الله، بأعظم منه تقي في الحساب (خبر ما: في البيت الذي بعد البيتين)..

يراوح من صلوات المليـ ... ك طورا سجودا وطورا جؤارا
يعني بالجؤار: الصياح، إما بالدعاء، وإما بالقراءة"[١].
وقرئ: «تجرون»، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم[٢].

القرآن
{ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)} [النحل : ٥٤]
التفسير:
ثم إذا كشف عنكم البلاء والسقم، إذا جماعة منكم بربهم المُنْعِم عليهم بالنجاة يتخذون معه الشركاء والأولياء.
قوله تعالى:{ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ} [النحل : ٥٤]، أي:" ثم إذا كشف عنكم البلاء والسقم"[٣].
قال القرطبي:" أي :البلاء والسقم"[٤].
قال مقاتل:" يعنى: يتركون التوحيد لله- تعالى- في الرخاء فيعبدون غيره وقد وحدوه في الضر"[٥].
وقرأ قتادة: «كاشف الضر»، على: فاعل بمعنى فعل، وهو أقوى من كشف، لأن بناء المغالبة يدل على المبالغة[٦].
قوله تعالى:{إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} [النحل : ٥٤]، أي:" إذا جماعة منكم بربهم المُنْعِم عليهم بالنجاة يتخذون معه الشركاء والأولياء"[٧].
قال القرطبي: أي:"بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار. فمعنى الكلام التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك"[٨].
قال مقاتل:" يعني: الشدة وهو الجوع، وأرسل السماء بالمطر مدرارا"[٩].
قال يحيى بن سلام:" يعني بـ«الفريق»: المشركين"[١٠].
قال البيضاوي:{ إِذَا فَرِيقٌ}" وهم كفاركم، {بربهم يشركون}، بعبادة غيره، هذا إذا كان الخطاب عاما، فإن كان خاصا بالمشركين كان {من} للبيان، كأنه قال: إذا فريق وهم أنتم، ويجوز أن تكون {من} للتبعيض على أن يعتبر بعضهم، كقوله تعالى: {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} [لقمان : ٣٢]"[١١].
قال السعدي:" ولكن كثيرا من الناس يظلمون أنفسهم، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة فصاروا في حال الرخاء أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة"[١٢].
فوائد الآيتين:[٥٣-٥٤]:
١- كل نعمة بالعبد صغرت أو كبرت فهي من الله سبحانه وتعالى.
٢- ومن الفوائد: أنه تعالى لم يجعل الشر بيده مُسَمّى باسمه، قال تعالى: قوله: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ

(١)تفسير الطبري:٢٢٤/١٧-٢٢٥.
(٢) انظر: الكشاف:٦١١/٢.
(٣) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٤) تفسير القرطبي:١١٥/١٠.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٢/٢.
(٦) انظر: الكشاف:٦١١/٢.
(٧) التفسير الميسر:٢٧٢.
(٨) تفسير القرطبي:١١٥/١٠.
(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٢/٢.
(١٠) تفسير يحيى بن سلام:٦٨/١.
(١١) تفسير السعدي:٢٣٠/٣.
(١٢) تفسير السعدي:٤٤.

مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} [النحل: ٥٣ - ٥٤]، ولذلك نظائر كثيرةٌ في كتاب الله تعالى، قال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل: ٦٢].

فانظر إلى ما في هذه الآية من الإرشاد إلى حسن العبارة فيما يُضاف إلى الله تعالى من النعمة وكشف الضُّرِّ اللَّذَيْنِ يسمى بهما مُنعِماً وكاشف الضُّرِّ، دون الضر نفسه، وإن كان من فعله، لأنه ليس بضُرٍّ بالنسبة إلى حكمته.

ألا ترى أن إنزاله الضر بالظالم هو عين المنع للمظلوم، فهو يسمى به عادلاً بالنظر إلى الظالم، نافعاً محسناً بالنظر إلى المظلوم، ولذلك كثر مثل هذا في كتاب الله، وفي كلام أنبياء الله مثل إبراهيم الخليل عليه السلام: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٨٠] أضاف المرض إلى نفسه، لأنه قد يكون عقوبةً على ذنبٍ كما في قصة أيوب، وقد يكون بأكل الإنسان بما يضُرُّه في العادة، وأضاف الشِّفاء إلى الله تعالى.

وكذلك قال أيوب عليه السلام: {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} [ص: ٤١] كما تقدم، وقال الله تعالى في الزمر: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ} [الزمر: ٨]، وفيها أيضاً: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} [الزمر: ٤٩]، وفي آخر السجدة: {لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي} [فصلت: ٤٩ - ٥٠] وبعدها: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ} [فصلت: ٥١]، وفي آخر حم عسق: {وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} [الشورى: ٤٨]، وفي هذه الآية الكريمة التصريح بالسبب في عدم إضافة ذلك إلى الله مع كونه فعله، وذلك بين قوله: {بِما قَدَّمَتْ أَيدِيهِم} [البقره: ٩٥] فهو مثلُ قوله تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ١٦٥]، وقال الله تعالى في سورة يونس: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ} [يونس: ١٢]، وقال تعالى في هود: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} [هود: ٩ - ١٠]، وقال تعالى في بني إسرائيل: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى في الروم: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} [الروم: ٣٣]، وفي الروم أيضاً: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} [الروم: ٣٦]، وهذه أيضاً مُوضحَةٌ للعلة في ذلك، مع ما فيه من النصوص كقوله تعالى: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا} [الزمر: ٤٨] الآيات في الزمر، وقوله: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} [الروم: ٤١]، وقوله: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [النساء: ١٢٣] مع ما جاء في تفسيرها من الأحاديث، وقوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠]، وقال: {أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٤]، ويقارب هذه الآيات في المعنى قوله تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ} [الشورى: ٢٧]، وقوله تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: ٦ - ٧]، وهاتان وأمثالهما في ترك بعض الخير لما علم فيه من الشرّ، وما تقدم في إنزال الضر لدفع المعاصي لطفاً أو للعقوبة عليها[1].

---

(١) انظر: العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم:١٩٤/٧-١٩٧.

٣- بيان أنه لا يجيب المضطر إلا الله، فهو سبحانه المدعو عند الشدائد، الكاشف للسوء وحده.
٤- بيان أن الكفار إذا ما أصابتهم الشدائد أخلصوا لله تعالى، وهتفوا باسمه تعالى، ودعوه ليكشف ضر المصاب في البر والبحر والسفر والإياب.
٥- إبطال تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر.

القرآن

{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)} [النحل : ٥٥]

التفسير:

ليجحدوا نعمنا عليهم، ومنها كَشْفُ البلاء عنهم، فاستمتعوا بدنياكم، ومصيرها إلى الزوال، فسوف تعلمون عاقبة كفركم وعصيانكم.

قوله تعالى:{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} [النحل : ٥٥]، أي:" ليجحدوا نعمنا عليهم، ومنها كَشْفُ البلاء عنهم"(١).

قال مقاتل:" يعني: لئلا يكفروا بالذي أعطيناهم من الخير والخصب في كشف الضر عنهم وهو الجوع (٢).

قال الطبري:" يقول: ليجحدوا الله نعمته فيما آتاهم من كشف الضر عنهم"(٣).

قال البغوي:" {ليكفروا} ليجحدوا، وهذه اللام تسمى لام العاقبة، أي: حاصل أمرهم هو كفرهم {بما آتيناهم} أعطيناهم من النعماء وكشف الضراء والبلاء"(٤).

قال ابن كثير:" قيل : "اللام" هاهنا لام العاقبة. وقيل : لام التعليل ، بمعنى : قيضنا لهم ذلك ليكفروا ، أي : يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم ، وأنه المسدي إليهم النعم ، الكاشف عنهم النقم"(٥).

قال القرطبي: " أي ليجحدوا نعمة الله التي أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء. أي أشركوا ليجحدوا، فاللام لام كي. وقيل لام العاقبة. وقيل:" ليكفروا بما آتيناهم" أي ليجعلوا النعمة سببا للكفر، وكل هذا فعل خبيث، كما قال(٦):

والكفر مخبثة لنفس المنعم"(٧).

قوله تعالى:{فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [النحل : ٥٥]، أي:" فاستمتعوا بدنياكم، ومصيرها إلى الزوال، فسوف تعلمون عاقبة كفركم وعصيانكم"(٨).

قال البغوي:" أي: عيشوا في الدنيا المدة التي ضربتها لكم، {فسوف تعلمون} عاقبة أمركم. هذا وعيد لهم"(٩).

قال الحسن:" هو وعيد"(١٠).

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٢/٢.
(٣) تفسير الطبري:٢٢٥/١٧-٢٢٦.
(٤) تفسير البغوي:٢٤/٥.
(٥) تفسير ابن كثير:٥٧٧/٤.
(٦)الشاهد لعنترة العبسي من معلقته في ديوانه ٢٨، والتهذيب ١/ ٣١٦، ومعاني الفراء ٢/ ١٢٦، والخزانة ١/ ٣٣٦، وشرح القصائد العشر للتبريزي ٣٦٨، وصدره:
«نبئت عرا غير شاكي نعمتي».

(٧) تفسير القرطبي:١١٥/١٠.
(٨) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٩) تفسير البغوي:٢٤/٥.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٣٨):ص٢٢٨٦/٧.

قال ابن كثير:" توعدهم قائلا { فَتَمَتَّعُوا } أي : اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلا { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } أي : عاقبة ذلك "(1).

قال الطبري:" وهذا من الله وعيد لهؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، وتهديد لهم، يقول لهم جل ثناؤه: تمتعوا في هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم، وتبلغوا الميقات الذي وقته لحياتكم وتمتعكم فيها، فإنكم من ذلك ستصيرون إلى ربكم، فتعلمون بلقائه وبال ما كسبت أيديكم، وتعرفون سوء مغبة أمركم، وتندمون حين لا ينفعكم الندم"(2).

وقرئ:«فيمتعوا»، بالياء مبنيا للمفعول، عطفا على {ليكفروا}(3).

قال الزمخشري:" يجوز أن يكون:{ليكفروا} {فيمتعوا}، من الامر الوارد في معنى الخذلان والتخلية، واللام لام الأمر"(4).

الفوائد:

١- تهديد المشركين إن أصروا على شركهم وعدم توبتهم.
عن ابن مسعود رضي الله عنه: "قيل: يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك"(5).

٢- بيان العلة في ترك الظلمة يتمادون زمنا في الظلم والشر والفساد.

٣- ومن الفوائد: أن الكفر والشرك بينهما عموم وخصوص من وجه، بمعنى أن كل مشرك كافر، قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} . [الروم: ٣٣،٣٤] .فبيّضن الله أنهم إذا أشركوا كفروا ولا بد، وليس كل كافر مشركاً، بل من الكفر أنواع لا يشرك صاحبها، وذلك خمسة أنواع كلها يخلد صاحبها في النار.

- النوع الأول: كفر شكّ، بمعنى أن صاحبه متردد بين الحق والباطل، سواء كان متردداً في الجميع، أو بعض ما أنزل الله وثبت عن الرسول ﷺ، ولم يرجح جانب الوحيين على غيرهما، ولا للحق على الباطل.
- الثاني: كفر إعراض، بمعنى أمه معرض عن الحق، مع عرفانه أنه الحق لعلة من العلل، ككفر أبي طالب، أقرّ بحقيقة ما جاء به الرسول ﷺ وأيضاً، ككفر اليهود بالرسول ﷺ بعدما جاءتهم البينة، وعرفوه أشد المعرفة، كما قال تعالى عنهم: {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} . [البقرة: والأنعام: ٢٠١٤٦] . فلما عرفوه كفروا به، فبيَّن الله أنهم ما كفروا به جهلاً، بل كفروا به بعد المعرفة، والعلة في ذلك الحسد قال تعالى: {حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} . [البقرة: ١٠٩] . وككفر الوليد بن المغيرة وناس معه، بغياً بينهم، قال تعالى: {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ} . [الشورى: ١٤] .
- والثالث: مفر نفاق، وهو الذي يستبطن الباطل، ويستظهر الحق حفظاً لدمه وماله وعرضه، ككفر عبد الله بن أبيّ ومن تبعه من المنافقين إلى يوم الدين.
- والرابع: كفر إباء واستكبار، ككفر إبليس وفرعون، قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} . [البقرة: ٣٤] . وقال تعالى عن فرعون وقومه: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} . [النمل: ١٤] .

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٧٧/٤.
(٢) تفسير الطبري:٢٢٦/١٧.
(٣) انظر: الكشاف:٦١٢/٢.
(٤) الكشاف:٦١٢/٢.
(٥)البخاري: الأدب (٦٠٠١) ، ومسلم: الإيمان (٨٦) ، والترمذي: تفسير القرآن (٣١٨٢,٣١٨٣) ، والنسائي: والنسائي: تحريم الدم (٤٠١٣,٤٠١٤) ، وأبو داود: الطلاق (٢٣١٠) ، وأحمد (٤٦٤/٤٣٤,١/١).

- والخامس: كفر جحود وهو نوعان: جحود مطلق لا يؤمن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم على العموم، والثاني: جحود مقيد ببعض، كأن يجحد نبيًّا، أو ملكاً، أو رسولاً، أو كتاباً من الكتب السماوية، أو آية من كتاب، أو حرفاً متفق عليه، أو حكماً من أحكام الرسول الثابت عنه ﷺ، ونحو ذلك. واعلم أن الكافر والمنافق أخوان، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} . [الحشر: ١١][(١)].

القرآن

{وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)} [النحل : ٥٦]

التفسير:

ومِن قبيح أعمالهم أنهم يجعلون للأصنام التي اتخذوها آلهة، -وهي لا تعلم شيئًا ولا تنفع ولا تضر- جزءًا من أموالهم التي رزقهم الله بها تقربًا إليها. تالله لتسألُنَّ يوم القيامة عما كنتم تختلقونه من الكذب على الله.

قوله تعالى:{وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ} [النحل : ٥٦]، أي:" ومِن قبيح أعمالهم أنهم يجعلون للأصنام التي اتخذوها آلهة، -وهي لا تعلم شيئًا ولا تنفع ولا تضر- جزءًا من أموالهم التي رزقهم الله بها تقربًا إليها"[(٢)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ويجعل هؤلاء المشركون من عبدة الأوثان، لما لا يعلمون منه ضرا ولا نفعا نصيبا. يقول: حظا وجزاء مما رزقناهم من الأموال، إشراكا منهم له الذي يعلمون أنه خلقهم، وهو الذي ينفعهم ويضرهم دون غيره"[(٣)].

قال السدي:" هو قولهم هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا"[(٤)].

قال قتادة:" هم مشركوا العرب جعلوا لأوثانهم وشياطينهم نصيبا مما رزقهم الله، وجزأوا من أموالهم جزءا فجعلوه لأوثانهم وشياطينهم"[(٥)].

قال مجاهد:" يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم نصيبا مما رزقناهم"[(٦)].

قال ابن زيد:" جعلوا لآلهتهم التي ليس لها نصيب ولا شيء، جعلوا لها نصيبا مما قال الله من الحرث والأنعام، يسمون عليها أسماءها ويذبحون لها"[(٧)].

قال ابن قتيبة:" هذا ما كانوا يجعلونه لآلهتهم من الحظ في زروعهم وأنعامهم"[(٨)].

قال السمعاني:" معناه: ويجعلون للأصنام نصيبا مما رزقناهم، وهو معنى قوله تعالى: {فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا} . وقوله: {لا يعلمون} يعني: لا يعلمون أنها تضرهم ولا تنفعهم"[(٩)].

قال الزمخشري:" {لما لا يعلمون}، أى: لآلهتهم. ومعنى {لا يعلمونها}: أنهم يسمونها آلهة، ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله، وليس كذلك. وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع، فهم إذا جاهلون بها. وقيل: الضمير في {لا يعلمون} للآلهة. أى: لأشياء غير موصوفة

---

(١) انظر: فتح الله المجيد في شرح كتاب التوحيد:٤٤-٤٥.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٣) تفسير الطبري:٢٢٦/١٧.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٤٠):ص٢٢٨٦/٧.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٣٩):ص٢٢٨٦/٧.
(٦) أخرجه الطبري:٢٢٦/١٧.
(٧) أخرجه الطبري:٢٢٦/١٧.
(٨) غريب القرآن:٢٤٤.
(٩) تفسير السمعاني:١٧٩/٣.

بالعلم، ولا تشعر اجعلوا لها نصيبا في أنعامهم وزروعهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقربا إليهم"[١].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد ، وجعلوا لها نصيبا مما رزقهم الله فقالوا : { هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ } [الأنعام : ١٣٦] أي : جعلوا لآلهتهم نصيبًا مع الله وفضلوهم أيضًا على جانبه"[٢].

قوله تعالى:{تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ} [النحل : ٥٦]، أي:" تالله لتسألُنَّ يوم القيامة عما كنتم تختلقونه من الكذب على الله"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والله أيها المشركون الجاعلون الآلهة والأنداد نصيبا فيما رزقناكم شركا بالله وكفرا، ليسألنكم الله يوم القيامة عما كنتم في الدنيا تفترون، يعني: تختلقون من الباطل والإفك على الله بدعواكم له شريكا، وتصييركم لأوثانكم فيما رزقكم نصيبا، ثم ليعاقبنكم عقوبة تكون جزاء لكفرانكم نعمه وافترائكم عليه"[٤].

قال السمعاني:" معناه: والله لتسألن، والسؤال سؤال إلزام الحجة، لا سؤال الاستعلام والاستفهام"[٥].

قال ابن كثير:" فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه ، وائتفكوه ، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم "[٦].

قال الزمخشري:" وعيد عما كنتم تفترون من الإفك في زعمكم أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها"[٧].

الفوائد:

١- التنديد بالمشركين وتشريعهم الباطل بالتحليل والتحريم والإعطاء والمنع.
٢- أن كفار أهل مكة كانوا يجعلون لأصنامهم نصيبا مما رزقهم.
٣- أن العرب قد عرفت نوعي النذر(إيجاب الشيء على النفس مطلقا أو بشرط.)، ولكن لم تجر فيهما على شرع إلهي؛ فأنكر عليها الإسلام نذرها.

القرآن

{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧)} [النحل : ٥٧]

التفسير:

ويجعل الكفار لله البنات، فيقولون: الملائكة بنات الله، تنزَّه الله عن قولهم، ويجعلون لأنفسهم ما يحبون من البنين.

قوله تعالى:{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ} [النحل : ٥٧]، أي:" ويجعل الكفار لله البنات، فيقولون: الملائكة بنات الله"[٨].

قال السمعاني:" هذا معنى قولهم: إن الملائكة بنات الله"[٩].

قال ابن كثير:" أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، وجعلوها بنات الله ، وعبدوها معه ، فأخطؤوا خطأ كبيرًا في كل مقام من هذه المقامات الثلاث ،

---

(١) الكشاف:٦١٢/٢.
(٢) تفسير ابن كثير:٥٧٧/٤.
(٣) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٤) تفسير الطبري:٢٢٦/١٧-٢٢٧.
(٥) تفسير السمعاني:١٧٩/٣.
(٦) تفسير ابن كثير:٥٧٧/٤.
(٧) الكشاف:٦١٢/٢.
(٨) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٩) تفسير السمعاني:١٧٩/٣.

فنسبوا إليه تعالى أن له ولدا ، ولا ولد له! ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات ، وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما قال : { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى } [النجم : ٢١ ، ٢٢] "[١].

قوله تعالى:{سُبْحَانَهُ} [النحل : ٥٧]، أي:" تنزَّه الله عن قولهم"[٢].

قال ابن قتيبة:" أي: تنزيها له عن ذلك"[٣].

قال السمعاني:" هو بيان تنزيهه عن قولهم"[٤].

قال ابن كثير:" أي : عن قولهم وإفكهم، { أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [الصافات : ١٥١ - ١٥٤] "[٥].

قوله تعالى:{وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ} [النحل : ٥٧]، أي:" ويجعلون لأنفسهم ما يحبون من البنين"[٦].

قال الضحاك:" يعني به: البنين"[٧].

قال السمعاني:" فإنهم كانوا يقولون له البنات، ولنا البنون"[٨].

قال ابن كثير:" أي : يختارون لأنفسهم الذكور ويأنَفُون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا "[٩].

قال ابن عباس:" يقول: يجعلون له البنات، يرضونهن له ولا يرضونهن لأنفسهم. وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية أمسكها على هون أو دسها في التراب وهي حية"[١٠].

الفوائد:

١- أن بعض العرب جعل لله البنات، تعالى الله عن قولهم، وقد جادل القرآن الكريم هؤلاء المشركين في عدة مواضع، وألزمهم بالحجة البالغة، وبين سخافاتهم الوثنية.
٢- بيان سوء اعتقاد الذين لا يؤمنون بالآخرة وهو أنهم ينسبون إلى نفوسهم الحسنى ويجعلون لله ما يكرهون من البنات والشركاء وسب الرسل وامتهانهم.
٣- بيان جهلهم بالرب تعالى فهم يؤمنون به ويجهلون صفاته حتى نسبوا إليه الولد والشريك.

القرآن

{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨)} [النحل : ٥٨]

التفسير:

وإذا جاء مَن يخبر أحدهم بولادة أنثى اسودَّ وجهه؛ كراهية لما سمع، وامتلأ غمًّا وحزنًا.

قوله تعالى:{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى} [النحل : ٥٨]، أي:" وإذا جاء مَن يخبر أحدهم بولادة أنثى"[١١].

قال السمعاني:" كان أهل الجاهلية يودون الذكور من الأولاد، ويكرهون الإناث، ويقولون: إنهن لا يقاتلن، ولا يركبن الخيل"[١].

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٧٧/٤.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٣) غريب القرآن:٢٤٤.
(٤) تفسير السمعاني:١٧٩/٣.
(٥) تفسير ابن كثير:٥٧٧/٤.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٤٢):ص٢٢٨٦/٧.
(٨) تفسير السمعاني:١٧٩/٣.
(٩) تفسير ابن كثير:٥٧٨/٤.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٤١):ص٢٢٨٦/٧.
(١١) صفوة التفاسير:١٢١/٢.

قوله تعالى:{ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا} [النحل : ٥٨]، أي:" صار وجهه متغيراً من الغم والحزن"[٢].

قال السمعاني:" معناه: تغير وجهه من الغم، تقول العرب: اسود وجه فلان، إذا تغير بما أصابه من الغم"[٣].

قال ابن كثير:" أي : كئيبا من الهم ، { وَهُوَ كَظِيمٌ } ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن"[٤].

قال قتادة:" هذا صنيع مشركي العرب، أخبرهم الله بخبث صنيعهم. فأما المؤمن فهو حقيق إن يرضى بما قسم الله له، وقضاء الله خير من قضاء المرء لنفسه، ولعمري ما ندري أنه لخير لرب جارية خير لأهلها من غلام، وإنما أخبركم الله بصنيعهم لتجتنبوه وتنتهوا عنه، فكان أحدهم يغذو كلبه ويئد ابنته"[٥].

وفي قوله تعالى:{ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا} [النحل : ٥٨]، وجوه من التفسير:

أحدها : مسود اللون ، حكاه الماوردي عن الجمهور[٦].

الثاني : متغير اللون بسواد أو غيره ، قاله مقاتل[٧].

الثالث : ان العرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسودّ وجهه غماً وحزناً ، قاله الزجاج . ومنه : سَوَّدْت وجه فلان ، إذا سُؤتَه .

قوله تعالى:{وَهُوَ كَظِيمٌ} [النحل : ٥٨]، أي:" وهو مملوءٌ غيظاً وغماً"[٨].

وفي قوله تعالى:{وَهُوَ كَظِيمٌ} [النحل : ٥٨]، ثلاثة وجوه:

أحدها : أن الكظيم الحزين ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الذي يكظم شدة حزنه ووجده ولا يظهره. قاله أبو عبيدة[٩]، وابن قتيبة[١٠].

قال ابن قتيبة:" أي :حزين قد كظم فلا يشكو ما به"[١١].

وقال الأخفش:"أنه الذي يكظم غيظه فلا يظهر"[١٢].

الثالث : أنه المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من الفم ، مأخوذ من الكظامة وهو سد فم القربة ، قاله ابن عيسى[١٣].

قال مقاتل:" يعني: مكروبا"[١٤].

القرآن

{يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)} [النحل : ٥٩]

التفسير:

---

(١) تفسير السمعاني:١٧٩/٣.
(٢) صفوة التفاسير:١٢١/٢.
(٣) تفسير السمعاني:١٨٠/٣.
(٤) تفسير ابن كثير:٥٧٨/٤.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٤٣):ص٢٢٨٦/٨-٢٢٨٧.
(٦) انظر: النكت والعيون:١٩٤/٣.
(٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/٢.
(٨) صفوة التفاسير:١٢١/٢.
(٩) انظر مجاز القرآن:٣٦١/١.
(١٠) انظر: غريب القرآن:٢٤٤.
(١١) غريب القرآن:٢٤٤.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٩٤/٣.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١٩٤/٣.
(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/٢.

يستخفي مِن قومه كراهة أن يلقاهم متلبسًا بما ساءه من الحزن والعار؛ بسبب البنت التي وُلِدت له، ومتحيرًا في أمر هذه المولودة: أيبقيها حية على ذلٍّ وهوان، أم يدفنها حية في التراب؟ ألا بئس الحكم الذي حكموه مِن جَعْل البنات لله والذكور لهم.

قوله تعالى:{يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ} [النحل : ٥٩]، أي:" يستخفي مِن قومه كراهة أن يلقاهم متلبسًا بما ساءه من الحزن والعار؛ بسبب البنت التي وُلِدت له"[١].

قال مقاتل:" يعني لا يريد أن يسمع تلك البشرى أحدا"[٢].

قال السمعاني:" يعني: من كراهة ما بشر به، كان الرجل منهم إذا دنت ولادة امرأته توارى من نادى قومه، فإن بشر بالابن ظهر، ويهنئه القوم، وإن بشر بالأنثى تغير واستخفى وربما يئدها"[٣].

قوله تعالى:{أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ} [النحل : ٥٩]، أي:" أيمسك هذه الأنثى على ذلٍ وهوان أم يدفنها في التراب حية؟"[٤].

قال مقاتل:" فأما الله فقد علم أنه صانع أحدهما لا محالة"[٥].

قال الفراء:" يقول: لا يدرى أيهما يفعل: أيمسكه أم يدسه في التراب، يقول: بدفنها أم يصبر عليها وعلى مكروهها وهى الموؤدة، وهو مثل ضربه الله تبارك وتعالى"[٦].

وفي قوله تعالى:{أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ} [النحل : ٥٩]، ثلاثة وجوه:

أحدها : هو «الهوان» بلغة قريش ، قاله قتادة،[٧] واليزيدي[٨]، ويحيى بن سلام[٩]، والفراء[١٠]، والفراء[١٠]، وأبو عبيدة[١١]، وابن قتيبة[١٢].

الثاني : هو «القليل» بلغة تميم ، قاله الفراء[١٣].

الثالث : هو البلاء والمشقة ، قاله الكسائي[١٤]. قالت الخنساء[١٥]:

هين النفوس، وهون النفو ... س عند الكريهة أبقى لها

وقرأ الجحدري: «على هوان»[١٦].

وفي قوله تعالى:{أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ} [النحل : ٥٩]، وجهان[١٧]:

أحدهما : أنها الموءُودة[١٨] التي تدس في التراب قتلاً لها.

---

(١) صفوة التفاسير:١٢١/٢.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/٢.
(٣) تفسير السمعاني:١٧٩/٣-١٨٠.
(٤) صفوة التفاسير:١٢١/٢.
(٥)تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/٢ .
(٦) معاني القرآن:١٠٧/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٤٥):ص٢٢٨٧/٧.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٩٤/٣.
(٩) انظر: تفسير يحيى بن سلام:٧٠/١.
(١٠) انظر: معاني القرآن:١٠٦/٢.
(١١) انظر مجاز القرآن:٣٦١/١.
(١٢) انظر: غريب القرآن:٢٤٤.
(١٣) انظر: معاني القرآن:١٠٦/٢.
(١٤) انظر: النكت والعيون:١٩٤/٣.
(١٥)ديوان الخنساء: ٢١٥، والأغاني ١٣: ١٣٦، والنقائض: ٤٢٣، واللسان (هون) . وتفسيرالطبري:٥٣٢/١١، وروايته:" عند الكريهة أغلى لها".
(١٦) انظر: تفسير السمعاني:١٨٠/٣.
(١٧) انظر: النكت والعيون:١٩٥/٣.
(١٨)الموءودة}: هي البنت تدفن حية من الوأد، وهو الثقل؛ لأنها تثقل بالتراب والجندل. يقال: وأده يئده كوعده يعده.
وقال الزمخشري: «وأد يئد، مقلوب من آد يؤود إذا أثقل. قال الله تعالى: {ولا يؤوده حفظهما} [البقرة: ٢٥٥] لأنه إثقال بالتراب». قال الشيخ: «ولا يدعى ذلك؛ لأن كلا منهما كامل التصرف في الماضي والأمر

قال ابن قتيبة:" أي: يئده"[1].
قال السدي:" كانت العرب يقتلون ما ولد لهم من جارية فيدسونها في التراب وهي حية حتى تموت"[2].
الثاني : أنه محمول على إخفائه عن الناس حتى لا يعرفوه كالمدسوس في التراب لخفائه عن الأبصار .
قوله تعالى:{أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [النحل : ٥٩]، أي:" ألا ساء صنيعهم وساء حكمهم، حيث نسبوا لخالقهم البنات - وهي عندهم بتلك الدرجة من الذل"[3].
قال السدي:" بئس ما حكموا. يقول: شيء لا يرضونه لأنفسهم، فيكف يرضونه لي"[4].
قال مقاتل:" يعنى: ألا بئس ما يقضون حين يزعمون أن لي البنات وهم يكرهونها لأنفسهم"[5].
فوائد الآيتين:[٥٨-٥٩]:
١- بيان الحال الاجتماعية التي كان عليها المشركون وهي كراهيتهم للبنات خوف العار، فإنَّ أحدهم إذا أخبر بولادة بنت، صار وجهه متغيراً من الغم والحزن، ومسوداً من الغيظ والكآبة، ولذلك فإنه يتوارى من قومه خجلاً من العار الذي قد يلحقه بسبب مجيء البنت، وكأنها في نظره بلية من البلايا، وليست هبة إلهية من الله تعالى.
ثم يفكر فيما يصنع بهذه البنت، أيمسكها على الذل والهوان، أم يدفنها في التراب وهي حية، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ}[التكوير: ٨-٩].
٢- أنه من الناس الناس من يرون أن هبة البنت من النقم، فإن كثيراً من الناس لا يرضى بالبنت، ويرى أنه إذا ولد له بنت فقد أصيب بمصيبة، وهذا ورثوه من الجاهلية الذين يقول الله جل وعلا فيهم: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ} [النحل:٥٨ - ٥٩].
عن مسرة بن معبد من بني الحارث بن أبي الحرام من لخم عن الوضين: "أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي بنت لي فلما أجابت، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يوما، فاتبعتني فمررت حتى أتيت بئرا من أهلي غير بعيد، فأخذت بيدها فرديت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه يا أبتاه فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه، فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ، أحزنت رسول الله ﷺ، فقال له: «كف فإنه يسأل عما أهمه» ثم قال له: " أعد علي حديثك فأعاده، فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته، ثم قال له: «إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنف عملك»[6].

والمضارع والمصدر واسم الفاعل واسم المفعول، وليس فيه شيء من مسوغات ادعاء القلب. والذي يعلم به الأصالة من القلب: أن يكون أحد النظمين فيه حكم يشهد له بالأصالة، والآخر ليس كذلك أو كونه مجردا من حروف الزيادة والآخر فيه مزيدا، وكونه أكثر تصرفا والآخر ليس كذلك، أو أكثر استعمالا من الآخر، وهذا على ما قرر وأحكم في علم التصريف. فالأول: كيئس وأيس. والثاني: كطأمن واطمأن. والثالث: كشوايع وشواعي. والرابع: كلعمري ورعملي».
(١) غريب القرآن:٢٤٤.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٤٤):ص٢٢٨٧/٧.
(٣) صفوة التفاسير:١٢١/٢.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٤٦):ص٢٢٨٧/٧.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/٢.
(٦) سنن الدرامي(٢):ص١//١٥٣. إسناده رجاله ثقات غير أنه مرسل وقد تفرد بروايته الدارمي.

والحق أن البنت نعمة من النعم، وقد تكون البنت خيراً من الذكر، وأفضل وأصلح وأحسن وأبر، وكذلك قد تكون أنفع للإنسان من الذكر، ثم إذا احتسب ورباها وأنفق عليها وعلمها وأدبها يعظم له الأجر مما لو قام على ابنه.

٣- أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

وهذا مأخوذ من القصة نفسها، أي: من أنه يخشى أن يخرج المولود في غير صورة الإنسان، بل يجوز أن يخرج رأسه رأس حيوان أو له قرون أو مشوهاً أو ناقصاً أو زائداً، وقد شاهد الناس أشياء كثيرة من هذا القبيل، فإذا ولد للإنسان بنت خلقتها تامة وسوية فهي من النعم التي يجب عليه أن يشكرها[١].

عن عائشة، أن امرأة دخلت عليها ومعها ابنتان لها، فأعطيتها تمرة فشقتها بينهما، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: " من ابتلي بشيء من هذه البنات، فأحسن إليهن، كن له سترا من النار "[٢].

القرآن

{لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)} [النحل : ٦٠]

التفسير:

للذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يعملون لها، الصفة القبيحة من العجز والحاجة والجهل والكفر، ولله الصفات العليا من الكمال والاستغناء عن خلقه، وهو العزيز في ملكه، الحكيم في تدبيره.

قوله تعالى:{لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ} [النحل : ٦٠]، أي:" للذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يعملون لها، الصفة القبيحة من العجز والحاجة والجهل والكفر"[٣].

قال الطبري:" وهذا خبر من الله جل ثناؤه أن قوله :{وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم}، والآية التي بعدها مثل ضربه الله لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله البنات، فبين بقوله {للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء} أنه مثل، وعنى بقوله جل ثناؤه {للذين لا يؤمنون بالآخرة} للذين لا يصدقون بالمعاد والثواب والعقاب من المشركين {مثل السوء} وهو القبيح من المثل، وما يسوء من ضرب له ذلك المثل"[٤].

وفي قوله تعالى:{لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ} [النحل : ٦٠]، وجوه من التفسير:

أحدها : صفة السوء من الجهل والكفر[٥].

الثاني: شبه السوء، لأنه- تبارك وتعالى- ربا واحد، لا شريك له، ولا ولد. قاله مقاتل[٦].

الثالث : وصفهم الله تعالى بالسوء من الصاحبة والولد[٧].

قوله تعالى:{وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [النحل : ٦٠]، أي:" ولله الصفات العليا من الكمال والاستغناء عن خلقه"[٨].

قال الطبري:" يقول: ولله المثل الأعلى، وهو الأفضل والأطيب، والأحسن، والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره"[١].

---

(١) انظر: شرح فتح المجيد للغنيمان: الدرس :(١٨/١١٥).

(٢) المسند(٢٤٠٥٥):ص٦١/٤٠، حديث صحيح، وسنن الترمذي (١٩١٣)، و"مصنف" عبد الرزاق (١٩٦٩٣)، .

(٣) التفسير الميسر:٢٧٣.

(٤) تفسير الطبري:٢٢٩/١٧.

(٥) انظر: النكت والعيون:١٩٥/٣.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/٢.

(٧) انظر: النكت والعيون:١٩٥/٣.

(٨) التفسير الميسر:٢٧٣.

وفي قوله تعالى:{وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [النحل : ٦٠]، وجوه:
أحدها : الصفة العليا بأنه خالق ورزاق وقادر ومُجازٍ[٢].
الثاني : الإخالص والتوحيد ، قاله قتادة[٣].
وعن قتادة في قوله: "{ولله المثل الأعلى}، قال: شهادة أن لا إله إلا الله"[٤].
قال ابن قتيبة:" {ولله المثل الأعلى} شهادة أن لا إله إلا هو"[٥].
الثالث: يقول: ليس كمثله شيء. قاله ابن عباس[٦].
قوله تعالى:{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [النحل : ٦٠]، أي:" وهو العزيز في ملكه، الحكيم في تدبيره"[٧].
قال مقاتل:" {العزيز} في ملكه ﷺ، لقولهم :«إن الله لا يقدر على البعث»، {الحكيم} في أمره حكم البعث"[٨].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والله ذو العزة التي لا يمتنع عليه معها عقوبة هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، ولا عقوبة من أراد عقوبته على معصيته إياه، ولا يتعذر عليه شيء أراده وشاءه، لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، الحكيم في تدبيره، فلا يدخل تدبيره خلل، ولا خطأ"[٩].
الفوائد:
١- أنه تعالى وصف نفسه بأن له المثل الأعلى، فقال تعالى: {للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى} [النحل:٦٠]، وقال تعالى: {وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} [الروم:٢٧]. فجعل سبحانه مثل السوء - المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال - لأعدائه المشركين وأوثانهم، وأخبر أن المثل الأعلى - المتضمن لإثبات الكمال كله - لله وحده. فمن سلب صفات الكمال عن الله - تعالى - فقد جعل له مثل السوء، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى، وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية، والمعاني الثبوتية، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل - كان بها أكمل وأعلى من غيره.
ولما كانت صفات الرب - سبحانه وتعالى - أكثر وأكمل، كان له المثل الأعلى، وكان أحق به من كل ما سواه. بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان، لأنهما إن تكافآ من كل وجه، لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ، فالموصوف به أحدهما وحده، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير.
٢- ومن الفوائد: إثبات اسمين من أسماء الله. وهما «العزيز»«الحكيم»:
- فـ«العزيز»:هو المنيع الذي لا يغلب"[١٠].
- و«الحكيم»:"هو المحكم لخلق الأشياء، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها[١١].

---

(١) تفسير الطبري:٢٢٩/١٧.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٩٥/٣.
(٣) انظر: انظر: تفسير الطبري:٢٣٠/١٧.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٤٧):ص٢٢٨٧/٧.
(٥) غريب القرآن:٢٤٤.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٤٨):ص٢٢٨٧/٧.
(٧) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/٢.
(٩) تفسير الطبري:٢٣٠/١٧.
(١٠) شأن الدعاء:٤٧/١-٤٨.
(١١)انظر:شأن الدعاء:٧٢/١-٧٣.

القرآن

{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)} [النحل : ٦١]

التفسير:

ولو يؤاخذ الله الناس بكفرهم وافترائهم ما ترك على الأرض مَن يتحرَّك، ولكن يبقيهم إلى وقت محدد هو نهاية آجالهم، فإذا جاء أجلهم لا يتأخرون عنه وقتًا يسيرًا، ولا يتقدمون.

قوله تعالى:{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ} [النحل : ٦١]، أي:" ولو يؤاخذ الله الناس بكفرهم وافترائهم ما ترك على الأرض مَن يتحرَّك"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره {ولو يؤاخذ الله} عصاة بني آدم بمعاصيهم {ما ترك عليها}، يعني: على الأرض {من دابة} تدب عليها"[٢].

قال السعدي:" أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل"[٣].

قال الزمخشري:أي:" لأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين"[٤].

قال يحيى بن سلام: "لحبس المطر فأهلك حيوان الأرض"[٥].

قال ابن مسعود: "خطيئة ابن آدم قتلت الجعل"[٦].

وفي رواية اخرى عن ابن مسعود، قال:" كاد الجعل إن يعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ: {ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة}"[٧].

وفي قوله تعالى:{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ} [النحل : ٦١]، وجوه من التفسير:

أحدها : أنه يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاء ، وهلاك المؤمن معوضاً بثواب الآخرة[٨].

عن أبي سلمة، قال: "سمع أبو هريرة رجلا وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، قال: فالتفت إليه فقال: بلى، والله إن الحبارى لتموت في وكرها هزالا بظلم الظالم"[٩].

الثاني : ما ترك عليها من دابة من أهل الظلم[١٠].

الثالث : يعني: أنه لو أهلك الآباء بالكفر لم يكن الأبناء ولا نقطع النسل فلم يولد مؤمن[١١].

وفي قوله: {مِنْ دَابَّةٍ} [النحل : ٦١]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عنى جميع ما يدب على وجه الأرض، قاله ابن مسعود[١٢].

قال قتادة: "وقد فعل ذلك في زمن نوح عليه السلام"[١٣].

قال سعيد بن جبير: "ما سقاهم المطر"[١٤].

قال السدي:" إذا قحط المطر لم يبق في الأرض دابة إلا ماتت"[١٥].

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٢) تفسير الطبري:٢٣٠/١٧.
(٣) تفسير السعدي:٤٤٣.
(٤) الكشاف:٦١٣/٢.
(٥) تفسير يحيى بن سلام:٧٠/١.
(٦) أخرجه الطبري:٢٣١/١٧.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٥١):ص٢٢٨٧/٧.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٩٥/٣-١٩٦.
(٩) أخرجه الطبري:٢٣١/١٧.
(١٠) انظر: النكت والعيون:١٩٥/٣-١٩٦.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٩٥/٣-١٩٦، وتفسير السمعاني:١٨١/٣، والكشاف:٦١٣/٢.
(١٢) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير:٥٦٦/٢.
(١٣) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير:٥٦٦/٢.
(١٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٤٩):ص٢٢٨٧/٧.
(١٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٥٠):ص٢٢٨٧/٧.

قال مقاتل:" يعني: يقحط المطر فتموت الدواب"(١).
والثاني: أنه أراد من الناس خاصة، قاله ابن جريج(٢).
والثالث: من الإنس والجن، قاله ابن السائب(٣)، وهو اختيار الزجاج(٤).
قوله تعالى:{وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [النحل : ٦١]، أي:" ولكن يبقيهم إلى وقت محدد هو نهاية آجالهم"(٥).
قال الطبري:" يقول: ولكن بحلمه يؤخر هؤلاء الظلمة فلا يعاجلهم بالعقوبة (إلى أجل مسمى) يقول: إلى وقتهم الذي وقت لهم"(٦).
قال يحيى بن سلام: "يؤخر المشركين إلى الساعة، لأن كفار هذه الأمة أخر عذابها بالاستئصال إلى النفخة الأولى"(٧).
قوله تعالى:{فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [النحل : ٦١]، أي:" فإذا جاء أجلهم لا يتأخرون عنه وقتًا يسيرًا، ولا يتقدمون"(٨).
قال الواحدي:" وهو انقضاء عمرهم"(٩).
قال الطبري:" يقول: فإذا جاء الوقت الذي وقت لهلاكهم {لا يستأخرون} عن الهلاك ساعة فيمهلون {ولا يستقدمون} له حتى يستوفوا آجالهم"(١٠).
قال السعدي:أي:" فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه"(١١).
قال الزهري:" نرى أنه إذا حضر أجله فلا يؤخر ساعة، ولا يقدم، ما لم يحضر أجله، فإن الله يؤخر ما شاء، ويقدم ما شاء"(١٢).
الفوائد:
١- بيان العلة في ترك الظلمة يتمادون زمنا في الظلم والشر والفساد.
٢- عموم البلوى بالذنوب، قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ} [النحل: ٦١]، وفي آية: {على ظهرها} [فاطر: ٤٥]، وقوله تعالى: {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [عبس: ٢٣].
٣- ما من عالم إلا وله زلة، أبى الله أن تكون العصمة لغير نبيه - ﷺ -.
٤- أن دخول الجنة إنما هو تفضل من الله سبحانه، قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ}، ولقوله عز وجل في إخباره عن كلام أهل الجنة وغبطتهم بما: {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ } [فاطر : ٣٥]، وفيه الرد على المعتزلة الذين يرون أن دخول الجنة استحقاق بالعمل.
والحق أن دخول الجنة إنما هو بفضل الله أولا وأخيرا، وليس للعبد على ربه أي استحقاقا غير أن الله تعالي أوجب على نفسه أنه لا يظلم عمل عامل من ذكر أو أنثي، فجعل العمل من الأسباب دخول الجنة، والأسباب نفسها إنما هي تفضيل من الله تعالى.

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/٢.
(٢) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير:٥٦٦/٢.
(٣) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير:٥٦٦/٢.
(٤) انظر: زاد المسير:٥٦٦/٢.
(٥) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٦) تفسير الطبري:٢٣٠/١٧.
(٧) تفسير يحيى بن سلام:٧٠/١.
(٨) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٩) الوجيز:٦١٠.
(١٠) تفسير الطبري:٢٣٠/١٧.
(١١) تفسير السعدي:٤٤٣.
(١٢) أخرجه الطبري:٢٣١/١٧.

وفي الحديث:" سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة"[١].

٥- بيان حلمه سبحانه وتعالى، فهو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر ثم لا يستفزه غضب ولا يعتريه غيظ ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش[٢].

فالله تعالى له الحلم الكامل الذي وسع أهل الكفر والفسوق، والعصيان حيث أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة ليتوبوا، ولو شاء لأخذهم بذنوبهم فور صدورها منهم؛ فإن الذنوب تقتضي تَرتُّبِ آثارها عليها من العقوبات العاجلة المتنوعة، ولكن حلمه سبحانه هو الذي اقتضى إمهالهم

القرآن

{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢)} [النحل : ٦٢]

التفسير:

ومن قبائحهم: أنهم يجعلون لله ما يكرهونه لأنفسهم من البنات، وتقول ألسنتهم كذبًا: إن لهم حسن العاقبة، حقًّا أن لهم النار، وأنهم فيها مَتْروكون مَنْسيون.

قوله تعالى:{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ} [النحل : ٦٢]، أي:" ومن قبائحهم: أنهم يجعلون لله ما يكرهونه لأنفسهم من البنات"[٣].

قال الطبري:" ويجعلون لله ما يكرهونه لأنفسهم.. «البنات» يجعلونهن لله تعالى، وزعموا أن الملائكة بنات الله "[٤].

قال الضحاك:" يقول: تجعلون لي البنات وتكرهون ذلك لأنفسكم"[٥].

قال السدي:" وهن الجواري"[٦].

قوله تعالى:{وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} [النحل : ٦٢]، أي:" وتقول ألسنتهم كذبًا: إن لهم حسن العاقبة"[٧].

قال الطبري:" وذلك أنهم كانوا يئدون الإناث من أولادهم، ويستبقون الذكور منهم، ويقولون: لنا الذكور ولله البنات "[٨].

وفي قوله تعالى:{وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} [النحل : ٦٢]، وجهان:

أحدهما : أن لهم البنين مع جعلهم لله ما يكرهون من البنات، وهو قول كفار قريش. قاله مجاهد[٩]، وقتادة[١٠].

قال قتادة:" أي يتكلمون بـ «إن لهم الحسنى»: الغلمان"[١١].

الثاني : معناه أن لهم من الله الجزاء الحسن، قاله الزجاج[١٢].

---

(١)أخرجه أحمد (٢٧٣/٦، رقم ٢٦٣٨٦) ، والبخارى (٢٣٧٣/٥، رقم ٦١٠٢) ، ومسلم (٢١٧١/٤، رقم ٢٨١٨).
(٢) انظر: المقصد الأسنة، أبو حامد الغزالي:١٠٣.
(٣) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٤) تفسير الطبري:٢٣١/١٧.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٥٢):ص٢٢٨٧/٧.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٥٣):ص٢٢٨٧/٧.
(٧) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٨) تفسير الطبري:٢٣١/١٧.
(٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٥٥٤):ص٢٢٨٧/٧.
(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٥٥٥):ص٢٢٨٨/٧.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٥٥):ص٢٢٨٨/٧.
(١٢) انظر: معاني القرآن:٢٠٧/٣.

وقال ابن قتيبة: "أي: الجنة"[1].
قوله تعالى:{لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ} [النحل : ٦٢]، أي:" حقًا أن لهم النار"[2].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: حقا واجبا أن لهؤلاء القائلين لله البنات، الجاعلين له ما يكرهونه لأنفسهم، ولأنفسهم الحسنى عند الله يوم القيامة النار"[3].
وفي قوله تعالى:{لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ} [النحل : ٦٢]، وجوه:
أحدهما : معناه: حقاً أن لهم النار[4].
الثاني : معناه: قطعاً أن لهم النار[5].
الثالث : اقتضى فعلهم أن لهم النار[6].
الرابع: كسب فعلهم أن لهم النار . قاله الزجاج[7].
الخامس : معناه: بلى إن لهم النار ، قاله ابن عباس[8].
قوله تعالى:{وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ} [النحل : ٦٢]، أي:" وأنهم فيها مَتْروكون مَنْسيون"[9].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأنهم مخلفون متروكون في النار، منسيون فيها"[10].
وفي قوله تعالى:{وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ} [النحل : ٦٢]، وجوه:
أحدها : معناه: منسيون، قاله مجاهد[11]، وداود بن ابي هند[12]، وبه قال الفراء[13].
قال الفراء:" والعرب تقول: أفرطت منهم ناسا، أي: خلفتهم ونسيتهم"[14].
وقال سعيد بن جبير:" منسيون مضيعون"[15].
الثاني : مضيّعون ، قاله الحسن[16].
وقال قتادة:" مضاعون"[17].
الثالث : مبعدون في النار ، قاله سعيد بن جبير[18].
الرابع : متروكون في النار ، قاله الضحاك[19].
وقال سعيد بن جبير:" متروكون في النار، منسيون فيها"[20]. وفي لفظ"" ينسون فيها أبدا"[21].
الخامس : معناه: مُعْجَلُونَ إلى النار مقدّمون إليها ، قاله الحسن[1]، وقتادة[2]، وبه قال ابن قتيبة[3].

---

(١) غريب القرآن: ٢٤٤.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٣) تفسير الطبري:٢٣٢/١٧.
(٤) انظر: النكت والعيون:١٩٦/٣.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٩٦/٣.
(٦) انظر: النكت والعيون:١٩٦/٣.
(٧) معاني القرآن:٢٠٧/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٢٣٢/١٧.
(٩) التفسير الميسر:٢٧٣.
(١٠) تفسير الطبري:٢٣٢/١٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري:٢٣٢/١٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:٢٣٢/١٧.
(١٣) انظر: معاني القرآن:١٠٧/٢.
(١٤) معاني القرآن:١٠٨/٢.
(١٥) خرجه الطبري:٢٣٣/١٧.
(١٦)حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:١٩٦/٣ .
(١٧) خرجه الطبري:٢٣٣/١٧.
(١٨)حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:١٩٦/٣ .
(١٩) انظر: تفسير الطبري:٢٣٢/١٧.
(٢٠) خرجه الطبري:٢٣٣/١٧.
(٢١) اخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٥٦):ص٢٢٨٨/٧.

قال الحسن:" معجل بهم إلى النار"[٤].

ومنه قول النبي -ﷺ-:«أنا فَرَطكم على الحوض»[٥]، أي: متقدمكم إليه وسابقكم "حتى تَرِدُوهُ"، وقال القطامي[٦]:

فاسْتَعْجَلُونا وكانُوا مِنْ صَحَابَتِنا ... كمَا تَعَجَّل فُرَّاطٌ لِوُرَّادِ

و«الفرّاط»: المتقدمون في طلب الماء ، و«الورّاد»: المتأخرون.

قال ابن قتيبة:" يقال: فرط مني ما لم أحسبه"[٧].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب القول الذي اخترناه، وذلك أن الإفراط الذي هو بمعنى التقديم، إنما يقال فيمن قدَم مقدَما لإصلاح ما يقدم إليه إلى وقت ورود من قدمه عليه، وليس بمقدم من قدم إلى النار من أهلها لإصلاح شيء فيها لوارد يرد عليها فيها فيوافقه مصلحا، وإنما تَقَدّم مَن قُدِّم إليها لعذاب يُعجَّل له. فإذا كان معنى ذلك الإفراط الذي هو تأويل التعجيل ففسد أن يكون له وجه في الصحة، صحّ المعنى الآخر، وهو الإفراط الذي بمعنى التخليف والترك. وذلك أنه يُحكى عن العرب: ما أَفْرطت ورائي أحدًا: أي ما خَلَّفته؛ وما فرطته: أي لم أخلفه"[٨].

وقرأ نافع :«مُفْرِطون» بكسر الراء وتخفيفها[٩]، قال الفراء:" كانوا مفرطين في سوء العمل لأنفسهم في الذنوب"[١٠].

القرآن

{تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)} [النحل : ٦٣]

التفسير:

تالله لقد أرسلنا رسلا إلى أمم مِن قبلك -أيها الرسول- فحسَّن لهم الشيطان ما عملوه من الكفر والتكذيب وعبادة غير الله، فهو متولٍّ إغواءهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم موجع.

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٥٧):ص٢٢٨٨/٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٢٣٤/١٧.
(٣) انظر: غريب القرآن:٢٤٤.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٥٧):ص٢٢٨٨/٧.
(٥) الحديث« أتدرون أى يوم هذا وأى شهر هذا وأى بلد هذا قالوا هذا بلد حرام وشهر حرام ويوم حرام قال ألا وإن أموالكم ودماءكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا ألا وإنى فرطكم على الحوض أنتظركم وأكاثر بكم الأمم فلا تسودوا وجهى ألا وقد رأيتمونى وسمعتم منى وستسألون عنى فمن كذب على فليتبوأ مقعده من النار ألا وإنى مستنقذ أناسا ومستنقذ منى أناس فأقول يا رب أصحابى فيقول إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك».
حديث رجل من الصحابة: أخرجه أحمد (٤١٢/٥، رقم ٢٣٥٤٤) . وأخرجه أيضا: النسائى فى الكبرى (٤٤٤/٢، رقم ٤٠٩٩) ، وابن أبى عاصم فى الآحاد (٣٥١/٥، رقم: ٢٩٣٢) .
حديث ابن مسعود: أخرجه ابن ماجه (١٠١٦/٢، رقم ٣٠٥٧) . قال البوصيرى (٢٠٧/٣) : هذا إسناد صحيح.
ومن غريب الحديث: "فرطكم على الحوض": أى متقدمكم، ومعناه: أنا أولكم قدوما على الحوض. "فليتبوأ": أى: لينزل منزله من النار.
(٦)البيت في ديوان القطامي ،طبعة ليدن، سنة ١٩٠٢.
يقول: استعجلونا: أي أعجلونا، يريد تقدمونا، والفراط: الذين يتقدمون الواردة، فيصلحون الأرشية، حتى يأتي القوم بعدهم. وفي اللسان: فرط: وفرط القوم يفرطهم فرطا (من باب قتل) وفراطة: تقدمهم إلى الورد، لإصلاح الأرشية والدلاء، ومدر الحياض والسقي فيها، فأنا فارط، وهم الفراط؛ قال القطامي: فاستعجلونا ... الخ البيت. وفي الصحاح: كما تعجل في موضع: كما تقدم.
(٧) انظر: غريب القرآن:٢٤٤.
(٨) تفسير الطبري:٢٣٥/١٧.
(٩) انظر: معاني القرآن للفراء:١٠٨/٢، وتفسيير الطبري:٢٣٥/١٧.
(١٠) معاني القرآن:١٠٨/٢.

قوله تعالى:{تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ} [النحل : ٦٣]، أي:" تالله لقد أرسلنا رسلا إلى أمم مِن قبلك -أيها الرسول- "[١].

قال يحيى بن سلام:" يعني: من أهلك بالعذاب من الأمم السالفة"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مقسما بنفسه عز وجل لنبيه محمد ﷺ: والله يا محمد لقد أرسلنا رسلا من قبلك إلى أممها بمثل ما أرسلناك إلى أمتك من الدعاء إلى التوحيد لله، وإخلاص العبادة له، والإذعان له بالطاعة، وخلع الأنداد والآلهة "[٣].

قوله تعالى:{فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} [النحل : ٦٣]، أي:" فحسَّن لهم الشيطان ما عملوه من الكفر والتكذيب وعبادة غير الله"[٤].

قال الطبري:" يقول: فالشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا"[٥].

قوله تعالى:{فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ} [النحل : ٦٣]، أي:" فالشيطان متولٍّ إغواءهم في الدنيا"[٦].

قال الطبري:" يقول: فحسن لهم الشيطان ما كانوا عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان مقيمين، حتى كذبوا رسلهم، وردوا عليهم ما جاءوهم به من عند ربهم"[٧].

قال يحيى بن سلام:" وإلى يوم القيامة"[٨].

قال ابو الليث السمرقندي:" أي: قرينهم في النار"[٩].

وقال مقاتل:" يعني: الشيطان وليهم في الآخرة"[١٠].

قوله تعالى:{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النحل : ٦٣]، أي:" ولهم في الآخرة عذاب أليم موجع"[١١].

قال مقاتل:" يعنى: وجيع "[١٢].

قال الطبري:أي:" في الآخرة عند ورودهم على ربهم، فلا ينفعهم حينئذ ولاية الشيطان، ولا هي نفعتهم في الدنيا، بل ضرتهم فيها وهي لهم في الآخرة أضر"[١٣].

قال ابو الليث السمرقندي:" فهذا تهديد لكفار مكة أنه يصيبهم مثل ما أصابهم، وهو تعزية للنبي ﷺ ليصبر على أذاهم"[١٤].

فوائد البيتين:[٦٢-٦٣]:

١- بيان سوء اعتقاد الذين لا يؤمنون بالآخرة وهو أنهم ينسبون إلى نفوسهم الحسنى ويجعلون لله ما يكرهون من البنات والشركاء وسب الرسل وامتهانهم.

٢- بيان ان الله يقسم بنفسه وبما شاء من خلقه، نحو: {وَالْفَجْرِ} [الفجر : ١] ، {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ} [التين : ١]، وما إلى ذلك إلا أن بعض أهل العلم كمالك يرون أن المقسم به محذوف تقديره: ورب الفجر، ورب التين وهكذا.

٣- بيان أن الله أرسل رسلا إلى أمم سبقت وأن الشيطان زين لها أعمالها فخذلها.

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٢) تفسير يحيى بن سلام:٧٢/١.
(٣) تفسير الطبري:٢٣٥/١٧.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٥) تفسير الطبري:٢٣٥/١٧.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٧) تفسير الطبري:٢٣٥/١٧.
(٨) تفسير يحيى بن سلام:٧٢/١.
(٩) بحر العلوم:٢٧٩/٢.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٥/٢.
(١١) التفسير الميسر:٢٧٣.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٥/٢.
(١٣) تفسير الطبري:٢٣٥/١٧-٢٣٦.
(١٤) بحر العلوم:٢٧٩/٢.

٤- تقرير النبوة وتسلية رسول الله ﷺ من جراء ما يلقاه من المشركين.

القرآن
{وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)} [النحل : ٦٤]
التفسير:
وما أنزلنا عليك القرآن -أيها الرسول- إلا لتوضح للناس ما اختلفوا فيه من الدين والأحكام؛ لتقوم الحجة عليهم ببيانك الذي لا يترك الباطل مسلكا إلى النفوس، ولكون القرآن هدى لا يترك مجالاً للحيرة، ورحمة للمؤمنين في اتباعهم الهدى ومجانبتهم الضلال.
قوله تعالى:{وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ} [النحل : ٦٤]، أي:" وما أنزلنا عليك القرآن -أيها الرسول- إلا لتوضح للناس ما اختلفوا فيه من الدين والأحكام؛ لتقوم الحجة عليهم ببيانك الذي لا يترك الباطل مسلكا إلى النفوس"(١).
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وما أنزلنا يا محمد عليك كتابنا وبعثناك رسولا إلى خلقنا إلا لتبين لهم ما اختلفوا فيه من دين الله، فتعرفهم الصواب منه، والحق من الباطل، وتقيم عليهم بالصواب منه حجة الله الذي بعثك بها"(٢).
قال ابن كثير:" قال تعالى لرسوله : أنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه ، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه"(٣).
قال السمعاني:" الفرق بين التبيين والتمييز، أن في التبيين طلب العلم، وليس في التمييز طلب العلم، فإن الرجل يميز بين الجيد والرديء مع علمه بهما"(٤).
قوله تعالى:{وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل : ٦٤]، أي:" ولكون القرآن هدى لا يترك مجالاً للحيرة، ورحمة للمؤمنين في اتباعهم الهدى ومجانبتهم الضلال"(٥).
قال الزجاج:" "أي :ما أنزلناه عليك إلا للهداية والرحمة"(٦).
قال الطبري:" يقول: وهدى بيانا من الضلالة، يعني بذلك الكتاب، ورحمة لقوم يؤمنون به، فيصدقون بما فيه، ويقرون بما تضمن من أمر الله ونهيه، ويعملون به، وعطف بالهدى على موضع ليبين، لأن موضعها نصب. وإنما معنى الكلام: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بيانا للناس فيما اختلفوا فيه هدى ورحمة"(٧).
قال السمعاني:" معناه: أن الكتاب هدى ورحمة للمؤمنين، وقيل: إن الرسول هدى ورحمة للمؤمنين"(٨).
قال ابن كثير:" { وَهُدًى } أي : للقلوب ، { وَرَحْمَةً } أي : لمن تمسك به"(٩).
الفوائد:
١- بيان مهمة رسول الله وأنها بيان ما أنزل الله تعالى لعباده من وحيه في كتابه، وفي الآية أثبت الله للرسول ﷺ الإيضاح والتبيين ونفى عنه الهداية التامة، وكما قال تعالى: {وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} . [النمل: ٨١]

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٢) تفسير الطبري:٢٣٦/١٧.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٨١/٤.
(٤) تفسير السمعاني:١٨٣/٣.
(٥) التفسير الميسر:٢٧٣.
(٦) معاني القرآن:٢٠٨/٣.
(٧) تفسير الطبري:٢٣٦/١٧.
(٨) تفسير السمعاني:١٨٣/٣.
(٩) تفسير ابن كثير:٥٨١/٤.

٢- بيان كون القرآن الكريم هدى ورحمة للمؤمنين الذين يعملون به.
٣- أن الله قد جعل للهداية والثبات أسباباً، كما جعل للضلال والزيغ أسباباً؛ فمن ذلك أن الله سبحانه أنزل الكتاب، وأرسل الرسول ليبين للناس ما اختلفوا فيه، كما قال تعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل:٦٤]؛ فبإنزال الكتب وإرسال الرسول، قطع العذر وأقام الحجة، كما قال تعالى: {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء:١٦٥].

القرآن

{وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)} [النحل : ٦٥]

التفسير:

والله أنزل من السحاب مطرًا، فأخرج به النبات من الأرض بعد أن كانت قاحلة يابسة، إن في إنزال المطر وإنبات النبات لَدليلا على قدرة الله على البعث وعلى الوحدانية، لقوم يسمعون، ويتدبرون، ويطيعون الله، ويتقونه.

قوله تعالى:{وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [النحل : ٦٥]، أي:" والله أنزل من السحاب مطرًا"(١).

قال مقاتل:" يعني: المطر"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره منبه خلقه على حججه عليهم في توحيده، وأنه لا تنبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء سواه: أيها الناس معبودكم الذي له العبادة دون كل شيء، {أنزل من السماء ماء}، يعني: مطرا"(٣).

قوله تعالى:{فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [النحل : ٦٥]، أي:" فأخرج به النبات من الأرض بعد أن كانت قاحلة يابسة"(٤).

قال مقاتل:" بالنبات "(٥).

قال يحيى بن سلام: "الأرض اليابسة التي ليس فيها نبات فيحييها بالمطر وتنبت بعد إذ لم يكن فيها نبات"(٦).

قال الطبري:" يقول: فأنبت بما أنزل من ذلك الماء من السماء الأرض الميتة التي لا زرع بها ولا عشب ولا نبت {بعد موتها} بعد ما هي ميتة لا شيء فيها"(٧).

قال ابن كثير:" وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها ، كذلك يحيي الله الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء "(٨).

قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [النحل : ٦٥]، أي:" إن في إنزال المطر وإنبات النبات لَدليلا على قدرة الله على البعث وعلى الوحدانية، لقوم يسمعون، ويتدبرون، ويطيعون الله، ويتقونه"(٩).

قال مقاتل:" يقول إن في المطر والنبات لعبرة وآية، {لقوم يسمعون} المواعظ "(١٠).

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٥/٢.
(٣) تفسير الطبري:٢٣٦/١٧.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٥/٢.
(٦) تفسير يحيى بن سلام:٧٢/١.
(٧) تفسير الطبري:٢٣٦/١٧.
(٨) تفسير ابن كثير:٥٨١/٤.
(٩) التفسير الميسر:٢٧٤.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٥/٢.

قال يحيى بن سلام: " فيعلمون أن الذي أحيا هذه الأرض الميتة حتى أنبتت قادر على أن يحيي الموتى؛ لأن المشركين لا يقرون بالبعث"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن في إحيائنا الأرض بعد موتها بما أنزلنا من السماء من ماء لدليلا واضحا، وحجة قاطعة، عذر من فكر فيه {لقوم يسمعون}، يقول: لقوم يسمعون هذا القول فيتدبرونه ويعقلونه، ويطيعون الله بما دلهم عليه"[٢].

قال ابن كثير:" {لقوم يسمعون}، أي : يفهمون الكلام ومعناه "[٣].

الفوائد:

١- دليل البعث والحياة الثانية إحياء الأرض بعد موتها فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات بعد فنائهم وبلاهم.

٢- بيان نعمة إنزال المطر: وهذه النعمة العظيمة من جملة الأدلة الدالة على وجوب إفراد الله بالعبادة.

القرآن

{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)} [النحل : ٦٦]

التفسير:

وإن لكم -أيها الناس- في الأنعام -وهي الإبل والبقر والغنم- لَعظة، فقد شاهدتم أننا نسقيكم من ضروعها لبنًا خارجًا من بين فَرْث -وهو ما في الكَرِش- وبين دم خالصًا من كل الشوائب، لذيذًا لا يَغَصُّ به مَن شَرِبَه.

قوله تعالى:{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً}[النحل : ٦٦]، أي:" وإن لكم -أيها الناس- في الأنعام -وهي الإبل والبقر والغنم- لَعظة"[٤].

قوله تعالى:{نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ} [النحل : ٦٦]، أي:" فقد شاهدتم أننا نسقيكم من ضروعها لبنًا خارجًا من بين فَرْث -وهو ما في الكَرِش- وبين دم خالصًا من كل الشوائب، لذيذًا لا يَغَصُّ به مَن شَرِبَه"[٥].

قال الطبري:" يقول: نسقيكم لبنا، نخرجه لكم من بين فرث ودم خالصا: يقول: خلص من مخالطة الدم والفرث، فلم يختلطا به، يسوغ لمن شربه فلا يغص به كما يغص الغاص ببعض ما يأكله من الأطعمة. وقيل: إنه لم يغص أحد باللبن قط"[٦].

قال يحيى بن سلام وابن أبي زمنين:" يقول: ففي هذا اللبن الذي أخرجه الله من بين فرث ودم آية لقوم يعقلون، فيعلمون أن الذي أخرجه من بين فرث ودم قادر على أن يحيي الموتى"[٧].

وفي قوله تعالى:{مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا} [النحل : ٦٦]، وجهان:

أحدهما : خالصاً من الفرث والدم[٨].

قال مقاتل:" من القذر"[٩].

---

(١) تفسير يحيى بن سلام:٧٢/١.
(٢) تفسير الطبري:٢٣٦/١٧.
(٣) تفسير ابن كثير:٥٨١/٤.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٥) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٦) تفسير الطبري:٢٤٠/١٧.
(٧) تفسير يحيى بن سلام:٧٢/١، وتفسير ابن أبي زمنين:٤٠٩/٢.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٩٧/٣.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٥/٢.

قال النحاس:" «الفرث»: ما يكون في الكرش يقال أفرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها والمعنى أن الطعام يكون فيه ما في الكرش ويكون منه الدم ثم يخلص اللبن من الدم"[١].
الثاني : أن المراد من الخالص هنا الأبيض ، حكاه الماوردي عن ابن بحر[٢]، ومنه قول النابغة[٣]:
يصونون أجساداً قديمها نعيمُها ... بخالصةِ الأردان خُضْر المناكب
فـ«خالصة الأردان»، أي: بيض الأكمام ، و«خضر المناكب»، يعني: من حمائل السيوف.
وفي قوله تعالى:{سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ} [النحل : ٦٦]، وجوه:
أحدها : أي سهلا لا يشجي به من شربه. قاله النحاس[٤].
الثاني: حلال للشاربين. ذكره الماوردي[٥].
الثالث : معناه: لا تعافه النفس[٦].
قال الماوردي :"وقيل : إنه لا يغص أحد باللبن"[٧].
قال مقاتل:" يسيغ من يشربه وهو لا يسيغ الفرث والدم"[٨].
عن ابن سيرين :"إن ابن عباس شرب لبنا فقال له مطرف: هل تمضمضت؟ فقال ما أباليه بالة، اسمح يسمح لك. فقال قائل: إنه يخرج من بين فرث ودم. فقال ابن عباس: قد قال الله: {لبنا خالصا سائغا للشاربين}"[٩].
الفوائد:
١- نعمة اللبن: فإنه مما أفاد الناس من البهائم ألبانها التي هي كاللحم في الفائدة والمنفعة، وقد جعل الله تعالى اللبن أول أقوات المولودين، فركب في الأم الحنو والشفقة على المولود، وأهمها العلوف عليه إلى أن يسعى عنها.
فإن اللبن نعمة لا توصف على هذه البشرية؛ لأن مصالح العباد كلهم قائمة عليه في معظم وجباتهم الغذائية وخاصة الصغار، وهذا اللبن يخرج من بطون الأنعام من بين الفرث والدم خالصًا بياضه وطعمه وحلاوته، فانظر كيف يكون الطعام في المعدة، فإذا نضج ذهب أقسامًا للدم والعظم واللحم، وقسم يصير لبنًا والباقي فضلات من روث وبول، ولا يمتزج قسم بآخر ولا يتغير به فيخرج اللبن خالصًا سائغًا للشاربين لا يغص به أحد.
فإن هذا اللبن الذي تدره ضروع الأنعام مستخلص من بين فرث ودم، والفرث ما يتبقى في الكرش بعد الهضم، وامتصاص الأمعاء للعصارة التي تتحول إلى دم، هذا الدم الذي يذهب إلى كل خلية في الجسم، فإذا صار إلى غدد اللبن في الضرع تحول إلى لبن ببديع صنع الله العجيب، الذي لا يدري أحد كيف يكون.
وعملية تحول الخلاصات الغذائية في الجسم إلى دم، وتغذية كل خلية بالمواد التي تحتاج إليها من مواد هذا الدم، عملية عجيبة فائقة العجب، وهي تتم في الجسم في كل ثانية، كما تتم عمليات الاحتراق، وفي كل لحظة تتم في هذا الجهاز الغريب عمليات هدم وبناء مستمرة، لا تكف حتى تفارق الروح الجسد. . . ، ولا يملك إنسان سوي الشعور أن يقف أمام هذه العمليات العجيبة لا تهتف كل ذرة فيه بتسبيح الخالق المبدع

(١) معاني القرآن:٨١/٤.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٩٧/٣.
(٣) ديوانه: ١٢.
(٤) انظر: معاني القرآن:٨١/٤.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٩٧/٣.
(٦) انظر: النكت والعيون:١٩٧/٣.
(٧)النكت والعيون:١٩٧/٣.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٥/٢.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٥٨):ص٢٢٨٨/٧.

لهذا الجهاز الإنساني، الذي لا يقاس إليه أعقد جهاز من صنع البشر، ولا إلى خلية واحدة من خلاياه التي لا تحصى.

ووراء الوصف العام لعمليات الامتصاص والتحول والاحتراق تفصيلات تدير العقل، وعمل الخلية الواحدة في الجسم في هذه العملية عجب لا ينقضي التأمل فيه.

وقد بقي هذا كله سرا إلى عهد قريب، وهذه الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من فرث ودم لم تكن معروفة لبشر، وما كان بشر في ذلك العهد ليتصورها فضلا على أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة ، وما يملك إنسان يحترم عقله أن يماري في هذا أو يجادل ، ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة يكفي وحده لإثبات الوحي من الله بهذا القرآن ، فالبشرية كلها كانت تجهل يومذاك هذه الحقيقة.

والقرآن - يعبر هذه الحقائق العلمية البحتة - يحمل أدلة الوحي من الله في خصائصه الأخرى لمن يدرك هذه الخصائص ويقدرها؛ ولكن ورود حقيقة واحدة على هذا النحو الدقيق يفحم المجادلين المتعنتين[(١)].

٢- نعمة اللحم: هذه النعمة خاتمة النعم في الأنعام، فرغم تعدد منافع الأنعام في حياتهم فهي كذلك يؤكل لحمها وهو أعلى أنواع الأطعمة، وعليه اعتماد كبير في حياة الناس، بل إن شعوبًا كثيرة تعيش على الرعي والتجارة بالأنعام اللاحمة.

ومما سبق يتبين لنا أن هذه النعم الكثيرة في الأنعام تستحق الشكر لله والاعتراف بوحدانيته وإفراده بالعبادة وإخلاص الطاعة له، وهذا هو المقصود الأعظم من التركيز بهذه النعم الجليلة.

القرآن

{وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)} [النحل : ٦٧]

التفسير:

ومِن نِعَمنا عليكم ما تأخذونه من ثمرات النخيل والأعناب، فتجعلونه خمرًا مُسْكِرًا -وهذا قبل تحريمها- وطعامًا طيبًا. إن فيما ذكر لَدليلا على قدرة الله لِقومٍ يعقلون البراهين فيعتبرون بها.

قوله تعالى:{وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} [النحل : ٦٧]، أي:" ومِن نِعَمنا عليكم ما تأخذونه من ثمرات النخيل والأعناب، فتجعلونه خمرًا مُسْكِرًا -وهذا قبل تحريمها- وطعامًا طيبًا "[(٢)].

وفي قوله تعالى:{وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} [النحل : ٦٧]، وجوه من التفسير:

أحدها : أن «السكر»: الخمر، و«الرزق الحسن»: التمر والرطب والزبيب . وأنزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حرمت من بعد بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة : ٩٠]. وهذا قول ابن مسعود[(٣)]، وابن عمر[(٤)]، وابن عباس[(٥)]، والحسن[(٦)]، ومجاهد[(٧)]، وقتادة[(١)]، وسعيد بن جبير[(٢)]، جبير[(٢)]، وابن ابي ليلى[(٣)]، والفراء[(٤)]، وابن قتيبة[(٥)]، ومن ذلك قول الأخطل[(٦)]:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن:٢١٨٠/٤.

(٢) التفسير الميسر:٢٧٤.

(٣) انظر: زاد المسير:٥٦٨/٢.

(٤) انظر: زاد المسير:٥٦٨/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري:٢٤١/١٧.

(٦) انظر: تفسير الطبري:٢٤٣/١٧.

(٧) انظر: تفسير الطبري:٢٤٣/١٧-٢٤٤.

بئس الصُّحاةُ وبئس الشَّرْبُ شَرْبُهُمُ ... إذا جَرَى فيهم المُزَّاءُ والسَّكَرُ
و«السكر»: الخمر ، و«المزاء»: نوع من النبيذ المسكر.

قال الفراء:" هي الخمر قبل أن تحرم. والرزق الحسن الزبيب والتمر وما أشبههما"[٧].

قال ابن عباس: "«السَّكَر»: ما حُرِّم من شرابه، والرزق الحسن: ما أحلّ من ثمرته"[٨].

قال ابن عباس:" «السكر»: الخل، و«النبيذ»: وما أشبهه، و«الرزق الحسن»: الثمر والزبيب وما أشبهه"[٩].

قال ابن عباس:" فحرم الله بعد ذلك السكر، مع تحريم الخمر لأنه منه، ثم قال: {ورزقا حسنا} فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ وأشباه ذلك، فأقره الله وجعله حلالا للمسلمين"[١٠].

قال ابن عباس:" السكر الحرام منه، الرزق الحسن زبيبه وخله وعنبه ومنافعه"[١١].

قال ابن عباس:" السكر النبيذ، والرزق الحسن، فنسختها هذه الآية إنما الخمر والميسر"[١٢].

واختلف من قال بهذا هل خرج مخرج الإباحة أو مخرج الخبر على وجهين :
أحدهما : أنه خرج مخرج الإباحة ثم نسخ. قاله قتادة[١٣].

عن قتادة :"{سَكَرًا}، قال: هي خمور الأعاجم، ونُسِخت في سورة المائدة، والرزق الحسن قال: ما تنتبذون وتُخَلِّلون وتأكلون"[١٤].

الثاني : أنه خرج مخرج الخبر أنهم يتخذون ذلك وإن لم يحل، قاله ابن عباس[١٥].

أخرج الطبري بسنده عن ابن عباس :"{وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا}" وذلك أن الناس كانوا يسمُّون الخمر سكرا، وكانوا يشربونها، قال ابن عباس مرّ رجال بوادي السكران الذي كانت قريش تجتمع فيه، إذا تَلَقَّوا مسافريهم إذا جاءوا من الشام، وانطلقوا معهم يشيعونهم حتى يبلغوا وادي السكران ثم يرجعوا منه، ثم سماها الله بعد ذلك الخمر حين حرمت، وقد كان ابن عباس يزعم أنها الخمر، وكان يزعم أن الحبشة يسمون الخلّ السَّكَر. قوله {وَرِزْقًا حَسَنًا}، يعني بذلك: الحلال التمر والزبيب، وما كان حلالا لا يسكر"[١٦].

قال أبو رزين:" نزل هذا وهم يشربون الخمر، فكان هذا قبل أن ينزل تحريم الخمر"[١٧].

قال الحسن:" ذكر الله نعمته في السكر قبل تحريم الخمر"[١٨].

---

(١) انظر: تفسير الطبري:٢٤٤/١٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٢٤٢/١٧.
(٣) انظر: زاد المسير:٥٦٨/٢.
(٤) معاني القرآن:١٠٩/٢.
(٥) انظر: غريب القرآن:٢٤٥.
(٦) ديوانه: ١١٠، و« المُزَّاءُ»: ضرب من الاشربة، الصحاج«مزز».
(٧) معاني القرآن:١٠٩/٢.
(٨) أخرجه الطبري:٢٤١/١٧.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٦١):ص٢٢٨٨/٧.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٦١):ص٢٢٨٨/٧. هكذا الترقيم بالمطبوع!
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٥٩):ص٢٢٨٨/٧.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٦٠):ص٢٢٨٨/٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:٢٤٤/١٧.
(١٤) أخرجه الطبري:٢٤٤/١٧.
(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٢٤٤/١٧، والنكت والعيون:١٩٨/٣.
(١٦) تفسير الطبري:٢٤٤/١٧.
(١٧) أخرجه الطبري:٢٤٣/١٧.
(١٨) أخرجه الطبري:٢٤٣/١٧.

القول الثاني : أن «السكر»: النبيذ المسكر، و«الرزق الحسن»: التمر والزبيب، قاله مجاهد(١)، والشعبي(٢)، والسدي(٣).

قال الطبري:" وعلى هذا التأويل الآية غير منسوخة بل حكمها ثابت. وهذا التأويل عندي هو أولى الأقوال بتأويل هذه الآية، وذلك أن السكر في كلام العرب على أحد أوجه أربعة: أحدها: ما أسكر من الشراب والثاني ما طعم من الطعام، والثالث السكون، والرابع المصدر ..."(٤).

قال الماوردي :"وجعلها أهل العراق دليلاً على إباحة النبيذ"(٥).

الثالث : أن «السكر»: الخل بلغة الحبشة، والرزق الحسن : الحلال، التمر والزبيب. قاله ابن عباس(٦).

وقال الضحاك:" هو الخل، بلغة اليمن"(٧).

الرابع : أن «السكر»: ما طعم من الطعام وحل شربه من ثمار النخيل والأعناب وهو الرزق الحسن، قاله أبو عبيدة(٨)، وأنشد قول الشاعر(٩):

جَعَلْتُ عَيْبَ الأكْرَمِينَ سَكَرَا

قال ابن قتيبة:" وقال أبو عبيدة: السكر: الطعم . ولست أعرف هذا في التفسير"(١٠).

قال القرطبي:" "أن الزجاج قال: قول أبي عبيدة هذا لا يعرف، وأهل التفسير على خلافه، ولا حجة له في البيت الذي أنشده؛ لأن معناه عند غيره:أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس"(١١).

قال الطبري:" معنى «السَّكَر» في هذا الموضع: هو كلّ ما حلّ شربه، مما يتخذ من ثمر النخل والكرم"(١٢).

قال القشيري في تفسير الآية:" من على العباد بما خلق لهم من فنون الانتفاع بثمرات النخيل كالتمر والرطب واليابس.. وغير ذلك، والرزق الحسن ما كان حلالا. ويقال هو ما أتاك من حيث لا تحتسب، ويقال هو الذي لا منة لمخلوق فيه ولا تبعة عليه. ويقال هو ما لا يعصى الله مكتسبه فى حال اكتسابه. ويقال هو ما لا ينسى الله فيه مكتسبه"(١٣).

قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [النحل : ٦٧]، أي:" إن فيما ذكر لَدليلا على قدرة الله لِقومٍ يعقلون البراهين فيعتبرون بها"(١٤).

---

(١) انظر: تفسير الطبري:٢٤٦/١٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٢٤٦/١٧.
(٣) انظر: النكتو العيون:١٩٨/٣.
(٤) تفسير الطبري:٢٤٦/١٧-٢٤٧.
(٥) النكت والعيون:١٩٨/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٢٤٤/١٧.
(٧) انظر: زاد المسير:٥٦٩/٢.
(٨) انظر: مجاز القرآن:٣٦٣/١.
(٩)نسبه في المجاز إلى جندل، وهوابن المثنى الطُّهوي، انظر: "مجازالقرآن" ١/ ٣٦٣، و"تفسير الطبري" ١٤/ ١٣٨، و"معاني القرآن" للنحاس ٤/ ٨٣، و"إعراب القرآن" للنحاس ٢/ ٢٣٨، و"تفسير الثعلبي" ٢/ ١٥٩ ب، والطوسي ٦/ ٤٠١، وابن الجوزي ٤/ ٤٦٤، و"القرطبي" ١٠/ ١٢٩.
وورد برواية: «جَعَلْتَ أعْرَاضَ الكِرَامِ سَكَرا» في "تهذيب اللغة" (سكر) ٢/ ١٧٢٠، و"تفسير الزمخشري" ٢/ ٣٣٥، والفخر الرازي ٢٠/ ٦٨، و"اللسان" (سكر) ٤/ ٢٠٤٨.
(١٠) عريب القرآن:٢٤٥.
(١١) تفسير القرطبي:١٢٩/١٠.
(١٢) تفسير الطبري:٢٤٧/١٧.
(١٣) لطائف الإشارات:٣٠٦/٢.
(١٤) التفسير الميسر:٢٧٤.

قال الطبري:" يقول: فيما إن وصفنا لكم من نعمنا التي آتيناكم أيها الناس من الأنعام والنخل والكرم، لدلالة واضحة وآية بينة لقوم يعقلون عن الله حججه، ويفهمون عنه مواعظه، فيتعظون بها"[١].

الفوائد:

١- بيان منة الله تعالى على العباد بذكر بعض أرزاقهم لهم ليشكروا الله على نعمه.
٢- بيان آيات الله تعالى الدالة على قدرته وعلمه وحكمته في خلق شراب الإنسان وغذائه ودوائه.
٣- فضيلة العقل والتعقل والفكر والتفكر.

القرآن

{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)} [النحل : ٦٨]

التفسير:

وألْهَمَ ربك -أيها النبي- النحل بأن اجعلي لك بيوتًا في الجبال، وفي الشجر، وفيما يبني الناس من البيوت والسُّقُف.

قوله تعالى:{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} [النحل : ٦٨]، أي:" وألْهَمَ ربك -أيها النبي- النحل"[٢].

وفي قوله تعالى:{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} [النحل : ٦٨]، ثلاثة أقوال:

أحدها : أن «الوحي إليها» هو إلهاماً ، قاله ابن عباس[٣]، ومجاهد[٤].

قال الفراء:" ألهمها ولم يأتها رسول"[٥].

قال معمر:" بلغني، في قوله: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}، قال: قذف في أنفسها"[٦].

الثاني : يعني أنه سخرها ، قاله ابن قتيبة[٧].

الثالث : أنه جعل ذلك في غرائزها بما يخفى مثله على غيرها ، قاله الحسن[٨].

قوله تعالى:{أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا} [النحل : ٦٨]، أي:" بأن اجعلي لك بيوتًا في الجبال"[٩].

قال الماوردي:" فذكر بيوتها لما ألهمها وأودعه في غرائزها من صحة القسمة وحسن المنعة"[١٠].

قوله تعالى:{وَمِنَ الشَّجَرِ} [النحل : ٦٨]، أي:" وفي الشجر"[١١].

قوله تعالى:{وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} [النحل : ٦٨]، أي:" وفيما يبني الناس من البيوت والسُّقُف"[١٢].

وفي قوله تعالى:{وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} [النحل : ٦٨]، وجهان:

أحدهما : أنه الكرم ، قاله ابن زيد[١٣].

---

(١) تفسير الطبري:٢٤٧/١٧.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٣) انظر: النكت والعيون:١٩٩/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٢٤٨/١٧.
(٥) معاني القرآن:١٠٩/٢.
(٦) أخرجه الطبري:٢٤٨/١٧.
(٧) انظر: غريب القرآن:٢٤٥.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٩٩/٣.
(٩) التفسير الميسر:٢٧٤.
(١٠) النكت والعيون:٣/!٩٩.
(١١) التفسير الميسر:٢٧٤.
(١٢) التفسير الميسر:٢٧٤.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:٢٤٨/١٧.

الثاني : ما يبنون من السقوف فرفعوها بالبناء، قاله أبو جعفر الطبري(١).
قال ابن قتيبة:" كل شيء عرش من كرم أو نبات أو سقف: فهو عرش ومعروش"(٢).

القرآن
{ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)} [النحل : ٦٩]
التفسير:
ثم كُلي مِن كل ثمرة تشتهينها، فاسلكي طرق ربك مذللة لك؛ لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر، وقد جعلها سهلة عليكِ، لا تضلي في العَوْد إليها وإن بَعُدَتْ. يخرج من بطون النحل عسل مختلف الألوان مِن بياض وصفرة وحمرة وغير ذلك، فيه شفاء للناس من الأمراض. إن فيما يصنعه النحل لَدلالة قوية على قدرة خالقها لقوم يتفكرون، فيعتبرون.
قوله تعالى:{ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} [النحل : ٦٩]، أي:" ثم كُلي مِن كل ثمرة تشتهينها"(٣).
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ثم كلي أيتها النحل من الثمرات"(٤).
قوله تعالى:{فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا} [النحل : ٦٩]، أي:" فاسلكي طرق ربك مذللة لك"(٥).
وفي قوله تعالى:{ذُلُلًا} [النحل : ٦٩]، وجوه من التفسير:
أحدها : معناه: طرقا مذللة لك، قاله ابن جرير الطبري(٦).
الثاني : مطيعة، قاله قتادة(٧).
الثالث : أي: طرقا لا يتوعر عليها مكان سلكته، قاله مجاهد(٨).
الرابع : أن «الذلل» من صفات النحل وأنها تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها، لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا ، قاله ابن زيد(٩).
قال ابن زيد:" «الذلول»: الذي يقاد ويذهب به حيث أراد صاحبه. قال: فهم يخرجون بالنحل وينتجعون بها ويذهبون وهي تتبعهم. وقرأ: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُم} [يس : ٧١-٧٢](١٠)، وذللناها لهم الآية"(١١).
وقال ابن قتيبة:" أي: منقادة بالتسخير"(١٢).
وروي عن السدي:" ذليلة لذلك"(١٣).
قوله تعالى:{يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ} [النحل : ٦٩]، أي:" يخرج من بطون النحل عسل مختلف الألوان مِن بياض وصفرة وحمرة وغير ذلك"(١٤).
قوله تعالى:{فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} [النحل : ٦٩]، أي:" فيه شفاء للناس من الأمراض"(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري:١٧/٢٤٨.
(٢) غريب القرآن:٢٤٦.
(٣) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٤) تفسير الطبري:١٧/٢٤٨.
(٥) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٧/٢٤٨.
(٧) انظر: تفسير الطبري:١٧/٢٤٩.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٧٢):ص٧/٢٢٩٠.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٧٣):ص٧/٢٢٩٠.
(١٠)[يس : ٧١].
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٧٣):ص٧/٢٢٩٠.
(١٢) غريب القرآن:٢٤٦.
(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٧٤):ص٧/٢٢٩٠.
(١٤) التفسير الميسر:٢٧٤.

وفي قوله تعالى:{فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} [النحل : ٦٩]، ثلاثة وجوه:
أحدها : أن ذلك عائد إلى «القرآن»، وأن في القرآن شفاء للناس، أي: بياناً للناس من الحلال والحرام، قاله ابن عباس-في احد قوليه-[٢]، والحسن[٣]، ومجاهد-في أحد قوليه-[٤]، وبه قال ابن كيسان[٥].

قال الزجاج:" وهذا القول إذا فسر علم أنه حسن، المعنى: فيما قصصنا عليكم من قصة النحل في القرآن وسائر القصص التي تدل على أن الله واحد شفاء للناس"[٦].

قال ابن العربي:" وهذا قول بعيد، ما أراه يصح عنهم؛ ولو صح نقلا لم يصح عقلا؛ فإن مساق الكلام كله للعسل، ليس للقرآن فيه ذكر؛ وكيف يرجع ضمير في كلام إلى ما لم يجر له ذكر فيه، وإن كان كله منه؟ ولكنه إنما يراعى مساق الكلام ومنحى القول، وقد حسم النبي في ذلك ذا الإشكال، وأزاح وجه الاحتمال حين أمر الذي يشتكي بطنه بشرب العسل، فلما أخبره بأن العسل لما سقاه إياه ما زاده إلا استطلاقا أمره النبي - ﷺ - بعود الشرب له، وقال له: «صدق الله، وكذب بطن أخيك»[٧]"[٨].

الثاني : أن ذلك عائد إلى الاعتبار بها أن فيه هدى للناس ، قاله الضحاك[٩].

الثالث : أن ذلك عائد إلى «العسل»، وأن في العسل شفاء للناس ، قاله ابن مسعود[١٠]، وابن عباس[١١]، ومجاهد-في قوله الآخر-[١٢]، وقتادة[١٣]، والسدي[١٤]، وبه قال الفراء[١٥]، والطبري[١٦]، والزجاج[١٧]، وحكاه القرطبي عن الجمهور[١٨].

قال الزجاج: وهذا القول"حسن جدا"[١٩].

قال ابن مسعود:" شفاءان: «العسل» شفاء من كلّ داء، و«القرآن» شفاء لما في الصدور"[٢٠].

وفي رواية اخرى عن ابن مسعود، قال: "عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن"[٢١].

قال السدي:" هذا العسل {فيه شفاء للناس}، يقول: فيه شفاء الأوجاع التي شفاؤها فيه"[١].

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٢) حكاه عنه القرطبي في تفسيره:١٣٦/١٠.
(٣) حكاه عنه القرطبي في تفسيره:١٣٦/١٠.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٢٥٠/١٧.
(٥) حكاه عنه القرطبي في تفسيره:١٣٦/١٠.
(٦) معاني القرآن:٢١١/٣.
(٧)أخرجه أحمد (٩٢/٣، رقم ١١٨٨٩) ، والبخارى (٢١٥٢/٥، رقم ٥٣٦٠) ومسلم (١٧٣٦/٤، رقم ٢٢١٧) ، والترمذى (٤٠٩/٤، رقم ٢٠٨٢) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضا: النسائى فى الكبرى (٣٧٠/٤، رقم ٧٥٦١).
(٨) أحكام القرآن:١٣٨/٣.
(٩) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:١٠٠/٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:٢٥٠/١٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري:٢٥٠/١٧.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٧٥):ص٢٢٩٠/٧.
(١٣) انظر:: تفسير الطبري:٢٥٠/١٧.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٧٤):ص٢٢٩٠/٧.
(١٥) انظر: معاني القرآن:١٠٩/٢.
(١٦) انظر: تفسير الطبري:٢٥٠/١٧.
(١٧) انظر: معاني القرآن:٢١١/٣.
(١٨) انظر: تفسير القرطبي:١٣٦/١٠.
(١٩) معاني القرآن:٢١١/٣.
(٢٠) أخرجه الطبري:٢٥٠/١٧.
(٢١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٧٧):ص٢٢٩٠/٧.

عن مجاهد:"{.. فيه شفاء للناس}، قال: هو العسل فيه الشفاء، وفي القرآن"(٢).

قال قتادة:"جاء رجل إلى النبيّ ﷺ، فذكر أن أخاه اشتكى بطنه، فقال النبيّ ﷺ: اذْهَبْ فاسْقِ أخاكَ عَسَلا ثم جاءه فقال: ما زاده إلا شدة، فقال النبيّ ﷺ: اذْهَبْ فاسْقِ أخاكَ عَسَلا فَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ وكَذَبَ بَطْنُ أخِيكَ، فسقاه، فكأنما نُشِط من عِقال"(٣).

قال الطبري:" قول قتادة، أولى بتأويل الآية، لأن قوله{فِيهِ} في سياق الخبر عن العسل فأن تكون الهاء من ذكر العسل، إذ كانت في سياق الخبر عنه أولى من غيره"(٤).

قال الرازي:" فإن قالوا: كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء ويهيج المرار؟

قلنا: إنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال، بل لما كان شفاء للبعض ومن بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء، والذي يدل على أنه شفاء في الجملة أنه قل معجون من المعاجين إلا وتمامه وكماله إنما يحصل بالعجن بالعسل، وأيضا فالأشربة المتخذة منه في الأمراض البلغمية عظيمة النفع"(٥).

قال ابن العربي:" كان ابن عمر لا يشكو قرحة ولا شيئا إلا جعل عليه عسلا حتى الدمل إذا خرج عليه طلاه بعسل، فقيل له في ذلك، فقال: أليس الله يقول: {فيه شفاء للناس} [النحل: ٦٩].

وروي أن عوف بن مالك الأشجعي مرض فقيل له: ألا نعالجك، قال: ائتوني بماء سماء، فإن الله يقول: {ونزلنا من السماء ماء مباركا} [ق: ٩] وأتوني بعسل، فإن الله يقول: {فيه شفاء للناس} [النحل: ٦٩]. وأتوني بزيت، فإن الله يقول: {من شجرة مباركة} [النور: ٣٥] فجاءوه بذلك كله، فخلطه جميعا ثم شربه فبرئ"(٦).

قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل : ٦٩]، أي:" إن فيما يصنعه النحل لَدلالة قوية على قدرة خالقها لقوم يتفكرون، فيعتبرون"(٧).

فوائد الآيتين:[٦٨-٦٩]:

١- بيان نعم الله في الكون، فالنحل خلقه الله ليقوم بذلك العمل الرائع، لينتج لنا ذلك الشراب المختلف الألوان، ليتغذى به البشر، ويكون لهم شفاء.
٢- بيان القوة الحكيمة العالمة المدبرة التي صنعت النحل وكل شيئ في إبداع رائع وتنظيم عظيم.
٣- بيان اتخاذ النحل البيوت حسب الظروف والبيئة.
٤- اختيار النحل الغذاء المناسب.
٥- الاهتداء إلى الطرق الموصلة إلى الغذاء.
٦- ما يخرج منها من الشهد المختلف الألوان لاختلاف الغذاء.
٧- فوائد الشهد الخارج منها. لذلك ختمت الآيتان بتنبيه قوي إلى أن هذه الآيات المعجزات لا يهتم بها إلا ذوو العقول الكبيرة والتفكير الناضج المثمر: {إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون}، أي: يتفكرون فيعتبرون ويستفيدون.
٨- التعرف على الله من خلال آياته الكونية سبيلٌ حثَّ عليه القرآن.
٩- ومن الفوائد: أن من أنواع الوحي بالمعنى اللغوي: الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)} [النحل: ٦٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٧٤):ص٧/٢٢٩٠.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٧٥):ص٧/٢٢٩٠.
(٣) أخرجه الطبري:١٧/٢٥٠.
(٤) تفسير الطبري:١٧/٢٥٠.
(٥) مفاتيح الغيب:٢٠/٢٣٨.
(٦) أحكام القرآن:٣/١٣٨.
(٧) التفسير الميسر:٢٧٤.

القرآن

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)} [النحل : ٧٠]

التفسير:

والله سجانه وتعالى خلقكم ثم يميتكم في نهاية أعماركم، ومنكم مَن يصير إلى أردأ العمر وهو الهرم، كما كان في طفولته لا يعلم شيئًا مما كان يعلمه، إن الله عليم قدير، أحاط علمه وقدرته بكل شيء، فالله الذي ردَّ الإنسان إلى هذه الحالة قادر على أن يميته، ثم يبعثه.

قوله تعالى:{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ} [النحل : ٧٠]، أي:" والله سجانه وتعالى خلقكم ثم يميتكم في نهاية أعماركم"[١].

قوله تعالى:{وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ} [النحل : ٧٠]، أي:" ومنكم مَن يصير إلى أردأ العمر وهو الهرم"[٢].

قال الفراء:" إلى أسفل العمر"[٣].

قال الزجاج:" أي: منكم من يكبر ويسن حتى يذهب عقله خرفا"[٤].

وفي قوله تعالى:{وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ} [النحل : ٧٠]، وجوه:

أحدها : أوضعه وأنقصة ، حكاه الماوردي عن الجمهور[٥].

الثاني : أنه الهرم ، قاله الكلبي[٦]، وابن قتيبة[٧].

قال ابن قتيبة:" لأن الهرم أسوأ العمر وشره"[٨].

الثالث : ثمانون سنة ، حكاه قطرب[٩].

الرابع : خمس وسبعون سنة ، قاله علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-[١٠].

روي عن السدي قوله: "{ومنكم من يرد إلى أرذل العمر}، الآية. قال أرذل العمر هو الخوف"[١١].

وفي الحديث:" اللهم إنى أعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من التردى وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك مدبرا وأعوذ بك أن أموت لديغا"[١٢].

وفي الحديث:" اللهم إنى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر"[١٣].

قال القشيري:" يقال: أرذل العمر حب المرء للرياسة، ويقال: أن يرد إلى الخذلان بعد التوفيق فهو يكون فى أول أحوال عمره مطيعا ثم يصير فى آخر عمره عاصيا"[١٤].

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٣) معاني القرآن:٢١٦/٢.
(٤) معاني القرآن:٢١١/٣.
(٥) انظر: النكت والعيون:٢٠٠/٣.
(٦) انظر: النكت والعيون:٢٠٠/٣.
(٧) انظر: غريب القرآن:٢٤٦.
(٨) غريب القرآن:٢٤٦.
(٩) انظر: النكت والعيون:٢٠٠/٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:٢٥١/١٧.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٧٧):ص٢٢٩٠/٧.
(١٢)أخرجه أحمد (٤٢٧/٣، رقم ١٥٥٦٢) ، وأبو داود (٩٢/٢، رقم ١٥٥٢) ، والنسائى (٢٨٣/٨، رقم ٥٥٣٢) ، والطبرانى (١٧٠/١٩، رقم ٣٨١).
(١٣)أخرجه أحمد (١٨٣/١، رقم ١٥٨٥) ، والبخارى (٢٣٤٢/٥، رقم ٦٠٠٩) ، وابن أبى شيبة (١٨/٦، رقم ٢٩١٣٠) وابن حبان (٣٧١/٥، رقم ٢٠٢٤) . وأخرجه أيضا: البزار (٣٤٣/٣، رقم ١١٤٤).
(١٤) لطائف الإشارات:٣٠٧/٢.

قوله تعالى:{لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا} [النحل : ٧٠]، أي:" لينسى ما يعلم فيشبه الطفل في نقصان القوة والعقل"[١].

قال الفراء:" يقول: لكيلا يعقل من بعد عقله الأول {شيئا}"[٢].

قال ابن قتيبة:" أي: حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئا لشدة هرمه"[٣].

قال الطبري:" يقول: لئلا يعلم شيئا بعد علم كان يعلمه في شبابه، فذهب ذلك بالكبر ونسي، فلا يعلم منه شيئا، وانسلخ من عقله، فصار من بعد عقل كان له لا يعقل شيئا"[٤].

قال الزجاج:" فيصير بعد أن كان عالما جاهلا، والمعنى - والله أعلم -{لكيلا يعلم بعد علم شيئا}، أي: ليريكم من قدرته أنه كما قدر على إماتته وإحيائه أنه قادر على نقله من العلم إلى الجهل.

وأعلم - عز وجل - أن الموت والحياة بيده، وأن الإنسان قد يتغذى بالأغذية التي يتعمد فيها الغاية في الصلاح والبقاء، فلا يقدر أن يزيد في مقدار مدته شيئا"[٥].

قال القرطبي:" أي: يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور لفرط الكبر. وقد قيل: هذا لا يكون للمؤمن، لأن المؤمن لا ينزع عنه علمه، وقيل: المعنى لكيلا يعمل بعد علم شيئا، فعبر عن العمل بالعلم لافتقاره إليه، لأن تأثير الكبر في عمله أبلغ من تأثيره في علمه. والمعنى المقصود الاحتجاج على منكري البعث، أي الذي رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه"[٦].

قال عكرمة:" من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، ثم قرأ: {لكي لا يعلم بعد علم شيئا}"[٧].

قال القشيري:" خلق الإنسان فى أحسن تركيب، وأملح ترتيب، فى الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة، والنور والضياء، والفهم والذكاء. ورزقه من العقل والتفكر، والعلم والتبصر، وفنون المناقب التي خص بها من الرأى والتدبير، ثم فى آخر عمره يجعله إلى أرذل العمر مردودا، ويرى فى كل يوم ألما جديدا"[٨].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [النحل : ٧٠]، أي:" عليمٌ بتدبير خلقه، قديرٌ على ما يريده"[٩].

قال الطبري:" يقول: إن الله لا ينسى، ولا يتغير علمه، عليم بكلّ ما كان ويكون، قدير على ما شاء لا يجهل شيئا، ولا يُعجزه شيء أراده"[١٠].

الفوائد:

١- تقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر الدال عليه القدرة والعلم الإلهيين، إذ من خلق وأمات لا يستنكر منه أن يخلق مرة أخرى ولا يميت.

٢- اثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما:«العليم»، «القدير»:

- فـ «العليم»:هو :المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[١١].
- و«القدير»: إذ "وصف الله نفسه بأنه قادر على كل شيء، أراده: لا يعترضه عجز ولا فتور"[١].

---

(١) صفوة التفاسير:١٢٣/٢.
(٢) معاني القرآن:٢١٦/٢.
(٣) غريب القرآن:٢٤٦.
(٤) تفسير الطبري:٢٥١/١٧.
(٥) معاني القرآن:٢١١/٣-٢١٤.
(٦) تفسير القرطبي:١٤١/١٠.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٧٨):ص٢٢٩٠/٧.
(٨) لطائف الإشارات:٣٠٧/٢.
(٩) صفوة التفاسير:١٢٣/٢.
(١٠) تفسير الطبري:٢٥١/١٧.
(١١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

قال السعدي:أي:" كامل القدرة بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، بقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وبقدرته يقلب القلوب ويصرفها على مايشاء ويريد"(٢).

روي البيهقي عن عبد العزيز قال الحليمي، قال: "و«القدير»: التام القدرة لا يلابس قدرته عجز بوجه"(٣).

القرآن

{وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١)} [النحل : ٧١]

التفسير:

والله فَضَّل بعضكم على بعض فيما أعطاكم في الدنيا من الرزق، فمنكم غني ومنكم فقير، ومنكم مالك ومنكم مملوك، فلا يعطي المالكون مملوكيهم مما أعطاهم الله ما يصيرون به شركاء لهم متساوين معهم في المال، فإذا لم يرضوا بذلك لأنفسهم، فلماذا رضوا أن يجعلوا لله شركاء من عبيده؟ إن هذا لَمن أعظم الظلم والجحود لِنعم الله عز وجل.

قوله تعالى:{وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ} [النحل : ٧١]، أي:" والله فَضَّل بعضكم على بعض فيما أعطاكم في الدنيا من الرزق، فمنكم غني ومنكم فقير، ومنكم مالك ومنكم مملوك"(٤).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: والله أيها الناس فضل بعضكم على بعض في الرزق الذي رزقكم في الدنيا"(٥).

وفي قوله تعالى:{وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ} [النحل : ٧١]،ثلاثة وجوه(٦):

أحدها : أنه أغنى وأفقر ، ووسّع وضيّق .

الثاني : في القناعة والرغبة .

الثالث : في العلم والجهل . قال الفضيل بن عياض : أجلُّ ما رزق الإنسان معرفة تدله على ربه ، وعقل يدله على رشده .

وفي التفضيل وجهان(٧):

أحدهما : أنه فضل السادة على العبيد ، قاله ابن قتيبة ومن يرى أن التفضيل في المال(٨).

الثاني : أنه فضل الأحرار بعضهم على بعض ، حكاه الماوردي عن الجمهور(٩).

قال الزمخشري: المعنى:" "جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم"(١٠).

---

(١) شأن الدعاء للخطابي:٨٥.
(٢) تفسير أسماء الله الحسنى:٢٢٣.
(٣) الاسما والصفات:١١١/٢.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٥) تفسير الطبري:٢٥١/١٧.
(٦) انظر: النكت والعيون:٢٠١/٣.
(٧) انظر: النكت والعيون:٢٠١/٣.
(٨) انظر: النكت والعيون:٢٠١/٣.
(٩) انظر: النكت والعيون:٢٠١/٣.
(١٠) الكشاف:٦٢٠/٢.

قوله تعالى:{فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ} [النحل : ٧١]، أي:" ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى يستووا في ذلك مع عبيدهم"(١).

قال الطبري:" فما الذين فضلهم الله على غيرهم بما رزقهم بمشركي مماليكهم فيما رزقهم من الأموال والأزواج، حتى يستووا هم في ذلك وعبيدهم، يقول تعالى ذكره: فهم لا يرضون بأن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتهم سواء، وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني، وهذا مثل ضربه الله تعالى ذكره للمشركين بالله. وقيل: إنما عنى بذلك الذين قالوا: إن المسيح ابن الله من النصارى"(٢).

قال الزمخشري: المعنى:أي: "فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم، حتى تتساووا في الملبس والمطعم، كما يحكى عن أبى ذر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنما هم إخوانكم، فاكسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تطعمون»(٣)، فما رئي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت"(٤).

قال الفراء:" هذا مثل ضرب الله للذين قالوا: إن عيسى ابنه تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، فقال: أنتم لا تشركون عبيدكم فيما ملكتم فتكونون سواء فيه، فكيف جعلتم عبده شريكا له تبارك وتعالى"(٥).

قال ابن عباس:" يقول: لم يكونوا يشركون عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟"(٦).

وقال ابن عباس: "هذه الآية في شأن عيسى ابن مريم، يعني بذلك نفسه، إنما عيسى عبد، فيقول الله: والله ما تشركون عبيدكم في الذي لكم فتكونوا أنتم وهم سواء، فكيف ترضون لي بما لا ترضون لأنفسكم"(٧).

وفي قوله تعالى:{فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ} [النحل : ٧١]، وجهان:

أحدهما : أن عبيدهم لما لم يشركوهم في أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعالى في ملكه وسلطانه، قاله ابن عباس(٨)، ومجاهد(٩)، وقتادة(١٠).

قال مجاهد:" مثل آلهة الباطل مع الله تعالى ذكره"(١١).

قال الماوردي:"وفي هذا دليل على أن العبد لا يملك"(١٢).

الثاني : أنهم وعبيدهم سواء في أن الله تعالى رزق جميعهم ، وأنه لا يقدر أحد على رزق عبده إلا أن يرزقه الله تعالى إياه كما لا يقدر أن يرزق نفسه ، حكاه ابن عيسى(١).

---

(١) صفوة التفاسير:١٢٣/٢.

(٢) تفسير الطبري:٢٥١/١٧-٢٥٢.

(٣) الحديث« أرقاءكم أرقاءكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون وإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم».

أخرجه أحمد (١٦٨/٥، رقم ٢١٥٢١) ، وأبو داود (٣٤٠/٤، رقم ٥١٥٧) ، والبيهقى (٧/٨، رقم ١٥٥٥٦) . وأخرجه أيضا: البزار (٣٥٧/٩، رقم ٣٩٢٣) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٧١/٦، رقم ٨٥٦٠) .

(٤) الكشاف:٦٢٠/٢.

(٥) معاني القرآن:١١٠/٢.

(٦) أخرجه الطبري:٢٥٢/١٧.

(٧) أخرجه الطبري:٢٥٢/١٧.

(٨) انظر: تفسير الطبري:٢٥٢/١٧.

(٩) انظر: النكت والعيون:٢٠١/٣.

(١٠) انظر: تفسير الطبري:٢٥٢/١٧-٢٥٣.

(١١) أخرجه الطبري:٢٥٢/١٧.

(١٢) النكت والعيون:٢٠١/٣.

قوله تعالى:{أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [النحل : ٧١]، أي:" أيشركون معه غيره وهو المنعم المتفضل عليهم؟"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أفبنعمة الله التي أنعمها على هؤلاء المشركين من الرزق الذي رزقهم في الدنيا يجحدون بإشراكهم غير الله من خلقه في، سلطانه وملكه؟"(٣).

قال الزمخشري: فجعل ذلك من جملة جحود النعمة"(٤).

الفوائد:

١- قطع دابر الشرك في المثل الذي حوته الآية: {والله فضل بعضكم على بعض في الرزق} .

٢- عدم الاعتراض على أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين والرضاء بقضائه وقسمته بين عباده.

٣- أن الله سبحانه متحكم في أرزاق عباده فيجعل من يشاء غنيا كثير الرزق، ويقتر على آخرين، وله في ذلك حكم بالغة. قال تعالى وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ [النحل: ٧١]، وقال سبحانه إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا [الإسراء: ٣٠].

قال ابن كثير في موضع آخر في تفسير قوله تعالى : {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [الإسراء : ٣٠] ، قال :"إخبار أنه تعالى هو الرزاق ، القابض الباسط ، المتصرف في خلقه بما يشاء ، فيغني من يشاء ، ويفقر من يشاء ، بما له في ذلك من الحكمة ؛ ولهذا قال : { إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } أي : خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر، كما جاء في الحديث : «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه»(٥)"(٦).

٤- إن الله تبارك وتعالى فاوت بين الناس في العقول والأخلاق والعلوم والقوى والألوان والأشكال والأعمار والصحة والأسقام وغير ذلك ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ومن يشكره ممن يكفره.

القرآن

---

(١) انظر: النكت والعيون:٢٠١/٣.
(٢) صفوة التفاسير:١٢٣/٢.
(٣) تفسير الطبري:٢٥٢/١٧.
(٤) الكشاف:٦٢٠/٢.
(٥) الحديث« يقول الله من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وإنى لأسرع شيئا إلى نصرة أوليائى إنى لأغضب لهم كما يغضب الليث الحرب وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض روح عبدى المؤمن وهو يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وما تعبد لى عبدى المؤمن بمثل الزهد فى الدنيا ولا تقرب إلى عبدى المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا إن سألنى أعطيته وإن دعانى استجبت له وإن من عبادى المؤمنين لمن يسألنى الباب من العبادة فأكفه عنه ولو أعطيته إياه لدخله العجب وأفسده ذلك وإن من عبادى المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك وإن من عبادى المؤمنين لمن لا يصلح له إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك وإن من عبادى المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك إنى أدبر عبادى بعلمى بقلوبهم إنى عليم خبير».
أخرجه ابن أبى الدنيا فى الأولياء (ص ٩، رقم ١) ، والحكيم (٢٣٢/٢) ، وأبو نعيم فى الحلية (٣١٨/٨) ، وابن عساكر
(٩٥/٧) .
ومن غريب الحديث: "الليث الحرب": أى الأسد الغضبان.
(٦) تفسير ابن كثير:٧١/٥.

{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)} [النحل : ٧٢]

التفسير:

والله سبحانه جعل مِن جنسكم أزواجا؛ لتستريح نفوسكم معهن، وجعل لكم منهن الأبناء ومِن نسلهنَّ الأحفاد، ورزقكم من الأطعمة الطيبة من الثمار والحبوب واللحوم وغير ذلك. أفبالباطل من ألوهية شركائهم يؤمنون، وبنعم الله التي لا تحصى يجحدون، ولا يشكرون له بإفراده جل وعلا بالعبادة؟

قوله تعالى:{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} [النحل : ٧٢]، أي:" والله سبحانه جعل مِن جنسكم وشكلكم أزواجا ليحصل الائتلاف والمودة والرحمة بينكم"[١].

قال قتادة:" أي: والله خلق آدم، ثم خلق زوجته منه"[٢].

وفي قوله تعالى:{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} [النحل : ٧٢]، وجهان:

أحدهما : يعني: جعل لكم من جنسكم مثلكم ، فضرب المثل من أنفسكم، قاله ابن بحر[٣].

الثاني : يعني آدم خلق منه حوّاء ، حكاه الماوردي عن الأكثرين[٤].

قوله تعالى:{وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً} [النحل : ٧٢]، أي:" وجعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد وأولاد الأولاد"[٥].

وفي معنى «الحفدة» خمسة أقوال :

أحدها : أنهم الأصهار أختان الرجل على بناته، قاله ابن مسعود[٦]، وابن عباس[٧]، وأبو الضحى[٨]، وسعيد بن جبير[٩]، وإبراهيم[١٠]، ومنه قول الشاعر[١١]:

ولو أن نفسي طاوعتني لأصبحت ...لها حَفَدٌ مما يُعَدّث كثيرُ

ولكنها نفس عليَّ أبيّة ... عَيُوفٌ لأَصهارِ اللئام قَذور

قال القاسم بن سلام:" «الحفدة»: الأختان بلغة سعد العشيرة"[١٢].

الثاني : أنهم الولد وولد الولد، قاله ابن عباس[١٣]، والضحاك[١٤]، وابن زيد[١٥].

قال الضحاك:" يعني: ولد الرجل يحفِدونه ويخدُمونه، وكانت العرب إنما تخدمهم أوّلادهم الذكور"[١٦].

الثالث : أنهم بنو امرأة الرجل من غيره ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً[١٧].

الرابع : أنهم الأعوان، قاله ابن عباس-في إحدى الروايات-[١٨]، والحسن[١]، وأبو مالك[٢]، وعكرمة[٣].

---

(١) انظر: صفوة التفاسير:١٢٤/٢، والتفسير الميسر:٢٧٤.
(٢) أخرجه الطبري:٢٥٣/١٧.
(٣) انظر: النكت والعيون:٢٠٢/٣.
(٤) انظر: النكت والعيون:٢٠٢/٣.
(٥) صفوة التفاسير:١٢٤/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٢٥٣/١٧-٢٥٤.
(٧) انظر: تفسير الطبري:٢٥٤/١٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٢٥٤/١٧.
(٩) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:٢٠٢/٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:٢٥٤/١٧.
(١١)ذكره ابن منظور في «اللسان» مادة «حفد» . ولم ينسبه لقائل.
(١٢) لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم:٧.
(١٣)انظر: تفسير الطبري:٢٥٧/١٧ .
(١٤) انظر: تفسير الطبري:٢٥٧/١٧.
(١٥)انظر: تفسير الطبري:٢٥٧/١٧ .
(١٦) اخرجه الطبري:٢٥٧/١٧.
(١٧) انظر: تفسير الطبري:٢٥٧/١٧.
(١٨) انظر: تفسير الطبري:٢٥٥/١٧.

قال ابن عباس: "من أعانك فقد حَفَدك، أما سمعت قوله الشاعر[٤]:
حَفَدَ الوَلائِدُ حَوْلَهُنَّ وأُسْلِمَتْ ... بأكُفِّهِنَّ أزِمَّةُ الأجْمال"[٥].
قال الحسن:" مَنْ أعانك من أهل وخادم فقد حفدك"[٦].
قال عكرمة:" الحفدة: من خدمك من ولدك وولد ولدك"[٧].
الخامس : أنهم الخدم، قاله الحسن أيضا[٨]، ومجاهد[٩]، وقتادة[١٠]، وطاووس[١١]، ومنه قول جميل[١٢]:
حَفَدَ الوَلائِدُ حَوْلَهُنَّ وأُسْلِمَتْ ... بأكُفِّهِنَّ أزِمَّةُ الأجْمال
وقال طرفة بن العبد[١٣]:
يَحْفِدون الضيفَ في أبياتِهِمْ ... كَرَمًا ذلك منهم غيرَ ذُلّ
وأصل «الحفد» الإسراع، و«الحفدة» جمع «حافد»، و«الحافد» هو المسرع في العمل، ومنه قولهم في «القنوت»: وإليك نسعى ونحفد، أي: نسرع إلى العمل بطاعتك[١٤]، منه قول الراعي[١٥]:
كَلَّفْتُ مَجْهُولَهَا نُوقا يَمَانِيَّةً ... إذا الحُدَاةُ على أكْسائها حَفَدُوا
وقال مقاتل:" يعني: بالـ«بنين»: الصغار، و«الحفدة» الكبار، يحفدون أباهم بالخدمة وذلك أنهم كانوا في الجاهلية يخدمهم أولادهم"[١٦].
قال الواحدي:" «الحفدة» في اللغة: الأعوان والخدم، ثم هؤلاء الأعوان مَنْ هم على ما ذكره المفسرون، والأولى بأن يفسر بأعوان حصلوا للرجل نْ قِبَل المرأة؛ لأن الله تعالى قال. {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً} وأعوان الرجل لا من قِبَل امرأته لا يكونون ممن عناهم الله بقوله هاهنا: {وَحَفَدَةً}"[١٧].

---

(١) انظر: تفسير الطبري:٢٥٥/١٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٢٥٦/١٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري:٢٥٥/١٧.
(٤)استشهد بالبيت أبو عبيدة في مجاز القرآن: (١: ٣٦٤) ونسبه لجميل بن عبد الله بن معمر العذري. قال عند قوله تعالى: (بنين وحفدة) : أعواناً وخداما، قال جميل: "حفد الولائد ... الخ" واحدهم حافد مخرج كامل. والجميع: كملة وقال في (اللسان: حفد) يحفد بالكسر حفدا، وحفدانا. واحتفد: خف في العمل وأسرع. وحفد يحفد حفدا: خدم. الأزهري: الحفد في الخدمة والعمل: الخفة، وأنشد (حفد الولائد ...) البيت..
(٥) أخرجه الطبري:٢٥٥/١٧.
(٦) أخرجه الطبري:٢٥٥/١٧.
(٧) أخرجه الطبري:٢٥٦/١٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٢٥٦/١٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٢٥٦/١٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:٢٥٦/١٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري:٢٥٦/١٧.
(١٢)البيت فى مجاز القرآن:٣٦٤/١، وتفسير الطبري ١٧/ ٢٥٥، ٨٩ والجمهرة ٢/ ١٢٣، والقرطبي ١٠/ ١٤٣، ١٤٤ واللسان والتاج (حفد) وشواهد الكشاف ٢٣٧. ونسبه ابن دريد إلى الفرزدق.
(١٣)ليس في ديوانه، وورد في "تفسير الماوردي" ٣/ ٢٠٢، وورد غير منسوب في "تفسير أبي حيان" ٥/ ٥٠٠، و"الدر المصون" ٧/ ٢٦٥، و"تفسير الألوسي" ١٤/ ١٩٠.
(١٤) انظر تفسير الطبري:٢٥٧/١٧-٢٥٨، والنكت والعيون:٢٠٢/٣.
(١٥) ديوانه:٥٨، وتفسير الطبري:٢٥٨/١٧، والنكت والعيون:٢٠٢/٣-٢٠٣، و منتهى الطلب/ محمد بن المبارك:٣٧/٦، ونسبه القرطبي: إلى الأعشى ولم أقف عليه في ديوانه.١٤٣/١٠.
اكسائها. وهو جمع كسي، وهو مؤخر العجز. انظر: اللسان: "كسا".
(١٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٧/٢.
(١٧) التفسيرالبسيط:١٣٩/١٣-١٤٠.

ولم يرتض الطبري تخصيص المقصود بالحفدة بأحد الأقوال الواردة؛ لأن المنّة تحصل بكل ذلك، لذلك قال: "فكل الأقوال التي ذكرنا عمن ذكرنا وجه في الصحة، ومَخْرج في التأويل"(١)، وهو الصحيح-الله أعلم-.

قوله تعالى:{وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [النحل : ٧٢]، أي:" رزقكم من أنواع اللذائذ من الثمار والحبوب والحيوان"(٢).

قال الطبري:" يقول: ورزقكم من حلال المعاش والأرزاق والأقوات"(٣).

قوله تعالى:{أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} [النحل : ٧٢]، أي:" أفبالباطل من ألوهية شركائهم يؤمنون، وبنعم الله التي لا تحصى يجحدون، ولا يشكرون له بإفراده جل وعلا بالعبادة؟"(٤).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يحرّم عليهم أولياء الشيطان من البحائر والسوائب والوصائل، فيصدّق هؤلاء المشركون بالله، وبما أحلّ الله لهم من ذلك، وأنعم عليهم بإحلاله، يكفرون، يقول: ينكرون تحليله، ويجحدون أن يكون الله أحله"(٥).

الفوائد:

١- أن حصول الأولاد الأسوياء في خلقتهم، الصالحين في دينهم؛ من أكبر النعم.
٢- وجوب شكر الله تعالى على نعمه وذلك بذكره وشكره وإخلاص ذلك له.
٣- حقوق الأولاد والأهلين، وهو قيام الرجل على ولده وأهله، وتعليمه إياهم من أمور دينهم ما يحتاجون إليه. فأما الولد فالأصل فيه أنه نعمة من الله وموهبة وكرامة، قال الله عز وجل: {والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة}، وقال: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} [الشورى : ٤٩]. فامتن علينا بأن أخرج من أصلابنا أمثالنا، وأخبر أن الأنثى من الأولاد هبة وعطية كالذكر منهم.
١- قبح كفر النعم وتجاهل المنعم بترك شكره عليها.
٢- على افتراض إمكان زواج الأنسي بجنية فإن ذلك لا يجوز شرعا، لمفهوم قوله تعالى: {والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً} [النحل:٧٢] وقوله سبحانه: {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً} [الروم:٢١].

قال السيوطي:" فإن قلت: ما عندك من ذلك. قلت: الذي أعتقده التحريم، لوجوه: منها: ما تقدم من الآيتين، المتقدميتين: المتقدمتين: ثم قال: فروي المنع منه عن الحسن البصري، وقتادة، والحكم بن عيينة، وإسحاق بن راهويه. وقال الجمال السجستاني من الحنفية في كتاب (منية المغني عن الفتاوى السراجية) لا يجوز المناكحة بين الإنس والجن، وإنسان الماء لاختلاف الجنس. وذكر وجوهاً أخرى للمنع منها: أن النكاح شرع للألفة، والسكون، والاستئناس، والمودة، وذلك مفقود في الجن، ومنها: أنه لم يرد الإذن من الشرع في ذلك، فإن الله تعالى قال: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) [النساء:٣] والنساء اسم لإناث بني آدم خاصة، فبقي ما عداهن على التحريم، لأن الأصل في الأبضاع الحرمة حتى يرد دليل على الحل. ومنها: أنه قد منع من نكاح الحر للأمة، لما يحصل للولد من الضرر بالإرقاق، ولا شك أن الضرر بكونه من جنية وفيه شائبة من الجن خَلقاً وخُلقاً، وله بهم اتصال ومخالطة أشد من ضرر الإرقاق الذي هو مرجو الزوال بكثير، ثم قال: وإذا تقرر المنع، فالمنع من نكاح الجني الأنسية أولى وأحرى"(٦).

---

(١) تفسير الطبري:٢٥٩/١٧.
(٢) صفوة التفاسير:١٢٤/٢.
(٣) تفسير الطبري:٢٥٩/١٧.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٥) تفسير الطبري:٢٥٩/١٧.
(٦) الاشباه والنظائر:٢٥٧. ملخصا

وإنما منع زواج الجني من الإنسية لما تقدم، ولئلا تقول المرأة إذا وجدت حاملاً إنها حامل من زوجها الجني فيكثر الفساد. وقال الماوردي بخصوص المناكحة بين بني آدم والجن:"وهذا القول بأن أمها جنية (أي أم بلقيس على حد زعم البعض) مستنكر في العقول لتباين الجنسين واختلاف الطبعين وتفاوت الجسمين، لأن الآدمي جسماني ، والجني روحاني ، وخلق الله الآدمي من صلصال كالفخار وخلق الجني من مارج من نار ، ويمتنع الامتزاج من هذا التباين ويستحيل التناسل مع هذا الاختلاف، لكنه قيل فذكرته حاكياً"[(١)].

فيمكن القول إن زواج الإنسي بالجنية على فرض إمكانية وقوعه - وهو مستبعد جداً - يترتب عليه مفاسد كثيرة، لقدرة الجنية على التشكل بصورة أخرى، وكيف يثق أن التي تخالطه هي زوجته حقاً، ربما كانت غيرها، ولأن الزواج لا بد فيه من ولي وشاهدي عدل كشرط صحة للنكاح، ولا بد من خلو المرأة من الموانع، وربما تعذر تحقق كل ذلك لاختلاف طبيعة الجن عن الإنس، إلى غير ذلك من الأمور-والله أعلم-[(٢)].

٣- في قوله تعالى: {والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا} رد على العرب التي كانت تعتقد أنها كانت تزوج الجن وتباضعها. حتى روي أن عمرو بن يربوع بن حنظلة بن مالك تزوج سعلاة منهم، وكان يخبؤها عن سنا البرق لئلا تراه فتنفر. فلما كان في بعض الليالي لمع البرق وعاينته السعلاة، فقالت: عمروا ونفرت. فلم يرها أبدا. ولذا قال علباء بن أرقم يهجو أولاد عمرو المذكور[(٣)]:

ألا لحى الله بني السعلاة ... عمرو بن يربوع لئام النات
ليسوا بأعفاف ولا أكيات

وقوله «النات» أصله «الناس» أبدلت فيه السين تاء. وكذلك قوله «أكيات» أصله «أكياس» جمع كيس، أبدلت فيه السين تاء أيضا. وقال المعري يصف مراكب إبل متغربة عن الأوطان، إذا رأت لمعان البرق تشتاق إلى أوطانها. فزعم أنه يستر عنها البرق لئلا يشوقها إلى أوطانها كما كان عمرو يستره عن سعلاته[(٤)]:

إذا لاح إيماض سترت وجوهها ... كأني عمرو والمطي سعالي

و«السعلاة»: عجوز الجن. وقد روي من حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «أحد أبوي بلقيس كان جنيا»[(٥)(٦)].

القرآن

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)} [النحل : ٧٣]

التفسير:

ويعبد المشركون أصنامًا لا تملك أن تعطيهم شيئًا من الرزق من السماء كالمطر، ولا من الأرض كالزرع، فهم لا يملكون شيئًا، ولا يتأتى منهم أن يملكوه؛ لأنهم لا يقدرون.[(٧)].

---

(١)النكت والعيون :٤/ ٢١٦.

(٢) انظر: فتاوى الشبكة الإسلامية (١٣/ ٥٩٧٩):زواج الإنسي من جنية [تَارِيخُ الْفَتْوَى] ٢٢ محرم ١٤٢٢.

(٣) ذكره المناوي في الجموع البهية:٤١٢/٢.

(٤) ذكره المناوي في الجموع البهية:٤١٢/٢.

(٥)الحديث ضعفه الشيخ الألباني - رحمه الله - في الضعيفة (١٨١٨).

قال صاحب الجامع الصغير: أخرجه أبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه في التفسير، وابن عساكر: وقال شارحه المناوي: في إسناده سعيد بن بشر قال في الميزان عن ابن معين: ضعيف. وعن ابن مسهر: لم يكن ببلدنا أحفظ منه، وهو ضعيف منكر الحديث، ثم ساق من مناكيره هذا الخبر. وبشير بن نهيك أورده الذهبي في الضعفاء. وقال أبو حاتم: لا يحتج به. ووثقه النسائي. انتهى.

(٦) انظر: الجموع البهية، للمناوي:٤١/٢-٤١٢.

(٧) التفسير الميسر:٢٧٥.

قوله تعالى:{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا} [النحل : ٧٣]، أي:" ويعبد المشركون أصنامًا لا تملك أن تعطيهم شيئًا من الرزق من السماء كالمطر، ولا من الأرض كالزرع، فهم لا يملكون شيئًا"(١).

قال البغوي:" {رزقا من السماوات} يعني: المطر، {والأرض} يعني: النبات"(٢).

قال الأخفش:" فجعل «الشيء» بدلا من «الرزق» وهو في معنى : لا يملكون رزقا قليلا ولا كثيرا"(٣).

قال قتادة:" هذه الأوثان التي تعبد من دون الله، لا تملك لمن يعبدها رزقا ولا ضرا ولا نفعا ولا حياة ولا نشورا فلا تضربوا لله الأمثال فإنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد"(٤).

قوله تعالى:{وَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [النحل : ٧٣]، أي:" ولا يتأتى منهم أن يملكوه؛ لأنهم لا يقدرون"(٥).

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما معنى قوله :{ولا يستطيعون}، بعد قوله: {لا يملك}؟ وهل هما إلا شيء واحد؟

قلت: ليس في {لا يستطيعون} تقدير راجع، وإنما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفية عنهم أصلا، لأنهم موات، إلا أن يقدر الراجع ويراد بالجمع بين نفى الملك والاستطاعة للتوكيد أو يراد: أنهم لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم"(٦).

الفوائد:

١- ذم رب العزة المشركين بعبادتهم ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض، فهذه الآلهة الباطلة لا تملك شيئا من الرزق في السماوات والأرض، فلا تملك أن تنزل المطر من السماء، ولا تملك أن تخرج الزرع، ولا تدر الضرع، ولا تملك دفع الشر عن عابديها، ولا تملك جلب الخير لهم، {ولا يستطيعون} أي: هذه الأصنام لا تملك شيئا من ذلك لأنفسها فهي ضعيفة عاجزة.

٢- أن الله وحده هو المتصرف في العالم، وقد نفت هذه الآية، التصريف في العالم عن غير الله سبحانه وتعالى، فبينت عجزهم وضعفهم، وأنهم لا يملكون للناس رزقا من السماوات والأرض، فليس لهم سلطان على الأمطار، ولا على السحاب والريح، وليس لهم سلطان على الأرض فتخرج زهرتها، وتلفظ خزائنها، وإن كل ذلك في قدرة الله وقبضته.

٣- أن «الرزاق» من أسماء الله تعالى الدالة على عظم فضله وكرمه وسخائه؛ فهو الذي يرزق أهل السموات والأرض بأنواع الخيرات والنعم المتتالية. وكما أنه يرزق عباده الدنيا وملذاتها كذلك يرزق الإيمان الموصل إلى الجنة ونعيمها. ولايقدر على ذلك كله إلا الله وحده. فهو المستحق أن يعبد وحده لاشريك له.

القرآن

{فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)} [النحل : ٧٤]

التفسير:

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٤.

(٢) تفسير البغوي:٣٢/٥.

(٣) معاني القرآن:٤١٧/٢.

(٤) اخرجه ابن ابي حاتم(١٢٥٩٣):ص٢٢٩٢/٧.

(٥) التفسير الميسر:٢٧٤.

(٦) الكشاف:٦٢١/٢.

وإذا عَلِمتم أن الأصنام والأوثان لا تنفع، فلا تجعلوا -أيها الناس- لله أشباهًا مماثلين له مِن خَلْقه تشركونهم معه في العبادة. إن الله يعلم ما تفعلون، وأنتم غافلون لا تعلمون خطأكم وسوء عاقبتكم.

قوله تعالى:{فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} [النحل : ٧٤]، أي:" وإذا عَلِمتم أن الأصنام والأوثان لا تنفع، فلا تجعلوا -أيها الناس- لله أشباهًا مماثلين له مِن خَلْقه تشركونهم معه في العبادة"(١).

قال السعدي: أي:" [الأمثال] المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه"(٢).

قال البغوي:" يعني: الأشباه. فتشبهونه بخلقه، وتجعلون له شريكا، فإنه واحد لا مثل له"(٣).

قال البيضاوي:" فلا تجعلوا له مثلا تشركونه به، أو تقيسونه عليه فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال"(٤).

قال الزمخشري:" تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به، لأن من يضرب الأمثال مشبه حالا بحال وقصة بقصة إن الله يعلم كنه ما تفعلون وعظمه، وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم، لأن العقاب على مقدار الإثم وأنتم لا تعلمون كنهه وكنه عقابه، فذاك هو الذي جركم إليه وجرأكم عليه، فهو تعليل للنهى عن الشرك. ويجوز أن يراد: فلا تضربوا لله الأمثال، إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال"(٥).

قال ابن عباس:" يعني: اتخاذهم الأصنام. يقول: لا تجعلوا معي إلها غيري، فإنه لا إله غيري"(٦).

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل : ٧٤]، أي:" إن الله يعلم ما تفعلون، وأنتم غافلون لا تعلمون خطأكم وسوء عاقبتكم"(٧).

قال البغوي: يعني:" خطأ ما تضربون من الأمثال"(٨).

قال البيضاوي:"{إن الله يعلم} فساد ما تعولون عليه من القياس على أن عبادة عبيد الملك أدخل في التعظيم من عبادته وعظم جرمكم فيما تفعلون. {وأنتم لا تعلمون} ذلك ولو علمتموه لما جرأتم عليه فهو تعليل للنهي، أو أنه يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم دون نصه"(٩).

وقال الزمخشري:" إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون"(١٠).

قال السعدي:" فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال"(١١).

فوائد البيتين:[٧٣-٧٤]:

١- التنديد بمن يضربون لله الأمثال وهم لا يعلمون باتخاذ وسائط له تشبيها لله تعالى بعباده فهم يتوسطون بالأولياء والأنبياء بدعائهم والاستغاثة بهم بوصفهم مقربين إلى الله تعالى يستجيب لهم، ولا يستجيب لغيرهم.

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٢) تفسير السعدي:٤٤٤.
(٣) تفسير البغوي:٣٢/٥.
(٤) تفسير البيضاوي:٢٣٤/٣.
(٥) الكشاف:٦٢٢/٢.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٩٤):ص٢٢٩٢/٧.
(٧) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٨) تفسير البغوي:٣٢/٥.
(٩) تفسير البيضاوي:٢٣٤/٣.
(١٠) الكشاف:٦٢٢/٢.
(١١) تفسير السعدي:٤٤٤.

٢- أن الله تعالى له المثل الأعلى الذي لا يشركه فيه مخلوق، ولا يجوز أن يستعمل في حقه من الأقيسة ما يقتضي المماثلة أو المساواة بينه وبين غيره؛ كقياس التمثيل وقياس الشمول.

٣- ومن فوائد قوله تعالى:{فَلَا تَضْرِبُوا لله الْأَمْثَالَ}: أننا نثبت له تعالى ما أثبته لنفسه، على لسان رسوله، من ذاته وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، وننتهي عند ذلك ولا نزيد عليه، وننزهه في ذلك عن مماثلة أو مشابهة شيء من مخلوقاته.

٤- ومن فوائد قوله تعالى:{فَلَا تَضْرِبُوا لله الْأَمْثَالَ}: أن كل ما وصف به المخلوق من كمال فالخالق أولى به وكل ما نزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولى بالتنزه لقوله تعالى:. . . وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى. . . [الروم: ٢٧] والله أعلم.

القرآن

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥)} [النحل : ٧٥]

التفسير:

ضرب الله مثلا بيَّن فيه فساد عقيدة أهل الشرك: رجلا مملوكًا عاجزًا عن التصرف لا يملك شيئًا، ورجلا آخر حرًا، له مال حلال رزَقَه الله به، يملك التصرف فيه، ويعطي منه في الخفاء والعلن، فهل يقول عاقل بالتساوي بين الرجلين؟ فكذلك الله الخالق المالك المتصرف لا يستوي مع خلقه وعبيده، فكيف تُسَوُّون بينهما؟ الحمد لله وحده، فهو المستحق للحمد والثناء، بل أكثر المشركين لا يعلمون أن الحمد والنعمة لله، وأنه وحده المستحق للعبادة.

سبب النزول:

قال ابن عباس:" نزلت هذه الآية: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ} في رجل من قريش وعبده، في هشام بن عمر، وهو الذي ينفق ماله سرا وجهرا، وفي عبده أبي الجوزاء الذي كان ينهاه"(١).

قوله تعالى:{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا} [النحل : ٧٥]، أي:" ضرب الله مثلا بيَّن فيه فساد عقيدة أهل الشرك: رجلا مملوكًا عاجزًا عن التصرف لا يملك شيئًا، ورجلا آخر حرًا، له مال حلال رزَقَه الله به، يملك التصرف فيه، ويعطي منه في الخفاء والعلن"(٢).

قال الزمخشري:" علمهم كيف تضرب فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان: مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء.

فإن قلت: لم قال مملوكا لا يقدر على شيء وكل عبد مملوك، وغير قادر على التصرف؟

قلت: أما ذكر المملوك فليميز من الحر، لأن اسم العبد يقع عليهما جميعا، لأنهما من عباد الله، وأما لا يقدر على شيء فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له، لأنهما يقدران على التصرف"(٣).

قوله تعالى:{هَلْ يَسْتَوُونَ} [النحل : ٧٥]، أي:" فهل يقول عاقل بالتساوي بين الرجلين؟ فكذلك الله الخالق المالك المتصرف لا يستوي مع خلقه وعبيده، فكيف تُسَوُّون بينهما؟"(٤).

قال الزمخشري: "معناه: هل يستوي الأحرار والعبيد؟"(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦٠١):ص٢٢٩٣/٧.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٣) الكشاف:٦٢٢/٢.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٥) الكشاف:٦٢٣/٢.

وفي هذا المثل قولان :
أحدهما : أنه مثل ضربه الله للكافر لأنه لا خير عنده، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً هو المؤمن، لما عنده من الخير، وهذا معنى قول ابن عباس(١)، وقتادة(٢).
عن ابن عباس:"{ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء}، يعني: الكافر، إنه لا يستطيع إن ينفق نفقة في سبيل الله، {ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا}، يعني: المؤمن، وهو المثل في النفقة"(٣).
قال ابن عباس:" ليس للعبد طلاق إلا بإذن سيده. وقرأ: {عبدا مملوكا لا يقدر على شيء}"(٤).
عن قتادة:" {ضرب الله مثلا عبدا مملوكا}، قال: هذا مثل ضربه الله للكافر رزقه الله مالا فلم يقدم فيه خيرا ولم يعمل فيه بطاعة الله، {ومن رزقناه منا رزقا حسنا}، قال: هو المؤمن أعطاه الله مالا رزقا حلالا، فعمل فيه بطاعة الله، وأخذه بشكر ومعرفة حق الله، فأثابه الله على ما رزقه الرزق المقيم الدائم لأهله في الجنة. قال الله: {هل يستويان مثلا}، قال: لا والله لا يستويان"(٥).
الثاني : أنه مثل ضربه الله تعالى لنفسه والأوثان، لأنها لا تملك شيئاً ، وإنهم عدلوا عن عبادة الله تعالى الذي يملك كل شيء ، وهذا معنى قول الحسن(٦)، و مجاهد(٧).
قال الربيع بن أنس:" إن الله ضرب الأمثال على حسب الأعمال، فليس عمل صالح، إلا له المثل الصالح، وليس عمل سوء، إلا له مثل سوء، وقال: إن مثل العالم المتفهم، كطريق بين شجر وجبل، فهو مستقيم لا يعوجه شيء، فذلك مثل العبد المؤمن الذي قرأ القرآن وعمل به"(٨).
به"(٨).
قوله تعالى:{الْحَمْدُ لِلَّهِ} [النحل : ٧٥]، أي:" الحمد لله وحده، فهو المستحق للحمد والثناء"(٩).
قوله تعالى:{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [النحل : ٧٥]، أي:" بل أكثر المشركين لا يعلمون أن الحمد والنعمة لله، وأنه وحده المستحق للعبادة"(١٠).
قال الطبري:" يقول: ما الأمر كما تفعلون، ولا القول كما تقولون، ما للأوثان عندهم من يد ولا معروف فتُحْمد عليه، إنما الحمد لله، ولكن أكثر هؤلاء الكفرة الذين يعبدونها لا يعلمون أن ذلك كذلك، فهم بجهلهم بما يأتون ويَذَرون يجعلونها لله شركاء في العبادة والحمد"(١١).
قال السعدي:" فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوى المشركون آلهتهم بالله؟ قال: {بل أكثرهم لا يعلمون} فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم"(١٢).

القرآن
{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)} [النحل : ٧٦]

---
(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٩٥):ص٢٢٩٢/٧ .
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٥٩٦):ص٢٢٩٢/٧ .
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٩٥):ص٢٢٩٢/٧ .
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٦٠٢):ص٢٢٩٣/٧.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٩٦):ص٢٢٩٢/٧ .
(٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٥٩٨):ص٢٢٩٣/٧.
(٧) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٥٩٧):ص٢٢٩٣/٧، وتفسير الطبري:٢٦٢/١٧.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٥٩٩):ص٢٢٩٣/٧.
(٩) التفسير الميسر:٢٧٤.
(١٠) التفسير الميسر:٢٧٤.
(١١) تفسير الطبري:٢٦١/١٧-٢٦٢.
(١٢) تفسير السعدي:٤٤٤.

التفسير:
وضرب الله مثلا آخر لبطلان الشرك رجلين: أحدهما أخرس أصم لا يَفْهَم ولا يُفْهِم، لا يقدر على منفعة نفسه أو غيره، وهو عبء ثقيل على مَن يَلي أمره ويعوله، إذا أرسله لأمر يقضيه لا ينجح، ولا يعود عليه بخير، ورجل آخر سليم الحواس، ينفع نفسه وغيره، يأمر بالإنصاف، وهو على طريق واضح لا عوج فيه، فهل يستوي الرجلان في نظر العقلاء؟ فكيف تُسَوُّون بين الصنم الأبكم الأصمِّ وبين الله القادر المنعم بكل خير؟

قوله تعالى:{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ} [النحل : ٧٦]، أي:" وضرب الله مثلا آخر لبطلان الشرك رجلين: أحدهما أخرس أصم لا يَفْهَم ولا يُفْهِم لا يقدر على منفعة نفسه أو غيره"(١).

قال الطبري:" يعني بذلك الصنم أنه لا يسمع شيئا، ولا ينطق، لأنه إما خشب منحوت، وإما نحاس مصنوع لا يقدر على نفع لمن خدمه، ولا دفع ضرّ عنه"(٢).

قوله تعالى:{وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ} [النحل : ٧٦]، أي:" وهو عبء ثقيل على مَن يَلي أمره ويعوله"(٣).

قال الفراء:" أي: يحمله"(٤).

قال القاسم بن سلام:أي:" عيال بلغة قريش"(٥).

قال ابن قتيبة:أي:" عيال وثقل على قرابته ووليه"(٦).

قال الطبري:" يقول: وهو عيال على ابن عمه وحلفائه وأهل ولايته، فكذلك الصنم كَلّ على من يعبده، يحتاج أن يحمله، ويضعه ويخدمه، كالأبكم من الناس الذي لا يقدر على شيء، فهو كَلّ على أوليائه من بني أعمامه وغيرهم"(٧).

عن ابن عباس في قوله: {كَلٌّ}، قال: "الكل العيال. كانوا إذا ارتحلوا حملوه على بعير ذلول، وجعلوا معه نفرا يمسكونه خشية إن يسقط، فهو عناء وعذاب وعيال عليهم هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم يعني نفسه"(٨).

قوله تعالى:{أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ} [النحل : ٧٦]، أي:" حيثما أرسله سيده لم ينجح في مسعاه لأنه أخرس، بليد، ضعيف"(٩).

قال مقاتل:" يقول: أينما يدعوه من شرق أو غرب من ليل أو نهار {لا يأت بخير}، يقول لا يجيئه بخير"(١٠).

قال الطبري:" يقول: حيثما يوجهه لا يأت بخير، لأنه لا يفهم ما يُقال له، ولا يقدر أن يعبر عن نفسه ما يريد، فهو لا يفهم، ولا يُفْهَم عنه، فكذلك الصنم،لا يعقل ما يقال له، فيأتمر لأمر من أمره، ولا ينطق فيأمر وينهي"(١١).

قال ابن قتيبة: " فهذا مثل آلهتهم، لأنها صم بكم عمي، ثقل على من عبدها، في خدمتها والتعبد لها، وهي لا تأتيه بخير"(١٢).

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٢) تفسير الطبري:٢٦٢/١٧.
(٣) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٤) معاني القرآن:١١١/٢.
(٥) لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم:٧.
(٦) تأويل المشكل القرآن:٢٢٣.
(٧) تفسير الطبري:٢٦٢/١٧.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦٠٦):ص٢٢٩٤/٧.
(٩) صفوة التفاسير:١٢٦/٢.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٩/٢.
(١١) تفسير الطبري:٢٦٢/١٧.
(١٢) تأويل المشكل القرآن:٢٢٣.

قوله تعالى:{هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النحل : ٧٦]، أي:" هل يتساوى هذا الأخرس، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان، وهو على طريق الحق والاستقامة"(١).

قال مقاتل:" يعنى: هذا الصنم، {ومن يأمر بالعدل}، يعني الرب نفسه- عز وجل- يأمر بالتوحيد ، {وهو على صراط مستقيم}، يعني: الرب نفسه- عز وجل- يقول أنا على الحق المستقيم"(٢).

قال الطبري:" يعني: هل يستوي هذا الأبكم الكلّ على مولاه الذي لا يأتي بخير حيث توجه ومن هو ناطق متكلم يأمر بالحقّ ويدعو إليه وهو الله الواحد القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، يقول: لا يستوي هو تعالى ذكره، والصنم الذي صفته ما وصف. وقوله :{وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، يقول: وهو مع أمره بالعدل، على طريق من الحقّ في دعائه إلى العدل، وأمره به مستقيم، لا يَعْوَجّ عن الحقّ ولا يزول عنه"(٣).

قال السعدي:" فهل يستوي هذا ومن كان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان فلا يستوي من عبد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئا منها، ولا يكون كفوا وندا لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه"(٤).

قال الفراء:" فقال: لا تسووا بين الصنم وبين الله تبارك وتعالى"(٥).

واختلف المفسرون في المثل المضروب بهذه الآية على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن ، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن ، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى ، قاله قتادة(٦)، والسدي(٧)، ومقاتل(٨)، وهو معنى قول مجاهد(٩).

قال مقاتل:" يعني: الصنم عيال على مولاه الذي يعبده ينفق عليه ويكنه من الحر والشمس ويكنفه "(١٠).

قال مجاهد:" كلّ هذا مثل إله الحقّ، وما يُدعى من دونه من الباطل"(١١).

الثاني : أنه مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، فالأبكم : الكافر ، والذي يأمر بالعدل : المؤمن ، قاله ابن عباس(١٢).

قال ابن عباس:" يعني بـ«الأبكم» الذي هو كل على مولاه: الكافر. وبقوله: {ومن يأمر بالعدل}: المؤمن. وهذا المثل في الأعمال"(١٣).

الثالث : أن الأبكم : عبد كان لعثمان بن عفان رضي الله عنه كان يعرض عليه الإسلام فيأبى . ومن يأمر بالعدل : عثمان ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً(١٤).

فوائد الآيتين:[٧٥-٧٦]:

---

(١) صفوة التفاسير:١٢٦/٢.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٩/٢.
(٣) تفسير الطبري:٢٦٢/١٧.
(٤) تفسير السعدي:٤٤٤.
(٥) معاني القرآن:١١١/٢.
(٦) انظر: الطبري:٢٦٣/١٧.
(٧)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٦٠٥):ص٢٢٩٣/٧.
(٨) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٩/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٢٦٣/١٧.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٩/٢.
(١١) اخرجه الطبري:٢٦٣/١٧.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٦٠٣):ص٢٢٩٣/٧، وتفسير الطبري:٢٦٣/١٧.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦٠٣):ص٢٢٩٣/٧ .
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٦٠٤):ص٢٢٩٣/٧ .

١- تشديد القرآن في نكران عبادة الأوثان.
٢- ضرب الأمثلة لبطلان الشرك، وصحة التوحيد، إذ أثبت الله تعالى لنفسه التفرد باستحقاق الألوهية، وأنكر أن يكون غيره مستحقاً لذلك؛ استقلالاً واشتراكاً لتنافيهما في الموجب، وهو الخلق؛ فلله الخلق والأمر وحده، وغيره ليس إليه شيء من ذلك.
٣- استحسان ضرب الأمثال وهو تشبيه حال بحال على أن يكون ضارب المثل عالما.
٤- بيان مثل المؤمن في كماله والكافر في نقصانه.
٥- بيان مثل الأصنام في جمودها وتعب عبدتها عليها في الحماية وعدم انتفاعهم بها. ومثل الرب تبارك وتعالى في عدله، ودعوته إلى الإسلام وقيامه على ذلك مع استجابة دعاء أوليائه، ورعايتهم، وعلمه بهم وسمعه لدعائهم ونصرتهم في حياتهم وإكرامهم والإنعام عليهم في كلتا حياتهم. ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.
٦- أبطل الشرك بقياس الآية الأولى، فالعاقل لا يقبل البتة المساواة بين مخلوق يملك ويقدر وآخر لا يملك ولا يقدر، فلأن لا يقبل التماثل في الحقوق والكمالات بين الأوثان العاجزة المملوكة وبين من له المثل الأعلى من باب أولى[١].

القرآن
{وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)} [النحل : ٧٧]
التفسير:
ولله سبحانه وتعالى عِلْمُ ما غاب في السموات والأرض، وما شأن القيامة في سرعة مجيئها إلا كنظرة سريعة بالبصر، بل هو أسرع من ذلك. إن الله على كل شيء قدير.
سبب النزول:
قال مقاتل:" وذلك أن كفار مكة سألوا النبي- ﷺ- متى الساعة؟ فأنزل الله- عز وجل- {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وغيب الساعة ليس ذلك إلى أحد من العباد"[٢].
قوله تعالى:{وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النحل : ٧٧]، أي:" ولله سبحانه وتعالى عِلْمُ ما غاب في السموات والأرض"[٣].
قال السعدي:" أي: هو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض، فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله"[٤].
قال البيضاوي:" يختص به علمه لا يعلمه غيره، وهو ما غاب فيهما عن العباد بأن لم يكن محسوسا ولم يدل عليه محسوس"[٥].
وفي قوله تعالى:{وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النحل : ٧٧]، وجوه من التفسير[٦]:
أحدها : ولله علم غيب السموات والأرض ، لأنه المنفرد به دون خلقه .
الثاني : أن المراد بالغيب إيجاد المعدومات وإعدام الموجودات .
الثالث : يعني فعل ما كان وما يكون ، وأما الكائن في الحال فمعلوم .
الرابع : أن غيب السماء الجزاء بالثواب العقاب . وغيب الأرض القضاء بالأرزاق والآجال .
قوله تعالى:{وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} [النحل : ٧٧]، أي:" وما شأن القيامة في سرعة مجيئها إلا كنظرة سريعة بالبصر، بل هو أسرع من ذلك"[٧].

---
(١) انظر: انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٦/ ٧٩، ٨٠، إعلام الموقعين لابن القيم ١/ ١٥٧ - ١٦١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٩/٢.
(٣) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٤) تفسير السعدي:٤٤٥.
(٥) تفسير البيضاوي:٢٣٥/٣.
(٦) انظر: النكت والعيون:٢٠٥/٣.
(٧) التفسير الميسر:٢٧٤.

قال مقاتل:" يعني: البعث {إلا كلمح البصر}، يعنى: كرجوع الطرف"[1].

قال البيضاوي:أي:" وما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته. إلا كلمح البصر إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها. {أو هو أقرب}، أو أمرها أقرب منه بأن يكون في زمان نصف تلك الحركة بل في الآن الذي تبتدئ فيه، فإنه تعالى يحيي الخلائق دفعة وما يوجد دفعة كان في آن، وأو للتخيير أو بمعنى بل. وقيل معناه أن قيام الساعة وإن تراخى فهو عند الله كالشيء الذي تقولون فيه هو كلمح البصر أو هو أقرب مبالغة في استقرابه"[2].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [النحل : ٧٧]، أي:" والله قادرٌ على كل الأشياء ومن جملتها القيامة التي يكذب بها الكافرون"[3].

قال البيضاوي:" فيقدر أن يحيي الخلائق دفعة كما قدر أن أحياهم متدرجا"[4].

قال السعدي:" فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياؤه للموتى"[5].

الفوائد:

١- أن - الله - تبارك وتعالى - محيط علمه بالسموات والأرض.

٢- ومن أسمائه تعالى: «القدير»: أي:" لا يعترضه عجز ولا فتور"[6].

قال السعدي:أي:" كامل القدرة بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، بقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وبقدرته يقلب القلوب ويصرفها على مايشاء ويريد"[7].

روي البيهقي عن عبد العزيز قال الحليمي، قال: "و«القدير»: التام القدرة لا يلابس قدرته عجز بوجه"[8].

القرآن

{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)} [النحل : ٧٨]

التفسير:

والله سبحانه وتعالى أخرجكم مِن بطون أمهاتكم بعد مدة الحمل، لا تدركون شيئًا مما حولكم، وجعل لكم وسائل الإدراك من السمع والبصر والقلوب؛ لعلكم تشكرون لله تعالى على تلك النعم، وتفردونه عز وجل بالعبادة.

قوله تعالى:{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا} [النحل : ٧٨]، أي:" والله سبحانه وتعالى أخرجكم مِن بطون أمهاتكم بعد مدة الحمل، لا تدركون شيئًا مما حولكم"[9].

قال السعدي:" أي: هو المنفرد بهذه النعم حيث {أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا} ولا تقدرون على شيء"[10].

عن السدي:" {من بطون أمهاتكم}، قال: من الرحم"[11].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٩/٢.
(٢) تفسير البيضاوي:٢٣٥/٣.
(٣) صفوة التفاسير:١٢٦/٢.
(٤) تفسير البيضاوي:٢٣٥/٣.
(٥) تفسير السعدي:٤٤٥.
(٦) شأن الدعاء للخطابي:٨٥.
(٧) تفسير أسماء الله الحسنى:٢٢٣.
(٨) الاسما والصفات:١١١/٢.
(٩) التفسير الميسر:٢٧٤.
(١٠) تفسير السعدي:٤٤٥.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦٠٩):ص٢٢٩٤/٧.

قال الزمخشري:" معناه: غير عالمين شيئا من حق المنعم الذي خلقكم في البطون، وسواكم وصوركم، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة"(١).

قال الإمام الشافعي: "وعرف الله سبحانه وتعالى جميع خلقه - في كتابه - أن لا علم لهم إلا ما علمهم فقال: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا} الآية، ثم علمهم بما آتاهم من العلم، وأمرهم بالاقتصار عليه، وأن لا يتولوا غيره إلا بما علمهم"(٢).

قرئ :«أمهاتكم»، بضم الهمزة وكسرها(٣).

قوله تعالى:{وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل : ٧٨]، أي:" وجعل لكم وسائل الإدراك من السمع والبصر والقلوب؛ لعلكم تشكرون لله تعالى على تلك النعم، وتفردونه عز وجل بالعبادة"(٤).

قال قتادة:" كرامة أكرمكم الله بها، فاشكروا نعمه"(٥).

قال الزمخشري:" معناه: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به، من شكر المنعم وعبادته، والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعدكم"(٦).

قال السعدي:" خص هذه الأعضاء الثلاثة، لشرفها وفضلها ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إياها، وجعل ينميها فيهم شيئا فشيئا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه وقابل النعمة بأقبح المقابلة"(٧).

الفوائد:

١- من الفوائد:أن جميع العلوم مكتسبة إلا معرفة الخالق جل وعلا المعرفة الفطرية، أما سائر المعارف الأخرى فإنها مكتسبة بدليل قوله عزوجل: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً}،، وكذلك قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا} [البقرة: ١٣]، إلا أن من العلوم ما يكون بدهي ظاهر لا يحتاج إلى كدّ ذهن واستدلال كفوقية السماء ووجود الإنسان وفنائه وحاجته وما إلى ذلك، ومنها ما يحتاج إلى دليل وبرهان حتى إذا استقر في النفوس صار علما ضروريا لا ينفك عن النفس ولا يقع فيه الشك إلا من باب الوسوسة الشيطانية.

٢- إن الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام والميل إليه دونه غيره، والتهيؤ لذلك والاستعداد له بالقوة، لكن لا بد للعبد من تعلم الإسلام بالفعل، فإنه قبل التعليم جاهلٌ لا يعرف شيئًا كما قال سبحانه: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا} [النحل: ٧٨] ... الآية، فإن هداه الله سبب له من يعلمه الإسلام فصار مهديًا بالفعل، إذًا أمران هداية، وتهيئةٌ من حيث الفطرة لقبول الدين، وعنده ميل وعنده شيء باطن، فإن عُلِّمَ حينئذٍ فقبل الإسلام والدين اجتمع فيه الهديتان: هداية بالقوة، وهداية بالفعل(٨).

٣- التصريح بأن الفطرة مقتضية للإقرار بالرب وتوحيده وحبه في الأدلة السمعية: قال رسول الله ﷺ "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو

---

(١) الكشاف:٦٢٤/٢.
(٢) تفسير الإمام الشافعي:١٠٠٧/٢.
(٣) انظر: الكشاف:٦٢٤/٢.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦١٠):ص٢٢٩٤/٧.
(٦) الكشاف:٦٢٤/٢.
(٧) تفسير السعدي:٤٤٥.
(٨) انظر: شرح سلم الوصول: الدرس٨/٩. [مرقم آليا]

ينصرانه"[١]، والصوب أن الفطرة هنا هي فطرة الإسلام، وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة، وليس المراد أن الإنسان حين يخرج من بطن أمه يعلم هذا الدين موحداً لله فإن الله تعالى يقول: {وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا} [النحل: ٧٨] وإنما المراد أن فطرته مقتضية وموجبة لدين الإسلام ولمعرفة الخالق والإقرار به ومحبته. ومقتضيات هذه الفطرة وموجباتها تحصل شيئاً بعد شيء وذلك بحسب كمال الفطرة وسلامتها من الموانع[٢].

٤- إن معرفة الإنسان باتفاق العقلاء والحكماء واتفاق أهل الشرع أنها إنما تكون شيئاً فشيئاً، وهذا هو الذي يسمى عند الفلاسفة نظرية المعرفة، أو نظرية حصول المعارف.

القرآن

{أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)} [النحل : ٧٩]

التفسير:

ألم ينظر المشركون إلى الطير مذللات للطيران في الهواء بين السماء والأرض بأمر الله؟ ما يمسكهن عن الوقوع إلا هو سبحانه بما خَلَقه لها، وأقدرها عليه. إن في ذلك التذليل والإمساك لَدلالات لقوم يؤمنون بما يرونه من الأدلة على قدرة الله.

قوله تعالى:{أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ} [النحل : ٧٩]، أي:" ألم ينظر المشركون إلى الطير مذللات للطيران في الهواء بين السماء والأرض بأمر الله؟"[٣].

قال الزمخشري:": مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية[٤] لذلك. والجو: الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو والسكاك[٥] أبعد منه، واللوح مثله"[٦].

مثله"[٦].

قال ابن كثير:" نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض ، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض ، في جو السماء"[٧].

عن قتادة:" {في جو السماء}، في كبد السماء"[٨].

عن السدي:" {في جو السماء}، قال: جوف السماء"[٩].

قرئ: «لم يروا»، بالتاء والياء[١٠].

قوله تعالى:{مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ} [النحل : ٧٩]، أي:" ما يمسكهن عن الوقوع إلا هو سبحانه بما خَلَقه لها، وأقدرها عليه"[١١].

قال الزمخشري:أي:" في قبضهن وبسطهن ووقوفهن إلا الله بقدرته"[١٢].

قال ابن كثير:" ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى ، الذي جعل فيها قوًى تفعل ذلك ، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك ، كما قال تعالى في سورة الملك : { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى

---

(١)رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢)انظر: درء تعارض العقل والنقل:٨/ ٣٨٣.

(٣) التفسير الميسر:٢٧٤.

(٤)قوله «والأسباب المواتية لذلك» في الصحاح آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة إذا وافقته والعامة تقول: وأتيته.

(٥)قوله «والسكاك أبعد منه» في الصحاح السكاك والسكاكة الهواء الذي يلاقي أعنان السماء وفيه أيضا أعنان أعنان السماء صفائحها وما اعترض من أقطارها. والعنان بالفتح السحاب.

(٦) الكشاف:٢/٦٢٤-٦٢٥.

(٧) تفسير ابن كثير:٤/٥٩٠.

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٦١١):ص٧/٢٢٩٤.

(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٦١٢):ص٧/٢٢٩٤.

(١٠) انظر: الكشاف:٢/٦٢٤.

(١١) التفسير الميسر:٢٧٤.

(١٢) الكشاف:٢/٦٢٥.

الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ } [الملك : ١٩]" (١). (١)

قال النسفي:" وفيه نفي لما يصوره الوهم عن خاصية القوى الطبيعية"(٢).

عن السدي:" {مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ}، يمسكه الله على كل ذلك والله أعلم بالصواب"(٣).

قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل : ٧٩]، أي:" إن في ذلك التذليل والإمساك لَدلالات لقوم يؤمنون بما يرونه من الأدلة على قدرة الله"(٤).

قال النسفي:" بأن الخلق لا غنى به عن الخالق"(٥).

الفوائد:

١- لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون لحياة قلوبهم، أما الكافرون فهم في ظلمة الكفر لا يرون شيئا من الآيات ولا يبصرون.
٢- ومن الفوائد: أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى مكسوبة للعبد، لقوله تعالى: {أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن} مع أن وقوف الطير فعل اختياري من الحيوان.
٣- حث الله - تبارك وتعالى - عباده لينظروا إلى الطير المحلقة في أجواء الفضاء، وهو منظر جميل بديع، تراها تحلق، وهي تصدح، وتصفر وتغرد، ترتفع تارة، وتنزل أخرى، وتدور في طيرانها، ما يمسكها إلا ربها تبارك وتعالى {إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} أي: آيات دالة على قدرة الله وبديع صنعه سبحانه وتعالى.
٤- أن الطير مسخرة بإذن الله؛ فالله تعالى هو الذي يدبرها ويصرفها ويسخرها تذهب يمينا وشمالا، ولا علاقة لها بالحوادث.
٥- ومن الفوائد: نفي الطيرة، لأنالطيور كلها ملك الله، فهي لا تفعل شيئا، وإنما هي مسخرة، وفيه الرد على الطيرة.

وفي الحديث« الطيرة شرك الطيرة شرك الطيرة شرك»(٦).

وفير رواية:« الطيرة من الشرك»(٧).

القرآن

{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠)} [النحل : ٨٠]

التفسير:

والله سبحانه جعل لكم من بيوتكم راحة واستقرارًا مع أهلكم، وأنتم مقيمون في الحضر، وجعل لكم في سفركم خيامًا وقبابًا من جلود الأنعام، يَخِفُّ عليكم حِمْلها وقت تَرْحالكم، ويخف عليكم نَصْبها وقت إقامتكم بعد التَّرْحال، وجعل لكم من أصواف الغنم، وأوبار الإبل، وأشعار المعز أثاثًا لكم من أكسية وألبسة وأغطية وفرش وزينة، تتمتعون بها إلى أجل مسمًّى ووقت معلوم.

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٩٠/٤.
(٢) تفسير النسفي:٢٢٦/٢.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٦١٢):ص٢٢٩٤/٧.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٤.
(٥) تفسير النسفي:٢٢٦/٢.
(٦)أخرجه الطيالسى (ص ٤٧، رقم ٣٥٦) ، وأحمد (٤٤٠/١، رقم ٤١٩٤) ، وأبو داود (١٧/٤، رقم٣٩١٠) ، ، وابن ماجه (١١٧٠/٢، رقم ٣٥٣٨) ، والحاكم (٦٤/١، رقم ٤٣) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٦١/٢، رقم ١١٦٧) . وأخرجه أيضا: البخارى فى الأدب المفرد (٣١٣/١، رقم ٩٠٩) ، وأبو يعلى (١٤٠/٩، رقم ٥٢١٩) ، وابن حبان (٤٩١/١٣، رقم ٦١٢٢) ، والبيهقى (١٣٩/٨، رقم ١٦٢٩٤) ، والديلمى (٤٦٤/٢، رقم ٣٩٨٤).
(٧)أخرجه الترمذى (١٦٠/٤، رقم ١٦١٤) وأخرجه أيضا: أحمد (٤٣٨/١، رقم ٤١٧١) والحاكم (٦٥/١، رقم رقم ٤٤) والبغوى فى الجعديات (٨٦/١، رقم ٤٨٨) ، والطحاوى (٣١٢/٤).

قوله تعالى:{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا} [النحل : ٨٠]، أي:" والله سبحانه جعل لكم من بيوتكم راحة واستقرارًا مع أهلكم وأنتم مقيمون في الحضر"[١].

قال مجاهد:" تسكنون فيها"[٢].

قال السدي:" تسكنون وتقرون فيها"[٣].

قال الزمخشري:" {من بيوتكم}، التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها. و«السكن»: فعل بمعنى مفعول، وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف بيوتا هي القباب والأبنية من الأدم والأنطاع"[٤].

قال ابن كثير:" يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده ، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم ، يأوون إليها ، ويستترون بها ، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع " [٥].

قوله تعالى:{وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا} [النحل : ٨٠]، أي:" وجعل لكم في سفركم خيامًا وقبابًا من جلود الأنعام"[٦].

قال السدي:" وهي خيام الأعراب"[٧].

قال ابن كثير:" أي : من الأدم" [٨].

قوله تعالى:{تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ} [النحل : ٨٠]، أي:" تستخفون حملها ونقلها في أسفاركم، وهي خفيفةٌ عليكم في أوقات السفر والحضَر"[٩].

قال الزمخشري:أي:" ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل، {يوم ظعنكم ويوم إقامتكم}، أى: يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها، ويوم تنزلون وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها. أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعا، على أن اليوم بمعنى الوقت"[١٠].

قال ابن كثير:" يستخفون حملها في أسفارهم ، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر " [١١].

عن السدي:{ تَسْتَخِفُّونَهَا}" يقول في الحمل"[١٢].

قال ابن عباس:" بعض بيوت السيارة بنيانه في ساعة"[١٣].

قوله تعالى:{وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا} [النحل : ٨٠]، أي:" وجعل لكم من صوف الغنم، ووبر الإبل، وشعر المعز ما تلبسون وتفرشون به بيوتكم"[١٤].

قال ابن كثير:" {وَمِنْ أَصْوَافِهَا } أي : الغنم ، { وَأَوْبَارِهَا } أي : الإبل ، { وَأَشْعَارِهَا } أي : المعز - والضمير عائد على الأنعام - { أَثَاثًا } أي : تتخذون منه أثاثا ، وهو المال. وقيل : المتاع. وقيل : الثياب والصحيح أعم من هذا كله ، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك ، ويتخذ مالا وتجارة " [١٥].

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦١٣):ص٢٢٩٤/٧.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦١٤):ص٢٢٩٤/٧.
(٤) الكشاف:٦٢٥/٢.
(٥) تفسير ابن كثير:٥٩١/٤.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦١٤):ص٢٢٩٤/٧.
(٨) تفسير ابن كثير:٥٩١/٤.
(٩) صفوة التفاسير:١٢٧/٢.
(١٠) الكشاف:٦٢٥/٢.
(١١) تفسير ابن كثير:٥٩١/٤.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦١٤):ص٢٢٩٤/٧.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦١٥):ص٢٢٩٤/٧.
(١٤) صفوة التفاسير:١٢٧/٢.
(١٥) تفسير ابن كثير:٥٩١/٤.

عن ابن عباس:" {وأوبارها}، قال: الإبل، {وأشعارها}، قال: الغنم"[1]، " {أثاثا}، قال: الأثاث المال"[2].

قوله تعالى:{وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} [النحل : ٨٠]، أي:" تتمتعون بها إلى أجل مسمَّى ووقت معلوم"[3].

قال الصابوني:"أي: تنتفعون وتتمتعون بها إلى حين الموت""[4].

قال ابن كثير:" أي : إلى أجل مسمى ووقت معلوم " [5].

قال ابن عباس:" يقول: تنتفعون به إلى حين"[6].

عن السدي: "{وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ}، قال: إلى الموت"[7].

قال الزمخشري:أي:" شيئا ينتفع به إلى حين إلى أن تقضوا منه أوطاركم. أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى أن تموتوا"[8].

وقرئ:« يوم ظعنكم» بالسكون[9].

الفوائد:

١- بيان مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته ونعمه، ومن العجب أن المشركين كالكافرين عمي لا يبصرون شيئا منها وأكثرهم الكافرون.

٢- امتن الله - تبارك وتعالى - على عباده بأن جعل لهم من بيوتهم التي يبنونها من الحجر أو الطين أو الخشب أو (الإسمنت) أو المعادن سكنا، يؤون إليها، ويسكنون فيها، وجعل لهم من جلود الأنعام بيوتا، فيصنع العباد من جلود الإبل والبقر والغنم، الخيام بيوتا، وهذه الخيام يسهل على العباد الانتقال بها من مكان إلى مكان، وينصبونها في أسفارهم، كما ينصبونها في مقر إقامتهم، ويتخذون من أصواف الخراف، وأوبار الإبل، وأشعار المعز، أنواع الأثاث والمتاع، فيتخذون منها البسط، والخيم، والملابس، وغيرها، والأثاث: متاع البيت.

٣- ومن الفوائد: أن لله جل وعلا خالق كل شيء، ويجب أن لا يكون هناك شيء مخلوق لغيره، وإن كانت كثير من الأشياء من أفعال الناس، ولكن الله هو الذي أوجد لهم القدرة على هذا الخلق.

القرآن

{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)} [النحل : ٨١]

التفسير:

والله جعل لكم ما تستظلُّون به من الأشجار وغيرها، وجعل لكم في الجبال من المغارات والكهوف أماكن تلجؤون إليها عند الحاجة، وجعل لكم ثيابًا من القطن والصوف وغيرهما، تحفظكم من الحر والبرد، وجعل لكم من الحديد ما يردُّ عنكم الطعن والأذى في حروبكم، كما أنعم الله عليكم بهذه النعم يتمُّ نعمته عليكم ببيان الدين الحق؛ لتستسلموا لأمر الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا في عبادته.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦١٥):ص٢٢٩٤/٧.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦١٦):ص٢٢٩٤/٧.
(٣) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٤) صفوة التفاسير:١٢٧/٢.
(٥) تفسير ابن كثير:٥٩١/٤.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦١٦):ص٢٢٩٤/٧.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦١٤):ص٢٢٩٤/٧.
(٨) الكشاف:٦٢٥/٢.
(٩) انظر: الكشاف:٦٢٥/٢.

قوله تعالى:{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا} [النحل : ٨١]، أي:" والله جعل لكم ما تستظلُّون به من الأشجار وغيرها"[١].
قال مقاتل:" يعني: البيوت والأبنية"[٢].
قال ابن قتيبة:" أي: ظلال الشجر والجبال"[٣].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن نعمة الله عليكم أيها الناس أن جعل لكم مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالا تستظلون بها من شدة الحر"[٤].
قال المراغي:" أي: ومن نعمه تعالى عليكم أن جعل لكم مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالا تستظلون بها من شديد الحر"[٥].
عن قتادة :"{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالا}، إي والله، من الشجر ومن غيرها"[٦].
قوله تعالى:{وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا} [النحل : ٨١]، أي:" وجعل لكم في الجبال من المغارات والكهوف أماكن تلجؤون إليها عند الحاجة"[٧].
قال الطبري:" يقول: وجعل لكم من الجبال مواضع تسكنون فيها"[٨].
قال قتادة:" يقول: غيرانا من الجبال يسكن فيها"[٩].
قال المراغي:" أي: وجعل لكم من الجبال مواضع تستكنون فيها كالمغارات والكهوف ونحوها"[١٠].
قال السعدي:" أي: مغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء"[١١].
قوله تعالى:{وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [النحل : ٨١]، أي:" وجعل لكم ثيابًا من القطن والصوف وغيرهما، تحفظكم من الحر والبرد"[١٢].
قال الطبري:" يعني: ثياب القطن والكتان والصوف وقمصها"[١٣].
عن قتادة :"{سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ}، قال: القطن والكتان"[١٤].
قال السعدي:" ولم يذكر الله البرد لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله: {لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ} [النحل : ٥] "[١٥].
قوله تعالى:{وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ} [النحل : ٨١]، أي:" وجعل لكم من الحديد ما يردُّ عنكم الطعن والأذى في حروبكم"[١٦].
قال الطبري:" يقول: ودروعا تقيكم في بأسكم السلاح أن يصل إليكم"[١٧].
عن قتادة :"{وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ}، قال: هي سرابيل من حديد"[١٨].

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٠/٢.
(٣) غريب القرآن:٢٤٨.
(٤) تفسير الطبري:٢٦٩/١٧.
(٥) تفسير المراغي:١٢١/١٤.
(٦) أخرجه الطبري:٢٦٩/١٧.
(٧) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٨) تفسير الطبري:٢٦٩/١٧.
(٩) أخرجه الطبري:٢٧٠/١٧.
(١٠) تفسير المراغي:١٢١/١٤.
(١١) تفسير السعدي:٤٤٥.
(١٢) التفسير الميسر:٢٧٦.
(١٣) تفسير الطبري:٢٧٠/١٧.
(١٤) أخرجه الطبري:٢٧٠/١٧.
(١٥) تفسير السعدي:٤٤٥.
(١٦) التفسير الميسر:٢٧٦.
(١٧) تفسير الطبري:٢٧٠/١٧.
(١٨) أخرجه الطبري:٢٧٠/١٧.

قوله تعالى:{كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} [النحل : ٨١]، أي:" كما أنعم الله عليكم بهذه النعم يتمُّ نعمته عليكم ببيان الدين الحق؛ لتستسلموا لأمر الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا في عبادته"(١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: كما أعطاكم ربكم هذه الأشياء التي وصفها في هذه الآيات نعمة منه بذلك عليكم، فكذا يُتِمّ نعمته عليكم لعلكم تسلمون. يقول: لتخضعوا لله بالطاعة، وتذِلّ منكم بتوحيده النفوس، وتخلصوا له العبادة"(٢).

قال السعدي:"{تسلمون} لعظمته وتنقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة موليها ومسديها، فكثرة النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر، والثناء بها على الله تعالى، ولكن أبى الظالمون إلا تمردا وعنادا"(٣).

وروي عن شهر بن حَوْشب، قال: "كان ابن عباس يقول: {لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ}، قال: يعني من الجراح"(٤).

وقرأ ابن عباس: "«لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ»، بفتح التاء واللام"(٥). أي:" لتسلموا من السلاح في في حروبكم"(٦).

الفوائد:

١- بيان مشيئته سبحانه للأشياء قبل كونها، وأنه لا يقع شيء في الكون إلا بمشيئته، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن(٧).

٢- دلت الآية على أن الله سبحانه هو خالق الخلق وأفعالهم، ومنه قوله عز وجل: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الزمر : ٦٢]، وقوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات : ٩٦]، فقال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} [النحل : ٨١]، فأخبر نه هو الذي يجعل السرابيل: وهي الدروع والثياب المصنوعة ومادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحليها صنعة الآدميين وعملهم؛ فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها صورتها ومادتها وهيأتها(٨).

ومن أدلة ذلك من السنة قوله ﷺ: "إن الله يصنع كل صانع وصنعته"(٩).

قال الإمام البخاري رحمه الله: "فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة"(١٠).

فهذه هي المراتب، إن شئت فقل الأركان التي يدور عليها رحى الإيمان بالقدر ذكرها الإمام ابن القيم، وأفاض في الكلام عليها والاستدلال لها فأفاد وأجاد رحمه الله(١١).

القرآن

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢)} [النحل : ٨٢]

التفسير:

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٢) تفسير الطبري:٢٧٠/١٧.
(٣) تفسير السعدي:٤٤٥.
(٤) أخرجه الطبري:٢٧٠/١٧.
(٥) أخرجه الطبري:٢٧٠/١٧.
(٦) تفسير الطبري:٢٧١/١٧.
(٧) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق:٣٦٥.
(٨)شفاء العليل ٥٤- ٥٥.
(٩)الإمام البخاري، خلق أفعال العباد ص ٢٥، "ط. الأولى ١٤٠٤، نشر: مؤسسة الرسالة".
(١٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(١١)انظر: شفاء العليل ص ٢٩- ٦٥.

فإن أعرضوا عنك -أيها الرسول- بعدما رأوا من الآيات فلا تحزن، فما عليك إلا البلاغ الواضح لما أُرْسِلْتَ به، وأما الهداية فإلينا.

قوله تعالى:{فَإِنْ تَوَلَّوْا} [النحل : ٨٢]، أي:" فإن أعرضوا عنك -أيها الرسول- بعدما رأوا من الآيات"(١).

قال السعدي:" عن الله وعن طاعته بعد ما ذكروا بنعمه وآياته"(٢).

قال أبو الليث السمرقندي:" أي: أعرضوا عن الإيمان"(٣).

قال الزمخشري:" فلم يقبلوا منك"(٤).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فإن أدبر هؤلاء المشركون يا محمد عما أرسلتك به إليهم من الحقّ، فلم يستجيبوا لك وأعرضوا عنه"(٥).

قوله تعالى:{فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النحل : ٨٢]، أي:" فما عليك إلا البلاغ الواضح لما أُرْسِلْتَ به، وأما الهداية فإلينا"(٦).

قال الزجاج:" أي: عليك أن تبلغ الرسالة وتأتي بالآيات الدالة على النبوة"(٧).

قال الماتريدي:" أي: ليس عليك إجابتهم، إنما عليك التبليغ إليهم والبيان لهم"(٨).

قال الطبري:" فما عليك من لوم ولا عذل لأنك قد أديت ما عليك في ذلك، إنه ليس عليك إلا بلاغهم ما أرسلت به. ويعني بقوله :{الْمُبِينُ}، الذي يبين لمن سمعه حتى يفهمه"(٩).

قال يحيى بن سلام:" كان هذا قبل أن يؤمر بقتالهم"(١٠).

قال السعدي:" أي: ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير، فإذا أديت ما عليك، فحسابهم على الله"(١١).

قال الزمخشري:" فقد تمهد عذرك بعد ما أديت ما وجب عليك من التبليغ، فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب"(١٢).

قال ابن الجوزي:" قال كثير من المفسرين: إنها منسوخة بآية السيف، وقد بينا في نظائرها أنه لا حاجة بنا إلى ادعاء النسخ في مثل هذه"(١٣).

الفوائد:

١- مهمة الرسول ﷺ ليست هداية القلوب وإنما هي بيان الطريق بالبلاغ المبين.

٢- الإيمان بأن الرسل بلغوا جميع ما أرسلوا به، على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بيانا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه.

القرآن

{يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)} [النحل : ٨٣]

التفسير:

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٦.

(٢) تفسير السعدي:٤٤٥.

(٣) بحر العلوم:٢/٢٨٥.

(٤)الكشاف:٢/٦٢٦ .

(٥) تفسير الطبري:١٧/٢٧٢.

(٦) التفسير الميسر:٢٧٦.

(٧) معاني القرآن:٣/٢١٦.

(٨) تأويلات أهل السنة:٦/٥٤٩.

(٩) تفسير الطبري:١٧/٢٧٢.

(١٠) تفسير يحيى بن سلام:١/٨٠.

(١١) تفسير السعدي:٤٤٥.

(١٢)الكشاف:٢/٦٢٦ .

(١٣) نواسخ القرآن:٢/٤٩٥.

يعرف هؤلاء المشركون نعمة الله عليهم بإرسال محمد ﷺ إليهم، ثم يجحدون نبوته، وأكثر قومه الجاحدون لنبوته، لا المقرون بها.

سبب النزول:

عن مجاهد :"أن أعرابيًا أتى رسول الله ﷺ فسأله ، فقرأ عليه رسول الله ﷺ : { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا } قال الأعرابي : نعم. قال : { وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ } قال الأعرابي : نعم. ثم قرأ عليه ، كل ذلك يقول الأعرابي : نعم ، حتى بلغ : { كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } فولى الأعرابي ، فأنزل الله : { يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ }"(١).[مرسل]

قوله تعالى:{يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} [النحل : ٨٣]، أي:" يعرف هؤلاء المشركون نعمة الله عليهم بإرسال محمد ﷺ إليهم، ثم يجحدون نبوته"(٢).

قال السعدي:" فإنهم يرون الإحسان، ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويجحدونها"(٣).

قال الزمخشري:" يعرفون نعمت الله التي عددناها حيث يعترفون بها وأنها من الله ثم ينكرونها بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم: هي من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا.. فإن قلت: ما معنى {ثم}؟ قلت: الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة، لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر"(٤).

وفي قوله تعالى:{يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} [النحل : ٨٣]، وجوه:

أحدها : أنه عنى النبي -ﷺ- يعرفون نبوته ثم ينكرونها ويكذبونه ، قاله السدي(٥)، ومجاهد(٦)، وبه قال الزجاج(٧)، والطبري(٨).

الثاني : أنهم يعرفون منا عدد الله تعالى عليهم في هذه السورة من النعم وأنها من عند الله وينكرونها بقولهم أنهم ورثوا ذلك عن آبائهم ، قاله مجاهد أيضا(٩).

الثالث : أن انكارها أن يقول الرجل : لولا فلان ما كان كذا وكذا ولولا فلانٌ ما أصبت كذا ، قاله عون بن عبد الله(١٠).

الرابع : أن معرفتهم بالنعمة إقرارهم بأن الله رزقهم، وإنكارهم قولهم : رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا. قاله ابن السائب(١١).

الخامس : يعرفون نعمة الله بتقلبهم فيها ، وينكرونها بترك الشكر عليها(١٢).

السادس : يعرفونها في الشدة ، وينكرونها في الرخاء. أفاده الماوردي(١٣).

السابع: يعرفونها بأقوالهم ، وينكرونها بأفعالهم. أفاده الماوردي أيضا(١٤).

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم كما في تفسير ابن كثير: ٥٩٢/٤، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٥/ ١٥٥) وعزاه لابن أبي حاتم وهو مرسل.

(٢) التفسير الميسر:٢٧٦.

(٣) تفسير السعدي:٤٤٥.

(٤)الكشاف:٦٢٦/٢ .

(٥) انظر: تفسير الطبري:٢٧٢/١٧-٢٧٣، وحكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:٢٠٧/٣، وابن الجوزي في زاد المسير:٥٧٧/٢

(٦) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير:٥٧٧/٢.

(٧) انظر: معاني القرآن:٢١٦/٣.

(٨) انظر: تفسير الطبري:٢٧٤/١٧.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٦٢١):ص٢٢٩٦/٧، وتفسير الطبري:٢٧٣/١٧.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٦٢٢):ص٢٢٩٦/٧، وتفسير الطبري:٢٧٣/١٧.

(١١) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير:٥٧٧/٢.

(١٢) انظر: النكت والعيون:٢٠٧/٣.

(١٣) انظر: النكت والعيون:٢٠٧/٣.

(١٤) انظر: النكت والعيون:٢٠٧/٣.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بتأويل الآية، قول من قال: عني بالنعمة التي ذكرها الله في قوله {يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ} النعمة عليهم بإرسال محمد ﷺ إليهم داعيًا إلى ما بعثه بدعائهم إليه، وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاهما خبر عن رسول الله ﷺ وعما بعث به، فأولى ما بينهما أن يكون في معنى ما قبله وما بعده، إذ لم يكن معنى يدلّ على انصرافه عما قبله وعما بعده فالذي قبل هذه الآية قوله :{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} وما بعده {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} وهو رسولها"[(١)].

قال الكلبي : "هذه السورة تسمى سورة النعم ، لما ذكر الله فيها من كثرة نعمه على خلقه"[(٢)].

قوله تعالى:{وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} [النحل : ٨٣]، أي:" وأكثر قومه الجاحدون لنبوته، لا المقرون بها"[(٣)].

قال مقاتل:" بتوحيد رب هذه النعم- تعالى ذكره-"[(٤)].

قال الطبري:" يقول: وأكثر قومك الجاحدون نبوّتك، لا المقرّون بها"[(٥)].

قال الحسن: "وجميعهم كفار، فذكر الأكثر، والمراد به الجميع"[(٦)].

قال السعدي:" لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات، لفساد مشاعرهم وسوء قصودهم وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد كفور للنعم متمرد على الله وعلى رسله"[(٧)].

الفوائد:

١- بيان أن تولي المشركين وإعراضهم عن الإسلام ليس لعدم معرفتهم نعمة الله سبحانه وتعالى أصلا، فإنهم يعرفون أنها من الله تعالى، ثم ينكرونها بأفعالهم، حيث لم يفردوا منعمها بالعبادة، فكأنهم لم يعبدوه سبحانه وتعالى أصلا.

٢- من خصال أهل الجاهلية نسبة وإضافة نِعَمِ الله تعالى إلى غير منعمها ومسديها وهو الله تعالى وحده، وإنما يَنْسِبُون ذلك لغيره تعالى من الآلهة التي يعبدونها من دون الله تعالى، أو لأنفسهم، ينسبون لأنفسهم، إما للآلهة أو لأنفسهم أو لآبائهم أو لغيرهم، كالزمان ونحوه.

٣- الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولا واعترافا.

٤- ومن الفوائد: التأدب مع جناب الربوبية عن نسبة النعم إلى غير الله، وضده باب من أبواب الشكر كما في الحديث الذي رواه ابن حبان في "صحيحه" عن جابر مرفوعًا: "من أولي معروفًا فلم يجد له جزاء إلا الثناء فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره"[(٨)]. وفي رواية جيدة لأبي داود "من أبلي فذكره فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره" [(٩)]. قال المنذري "من أبلي" أي: من أنعم عليه، الإبلاء الإنعام. فإذا كان ذكر المعروف الذي يقدره الله على يدي إنسان من شكره، فذكر معروف رب العالمين، وآلائه وإحسانه ونسبة ذلك إليه أولى بأن يكون شكرًا[(١٠)].

٥- أن الشكر هو رأس الإيمان، وهو مبني على ثلاثة أركان:

أ- اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره.

---

(١) تفسير الطبري:١٧/٢٧٣-٢٧٤.

(٢) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:٣/٢٠٧.

(٣) التفسير الميسر:٢٧٦.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٤٨٢.

(٥) تفسير الطبري:١٧/٢٧٤.

(٦) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير:٢/٥٧٧.

(٧) تفسير السعدي:٤٤٥.

(٨)أبو داود: الأدب (٤٨١٣).

(٩)أبو داود: الأدب (٤٨١٣).

(١٠) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد:٥٠٥.

ب- التحدث بها والثناء على الله بها.
ت- الاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته[1].

القرآن

{وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤)} [النحل : ٨٤]

التفسير:

واذكر لهم -أيها الرسول- ما يكون يوم القيامة، حين نبعث من كل أمة رسولها شاهدًا على إيمان من آمن منها، وكُفْر مَن كَفَر، ثم لا يُؤذن للذين كفروا بالاعتذار عما وقع منهم، ولا يُطْلب منهم إرضاءُ ربهم بالتوبة والعمل الصالح، فقد مضى أوان ذلك.

قوله تعالى:{وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} [النحل : ٨٤]، أي:" واذكر لهم -أيها الرسول- ما يكون يوم القيامة، حين نبعث من كل أمة رسولها شاهدًا على إيمان من آمن منها، وكُفْر مَن كَفَر"[2].

قال مقاتل:" يعنى: نبيها شاهدا على أمته بالرسالة أنه بلغهم"[3].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يعرفون نعمة الله ثم يُنْكِرونها اليوم ويستنكرون {يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} وهو الشاهد عليها بما أجابت داعي الله، وهو رسولهم الذي أرسل إليهم"[4].

قال السعدي:" يشهد عليهم بأعمالهم وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أزكى الشهداء وأعدلهم وهم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم"[5].

قال قتادة:" وشاهدها نبيها، على أنه قد بلغ رسالات ربه، قال الله تعالى :{وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ}"[6].

قوله تعالى:{ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا} [النحل : ٨٤]، أي:" ثم لا يُؤذن للذين كفروا بالاعتذار عما وقع منهم"[7].

قال الطبري:" يقول: ثم لا يؤذن للذين كفروا في الاعتذار، فيعتذروا مما كانوا بالله وبرسوله يكفرون"[8].

قال ابن كثير:" أي : في الاعتذار ؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ، كما قال : { هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } [المرسلات : ٣٥ ، ٣٦]"[9].

قال السعدي:" لأن اعتذارهم بعد ما علم يقينا بطلان ما هم عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئا"[10].

قال الزمخشري:" المعنى: لا حجة لهم، فدل بترك الإذن على أن لا حجة لهم ولا عذر"[11].

---

(١) انظر: القول السديد شرح كتاب التوحيد: ١٥٧.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٢/٢.
(٤) تفسير الطبري:٢٧٤/١٧.
(٥) تفسير السعدي:٤٤٦.
(٦) أخرجه الطبري:٢٧٤/١٧.
(٧) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٨) تفسير الطبري:٢٧٤/١٧.
(٩) تفسير ابن كثير:٥٩٣/٤.
(١٠) تفسير السعدي:٤٤٦.
(١١)الكشاف:٦٢٦/٢ .

قال الزمخشري:" فإن قلت: فما معنى {ثم} هذه؟ قلت: معناها: أنهم يمنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها، وهو أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة"[١].

قوله تعالى:{وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} [النحل : ٨٤]، أي:" ولا يُطْلَب منهم إرضاءُ ربهم بالتوبة والعمل الصالح، فقد مضى أوان ذلك"[٢].

قال الطبري:" فيتركوا الرجوع إلى الدنيا فينيبوا ويتوبوا"[٣].

قال الزمخشري:" ولا هم يسترضون، أى: لا يقال لهم أرضوا ربكم، لأن الآخرة ليست بدار عمل"[٤].

قال السعدي:" وإن طلبوا أيضا الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا لم يجابوا ولم يعتبوا"[٥].

الفوائد:

١- تقرير عقيدة البعث الآخر بما لا مزيد عليه لكثرة ألوان العرض لما يجرى في ذلك اليوم.

٢- شهود الرسل على الأمم: فيشهد كل رسول على أمته وأنه قد بلغهم وبين لهم وأزال عنهم الشبه لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل.

القرآن

{وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥)} [النحل : ٨٥]

التفسير:

وإذا شاهد الذين كفروا عذاب الله في الآخرة فلا يخفف عنهم منه شيء، ولا يُمْهلون، ولا يؤخر عذابهم.

قوله تعالى:{وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ} [النحل : ٨٥]، أي:" وإذا شاهد الذين كفروا عذاب الله في الآخرة فلا يخفف عنهم منه شيء"[٦].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإذا عاين الذين كذّبوك يا محمد، وجَحَدُوا نُبوّتك والأمم الذين كانوا على منهاج مشركي قومك عذاب الله، فلا ينجيهم من عذاب الله شيء، لأنهم لا يؤذن لهم، فيعتذرون، فيخفَّف عنهم العذاب بالعذر الذي يدعونه"[٧].

قال يحيى بن سلام: وإذا دخل الذين ظلموا العذاب، يعني المشركين، فلا يخفف عنهم} العذاب"[٨].

قال ابن كثير:" أي : لا يفتر عنهم ساعة واحدة "[٩].

قال السمعاني:" {فلا يخفف عنهم} أي: لا يسهل عليهم"[١٠].

قوله تعالى:{وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ} [النحل : ٨٥]، أي:" ولا يُمْهلون، ولا يؤخر عذابهم"[١١].

قال السمعاني:" أي: لا يمهلون"[١٢].

---

(١)الكشاف:٦٢٦/٢ -٦٢٧.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٣) تفسير الطبري:٢٧٤/١٧.
(٤)الكشاف:٦٢٦/٢ .
(٥) تفسير السعدي:٤٤٦.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٧) تفسير الطبري:٢٧٤/١٧-٢٧٥.
(٨) تفسير يحيى بن سلام:٨١/١-٨٢.
(٩) تفسير ابن كثير:٥٩٣/٤.
(١٠) تفسير السمعاني:١٩٤/٣.
(١١) التفسير الميسر:٢٧٦.
(١٢) تفسير السمعاني:١٩٤/٣.

قال الطبري:" يقول: ولا يُرْجَئُون بالعقاب، لأن وقت التوبة والإنابة قد فات، فليس ذلك وقتا لهما، وإنما هو وقت للجزاء على الأعمال، فلا ينظر بالعتاب ليعتب بالتوبة"[1].

قال مقاتل:" يعني: ولا يناظر بهم فذلك قوله- سبحانه: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُم} [غافر : ٥٢]"[2].

قال يحيى بن سلام:" سألوا الله أن ينظرهم، أن يؤخرهم فيردهم إلى الدنيا حتى يتوبوا، فلم ينظرهم، أي فلم يؤخرهم"[3].

قال السعدي:" يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه لأنهم لا حساب عليهم لأنهم لا حسنات لهم وإنما تعد أعمالهم وتحصى ويوقفون عليها ويقرون بها ويفتضحون"[4].

قال ابن كثير:" أي : لا يؤخر عنهم ، بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب ، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ، فيشرف عُنُق منها على الخلائق ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه ، فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد ، الذي جعل مع الله إلهًا آخر ، وبكذا وكذا وتذكر أصنافا من الناس ، كما جاء في الحديث. ثم تنطوي عليهم وتتلقطهم من الموقف كما يتلقط الطائر الحب قال الله تعالى : { إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا } [الفرقان : ١٢ - ١٤] ، وقال تعالى : { وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا } [الكهف : ٥٣]. وقال تعالى : { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ } [الأنبياء : ٣٩ ، ٤٠]"[5].

عن أبي العالية في قوله: "{وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون}، قال: هذا، كقوله: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ}[6]"[7].

الفوائد:

١- عدم تخفيف العذاب عن أصحاب النار، قال تعالى:" {فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون}، ومنه قوله تعالى: {وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا} [فاطر : ٣٦]، وقوله تعالى: {لَا يُفَتَّرُ عَنْهُم} [الزخرف : ٧٥]، فإن حرف النفي ينفي المصدر الكامن في الفعل فهو في معنى: لا تخفيف للعذاب عنهم ولا تفتير له.

٢- يستفاد من الفائدة السابقة: الرد على القول بفناء النار، لأن ذلك يلزمه تخفيف العذاب وتفتيره المنفيان في هذه الآيات، بل يلزمه ذهابهما رأسا، كما أنه يلزمه نفي ملازمة العذاب المنصوص عليها بقوله: {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} [الفرقان : ٧٧]، وقوله: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} [الفرقان : ٦٥]، وإقامته النصوص عليها بقوله: {وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيم} [المائدة : ٣٧/ التوبة: ٦٨].

فظاهر هذه الآيات عدم فناء النار المصرح به في قوله: {كلما خبت زدناهم سعيرا}

القرآن

{وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦)} [النحل : ٨٦]

---

(١) تفسير الطبري:١٧/٢٧٤-٢٧٥.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢/٤٨٢.
(٣) تفسير يحيى بن سلام:١/٨٢.
(٤) تفسير السعدي:٤٤٦.
(٥) تفسير ابن كثير:٤/٥٩٢-٥٩٣.
(٦)[المرسلات :٣٥-٣٦].
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٦٢٤):ص٧/٢٢٩٦.

التفسير:
وإذا أبصر المشركون يوم القيامة آلهتهم التي عبدوها مع الله، قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا نعبدهم مِن دونك، فنطقَتِ الآلهة بتكذيب مَن عبدوها، وقالت: إنكم -أيها المشركون- لَكاذبون، حين جعلتمونا شركاء لله وعبدتمونا معه، فلم نأمركم بذلك، ولا زعمنا أننا مستحقون للألوهية، فاللوم عليكم.
قوله تعالى:{وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ} [النحل : ٨٦]، أي:" وإذا أبصر المشركون يوم القيامة آلهتهم التي عبدوها مع الله"(١).
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وإذا رأى المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان وغير ذلك"(٢).
قال الزجاج:" أي: لما رأى الذين أشركوا ما كانوا يشركون بالله غير نافعهم وجحدتهم آلهتهم"(٣).
قال الزمخشري:" إن أرادوا بالشركاء آلهتهم، فمعنى شركاؤنا آلهتنا التي دعوناها شركاء. وإن أرادوا الشياطين، فلأنهم شركاؤهم في الكفر وقرناؤهم في الغي"(٤).
قال السعدي:أي:" يوم القيامة وعلموا بطلانها ولم يمكنهم الإنكار"(٥).
قوله تعالى:{قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ} [النحل : ٨٦]، أي:" قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا نعبدهم مِن دونك"(٦).
قال الطبري:" قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا في الكفر بك، والشركاء الذين كنا ندعوهم آلهة من دونك"(٧).
قوله تعالى:{فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ} [النحل : ٨٦]، أي:" فنطقَتِ الآلهة بتكذيب مَن عبدوها، وقالت: إنكم -أيها المشركون- لَكاذبون، حين جعلتمونا شركاء لله وعبدتمونا معه، فلم نأمركم بذلك، ولا زعمنا أننا مستحقون للألوهية، فاللوم عليكم"(٨).
قال الطبري:" يقول: قالوا لهم: إنكم لكاذبون أيها المشركين، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا"(٩).
عن مجاهد :{فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ}، قال: حدّثوهم"(١٠).
قال السعدي:" أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: {إنكم لكاذبون} حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدتمونا معه فلم نأمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية فاللوم عليكم"(١١).
وفي قوله تعالى:{فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ} [النحل : ٨٦]، وجهان(١٢):
أحدهما: أن هذا قول «الأصنام»، يقولون للمشركين: إنكم لكاذبون، يعني: في أنا دعوناكم إلى عبادتنا، أو في قولكم: إن هؤلاء آلهة، أو في قولكم: إنا نستحق العبادة.
الثاني: أن الملائكة يقولون: إنكم لكاذبون.
قال السمعاني: "الأول أظهر"(١).

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٢) تفسير الطبري:٢٧٤/١٧-٢٧٥.
(٣) معاني القرآن:٢١٦/٣.
(٤) الكشاف:٦٢٧/٢.
(٥) تفسير السعدي:٤٤٦.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٧) تفسير الطبري:٢٧٤/١٧-٢٧٥.
(٨) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٩) تفسير الطبري:٢٧٤/١٧-٢٧٥.
(١٠) أخرجه الطبري:٢٧٥/١٧.
(١١) تفسير السعدي:٤٤٦.
(١٢)انظر: تفسير السمعاني:١٩٤/٣ .

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم قالوا :{إنكم لكاذبون}، وكانوا يعبدونهم على الصحة؟
قلت: لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكأن عبادتهم لم تكن عبادة. والدليل عليه قول الملائكة كانوا يعبدون الجن يعنون أن الجن كانوا راضين بعبادتهم لا نحن، فهم المعبودون دوننا. أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله من الشريك. وإن أريد بالشركاء الشياطين، جاز أن يكون «كاذبين» في قولهم إنكم لكاذبون كما يقول الشيطان: {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ} [إبراهيم : ٢٢]"[٢].

القرآن

{وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧)} [النحل : ٨٧]

التفسير:

وأظهر المشركون الاستسلام والخضوع لله يوم القيامة، وغاب عنهم ما كانوا يختلقونه من الأكاذيب، وأن آلهتهم تشفع لهم.

قوله تعالى:{وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ} [النحل : ٨٧]، أي:" وأظهر المشركون الاستسلام والخضوع لله يوم القيامة"[٣].

قال الواحدي:" استسلموا لحكم الله تعالى"[٤].

قال الطبري:" استسلموا يومئذ وذَلُّوا لحكمه فيهم، ولم تغن عنهم آلهتهم التي كانوا يدعون في الدنيا من دون الله، وتبرأت منهم، ولا قومهم، ولا عشائرهُم الذين كانوا في الدنيا يدافعون عنهم، والعرب تقول: ألقيت إليه كذا، تعني: بذلك قلت له"[٥].

قال قتادة:" يقول: ذلوا واستسلموا يومئذ"[٦].

قال السعدي:" فحينئذ استسلموا لله، وخضعوا لحكمه وعلموا إنهم مستحقون للعذاب"[٧].

قال الزمخشري:" إلقاء السلم: الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا"[٨].

قوله تعالى:{وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [النحل : ٨٧]، أي:" وغاب عنهم ما كانوا يختلقونه من الأكاذيب، وأن آلهتهم تشفع لهم"[٩].

قال مقاتل:" يعني: يعبدون في الدنيا من الآلهة"[١٠].

قال الواحدي:" بطل ما كانوا يأملون من أنَّ آلهتهم تشفع لهم"[١١].

قال الطبري:" يقول: وأخطأهم من آلهتهم ما كانوا يأملون من الشفاعة عند الله بالنجاة"[١٢].

قال الزمخشري:" وبطل عنهم ما كانوا يفترون من أن لله شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم"[١٣].

---

(١) انظر: تفسير السمعاني:١٩٤/٣.
(٢) الكشاف:٦٢٧/٢.
(٣) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٤) الوجيز:٦١٦.
(٥) تفسير الطبري:٢٧٦/١٧.
(٦) أخرجه الطبري:٢٧٦/١٧.
(٧) تفسير السعدي:٤٤٦.
(٨) الكشاف:٦٢٧/٢.
(٩) التفسير الميسر:٢٧٦.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٣٦/٢.
(١١) الوجيز:٦١٦.
(١٢) تفسير الطبري:٢٧٦/١٧.
(١٣) الكشاف:٦٢٧/٢.

قال ابن كثير:" أي : ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجيز"[١].

قال يحيى بن سلام:" عبادتهم إياهم في الدنيا افتراء على الله وهو الكذب"[٢].

قال السعدي:" فدخلوا النار وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم ومن حمد ربهم وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا"[٣].

فوائد الآيتين:[٨٦-٨٧]:

٣- أن كل معبود يوم القيامة سوف ينكر عبادة من عبده، ويكذبه فيما قصده.
٤- براءة الشياطين والأصنام الذين أشركهم الناس في عبادة الله من المشركين بهم والتبرؤ منهم وتكذيبهم.
٥- بيان مخاصمة العابدين المعبودين يوم القيامة، فإن جميع المعبودات التي لم ترض باتخاذها آلهة، تتبرأ من عابديها، وتكذبهم في دعواهم، وتقرُّ بعبوديتها لله ربها.

القرآن

{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)} [النحل : ٨٨]

التفسير:

الذين جحدوا وحدانية الله ونبوتك -أيها الرسول- وكذَّبوك، ومنعوا غيرهم عن الإيمان بالله ورسوله، زدناهم عذابا على كفرهم وعذابًا على صدِّهم الناس عن اتباع الحق؛ وهذا بسبب تعمُّدهم الإفساد وإضلال العباد بالكفر والمعصية.[٤].

قوله تعالى:{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [النحل : ٨٨]، أي:" الذين جحدوا وحدانية الله ونبوتك -أيها الرسول- وكذَّبوك، ومنعوا غيرهم عن الإيمان بالله ورسوله"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: الذين جحدوا يا محمد نبوّتك وكذّبوك فيما جئتهم به من عند ربك، وصَدُّوا عن الإيمان بالله وبرسوله، ومن أراده"[٦].

قوله تعالى:{زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ} [النحل : ٨٨]، أي:" زدناهم عذابا على كفرهم وعذابًا على صدِّهم الناس عن اتباع الحق"[٧].

قال الطبري:" زدناهم عذابًا يوم القيامة في جهنم فوق العذاب الذي هم فيه قبل أن يزادوه. وقيل: تلك الزيادة التي وعدهم الله أن يزيدهموها عقارب وحيات"[٨].

قال القرطبي:" قيل: المعنى: يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار. وقيل: المعنى زدنا القادة عذابا فوق السفلة، فأحد العذابين على كفرهم والعذاب الآخر على صدهم"[٩].

عن عبد الله :"{زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ}، قال: عقارب لها أنياب كالنخل"[١٠].

وفي رواية:" زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال"[١١].

وفي رواية:" أفاعيَ في النار"[١].

---

(١) تفسير ابن كثير:٥٩٣/٤.
(٢) تفسير يحيى بن سلام:٨٢/١.
(٣) تفسير السعدي:٤٤٦.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٧.
(٥) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٦) تفسير الطبري:٢٧٦/١٧.
(٧) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٨) تفسير الطبري:٢٧٦/١٧.
(٩) تفسير القرطبي:١٦٤/١٠.
(١٠) أخرجه الطبري:٢٧٦/١٧.
(١١) أخرجه الطبري:٢٧٦/١٧.

عن عبيد بن عمير، قال: "إن لجهنم جبابا فيها حيات أمثال البخت[٢] وعقارب أمثال البغال الدهم، يستغيث أهل النار إلى تلك الجِباب أو الساحل، فتثب إليهم فتأخذ بشِفاههم وشفارهم إلى أقدامهم، فيستغيثون منها إلى النار، فيقولون: النارَ النارَ، فتتبعهم حتى تجد حرّها فترجع، قال: وهي في أسراب"[٣].

عن ابن عباس في قوله: "{زدناهم عذابا فوق العذاب}، قال: خمسة أنهار من نار صبها الله عليهم، يعذبون ببعضها بالليل وببعضها بالنهار"[٤].

عن مالك بن الحارث قال: "إذا طرح الرجل في النار هوى فيها، فإذا إنتهى إلى بعض أبوابها قيل: مكانك حتى تتحف، فيسقى كأسا من سم الأساود والعقارب، فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة"[٥].

قال سهل بن عبدالله:" حكى جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن هذه الزيادة ما هي، فقال له رسول الله ﷺ: «الزيادة خمسة أنهار تخرج من تحت العرش على رؤوس أهل النار الجاحدين بالله ورسوله، ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار تجري نارا أبدا ما داموا فيها»[٦].

وقال القرطبي في هذا الموضوع:" هذا الباب يدلك على أن كفر من كفر فقط، ليس ككفر من طغى وكفر وتمرد وعصى، ولا شك أن الكفار في عذاب جهنم متفاوتون كما قد علم من الكتاب والسنة، ولأنا نعلم على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء والمسلمين وفتك فيهم وأفسد في الأرض وكفر، مساوياً لعذاب من كفر فقط وأحسن للأنبياء والمسلمين، ألا ترى أبا طالب كيف أخرجه النبي - ﷺ - إلى ضحضاح لنصرته إياه، وذبّه عنه وإحسانه إليه؟ وحديث مسلم عن سمرة يصح أن يكون في الكفار بدليل حديث أبي طالب، ويصح أن يكون فيمن يعذب من الموحدين "[٧].

قوله تعالى:{بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} [النحل : ٨٨]، أي:" وهذا بسبب تعمُّدهم الإفساد وإضلال العباد بالكفر والمعصية"[٨].

قال القرطبي:أي:" في الدنيا من الكفر والمعصية"[٩].

قال الطبري:" يقول: زدناهم ذلك العذاب على ما بهم من العذاب بما كانوا يفسدون، بما كانوا في الدنيا يعصُون الله، ويأمرون عباده بمعصيته، فذلك كان إفسادهم، اللهم إنا نسألك العافية يا مالك الدنيا والآخرة الباقية"[١٠].

الفوائد:

١- زيادة العذاب لمن دعا إلى الشرك والكفر وحمل الناس على ذلك.

٢- ومن الفوائد: تفاوت عذاب أهل النار:

لما كانت النار دركات بعضها أشد عذاباً وهولاً من بعض كان أهلها متفاوتون في العذاب، ففي الحديث الذي يرويه مسلم وأحمد عن سمرة، عن النبي - ﷺ - قال في

---

(١) أخرجه الطبري:٢٧٧/١٧.
(٢)البخت: هي الإبل الخراسانية، وهي جمال طوال الأعناق، الواحد حتى (اللسان).
(٣) أخرجه الطبري:٢٧٧/١٧.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٦٣١):ص٢٢٩٧/٧.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٦٣٠):ص٢٢٩٧/٧.
(٦) تفسير التستري:٩٢.
لم أجد الحديث في مصادر الحديث، وفي تفسير ابن كثير ٢/ ٦٠٣ عن ابن عباس قال: "هي خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها في الليل، وببعضها في النهار".
(٧) التذكرة:٤٠٩.
(٨) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٩) تفسير القرطبي:١٦٤/١٠.
(١٠) تفسير الطبري:٢٧٧/١٧.

أهل النار: " إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته " وفي رواية " إلى عنقه "[١].

وقد حدثنا الرسول - ﷺ - عن أخف أهل النار عذاباً، ففي صحيح البخاري عن النعمان بن بشير قال: سمعت النبي - ﷺ - يقول: " إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه ". وفي رواية أخرى في صحيح البخاري أيضاً عن النعمان بن بشير: " إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل في القمقم "[٢].

قال ابن رجب: " واعلم أن تفاوت أهل النار في العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التي أدخلوا بها النار " ثم ساق الأدلة الدالة على ذلك، وساق قول ابن عباس: " ليس عقاب من تغلظ كفره وأفسد في الأرض ودعا إلى الكفر كمن ليس كذلك" ثم قال ابن رجب: " وكذلك تفاوت عذاب عصاة الموحدين في النار بحسب أعمالهم، فليس عقوبة أهل الكبائر كعقوبة أهل الصغائر، وقد يخفف عن بعضهم بحسنات أخرى له أو بما شاء الله من الأسباب، ولهذا يموت بعضهم في النار "[٣].

القرآن

{وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)} [النحل : ٨٩]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- حين نبعث يوم القيامة في كل أمة من الأمم شهيدًا عليهم، هو الرسول الذي بعثه الله إليهم من أنفسهم وبلسانهم، وجئنا بك -أيها الرسول- شهيدًا على أمتك، وقد نَزَّلْنا عليك القرآن توضيحًا لكل أمر يحتاج إلى بيان، كأحكام الحلال والحرام، والثواب والعقاب، وغير ذلك، وليكون هداية من الضلال، ورحمة لمن صدَّق وعمل به، وبشارة طيبة للمؤمنين بحسن مصيرهم.

قوله تعالى:{وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [النحل : ٨٩]، أي:" واذكر -أيها الرسول- حين نبعث يوم القيامة في كل أمة من الأمم شهيدًا عليهم، هو الرسول الذي بعثه الله إليهم من أنفسهم وبلسانهم"[٤].

قال القرطبي:" وهم الأنبياء شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعوهم إلى الإيمان، في كل زمان شهيد وإن لم يكن نبيا، وفيهم قولان:

أحدهما- أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء.

الثاني- أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه.

ثم قال القرطبي: فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحد الله، كقس بن ساعدة، وزيد بن عمرو ابن نفيل الذي قال فيه النبي ﷺ:" يبعث أمة وحده"، وسطيح[٥]، وورقة ابن نوفل الذي قال فيه النبي ﷺ:" رأيته ينغمس في أنهار الجنة"[٦]. فهؤلاء ومن كان مثلهم حجة على أهل أهل زمانهم وشهيد عليهم. والله أعلم"[١].

---

(١)رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب شدة حر النار، (٢١٨٥/٤).

(٢)رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، فتح الباري (٤١٧/١١) ، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان: (١٩٦/١) ، ورقمه ٣٦٣، واللفظ للبخاري.

(٣)التخويف من النار: ص١٤٢ - ١٤٣.

(٤) التفسير الميسر:٢٧٦.

(٥)هو كاهن بنى ذئب، كان يتكهن في الجاهلية، واسمه: ربيع بن ربيعة. (راجع سيرة ابن هشام ص ٩ طبع أوربا).

(٦) أخرجه ابن السكن كما في الإصابة:٣٠٦/١٠، بلفظ«رأيت ورقة على نهر من انهار الجنة».

وفي رواية« لقد رأيته يعنى ورقة بن نوفل على نهر فى بطان الجنة عليه حلة من سندس ورأيت خديجة على

قوله تعالى:{وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ} [النحل : ٨٩]، أي:" وجئنا بك -أيها الرسول- شهيدًا على أمتك"(٢).

قال ابن عباس:" الشاهد نبي الله، قال الله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}"(٣).

قال الزجاج:" أي: نأتي بكل نبي أمة يشهد عليها ولها"(٤).

قال ابن جريج:" {وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}، قال : كان النبي ﷺ إذا أتى عليها فاضت عيناه"(٥).

وعن عكرمة:" في قوله :{وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ}[سورة البروج : ٣] ، قال : الشاهد محمد ، والمشهود يوم الجمعة. فذلك قوله : " {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}"(٦).

قال الفراء:" إن كل نبي يأتي يوم القيامة فيقول: بلغت، فتقول أمته: لا، فيكذبون الأنبياء، ثم يجاء بأمة محمد ﷺ فيصدقون الأنبياء ونبيهم ، ثم يأتي النبي ﷺ فيصدق أمته، فذلك قوله تبارك وتعالى: لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا، ومنه قول الله: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد [وجئنا بك على هؤلاء شهيدا]}"(٧).

قال السدي:" إن النبيين يأتون يوم القيامة ، منهم من أسلم معه من قومه الواحدُ والاثنان والعَشَرة ، وأقلُّ وأكثر من ذلك ، حتى يُؤتى بقوم لوط ﷺ ، لم يؤمن معه إلا ابنتاه ، فيقال لهم : هل بلَّغتم ما أرسلتُمْ به ؟ فيقولون : نعم. فيقال : من يشهد ، فيقولون : أمة محمد ﷺ! فيقال لهم : اشهدوا ، إنّ الرسل أودعوا عندكم شهادة، فبم تشهدون ؟ فيقولون : ربنا نَشهد أنهم قد بلغوا كما شهدوا في الدنيا بالتبليغ. فيقال : من يشهد على ذلك ؟ فيقولون : محمد ﷺ. فيدعى محمد عليه السلام ، فيشهدُ أن أمته قد صدَّقوا ، وأنّ الرسل قد بلَّغوا ، فذلك قوله : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[سورة البقرة : ١٤٣]"(٨).

قال السمعاني:" واختلفوا في أن النبي هل يشهد على من لم يره؟ منهم من قال: إنما يشهد على من رآه، والصحيح: أنه يشهد على الكل، على من رأى، وعلى من لم ير"(٩).

قال البغوي:" شاهدا يشهد على جميع الأمة، على من رآه ومن لم يره"(١٠).

قوله تعالى:{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل : ٨٩]، أي:" وقد نَزَّلْنا عليك القرآن توضيحًا لكل أمر يحتاج إلى بيان، كأحكام الحلال والحرام، والثواب والعقاب، وغير ذلك"(١١).

قال مقاتل:" من أمره، ونهيه، ووعده، ووعيده، وخبر الأمم الخالية"(١).

نهر من أنهار الجنة فى بيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب».

أخرجه أبو يعلى (٤١/٤، رقم ٢٠٤٧) . قال الهيثمى (٤١٦/٩) : فيه مجالد، وهذا مما مدح من حديث مجالد، وبقية رجاله رجال الصحيح. وتمام (١٥٢/٢، رقم ١٤٠٤) ، وابن عدى (٣١٩/١، ترجمة ١٤٣ إسماعيل بن مجالد بن سعيد) ، وابن عساكر (٢٢/٦٣) جميعا مطولا.

ومن غريب الحديث: "قصب": لؤلؤ مجوف.

(١) تفسير القرطبي:١٦٤/١٠.

(٢) التفسير الميسر:٢٧٦.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٥٣٤٢):ص٩٥٦/٣.

(٤) معاني القرآن:٥٤/٢.

(٥) أخرجه الطبري(٩٥١٦):ص٣٦٩/٨.

(٦) أخرجه الطبري(٩٥١٧):ص٣٦٩/٨.

(٧) معاني القرآن:٨٣/١.

(٨) أخرجه الطبري(٩٥١٥):ص٣٦٩/٨.

(٩) تفسير السمعاني:٤٢٩/١.

(١٠) تفسير البغوي:٦٢٤/١.

(١١) التفسير الميسر:٢٧٦.

قال ابن مسعود:" إن الله أنزل في هذا الكتاب تبيانا لكل شيء، ولقد علمنا بعضا مما بين لنا في القرآن. ثم تلا: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء}، قال: بالسنة"[٢].

قوله تعالى:{وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل : ٨٩]، أي:" وليكون هداية من الضلال، ورحمة لمن صدَّق وعمل به، وبشارة طيبة للمؤمنين بحسن مصيرهم"[٣].

قال مقاتل:" وهذا القرآن {وهدى}، من الضلالة، {ورحمة}، من العذاب لمن عمل به {وبشرى}، يعني: ما فيه من الثواب {للمسلمين}، يعني: المخلصين"[٤].

الفوائد:

١- أن الرسل تشهد على الأمم في تبليغ الرسالة وإقامة الحجة عليها.
٢- بيان كمال دين الإسلام، وأن القرآن العظيم منهاج كامل، فيه البيان الحق الشافي لأمور الدين والدنيا، فلا خير إلا دل عليه، ولا شر إلا حذر منه، وكل مسألة وكل مشكلة قديمة أو حاضرة أو مستقبلة فإن الحل الصحيح العادل لها في القرآن، وكل حل لها يُخالف حل القرآن فهو جهل وظلم.
٣- في هذه الآية أن القرآن فيه البيان لكل شيء، وأن فيه الاهتداء التام، وأن فيه الرحمة الشاملة، وأن فيه البشارة الصادقة للمتمسِّكين به الخاضعين لأحكامه.
٤- لا عذر لأحد بعد أن أنزل الله تعالى القرآن تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين.

القرآن

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)} [النحل : ٩٠]

التفسير:

إن الله سبحانه وتعالى يأمر عباده في هذا القرآن بالعدل والإنصاف في حقه بتوحيده وعدم الإشراك به، وفي حق عباده بإعطاء كل ذي حق حقه، ويأمر بالإحسان في حقه بعبادته وأداء فرائضه على الوجه المشروع، وإلى الخلق في الأقوال والأفعال، ويأمر بإعطاء ذوي القرابة ما به صلتهم وبرُّهم، وينهى عن كل ما قَبُحَ قولا أو عملا وعما ينكره الشرع ولا يرضاه من الكفر والمعاصي، وعن ظلم الناس والتعدي عليهم، والله -بهذا الأمر وهذا النهي- يَعِظكم ويذكِّركم العواقب؛ لكي تتذكروا أوامر الله وتنتفعوا بها.

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ} [النحل : ٩٠]، أي:" إن الله سبحانه وتعالى يأمر عباده في هذا القرآن بالعدل والإنصاف في حقه بتوحيده وعدم الإشراك به، وفي حق عباده بإعطاء كل ذي حق حقه"[٥].

قال مقاتل:" بالتوحيد"[٦].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله يأمر في هذا الكتاب الذي أنزله إليك يا محمد بالعدل، وهو الإنصاف، ومن الإنصاف: الإقرار بمن أنعم علينا بنعمته، والشكر له على إفضاله، وتولي الحمد أهله. وإذا كان ذلك هو العدل، ولم يكن للأوثان والأصنام عندنا يد تستحقّ الحمد عليها، كان جهلا بنا حمدها وعبادتها، وهي لا تنعِم فتشكر، ولا تنفع فتعبد، فلزمنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له"[٧].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٣/٢.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٦٣٢):ص٢٢٩٧/٧.
(٣) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٣/٢.
(٥) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٣/٢.
(٧) تفسير الطبري:٢٧٩/١٧.

عن ابن عباس، قوله "{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ}، قال: شهادة أن لا إله إلا الله"[1].
وقال الصابوني:" يأمر بمكارم الأخلاق بالعدل بين الناس"[2].
قال محمد بن كعب القرظي: "دعاني عمر بن عبد العزيز فقال: صف لي العدل، فقلت: بخ ... سألت عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أبا ولكبيرهم ابنا، وللمثل منهم أخا وللنساء كذلك، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسادهم، ولا تضربن بغضبك سوطا واحدا متعديا فتكون من العادين"[3].
قوله تعالى:{وَالْإِحْسَانِ} [النحل : ٩٠]، أي:" ويأمر عباده بالإحسان في حقه بعبادته وأداء فرائضه على الوجه المشروع، وإلى الخلق في الأقوال والأفعال"[4].
قال الصابوني:أي: "والإحسان إلى جميع الخلق"[5].
قال الطبري:" فإن الإحسان الذي أمر به تعالى ذكره مع العدل الذي وصفنا صفته: الصبر لله على طاعته فيما أمر ونهى، في الشدّة والرخاء، والمَكْرَه والمَنْشَط، وذلك هو أداء فرائضه"[6].
عن ابن عباس :"{وَالإِحْسَانِ}، يقول: أداء الفرائض"[7].
وقال مقاتل:" يعني: العفو عن الناس"[8].
عن الشعبي قال: "قال عيسى ابن مريم: إنما الإحسان إن تحسن إلى من أساء إليك والله أعلم"[9].
قوله تعالى:{وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى} [النحل : ٩٠]، أي:" ويأمر بإعطاء ذوي القرابة ما به صلتهم وبرُّهم"[10].
قال الطبري:" يقول: وإعطاء ذي القربى الحقّ الذي أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم"[11].
عن ابن عباس :"{وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى}، يقول: الأرحام"[12].
قال مقاتل:" يعني: وإعطاء ذي القربى المال، يعني: صلة قرابة الرجل كقوله: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّه} [الإسراء : ٢٦]، يعني: صلته"[13].
قوله تعالى:{وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ} [النحل : ٩٠]، أي:" وينهى عن كل ما قَبُحَ قولا أو عملا وعما ينكره الشرع ولا يرضاه من الكفر والمعاصي، وعن ظلم الناس والتعدي عليهم"[14].
عن ابن عباس :"{وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ}، يقول: الزنا"[15]، "{والبَغْي}، يقول: الكبر والظلم"[16].

---

(١) أخرجه الطبري:٢٧٩/١٧.
(٢) صفوة التفاسير:١٢٨/٢.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٦٣٦):ص٢٢٩٩/٧.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٥) صفوة التفاسير:١٢٨/٢.
(٦) تفسير الطبري:٢٧٩/١٧.
(٧) أخرجه الطبري:٢٧٩/١٧.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٣/٢.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٦٣٧):ص٢٢٩٩/٧.
(١٠) التفسير الميسر:٢٧٦.
(١١) تفسير الطبري:٢٧٩/١٧.
(١٢) أخرجه الطبري:٢٧٩/١٧.
(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٣/٢.
(١٤) التفسير الميسر:٢٧٦.
(١٥) أخرجه الطبري:٢٨٠/١٧.
(١٦) أخرجه الطبري:٢٨٠/١٧.

قال مقاتل:" الفحشاء يعني المعاصي والمنكر يعني الشرك وما لا يعرف من القول والبغي يعني ظلم الناس"(١).

قوله تعالى:{يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل : ٩٠]، أي:" والله -بهذا الأمر وهذا النهي- يَعِظكم ويذكِّركم العواقب؛ لكي تتذكروا أوامر الله وتنتفعوا بها"(٢).

قال الطبري:" يقول: يذكركم أيها الناس ربكم لتذكروا فتنيبوا إلى أمره ونهيه، وتعرفوا الحقّ لأهله"(٣).

عن ابن عباس :"{يَعِظُكُمْ}، يقول: يوصيكم {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}"(٤).

قال مقاتل:" يعني: يؤدبكم لكي تذكروا فتتأدبوا"(٥).

وذكروا في تفسير هذه الآية، قلاثة اقوال:

أحدها : أن {العدل} : شهادة أن لا إله إلا الله، و{الإحسان}: الصبر على أمره ونهيه وطاعة الله في سره وجهره، {وإيتاء ذي القربى}: صلة الرحم،{وينهى عن الفحشاء}، يعني: الزنى، {والمنكر}: القبائح، {والبغي}: الكبر والظلم. حكاه ابن جرير الطبري(٦).

الثاني : أن {العدل}: القضاء بالحق ، {والإحسان}: التفضل بالإنعام ، {وإيتاء ذي القربى}: ما يستحقونه من النفقات . {وينهى عن الفحشاء} ما يستتر بفعله من القبائح . {والمنكر}: ما يتظاهر به منها فينكر . {والبغي}: منا يتطاول به من ظلم وغيره ، وهذا معنى ما ذكره ابن عيسى(٧).

الثالث : أن العدل ها هنا استواء السريرة والعلانية في العمل لله . والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته . والفحشاء والمنكر : أن تكون علانيته أحسن من سريرته ، قاله سفيان بن عيينة(٨). قال الماوردي:"فأمر بثلاث ونهى عن ثلاث"(٩).

قال ابن مسعود:" إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل :{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى} ... إلى آخر الآية"(١٠).

وفي رواية:" إن أجمع آية في القرآن لخير أو لشر، آية في سورة النحل :{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} .... الآية"(١١).

عن قتادة، قوله :"{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى} ... الآية، إنه ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خُلق سيِّئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدّم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومَذامِّها"(١٢).

قال مقاتل:" لما نزلت هذه الآية بمكة قال أبو طالب ابن عبد المطلب: يا آل غالب(١٣) اتبعوا محمدا- ﷺ- تفلحوا وترشدوا والله إن ابن أخي ليأمر بمكارم الأخلاق، وبالأمر الحسن، ولا يأمر إلا بحسن الأخلاق، والله لئن كان محمد- ﷺ- صادقا أو كاذبا ما يدعوكم إلا إلى الخير، فبلغ ذلك الوليد بن المغيرة فقال: إن كان محمد- ﷺ- قاله، فنعم ما قال، وإن إلهه قاله، فنعم ما قال، فأتنا

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٣/٢.
(٢) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٣) تفسير الطبري:٢٨٠/١٧.
(٤) أخرجه الطبري:٢٨٠/١٧.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٣/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٢٧٩/١٧ وما بعدها.
(٧) انظر: النكت والعيون:٢٠٩/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٢٨٠/١٧.
(٩) النكت والعيون:٢٠٩/٣.
(١٠) أخرجه الطبري:٢٨٠/١٧.
(١١) أخرجه الطبري:٢٨٠/١٧.
(١٢)اخرجه الطبري:٢٨٠/١٧-٢٨١ .
(١٣) هكذا بالمطبوع، ولعلها محرفة عن طالب.

بلسانه ولم يصدق محمدا- ﷺ- بما جاء به ولم يتبعه، فنزلت : {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى(٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا}[النجم:٣٣-٣٤]، بلسانه {وَأَكْدَى} [النجم : ٣٤]، يعني: وقطع ذلك"(١).

قال ابن عباس:"بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالسا، إذ مر عثمان بن مظعون رضي الله عنه، فجلس إلى رسول الله ﷺ، فبينما هو يحدثه إذ شخص بصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع رأسه، فأخذ ينفض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، فلما قضى حاجته شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة، فأتبعه بصره حتى توارى في السماء فأقبل إلى عثمان كجلسته الأولى، فسأله عثمان رضي الله عنه فقال: أتاني جبريل آنفا. قال: فما قال لك؟ قال: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} ... إلى قوله: {تذكرون} ... قال عثمان: - رضي الله عنه- فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمدا ﷺ"(٢).

الفوائد:

١- بيان أجمع آية للخير والشر في القرآن وهي آية: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل : ٩٠].
٢- وجوب العدل والإحسان وإعطاء ذوي القربى حقوقهم الواجبة من البر والصلة.
٣- تحريم الزنا واللواط وكل قبيح اشتد قبحه من الفواحش الظاهرة والباطنة.
٤- تحريم البغي وهو الظلم بجميع صوره وأشكاله.
٥- ومن الفوائد: أن الدين الإسلامي: متضمن لجميع المصالح التي تضمنتها الأديان السابقة، متميز عليها بكونه صالحًا لكل زمان، ومكان، وأمَّة، قال الله تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) [سورة المائدة: ٤٨]، ومعنى كونه صالحًا لكل زمان، ومكان، وأمَّة: أنَّ التمسك به لا ينافي مصالح الأمة في أي زمان، أو مكان، بل هو صلاحها، وليس معنى ذلك أنَّه خاضع لكل زمان، ومكان، وأمَّة كما يريده بعض الناس.

والدين الإسلامي: هو دين الحق الذي ضمن الله - تعالى - لمن تمسَّك به حق التمسك أن ينصره، ويظهره على من سواه، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [سورة الصف: ٩]، وقال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة النور: ٥٥] .

والدين الإسلاميُّ: عقيدة، وشريعة، فهو كامل في عقيدته، وشرائعه:

أ- يأمرُ بتوحيد الله تعالى، وينهى عن الشرك.
ب- يأمرُ بالصدق، وينهى عن الكذب.
ت- يأمرُ بالعدل، وينهى عن الجور، والعدل هو المساواة بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات، وليس العدل المساواة المطلقة كما ينطق به بعض الناس حين يقول: دين الإسلام دين المساواة، ويطلق، فإن المساواة بين المختلفات جور لا يأتي به الإسلام، ولا يحمد فاعله.
ث- يأمرُ بالأمانة، وينهى عن الخيانة.
ج- يأمرُ بالوفاء، وينهى عن الغدر.
ح- يأمرُ ببرِّ الوالدين، وينهى عن العقوق.
خ- يأمرُ بصلة الأرحام وهم الأقارب، وينهى عن القطيعة.

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٤/٢.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٦٣٣):ص٢٢٩٧/٧-٢٢٩٨.

د- يأمرُ بحسن الجوار، وينهى عن سَيِّئه.

وعموم القول: أنّ «الإسلام» يأمر بكل خلق فاضل، وينهى عن كل خلق سافل.

ويأمر بكل عمل صالح، وينهى عن كل عمل سيء، قال الله تعالى: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [سورة النحل: ٩٠] (١).

القرآن

{وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)} [النحل : ٩١]

التفسير:

والتزموا الوفاء بكل عهد أوجبتموه على أنفسكم بينكم وبين الله -تعالى- أو بينكم وبين الناس فيما لا يخالف كتاب الله وسنة نبيه، ولا ترجعوا في الأيمان بعد أن أكَّدْتموها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا وضامنًا حين عاهدتموه. إن الله يعلم ما تفعلونه، وسيجزيكم عليه.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: عن أبي ليلى، عن بريدة ، "قوله {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ} قال: أنزلت هذه الآية في بيعة النبيّ ﷺ، كان من أسلم بايع على الإسلام، فقالوا: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ} هذه البَيعة التي بايعتم على الإسلام {وَلا تَنْقُضُوا الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} البيعة، فلا يحملكم قلة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام، وإن كان فيهم قلة والمشركين فيهم كثرة"(٢).

الثاني: أنها نزلت في الحِلْف الذي كان أهل الشرك تحالفوا في الجاهلية، فأمرهم الله عزّ وجلّ في الإسلام أن يوفّوا به ولا ينقضوه. وهذا قول مجاهد(٣)، وقتادة(٤)، وابن زيد(٥).

قوله تعالى:{وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ} [النحل : ٩١]، أي:" والتزموا الوفاء بكل عهد أوجبتموه على أنفسكم بينكم وبين الله -تعالى- أو بينكم وبين الناس فيما لا يخالف كتاب الله وسنة نبيه"(٦).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأوفوا بميثاق الله إذا واثقتموه، وعقده إذا عاقدتموه، فأوجبتم به على أنفسكم حقا لمن عاقدتموه به وواثقتموه عليه"(٧).

قوله تعالى:{وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} [النحل : ٩١]، أي:" ولا ترجعوا في الأيمان بعد أن أكَّدْتموها"(٨).

قال مقاتل:" يقول: لا تنقضوا الأيمان بعد تشديدها وتغليظها"(٩).

قال الطبري:" يقول: ولا تخالفوا الأمر الذي تعاقدتم فيه الأيمان، يعني بعد ما شددتم الأيمان على أنفسكم، فتحنثوا في أيمانكم وتكذبوا فيها وتنقضوها بعد إبرامها"(١٠).

قوله تعالى:{وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا} [النحل : ٩١]، أي:" وقد جعلتم الله عليكم كفيلا وضامنًا حين عاهدتموه"(١١).

---

(١) انظر: نبذة عن العقيدة الإسلامية: ٣١-٣٢.
(٢) أخرجه الطبري:٢٨١/١٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري:٢٨٢/١٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٢٨٢/١٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٢٨٢/١٧.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٧) تفسير الطبري:٢٨١/١٧.
(٨) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٤/٢.
(١٠) تفسير الطبري:٢٨١/١٧.
(١١) التفسير الميسر:٢٧٦.

قال مقاتل:" يعني شهيدا في وفاء العهد"[١].

قال الطبري:" يقول: وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه على أنفسكم راعيًا يرعى الموفى منكم بعهد الله الذي عاهد على الوفاء به والناقض"[٢].

عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "من شرط لأخيه شرطًا ، لا يريد أن يفي له به ، فهو كالمدلي جاره إلى غير مَنْعَة"[٣].

عن نافع قال : لما خلع الناس يزيد بن معاوية ، جمع ابن عمر بنيه وأهله ، ثم تشهد ، ثم قال : أما بعد ، فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إن الغادر يُنصب له لواء يوم القيامة ، فيقال هذه غَدْرة فلان وإن من أعظم الغَدْر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجل رجلا على بيعة الله ورسوله ، ثم ينكث بيعته ، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر ، فيكون صَيْلم بيني وبينه"[٤].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [النحل : ٩١]، أي:" إن الله يعلم ما تفعلونه، وسيجزيكم عليه"[٥].

قال ابن كثير:" تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها"[٦].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن الله أيها الناس يعلم ما تفعلون في العهود التي تعاهدون الله من الوفاء بها والأحلاف والأيمان التي تؤكدونها على أنفسكم، أتبرّون فيها أم تنقضونها وغير ذلك من أفعالكم، محص ذلك كله عليكم، وهو مسائلكم عنها وعما عملتم فيها، يقول: فاحذروا الله أن تلقوه وقد خالفتم فيها أمره ونهيه، فتستوجبوا بذلك منه ما لا قِبَل لكم به من أليم عقابه"[٧].

الفوائد:

١- وجوب الوفاء بالعهود وحرمة نقضها.
٢- حرمة نقض الإيمان بعد توكيدها وتوطين النفس عليها لتخرج لغو اليمين.

القرآن

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)} [النحل : ٩٢]

التفسير:

ولا ترجعوا في عهودكم، فيكون مَثَلكم مثل امرأة غزلت غَزْلا وأحكمته، ثم نقضته، تجعلون أيمانكم التي حلفتموها عند التعاهد خديعة لمن عاهدتموه، وتنقضون عهدكم إذا وجدتم جماعة أكثر مالا ومنفعة من الذين عاهدتموهم، إنما يختبركم الله بما أمركم به من الوفاء بالعهود وما نهاكم عنه مِن نقضها، وليُبيِّنَنَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون في الدنيا من الإيمان بالله ونبوة محمد ﷺ.

قوله تعالى:{وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا} [النحل : ٩٢]، أي:" ولا ترجعوا في عهودكم، فيكون مَثَلكم مثل امرأة غزلت غَزْلا وأحكمته، ثم نقضته"[٨].

قال مجاهد:" غزلها: حبلها تنقضه بعد إبرامها إياه ولا تنتفع به بعد"[١].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٤/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٨١/١٧.
(٣)المسند (٥/ ٤٠٤).
(٤)المسند (٢/ ٤٨).
(٥) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٦) تفسير ابن كثير:٥٩٩/٤.
(٧) تفسير الطبري:٢٨٣/١٧.
(٨) التفسير الميسر:٢٧٦.

عبد الله بن كثير :"{كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ}، قال: خرقاء كانت بمكة تنقضه بعد ما تُبْرِمه"[2].

قال السدي:" هي خَرْقَاءُ بمكة كانت إذا أبرمت غزلها نقضته"[3].

وروي عن قتادة، قوله :"{وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا}، فلو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم: ما أحمق هذه! وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده"[4].

قال ابن زيد:" هذا مثل ضربه الله لمن نقض العهد الذي يعطيه، ضرب الله هذا له مثلا بمثل التي غزلت ثم نقضت غزلها، فقد أعطاهم ثم رجع، فنكث العهد الذي أعطاهم"[5].

قوله تعالى:{تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ} [النحل : ٩٢]، أي:" تجعلون أيمانكم التي حلفتموها عند التعاهد خديعة لمن عاهدتموه"[6].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد لمن عاقدتموه {دَخَلا بَيْنَكُمْ} يقول: خديعة وغرورا ليطمئنوا إليكم وأنتم مضمرون لهم الغدر وترك الوفاء بالعهد والنُّقلة عنهم إلى غيرهم"[7].

عن قتادة :"{دَخَلا بَيْنَكُمْ}، قال: خيانة بينكم"[8].

قال ابن زيد:" يغرّ بها، يعطيه العهد يؤمنه وينزله من مأمنه، فتزلّ قدمه وهو في مأمن، ثم يعود يريد الغدر، قال: فأوّل بدو هذا قوم كانوا حلفاء لقوم تحالفوا، وأعطى بعضهم بعضا العهد، فجاءهم قوم قالوا: نحن أكثر وأعزّ وأمنع، فانقضوا عهد هؤلاء وارجعوا إلينا، ففعلوا.."[9].

قوله تعالى:{أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ} [النحل : ٩٢]، أي:" وتنقضون عهدكم إذا وجدتم جماعة أكثر مالا ومنفعة من الذين عاهدتموهم"[10].

قال قتادة:" أن يكون قوم أعزّ وأكثر من قوم"[11].

عن ابن عباس، قوله :"{أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}، يقول: أكثر"[12]. وفي رواية:" ناس أكثر من ناس"[13].

عن الضحاك:"{ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}، يقول: أكثر، يقول: فعليكم بوفاء العهد"[14].

قال مجاهد:" كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعزّ، فينقضون حِلْف هؤلاء، ويحالفون هؤلاء الذين هم أعزّ منهم، فنهوا عن ذلك"[15].

قال ابن زيد:" .. {وَلا تَنْقُضُوا الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا} {أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ} هي أربى: أكثر من أجل أن كانوا هؤلاء أكثر من أولئك نقضتم

---

(١) أخرجه الطبري:١٧/٢٨٣-٢٨٤.
(٢) أخرجه الطبري:١٧/٢٨٣-٢٨٤.
(٣) أخرجه الطبري:١٧/٢٨٤.
(٤) أخرجه الطبري:١٧/٢٨٤.
(٥) أخرجه الطبري:١٧/٢٨٥.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٧) تفسير الطبري:١٧/٢٨٦.
(٨) اخرجه الطبري:١٧/٢٨٦.
(٩) أخرجه الطبري:١٧/٢٨٧.
(١٠) التفسير الميسر:٢٧٦.
(١١) اخرجه الطبري:١٧/٢٨٦.
(١٢) اخرجه الطبري:١٧/٢٨٦.
(١٣) اخرجه الطبري:١٧/٢٨٦.
(١٤) اخرجه الطبري:١٧/٢٨٧.
(١٥) اخرجه الطبري:١٧/٢٨٦.

العهد فيما بينكم وبين هؤلاء، فكان هذا في هذا، وكان الأمر الآخر في الذي يعاهده فينزله من حِصْنه ثم ينكث عليه، الآية الأولى في هؤلاء القوم وهي مبدؤه، والأخرى في هذا"(١).

قال الماوردي:" أن [تكون] أكثر عدداً وأزيد مدداً ، فتطلب بالكثرة أن تغدر بالأقل بأن تستبدل بعهد الأقل عهد الأكثر . وأربى : أفعل الربا، قال الشاعر(٢):

وأسْمَرَ خَطِّيّ كأنَّ كُعُوبَهُ ... نَوى القسْبِ قد أرْبَى ذرَاعا على العَشْر"(٣).

قوله تعالى:{إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ} [النحل : ٩٢]، أي:" إنما يختبركم الله بما أمركم به من الوفاء بالعهود وما نهاكم عنه مِن نقضها"(٤).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إنما يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بعهد الله إذا عاهدتم، ليتبين المطيع منكم المنتهي إلى أمره ونهيه من العاصي المخالف أمره ونهيه"(٥).

قوله تعالى:{وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [النحل : ٩٢]، أي:" وليُبيِّنَنَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون في الدنيا من الإيمان بالله ونبوة محمد ﷺ"(٦).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وليبينن لكم أيها الناس ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه بمجازاة كلّ فريق منكم على عمله في الدنيا، المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته، {مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}، والذي كانوا فيه يختلفون في الدنيا أن المؤمن بالله كان يقرّ بوحدانية الله ونبوّة نبيه، ويصدق بما ابتعث به أنبياءه، وكان يكذّب بذلك كله الكافر فذلك كان اختلافهم في الدنيا الذي وعد الله تعالى ذكره عباده أن يبينه لهم عند ورودهم عليه بما وصفنا من البيان"(٧).

الفوائد:

١- من عاهد أحدا يجب عليه الوفاء ولا يجوز النقض والنكث لمنافع دنيوية أبدا.

٢- بيان ما ينقض البنيان من أساسه للحذر منه والتحرز عنه قال الله تعالى: {وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً ... } الآية.

وما من شك أن بيان النواقض للإيمان أو لكماله للحذر منها من الأمور البناءة لأنها حماية للبناء أن ينهدم، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: "كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني"(٨).

القرآن

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)} [النحل : ٩٣]

التفسير:

ولو شاء الله لوفَّقكم كلكم، فجعلكم على ملة واحدة، وهي الإسلام والإيمان، وألزمكم به، ولكنه سبحانه يُضلُّ مَن يشاء ممن علم منه إيثار الضلال، فلا يهديه عدلا منه، ويهدي مَن يشاء مِمَّن علم منه إيثار الحق، فيوفقه فضلا منه، وليسألنَّكم الله جميعًا يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم به، ونهاكم عنه، وسيجازيكم على ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري:٢٨٧/١٧.

(٢)البيت في اللسان: قسب) قال: القسب: التمر اليابس. يتفتت في الفم، صلب النواة قال الشاعر يصف رمحا: "وأسمر خطيا ... إلى آخر البيت" ... قال ابن بري: هذا البيت يذكر أنه لحاتم الطائي، ولم أجده في شعره. وأربى وأرمى: لغتان. ونوى القسب أصلب النوى. والخطى نسبة إلى الخط: بلد عند البحرين، مشهور بصنع الرماح. واستشهد المؤلف هنا بالبيت على أن معنى أربى: أكثر. وكذلك قال أبو عبيدة في مجاز القرآن :١/ ٣٦٧.

(٣) النكت والعيون:٢١١/٣.

(٤) التفسير الميسر:٢٧٦.

(٥) تفسير الطبري:٢٨٧/١٧.

(٦) التفسير الميسر:٢٧٦.

(٧) تفسير الطبري:٢٨٧/١٧.

(٨)صحيح البخاري، ج٨ كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، ص ٩٢، ٩٣.

قوله تعالى:{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [النحل : ٩٣]، أي:" ولو شاء الله لوفَّقكم كلكم، فجعلكم على ملة واحدة، وهي الإسلام والإيمان، وألزمكم به"(١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولو شاء ربكم أيها الناس للطف بكم بتوفية من عنده، فصرتم جميعًا جماعة واحدة، وأهل ملة واحدة لا تختلفون ولا تفترقون"(٢).

قال ابن كثير:" أي : لوفق بينكم. ولما جعل اختلافا ولا تباغُضَ ولا شحناء"(٣).

قوله تعالى:{وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [النحل : ٩٣]، أي:" ولكنه سبحانه يُضلُّ مَن يشاء ممن علم منه إيثار الضلال، فلا يهديه عدلا منه، ويهدي مَن يشاء مِمَّن علم منه إيثار الحق، فيوفقه فضلا منه"(٤).

قال الطبري:" ولكنه تعالى ذكره خالف بينكم، فجعلكم أهل ملل شتى، بأن وفَّق هؤلاء للإيمان به، والعمل بطاعته، فكانوا مؤمنين، وخذل هؤلاء فحَرَمهم توفيقه فكانوا كافرين"(٥).

قوله تعالى:{وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل : ٩٣]، أي:" وليسألنَّكم الله جميعًا يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم به، ونهاكم عنه، وسيجازيكم على ذلك"(٦).

قال الطبري:" وليسألنكم الله جميعا يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم ونهاكم، ثم ليجازينكم جزاء المطيع منكم بطاعته، والعاصي له بمعصيته"(٧).

قال ابن كثير:" ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم ، فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطْمير "(٨).

الفوائد:

١- الإيمان بالمشيئة: مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن، فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ الله تعالى إياه لا يكن لعدم مشيئة الله تعالى ليس لعدم قدرته عليه، قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}، ومنه قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان: ٣٠] وقال تعالى: {وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا - إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الكهف: ٢٣ - ٢٤] وقال تعالى: {مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ٣٩] {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [المائدة: ٤٨] {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا} [البقرة: ٢٥٣] {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ} [محمد: ٤] وقال تعالى: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هود: ١٠٧] وقال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢] {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: ٤٠] {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} [الأنعام: ١٢٥].

وغير ذلك من الآيات ما لا يحصى. وقال ﷺ: «قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء»(٩).

وقال ﷺ في نومهم في الوادي: «إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء»(١٠).

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٢) تفسير الطبري:٢٨٧/١٧.
(٣) تفسير ابن كثير:٦٠١/٤.
(٤) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٥) تفسير الطبري:٢٨٧/١٧.
(٦) التفسير الميسر:٢٧٦.
(٧) تفسير الطبري:٢٨٧/١٧.
(٨) تفسير ابن كثير:٦٠١/٤.
(٩)رواه مسلم (القدر / ١٧).
(١٠)رواه البخاري (٥٩٥، ١٤٧١).

وقال: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء»[١]، «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله وحده» ، وقال ﷺ: «من يرد الله تعالى به خيرا يفقهه في الدين»[٢].

وقال:«وإذا أراد الله تعالى رحمة أمة قبض نبيها قبلها، وإذا أراد الله هلكة أمة عذبها ونبيها حي»[٣] .

وغير ذلك من الأحاديث في ذكر المشيئة والإرادة ما لا يحصى.

٢- ومن الفوائد: إثبات القيامة والمعاد، لقوله تعالى:{وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.

القرآن

{وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)} [النحل : ٩٤]

التفسير:

ولا تجعلوا من الأيمان التي تحلفونها خديعة لمن حلفتم لهم، فتهلكوا بعد أن كنتم آمنين، كمن زلقت قدمه بعد ثبوتها، وتذوقوا ما يسوؤكم من العذاب في الدنيا؛ بما تسببتم فيه مِن مَنْع غيركم عن هذا الدين لما رأوه منكم من الغدر، ولكم في الآخرة عذاب عظيم.

قوله تعالى:{وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ} [النحل : ٩٤]، أي:" ولا تجعلوا من الأيمان التي تحلفونها خديعة لمن حلفتم لهم"[٤].

قال مقاتل:" بالمكر والخديعة"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولا تتخذوا أيمانكم بينكم دخلا وخديعة بينكم، تغرون بها الناس"[٦].

قال الحسن:" لا تصنعوا كما صنع المنافقون، فتظهروا الإيمان وتسروا الشرك"[٧].

قال السمعاني:" أي: سبب فساد بينكم"[٨].

قال البغوي:" أي: دخلا وخيانة وخديعة، و«الدخل»: ما يدخل في الشيء للفساد"[٩].

وفي قوله تعالى:{وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ} [النحل : ٩٤]، وجوه من التفسير[١٠]:

أحدها : أن «الدخل»: الغرور .

الثاني : أن «الدخل»: الخديعة .

الثالث : أنه الغل والغش .

الرابع : أن يكون داخل القلب من الغدر غير ما في الظاهر من لزوم الوفاء .

الخامس : أنه الغدر والخيانة ، قاله قتادة[١١].

السادس : أنه الحنث في الأيمان المؤكدة .

السابع: كل شيء وأمر لم يصح فهو دخل. قاله أبو عبيدة[١٢].

---

(١)رواه البخاري (١٤٣٢) ، ومسلم (البر والصلة / ١٤٥).
(٢)رواه البخاري (٧١، ٣١١٦، ٧٣٢١) ، ومسلم (الأمارة / ١٧٥).
(٣)رواه مسلم (الفضائل / ٢٤).
(٤) التفسير الميسر:٢٧٨.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٥/٢.
(٦) تفسير الطبري:٢٨٨/١٧.
(٧) حكاه عنه ابن ابي زمنين في تفسيره:٤١٧/٢.
(٨) تفسير السمعاني:١٩٨/٣.
(٩) تفسير البغوي:٤٠/٥.
(١٠) انظر: النكت والعيون:٢١١/٣.
(١١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٢٦٤٤):ص٢٣٠٠/٧.
(١٢) مجاز القرآن:٣٦٧/١.

قوله تعالى:{فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا} [النحل : ٩٤]، أي:" فتهلكوا بعد أن كنتم آمنين، كمن زلقت قدمه بعد ثبوتها"[١].

قال ابن ابي زمنين:" تزل إلى الكفر بعد ما كانت على الإيمان"[٢].

قال الطبري:" يقول: فتهلكوا بعد أن كنتم من الهلاك آمنين. وإنما هذا مثل لكل مبتلى بعد عافية، أو ساقطٍ في ورطة بعد سلامة، وما أشبه ذلك: زلَّت قدمه، كما قال الشاعر[٣]:
سيَمْنَعُ مِنْكَ السَّبْقُ إنْ كُنْتَ سابِقا ... وتُلْطَعُ إنْ زَلَّتْ بكَ النَّعْلانِ"[٤].

قال ابن كثير: هذا "مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى ، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام"[٥].

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم وحدت الـ«قدم» ونكرت؟

قلت: لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟"[٦].

عن الشعبي قال: قال ابن مسعود: "إياكم وأرأيت أرأيت، فإنما أهلك من كان قبلكم أرأيت، ولا تقيسوا شيئا بشيء {فتزل قدم بعد ثبوتها}، وإذا سئل أحدكم عما لا يدري، فليقل: لا أعلم، فإنه ثلث العلم"[٧].

وجاء في ذم الكلام: عن معاوية بن سلمة البصري عن ابن مسعود قال: "لا تمكن صاحب هوى من أذنيك فيقذف فيهما داء لا شفاء له. قال: وقال مصعب بن سعد: إما يمرض قلبك لتتابعه، وإما أن يؤذيك قبل أن تفارقه"[٨].

قوله تعالى:{وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [النحل : ٩٤]، أي:" وتذوقوا ما يسوؤكم من العذاب في الدنيا؛ بما تسببتم فيه مِن مَنْع غيركم عن هذا الدين لما رأوه منكم من الغدر"[٩].

قال مقاتل:" يعني :العقوبة بما منعتم الناس عن دين الله الإسلام "[١٠].

قال الطبري:" يقول: وتذوقوا أنتم السوء وذلك السوء: هو عذاب الله الذي يعذّب به أهل معاصيه في الدنيا، وذلك بعض ما عذّب به أهل الكفر، بما فَتنتم من أراد الإيمان بالله ورسوله عن الإيمان"[١١].

قال السمعاني:" يعني: سهلتم طريق نقض العهد على الناس بنقضكم العهد"[١٢].

قال الواحدي:" وذلك أنَّهم إذا نقضوا العهد لم يدخل غيرهم في الإسلام فيصير كأنهم صدُّوا عن سبيل الله وعن دين الله"[١٣].

قوله تعالى:{وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النحل : ٩٤]، أي:" ولكم في الآخرة عذاب عظيم"[١].

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٨.
(٢) تفسير ابن أبي زمنين:٤١٧/٢.
(٣)) في (اللسان: لطع) : اللطع أن تضرب مؤخر الإنسان برجلك. تقول: لطعته (بالكسر) ألطعه لطعا. وقوله تعالى: (فتزل قدم بعد ثبوتها) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن (١: ٣٦٧) : مثل يقال لكل مبتلى بعد عافية، أو ساقط في ورطة بعد سلامة ونحو ذلك: زلت قدمه.
(٤) تفسير الطبري:٢٨٨/١٧.
(٥) تفسير ابن كثير:٦٠٠/٤.
(٦) الكشاف:٦٣٢/٢-٦٣٣.
(٧)الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٩/ ٨٥٥٠) وذم الكلام (ص.٨٨) وهو في إعلام الموقعين (١/ ٥٧).
(٨)ذم الكلام :٤/ ٢٤ - ٢٥ طبعة الأنصاري.
(٩) التفسير الميسر:٢٧٨.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٥/٢.
(١١) تفسير الطبري:٢٨٨/١٧.
(١٢) تفسير السمعاني:١٩٩/٣.
(١٣) الوجيز:٦١٨.

قال الطبري:أي:" في الآخرة، وذلك نار جهنم، وهذه الآية تدلّ على أن تأويل بُرَيْدة الذي ذكرنا عنه، في قوله {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ}، والآيات التي بعدها، أنه عُنِيَ بذلك: الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، عن مفارقة الإسلام لقلة أهله، وكثرة أهل الشرك هو الصواب، دون الذي قال مجاهد أنهم عنوا به، لأنه ليس في انتقال قوم تحالفوا عن حلفائهم إلى آخرين غيرهم، صدّ عن سبيل الله ولا ضلال عن الهدى، وقد وصف تعالى ذكره في هذه الآية فاعِلِي ذلك، أنهم باتخاذهم الأيمان دَخَلا بينهم، ونقضهم الأيمان بعد توكيدها، صادّون عن سبيل الله، وأنهم أهل ضلال في التي قبلها، وهذه صفة أهل الكفر بالله لا صفة أهل النُّقْلة بالحلف عن قوم إلى قوم"(٢).

القرآن

{وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥)} [النحل : ٩٥]

التفسير:

ولا تنقضوا عهد الله؛ لتستبدلوا مكانه عرضًا قليلا من متاع الدنيا، إن ما عند الله من الثواب على الوفاء أفضل لكم من هذا الثمن القليل، إن كنتم من أهل العلم، فتدبَّروا الفرق بين خيْرَي الدنيا والآخرة.

قوله تعالى:{وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} [النحل : ٩٥]، أي:" ولا تنقضوا عهد الله؛ لتستبدلوا مكانه عرضًا قليلا من متاع الدنيا"(٣).

قال ابن كثير:" أي : لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عَرَض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له"(٤).

قال السمعاني:" يعني: شيئا يسيرا من عرض الدنيا"(٥).

قال البغوي:" يعني: لا تنقضوا عهودكم، تطلبون بنقضها عرضا قليلا من الدنيا، ولكن أوفوا بها"(٦).

قال الزمخشري:" كان قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان- لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين، وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد- أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، فثبتهم الله، {ولا تشتروا} ولا تستبدلوا {بعهد الله}، وبيعة رسول الله ﷺ {ثمنا قليلا}، عرضا من الدنيا يسيرا، وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا"(٧).

قوله تعالى:{إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [النحل : ٩٥]، أي:" إن ما عند الله من الثواب على الوفاء أفضل لكم من هذا الثمن القليل"(٨).

قال الزمخشري:أي:" من إظهاركم وتغنيمكم، ومن ثواب الآخرة خير لكم"(٩).

قال ابن كثير:" أي : جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه ، وحفظ عهده رجاء موعوده "(١٠).

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٨.
(٢) تفسير الطبري:٢٨٨/١٧.
(٣) التفسير الميسر:٢٧٨.
(٤) تفسير ابن كثير:٦٠٠/٤.
(٥) تفسير السمعاني:١٩٩/٣.
(٦) تفسير البغوي:٤١/٥.
(٧) الكشاف:٦٣٢/٢.
(٨) التفسير الميسر:٢٧٨.
(٩) الكشاف:٦٣٢/٢.
(١٠) تفسير ابن كثير:٦٠٠/٤.

قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [النحل : ٩٥]، أي:" إن كنتم من أهل العلم، فتدبَّروا الفرق بين خيْرَي الدنيا والآخرة"[١].

فوائد الآيتين:[٩٤-٩٥]:

١- بيان أجر من حفظ ذمة الله وذمة رسوله ﷺ، وكبر إثم من خفر ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه.

٢- حرمة اتخاذ الإيمان طريقا إلى الغش والخديعة والإفساد.

٣- أن الله تعالى توعد من جعل الإيمان خديعة وفسادا بين الناس بالعذاب العظيم.

القرآن

{مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)} [النحل : ٩٦]

التفسير:

ما عندكم من حطام الدنيا يذهب، وما عند الله لكم من الرزق والثواب لا يزول. ولنُثِيبنَّ الذين تحمَّلوا مشاق التكاليف -ومنها الوفاء بالعهد- ثوابهم بأحسن أعمالهم، فنعطيهم على أدناها، كما نعطيهم على أعلاها تفضُّلا.

قوله تعالى:{مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ} [النحل : ٩٦]، أي:" ما عندكم من حطام الدنيا يذهب"[٢].

قال الزمخشري:أي:" من أعراض الدنيا ينفد"[٣].

قال البغوي:" أي: الدنيا وما فيها يفنى"[٤].

قال ابن كثير:" أي : يفرغ وينقضي ، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدَّر مُتَناه"[٥].

قوله تعالى:{وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} [النحل : ٩٦]، أي:" وما عند الله لكم من الرزق والثواب لا يزول"[٦].

قال الزمخشري:أي:" من خزائن رحمته باق لا ينفد"[٧].

قال ابن كثير:" أي : وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول "[٨].

قوله تعالى:{وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل : ٩٦]، أي:" ولنُثِيبنَّ الذين تحمَّلوا مشاق التكاليف -ومنها الوفاء بالعهد- ثوابهم بأحسن أعمالهم، فنعطيهم على أدناها، كما نعطيهم على أعلاها تفضُّلا"[٩].

قال الزمخشري:أي:" الذين صبروا على أذى المشركين ومشاق الإسلام"[١٠].

قال ابن كثير:" قسم من الرب عز وجل مُتَلقى باللام ، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم ، أي : ويتجاوز عن سيئها "[١١].

عن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: "من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى"[١٢].

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٨.

(٢) التفسير الميسر:٢٧٨.

(٣) الكشاف:٦٣٢/٢.

(٤) تفسير البغوي:٤١/٥.

(٥) تفسير ابن كثير:٦٠١/٤.

(٦) التفسير الميسر:٢٧٨.

(٧) الكشاف:٦٣٢/٢.

(٨) تفسير ابن كثير:٦٠١/٤.

(٩) التفسير الميسر:٢٧٨.

(١٠) الكشاف:٦٣٢/٢.

(١١) تفسير ابن كثير:٦٠١/٤.

(١٢)أخرجه الحاكم في المستدرك: ٤ / ٣٠٨، وصححه على شرط الشيخين، فتعقبه الذهبي بأن فيه انقطاعا.

وقرئ: «لنجزين»، بالنون والياء[1].

الفوائد:

١- ما عند الله خير مما يحصل عليه الإنسان بمعصيته الرحمن من حطام الدنيا.

٢- عظم أجر الصبر على طاعة الله تعالى فعلا وتركا.

٣- الإيمان بأن الجنة والنار لا يفنيان، وأهل السنة يؤمنون بأن الجنة والنار لا يفنيان ولا يموت أهلوها.

القرآن

{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)} [النحل : ٩٧]

التفسير:

مَن عمل عملا صالحًا ذكرًا كان أم أنثى، وهو مؤمن بالله ورسوله، فلنحيينه في الدنيا حياة سعيدة مطمئنة، ولو كان قليل المال، ولنجزينَّهم في الآخرة ثوابهم بأحسن ما عملوا في الدنيا.

سبب النزول:

عن أبي صالح، قال: "جلس ناس من أهل الأوثان وأهل التوراة وأهل الإنجيل، فقال هؤلاء: نحن أفضل، وقال هؤلاء: نحن أفضل، فأنزل الله تعالى :"{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}"[2].

قوله تعالى:{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [النحل : ٩٧]، أي:" مَن عمل عملا صالحًا ذكرًا كان أم أنثى، وهو مؤمن بالله ورسوله"[3].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: من عمل بطاعة الله، وأوفى بعهود الله إذا عاهد من ذكر أو أنثى من بني آدم وهو مؤمن: يقول: وهو مصدّق بثواب الله الذي وعد أهل طاعته على الطاعة، وبوعيد أهل معصيته على المعصية"[4].

قال ابن كثير: «العمل الصالح»:"هو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه.. وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله"[5].

قال الربيع:" الإيمان: الإخلاص لله وحده، فبين أنه لا يقبل عملا إلا بالإخلاص له"[6].

قوله تعالى:{فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل : ٩٧]، أي:" فلنحيينه في الدنيا حياة سعيدة مطمئنة، ولو كان قليل المال"[7].

قال مقاتل:" يعني: حياة حسنة في الدنيا"[8].

وفي قوله تعالى:{فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل : ٩٧]، وجوه من التفسير:

أحدها : أنها الرزق الحلال ، قاله ابن عباس[9].

وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٤ / ٤١٢،١٧٥، والبيهقي في السنن: ٣ / ٣٧٠، وعزاه صاحب المشكاة له في "شعب الإيمان". قال الهيثمي: "رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجالهم ثقات". انظر: مجمع الزوائد: ١٠ / ٢٤٩، مشكاة المصابيح رقم (٥١٧٩) ، وكشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني: ١ / ٤٩١. وأخرجه البغوي في شرح السنة: ١٤ / ٢٣٩.

(١) انظر: الكشاف:٦٣٢/٢.

(٢) أخرجه الطبري:٢٩٣/١٧.

(٣) التفسير الميسر:٢٧٨.

(٤) تفسير الطبري:٢٨٩/١٧.

(٥) تفسير ابن كثير:٦٠١/٤.

(٦) أخرجه الطبري:٢٩١/١٧.

(٧) التفسير الميسر:٢٧٨.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٦/٢.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٦٤٨):ص٢٣٠١/٧.

قال ابن عباس:" الحياة الطيبة، الرزق الحلال في هذه الحياة الدنيا. وإذا صار إلى ربه جازاه بأحسن ما كان يعمل"[١].

وقال في رواية:" الكسب الطيب والعمل الصالح"[٢].

وقال الضحاك:" يأكل حلالا ويلبس حلالا"[٣].

الثاني : أنها القناعة، قاله علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-[٤]، وابن عباس[٥]، والحسن البصري[٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله:"{ فلنحيينه حياة طيبة}، قال: القنوع. قال: وكان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه، واخلف على كل غائبة لي بخير»"[٧].

الثالث : أن يكون مؤمناً بالله عاملاً بطاعته ، قاله الضحاك[٨].

قال الضحاك:" من عمل عملا صالحًا وهو مؤمن في فاقة أو ميسرة، فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن ولم يعمل صالحًا، عيشته ضنكة لا خير فيها"[٩].

الرابع : أنها السعادة ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً[١٠].

الخامس : أنها الجنة ، قاله الحسن[١١]، ومجاهد[١٢]، وقتادة[١٣]، وابن زيد[١٤].

قال الحسن:" ما تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة"[١٥].

قال مجاهد:" يحييهم حياة طيبة في الآخرة"[١٦].

السادس: الحياة هي أن ينزع من العبد تدبيره، ويرد إلى تدبير الحق فيه. قاله سهل بن عبدالله[١٧].

السابع: أن تكون الحياة الطيبة العافية والكفاية. أفاده الماوردي[١٨].

الثامن: أنها الرضا بالقضاء. أفاده الماوردي أيضا[١٩].

قال الطبري:" وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: فلنحيينه حياة طيبة بالقناعة، وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، ولم يعظم فيها نَصَبه ولم يتكدّر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها، وإنما قلت ذلك أولى التأويلات في ذلك بالآية، لأن الله تعالى ذكره أوعد قوما قبلها على معصيتهم إياه إن عصوه أذاقهم السوء في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فقال تعالى :{وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، فهذا لهم في الدنيا، ولهم في

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦٤٨):ص٧/٢٣٠١.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٢٦٤٩):ص٧/٢٣٠١.
(٣) أخرجه الطبري:١٧/٢٩٠.
(٤) انظر: تفسير الطبري:١٧/٢٩٠.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٦٥١):ص٧/٢٣٠١.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٧/٢٩٠.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦٥١):ص٧/٢٣٠١.
(٨) انظر: تفسير الطبري:١٧/٢٩٠-٢٩١.
(٩) أخرجه الطبري:١٧/٢٩٠-٢٩١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٦٥٠):ص٧/٢٣٠١.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٦٥٢):ص٧/٢٣٠١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:١٧/٢٩١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:١٧/٢٩١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري:١٧/٢٩١.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٢٦٥٢):ص٧/٢٣٠١.
(١٦) أخرجه الطبري:١٧/٢٩١.
(١٧) انظر: تفسير التستري:٩٢.
(١٨) انظر: النكت والعيون:٣/٢١٢.
(١٩) انظر: النكت والعيون:٣/٢١٢.

الآخرة عذاب عظيم، فهذا لهم في الآخرة. ثم أتبع ذلك لمَن أوفى بعهد الله وأطاعه فقال تعالى: ما عندكم في الدنيا ينفد، وما عند الله باق، فالذي هذه السيئة بحكمته أن يعقب ذلك الوعد لأهل طاعته بالإحسان في الدنيا، والغفران في الآخرة، وكذلك فَعَلَ تعالى ذكره، وأما القول الذي رُوي عن ابن عباس أنه الرزق الحلال، فهو مُحْتَمَل أن يكون معناه الذي قلنا في ذلك، من أنه تعالى يقنعه في الدنيا بالذي يرزقه من الحلال، وإن قلّ فلا تدعوه نفسه إلى الكثير منه من غير حله. لا أنه يرزقه الكثير من الحلال، وذلك أن أكثر العاملين لله تعالى بما يرضاه من الأعمال لم نرهم رُزِقوا الرزق الكثير من الحلال في الدنيا، ووجدنا ضيق العيش عليهم أغلب من السعة"(١).

قال ابن كثير:" الحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت"(٢).

عن عبد الله بن عَمرو أن رسول الله ﷺ قال : "قد أفلح من أسلم ورُزق كفافا ، وقَنَّعه الله بما آتاه"(٣).

عن فضالة بن عُبَيد ؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : "قد أفلح من هُدي إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافا ، وقنع به"(٤).

قوله تعالى:{وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل : ٩٧]، أي:" ولنجزينَّهم في الآخرة ثوابهم بأحسن ما عملوا في الدنيا"(٥).

قال ابن عباس:" إذا صاروا إلى الله جزاهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون"(٦).

قال ابن كثير:" هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا - وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه من ذكر أو أنثى من بني آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله - بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة"(٧).

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : "إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وأما الكافر فيعطيه حسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكن له حسنة يعطى بها خيرًا"(٨).

الفوائد:

١- أن الإيمان والعمل الصالح - الذي هو فرعه - يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار، إذ أخبر سبحانه أن أهل الأعمال الصالحة من المؤمنين يحييهم الله في الدنيا حياة طيبة ثم يجزيهم في الآخرة أجرهم على صالح أعمالهم.

٢- إن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته، وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره. وهذه هي الحياة الطيبة. فإن أصل الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح.

٣- إنما المقصود في حياة الدنيا توحيد الله تعالى، ومعرفته وخدمته، والإخلاص له، والاستلذاذ بذكره، والتذلّل لعظمته، والانقياد لأوامره، والإنابة إليه، والإسلام له، فإذا حصل هذا للعبد، فهو الحي، بل قد حصلت له الحياة الطيبة في الدارين، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ

---

(١) تفسير الطبري:٢٩٢/١٧.
(٢) تفسير ابن كثير:٦٠١/٤.
(٣)المسند (٢/ ١٦٨) وصحيح مسلم برقم (١٠٥٤).
(٤)سنن الترمذي برقم (٢٣٤٩)، وقال" هذا حديث صحيح".
(٥) التفسير الميسر:٢٧٨.
(٦)أخرجه الطبري:٢٩٢/١٧ .
(٧) تفسير ابن كثير:٦٠١/٤.
(٨)المسند (٣/ ١٢٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٨).

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ، فإذا فاته هذا المقصود فهو ميّت، قال تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف : ٣].

٤- ويستفاد من الآية: أنه من أسباب زيادة النعم على العبد: شكر الله سبحانه وتعالى، وكما قال في آية أخرى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم : ٧].

٥- إن الإسلام هو دين الله الذى أوحاه إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه، وهو إيمان وعمل: والإيمان يمثل العقيدة، والأصول التى تقوم عليها شرائع الإسلام، وعنها تنبثق فروعه، والعمل يمثل الشريعة، والفروع التى تعتبر للإيمان والعقيدة، والإيمان والعمل، أو العقيدة والشريعة كلاهما مرتبط بالآخر ارتباط الثمار بالأشجار، أو ارتباط المسببات بالأسباب، والنتائج بالمقدمات، ومن أجل هذا الترابط الوثيق يأتى العمل مقترنا بالإيمان فى أكثر آيات القرآن الكريم.

٦- وعد الصدق لمن آمن وعمل صالحا من ذكر وأنثى بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

القرآن

{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)} [النحل : ٩٨]

التفسير:

فإذا أردت -أيها المؤمن- أن تقرأ شيئًا من القرآن، فاستعذ بالله مِن شرِّ الشيطان المطرود من رحمة الله قائلا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قوله تعالى:{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ} [النحل : ٩٨]، أي:" فإذا أردت -أيها المؤمن- تلاوة القرآن"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا كنت يا محمد قارئًا القرآن"[٢].

قوله تعالى:{فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل : ٩٨]، أي:" فاستعذ بالله مِن شرِّ الشيطان المطرود من رحمة الله قائلا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"[٣].

قال الصابوني:" كيلا يوسوس لك عند القراءة فيصدَّك عن تدبر القرآن والعمل بما فيه"[٤].

قال يحيى بن سلام:" الرجيم: الملعون، رجمه الله باللعنة"[٥].

قال الحسن: "فنزلت في الصلاة ثم صارت سنة في غير الصلاة إذا أراد أن يقرأ، وليس بمفروض"[٦].

قال ابن زيد:" فهذا دليل من الله تعالى دلّ عباده عليه"[٧].

وفي المراد بـ(الشيطان) قولان:

أحدهما: أن المراد به: الشيطان المخصوص وهو إبليس الذي كانت قصته مع أبينا آدم-عليه السلام-.

والثاني: أن المراد به كل شيطان، أي: كل ما يصدق عليه هذا الاسم أو الوصف.

والقول الثاني أصح ، لأنه يدخل فيه الأول ويدخل فيه سائر الشياطين ، ومن المعلوم أن سائر الشياطين يصدون الإنسان عن طاعة الله .

---

(١) التفسير الميسر: ٢٧٨، وصفوة التفاسير:١٣٢/٢.
(٢)تفسير الطبري:٢٩٣/١٧ .
(٣) التفسير الميسر:٢٧٨.
(٤) صفوة التفاسير:١٣٢/٢.
(٥) تفسير يحيى بن سلام:٨٨/١.
(٦) تفسير يحيى بن سلام:٨٨/١.
(٧) أخرجه الطبري:٢٩٤/١٧.

وفي قوله تعالى:{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل : ٩٨]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها : فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله تعالى ، قاله الزجاج[١].

قال الزجاج:" مثله: إذا أكلت فقل بسم الله، ومثله في القرآن: {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُم} [المائدة : ٦]، فالهيئة قبل الصلاة، والمعنى إذا أردتم ذلك فافعلوا"[٢].

الثاني : فإذا كنت قارئاً فاستعذ بالله. قاله ابن جرير الطبري[٣].

الثالث : أنه من المؤخر الذي معناه مقدم ، وتقديره : فإذا استعذت بالله من الشيطان الرجيم فاقرأ القرآن. قاله الحارث بن أسد المحاسبي[٤].

اعترض ابن جرير الطبري على الوجه الاخير، وقال:" ولا وجه لما قال من ذلك، لأن ذلك لو كان كذلك لكان متى استعاذ مستعيذ من الشيطان الرجيم لزمه أن يقرأ القرآن، ولكن معناه ما وصفناه، وليس قوله {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}، بالأمر اللازم، وإنما هو إعلام وندب. وذلك أنه لا خلاف بين الجميع، أن من قرأ القرآن ولم يستعذ بالله من الشيطان الرجيم. قبل قرأته أو بعدها أنه لم يضيع فرضا واجبا"[٥].

قال ابن كثير:" هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ : إذا أرادوا قراءة القرآن ، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمرُ ندبٍ ليس بواجب ، حكى الإجماع على ذلك الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة، والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة ، لئلا يلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه ، ويمنعه من التدبر والتفكر ، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة وحكي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني : أنها تكون بعد التلاوة ، واحتجا بهذه الآية. ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضًا ، ومحمد بن سيرين ، وإبراهيم النَّخَعي. والصحيح الأول ، لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة ، والله أعلم"[٦].

وفي حكم «الإستعاذة» قولان:

أحدهما: أنها مستحبة: يرى أهل العلم بأن حكم الإستعاذة مستحبة قبل قراءة القرآن، قال الله تعالى:{ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } [النحل: ٩٨].

والثاني: أنها واجبة: وذلك، أخذًا بظاهر الأمر في الآية. عطاء بن أبي رباح، وابن حزم[٧].

والصحيح أنها مستحبة، فلا يضر تركها في الصلاة عمداً أو نسيانياً، وهو قول جمهور العلماء[٨].

أخرج الشافعي بسنده عن صالح بن أبي صالح: "أنه سمع أبا هريرة وهو يؤم الناس رافعا صوته: «ربنا إنا نعوذ بك من الشيطان الرجيم» ، في المكتوبة، «وإذا فرغ من أم القرآن» (أي: قبل السورة التالية)، قال الشافعي رحمه الله تعالى: وكان ابن عمر رضي الله عنهما يتعوذ في نفسه - أي سرا –"[٩].

وقال الشافعي رحمه الله: "وأحب أن يقول حين يفتتح قبل أم، القرآن: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» الآية، وأي كلام استعاذ به أجزأه"[١٠].

---

(١) انظر: معاني القرآن:١٥٢/٢، ٢١٨/٣.
(٢) معاني القرآن:٢١٨/٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري:٢٩٣/١٧-٢٩٤.
(٤) انظر: انظر: فهم القرآن: ٤٨٣، والنكت والعيون:٢١٣/٣.
(٥) تفسير الطبري:٢٠٣/١٧-٢٩٤.
(٦) تفسير ابن كثير:٦٠٢/٤.
(٧)انظر: تفسير ابن كثير: ١١٦/١.
(٨) انظر: المغني:١٤٥/٢.
(٩) تفسير الإمام الشافعي:١٨٥/١.
(١٠) تفسير الإمام الشافعي:١٨٧/١.

روي عن رفاعة بن رافع الزرقي، قال:جاء رجل ورسول الله ﷺ، في المسجد، فصلى قريبا منه، ثم انصرف إليه، فسلم عليه، فقال له رسول الله ﷺ: أعد صلاتك، فإنك لم تصل، قال: فرجع فصلى نحوا مما صلى، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أعد صلاتك، فإنك لم تصل، فقال: يا رسول الله، كيف أصنع؟ فقال: إذا استقبلت القبلة، فكبر، ثم اقرأ بأم القرآن، ثم اقرأ بما شئت، فإذا ركعت، فاجعل راحتيك على ركبتيك، وامدد ظهرك، ومكن لركوعك، فإذا رفعت رأسك، فأقم صلبك، حتى ترجع العظام إلى مفاصلها، فإذا سجدت، فمكن لسجودك، فإذا رفعت رأسك، فاجلس على فخذك اليسرى، ثم اصنع ذلك في كل ركعة وسجدة"(١).

قال ابن كثير : "وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة ، يأثم تاركها، وقال النووي : ثم إن التعوذ مستحب وليس بواجب، وهو مستحب لكل قارئ ، سواء كان في الصلاة أو في غيرها"(٢) .

ويدل على عدم الوجوب :

أولا: حديث أنس قال النبي ﷺ "أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ "(٣)، ولم يذكر الاستعاذة .

ثانيا: ولأن النبي ﷺ لم يعلمها الأعرابي حين علمه الصلاة(٤).

قال الإمام الجصاص(٥) : "والاستعاذة ليست بفرض، لأنَّ النبي -ﷺ- لم يعلمها الأعرابي الأعرابي حين علمه الصلاة، ولو كانت فرضًا لم يخله من تعليمها"(٦)، وقال الإمام ابن الجزري الجزري - رحمه الله(٧):-

وَاسْتُحِبَّ تَعَوُّذٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ يَجِبْ

أخرج الطبري بسنده عن عبد الله بن عباس ، قال : أول ما نزل جبريلُ على محمد قال : " يا محمد استعذ ، قل : أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم " ، ثم قال : قل : " بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّ الله الرحمن الرحيم " ، ثم قال : { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } [العلق : ١]. قال عبد الله : وهي أول سورة أنزلها الله على محمد بلسان جبريل"(٨).

وللإستعاذة مجموعة صيغ، منها:

الصيغة الأولى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

---

(١)أخرجه أحمد:(١٩٢٠٦):ص٣٤٠/٤، وأبو داود(٨٥٧)، و(٨٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير: ١١٣/١ .

(٣) أخرجه المسلم في الصلاة:٣٠٠/١.

(٤) أحكام القرآن للجصاص: ١٩١/٣. والحديث أخرجه البخاري(١٠):ص٢٠٧/١، ٢١٦، والمسلم(٤):ص٢٩٨/١.

(٥) انظر: أحكام القرآن: ١٣/٥.

(٦)يعني حديث المسيء صلاته، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رجلاً دخل المسجد ورسولُ الله - صلَّى صلَّى الله عليه وسلَّم - جالس في ناحية المسجد، فصلى ثم جاء فسلم عليه، فقال له رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: (وعليك السلام، ارجع فصلِّ، فإنك لم تصلِّ)، فرجع فصلى ثم جاء فسلم، فقال: (وعليك السلام، فارجع فصل، فإنك لم تصل)، فقال في الثانية أو في التي بعدها: علمني يا رسول الله فقال: (إذا قمت إلى الصلاة، فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة، فكبر ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تستوي قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها)؛ صحيح رواه البخاري (٥٨٩٧) (٢٣٠٧/٥)، (٧٦٠) (٢٧٤/١)، (٧٢٤) (٢٦٣/١)، (٦٢٩٠) (٢٤٥٥/٦)، ومسلم (٣٩٧) (٢٩٨/١).

(٧)النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ٢٥٣/١.

(٨) تفسير الطبري(١٣٧):ص١١٣/١ .

وعلى هذا اللفظ دل الكتاب والسنة. وسوف نسرد الأدلة في الترجيح.
الصيغة الثانية: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

يدل على هذا اللفظ، ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - في دعاء الرسول - ﷺ - إذا قام إلى الصلاة في الليل، وفيه: ثم يقول: "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم "(١).

كما استدل له بقوله - تعالى -: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[الأعراف:٢٠٠]، وبقوله- تعالى-: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[فصلت:٤٦].

وهي اختيار طائفة من القراء (٢) منهم حمزة (٣)، وسهل بن أبي حاتم (٤)، وهي مروية مروية عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - (٥) - وبها يقول الحسن البصري (٦).
ومحمد بن سيرين (٧)، والحسن بن صالح (٨)، والشافعي (٩)، وأحمد بن حنبل، في رواية النيسابوري (١٠).
الصيغة الثالثة: أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه.
يدل على هذا اللفظ، ما رواه أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قام إلى الصلاة بالليل كبر، ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، ثم يقول: "أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه"(١١).
الصيغة الرابعة: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفثه.

---

(١)أخرجه أحمد (٣): (٥٠)، وأبو داود - في الصلاة - باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك - حديث ٧٧٥، والترمذي- في أبواب الصلاة- باب ما يقول عند افتتاح الصلاة - حديث (٢٤٢) - قال الترمذي «وحديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب» والنسائي في الصلاة - باب نوع آخر من الذكر بعد افتتاح الصلاة ٢: ١٣٢، وابن ماجه في الإقامة الحديث (٨٠٤). وصححه أحمد شاكر في تحقيق سنن الترمذي ٢:١١، والألباني في «صحيح سنن أبي داود» حديث (٧٠١)، وحسنه الأرناؤوط في تحقيقه لزاد المعاد (١): (٢٠٥). وقد أخرج هذا الحديث من حديث عائشة أبو داود - الحديث (٧٧٦)، والترمذي - الحديث ٢٤٣، وابن ماجه في الإقامة الحديث (٨٠٦)، والدارقطني (١): (١١٢)، والحاكم ١: (٢٣٥) ورجاله ثقات فالحديث صحيح.
(٢)انظر: التبيان: ٦٤.
(٣)انظر «الإقناع في القراءات» (١): (١٥٠) - (١٥١)، «إغاثة اللهفان» ١: ١٥٣.
(٤)انظر «غرائب القرآن» (١): (١٥)، «النشر» (١): (٢٤٩).
(٥)أخرجها عن عمر ابن أبي شيبة - في الصلاة - التعوذ كيف هو (١): (٢٣٧).
(٦)أخرجها عن الحسن عبد الرزاق - في الصلاة - متى يستعيذ، الأثر (٢٥٩١)،´ وابن حزم في «المحلى» (٣): (٢٤٩).
(٧)انظر: إغاثة اللهفان: ١٥٣/١.
(٨) المجموع: ٣٢٥/٣.
(٩)انظر «أحكام القرآن» للشافعي (١): (٦٢)، «المجموع» ٣: ٣٢٣.
(١٠)انظر «مسائل الإمام أحمد» للنيسابوري ص٥٠ فقرة (٢٣٨)، «المغني» (٢): (١٤٦)، «إغاثة اللهفان» ١: ١٥٣.
(١١)أخرجه أحمد (٣): (٥٠)، وأبو داود - في الصلاة - باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك - حديث ٧٧٥، والترمذي- في أبواب الصلاة- باب ما يقول عند افتتاح الصلاة - حديث (٢٤٢) - قال الترمذي «وحديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب» والنسائي في الصلاة - باب نوع آخر من الذكر بعد افتتاح الصلاة ٢: ١٣٢، وابن ماجه في الإقامة الحديث (٨٠٤). وصححه أحمد شاكر في تحقيق سنن الترمذي ٢:١١، والألباني في «صحيح سنن أبي داود» حديث (٧٠١)، وحسنه الأرناؤوط في تحقيقه لزاد المعاد (١): (٢٠٥). وقد أخرج هذا الحديث من حديث عائشة أبو داود - الحديث (٧٧٦)، والترمذي - الحديث ٢٤٣، وابن ماجه في الإقامة الحديث (٨٠٦)، والدارقطني (١): (١١٢)، والحاكم ١: (٢٣٥) ورجاله ثقات فالحديث صحيح.

يدل على ما راوه عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال:"اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفثه"(١).

وهي مروية عن بعض أهل العلم، منهم الحسن البصري (٢)، وإسحاق بن راهويه(٣).

الصيغة الخامس: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم(٤).

جمعًا بين أدلة الصيغة الأولى، وأدلة الصيغة الثانية والثالثة.

وبها قرأ نافع وابن عامر والكسائي(٥)، وهي مروية عن حمزة وعن أبي عمرو(٦) وقد رُويت عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ومحمد بن سيرين(٧).

وهي اختيار سفيان الثوري(٨)، والأوزاعي(٩)، ومسلم بن يسار(١٠)، وأحمد في رواية، اختارها القاضي أبو يعلى، وابن عقيل(١١).

الصيغة السادسة: أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم.

لما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - أنه كان إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم"(١٢).

وهناك ألفاظ أخرى(١٣)، واللفظ الأول مقدم واختار هذه الصيغة أكثر العلماء، لثلاثة أسباب:

---

(١)أخرجه ابن ماجه - في إقامة الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة - حديث (٨٠٨)، وأبن خزيمة- في الصلاة- الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة قبل القراءة حديث (٤٧٢). وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» حديث (٦٥٨). وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف - في الصلاة - التعوذ كيف هو (١): (٢٣٨).

(٢)أخرجها عن الحسن عبد الرزاق في الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة، الأثر ٢٥٨٠.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان: ١٥٤/١. وقد أخرج عبد الرزاق في الموضع السابق، الأثر ٢٥٧٧، وابن حزم في «المحلي» ٢٤٩:٣ عن ابن عمر أنه كان يقول: «للهم أعوذ بك من الشيطان الرجيم».

(٤)انظر «غرائب القرآن» (١): (١٥)، «إغاثة اللهفان» (١): (١٥٤).

(٥)انظر «الإقناع في القراءات السبع» (١): (١٥٠)، «المبسوط» (١): (١٣).

(٦) انظر: النشر: ٢٥١/١.

(٧) انظر: النشر: ١٠/١.

(٨)انظر «التفسير الكبير» ١: (٦١)، «المجموع» ٣: ٣٣٥، «إغاثة اللهفان» (١): (١٥٤)، «تفسير ابن كثير» ١: ٣٢، «النشر» ١: (٢٥٠).

(٩)انظر «التفسير الكبير» ٦١:١، «لباب التأويل» ١: (١٠)، «تفسير ابن كثير» ١: (٣٢).

(١٠)أخرجها عنه ابن أبي شيبة في المصنف في الصلاة- في التعوذ كيف هو (١): ٢٣٧، وانظر «إغاثة اللهفان» (١): (١٥٤)، «النشر» (٢) ٥٠.

(١١)انظر «المغني» (٢): (١٤٦)، «إغاثة اللهفان» ١٥٢:١، ١٥٤.

(١٢)أخرجه أبو داود في الصلاة - الحديث ٤٤١ وصححه الألباني. وانظر «النشر» ٢٥١:١.

(١٣)وهناك صيغ أخرى رويت عن بعض القراء، وبعض أهل العلم.

- منها: أعوذ بالله العظيم، من الشيطان الرجيم [ذكرها ابن الباذش في «لإقناع في القراءات السبع» ١٤٩:١، وقال: «هي رواية أهل مصر عن ورش فيما ذكر الأهوازي». وانظر «النشر» ٢٤٩:]..

- ومنها: أعوذ بالله العظيم، السميع العليم، من الشيطان الرجيم[رواها هبيرة عن حفص فيما ذكر ابن الباذش في «الإقناع» ١٥٠:١، وانظر «المبسوط» ١٣:١].

- ومنها: أعوذ بالله العظيم، من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم.[انظر «النشر» ٢٥٠:١].

-ومنها: أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم [انظر «المجموع» ٣٢٥:٣].

-ومنها: أستعيذ بالله، أو نستعيذ بالله، من الشيطان الرجيم [نسبت لحمزة الزيات ومحمد بن سيرين. انظر «المبسوط» ١٣:١، «مجمع البيان» ١٨:١، «غرائب القرآن» للنيسابوري ١٥:١، وقد نفى ابن الجزري صحتها عن حمزة. انظر «النشر» ٢٤٦:١].

-ومنها: أعوذ بالله القوي، من الشيطان الغوي.[قال ابن الباذش في «الإقناع» ١٥١:١ «اختارها بعضهم لجميع القراء»].

-ومنها: أعوذ بالله المجيد، من الشيطان المريد.[انظر «تفسير ابن عطية» ٤٩:١].

-ومنها أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأستفتح الله وهو خير الفاتحين.[انظر «النشر» ٢٥١:١].

-ومنها أعوذ بالله السميع، الرحمن الرحيم، من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك رب أن يحضرون، أو يدخلوا بيتي الذي يؤويني .[أخرجها عبد الرازق عن عطاء- في الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة- حديث ٢٥٧٤].

أحدها: لأنها الصيغة التي جاءت بالقرآن(١).
والثاني: وهو الذي ورد في السنة كما في حديث سليمان بن صُرد قال "اسْتَبَّ رَجُلاَنِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ ، مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً ، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ ، لَوْ قَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " (٢).
والثالث: أن هذه الصيغة هي المختارة عند أكثر القراء(٣)،منهم: أبو عمرو البصري، وعاصم بن أبي النجود الكوفي، وعبد الله ابن كثير المكي(٤) وبها كان يتعوذ جمهور السلف من الصحابة والتابعين منهم: عمر بن الخطاب وابنه عبد الله بن عمر (٥) -رضي الله عنهما-، وهي اختيار: أبي حنيفة (٦)، والشافعي(٧)، وأحمد بن حنبل(٨) - رحمهم الله.

قال ابن عطية : "وأما لفظ الاستعاذة ، فالذي عليه جمهور الناس ، هو لفظ كتاب الله تعالى(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)"(٩).

قال مكي:" الذي عليه العمل وهو الاختيار أن يقول القراء: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. للآية"(١٠).

ويُسَرُّ بالاستعاذة في الحالات الآتية:
١-عند القراءة سرًّا، سواء كان القارىء منفردا أم في مجلس.
وعند القراءة خاليًا، سواء أَقَرَأَ القارئ سرًّا أم جهرًا.
٢ -وفي الصلاة سريةً كانت أم جهرية.
٣- وإن كان القارئ وسط قوم يتدارسون القرآن ولم يكن القارئُ المبتدئَ بالقراءة.

ويستحب الجهر بالاستعاذة إذا كان القارئ يقرأ جهرًا، وكان هناك من يستمع إليه، وفي حالة التعليم والمدارسة عندما يكون القارئ المبتدئَ بالقراءة(١١).

وتشرع الاستعاذة في مواضع، منها :
١- عند قراءة القرآن:
قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل : ٩٨].

-ومنها: رب أعوذ بك من همزات الشيطان، وأعوذ بك رب أن يحضرون، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم[أخرجها عبد الرزاق - في الصلاة - باب الاستعاذة في الصلاة - حديث ٢٥٧٨ من طاووس].
-ومنها: أعوذ بالله السميع العليم من همزات الشياطين، وأعوذ بالله أن يحضرون.[أخرجها ابن أبي شيبة في الصلاة - في التعوذ كيف هو، ١:٢٣٨عن محمد بن سيرين].
وهذه الصيغ وإن رويت عن بعض السلف، فإن أقل أحوالها الجواز، وما صح عن المصطفى - صلى الله عليه وسلم - هو الأولى بالأتباع.[انظر: اللباب في تفسير الإستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب:٢١].
(١)الجامع لأحكام القرآن : ١ / ٦٢
(٢)رواه البخاري (٦١١٥) ، ومسلم (٢٦١٠).
(٣) انظر: النشر: ٢٤٣/١، واللباب في تفسير الإستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب: ١٤.
(٤)انظر «المبسوط» ١: ١٣، «غرائب القرآن» للنيسابوري ١: ١٥، «مجمع البيان» ١: ١٨
(٥)أخرجها عن عمر- ابن أبي شيبة - في الصلاة - في التعوذ كيف هو قبل القراءة أو بعدها (١): (٢٣٧)، والبيهقي في الصلاة، باب التعوذ بعد الافتتاح (٢): ٣٦. وأخرجها عن عبد الله ابن عمر ابن أبي شيبة في الموضع نفسه.
(٦)انظر «فتح القدير» لابن الهمام ١: ٢٩١، «النشر» ١: (٢٤٣).
(٧)انظر «الأم» ١: ١٠٧، «أحكام القرآن» للشافعي (١): (٦٢)، «المهذب» للشيرازي ا: (٧٩)، «التبيان» للنووي ص٦٤، «تفسير ابن كثير» ١: ٢٤٣.
(٨)انظر «المغني» (٢): (١٤٦)، «إغاثة اللهفان» (١): (١٥٣)، «النشر» (١): (٢٤٣).
(٩) تفسير ابن عطية: ٥٥/١.
(١٠)الكشف عن وجوه القراءات السبع : ١/ ٨، وانظر أيضًا «التبصرة» لمكي ص٢٤٦، «الإقناع في القراءات السبع» ١:١٥١.
(١١)انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبدالفتاح القاضي، دار الكتاب العالمي: ١٢.

٢- عند حصول نزغ من الشيطان ووسوسة .
قال تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف : ٢٠٠].
٣- عند ما يوسوس الشيطان للمسلم في معتقده بربه .
لحديث أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : "لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق اللهُ الخلقَ ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله"(١).
وقال رسول الله ﷺ : " يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول من خلق السماء ؟ من خلق الأرض ؟ فيقول : الله ، - ثم ذكر بمثله - وزاد : " ورسله. "
وقال رسول الله ﷺ : " يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له من خلق ربَّك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته. "
وقال رسول الله ﷺ : " يأتي العبد الشيطان فيقول من خلق كذا وكذا ؟ "(٢).
٤- ومنها : عند ما يُلبس الشيطان على الإنسان في صلاته .
لحديث عثمان بن أبي العاص أنه أتى النبي ﷺ فقال : " يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا" قَالَ : فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللَّهُ عَنِّي "(٣).
٥- ومنها: عند الغضب .
لحديث سليمان بن صُرد قال "اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ ، مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً ، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ ، لَوْ قَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " (٤).
٦- ومنها : عندما يرى الإنسان رؤيا يكرهها .
لحديث أبي قتادة . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول "الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ حُلْمًا يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ "(٥).
٧- ومنها : عند نزول منزل .
لحديث خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول:" مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ "(٦).
٨-ومنها : عند دخول الخلاء .
لحديث أنس "أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا دخل الخلاء، قال :اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من الخُبُثِ"(٧).
وأما الحكمة من الاستعاذة قبل القراءة، فنقول(٨):
أولاً : أن القرآن شفاء لما في الصدور يُذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات .
ثانياً : أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته ، والشيطان ضد الملك وعدوه ، فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه .
ثالثاً : أن الشيطان يُجلب بخيله ورجله على القارئ حتى يشغله عن المقصود بالقرآن .

(١) صحيح مسلم(١٣٤):ص١٢٠/١.
(٢) الأحاديث رواها جميعا الامام مسلم: ١٣٤.
(٣) رواه مسلم: ٢٢٠٣.
(٤)رواه البخاري (٦١١٥) ، ومسلم (٢٦١٠).
(٥)رواه مسلم (٢٢٦١).
(٦) رواه مسلم: (٢٧٠٨).
(٧) رواه البخاري(٦٣٢٢)، اللفظ له ومسلم: ٣٧٥.
(٨) انظر: إغاثة اللهفان : ١ / ١٠٧ .

رابعاً : أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه.
الفوائد:
١-مشروعية الاستعاذة دائماً من الشيطان.
٢- فيه دليل على أن الإنسان ينبغي أن يطلب العون من الله على الطاعة وعلى مجاهدة عدوه
٣- وفيه دليل على اعتراف العبد بالعجز وقدرة الرب.
٤-وفيه أنه لا وسيلة إلى القرب من الله إلا بالعجز والانكسار.
٥- وفيه الإقرار بالفقر التام للعبد ، والغنى التام لله سبحانه وتعالى.

القرآن
{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩)} [النحل : ٩٩]
التفسير:
إن الشيطان ليس له تسلُّطٌ على المؤمنين بالله ورسوله، وعلى ربهم وحده يعتمدون.
قوله تعالى:{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا} [النحل : ٩٩]، أي:" إن الشيطان ليس له تسلُّطٌ على المؤمنين بالله ورسوله"[١].
وفي معنى «السلطان» وجوه[٢]:
أحدها : الحجة ، ومنه سمي الوالي سلطاناً لأنه حجة الله تعالى في الأرض .
الثاني : أنها القدرة ، مأخوذ من السُّلْطَة ، وكذلك سمي السلطان سلطاناً لقدرته.
الثالث: أنه الملك. قاله مقاتل[٣].
قال الطبري: " يعني بذلك: أن الشيطان ليست له حجة على الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمر الله به وانتهوا عما نهاهم الله عنه"[٤].
قوله تعالى:{وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل : ٩٩]، أي:" وعلى ربهم وحده يعتمدون فيما نابهم من شدائد"[٥].
قال الطبري: " يقول: وعلى ربهم يتوكلون فيما نابهم من مهمات أمورهم"[٦].
وفي تفسير قووله تعالى:{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل : ٩٩]، أربعة أقوال:
أحدها : ليس له قدرة على أن يحملهم على ذنب لا يغفر ، قاله سفيان[٧].
الثاني : ليس له حجة على ما يدعوهم إليه من المعاصي ، قاله مجاهد[٨].
الثالث : ليس له عليهم سلطان لاستعاذتهم بالله منه ، لقوله تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت : ٣٦]. ذكره الطبري عن آخرين[٩].
الرابع : أنه ليس له عليهم سلطان بحال لأن الله تعالى صرف سلطانه عنهم حين قال عدو الله إبليس : {وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)} [الحجر : ٣٩ - ٤٠] فقال الله تعالى : {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الحجر : ٤٢]. وهذا قول الربيع[١٠]، وبه قال يحيى بن سلام[١١].

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٨.
(٢) انظر: النكت والعيون:٢١٣/٣.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سسليمان:٤٨٦/٢.
(٤) تفسير الطبري:٢٩٤/١٧.
(٥) التفسير الميسر: ٢٧٨، وصفوة التفاسير:١٣٢/٢.
(٦) تفسير الطبري:٢٩٤/١٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري:٢٩٤/١٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٢٩٤/١٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٢٩٤/١٧.
(١٠) انظر: انظر: تفسير الطبري: ٢٩٥/١٧.
(١١) انظر: تفسير يحيى بن سلام:٨٩/١، والنكت والعيون:٢١٣/٣.

القرآن

{إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)} [النحل : ١٠٠]

التفسير:

إنما تسلُّطه على الذين جعلوه مُعينًا لهم وأطاعوه، والذين هم -بسبب طاعته- مشركون بالله تعالى.

قوله تعالى: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} [النحل : ١٠٠]، أي:" إنما تسلُّطه على الذين جعلوه مُعينًا لهم وأطاعوه"(١).

قال الطبري: " يقول: إنما حجته على الذين يعبدونه"(٢).

قال ابن عباس:" السلطان على من تولى الشيطان وعمل بمعصية الله"(٣).

عن مجاهد:"{يَتَوَلَّوْنَهُ}، قال: يطيعونه"(٤).

قال قتادة:" يقول: الذين يطيعونه ويعبدونه"(٥).

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل : ١٠٠]، أي:" والذين هم -بسبب طاعته- مشركون بالله تعالى"(٦).

قال الطبري: " يقول: والذين هم بالله مشركون"(٧).

وفي قوله تعالى:{وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل : ١٠٠]، ثلاثة وجوه:

أحدها : والذين يعدلون بربّ العالمين، قاله مجاهد(٨)، والضحاك(٩).

الثاني : والذين أشركوا الشيطان في أعمالهم ، قاله الربيع بن أنس(١٠).

الثالث : والذين هم من أجل الشيطان وطاعته مشركون بالله، قاله ابن قتيبة(١١).

قال ابن قتيبة:" يقال: سار فلان بك عالما، أي سار من أجلك"(١٢).

قال الطبري:" والقول الأوّل، أعني قول مجاهد، أولى القولين(١٣) في ذلك بالصواب، وذلك أن الذين يتولون الشيطان إنما يشركونه بالله في عبادتهم وذبائحهم ومطاعمهم ومشاربهم، لا أنهم يشركون بالشيطان. ولو كان معنى الكلام ما قاله الربيع، لكان التنزيل: الذين هم مشركوه، ولم يكن في الكلام به، فكان يكون لو كان التنزيل كذلك، والذين هم مشركوه في أعمالهم، إلا أن يوجه موجه معنى الكلام، إلى أن القوم كانوا يدينون بألوهة الشيطان، ويشركون الله به في عبادتهم إياه، فيصحّ حينئذ معنى الكلام، ويخرج عما جاء التنزيل به في سائر القرآن، وذلك أن الله تعالى وصف المشركين في سائر سور القرآن أنهم أشركوا بالله، ما لم ينزل به عليهم سلطانا، وقال في كلّ موضع تقدّم إليهم بالزجر عن ذلك، لا تشركوا بالله شيئا، ولم نجد في شيء من التنزيل: لا تشركوا الله بشيء، ولا في شيء من القرآن. خبرا من الله عنهم أنهم أشركوا الله بشيء فيجوز لنا توجيه معنى قوله: {وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} إلى والذين هم

---

(١) التفسير الميسر:٢٧٨.

(٢) تفسير الطبري:٢٩٤/١٧.

(٣) أخرجه الطبري:٢٩٥/١٧.

(٤) أخرجه الطبري:١٧/ ٢٩٤.

(٥) أخرجه الطبري:٢٩٥/١٧.

(٦) التفسير الميسر:٢٧٨.

(٧) تفسير الطبري:٢٩٤/١٧.

(٨) انظر: تفسير الطبري:٢٩٥/١٧-٢٩٦.

(٩) انظر: تفسير الطبري:٢٩٦/١٧.

(١٠) انظر: تفسير الطبري:٢٩٦/١٧.

(١١) انظر: غريب القرآن: ٢٤٨-٢٤٩.

(١٢) غريب القرآن:٢٤٩.

(١٣) ذكر الطبري القولين، وأضفنا قولا ثالثا لابن قتيبة.

بالشيطان مشركو الله. فبين إذًا إذ كان ذلك كذلك، أن «الهاء» في قوله {وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ} عائدة على الربّ في قوله {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}"(١).

فوائد الآيتين:[٩٩-١٠٠]:

١- بيان أنه لا تسلط للشيطان على المؤمنين المتوكلين على ربهم، فإن الإيمان يفيض على النفس إشراقا، ويملأ القلوب نورا، وإذا أشرقت النفس واستنار القلب، انمحى كل ما يوسوس به الشيطان.

٢- يستفاد من الفائدة السابقة: أن الإيمان الصادق عصمة لصاحبه من تسلط الشيطان عليه إلى النهاية.

٣- الشيطان لا سلطان له إلا على من يتولاه، فإن سلطان الشيطان على أوليائه العاملين بطاعته المشركين بربهم.

٤- مسألة تسليط الشيطان وأن الله عز وجل ابتلى به العباد فجعله موسوساً، وجعله فتنة للخلق إلى يوم القيامة هذه من الأمور المحققة شرعاً، ولابد من التنويه عنها والإشارة إليها دائماً؛ لأن أكثر الذين يتحدثون عن انحراف البشر الآن، وحتى عن انحراف المسلمين وما عندهم من معاصٍ وفجور وتقصير في حق الله عز وجل وإعراض عن دين الله عز وجل، كثير من الذين يعالجون هذه القضايا حتى ممن ينتسبون للعلم الشرعي، يغفلون عن هذا، خاصة أصحاب الدراسات الاجتماعية والنفسية وغير ذلك، وينسون هذه القضية وهي قضية أن الله عز وجل ابتلى العباد بالشيطان ووساوس الشيطان، فتجدهم يتكلفون في كثير من أسباب الغواية والضلال والانحراف والفساد وغير ذلك، وينسون هذه القضية قضية تسليط الشيطان على بني آدم، وأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأن له سلطاناً على الذين يتولون الذين يغفلون عن ذكر الله عز وجل، وأن أعظم أسباب الانحراف هو كيد الشيطان.

فينبغي التنويه عن هذه المسألة والإشارة إليها والتنبيه عليها من الذين يتولون هذه الأمور من الوعاظ والدارسين، وأيضاً من المختصين في علاج المشكلات الاجتماعية والحسبة وغيرها، فكثير من الذين يتناولون هذه القضية يحتاجون إلى تنبيه الناس إلى أن مكائد الشيطان عظيمة، وأن الشيطان يخالط الأفراد، ويخالط الأسر في بيوتها، ويخالط الناس في مجالسهم إذا لم يذكروا الله عز وجل وغفلوا عن الأسباب الشرعية التي تطرد الشيطان(٢).

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء الواحد والعشرون من التفسير ويليه الجزء الثاني والعشرون بإذن الله، وبدايته تفسير الآية (١٠١) من سورة «النحل».

---

(١) تفسير الطبري:٢٩٦/١٧.

(٢) انظر: شرح عقيدة السلف أصحاب الحديث، ناصر بن عبد الكريم العلي العقل، ١٧،٦. [دروس صوتية مرقم آليا].